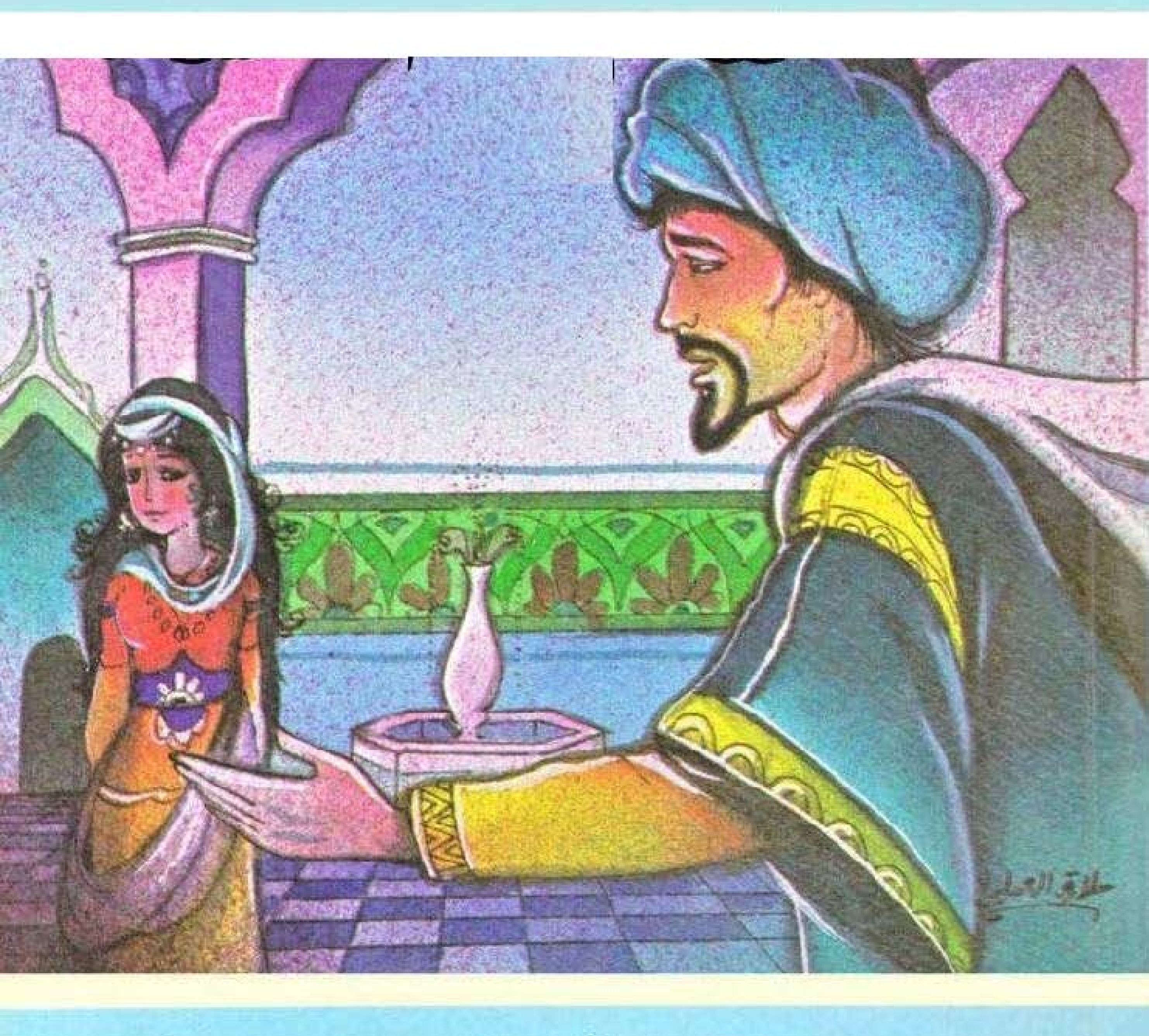
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

الأمير العاشق



دار الأندلس

الأمِيرُ العَاشِق

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

الأمير العاشق

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

مات الرشيد فبويع للامين بالخلافة في طوس ، وكتب صاحب البريد الى نائبه في بغداد ، سلام ابي مسلم ينعى له امير المؤمنين

فلما انتهى النعي الى سلام ، دخل على الامين فعزاه وهنأه ، فكان اول الناس فعل ذلك

وكتب صالح بن الرشيد الى اخيه ، ينقل اليه خبر الوفاة ، وبعث بكتابه مع رجاء الخادم وارسل معه خاتم الخلافة والبردة والقضب

وكان الامين في قصره الذي يدعى قصر الخلد ، فلما وصل رجاء ،في اليوم الرابع عشر من شهر جمادى الاخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة ، كتم الامين الخبر بقية يومه ، ثم اظهره يوم الجمعة وصعد المنبر فنعى اباه ،وعزى نفسه والناس ، ووعدهم وعود الخير واعطى جند بغداد أجر اربعة وعشرين شهراً ثم دعا الناس الى بيعته ، فبايعوه ، وتربع في العرش

وكان بكر بن المعتمر في سجن طوس ، وقد لبث فيه اشهراً ، فلما مات الرشيد اخرجه الفضل بن الربيع وقال له :

لقد مات الرشيد ، وكنت قد قلت لي ان عندك اشياء واشياء تبوح بها فهات لنرى

فخاف الرجل ان يكون الرشيد حياً ، فقال : احب ان ارى امير المؤمنين

قال : ان امير المؤمنين الامين في بغداد وقد بويع له امس وارسلت اليه الرسل فاذكر اشياءك الان

فأيقن بكر بان الفضل ليس كاذباً فقال :

ان معي كتباً لك،وللاميرين عبد الله المأمون وصالح ، قال : ان المأمون في مرو حاضرة خراسان فاعط كتابي واعطي صالحاً كتابه

وقد كتب الامين الى الفضل ، يأمره بان يحتاط للامر من جميع نواحيه ويحتفظ بما ترك الرشيد من سلاح ومال.

ونحن نثبت لك هنا ، الكتابين اللذين بعث بهما الامين الى اخويه .

ورد في كتابه الى المأمون :

« واعلم ان الله جل ثناؤه قد اختار لامير المؤمنين افضل الدارين وأجزل الحظين فقبضه طاهراً قد شكر سعيه وغفر ذنبه ان شاء الله ، فقم في امرك قيام ذي الحزم والعزم ، والناظر لاخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين ، واياك ان يغلب عليك الجزع فانه يحط الاجر ويعقب الوزر ، وصلوات الله على امير المؤمنين حياً وميتاً وانا لله وانا اليه راجعون ، وخذ البيعة على من قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لاخيك ثم لنفسك ثم للقاسم ابن امير المؤمنين على الشريطة التي جعلها لك امير المؤمنين من نسخها له واثباتها فانك مقلد من ذاك ما قلدك الله وخليفته

واعلم من قبلك رأيي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم فمن انكرته عند بيعته واتهمته على طاعته فابعث الي برأسه مع خبره ، واياك واقالته فان النار اولى به ، واكتب الى عمال ثغورك وامراء اجنادك بما طرقك من المصيبة بامير المؤمنين واعلمهم ان الله لم يرض الدنيا له ثواباً حتى قبضه الى روحه وراحته وجنته مغبوطاً محموداً قائداً لجميع خلفائه الى الجنة ان شاء الله ، ومرهم بان يأخذوا البيعة على اجنادهم وعلى خواصهم وعوامهم على مثل ما امرتك به من اخذها واوعز اليهم في ضبط ثغورهم والقوة على عدوهم ولتكن كتبك اليهم كتباً عامة لتقرأ عليهم فان ذلك ما يسكنهم ويبسط املهم ، واعمل بما نأمر به لمن حضرك فان اخاك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ويسأله ان يشد بك عضده ويجمع بك امره انه لطيف لما يشاء »

وهذا بعض ما جاء في كتابه الى صالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، اذا ورد عليك كتابي هذا عند وقوع ما سبق في علم الله ، ونفذ من قضائه في خلفائه واوليائه وجرت به سنته في الانبياء

والمرسلين والملائكة والمقربين فقال : كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون ، فاحمدوا الله على ما صار اليه امير المؤمنين من عظيم ثوابه ومرافقة انبيائه وصلوات الله عليهم انا اليه راجعون ، واياه نسأل ان يحسن الخلافة على امة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان لهم عصمة وكهفاً وبهم رءوفاً رحيما ، فتسمر في امرك واياك ان تلقي بيديك فان اخاك قد اختارك لما استنهضك له فحقق ظنه ونسأل الله التوفيق

وخذ البيعة على من قبلك من ولد امير المؤمنين واهل بيته ومواليه وخاصته وعامته لمحمد امير المؤمنين ثم لعبد الله ابن امير المؤمنين ثم للقاسم ابن امير المؤمنين على الشريطة التي جعلها امير المؤمنين صلوات الله عليه من فسخها على القاسم أو اثباتها فان السعادة واليمن في الاخذ بعهده والمضي على مناهجه

وأعلم من قبلك من الخاصة والعامة رأيي في استصلاحهم ورد مظالمهم وتفقد حالاتهم ، واداء ارزاقهم فان شغب شاغب فاسطط به سطوة تجعله نكالا وموعظة للمتقين

واضمم الى الميمون ابن الميمون الفضل بن الربيع ، ولد امير المؤمنين وخدمه واهله ومره بالمسير معهم فانه ثقة على ما يلي ، مقبول عند العامة ، واضمم اليه جميع جند الشرط الى من معه من جنده ، ومره بالجد والتيقظ وتقديم الحزم في امره كله ، فان اهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثل حلول هذه المصيبة ،

وصير مقدمتك الى اسد بن يزيد بن مزيد ، وساقتك الى يحيي بن معـاذ « وكان يحيى قد رحل مع المأمون » ، والزم الطريق الاعظم ، ولا تعدون المراحل فان ذلك ارفق بك ، ومر اسد بن يزيد ان يتخير رجلا من اهل بيته وقواده فيصير الى مقدمته ثم يصير امامه لتهيئة المنازل .. واياك ان تنفذ رأياً او تبرم امراً الا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع ، واقرر جميع الخدم على ما في ايديهم من الاموال والسلاح والخزائن وغير ذلك ، وقـد اوصيت بكر بن المعتمر بما سيبلغه ، واعمل في ذلك بقدر ما تشاهد وترى واذا أمرت

لاهل العسكر بالعطاء فليكن الفضل بن الربيع المتولي لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه فان الفضل لم يزل مثل ذلك لمهمات الامور ، وانفذ الي ، عند وصول كتابي هذا اليك ، اسماعيل بن صبيح ، وبكر بن المعتمر ، على مركبيهما من البريد ...

اخوك يستدفع الله عنك ويسأله لك حسن التدبير برحمته»

وانك لترى بعد قراءة هذين الكتابين ان الامين ، لم يخطر له في اول عهده ان ينقض ما ابرمه الرشيد ، ولم يفكر في غير الوفاء لاخويه ، ولیتي العهد بعده ..

٣

الامين

ولد الامين في السنة السبعين بعد المئة للهجرة — السنة التي استخلف فيها ابوه — وهو اصغر من عبد الله المأمون ، بينه وبينه ستة اشهر

وام الامين ، كما عرفت ، زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، فهو هاشمي الاب والام ، ولم يتفق ذلك لخليفة غيره من بني العباس

ونحن نثبت لك الآن . مارواه المؤرخون العرب ، وغير العرب ، عن هذا الخليفة الذي لم يمد الله في عمره ، ثم نقول كلمتنا فيه

قال سعيد بن حميد احد معاصريه ، ما معناه :

عندما ملك الامين ، طلب الخصيان واتباعهم ، وغالى فيهم ، فصيرهم لخلوته ، نهاره وليله ، وجعلهم على طعامه وشرابه ، وامره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً ، ورفض النساء الحرائر والاماء حتى قيل فيه من قصيدة :

وما للغانيات لديه حظ ٌّ — سوى التقطيب بالوجه العبوس
اذا كان الرئيس كذا سقيماً — فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوسٍ — اعزّ على المقيم بدار طوس

ثم كتب الى العمال في جميع الاقاليم يأمرهم بارسال رجال المجون واللهو من كل جنس ، واجرى عليهم الرزق الواسع ، واحتجب عن اخوته واهل بيته واستخف بهم وبقواده وامنائه ، وقسم ما في بيوت الاموال من الجواهر في خصيانه وجلسائه والندماء ، وحمل اليه ما كان في الرقة من الخزائن والسلاح ، وامر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع لخلوته ، ولعبه ولهوه ، في قصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى ، وقصر عبدويه ، وقصر المعلى ، ورقة كلواذا وباب الانبار وانشأوا له خمس حراقات « سفن حربية تجري في دجلة ، على صورة الاسد ، والفيل والعقاب ، والحية ، والفرس ، وانفق عليها من الذهب ، ما يكفي اهل بغداد ..!

ولم يكن يخرج الا لنزهة او لصيد ،

فخرج ذات يوم ، وقد امر الجند والقواد فركبوا ، ولبس ثيابه ، وتقلد سيفه ، واعدت الحراقات في دجلة

فقال له كاتب سره ، اسماعيل بن صبيح :

يا امير المؤمنين ، ان قوادك وجندك وعامة رعيتك ، قد خبثت نفوسهم وساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرون من احتجابك عنهم ، فلو جلست لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ، فان في ذلك تسكيناً لهم ، ومراجعة لآمالهم

فجلس في مجلسه واذن للناس عامة فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا ، والشعراء فانشدوا ، فلم يكن احد منهم يمعن في الاطناب والتطويل الا امر بالسكوت ، ومنع من القول

وقام فيمن قام ابو نواس ، فقال :

يا امير المؤمنين ، هؤلاء الشعراء اهل حجر ومدر ، وابل ووصف للبقر

وبيوت الشعر ، قد جفت الفاظهم ، وغلظت معانيهم ، ليس لهم بصر بمدح الخلفاء ونشر مكارمهم ، فان رأى امير المؤمنين ان يأذن لي في انشاده فليفعل ، فاذن له ، فانشده قصيدة جاء فيها :

وصفراء قبل المزج بيضاء بعده ... كأن شعاع الشمس يلقاك دونها
ترى العين تستعفيك من لمعانها ... وتحسر حتى ما تقل جفونها

الى ان اكمل القصيدة ، فقال له الامين :

ألم أنهك عن شرب الخمر ، قال :

بلى يا امير المؤمنين والله ما شربتها منذ نهيتني عنها ومنعتني من شربها ، وانا الذي اقول :

ايها الرائحان باللوم لوما ... لا اذوق المدام الا شميا
نالني بالملام فيهـا امـام ... لا أرى لي خلافه مستقيما
فاصرفاها الى سواي فاني ... لست الا على الحديث نديما
كبر حظي منها اذا هي دارت ... ان اراها وان اشم النسيما

فتبسم الامين وقال له : أحسنت

وقام بعض الشعراء فانشد :

ترقى في فضائله الامـين ... وزايله المشاكل والقرين
واورق زهرة التقوى وعزت ... خلافته وصدقت الظنون
تمس منابر الخلفاء منـه ... يد بخلاف طاعتها المنون
يخاف الخوف صولته ويرجو ... نداء الجود ، فهو له خدين

فقال اكثر من حضر :

قد اوجز واجاد اكرم الله امير المؤمنين

فقال ابو نواس :

أشعر منه يا امير المؤمنين الذي يقول :

ألا يا خير من رأيت العيون ... نظيرك لا يحس ولا يكون

وفضلك لا يحد ولا يجارى ... ولا تحوي حيازته الظنون
فانت نسيج وحدك لا شبيه ... نحاشيه عليك ولا خدين
خلقت بلا مشاكلة لشيء ... فانت الفوق والثقلان دون
كأن الملك لم يك قبل شيئاً ... الى ان قام بالملك الامين

ففضّله محمد وأحسن جائزته ، ثم نهض من مجلسه فركب الحراقة الى الشماسية ، واصطفت له الخيل ، وعليها الرجال على شاطيء دجلة ، وحملت معه المطابخ والخزائن ، وكان ركوبه الحراقه التي هي على صورة الاسد ، فما رأى الناس منظراً كان ابهى ، ولا مسيراً كان احسن من ذلك المنظر والمسير ، وركب ابو نواس معه يومئذ وهو ينادمه ثم قال :

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب

« صاحب المحراب سليمان بن داود »

فاذا ما ركابه سرن بحراً ... سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو ... أهرت الشدق كالح الانياب
لايعانيه باللجام ولاالسوط ... ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صورة ... ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحين ... تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما ... استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للامين وابقاه ... وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمي موفق للصواب

ومن مظاهر بذخه ، ان الخدم هيأوا له منزلاً من منازله على الشط، بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة ثم قال حسين ، خادم الرشيد :

لم يكن لابيك يا امير المؤمنين ، فرش يباهي به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا فأحببت ان افرشه لك

فنظر اليه وقال : أحببت ان يفرش لي مثل هذا في اول خلافتي ؟! .. مزقوه ؟

فبادر الخدم يمزقونه ويعبثون به

والشواهد كثيرة على سرف الامين وعبثه يرويها بعض معاصريه مثل مخارق المغني ، وابي عبادة البحتري ، واحد ابناء الفضل بن الربيع وآخرون

ويقول ابن الاثير : لم نجد للامين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره !!

ولكنه كان طيب القلب، حسن النية ، ينسى الاساءة، ويعفو عن الخارجين عليه ، يقابل ذلك ، خور في العزيمة ، وضعف في الارادة ، ورغبة في اللهو ، واستسلام الى اللذة ،

ويقول المسعودي: ان الامين كان باسطاً يده بالعطاء ،قبيح السيرة يركب هواه ، ويهمل امره ، ويتكل في الخطوب والمحن على غيره ، ويشق بمن لا ينصحه ، وكان مستهتراً ، كثير اللعب ، منقطعاً الى ذلك،مشتغلا به عن النظر في شؤون الملك

ولعل ذلك راجع على مايذكره كتاب عصر المأمون،الى خور خلقي ونشأة تنقصها الدربة السياسية ، وليس فيها ما ينمي روح الحكم ، ويقوي المواهب الادارية ، في فتى اعدّه القدر للجلوس على عرش الخلافة ، والتصرف في ملك ضخم ، تصرف المستبد المطلق السلطان والغير المقيد بدستور

وانت تعلم ان الثقافة السياسية ، هي الناحية التي يجب ان يهتم لها اولئك الذين يقومون على تهذيب اولياء العهد ، وقد كانت الحاجة اليها في ذلك الزمان اشد منها اليوم ، اذ لم يكن للخلفاء مجالس شورى، وحكومة ونواب يسترشدون بالنظم ، وانما كان هنالك ملك ، يحوطه الندماء، والمقربون، والشعراء والمغنون وهؤلاء جميعهم اصحاب اطماع ، وغايات خاصة واغراض ،والخليفة هو الحكومة وهو الدولة ، ويكفي ان يكون له السلطان ان يضرب الرقاب ، بدون حساب .!

لقد ندب المهدي ، ولده الرشيد ، لقيادة الجيش في حرب الروم وهو في زهرة العمر ، وندبه اخوه الهادي لمثل ذلك ، فتمرّس باسرار القيادة ودهاء

الرياسه ، وهذا الدهاء ينطوي على الشيء الكثير من المران السياسي ،

وندب المأمون للحكم في خراسان ، وكان ذا طبيعة تخالف طبيعة اخيه فابتعد حقبة قصيرة من الزمن ، عن مفاسد القصور الملكية ، وتملق الخاصة ، وسعايات الجواري والخدم ، وعالج امور الناس مداً وجزراً يأخذهم بالشدة ثم يأخذهم باللين ، ويصغي الى نصائح اصحاب الرأي المخلصين ، فكان له في ذلك حزم في الامور ، وسداد في التصرف ، وتقويم لما في نفسه الفتية من اعوجاج وطيش

واما الامين ، فلم يندبه الخليفة لامر مثل هذا ، ولم يعهد الى يد حكيمة قاسية تشتد في تأديبه ، وتهذيب نفسه ، ولم ترد زبيدة ، وهو وحيدها ، واعز خلق الله عليها ، ان يبعث به ابوه الى حرب او يعرضه لتعب او مشقة ، او خطر ، ، بل ارادت ، واراد الرشيد ان ينشأ ولي عهده - ابن زبيدة — نشأة ابناء الملوك في ترف الخلافة ، وسعتها وبذخها ، وان يغفو على الذهب .. وعلى اناشيد المرائين .. ويستمتع بالدلال ، ويسمع للمنافقين الكذبة عشاق النفوذ والمال ، ويصغي الى المجان المتهتكين والخصيان ، يقصون عليه الحكايات ... يكتنفه في كل ذلك نفوذ امه الذي لاحد له .. ونفوذ اخواله واعمامه وابناء اعمامه الهاشميين ..

نعم ، جعل الرشيد ولي عهده الامين ، في حجر الفضل بن يحيى ، وهو من عرفت ، ولكن الفضل الذي يتولى الادارة والسياسة والحرب ، ويضطر بأمر امير المؤمنين ، الى ترك بغداد ، والذهاب الى الاقاليم البعيدة ، يحارب الخوارج ، وينظر في امور المتمردين ، ان الرجل الذي يضطر الى مثل هذا ، لا يستطيع ان يأخذ الامين بما يجب ان يأخذه به ، ولكنه يعهد الى المؤدبين ، كما يعهد الرشيد نفسه اليهم ، في تأديبه ... نقول ، أنّ جميع هؤلاء ، لم يقدروا وقد فعلت البيئة فعلها في ولي العهد ، ان يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه ، وقد اجمع المؤرخون الفرنج — ميور وغيره ، وكتاب دائرة المعارف الاسلامية ، واتفق المؤرخون العرب ، على ان استهتاره باسرافه جاوزا المعقول ، زد على

ذلك حبه للاستخارة ، واهتمامه للبحث عن طالعه ، فقد كان يؤمن « بالبخت » حتى في اللحظة الاخيرة من حياته ،

على انه كان فصيحاً اديباً خفيف الروح والظل ، متوقد الذهن ، له سرعة البديهة ، وظرافة النكتة ، وعذوبة الحديث ، ويقول المسعودي ، انه كان في نهاية الشدة والقوة والبطش ، والبهاء والجمال .. غير ان ذلك العنصر الهام الذي يكوّن رجال السياسة والحكم ، لم يكن له وجود ،

ويجب ان نقول ، ان نشأة الامين التي ذكرناها لك ، كان لها أثرها السيء في حياته ، واولئك الرجال الذين كانوا حوله ، هم السبب في خسارته عرشه وحياته

من رجال الامين ، وزيره الفضل بن الربيع ، ووزير أبيه بعد نكبة البرامكة ، وعلي بن عيسى بن ماهان ، وعمه ابراهيم بن المهدي ، وعم أبيه سليمان بن المنصور ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، وصالح صاحب المصلى ، وبكر بن المعتمر ـ والطبيب جبريل بن بختيشوع الذي لزم المأمون بعد الامين ، والسندي بن شاهك ، وعبد الله بن خازم ، وعبد الملك بن صالح ، وبعض القواد الآخرين ، اقدرهم جميعاً ، واكثرهم حيلة ونفاقاً وكذباً ، الفضل بن الربيع ، ثم بكر بن المعتمر وعلي بن ماهان

٣

المأمون

ولد المأمون في السنة السبعين والمئة ، في اليوم الذي ولي فيه ابوه الخلافة ،

فلما بشر الرشيد بمولده ، سر سروراً عظيماً وسماه المأمون ، تيمناً بذلك

وامه تدعى مراجل ، ويقال انها تنتسب الى اسرة فارسية عريقة في الشرف والمجد

وقد قرأت في روايتنا ـ اسد وكوثر ـ ان الرشيد ضمه الى جعفر بن يحيى ثم ولاه العهد بعد الامين وهو في الثالثة عشرة ، وولاه خراسان وما يتصل بها من اقاليم الشرق ، ومنحه بعد ذلك استقلالا ادارياً يكاد يكون كاملا

نشأ المأمون في حجر الخلافة ، كما نشأ الامين ، فلما ترعرع ونما ، رأى الناس مظاهر ذكائه وعظمة نفسه ، وبعد نظره وحسن تدبيره ، واخذوا يتنبأون بما سيكون له من منزلة وشأن

ويروي التاريخ عن ابي محمد اليزيدي انه قال :

كنت أودب المأمون وهو غلام في كفالة سعيد الجوهري ، فجئت الى دار الخلافة وسعيد قادم اليها ، فوجهت الى المأمون بعض خدمه يعلمه بمكاني ، فابطأ علي ، ثم وجهت آخر فأبطأ ، فقلت لسعيد : ان هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر ، فقال ، أجل ، ومع هذا فانه اذا فارقك اصاب خدمه بشراسة واذى فقوّمه بالادب

فلما خرج تناولته ببعض التأديب ، فانه ليمسح عينيه من البكاء ، اذ قيل: جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل

فجمع ثيابه ، وقام الى فراشه فقعد عليه متربعاً ثم قال :

ليدخل

فقمت عن المجلس وخفت ان يشكوني الى جعفر فالقى منه ما أكره ، فاقبل عليه بوجهه ، وحدثه حتى اضحكه وضحك اليه ، فلما هم بالحركة ، دعا المأمون بدابة جعفر ، ودعا غلمانه فسعوا بين يديه ، ثم سأل عني ، فجئت فقلت :

ايها الامير أطال الله بقاءك ، لقد خفت ان تشكوني الى جعفر بن يحيى ، ولو فعلت لتنكّر لي ، فقال :

تراني يا أبا محمد كنت اطلع الرشيد على هذه فكيف بجعفر بن يحيى حتى اطلعه على اني احتاج الى ادب .. خذ في أمرك عافاك الله فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً ولو عدت الى تأديبي مئة مرة ..

ومن الادلة على احترام هذا الغلام نفسه كأمير وابن خليفة ، ومعرفته بما له من مكانة خاصة ، وبما ينبغي ان يكون في نفوس الناس من تعظيم واجلال وما يجب لمثله في آداب التحية قوله لابي الحسن اللؤلؤي ، وهو الذي جعله الرشيد مؤدباً له بعد أبي محمد اليزيدي ، حين كان يشرح شيئاً من الفقه ، واخذت المأمون سنة من النوم ، فقال له اللؤلؤي:

نمت ايها الامير ؟ فقال المأمون :

سوقي ورب الكعبة ... خذوا بيده ،

فجاء الغلمان فأقاموه ، فلما بلغ الرشيد ماصنع قال متمثلاً :

وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل

هذه الظواهر وغيرها ، حببته الى الرشيد ، وجعلته يقدره قدره ، فولاه العهد بعد اخيه ، وجمع حوله طائفة من الرجال اصحاب الكفاءة والهمة والاطماع وقد رأى هؤلاء ، انهم سيبلغون بفضله غاياتهم من السؤدد والمجد ،

يدلك على هذا ، ما كان يفكر فيه الفضل بن سهل ، الذي جعله يحيى بن خالد في خدمة المأمون ، قال له يوماً مؤدب المأمون والرشيد حي

ان المأمون لجميل الرأي فيك ، واني لاستبعد ان يحصل لك منه الف الف درهم ،

فاغتاظ من ذلك وقال له :

ألك علي حقد ، ألي اليك اساءة ؟ فقال المؤدب :

والله ما قلت هذا الا محبة لك فقال :

أتقول لي انك تحصل منه الف الف درهم ؟! والله ما صحبته لآخذ مالا قل او اكثر ، ولكن صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب

أجل ،كان رجال المأمون، يطمعون في ان تكون لهم الكلمة النافذة في الامة ، ولكنهم كانوا ينظرون في الوقت نفسه،نظرهم السياسي البعيدويمهدون لاميرهم ، الذي وهبت له الطبيعة النجابة والذكاء ، سبل الجلوس على العرش كما سيجيء

والمأمون كما علمت ، من اولئك الفتيان الذين يشرفون العرش، ويرفعونه الى القمة ، فقد فطر على ان يكون رجل جماعة ، ورجل دولة ، وقائد امة ، ولعل الذين يذهبون ، الى ان في تلقيح الاجناس تحسيناً للنوع ، يجدون لمذهبهم حجة ظاهرة في المأمون ، فقد كانت امه فارسية ، وابوه عربياً ، اي انه جمع بين الدم الآري والدم السامي

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار : كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين هذا الدم والدم الاخر ،

غير ان غوستاف لوبون ، يخالف هذا الرأي اذ يقول :

ان امة كل افرادها مولدون لاتساس ، ويعلل ذلك باختلاف الطبائع والعقائد ، والخصال ، التي يرثها الابن من ابويه

وما من شك ، في ان ذكاء المأمون ، وصدق عزيمته ،وحسن تدبيره اسباب حملت الرشيد على ان يستوثق له الامر في ولاية العهد ، من اخيه ، ولاخيه منه ، فجمعهما في البيت الحرام كما مر ومعه امراء الاسرة المالكة ، ورجال الدولة ، وكتب العهدين ، بما لهما وما عليهما واشهد عليهما الجماعة ، ثم علق العهدين في الكعبة ، عند اعتقاده ان هذا المقام الديني العظيم ، لا تصل الايدي اليه ..

ويثبت لنا الواقع ، ان الرشيد كان يخشى ، ان يختلف الاخوان بعد موته ويغدر احدهما بالاخر

كان يخاف الامين على المأمون ، لانه سيصبح الخليفة الذي يملك القوة والجند والنفوذ والسلاح ، والهيبة والمال ، وسيلتف الناس حوله، على عادتهم مع كل قوي .. ويخاف المأمون على الامين لانه كان يرى ان في ذكائه وحزمه وعزيمته

وهدوئه ونظره الى الدنيا نظرة العاقل الخبير .. كان يرى في كل ذلك خطراً على الامين .. فاراد ان يتقي الخطرين بكتابته العهدين اللذين قرأت

الفضل بن سهل

مستشار المأمون وامين سره ، وهو مجوسي فارسي من سرخس ، جعله يحيى بن خالد بأمر الرشيد في هذا المنصب الرفيع ، وأسلم سنة مئة وتسعين على مذهب الشيعة ، ليكون عوناً للفرس في خراسان

وكان اخوه الحسن بن سهل ، من حاشية الامير ، وللاثنين منزلتهما في قصر الامارة ، وفي ذلك الاقليم الواسع الارجاء

على ان الفضل ، كان صاحب الكلمة التي لا ترد ، والنفوذ الذي يشبه من جميع النواحي ، نفوذ مولاه

وللرجل همة تقصر عن بلوغها همم الرجال ، وارادة قوية ثابتة وعزيمة لا تعرف الخور ، واطماع بعيدة واسعة يحجبها وراء ستار كثيف ، من حسن التصرف والسياسة والدهاء

ونحن ذاكرون لك ما وصفه به ابراهيم بن العباس احد معاصريه ، لتعلم من هو الرجل الذي سلّم اليه المأمون مقاليد اموره ، فقال :

يمضي الامور على بديهته — وتريه فكرته عواقبها
فيظل يصدرها ويوردها — فيعم حاضرها وغائبها
واذا ألمت صعبة عظمت — فيها الرزية كان صاحبها
المستقل بها وقد رسبت — ولوت على الايام جانبها
وعدلتها بالحق فاعتدلت — ووسعت راغبها وراهبها

واذا الحروب بدت بعثت لها ... رأياً تفل به كتائبها
رأياً اذا نبت السيوف مضى ... عزم بها فشفى مضاربها
واذا الخطوب تأثلت ورست ... هدّت فواصله نوائبها

ويقول رجال التاريخ ، ان الفضل كان خبيراً بعلم النجوم ، وقد دلته خبرته على ان المأمون سيتولى الخلافة ... فلزمه ، وخدمه ، ودبر اموره ، حتى جلس على العرش ، فجعله وزيراً له

لقد كان علم النجوم شائعاً في الشرق ، وهو احدى « الخرافات » التي كان يؤمن بها معظم الناس ، في ذلك الزمان ، على ان هذا العلم ، لم يدل الداهية الفارسي ، على مستقبل المأمون الزاهر ، كما يقولون وانما دلته عليه فراسته ، ودهاؤه ، وصدق نظره ، وقد عرف ان من وراء خدمته مصلحة له ، ولبني قومه ، وانه بالغ غايته من الرفعة والسؤدد والعز ، في ظل مولاه

وسترى في الفصول التي تقرأ ، ان رجال هارون الرشيد وقواده واصحاب الكلمة النافذة في دولته ، امسوا حزبين ، هذا يرى الخير والنفع في محمد ، وهذا يراهما مع عبد الله ، والحزبان لم يفكرا قط في خير العرب ، ومنفعة العرب وانما كانا يفكران في مصلحتها الخاصة ، ومن بعدهما الطوفان..

حاتم الطائي

كثيرون من بني طيء ، يحملون اسم ، الجواد العربي المشهور بالكرم ، تيمناً به

وحاتم هذا ، الذي نذكره في هذه السطور ، هو من عشيرة الاول ، وقد قدم الرقة ايام الرشيد

واقام بها مع اهل بيته يخرج الى قتال الخوارج واعداء الخلافة ، كلما ندب لذلك ، وهو من اصحاب النخوة ،والوفاء ، ومن المخلصين للعرش

وللرجل مقامه في القوم ، فهو من سادات طيء الذين ارتفع ذكرهم في الحروب ، من عهد السفاح ، الخليفة العباسي الاول الى الرشيد ، وحفظوا شرفهم وشرف العشيرة التي يحملون اسمها ، ومشوا في الطريق التي تقربهم من البلاط

وهو صهر عليّ بن عيسى بن ماهان ، زوج اخته حبيبة ، وقد كان من قبل مقيماً بخراسان ، يوم كان عليّ والياً عليها في دولة الرشيد

وكثيراً ما كان يرافق علياً الى النواحي الخطرة ، ويساعده في اخضاع العصاة ، طلاب الشهرة والمال الذين يخرجون على الحكومة ، ويتظاهرون بالدفاع عن مصالح العرب

وقد عرف الرشيد لحاتم بلاءه ووفاءه فأحسن اليه اكثر من مرة، واوصى علياً بان يجعله من رجال قصره في خراسان ويستشيره في معظم الحادثات التي تعرض له

فلما غضب الرشيد على بن ماهان ونحاه عن الولاية ، وامر هرثمة بن اعين بان يبعث به مقيداً الى بغداد ويستولي على المال الذي اخذه عدواناًوظلماً من رعيته ، ترك حاتم القطر الخراساني الى الرقة ، وظل على اخلاصه للرشيدولوليّ العهد الامين

ولم يكن بينه وبين المأمون ما يجب ان يكون عادة بين قائد معروف من قواد الخلافة ، وبين الامراء انجال صاحب العرش

كان عليه ان يزور عبد الله وهو ولي العهد الثاني ، ويظهر له الطاعة والولاء كما كان يزور ابن زبيدة ولي العهد الاول ويقوم بخدمته كأنه من الغلمان

ولكنه كان يؤثر رضى حبيبة زوجته على رضى المأمون ،وزوجته حبيبة تؤثر رضى اخيها علي على العالم كله ...! وعلي هذا من صف الفضل بن الربيع

حاجب الرشيد والاثنان يخضعان لكل ما تأمرهما به زبيدة ذات العزوالدلال والعظمة والسلطان .. وهما يستعينان بها على تحطيم البرامكة وابعادهم—على الاقل – عن منصب الوزارة الذي امسوا معه ابعد صوتاً من الرشيد !!

من اجل ذلك كنت ترى حاتماً الطائي بعيداً عن عبد الله بن مراجل كما كانت تدعوه زبيدة ، وقريباً من محمد ، الذي سيجلس في عرش الخلافة ، بعد ابيه

ومن حق حاتم ومن مصلحته ان يكون من رجال الامين وان يسعى ليصير من الخاصة .. ان الامين هو الخليفة في الغد والخليفة سيد العرب بل هو سيد هذه البقعة الكبرى من الشرق

ذلك ما كان يقوله علي بن ماهان لشقيقته حبيبة وتقوله حبيبة بدورهـــا لزوجها الطائي وهو قول معقول لا ينكـر له المنطق وليس فيه شيء من الغلو افليس الخليفة هو الذي يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء؟؟

واي شيء يفيده الطائي من المأمون وهو عامل خراسان ولا يستطيع ان يتولى الخلافة الا بعد موت اخيه ؟.

افيترك القواد الرأس ويلتفون حول الذنب ؟؟ ان اولئك الرؤساء ورجال الجيش الذين يقفون بباب عبد الله كل يوم اغرار لا يعلمون ماذا يصنعون..

مشى حاتم في اثر علي والفضل بن الربيع لا يصغي الى ما يتحدث به الناس عن عظمة المأمون وذكائه ، وسياسته الرشيدة وبعد نظره ، ولم يخطر له مرة ان يرافق الامراء والقواد الذين يشهدون مجالسه ، ويعودون وهم معجبون بذلك الامير الشاب الذي يشبه في عزة نفسه اباه الرشيد وله خبرة الشيوخ

لقد احب الامين الحب كله وخصه بالعاطفة الطيبة والاخلاص الصحيح

فامسى بفضل هذه العاطفة وهذا الحب من المقربين اليه، يدخل عليه وهو ولي عهد عندما يطيب له، دون ان يستأذن في ذلك الحجاب والغلمان والامين يدعوه الى الجلوس مع الخاصة ويبتسم له

وظلت الحال على ما رأيت حتى ترك الرشيد هذه الدنيا وامسى الامين خليفة المسلمين وكان الامين يقول لعلي بن ماهان :

ان صهرك أخاطيء من اصدق القواد في خدمة امير المؤمنين، فاجعله من اركان الحرب ... واصبح حاتم بالفعل من اركان حرب علي ...

ابو حاتم حي وهو شيخ جاوز الخامسة والسبعين، وقد قطعت يده اليمنى في احدى حروبه مع المهدي فاقام في منزله يرعى احفاده الاربعة عندما يغيب حاتم ويتعهدهم، بالاشتراك مع حبيبة بالعناية والمحبة والرفق

الغلامان مروان والمغيرة، والبنتان سعدى وزينب، هؤلاء ابناء حاتم الطائي وحبيبة، اكبرهم سعدى وهي في الثامنة من العمر ثم تجيء زينب وبعدها الصبيان

وامهم حبيبة من اولئك النساء اللواتي يجالسن الرجال ويشاركنهم في الرأي ويصغين الى احاديث المعارك والحرب

وكان حاتم كلما ندب الى قتال تبتسم له ابتسامة التشجيع وتنفخ، في صدره من اجل الخليفة والوطن، روح البطولة والاقدام واذا ودع اباه وبنيه وركب فرسه للالتحاق بالجيش ترفع صوتها قائلة له :

اذهب ان الله معك

وفي المعارك الكبرى التي اشترك فيها مع اخيها علي في خراسان وغير خراسان، كانت مؤمنة بان حاتماً سيعود ظافراً وهو سليم الجسم والروح .. يرجع ذلك الايمان الى انها كانت تعلم ان اخاها من اعظم رجال السيف وابعدهم اثراً في العدو وان زوجها يجاريه في دهائه الحربي وجرأته على اقتحام

النار،وان الحظ.. نعم كانت تعتقد ان الحظ رفيق الاثنين ...

ooo

طاهر بن الحسين

طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق ويقال له الخزاعي وهو من رجال السيف الذين لم تكن لهم ايام الرشيد شهرة القواد الآخرين

على انه كان مقداماً شجاعاً له خبرة رجال الحرب وصبرهم ،ودهاء السياسيين اضف الى ذلك انه قوي الشكيمة صلب العود ،اذا مضى في الامر مضى الى النهاية لا يتردد ولا ينثني وقد يقتحم السيوف ليبلغ غايته

ولم يكن قلب طاهر في غمرات القتال من لحم ودم .. بل كان من الحديد او اشد صلابة منه ... فهو لا يعرف الرحمة ولا يعطفه رحم ولا يصغي الى استغاثة او رجاء ... انه كالنمر اذا انشب مخالبه في فريسته مزقها تمزيقاً وجعلها قطعاً واشلاء ..

وكان هواه في المأمون،وهو يرى ان الامين بالنظر الى ما يتناقله الناس عن استهتاره وضعفه ،لا يصلح للخلافة ،ولولا عهد الرشيد الذي جعل محمداً الوارث الاول للعرش لما رضي الا بان يرفع عبد الله الى هذا العرش بقوة السيف ولو استطاع لجعله سيد العالم ..!!

والغريب فيه انه على شدته وقسوته كان مشغوفاً بالادب والعلم ،وله المواقف التي تشهد بأدبه ،يثبت ذلك عهده الذي كتبه لابنه عبد الله حين اختاره المأمون وهو في زهرة العمر لولاية الرقة ومصر وقتال نصر بن سيار وستقرأ شيئاً من هذا العهد عند الوصول في البحث اليه

وكان طاهر اعور وقد لقب بذي اليمينين لضربة ضربها في احد الميادين كما سيجيء.

وقبل ان يملأ الحسد نفس الفضل بن سهل، كان طاهر صديقاً له، وثق عرى الصداقة بينهما تشيعهما للمأمون، وتوحيد المساعي للذود عنه، وحمل الناس في ذلك القطر الرحب على الخضوع له كما كانوا يخضعون للرشيد

وهنالك سبب آخر، هو ان الاثنين كانا يبغضان الفضل بن الربيع، وعليّ بن ماهان، وهذا البغض وحده كان كافياً لجعل الرجلين في صف واحد وسياسة واحدة

أبغض الفضل بن سهل، الفضل بن الربيع، لانه كان الساعي بالبرامكة وللبرامكة يد على بني سهل، وأبغض طاهر علي بن ماهان، لانه كان يذكر ولا ينسى، ان الرجل اهان اباه الحسين وطرده من مجلسه وشيعه باللعنة، يوم كان عاملاً على خراسان، وابوه من عظماء الناس، واصحاب المكرامات

« دخل الحسين والد طاهر يوماً، على علي، وسلم عليه »

« فقال له : لا سلم الله عليك يا ملحد بن الملحد »

« والله اني لاعرف ما انت عليه من عداوة الاسلام والطعن »

« في الدين، ولم انتظر بقتلك الا امر الخليفة، »

« ألست القائل بعد ان ثملت من الخمر، ان كتباً »

« اتتك من بغداد بعزلي عن الولاية ؟ اخرج »

« الى سخط الله لعنك الله »

اجل، ان طاهراً لم ينس ذلك، واذا نسي فأبوه حي ولم ينس ...

ومع ذلك، فلطاهر مواهب يحترمها ابن سهل كما يحترمها المأمون، ومن مصلحة الاثنين، ان يجعلا طاهراً من اقرب الناس اليهما فهو وهرثمة بن اعين من اخلص القواد المقيمين في خراسان، فاذا استعرت نار القتال بين الاميرين الاخوين فمن يحمل السيف للدفاع عن حق الاخ الضعيف الذي يحاول اخوه الآخر ان يسلبه اياه ؟؟

ان هرثمة يحارب رافع بن الليث ، فليس في الساحة اذاً غير طاهر ، وغير القواد الآخرين الذين هم من معاونيه

وصاحبنا من الرجال الذين وقع عليهم اختيار الرشيد ، ليكونوا مع ولده عبد الله في خرسان ، ويساعدوه في حفظ الامن اذا اضطرب حبله ، واخشاد الثورات والفتن

وكان قبل ذلك يقيم بالرقة مع ابيه واسرته وقد نزحوا اليها فراراً من سوء سيرة ابن ماهان ، وبعد ان اهان الحسين ، وقد شكاه الحسين يومئذ الى الرشيد واستجار به ، فاجاره ، واختاروا الرقة مدينة لهم

فلما عول الرشيد على المسير الى حرب رافع بن الليث وخرج من العراق مع طائفه من قواده ، كما قرأت في الرواية السابقة ، خرج طاهر واهل بيته معه ، ثم رحل مع المأمون الى خراسان مسقط رأسه ،

ولم يكن في جيش بغداد ، والجيش الخراساني ، من يجهل طاهراً ووالده الحسين ، والمنزلة التي هي لهما ، وطاهر اليوم ، معروف في بلاد المأمون ، كما كان معروفاً في بغداد ايام هارون ، وكان بيته في الرقة مجاوراً بيت حاتم الطائي ، وبين الرجلين صلة صحبة وولاء

ولطاهر بنون ، منهم طلحة وعبد الله الذي لم يبلغ العاشرة ، والاثنان واخوتهما رفاق لمروان والمغيرة ، وسعدى وزينب ابناء حاتم ، في اللعب في الازقة ، وتسلق النخيل الصغير والطواف والركض في الاحياء ..

على ان الرفيقين اللذين كان الواحد منهما يحب الآخر ، كالصغير يحب الصغير ، الحب الطاهر البريء ... ان هذين الرفيقين كانا عبد الله وزينب ، وهي اصغر منه كما رأيت

غلامان يلعبان ويركضان في مقدمة الغلمان ، الى ميدان الرقة الذي اعده الخلفاء للسباق ، ينظران مع الاخوة الاخرين الى الجياد السابقة وقد يكون والداهما على فرسيهما ، مع السابقين

وصنع البيوت من الطين احب شيء اليهما ...

يصنعان البيت ... او يبنيانه .. ثم يهدمان بعد لحظة ما صنعـــاه ... ثم يعيدان البناء حتى يستقيم البيت بابوابه ونوافذه ، ودهاليزه .. وقد يضعان فيه لساعة او ساعتين .. مؤونتهما من الخبز والتمر ...

وانك لتراهما في طرق الرقة يرافقان بنشاط الطفولة ، مواكـب الامراء العباسيين الخارجين الى نزهة او الى صيد ، ثم يعودان ليعالجا من جديد ، فن البناء ...

ولكن سعدى ومروان واخوة عبد الله، لم يكونوا يترددون في هدم تلك القصور الشاهقة ... يبنيها الغلامان

حتى صدر الامر برحيل طاهر مع الرشيد ، ثم مع المأمون ، فأثرت لوعـة الفراق ، في قلوب الرفاق .. غير ان لوعتهم، كانت سحابة ما لبثت حتى تلاشت في الفضاء ...

انها لوعة اطفال ، يبنون بيوتهم من تراب وماء ...

○○

٤

قرأ الفضل بن الربيع وصالح بن الرشيد الكتابين اللذين ارسلهما اليهما محمد الامين ..

ثم اجتمع القواد ورؤساء الجند وابناء هارون ، يتشاورون في الامـــر وينظرون في قضية البيعة والعهود التي اخذها عليهـم الرشيد ، لعبـــد الله المأمون

ثم تلا الفضل الكتابين على الجماعة ، متظاهراً بانه لا يريد ان ينفرد بالرأي .. وجعلوا عندئذ يستعرضون الموقفين ، مع محمد صاحب الحق الاول بالعرش وولي

عهده عبد الله

على انه لم يكن فيهم من يجسر على ان يكون البادىء بالرأي

لقد كانوا جميعم دون استثناء ، يؤثرون الرجوع الى منازلهم واهلهم ، على الوفاء بالعهود ، ولكنهم كانوا ينتظرون ، ان يقول ابناء هارون او الفضل بن الربيع كلمتهم في الامر

وعرف ابن الربيع ما في النفوس فقال :

نلحق بالامين ، فانا لا ادع ملكاً حاضراً ، لاخر لا ادري ما يكون من امره

فاستحسن الناس الرأي ... ثم امرهم بالعودة الى بغداد

والغريب انه لم يقم احد منهم يذكر المأمون بكلمة او يذكر العهد الذي كان الشرف يقضي عليهم بالوفاء به

كل ما تركه الرشيد في طوس ، من جنود ومؤونة ومال وسلاح ومتاع ، كل ذلك المأمون لا يشاركه فيه احد .. غير ان الفضل بن الربيع ، قدّس الله سره ، نسي وصية مولاه ولم يهتم الا « للملك الحاضر » الذي يضمن له سعة النفوذ وسعة العيش

وليفعل المأمون البعيد عن بغداد ، ما يطيب له ...

واي شي يستطيع ان يفعله المأمون ؟ بنو هاشم والجيش والسلطان والمال ، بيد الامين ، وجميع اقاليم الدولة الا خراسان ، خاضعة له ، رجالها من جنوده وخراجها يحمل الى بيت ماله ويكفيه ، اجل يكفي الامين ان اباه ترك له الملايين من الدراهم والدنانير ...

والمأمون مسكين !! جيشه بضعة آلاف .. وماله قليل ، لا يبرد الغليل ، وليس عنده من القواد غير هرثمة ، وهرثمة يحارب رافعاً ، واما رجال السيف الاخرون فجماعة لا يحسب لها حساب ..!

ذلك ما جال في خاطر الفضل قبل ان يقول كلمته ، وقد نسي او تناسى .. ان عند المأمون غير هرثمة ، عبد الله بن مالك وطاهر بن الحسين ويحيى بن

معاذ ، ونعيم بن خازم وغير هؤلاء وجميعهم من ابطال الميادين .. ونسي او تناسى ، ان الله مع الضعيف

بلغ المأمون وهو في مرو حاضرة خراسان ، ان اباه مات وان القوم الذين كانوا معه ضربوا بالبيعة والعهود عرض الفضاء وفروا فراراً الى بغداد ومعهم ما اوصى به الرشيد له

ولم يفته ما قاله لهم الفضل بن الربيع

نعم ، عرف كل ذلك كأنه كان حاضراً ولكنه لم يفكر في الخلافة فالخلافة ليست له ، ولم يفكر في الخيانة فالخيانة لا تخطر لرجل نبيل في خلقه مثل المأمون ولكنه كره ان يستأثر الفضل بن الربيع بما خصه به الرشيد ويسلبه عدواناً وظلماً ماله وسلاحه واشياءه ويحملها الى بغداد

فدعا من معه من قواد ابيه ، ورجال مشورته ، ونقل اليهم الخبر فاشاروا عليه بان يلحق القوم في الفين من فرسان خراسان ويحول بينهم وبين ما ارادوه

فقال للفضل بن سهل : وانت ماذا ترى ؟ فقال :

ان فعلت يا مولاي ما اشاروا عليك به ، جعلت فرسانك الذين تبث بهم ، هدية الى اخيك .. ولكن الرأي ان تكتب اليهم كتاباً تذكرهم فيه الوفاء بالبيعة ويحمله اليهم ، قهرمانك سهل بن صاعد ، وخادمك نوفل .. والاثنان من عقلاء الناس ، فتتعرّف ما عند الجماعة ، وقد تبلغ غايتك

وكان المأمون يثق بالفضل ويؤمن بصدق نظره ، فعوّل على العمل بنصيحته وراح يكتب كتابه بالاسلوب الجذاب ، ويسألهم ان يرجعوا الى ضمائرهم ويعودوا الى سنّة الله

ثم دعا سهلاً ونوفلاً واعطاهما الكتاب ، واوصاهما بما يجب ان يفعلاه

والجند يومئذ في نيسابور ، فلحقا به ، ودفعا الكتاب الى سيد القوم ، الفضل بن الربيع !!

وكأن صالحاً بن الرشيد ومن معه من اخوته لا وجود لهم ...

فلما قرأ الفضل الكتاب ، قال للرسولين :

انما انا واحد من الجماعة !!. اي انه يفعل ما يأمرونه به ... وذلك شأن المرائي الجبان !..

يقول بالامس : لا ادع ملكاً حاضراً لآخر لا ادري ما يكون من امره ، ثم يقول اليوم : انا واحد من الجماعة ! وهو يظن انه يستطيع بمثل هذه الكلمة ، ان يغطي خيانته

على ان عبد الرحمن بن جبلة وهو من القواد ، لم يشأ الا ان يكون جريئاً وصريحاً ...

شدّ على سهل بن صاعد بالرمح يمره على جبينه وقال له:

قل لصاحبك انه لو كان حاضراً لوضعت هذا الرمح فيه !!

وجعل يسب المأمون وينال منه .. ويغلظ للرجلين !

فلما رجعا بالخبر ، قال الفضل بن سهل :

انهم اعداء استرحت منهم يا مولاي .. ثم قال :

اذا اردت فاصغ الى ما اقوله لك .. ان هذه الدولة لم تكن قط اعز منها ايام جد ابيك المنصور ،

فخرج اليه المقنع وهو يطلب بدم ابي مسلم ، فتضعضع الجيش لخروجه من خراسان ، ثم خرج بعده يوسف البرم ، وهو عند بعض المسلمين كافر ، فتضعضعوا له ، ثم خرج آخر يدعو الناس الى الكفر ، فسار جدّك المهدي بنفسه الى الري ثم الى نيسابور ، لينقذ الدولة منه ، فاخبرني انت ايها الامير كيف رأيت الناس ، عندما ورد عليهم خبر رافع بن الليث الذي يحاربه هرثمة بن اعين اليوم ، والذي خرج ابوك الرشيد من اجله يريد خراسان ، وفاجأه الموت في طوس ... قل لي ايها الامير كيف رأيتهم عندما بلغهم خبره ؟؟

قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً

قال : اذن كيف يكون اضطراب اهل بغـداد ، اذا وقفت انت غـداً موقف الدفاع ، وانت نازل في اخوالك ، وبيعتك في اعناقهم ؟.. اصبر وانا اضمن لك الخلافة !!

قال : قد فعلت ، وجعلت الامر اليك فقم به كما تشاء

قال : لاصدقنك يا مولاي ان عبد الله بن مالك ،ويحيى ابن معاذ ، ومن عندك من القواد والرؤساء ، ان قاموا لك بالامر كانوا انفع مني لك ، بما لهم من الرياسة والنفوذ ، وبما عندهم من القوة ، فمن قام بالامر كنت خادماً له حتى تنال املك ، وترى رأيك

وكانت تلك الكلمة دهاءمن الفضل

لقد كان يعلم ان القواد سيعتذرون .. لانهم لا يحسنون القيام بالامر من هذه الناحية ولانهم يخافون ان ينزلوا من الناحية الاخرى في هذه الهوّة الكثيرة الاخطـار

انهم جنود .. اوصاهم الرشيد بان يكونوا من رجال المامون فهم على الطاعة ، ولكن ليس لهم ان يضمنوا له الفوز فيما يحلم به

يحاربون الامين وجميع الامراء من آل هاشم ، ويبذلون ارواحهـم في ساحات الحرب ، وفاء بالبيعـة ، ولكن قضيـة الخلافة لا تدخـل في الحساب ..

اجل ، كان الفضل يعلم ذلك وقد اراد ان يزداد المامون وثوقاً به ، اذا نفض القوات ايديهم من الامر .

وقام من ساعته فاتى هؤلاء في منازلهم ، يسألهم الرأي ، ويستنهضـم الاطلاع بالمهمة ليبقوا عند حسن الظن ...

فقال بعضهم : اذهب يا فضل فهذ امر لا يحل لنا وما كنا لنقدم عـلى مثله ..

وقال البعض الاخر : من الذي يدخل بين امير المؤمنين واخيه ،

فخبر الفضل المامون ، فقال له : لم يبق الا ان تتولى انت الامر ، فالقواد

رجال حرب وليسوا سياسيين ...

فاطرق يفكر في الامر من جميع نواحيه ، وقد طال تفكيره والمامون ساكت ، فقال المامون :

خفت يا فضل ؟

- لا يا مولاي ، بل زدت رغبة في المضي الى آخر الشوط ... لقد قرأت القرآن وسمعت الاحاديث ، وتفقهت في الدين فهل لك ان تبعث الى الفقهاء فتدعوهم الى الحق والعمل به ، واحياء السنة وان تقعد على الصوف وتنظر في المظالم فيكون ذلك قريباً من النفوس ؟!

قال : افعل ، وبدأ فجمع فقهاء مرو ورجال العلم والدين ، يباحثهم ويحدثونه ، ويدعوهم الى الاحتفاظ بسنة الله واتباع القرآن، ثم يجلس للناس كل يوم عند الصباح ، يعاقب ظالمهم وينصف مظلومهم ويحسن الى فقيرهم ويتيمهم وهو مطمئن هادىء لا يجد الملل سبيلاً اليه

حتى تحدث الناس بعدله وفضله وانصرافه الى القيام بفروض الدين وتناقلت اخباره جماعات التجار والصناع ، الذين يفدون الى مرو ثم يعودون منها الى ارضهم ... وجلس الشيوخ يقصون على فتيان الاحياء قصص تدينه وانصافه، وزهده ، فاكرمه امراء الاقاليم وابناء الامراء ووجوه الناس واقبلوا يظهرون له هذا التكريم ويحلفون امامه وامام الخاصة انهم يفدونه بالمهج

وعمد بعد ذلك الى امر هو اقرب الى القلوب من كل هذا ...

امر عماله بان يضعوا ربع الخراج عن خراسان ... فحسن ذلك عند الجماعات وجعلوا يقولون في المجالس والمساجد والساحات : هذا ابن اختنا وابن عم نبينا ، فنحن رجاله وانصاره

فاستبشر وطابت نفسه، وثبت له عندئذ بوضوح وجلاء ان راي الفضل بن سهل خير الاراء ...

على انه لم يشا ان يبدأ اخاه بشيء من الجفاء ،

كان يراسله ويهدي اليه احسن ما في خراسان من الآنية والمسك والدواب

والسلاح ، وكان ينبغي ، والحال كما رأيت ، ان يحفظ الاخوان عهد ابيهما ، وان تجري الامور بينهما في مجراها الطبيعي دون ان يكون هنالك شيء من الشذوذ

مودة وصفاء ووفاء بالعهدين ، وتجانس في الادارة والسياسة بين خراسان وبغداد وتضامن واتحاد في جميع ما يعرض لهما من امور

ولكن المستشارين .. رجال الشر وبطانة السوء الذين اتسعت اطماعهم وارادوا ان يضعوا ايديهم على مال الامة ويحتفظوا لانفسهم بالحصة الكبرى من السلطان والنفوذ لا يحفلون ببيعة ولا يكترثون لاخوة ولا يهتمون لوحدة الصفوف ... ان هؤلاء المستشارين لم يريدوا الا ان يخلقوا العداوة بين الخليفة وولي عهده ويحملوا الواحد منهما على الغدر بالآخر ليشبعوا معدهم الجائعة وترتوي انفسهم من الغنى والجاه

واي معنى لكلمة الفضل بن الربيع : لا اترك ملكاً حاضراً لاخر لاادري ما يكون من امره ؟

معناها الذي ليس فيه شيء من الالتباس، انه لم يهتم لشرفه وضميره وارادة مولاه الرشيد الذي اغدق عليه النعم بل اهتم لنفسه .. وعول على خدمة الامير القوي، وليس اقوى من امير المؤمنين، ليجعله اذا استطاع آلة في يده ويستغله في سبيل اغراضه وسياسته

ذلك كان شأنه في عهد الرشيد وهذا شأنه في عهد الامين، ويظهر انه لا يهنأ له عيش الا اذا مد اصابع الفتنة والشر ليستغل

وكذلك كانت حالة الفضل بن سهل !

يقول للمأمون :

كيف يكون اضطراب اهل بغداد ، وانت نازل في اخوالك وبيعتك في اعناقهم، اصبر وانا اضمن لك الخلافة ...

اتراه اراد ان يكون رسول سلام بين الاميرين، ام اراد ان يجعل المأمون وامه فارسية خليفة في خراسان ، لترتفع اسهم الفرس كما كانت ايام البرامكة

ويكون هو الرجل الاول بعد امير المؤمنين ؟؟

ان ابن الربيع يلعب دوره في بغداد وهو رجل فساد ولؤم ، وابن سهل يلعب دوره في خراسان وهو الداهية الحكيم الذي يقابل الفساد بالفساد والعدواة بالعداوة دون ان يشعر الناس انه عدو !

في خراسان المأمون وهدوء اعصابه، وحسن سياسته وصدق فراسته وتدبيره، وفي بغداد الامين وخفته ولهوه وغروره بقوة الخلافة واخلاص الرجال واستسلامه الى المفسدين المرائين ...

٥

عاد الفضل بن الربيع الى بغداد فاصبح هو السيد الاكبر في بلاط الامين، كما كان بعد نكبة البرامكة في بلاط هارون

ورجال القصر اي المستشارون كثيرون ، اقربهم الى الخليفة علي بن عيسى بن ماهان، والسندي بن شاهك وبكر بن المعتمر ، وكوثر الخصي الحبيب اليه وطائفة كبيرة من الخدم والخصيان

ولم يكن للفضل همّ ، غير السعاية التي نذر نفسه لها وقضى حياته كلها يمارسها ويعالجها حتى استقامت له بجميع اسرارها، وامسى سيد السعاة في ذلك الجيل !!..

وله عذره في سعايته بالمأمون ...!

كان يرى ان الخلافة اذا افضت اليه ، لم يبق عليه ، فبدأ يغري الامين به ، كما كان يغري الرشيد بجعفر ، وجعل يحث الاخ على خلع اخيه من ولاية العهد والبيعة لابنه موسى !

ولم يكن الخلع من رأي الخليفة ، بل كان يفكر منذ تولى الامر، في الوفاء لاخويه المأمون والقاسم، دون ان يغير شيئاً من الشروط التي اخذها عليه ابوه

ولكن ابن الربيع لم يسكت ولم يتراجع ...

كان يلح في طلبه في النهار وفي الليل ، كأنه صاحب حق !! ويصغر شأن عبد الله، ويزين لمولاه الخلع وكان يقول له :

ما تنتظر بعبد الله والقاسم ؟ فان البيعة كانت لك قبلهما وانما ادخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد

والامين يصغي اليه ، وهو يتردد ... حتى خضع وهو الضعيف الارادة ، لسلطان السوء ، وانتصر الطمع البشري على شرف النفس ... ورفع امير المؤمنين يديه في النهاية ، مستسلماً الى وزيره الوفي للعرش !!

على انه اراد ان يشاور اصحابه ويستمين برأي القواد والرجال الذين يعيشون في ظله ..

دعا عبد الله بن خازم في اول الليل وعرض عليه فكرة الخلع،فاستعظم الرجل الامر وقال له :

انشدك الله يا امير المؤمنين ان لا تكون اول الخلفاء نكث عهده،ونقض ميثاقه ، ورد رأي الخليفة قبله ، فقال :

اسكت .. فعبد الملك بن صالح كان افضل منك رأياً ، واكمل نظراً اذ قال : لا يجتمع فحلان في اجمة !!

ثم امر فجمع القواد وحدثهم بالامر

فكثرت الآراء .. هذا يماشيه في هواه ، وهذا يخالفه ، حتى جاء دور خزيمة بن خازم وكان من اصدق الناس ، فقال :

يا امير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبك ، ولم يغشك من صدقك...لا تجرىء القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول ، والناكث مغلول ..

فاقبل على علي بن ماهان ، وابتسم له ، وقال:

ولكن شيخ الدعوة ، ونائب هذه الدولة،لا يخالف امير المؤمنين ولا يوهن طاعته

ورفعه الى موضع لم يرفعه اليه من قبل

ذلك لانه كان مع الفضل بن الربيع ، يزينان له الخلع ، ويوغران صدره على عبد الله

واستولت تلك الفكرة ، النكث بالعهد عليه ، وكان يقول للفضل :

يا فضل أحياة مع عبد الله ؟؟ لا بد من خلعه !

والفضل يمعن في الاغراء ويقول :

فمتى ذلك يا امير المؤمنين ، أتنتظره حتي يشتد ساعده ويمتد نفوذه الى الاقاليم التي تجاور خراسان ؟

قال : فكيف نبدأ

قال : تعزل اخاك القاسم عما كان الرشيد قد ولاه ، وتأمره بالمجيء الى بغداد ثم تكتب الى عمالك في جميع الاقطار بالدعاء لابنك موسى بالامرة بعد الدعاء للمأمون وللقاسم ثم نرى ما يكون ...

انه دهاء من الفضل لا بأس به ..

اراد ان « يداعب » المامون ، بعزل القاسم عن ولايته ، على ان يبقى ولياً للعهد كما جعله الرشيد ، ثم يصبر ليرى تأثير هذه « المداعبة » في امير خراسان ...

ونفذ فكرته سنة اربع وتسعين ومئة

بعث بكتب ، موقعة بخاتم الخلافة ، الى جميع العمال في الاقاليم ، بامرة موسى وعزل القاسم عن عمله

وتحدث الناس بالامرين وعجبوا بنوع خاص ، لولاية موسى وهو طفل ، وعرف العقلاء منهم ورجال السياسة ، ان وراء هذه الخطوة اموراً اخرى يقدم عليها الخليفة باشارة من ابن الربيع

وانتظروا كما كان ينتظر الفضل جواب القاسم او جواب المامون

وعندما انتهى الخبر الى خراسان ، لم يستغربه الامير واصحابه ، فقد كانوا واثقين بان الفضل بن الربيع لا يقف في اغرائه ولؤمه عند حد ، وان الامين

الذي يدعونه خليفة المسلمين لا ارادة له...

وايقنوا ، بان عزل القاسم ، سيتبعه بعد قليل عزل المأمون ، وليس هنالك ما يمنع محمداً من خلع اخويه عن ولاية العهد

وكان رأي البعض من اهل السلام ، ان يسكت المأمون .. ويظهر لاخيه انه راض بما فعل

ولكن الفضل بن سهل ، كان يعدّ اقدام الامين على مثل هذا الامر ، استخفافاً بالقاسم وبالمأمون ، في وقت واحد ، ويعتقد ، ان السكوت عنه ، يدفعه الى الامعان في الاستخفاف

هو يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ونحن نفعل ما نشاء ولا نبالي ..

قالها الفضل لمولاه ، وقد عوّل على اثبات وجوده ، لزميله العزيز .. الفضل بن الربيع ، فقال المأمون :

وماذا نصنع ؟

قال : اذا اراد الامير ، فليسقط اسم الامين من الطراز وليقطع بريد خراسان عنه

وقبل ان يجيبه ، دخل الحاجب يقول :

بالباب رجل يحمل كتاباً من هرثمة بن اعين

فقال للفضل : كان هرثمة ، ومعه طاهر بن الحسين ، قد كتبا الينا انهما يسعيان ليستسلم رافع بن الليث وينضم الينا ، أتراه فعل .. وقال لنوفل :

ائذن للرجل

فلما دخل سأله قائلاً :

قل لنا ، قبل ان نقرأ كتابك ، أفشل هرثمة ؟

— لا يا مولاي بل هو الظافر وقد استسلم رافع ..

فاشرق جبينه قائلاً : هات الكتاب

وجعل يقرأ وقد افترّ ثغره ، ثم دفعه الى الفضل وقال لنوفل : اعط

الرجل ثلاثة آلاف درهم ، وسيسلم الفضل اليه الجواب بعد قليل
واومأ الى الاثنين فخرجا ، فقال :
ان رافعاً كثير الكتائب ، وبيته بيت رفعة ومجد ، فكأن السماء ارسلت الينا قوة جديدة تنضم الى قوى خراسان ... اقطع البريد عن الامين واسقط اسمه من الطراز ...
ثم دعا قواده وخاصته ، وخبرهم بما جرى ، فهنأوه بخضوع رافع ، وكانوا جميعهم من رأيه ، في قضية الطراز والبريد
وبعد ايام ،قدم هرثمة وطاهر مرو ، فاكرمهما المأمون ، وولى هرثمة قيادة الحرس ، وبالغ في اظهار رضاه عنه ،
وبلغت هذه الاخبار الامين ، فانكرها ، واضطرب لاستسلام رافع بن الليث ، ثم رأى ، بمشورة الفضل بن الربيع ، ان يسبر الغور من ناحية اخرى ويخلق سبباً للنزاع !!
كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الري ، يأمره بان يبعث اليه ، بغرائب غراس البلد الذي هو فيه ، وهو يريد بذلك امتحانه
والعباس بن عبد الله .. مسكين .. وقلبه ابيض كما يقولون ...
بعث اليه بما امره به وهو لا يعلم ان المأمون رجالاً في ارض خراسان ، لا يغفلون عن شيء . وكانت نتيجة هذه البلاهة ، انه عزل عن الولاية ، وخلفه رجل يقال له الحسن بن علي ،
وهكذا استطاعت سياسة ابن الربيع ، ان تبعد عاملاً له مكانته ، عن المأمون ، نكاية بسياسة ابن سهل ، التي قرّبت رافعاً ، وضمته الى الحزب الخراساني
اجل ، ان النزاع لم يكن بين الاخوين وحسب ، بل كان بين الفضلين .. وهو نزاع عنيف ، فيه الحيلة والخبرة والدهاء ، وفيه القوة ومضاء العزيمة ، يسند كل ذلك ، خليفة في بغداد ، وامير في خراسان

ولا ننكر ، ان الفضلين ، رجلا سياسة وشدة ، ولكن الوزير الخراساني ، ابعد نظراً واعظم دهاءً ، من الفضل البغدادي ..

خذ لك مثلاً جديداً ، من امثلة الامتحان .. اراده امير المؤمنين وامناء سره ..

كتب الامين الى المأمون ، يسأله ان ينزل له عن بعض النوحي في خراسان ، وان يرضى بان يرسل اليه هو ، اي الامين ، رجلاً يوليه البريد ، لينقل اليه اخباره !

فاستشار المأمون ، على عادته ، خاصته وقواده ، فاشاروا عليه ، وهم من رجال السلام كما ذكرنا ، بان يحتمل هذا الشر ، ويجيبه اليه ، خوفاً من الوقوع في شر اعظم منه

فقال لهم الحسن بن سهل اخو الفضل :

اتعلمون ان الامين طلب ما ليس له

قالوا : نعم

— وهل تثقون بسكوته بعد ذلك فلا يطلب غيرها ؟

قالو : لا

— فان طلب غيرها فماذا تصنعون؟

— تمنعه

— اذن فليكن المنع الآن فان له في كل يوم طلباً جديداً ..

فقال المأمون للفضل : ما تقول انت ؟

— اني من رأي الحسن يا مولاي

قال : اكتب اذاً الى الامين :

« ان البلاد التي اردت ان انزل عنها لك ، اثبتها الرشيد امير المؤمنين في عهده ، وجعل امرها الي فان شئت فلتبق لي »

فعقد الامين مجلساً من مستشاريه ، وقعد يصغي الى مـــا يقولون ، حتى اهتدوا اخيراً الى امر يخرج فيه الامين من وراء الستار ، ويظهر سافراً امـام

اخيه ، وامام العرب جميعها ، ساخراً هازئـــاً بالعهود ، وبنتائـج هـذا الغرور

دعا اربعة من رجال الخبرة والرأي ، العباس بن موسى بن عيسى ،وعيسى بن جعفر بن المنصور ، « شفيق زبيدة » وصالح صاحب المصـلى ، ومحمـد بن عيسى بن نهيك ، وامرهم بالمسير الى مرو ، وان يطلبوا الى المأمون ، ان يقدم موسى بن الامين على نفسه ، في ولاية العهد ،وان يترك خراسان الى بغداد المشوق امير المؤمنين اليه كثير ، وقد استوحش لبعده عنه !!!

وفي الليلة ، التي انصرف فيها هؤلاء الرجال ، من مجلس الخليفة خرج من بغداد رجل يريد خراسان ، لينقل الى المأمون خبر الوفد البغدادي الذي سيمثل بين يديه !!

وهو من الجواسيس ، الذين يشتغلون في بغداد لحساب خراسان ..

فكتب المأمون الى عماله ، في نيسـابور والري ، يأمرهم بان يظهروا القوة والعدة ، يوم يمر ببلادهم ، المندوبون الاربعة ، الذين فوض اليهم الامين ،ان يستعينوا بجميع حيل الشياطين لبلوغ الغاية ..

وكانت غاية المأمون ، ومستشاره الاكبر ، الفضل بن سهل ، من اظهار القوة ، ان يصف الوفد للخليفة وللناس ، ما رآه في خراسان ،من منعة ونظام وسلاح وجيش

فقد يمتنع الامين ، بعد ان يصف له رجاله استعداد اخيه ، عن الامعـان في الاعتداء ، والاصغاء الى اكاذيب الفضل بن الربيع

ورأى الرسل ، ما اراد المأمون ان ان يروه ..

ثم قدموا مرو ، وسلموا الى الامير رسالة اخيه ، التي كتبها اسماعيـل بن صبيح ، وهذا بعض ما جاء فيها ، ننشره وننشر اقوال رجال الوفد ،التي تظهر فيها « ديبلوماسية » ذلك العهد

« من عند الامين محمد امير المؤمنين الى عبد الله بن هارون

اما بعد وان امير المؤمنين ، رأى في امرك ، والموضع الذي انت فيه من

ثغرك ، ما يؤمل في قربك ، من المعاونة على ماحمله الله وقلده من امور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان امير المؤمنين الرشيد ، اوجب لك من الولاية وامر به من افرادك على ما يصير اليك منها »

« ومنها

« وقد علم امير المؤمنين ، ان مكانك بالقرب منه اسدّ للثغور ، واصلح للجنود ، وارد على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعاً عن اهل بيتك ، متغيباً عن امير المؤمنين ، وما يحب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . »

« وقد رأى امير المؤمنين ، ان يولي ابنه موسى ، فيما يقلده من خلافتك ، ما يحدث اليه من امرك ونهيك ، فاقدم على امير المؤمنين ، على بركة الله وعونه ، بابسط امل ، وافسح رجاء ، واحمد عاقبة ، فانك اولى من استعان به امير المؤمنين على اموره ، واحتمل عنه النصب ، فيما فيه صلاح اهـــل بيته والسلام »

وتكلم رئيس الوفد ، العباس بن موسى ، فحمد الله ثم قال :

ايها الامير ، ان اخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلا عظيماً ، ومن النظر في امور الناس عبئاً جليلا ، وقد صدقت نيته في الخير ، فاعوزه الوزراء والاعوان على العدل ، وقليل ما يأنس باهل بيته ، وانت اخوه ، وقد فزع اليـك في اموره ، واملك للموآزرة والمعونة ، ولسنا نستبطئك في بره ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعته تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه انس عظيم ، وصلاح لدولته وسلطانه ، فاجب ايها الامير دعوة اخيك وآثر طاعته ، واعنه على ما استعانك عليه تقوي امره ، فان في ذلك قضاء الحق ، وصلة الرحم ، وصلاح الدولة ، وعز الخلافة ، عزم الله للامير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه ..

وقام عيسى بن جعفر ، خال الامين ، فقال :

ان الاكثار على الامير في القول خرق ، والاقتصار في تعريفـه ما يجب من حق امير المؤمنين تقصير .. وقد غاب الامير اكرمه الله عن امير المؤمنين

ولم يستغن عن قربه ، ولا يجد عنه غنى ، ولا يجد منه خلفاً وعوضاً ، والامير اولى من برّ اخاه ، واطاع امامه ، فليعمل الامير فيما كتب به اليه امير المؤمنين ، بما هو ارضي واقرب من موافقة امير المؤمنين ومحبته ، فان القدوم عليه فضل وحظ عظيم ، والابطاء عنه ضرر ومكروه على المسلمين

وتكلم محمد بن نهيك فقال:

ايها الامير ، انا لا نزيدك بالتطويل فيما انت عليه من المعرفة بحق امير المؤمنين ولا نحملك بالحطب على النظر والعناية بامور المسلمين ، وقد اعوز امير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرته ، وتناولك فزعاً اليك في المعونة والتقوية له ، في امره ، فان تجب امير المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك واهل بيتك ، وان تقعد ، يغن الله امير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك بما هو عليه من البر بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك ،

ثم جاء دور صالح صاحب المصلى ، ويظهر انه كان في « الدبلوماسية » من الطراز الاول قال :

ايها الامير ، ان الخلافة ثقيلة ، والاعوان قليل ، ومن يكيد هذه الدولة ، وينطوي على غشها والمعاندة لاوليائها ، من اهل الخلاف والمعصية كثير ، وانت اخو امير المؤمنين وشقيقه ، وصلاح الامور وفسادها راجع عليك وعليه ، اذ انت ولي عهده ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك امير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من اموره ، وفي اجابتك اياه الى القدوم عليه صلاح في الخلافة ، وانس وسكون لاهل الملة والذمة ، وفق الله الامير ، وقضى له بالذي هو احب اليه وانفع له

فلما انتهوا ، قال المأمون : دعونا ننظر في الامر

فانصرفوا الى الدار التي اعدت لهم

والتفت الامير الى الفضل قائلاً :

والآن ، ماذا ترى ؟

وكان احمد بن هشام ، وهو من اركان الجيش ، في الرواق ،

فناداه الفضل وقال له

أين ابوك ؟

— في المسجد

قال : ان الامير بحاجة اليه الساعة

وهشام ، من الشيوخ العقلاء واصحاب الرأي ، ومن عادة المأمون ، ان يشاوره في معظم اموره

فلما دخل يتوكأ على عصاه ، امره الامير بالجلوس ثم قال: خذ واقرأ كتاب الامين

فقرأ وقال : انه يدعوك الى بغداد يامولاي ...

—اجل ، وفي هذا اردنا ان نشاورك

قال : انما اخذت البيعة علينا على ان لا تخرج من خراسان ،فمتى خرجت فلا بيعة لك في اعناقنا .. واني لاتعلق بك بيميني ، فان قطعت ، تعلقت بيساري ، فان قطعت تعلقت بلساني ، فاذا ضربت عنقي كنت اديت ما عليّ

قال : كفى كفى .. قل لرئيس الوفد يا فضل ان يحضر

فبعث اليه فدخل المجلس فقال المأمون :

قل لامير المؤمنين اني لا استطيع ان اترك خراسان فهي الولاية التي جعلها لي امير المؤمنين الرشيد .. ولا استطيع ان اقدّم ابنه موسى على نفسي واهضم حقي بيدي ...

فقال العباس بن موسى :

وما عليك ايها الامير ان فعلت ، هذا جدّي عيسى بن موسى وقد خلع ، فماضرّه ؟

فصاح به الفضل بن سهل قائلاً :

اسكت ، ان جدك كان اسيراً في ايديهم ، وهذا الامير بين اخواله وشيعته

ثم قاموا ، فخلا الفضل بالعباس واستخدم دهاءه ...

عرض عليه ان يكون عوناً لهم في امرهم .. وجعل يستميله ويمنيه .. ثم وعده بان يوليه امارة الموسم ، وبعض المواضع في مصر ...

فاجاب الى ما طلب ، وبايع المأمون سراً ، وكان يكتب اليهم بالاخبار من بغداد ، وقد استندوا الى اخباره ، لانه من رجال البلاط ، ووثقوا به ، كما استندوا ووثقوا برجال آخرين كانوا من هذا الصف يرسلون اخبارهم الى المأمون مع احدى النساء !!

رجع الوفد الى بغداد ، ينقل الى الامين ما جرى له ، فعرف ابن الربيع ، وابن ماهان ، ومن حولها ، ان الامير الممتنع والمستقل في خراسان ، لا يسقط في الشرك ، وانه ، وهو بين شيعته واخواله ، لايخاف احداً

فلم يبق لهم ، الا ان يطلبوا من الامين ، ويلحّوا في الطلب ، ليحملوه على البيعة لابنه ، وخلع المأمون

وتلك كانت رغبة الخليفة اليوم ، بعد ذلك التردد الذي اظهره من قبل ، ولم يلبث حتى باح برغبته لرجاله

فقال له يحيى بن سليم ، وهو من اهل النظر والحزم ..

كيف تفعل هذا يا امير المؤمنين ، وتخالف بيعة ابيك الرشيد ، وما اخذه من العهود في الكتاب الذى كتبه ، فقال:

ان رأي الرشيد كان فلتة !! حمله عليها جعفر بن يحيى ، بسحره ، فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه معه ، الا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الامور الا بالراحة منه ، فقال :

اذا كان هوى امير المؤمنين في الخلع ، فلا تجاهره مجاهرة فيستنكرها الناس ، ولكن تستدعي الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد ، وتؤنسهم بالالطاف والهدايا ، وترغبهم في الاموال ، وتستميلهم بالاطماع ، فاذا وهنت قوة المأمون امرته بالقدوم عليك ، فان اقبل صار الى الذي تريد منه ، وان ابى ، كنت قد تناولته وقد كل حده ، وهيض جناحه

فقال محمد

انك مهذار خطيب ، ولست بـــذي رأي ... قم فالحق بمدادك واقلامك ..

وامر عند ئذ بالدعاء لنفسه ولطفله ، وسمّاه الناطق بالحق ، وامر بالامتناع عن الدعاء لاخويه ، المأمون والقاسم

فبادر بعض الولاة ، وقد اتسع لهم مجال الزلفى ، الى التقرب منــه ، والتحبب اليه ، واخذوا البيعة للطفل في بلادهم

واول من فعل ذلك ، بشر بن سعيد الازدي ، وصاحب المدينة ، ومكة ، واخذ البيعة على الناس ، في بغداد ، الفضل بن الربيع

وموسى يومئذ ، لاينطق بامر ، ولا يعرف لا حسناً ولا قبيحاً ،وهو يحتاج الى من يخدمه في نهاره وليله ، وقيامه وقعوده ...

فقال في ذلك ، علي الاعمى من قصيدة :

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الامام وجهل المشير

ففضل وزير ، وبكر مشير ... يريدان ما فيه حتف الامير

« يريد ببكر ، ابن المعتمر »

وما ذاك الا طريق غرور ... وشر المسالك طرق الغرور

فعال الخليفـة اعجوبـــة ... واعجب منها فعـال الوزير

واعجـب من ذا وذا اننا ... نبايـع للطفل فينا الصغـير

وما ذاك الا بفضل وبكر ... يريدان نقض الكتاب المنير

وهذان لولا انقلاب الزمان ... أفي العير هذان ام في النفير

فيارب فاقبضهما عاجـــلا ... اليك واورد عذاب السعير

ونكل بفضل واشياعـه ... وصلبهم حول هذي الجسور

٦

عندما انصرف وفد الامين من مرو ، ارسل المأمون الى الحدود ، حراسه

يضبطون المسالك والطرق ، ويمنعون الناس من الدخول الى خراسان الا بجواز
ذلك لان الفضل ابن سهل ، كان يخاف ، وهو الحكيم الكثير الحذر ، ان يكثر جواسيس الفضل بن الربيع ، وينتشروا في ذلك القطر ، فيفسدوا جماعات الناس الذين اطاعوا المأمون وخضعوا له ، ثم يبعثون الى مولاهم بما يرون ويسمعون

لقد كان التجسس في ذلك العهد كثير الشيوع ، كما علمت ، لولي العهد عيون على الخليفة ، وللخليفة عيون على ولي العهد والراشدين من بنيه ، وعلى عماله وخدمه وجواريه ، وللولاة ، والوزراء ، واعضاء الاسرة المالكة ، عيون في القصور ، وفي المدينة ، وفي صفوف الجيش .. وكما كان للفضل بن سهل جواسيس في بغداد ، هكذا كان لابن الربيع جواسيس في خراسان ، حتى كانت الاقوال التي يتلفظ بها رجال الخليفة ووزراؤه في عاصمة الخلافة ، تنقل الى مرو ، وما يقال في مرو ينقل الى بغداد .. ويعلم الناس الذين ذكرناهم لك كل ما يجري في قصور الملوك والامراء ... وفي الاندية العامة ومجالس الغناء ...!

وكان الحراس ، الذين تولوا حفظ الحدود ، من ثقات الخراسانيين الذين يجودون بالارواح في سبيل المأمون ،

كانوا يمنعون العربي والفارسي ، من دخول البلد الذي يحرسونه ، ولا يأذنون لاحدهما الا اذا ضمنه وجيه من اهل البلد نفسه .. او كانت لهم به معرفة من قبل ، او كان تاجراً له مكانته بين الناس ، وله الماضي الذي لا يشك فيه ..

وفتشت الرسائل ... كما تفعل اقلام المراقبة في حروب هذا الزمان ... ورد الحراس جماعات كثيرة من العرب ، والقي القبض على الذين اشتبه بهم انهم يشتغلون لحساب الامين .. فكانت تلك الفكرة .. فكرة الحراسة والحذر التي خطرت للفضل بن سهل ، حكمة بعيدة الاثر كانت خراسان احوج اليها من مئة الف سيف !!

وبينا القوم على حذرهم ، وهم ينتظرون اخبار بغداد .. انتهى اليهم ان موسى ابن امير المؤمنين امسى ولياً لعهد ابيه ، وان المأمون خلع عن ولايته ، وتمت البيعة للطفل في جميع الاقاليم الخاضعة للامين

ثم بلغهم بعد حين ، ان ابن الربيع لم يكتف بخلع المأمون ، ومنع الدعاء له ، بل جعل رجاله باشارة منه ، يذكرونه بسوء ، وينسبون اليه اقبح النقائص والعيوب

ولو وقف عند هذا الحد لهان الامر ، ولكنه اراد ان يجرد اميرخراسان من كل سلاح ، ويسلبه كل ما يقال له حق .. ويغلق في وجهه جميع الابواب والنوافذ ليكرهه على الوقوف في الخارج والتماس الرضى من اخيه ...

ارسل رجلا يدعى محمد بن عبد الله ، وهو احد حجبة البيت الحرام ، فأتاه بالكتابين اللذين كتبهما الرشيد لولديه ، وعلقهما في الكعبة ، فمزقهما ، وهو يهزأ بما كتب فيهما ، وبالذي كتبهما !!

لقد كانا في نظره ، قصاصتين من الورق ، لا قيمة لهما الا عند صغار العقول !!

واطلع المأمون على كل هذا ، فبدأت الحرب ، حرب الاقلام بين الاخوين ، هذا يكتب الى اخيه ، وهذا يجاوب ، ورسائلهما تنذر بالشر ، وبالحرب يمتشق فيها السيف

وماذا بقي للاخوين ، او للفضلين ، او الحزبين .. وقد امتلأت الصدور بغضاً وحقداً ؟؟ بقي ان يعد كل واحد منهما عدته ، ويتهيأ لقتال عدوه ، فاما ان يظفر فيستقيم له الامر ، واما ان يستسلم ويخضع خضوعاً لا شروط فيه ..

على ان هنالك حقيقة ذكرها جميع المؤرخين ، هي ان المأمون كان يخشى عاقبة عصيانه .. ويخاف ان يفشل ويظفر محمد ، وذلك هو الذل ، الذي كان الموت في نظره خيراً منه ..

ولكن الفضل ازال خوفه ، وكان يقول له :

ارى ان تتمسك بالحق الذي لك ، ولا تجعل لاخيك سبيلاً اليك فتضيع ويضيع ملكك ...

قال : لا استطيع هذا .. ان القواد والجنود مع محمد ، واكثر الاموال قد صارت اليه ، وقد عرفت ان جوائزه وصلاته ملأت ايدي الناس في بغداد ، وانما الناس عبيد الدرهم لا ينظرون اذا وجدوه ، الى بيعة ، ولا يميلون الى الوفاء بعهد فانا ارى ان اعتزل الامر ، وما انا فيه ، والجأ الى خاقان ملك الترك مستجيراً به لعلي آمن على نفسي ..

قال : ابن هارون الرشيد لا يلجأ الى الناس ليحموه ..

ـ اذن اسير الى بغداد واسلم امري الى الامين

قال : ان عاقبة الغدر شديدة ، وتبعة البغي غير مأمونة ، وانا اخاف ان يغدر بك اخوك ، كما اخاف شرهه الى ما في يدك ،

واما ان القواد والجنود مع محمد فرب مقهور قد عاد قاهراً ، وليس النصر يا مولاي بالكثرة والقلة ، والموت اهون من الذل والضيم ، ولست ارى ان تصير الى اخيك متجرداً من قوادك وجندك ، كالرأس الذي فارق الجسد فتكون عنده كبعض رعيته يجري عليك حكمه ، من غير ان تبدي عذراً في قتال او جهاد ...

ثم قال :

ابعث الى الامراء الذين يجاورون خراسان ببعض هدايا البلاد ، وانزل لهم من ضرائبهم ، ثم اجمع اليك اطرافك ، وضم جندك ، واضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال ، ، فان ظفرت ، والا فمت مكرماً عزيزاً

فاطرق الامير ملياً ثم رفع رأسه قائلاً :

اذن فالظفر او الموت .. فاعمل في هذه الامر وغيره بما ترى فانا لا اعرض لك

قال : ساعمل ما فيه الخير ان شاء الله ، وكفانا اننا اصحاب حق لا نعتدي على احد

وبدأ فجمع الجند الذين كانوا في جنبات خراسان ، مع الجنود النازلين في الريّ ، وارسل اليهم الذخيرة والمؤونة والمال ، حتى امسوا في سعة، وامرهم بالا يتجاوزوا الحدود

ثم دعا طاهر بن الحسين ، الذي كان قد جعله عاملا على الري ، وعهد اليه في قيادة ذلك الجيش ، واوصاه باليقظة والشدة في الامر ، وضم اليه بعض القواد والجنود المقيمين بمرو

فعاد طاهر الى الري ، وهو القائد الكثير الحذر، فبث رجاله في كل موضع من مواضع الحدود ، وخطب فيهم قائلا :

ان عدوكم على الابواب ، فلا تستخفوا به ، ولا تغمضوا العيون.

واما الامين ، او الفضل بن الربيع ، فانه وجه عصمة بن حماد الى همذان ، في الف رجل ، ليتبين منها امور خراسان واخبارها ، ويطلعه على ما يعلم

ثم استطاع اي الفضل ، ومعه علي بن ماهان ، ان يغريا امير المؤمنين بحرب اخيه

فسمع لهما ، وامر اولاً باسقاط الدراهم والدنانير ، التي ضربت في خراسان باسم المأمون ، ولم يكن عليها اسمه ، وعوّل بقوة الاغراء ، القتال على ...

oo

عندما بايع الامين لولده موسى ، بولاية العهد ، جعله في حجر علي بن ماهان ، وجعل على شرطته محمد بن عيسى بن نهيك ، وعلى حرسه اخاه عثمان بن نهيك ، وعلى رسائله علي بن صالح صاحب المصلى ..

فلما عمد الى اخضاع المأمون ، بقوة السيف ، أمر الفضل بن الربيع ، بان يدعو هؤلاء ، والعباس بن موسى ، وبكر بن المعتمر، والخصي كوثراً.. وبعض الاشخاص من رجال البلاط

وعلى اثر الاجتماع ، في مساء ذلك اليوم ، عرف الناس في بغداد،ان امير المؤمنين ، ولىّ علي بن ماهان ، قيادة الجيش الذي يقوم بحرب اخيه

واي شيء دعا الامين ، الى اختيار علي بن ماهان دون غيره للقيادة، وهو شيخ ، وحوله في بغداد ، طائفة من كبار القواد الذين ابلوا في حروب الخلافة احسن بلاء ؟!

ان لذلك سبباً خلقه الفضل بن سهل ، هو غاية في الفطنة والسياسة والدهاء..

لقد كان علي بن ماهان ، ايام الرشيد ،والياً على خراسان،فاساءالسيرة في اهلها وظلمهم ، واستخف بهم ، واستحل مالهم ، فشكوه الى الرشيد ، فغضب عليه ثم رضي ، ثم شكوه مرة ثانية فعزله ، ولم يبق له في صدور الخراسانيين غير البغض ، فهم يكرهونه ، ويكرهون اهل بيته،ولايطيقون ان يذكر لهم اسمه

والفضل بن سهل يعرف ذلك ، كما يعرفه سواه ،

فكتب الى عين له ، في بلاط الامين ، ولعله العباس بن موسى — يسأله ان يشير على الخليفة باختيار بن ماهان لحرب المأمون وغايته من ذلك ان يزداد اهل خراسان ، شدة وقوة في قتاله ،

ففعل الرجل ما امره به الفضل ، وتولى علي القيادة كما رأيت !

وهنالك سبب آخر خلقه ابن ماهان نفسه ، وقد دفعه اليه القدر .. هو انه قال للامين :

ان اهل خراسان كتبوا اليه ، يسألونه ان يتولى هو القيادة ليطيعوه ، ويخضعوا له ،

فأمره الخليفة بالمسير ، واقطعه نهاوند ، واصبهان ، وهمذان، وولاه خراجها وحربها ، وحكمه في المدن والقرى ، التي يجعلها طريقاً له ، وضم اليه جماعة من القواد

ثم كتب الى دلف ابي القاسم العجلي ، وهلال بن عبدالله الحضرمي، ليكونا

تحت لوائه ، وامر له بمائتي الف دينار ، ولولده بخمسين الفاً ، واعطاه الفي سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخلع ، ووهب للجيش الكثير من المال !!!

ثم جمع اهل بيته ، ومشيريه ، وجعل يروي لهم ما جرى بينه وبين اخيه وكان من المنتظر ، لو كان الرأي العام على دعوته ، ان يقوم عند تذمن الناس من يشكر له عمله ، ويعمل على نشر الدعوة له

ولكننا نرى ، ان الذين تكلموا بعده ، ثلاثة رجال هم من الخاصة الذين يأكلون خبزه ، ويحرقون بخورهم كل يوم عند قدميه !!

سعيد بن الفضل الخطيب ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، الذي جعله على شرطة ابنه موسى ، « الناطق بحق » ، والفضل بن الربيع ، الذي قال في معرض كلامه :

يا جنود خراسان ، ان الامير موسى ولي العهد أمر لكم من صلب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم

وكان الناس يعلمون ، ان موسى كان طفلاً غراً ، لا يفهم شيئاً عما يفعلونه باسمه ولحسابه ...

وعرفوا ان ذلك رياء ونفاق من الفضل بن الربيع

فلما عول ابن ماهان على ترك بغداد ، ركب الى باب زبيدة ام الامين ليودعها ، فقالت له :

يا علي ، ان امير المؤمنين ، وان كان ولدي ، واليه تناهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فاني على عبد الله متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه واذى ، فاعرف له حق ابيه واخوته ، ولا تجبهه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد او غل ، ولا تمنع عنه جارية او خادم ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وان شتمك فاحتمل منه

ثم دفعت اليه قيداً من الفضة وقالت له :

ان صار اليك فقيده بهذا القيد !!

نقول ، ان هذا الاجلال والاحترام ، تعترف زبيدة انهما من حق المأمون أمر فيه عجب ، ونحن لا نميل كثيراً الى الايمان بصحته ..

ذلك لان المؤرخين ، لم يذكروا قبله شيئاً من عطف زبيدة على عبد الله بن مراجل ... الذي هو المأمون ... ولم يبد للذين عالجوا التاريخ مثلما نعالجه ، مظهر واحد من مظاهر هذا العطف ، في حياة الرشيد وبعد موته

بلى .. قد تكون هنالك ظاهرة جديدة اوحى بها الى ام جعفر ، وثوقها بان المأمون سيفشل ، ثم يخضع ، ويذل ، فاحبت ان يتناقل الناس كلمتها هذه ويرددوها في بغداد ، وفي كل قطر من اقطار العرب ، ويتحدثوا بادب نفسها وعاطفتها الصادقة ، ويشكروا لها هذه الشمائل الطيبة والخلق الكريم ..!

تلك كانت غايتها اذا صحت الرواية ..

على اننا لا نعتقد ، من هذه الناحية ، انها صحيحة ، كما اننا نعتقد على افتراض صحتها ، انها كانت تظاهراً فيه الكثير من الدهاء ، وان صدر ام جعفر ، لم يتسع مرة واحدة .. لحب المأمون

●

٧

خرج علي بن عيسى ، بن ماهان ، من بغداد ، سنة خمس وتسعين ، على رأس اربعين الفاً من رجال الحرب

وركب الامين يشيعه ، ومعه القواد والجند ،

وقد قال شيوخ بغداد يومئذ : انهم لم يروا جيشاً اوفر عدة وسلاحاً من هذا الجيش

فلما انتهوا الى باب خراسان ، ترجل الخليفة ، واقبل يوصي علياً

قائلاً له :

امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على اهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وول الري ابنك يحيى ، وضم اليه الجند ، ومره بان يدفع اليهم ارزاقهم مما يجيء من الخراج ، وول كل بلد ترحل عنه، رجلاً من اصحابك ومن خرج اليك من اهل خراسان ووجوهها ، فاظهر اكرامه، واحسن جائزته ولا تعاقب اخاً باخيه ، وضع عن اهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن احداً رماك بسهم ، او طعن في اصحابك برمح ،

وهي وصية ، اقل ما يقال فيها ، ان صاحبها،فصيح اللسان ،متوقدالذهن يتعهد قواده بالنصح والرأي الى حد غير قليل

ثم امر علياً ، ان قاتله المأمون ، ان يحرض الناس على اسره ...

وسار علي ، فلقيه الناس عندجلولاء ، فسألهم عن طاهر بن الحسين ، فقالوا له :

انه مقيم بالري ، يعرض اصحابه ، والمدد يأتيه من خراسان وهو يستعد للقتال ، فقال :

ما طاهر الا شوكة من اغصاني ، وشرارة من ناري ... وما مثله يتولى الجيوش ، ثم قال لاصحابه :

لا تقع عين طاهر عليكم حتى يستسلم ، فان السخل لا تقوى على نطاح الكباش ، والثعالب لا تقوى على لقاء الاسد .. فان اقام تعرض لحد السيف واسنة الرماح ، واذا قاربنا الري ، ودنونا من جنده دب فيهم الذعر

ثم ارسل الكتب الى امراء الديلم ، وطبرستان ، وما حولها وأهدى اليهم التيجان والخلع ، وامرهم بان يقطعوا طريق خراسان

حتى اتى اول اعمال الري ، فقال له حاتم الطائي :

لو ارسلت الطلائع وحفرت خندقاً للجيش ، فقال :

مثل طاهر لا يستعد له ، وان الحال ستنتهي به الى واحد من أمرين ،اما ان يتحصن بالري فيبيته اهلها فيكفونا امره ، واما ان يتركها ويتراجع ، اذا

قربت خيلنا منه، قال :

لو كانت غايته الرجوع لفعل فقد قاربناه

فلم يفعل ، وظل على رأيه

وكان بينه وبين الري عشرة فراسخ ، فقال طاهر لوجوه جيشه :

ما رأيكم؟

قالوا : نقيم بالري وندافع فنقدر على المماطلة حتى يأتينا المدد

قال : ان الرأي ليس ما رأيتم ، فاهل الري يخافون علياً ، ويهابون سطوته ومعه من اعراب البوادي ، وصعاليك الجبال والقرى طوائف كثيرة يخشى جانبها ، فان أقمنا بالري ، وثب أهلها بنا خوفاً من علي ، فقالوا :

وماذا تصنع ؟

ـ نسير اليه ، فان ظفرنا ، والا رجعنا الى الري فقاتلناه

ثم نادى في اصحابه ، وخرج في اقل من اربعة آلاف !!! وضرب خيامه على خمسة فراسخ

فاتاه احمد بن هشام ، وكان على شرطته ، فقال :

اذا اتانا علي بن عيسى غداً وقال لنا : انا عامل امير المؤمنين ، فليس لنا ان نحاربه لاننا لسنا من الخوارج ، فدعني وما اريد ، قال : افعل

فصعد المنبر فخلع محمداً ودعا المأمون بالخلافة

فقال احدالقواد لطاهر :

لو اخرت الحرب ،ليعرف جندك المأخذ في قتال العدو

قال : ليس في هذا شيء من الحزم .. ان اصحابي قليل ، والعدو كثير ، فان اخرت القتال ، اطلعوا على قلتنا واستمالوا من لا صبر له من رجالنا،ولكني اقدم الصفوف ، واعتمد على الطاعة والوفاء ، واصبر صبر المؤمن بالله الحريص على الفوز بالشهادة ، فان نصرنا الله فذلك ما نريدونرجو وان تكن الاخرى فلست بأول من قاتل وقتل ، وما عند الله اجزل وافضل ، ثم قال لاصحابه :

بادروا القوم ، فانهم ان وجدوا حرارة السيوف ،وطعن الرماح ،لم يصبروا

وعبّأ جنده جناحين وقلباً ، وجعل الفاً من الرجال ، على عشر رايات مع كل راية مئة رجل ، وبين كل رايتين غلوة سهم

ثم قال : اذا قاتلت الراية الاولى ، وطال قتال رجالها ، فلتتقدم الراية التي تليها وتتأخر هي حتى تستريح

وقسم رجاله الآخرين اقساماً متساوية ، واقبل يحرضهم ويوصيهم

ثم تلاقى الجيشان

فقال احمد بن هشام لطاهر :

الا تريد ان تذكر علي بن ماهان البيعة ، التي اخذها علينا المأمون ، يوم كان عاملا للرشيد على خراسان ؟ قال :

افعل ان شئت

فأخذ احمد صورة البيعة ، فعلقها على رمح ، وقام بين الصفين وطلب الامان ، فامنه علي ، فقال له احمد ؟

الا تتقي الله عز وجل يا ابن ماهان .. أليست هذه نسخة البيعة التي اخذتها علينا انت ؟!! إتق الله فقد بلغت باب قبرك ..

فقال علي لرجاله :

من اتاني به فله الف درهم !!

فشتمه اصحاب احمد ، ورجعوا الى صفهم

وقبل ان يبدأ بالهجوم ، خرج من رجال علي ، رجل لا يبين من وجهه غير عينيه ، يريد القتال ، ويدعو الى البراز

فجعل القواد يتسابقون الى لقائه

فأومأ اليهم طاهر بالبقاء في مواضعهم وحمل عليه هو نفسه ، وجعل يتفرس فيه وفي فرسه ولا يعلم من هو ...

ثم تلاحم السيفان ، وجال الفرسان ، وقد سكت الاثنان لا يسمع الواحد

. وما صوت الآخر ، حتى تعب الفارس البغدادي وظهر تعبه لم يستطع ان
...ه.

فاخذ طاهر سيفه بيديه الاثنتين، واهوى له بضربة فصرعه ، وقبل ان يهم
بالرجوع ، سمع بعضهم يقولون :

هذا حاتم صهر علي ... لقد قتل حاتم الطائي !!

فوضع طاهر يده على جبينه وقال :

ويل لي فقد قتلت صاحبي ...

وكان اهل الري ، قد اغلقوا ابواب المدينة ، فنسي طاهر عند ئذ صاحبه
حالاً وقال لقواده :

اشتغلو بما امامكم ولا تنظروا الى الوراء فانه لا ينجيكم الا الشدة والجد في
القتال

وتلاقت الخيل ، فاقتتلوا قتالا شديداً وكان علي بن ماهان يقول لمن حوله :
اطلبوا طاهراً واقتلوه بحاتم ..

فيجيبه احمد بن هشام قائلًا : ليس في رجالك من يستطيع الوصول الى طاهر
فاطلبه انت !..

وحمل جناح علي الايمن ، على جناح طاهر الايسر ، فانهزم هزيمة منكرة لم تكن
منتظرة ..

ثم هجمت ميسرة علي ، على ميمنة طاهر فأزالتها عن موضعها ، وكاد اليأس
يستولي على النفوس

فالتفت طاهر الى الجيش المتضعضع ثم ركض فرسه بين الصفوف وهو يصيح
قائلا :

اجعلوا قتالكم وبأسكم في القلب .. واحملوا حملة واحدة ،فهذه الرايات
التي ترون ، اذا فضضتم راية منها تراجعت وانضمت اوائلها الى اواخرها فالثبات
الثبات ، والصبر الصبر ...

وتقدمهم الى اول راية من رايات القلب ... وكان هجومهم عنيفاً جداً، وحملتهم

صادقة، فهزموا رجالها ، واكثروا فيهم القتل ، فتراجعت الرايات كما تنبـــأ طاهر

ورأت الجماعات التي انهزمت ، ان العدو يتراجع ، فعادت ، وقد عـاد الامل الى الصدور ، تسوق جيش بغداد بالاسنة ، وتدفعه الى الوراء ... الى الفرار ..

حتى انتهت الهزيمة الى علي ، فجعل ينادي :

اين اصحاب الجوائز والتيجان .. أين حمـاة الملك وحراس الخلافـة .. ؟

أتفرّون من عدوكم الضعيف وانتم ابطال العرب ؟.. اتبعوني وانا اضمـن لكم النصر

وشهر سيفه قائلاً : الى الامام ..

ولكن ، قبل ان يشب به فرسه الى الآمام ، رماه رجل من جيش طاهر بسهم ، فسقط قتيلا .. وداسته الخيل ...

وعند ئذ ، اجل عند ئذ ، حدثت الاعجوبة الكبرى، بانتصار القلةصاحبة الحق ، على الكثرة التي هي على دعوة الباطل ووضع الجيش الخراساني سيوفه في جيش امير المؤمنين ، يتبعه في فراره حتى جاوز الفرسخين ، وقد أوقع فيه اثنتي عشرة مرة وهو يقتل ويأسر ، الى ان حال الليل بين الفريقين ،

ثم نادى المنادي :

من القى سلاحه فهو آمن

فطرحوا السلاح ، ونزلوا عن الخيل ..

فرجع القائد العام الى الري ، واقبل القواد والوجوهيهنئونه بالظفر،وهو يقول :

الحمد لله .. ولكني قتلت صاحبي وجاري في الرقة حاتماً الطائيوانا لا اعرف من هو .. رحمه الله

فقال صاحب شرطته ، احمد بن هشام :

إن الذنب ذنبه ، فهو الذي اقبل يطلب البراز ، وانت لم ترَ وجهه، وكان

عليه ، وانت صاحبه وجاره ان يسفر او يرجع

قال : عرفته في معارك كثيرة فهو لا يتراجع ، ولكن كان عليه كما قلت ، ان ينزع لثامه ويقول : انا حاتم ..

وجعل يردد كلمته :

رحمه الله ... رحمه الله ..

وحملت اليه في ذلك الليل ، جثة علي بن ماهان على خشبة .. وقد شدّت يداه الى رجليه ، كما يفعل في الدواب !!!

فابتسم ابتسامة النصر .. وأمر فقطع الرأس ، والقيت الجثة في بئر ، ثم كتب الى المأمون هذين السطرين البليغين :

بسم الله الرحمن الرحيم :

كتابي الى امير المؤمنين ، ورأس علي بن عيسى بن ماهان بين يدي ، وخاتمه في اصبعي ، وجنده في طاعتي والسلام

فلما تناول الفضل بن سهل الكتاب ، دخل على مولاه فهنأه بالفتح ، وامر الناس فدخلوا بدورهم يسلمون عليه بالخلافة

ورأى المأمون يومئذ ، ان الساعة قد اتت ليعلن خلع اخيه محمد ، ففعل ، واعلن خلافته في القطر الخراساني ، فقابل الناس هذا الاعلان بالابتهاج والاهازيج

وبعد يومين ، وصل الى مرو رأس علي ، فطيف به في البلاد لا تذرف عليه دمعة !!

وكان المأمون ، قد أمر هرثمة بن اعين ، قائد حرسه ، بان يسير في جيش كثير ، جهز له ، نجدة لطاهر ، فأتى هرثمة الخبر بالنصر ، قبل وصوله

واعتق طاهر من كان عنده من الارقاء ، شكراً لله ، وقيل عند ئذ في خلافة المأمون :

اصبحت الامة في غبطة	من امر دنياها ومن دينها
اذ حفظت عهد امام الهدى	خير بني حواء مأمونها

على شفاً كانت فلما وفت ... تخلصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دبرت ... في ولده كتب دواوينها
ألا تراها كيف بعد الردى ... وفقها الله لتزيينها

ooo

٨

كان الامين ، امير المؤمنين ، يصيد السمك ، وكان خادمه كوثر ، الخصي العزيز عليه ، يصيد مثله ، وهو بالقرب منه ..!

فدخل عليه الناعي ، ينعى له علي بن عيسى ، فقال له بشيء من الغضب :

دعني فان هذا الخصي اصطاد سمكتين وانا لم اصد شيئاً !!!

هذا ما ذكره المؤرخون .. أفتصدق ، ان خليفة يبلغ هذا الحد من الاهمال والطيش ، ويستقبل خبراً ، يهتز له عرشه بمثل هذه البلاهة ... وهذا الضعف العجيب ؟!

افكان الرشيد جاهلا ، مستخفاً بدينه ، وامته ودولته ، حتى يولي فتاه الابله .. خلافة المسلمين ، ويعهد اليه في الحرص والدفاع ، عن وحدة العرب ؟!

لك ان تقول ، ان الامين كان مسرفاً ومستهتراً وسكيراً وعباثاً .. بل لك ان تقول ما تشاء .. ولكن يجب ان تعلم ، ان السكير العباث ، لاينسى ـ اذا لم يكن مجنوناً ـ حتى في ساعات سكره وعبثه ، ان يهتم لامر العرش الذي اجلسته الاقدار فيه

اجل ، لقد صور الامين لاهل عصره ، وللاجيال التي اتت بعده ، صورة غريبة ، خلع عليها المؤرخون ثوباً واسعاً من الغلو ، ونسبوا اليه ما نسبوه من نقائص وخطيئات ... وامعنوا في تشبيهه وهجوه ، والاستخفاف به ولكنهم

لم يكونوا على حق ، في بعض ما كتبوه

نعترف ، بان طبيعة الامين ، ونشأته ، واخلاقه ، لم تكن بالمنزلة التي يستحق معها ان يكون خليفة المسلمين

ونعترف ، بان الفرق بينه وبين اخيه المأمون ، يوازي البعد ما بين بغداد وخراسان .. غير ان الذين نقلوا لنا صورته ، غيروا كثيراً من ملامحها .. بل افرطوا في هذا التغيير ..

واننا لا نستغرب ، ما رأيناه من مبالغة ، في مدح المأمون ، ومبالغة في انتقاص الامين .. فالناس مع القوي ، اينما وجد ، وانك لترى معظم الرواة والشعراء ، والكتاب ، والصحفيين ، في الغرب والشرق .. ينتصرون للقوة التي هي نهاية في الكمال ..!! ويحاربون الضعف الذي هو نهاية في النقص ...! ولله في خلقه شؤون

أليس هنالك غلوّ ، فيما ذكروه ، ان علي ابن عيسى بن ماهان ، كان يقود اربعين الفاً من الرجال ، معهم الذخيرة والمؤونة ، والعدة الكاملة والمال ، وان جيش طاهر بن الحسين ، كان اقل من اربعة آلاف .. فهزمت القلة هذه الكثرة في يوم !! ثم لحقت بها فرسخين تضع فيها السيف اثنتي عشرة مرة وتظفر !!!

لقد كان طاهر من اكفاء القواد ، واكثرهم اقداماً وحزماً ، وكان رجاله

اشجع الرجال واكثرهم جلداً وصبراً ، ولكن ، يأذن لنا القارىء ان نظن ، انهم كانوا اكثر من اربعة الاف ، اذ لا يعقل ان ينتصروا على هذه الصورة وفي مثل هذه السرعة ، الا اذا كانوا من الجنّ ...!

عندما اعلن المأمون خلافته واعترف به الناس،اعترف به اهل الري وبايعوه مبتهجين، وشكروا لطاهر فضله اذ انقذهم من ذلك الطاغية الظالم علي بن ماهان

ولكن طاهراً .. الجندي القاسي الذي لم تجد الرحمة سبيلا اليه من قبل ، كان قلبه يتفطر حزناً على حاتم ! وتلك الكآبة البادية في عينيه ، كانت الرثاء البليغ يرثي به ضحيته كل يوم ..

وابلغ مظهر ، من مظاهر ندامته على قتله الطائي، ان الناس بايعوا للمأمون بالخلافة ، ولم يكن هو حاضراً ، وقد قام بأخذ البيعة ، بأمر منه ، صاحب شرطته احمد بن هشام

وتحدث الناس في الري بمقتل حاتم ، حتى عرفت نائلة بنت فهر القيسي، زوجة طاهر، ان جارهم في الرقة قتل بسيف زوجها، وكانوا قد كتموها الخبر، فجعلت تلوم طاهراً على قسوته ، وخروجه على عهود الصحبة ، وهو يحلف لها انه ضربه ولم ير وجهه ..

ثم سألت محمد بن العلاء ، الذي هو من قواد الجيش ، فاثبت لها ان حاتماً عندما خرج الى القتال ، كان محجب الوجه ، ولم يعلم طاهر انه صاحبه الا بعد ان سمع الناس يقولون : قتل حاتم

وهكذا قال الضباط والجنود الذين كانوا في المقدمة

فصدقت ، وكان لطاهر ، في تلك الشهادات ، ما يعتذر به

وانك لترى عبدالله بن طاهر ، وهو في فجر صباه، يذكر حاتماً والدمع في

والده ، ليس لعاطفة تتردد في صدره نحو حاتم نفسه ، بل نحو ابناء حاتم رفاق الطفولة في الرقة .. ونحو زينب، الصغيرة السمراء، التي كانت تضع يدها بيده، وترافقه في الطواف بين الاحياء، كما قرأت، ولا تفارقه الا بعد ان تغرب الشمس...

اجل ، كان يذكر حاتماً .. لان زينب كانت دائماً امام عينيه ..

وقد اوحى اليه عقله .. ان مروان والمغيرة ، وسعدى وزينب ، وامهم حبيبة بنت عيسى، سيملأون الرقة نحيباً وبكاء عندما يبلغهم النعي .. وقد يموت ابو حاتم ، من فرط اللوعة والحزن ، على وحيده ...

قال يوماً لامه وهو مضطرب :

ماذا تصنع ام مروان عندما تعرف غداً ان ابي هو القاتل ؟

فقالت : لأبيك عذر يا بني ، انه قتله في براز كما سمعت ولم يخطر له انه ابو مروان .. ولو عرفه لنصح له بالكف عن القتال ... مسكينة حبيبة .. قتل زوجها ، ثم قتل اخوها علي ، وانهزم جيشه ، وكان بنوه في مقدمة الذين تركوا الساحة لا يهتمون الا للفرار والنجاة .. ان الحرب حرب ، والجندي ، عندما يخوض عجاجها ينسى صاحبه وجاره بل ينسى اباه ... وقد يحارب الاخ اخاه ، كما هي الحال اليوم ، مع خليفة خراسان وخليفة بغداد

اذن فالامين يقتل المأمون اذا ظفر به !

نعم ، كما يقتل المأمون الامين اذا كان هو الظافر

قال : سمعت محمد بن العلاء ، يقول لابي : ان البلاد كلها ستخضع للمأمون بعد حين

هذا ما نتمناه ، فابوك هو القائد العام ، واذا تم النصر لاهل خراسان عاد الفضل في ذلك اليه وحده، وارتفع ذكره في البلاد، وعلت منزلته ومنزلتكم في القوم

قال : لو كنت قائداً لما اقمت اليوم بالري !

- وماذا كنت تفعل

كنت انتقل من موضع الى آخر حتى اصل ظافراً الى عاصمة الامين ،

فاخضعها واخضع خليفتها وقوادها لمولانا المأمون،ثم اسلمها اليه واسير الى الرقة!

ـ وفي الرقة

ـ اقيم بالمنزل الذي كنا نقيم به منذ اربعة اعوام انتظر فيه اوامر الخليفة المأمون ..

ـ وانت تذكر مكانه يا بني ؟

ـ لو غبت عن الرقة خمسين سنة ، ثم عدت اليها ، وكان باقياً ، لعرفته ..

فضحكت قائلة : ينبغي ان تذكر انك قائد، وانك اذا رجعت الى منزلك لا تستطيع ان تلعب مع مروان واخوته ، كما كنتم تفعلون .. لان القواد لا يلعبون ...

ـ ولان الابناء الذين قتل ابوهم لا يفكرون في اللعب ..

وحنى رأسه كأنه يفكر ..

فدخل عندئذ اخوه طلحة ، وهو كبير انجال طاهر ، فقالت نائلة :

أرأيت اباك الآن ؟

ـ انه في بهو المسجد مع محمد بن العلاء والقواد وهم يتحدثون بأمر الحرب، ويعتقدون ان الامين سيوجه اليهم جيشاً آخر يثأر بعلي بن ماهان ويمحو عار الفرار

ـ هذا لا بد منه .. ثم قالت هازئة :

قل لابيك ان يتنحى عن الحرب لان اخاك عبدالله سيتولى القيادة، وسيخضع العرب جميعها لمولانا سيد خراسان ، وهو لا ينتظر ان يجيء جيش بغداد الى الري بل يذهب هو اليه ليسحقه في يوم واحد .. أليس كذلك يا عبدالله ؟

فابتسم وقال : سترين بعد بضعة اعوام ، ان ابنك عبدالله ، الذي تهزأين به الآن ، ستتحدث به بلاد العرب ، من ادناها الى اقصاهـــا ، وسيرفع لواء المأمون في كل قطر يضع قدمه فيه .. ان ابي لا يأذن لي اليوم ، وانا في هذه السن ، ان اخوض المجال مع الجنود .. ولكن الايام بيننا فسأخوضه بعد حين وارفع ذكر آل طاهر بن الحسين الى اعلى قمة من قمم الشهرة والمجد ..

وخرج وهو يقول : ان الذين يبلغون الرابعة عشرة من العمر لا يمنعونهم من حمل السيف

ولم يبالغ عبدالله في قوله ، انه سيرفع اسم اسرته الى الذروة ، فقد اجمع المؤرخون ، على ان قواد المأمون ، ورجال السياسة في دولة خراسان، اظهروا اعجابهم بفطنته وذكائه ، منذ قدم من الرقة وهو غلام ، كما اجمعوا على القول انه اصبح من اعظم الرجال ، عندما بلغ سن الشباب !

طموح الى المعالي لا يقف عند حد.. وسخاء، لا يذكر معه سخاء المأمون.. واخلاص قد لا ينطبق صدر رجل على اصدق منه ، وجرأة في الحق، جعلته في مقام الشيوخ وهو صبي .. اضف الى كل هذا ، وجهاً مليحاً ، ولساناً فصيحاً ومظهراً حسناً ، ورأياً هو رأي الحكيم العاقل الذي خبر دنياه ..

وكثيراً ما كان المأمون يقول لطاهر :

لو كان عبدالله شاباً لوليته ، فيقول طاهر :

اي والله يا مولاي وهو جدير ، على صغر سنه ان يقود الجيوش الى مواقف النصر

وكذلك كان يقول قواد ابيه ، الذين جالسوه وحدثوه

ومن يقرأ التواريخ ، يجد ان هذا الغلام كان من نوابغ عصره ، وقد اجتمعت فيه الشمائل والخصال، التي يستطيع معها ان يفاخر النوابغ في امة العرب

وهو من اصحاب المروءة والهمة .. يستغيث به غلام من رفاقه ، فيمد اليه يد المعونة ، ويجود عليه ابوه بشيء من المال ، فيجود به بدوره ، على من يسأله الاحسان ، لا يبقي لنفسه شيئاً منه ..

ولم يذكر التاريخ ، انه رد سائلا او اغلق بابه في وجه شاعر، وهذه كتب العرب تشهد ، ان جوائزه وصلاته عندما امسى وليّ نفسه ، ملأت ايدي العلماء والادباء ..

ذلك هو عبدالله بن طاهر ، الذي كان في الرقة رفيقاً لابناء حاتم الطائي،

بل رفيقاً لزينب .. في الركض ، واللعب .. وبناء القصور ...

* * *

تناقل الناس في بغداد ، اخبار النكبة الكبرى ، التي نزلت بجيش الامين في الري ، واستغربوا مقتل علي بن عيسى بن ماهان، وفرار جيشه ، وتحدثوا في الرقة فقالوا :

ان طاهراً هو الذي قتل علياً ، قائد جند امير المؤمنين .. ومحمد بن العلاء، من قواد طاهر ، هو قاتل الفارس الطائي

ثم اتى الرقة من يقول :

ان ابن العلاء قتل ابن ماهان ، وطاهر بن الحسين قتل حاتماً : واستشهد ببعض الجنود ، الذين رجعوا الى منازلهم ، وقد شوهتهم الحرب

ثم قالوا بعد ايام :

قتل الاثنان كما تقتل الالوف من الرجال .. والحرب تأكل الاخضر ، كما تأكل اليابس ، ولا يعرف في غمرات السيوف ، من هو القاتل

ولكن ، قام في ذهن الشيخ الطائي . واعتقدت حبيبة ، ان طاهراً هو الذي جنى عليهما ، وليس اصدق من الجنود الذين اشتركوا في المعركة ..

وباتت حبيبة تبكي ، فلما رأى بنوها الاربعة بكاءها ، بكوا .. ثم سمعوها ترثي زوجها واخاها فرددوا الرثاء .. وكلما ذكرت القتيلين ، ذكروهما بمظهر من مظاهر اللوعة ، ودلائل الغم واللهف على الوجوه

ثم يقولوا لآل الطائي ، ان قتيلهم هو الذي طلب البراز ، وكان مقنع الوجه ، وانما قالوا ان طاهراً دعاه الى المبارزة، ثم ضربه بالسيف قبل ان يتهيأ لها .. وعندما سقط عن فرسه اجهز عليه !!

وهل يقول الجنود ، الذين نكبهم طاهر ، وشوهتهم السيوف ، غيرهذا ؟!

ان طاهراً هو العدو الاكبر الذي ينبغي ان يوغروا عليه صدور المسلمين ، ويجعلوه في نظرهم غولاً رهيباً يقتل الابرياء ، ويكرع في الدماء !!

وانه لرهيب غول الري .. يثب على الجيش الجرار فيصرع الرجال بانيابه ... وينشب مخالبه في الاجساد فيبعث بها الى عالم الفناء .. ولكن هذا الغول، كان في مقتل حاتم ، انساناً له الشعور الصادق ، والعاطفة العالية ، وقد بكاه كما بكته حبيبة ، وما برح يبكيه ..

ومن يصف لام مروان اسف طاهر على صديقه وجاره ، اجنود الامين من ابناء الرقة ، ام جنوده من اهل بغداد .. ؟! جميع هؤلاء يطلبون الموت للقائد الظاهر ، ولو استطاعوا ، لشدوا يديه الى رجليه ، كما فعل رجاله بعلي ، وعلقوه ..أمي احدى الساحات !!

اما الشيخ ابو القتيل ، فلم يبك ! ولم تر حبيبة وبنوها دمعة واحدة تجول في عينيه !

كان ذاهلاً لا يقول كلمة ، ولا يصغي الى قول .. بلى .. كان في قيامه وقعوده ، ونهاره وليله ، يتمتم الفاظ اللعنة .. ثم يرفع رأسه الى السماء ، في الصباح والمساء ويقول :

اللهم اقتل طاهر بن الحسين قاتل ولدي !

ثم ينظر الى يده اليمنى المقطوعة ، ويهامس نفسه قائلا :

آه .. ان يدي اليسرى لا تقوى على طعن طاهر !

ثم تصور له اللوعة والحزن ، انه قادر ، على قتل القاتل ، ولو كان بين صفين من الجنود

على انه كان يخفي عينيه بكمه ، كلما وقع نظره على احفاده الاربعة ، الذين قسا عليهم الزمان

ان حشاشته كانت تذوب .. وقلبه كان يبكي ..

وحبيبة ، ! واما حبيبة فلا نحاول ان نصف لك اسفها الذي يأخذ بالنفس ، وليس لنا ان نعرض لذلك الهم المضني الذي طغى عليها وجار .. خسرت

زوجها الكهل ، وبنوه في اشد الحاجة اليه ، ولم يترك لهم غير ضيعة صغيرة بينها وبين الرقة زهاء فرسخين .. وخسرت اخاها ، القائد الكبير، الذي كان يتعهدهم بعنايته ، وكان عوناً لهم في بلاط امير المؤمنين ..

ومن هو ذلك المجرم السفاح ، الذي جنى عليها وعلى اطفالها المنكودي الحظ ؟؟ انه الصديق العزيز والجار القريب طاهر بن الحسين قتله الله ..

وكانت تقف ، كلما فكرت في الامر ، وتستعرض الموقف الذي وصف لها ، من جميع نواحيه ، فيدب الشك في الصدر ، ويقوم في الذهن ان طاهراً بريء ، وان القاتل رجل آخر من رجال الجيش !!

ثم تعود الى تصديق الرواية ، التي رواها الجنود المشوهون ..

ويزيد الهم ، مع هذا الشك ، طغياناً وجوراً !

فعولت يوماً على المسير الى بغداد ، ليقص عليها الخبر كما جرى ، احد ابناء اخيها القتيل

واستشارت حماها ، فوافقها في الرأي ، ثم اوصت ابنتها سعدى ، وجاريتها راوية ، بما تشاء ، وخرجت من الرقة ومعها ولدها مروان ، وعبد لحاتم يقال له مغيث

ودخلت في بغداد ، دار ابن اخيها ، الحسين بن علي ، وعنده بعض وجوه الشماسية والكرخ ، وبعض القواد

فقيل له : عمتك ارملة حاتم !

فترك زواره ونهض يستقبلها في الدهليز ، ويدها بيد مروان ، وهي لا تبصر طريقها لكثرة الدموع ... ثم دخل الثلاثة احدى الحجرات والحسين يقول :

ام مروان هنا ؟ ما الذي اتى بك ، واي غرض لك في بغداد ؟

ـ اما الذي اتى بي ، فهذه المصيبة التي نزلت بنا جميعاً ، وافقدتني الشقيق والزوج ، وحرمتني الكرى ... فقل لي الان اكنت حاضراً مقتل الاثنين ؟

وابتسم بمرارة قائلا : لو كنت حاضراً لما قتلا !

- واين كنت ؟

- جعلني ابي رحمه الله في الجناح الايمن ، وكنت بعيداً عن قلب الجيش الذي فتلافيه

- ومن هو قاتل ابيك ؟ الم يذكروه لك ؟

- رمي بسهم لم يعرف راميه فقتل

- قيل لي ان محمد بن العلاء هو القاتل ..

- كذب القائل ، فالجند لم يروا الرجل الذى اطلق سهمه ولم يعرفوه ،ولو كان ابن العلاء لما كتموني اسمه !

وقاتل حاتم ؟

- اما قاتل حاتم فطاهر بن الحسين وكانا في براز ..

وسكت اللعين ، فلم يذكر القناع ، ولم يرو لها الحادثة كما جرت ، وكما ذكروه ، ثم قال :

اما طاهر فسيقتل .. وامير المؤمنين يعد اليوم جيشاً جديداً يوجه به الى القتال ، وستكون المعركة بينه وبين جيش المأمون هي الاخيرة ان شاء الله

فسكتت قليلا ، ثم جعلت تردد كلمته : طاهر بن الحسين وكانا في براز . ثم تعيدها وترددها حتى خيل الى الحسين انها جنت !

فقال :

ما هذا يا عمة ؟

قالت : خبروني في الرقة ان طاهراً هو الجاني ، فصدقت ، ثم كذبتني ... بعد ذلك ، ودفعني الشك الى ترك بني والقدوم الى بغداد لاسألك عن هذا .. ثم قالت :

متى يخرج الجيش الذي ذكرته ، الى القتال ؟

- بعد شهر ، على الاكثر

- ومن هو الرجل الذي سيختاره الخليفة للقيادة ؟

- لا اعلم ، وقد كان امس يتحدث بشأنه مع الفضل بن الربيع

قالت : أأستطيع اليوم يا ابن اخي ، ان اقابل امير المؤمنين ؟

- انت ، وما الغاية من ذلك ؟

- اسأله ان يأذن لي في الذهاب مع الجند !

فعاد الى الاعتقاد ان المرأة اصيبت بالجنون ، فقال :

مع الجند الزاحف الى قتال طاهر ؟

- نعم ، وسأخترق الصفوف حتى اصل اليه فاضع الخنجر في صدره ثم اقول لرجاله :

اقتلوني فانا ارملة حاتم واخت علي .!

وبكت .. فبكى مروان .. فقال الحسن :

لا يأذن امير المؤمنين للنساء ، ان يتقلدن السيوف ويذهبن الى الحرب .. ان الرجال يعرفون ان يثأروا لحاتم وعلي ، وطاهر هذا لا يقتل الا من يدي فارجعي الى الرقة ولا تقولي لاحد ما قلته لي ..

قالت : كنت احب ان اقول لهذا الخائن، قبل ان يلفظ روحه، ان ارملة حاتم التي قتلت زوجها غدواً قبل ان يتهيأ لبرازك ، هي التي انتقمت له فمت ملعوناً وليكن مقرك النار

قال : ابن اخيك الحسين بن علي ، الذي يتولى قتله ، سيقول له ذلك ، فالقتيلان حاتم وعلي ، بألف قتيل من آل طاهر واصحاب طاهر ..

فحاولت ان تتكلم فمنعها قائلا

لنفترض انك قتلت طاهراً ثم قتلك اصحابه ، فماذا يصنع بنوك وهم لا يجدون حولهم غير شيخ حنت ظهره السنون وسيفاجئه الموت ؟!

فعادت الى البكاء .. وسالت دموع مروان ..

فقال الحسين : امكثي هنا الليلة ، على ان تعودي غداً قبل الصباح ، دون ان يعرف بك احد .. اين عبدكم مغيث ؟

ـ انه في الفناء

فدعاه فقال : ستزجعون الى الرقة صباح غد فاستعد

ونامت حبيبة ليلتها وهي ترى السيف في يدي طاهر ، وترى زوجها مضرجاً بدمه .. والسهم في صدر اخيها علي ، وقد اخترق قلبه ..

وكانت احلامها كثيرة مزعجة .. وهي تود لو ترى طاهراً قتيلا .. ولو بالحلم .. ولكنها لم تره ..

ooo

عرف مروان والمغيرة ، وسعدى وزينب ، بنو حاتم ، ان طاهراً قتل اباهم ، وشاركوا امهم في الرثاء والبكاء .. ولكنهم لم يعرفوا ، ان القدر وقف حاجزاً بينهم وبين بني طاهر ، وان هوة بعيدة الغور ، تفصل بين الفريقين !

ابغضوا طاهراً لانه هو القاتل ، ولم يخطر لهم ان يبغضوا بنيه .. فهؤلاء في نظرهم ابرياء .. وابوهم وحده هو الذي جنى ..!

فلما رجعت حبيبة من بغداد ، اقبلوا ، واقبل حموها يسألونها عما سمعت فقالت :

اما علي فلم يعرف قاتله ، واما حاتم فقاتله ابن الحسين وكانا في براز ، كما خبرنا ابناء الرقة ..

فقال الشيخ : من قص عليك ذلك ؟

ـ الحسين ابن اخي ، وقد طلبت اليه ان يسأل امير المؤمنين ليأذن لي في المسير مع الجيش الثاني الزاحف الى قتال طاهر ، فلم يفعل ، ونصح لي بالرجوع قبل ان يعرف الامين اني ذهبت الى بغداد لهذه الغاية ، سيثأر هو بأبيه وبحاتم ، في المعركة الاولى التي تستعر نارها بين الجيشين

فقالت سعدى : الا يرجع طاهر وبنوه الى الرقة ؟

ـ اسأل الله عز وجل ان يرجعوا .. لماذا تسألينني عن هذا يا بنية ؟

ـ لان الرقة بلدهم وبيتهم فيها ..

قالت ذلك بلهجتها البريئة الساذجة

فقالت امها : ان القوم امسوا اعداء لنا ، وبيننا وبينهم دم .. ولم يبق هنالك سبيل الى اللعب مع فتيان ، ابوهم قتل اباكم وجعلكم ايتاماً .. ولئن جمعني الله بطاهر لاقتلنه ولو كان في فراشه ..!

فقال الشيخ : تثأرين بولدي وانا حي ؟!.. ان يدي اليسرى تحسن حمل السيف ، وقلبي يحدثني باني لا اموت الا بعد ان اخذ روح القاتل الخائن الذي غدر بحاتم ..

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الاحاديث ، التي سمعها مروان واخوته ، لم يستطيعوا ان يفهموا ، ان العداوة التي ذكرتها امهم بينهم ، وبين الجماعة ، تمنعهم من ان يظلوا اصحاباً ورفاقاً لهم كما كانوا من قبل ..

ومن اين لهم ان يفهموا ، ان الثأر عند العرب ، ينتقل من الآباء الى الابناء ولا يموت .. وان الحضر منهم وعشائر البوادي ، تعودوا ان يأخذوا دماً بدم ..

لقد كان ابوهم ، في نظر حبيبة ، ونظر الشيخ ، قتيل غدر ، لا قتيل حرب .. ألم يقولوا للاثنين ان طاهراً ضربه بسيفه قبل ان يتناول هو سيفه ويثبت له ؟! اذن فثأر حبيبة والشيخ لا يموت ، وسيأخذون دماً بدم ..

ولبس اصحابنا الحداد ، كما لبست بغداد والرقة السواد على الفتيان والرجال الذين حصدهم السيف

وانتهى الى الرقة بعد ايام ، ان بعض القواد في بغداد ، مشى الى البعض الآخر ، ـ وذلك في شوال سنة خمس وتسعين ومئة ، فقالوا :

ان علي بن ماهان قد قتل ، ونحن واثقون ، بان الخليفة يحتاج اليوم الى الرجال ، فليأمر كل قائد منكم جنده ، بطلب الارزاق والجوائز فلعلنا نصيب ما يصلحنا ويصلح الجيش !

وتلك هي الفوضى ، بل قل هي الثورة تزيل الملك ، وتحطم العرش

ورب العرش !

قالوا ذلك في المساء، فلما اصبحوا ، توافوا الى الجسر، وكبروا ، ورفعوا اصواتهم في طلب الرزق

ولم يكن القائد عبدالله بن خازم معهم ، فلما بلغه الخبر ، ركب اليهم في اصحابه ، يتبعه جماعة من القواد والاعراب ، فنصح لهم بالرجوع الى الهدى ، فلم يسمعوا له ، فهددهم ، فلم يبالوا ، فتراموا بالسهـــام ، ثم اقتتلوا بشدة وعنف ، حتى سمع الامين ، وهو في قصره ، الصياح والتكبير ..

فأمر احد مواليه ، بان يسير الى باب الجسر ويأتيه بالخبر ، وظل على احدى الشرفات ينتظر رجوعه

فذهب الرجل ، ولم يلبث حتى عاد وهو يقول :

ان الجند يا امير المؤمنين يطلبون اجرهم

وهل يطلبون شيئاً غير هذا ؟

– لا

– ولكني اسمع صياحاً كأنهم في قتال

– اراد عبدالله بن خازم ، ومعه بعض القواد، ان ينهاهم عما يفعلون فاستخفوا به ثم اقتتلوا

قال – انها غيرة من عبدالله لا معنى لها .. ارجع الساعة وقل له ان ينصرف، انهم على حق فيما يطلبون ..

ثم امر ، فمثل بين يديه بعض رؤسائهم ، فقال لهم :

ألم يطب لكم ان تأتوا امير المؤمنين ، وتسألوه ان يعطي الجنود مــــا يستحقون بدلا من ان تطلبوا ذلك وانتم على الجسر ؟

فقال أحدهم : اردنا ان نمنع القوم فلم يمتنعوا ، واجتمعوا عند الصباح، وهم على موعد، وجعلوا يكبرون

-- وما هي قصة عبدالله بن خازم ؟

– ثم أقبل عبدالله وامرهم بان يعودوا الى منازلهم فلم يفعلوا، فعمد رجاله

الى السهام يرمونهم بها فأجابوهم بالمثل، حتى انتهى امرك الى عبدالله بالانصراف فسكتوا ، ونحن الان بين يديك

قال : وماذا تطلبون من امير المؤمنين ؟..

ـ اما نحن فلا نطلب شيئاً ولكن الجند ..

ـ عرفناذلك..ماذا يطلب الجند ؟

ـ المال ياامير المؤمنين

فضحك قائلا : ما اهون ما طلبوا ..! ثم قال لكوثر :

اين الفضل بن الربيع .. اين بكر بن المعتمر .. قل لاحدهما ان يحضر الان .

وكأن الفضل كان بباب المجلس .. فدخل فقال الامين :

احص الجنود واعط كل جندى أجر اربعة اشهرلا ينقص شيءمنهوليكن ذلك في هذا اليوم ..

فخرج وهو يتمتم قائلا : يهب بدون حساب كأن المال لديه لا ينفد ..

ثم اشار الى القواد وقال لكوثر :

اعط هذا فرساً وسيفاً محلى وخمسة الاف درهم ،.. واعط هذا مثله..وهذا مثله .. حتى اعطاهم جميعاً وكانوا ثمانية،

وهم يهزأون به في سرهم،وقد عرفوا ان الخوف من الثورة يملأ قلبه ، وانه لم يجد عليهم بهذه الجوائز كرماً منه !!

وهذا مظهر جديد من مظاهر الخور والضعف ..

ترتفع الاصوات فيخفضها بالمال !! ويهدده ذوو الاغراض ، بالخروج عن الطاعة ، فيسكتهم بالمال !! وكان عليه ، وهو سيد المسلمين ، والدولة الضخمة الكبرى التي لا حدود لها ، خاضعة لهوالقواد المخلصون له، يلتفون حوله وانك لتراهم في القصر وفي فناء القصر

كان عليه ،وهذا ما يراه رجال الادارة والسياسة،انيخمد ثورتهمبالسيف،

ابضع حداً لشهوة أصحاب الاطماع المنتفعين، اذ لا يليق بالحاكم، صاحب الحول والطول .. ان يتراخي عند الحاجة الى الحزم، وان تضعف عزيمته عند اضطراره الى الشدة ..

ولكنه كان يرى ، انه بحاجة الى الرجال ، ليحارب اخـــاه ، فعمل على ارضائهم بالصلات والبـــذل الكثير ، ثم عوّل ، والجنـــد تحت تأثير عطاياه ... على ارسال قائـــد آخر يتولى الحرب ، ويقضي على طاهر بن الحسين

واختار للقيادة ، بل اختار له رجاله ، رجال السوء ، عبد الرحمن بن جبلة، وهو الذي سب المأمون وشتمه . وشتم سهل بن صاعد ، ونوفلاً الخادم ، يوم حملا الى الفضل بن الربيع ، وهو راجع من طوس، بعد موت الرشيد، رسالة المأمون التي يسأله فيها الوفاء بالعهود

نعم ، ذلك هو عبد الرحمن ، الذي يبغض خليفة خراسان أشد البغض، وابن الربيع ورفاقه ، الذين اختاروه ، يعرفون ان هذا البغض سيدفعه الى الشدة في القتال ، وبذل الجهد كله لتحطيم الجيش الخراساني

وامر الامين ، بل امروا هم .. بان يكون جيشه ، عشرين الفاً ، معظمه من اهل البادية رجال الغزو والبأس وجعلوه والياً على كل بلد يفتحه ، من البلاد الخاضعة لعبدالله

والرجل ، من القواد الذين تمرسوا بـالحروب ، ولم يستسلموا الى الزهو والخيلاء كما فعل زميله ابن ماهان

لقد كان يعلم ، ان طاهراً الزاحف الى قتـــاله ، رجل حرب من الطراز الاول ، وان النصر الذي تم له في معركة الري الكبرى ، رفـــع منزلته في نظر كل جنـــدي ، وبعث هيبته ، في رجـــال السيف ، البعيد منهم والقريب !

اجل ، ان عبد الرحمن كان يعرف كل هذا..ولكنه لم يكن خائفاً ، بل كان واثقاً بنفسه وبابطال البادية، وحريصاً كثير الحذر ، يستند الى الحكمة والهدوء،

في حذره وحرصه .

شيعه الامين وأوصاه ، كما شيع وأوصى علي بن عيسى ، وعندما ترك الجيش بغداد ، قال ابن الربيع وابن المعتمر للخليفة : لقد قضي على ابن الحسين ! !

وكان الحسين بن علي بن ماهان ، من قواد عبد الرحمن ،ولم ينس انه وعد عمته حبيبة ، بان يثأر بزوجها وبأبيه !

وبعد بضعة عشر يوماً ، انتهى الجيش الى بلد يقال له همذان ، فرأى ان ينزل فيه ، ويصلح حصونه واسواره ، ويرسل طلائعه الى ما حوله، من سهول ومدن وقرى ، خوفاً من ان يفاجئه جند العدو

على ان طاهراً ، هذا العدو المؤمن بغده ، لم يخطر له ان يفاجئه في ليل ، او في ساعة من ساعات الغفلة ، بل اتى همذان في وضح النهار ،وضرب خيامه في سهلها الفسيح ، ثم ارسل يقول لعبد الرحمن : الى اللقاء !

وكانت همذان ، المدينة الكبيرة ، قد اصبحت في منعة ، وقد عبأ القائد البغداوي جيشه ، وخرج الى الساحة .

ثم تلاقت السيوف والصفوف ، يطوف بينهما عزرائيل ، فيتخطف الرجال ، وتنطرح الجثث فوق الجثث ، مقطعة مهشمة ، تخضب السهل الرحب بالدماء

وقد صبر الفريقان .. وكان الواحد منهما يقاتل ليموت ..

حتى كثر القتل ، وضعفت الايدي عن حمل السلاح

فانهزم عبد الرحمن ، ودخل المدينة ، وهو يتلفت الى الوراء ، واغلقت الابواب !

واقام طاهر في الخارج ، لا يترك مكانه ، وهو واثق بان عبد الرحمن لا يلبث حتى يخرج اليه ، بعد ان يعد العدة من جديد

فلما قوي اصحاب عبدالرحمن ، واندملت جراحهم ، خرجوا ، فقال طاهر لاركان حربه وضباطه :

ان عدوكم يريد ان يستدرجكم ، ويحملكم على الدنو منـه ، فاذا دنوتم فالكم ، حتى اذا فشل ، دخل المدينة وارسل اليكم سهامه من وراء السور ، وان هزمكم اتسع له المجال .. ولكن قفوا هنا لا تتركوا مكانكم ، فاذا هرب منا قاتلناه ..

فوقفوا ، فظن عبدالرحمن ، ان الهيبة منعتهم من ان يتقـــدموا ، فمشى اليوم ، وفعل الجيشان اليوم ، ما فعلاه بالامس ، الى ان تضعضع جيش بغداد وتفرقت صفوفه ، فجعـــل قائدهم يحرضهم ويأمرهم بالصبر فلم يصغوا اليه ، وركضوا الى المدينة يحتمون بها من الموت

فرأى طاهر هذه المرة ، ان يضيق الحصار ، وفعل .. حتى اشتد بالجماعـة الامر وضاقت الصدور ..

فخاف عبدالرحمن ان يثب به اهل المدينة ،

فارسل الى طاهر يطلب الامان لنفسه ولاصحابه ..

فأمنه ، فخرج ورحل عن همذان ..

فاستولى طاهر على سائر اعمال الجبل ، وعلى قزوين ، وجعل فيها جنداً ، واستعمل عليها الرجال من اصحابه ، يمنعون العدو من الدخول

على ان عبدالرحمن ، الذي كان يعيش في امان طاهر ، كان خائفـاً ، ولم يشأ ان يرعى لطاهر حق امانه !

جمع اصحابه ، وهاجم القوم من غير ان يشعروا به ، ولكن المشاة ثبتوا له ، حتى اخذ الفرسان الاهبة ، فاحاطوا به وبجيشه ، وطاهر يصيح بهم قائلا :

اضربوا ، فهي المعركة الاخيرة مع الخائن عبدالرحمن

وكان صادقاً في نظره ، فقد كانت المعركة هي الاخيرة ، لان رجال عبدالرحمن سابقوا الى الفرار ، وبقي هو في جماعة من وجوه الجيش يقاتل القوم ، وهؤلاء الوجوه يقولون له :

انك تستطيع الهرب الان فاهرب ان شئت ، وهو يقول :

لا يرى امير المؤمنين وجهي منهزماً ابداً

ولم يزل يقاتل حتى قتل

وانتهى من انهزم من جيشه ، الى ابني الحرشي ، عبدالله واحمد ، وكانا في جيش عظيم سيّره الامين معونة لعبدالرحمن

فلما وصل المنهزمون ، انهزم هذان القائدان ايضاً في جندهما من غير قتال، حتى دخلوا بغداد

ولا ننسى ، ان الحسين بن علي بن ماهان ، الذي وعد حبيبة بانه سيثـــأر بالقتيلين ، كان من المنهزمين !

وخلت البلاد لطاهر ، فاقبل يفتحها بلداً بعد بلد الى ان انتهى الى ضواحي حلوان ، فحفر هنالك خندقاً ، وضرب خيامه ، واقام يهضم النصر ..

•

كثر الخلفاء في بلاد العرب !

في خراسان خليفة وحرب ، وفي بغداد خليفة وشيء من الفوضى ، وفي دمشق ، نعم في دمشق شيخ اموي ، من سلالة معاوية بن ابي سفيان ، يدعى علي بن عبدالله ، دعا لنفسه بالخلافة

كان سليمان بن المنصور ، عاملا للامين على دمشق ، فاخرجه هذا السفيـاني منها بقوة السيف ، يساعده في ذلك رجل من خاصته يقال له الخطاب ، مولى الامويين ..

وعندما انتهى الخبر الى امير المؤمنين ، في بغداد ، سير اليه الحسن بن علي بن ماهان ..

مع ان الامين لم يكن صاحب حظ ، مع هؤلاء « الماهانيين » ..

فسار الرجل حتى بلغ الرقة ومكث بها لا ينقل منها قدماً ، وخلا الجـو في دمشق ، لعلي بن عبدالله

وعلي هذا ، في خريف العمر ، وكان من قبل حسن السيرة وقد اخذ الناس

فضائل وعلماً كثيراً عنه

فلما دانت له الشام ، ظلم اهلها ، واساء اليهم ، وكان هو ، ورجاله من بني كلب ، يحملونهم ما لا طاقة لهم به

ثم كتب الى محمد بن صالح الكلابي ، ولم يكن قـد خضع له ، يدعوه الى طاعته ، ويتهدده ان لم يفعل

وابن صالح من الزعماء .. فهزأ به وبكتابه ، وقال لرسوله :

ان هذا السفياني لم يخلق ليسود الناس !

ولم يكن بنو قيس على دعوة الرجل ، فوجه اليهم فارساً من خاصتـه هو يزيد بن هشام ، في جيش كثير ، ليخضعهم بالسيف ..

فاستجاروا بمحمد بن صالح .. فاقبـل اليهم ، ولم يلبث يزيد بن هشام حتى فر هو ومن معه راجعين الى دمشق ..

وقد قتل منهم محمد من قتل ، واسر زهاء ثلاثة الاف حلق رؤوسهم ولحاهم واطلقهم .!!

فضعف حفيد معاوية وحوصر في دمشق ثم دعا من بقي من انصاره ، وجعل عليهم ابنه القاسم ، وخرجوا الى محمد ،

فقتل القاسم ، وبعث ابن صالح برأسه الى الامين

ثم سير اليهم علي جيشاً آخر يقوده مولاه المعتمر ، فقتـل المعتمر وتفرق اصحاب الخليفة الجديد

وبينا القوم في بهجة الظفر ، مرض ابن صالح

فدعا الرؤساء فقال لهم :

ترون ما اصابني من هذه العلة ، فارفقوا اذا شئتم ببني مروان ، وبايعوا مسلمة احد احفاد عبد الملك ، فهـــو ابن اختكم ، وينبغي ان يعلم انكم لا تحبون بني ابي سفيان

فبذل الناس البيعة لمسلمة المرواني ، وجمع هذا مواليه ، ودخل على حفيـد معاوية فقبض عليه وعلى الرؤساء اللذين خرجوا معه فبايعوه .!

ثم قرب اليه بني قيس وجعلهم من خاصته

وبعد شهرين ، عوفي ابن صالح ، فرجع الى دمشق يثبت وجوده من جديد ، ويريد هذه المرة ، ان يكون له الحكم ، كوال خاضع لامير المؤمنين

فسلم اليه بنو قيس المدينة ، وخرج منها الخليفتان في ثياب النساء .. الى المزة .. ومنها الى موضع آخر بعيد .

وجلس ابن صالح في مقعد الولاية ، والامين راض عنه

•

٩

عندما دخلت السنة السادسة والتسعون بعد المئة ، وكان علي بن ماهان ، وعبد الرحمن بن جبلة قد قتلا ، دب الذعر في قلب الامين وقلوب رجـــاله ، وقضوا ليالي طويلة يتشاورون في الامر .

وجعلوا يكتبون اسماء من بقي من القواد ..

حتى اجمعوا على دعوة اسد بن يزيد – زوج كوثر وبطل روايتنا السابقة – الى قصر الخلافة ، ليسألوه الدفاع عن العرش .

وكان اسد في ذلك العام ، في بغداد ، ولا عمل له .

فارسل اليه الفضل بن الربيع ، فلما اقبل ، كان الفضل قاعداً ، وبيده رقعة قرأها واحمرت عيناه ثم جعل يقول وهو يخاطب نفسه :

ينام نوم الطائر ، وينتبه انتباه الذئب !.. الذئب همه بطنه .. يقاتـــل الرعاة والكلاب ترصده ، وهو لا يفكر في زوال نعمة ولا يمضي رأيا .. ألهته كأسه ، وشغله لهوه .. وقد شمر له اخوه عبدالله المأمون عن ساق ، وصوب اسهمه يرميه بها على بعد الدار ، بالحتف النافذ ، وقد عبى له المنايا على ظهور

الباطل ! ...

ثم التفت فرأى اسداً فقال له :

« يا أبا الحرث ، انا وانت ، نجري الى غاية واحدة ، ان قصرنا عنها ذممنا .. وانا نحن شعب من أصل ان قوي قوينا ، وان ضعف ضعفنا .. ان هذا الرجل وهو يعني الامين – قد أهمل امر الملك وهو يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، وقد خشيت والله ان نهلك بهلاكه ، .. وانت فارس العرب ، وابن فارسها ، وقد فزع اليك في هذا الامر ، ولقاء طاهر بن الحسين ، وأطمعه فيك امران ، واحدهما صدق الطاعة وفضل النصيحة ، والثاني شدة بأسك وخبرتك ، وقد امرني بازاحة ما عليك ، وبسط يدك فيما أحببت ، فعجل المبادرة الى عدوك ، فاني ارجو ان يوليك الله هذا الفتح ، ويلم بك شعث هذه الخلافة » .

فقال : « اني في طاعة امير المؤمنين ، وطاعتك ، غير ان المحارب لا يعمل بالغدر ، ولا يفتتح امره بالتقصير والخلل وانما ملاكه الجنود ، وملاك الجنود المال ، والذي اسأل ، ان يؤمر لاصحابي برزق سنة كاملة ، وتحمل معهم ارزاق سنة اخرى ، واحمل الف رجل ممن معي على الخيل ، ولا اسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن » .

وكان للمأمون ولدان في بغداد ، مع امهما أم عيسى بنت الهادي ، وقد طلبهما المأمون من اخيه ، قبل ان يشتد الخلاف بينهما ، فرفض طلبه ولم يبعث بهما اليه .

ويقال ان أسداً سأل الفضل عندئذ ان يدفع اليه الامين الولدين ، فان فعل ما سأله اياه ، والا قتلهما!

فقال الفضل : لا بدّ من المثول بين يدي الخليفة .

ثم ركب الاثنان الى البلاط ، فدخل الفضل اولاً ، ثم اذن لاسد ، فما كان الا كلمة واحدة ، حتى غضب الامين وقال :

انك اعرابي مجنون .. ادعوك الى ولاية اعنة العرب ، والعجم ، واطعمك

خراج الجبال الى خراسان ، وارفع منزلتك على نظرائك من ابنـــاء القواد والملوك ، وتدعوني الى قتل ولدي ، وسفك دماء اهل بيتي ! ! انه جنون لم ار أغرب منه ، وامر به فحمل الى السجن !!

ثم قال للفضل : أليس في اهل بيته من يقوم مقامه فاني اكره ان افسدهم مع نباهتهم ، وما تقدم من طاعتهم .

فقال الفضل : بلى يا امير المؤمنين،في اهله عمه احمد بن مزيد ، وهو احسنهم طريقة ، وله نجدة وبأس .

قال : انظر في امره .

فدعا الفضل احمد اليه .

فلما أتاه ، كان عبدالله بن حميد بن قحطبة عنده .

فرحب باحمد ، ورفعه الى صدر المجلس ، ثم اقبل على عبداللهوكان قد سأله المسير الى طاهر فتردد ، فقال :

انا وجدنا لكم اذ رث حبلكم   من آل شيبان امـاً دونكم وأبا
الاكثرون اذا عدّ الحصى عدداً   والاقربون الينا منكم نسبا

ثم قال لاحمد :

ان امير المؤمنين اجرى ذكرك ، فوصفتك له ، فاحب اصطناعك والتنويه باسمك ، وان يرفعك الى منزلة لم يبلغها احد من اهل بيتك ... قم بنـا نذهب الى القصر .

فذهب الاثنان ، فلما دخلا على الامين ، قال لاحمد :

لقد اراد امير المؤمنين ان يندب اسداً ابن اخيك لامر فاشترط شروطـاً فارسلنـاه الى السجن ، ودعوناك الان ، لنبعث بك وبعبدالله بن قحطبة الى حرب طاهر بن الحسين فماذا تقول ؟

ـ : اقول ، اني سابذل في طاعـة امير المؤمنين مهجتي وابلـغ في جهاد عدوه ، افضل ما امله عندي ، ورجاه من كفايتي ان شاء الله .

فقال عندئذ للفضل :

ليأخذ من الجند من يشاء ، ومن المال ما يحتاج اليه ، ولا تمنعوه شيئاً ،
فقال احمد :

ارجو من امير المؤمنين ان يطلق اسداً ، قبل ان اخرج من بغداد .

- : بل نطلقه في هذه الساعة .. فافعل يا ابا العباس .

« ابو العباس كنية الفضل » .

فانصرف الفضل وفتح لاسد باب سجنه ...

وذهب احمد وابن قحطبة ، يعدان العدة . ثم خرجا بعد بضعة عشر يوماً ،
في اربعين الفاً ، ونزلا في خانقين .

وكان طاهر بالقرب من حلوان ، فارسل عيونه الى جيش الامين ، يبذلون
ما يبذلونه من حيلة ودهاء ، لافساده .

وتناقل الجنود بعد يومين ، ان الامين قد وضع العطاء لهم ، وامر لهم
بالمال ، ولكن القواد استأثروا به !!

ودب الخلاف في الصفوف ، وارتفعت اصوات الشكوى .

ثم لاموا وامعنوا في اللوم ، حتى قام السيف مقام الكلام واقتتلوا ،
ورأى ابن مزيد، وابن قحطبة ، انهما عاجزان عن اخماد النار ، فامرا بان يتراجع
الجيش عن خانقين ، من غير ان يلقى طاهراً !!

واما طاهر ، فقد تقدم حتى نزل حلوان .

ثم اتاه هرثمة في جيش ، ومعه كتاب من المأمون يأمر طاهراً بتسليم ما هو
في يده ، من مدن وقرى ، ويتوجه هو الى الاهواز .

فسار طاهر ، واقام هرثمة يبني الحصون ويستعد للمستقبل القريب .

وكان المأمون قد وثق بالظفر ، وعرف أن الفشل سيكون نصيب اخيه ،
فامر بان يخطب له بالخلافة ، وعقد للفضل بن سهل على المشرق ، من جبل همذان
الى بحر فارس ، الى جرجان ، وجعل راتبه في العام ، ثلاثـة آلاف الف
درهم !!

ثم عقد له على سنان ذي شعبتين ، ولقّبه ذا الرياستين رياسة العلم ، ورياسة

السيف ، يحمل لواءه علي بن هشام ، ويحمل القلم نعيم بن خازم ! ..

ثم جعل اخاه الحسن بن سهل ، على ديوان الخراج .

وحال الامين ، وحال رجاله ، على ما عرفت .

الهزيمة بعد الهزيمة ، والاضطراب يتبع الاضطراب ، حتى خيل الى الناس ، ان جيش المأمون لايغلب .

وجعل الخليفة وخاصته يعنون في التفكير .

هذا يرى المضيّ في الحرب ، وهذا يرى الرجوع الى الديبلوماسية وسياسة الرسائل ، ليطمئن المأمون الى ان اخاه لا يضمر له الشر ، ولا يظن به السوء .

والامين يتردد ، ثم يعود الى الاستشارات ..

حتى دخل عليه عبد الملك بن صالح ، الذي كان في سجن الرشيد ، واخرجه الامين منه سنة ثلاث وتسعين ومئة .

دخل فقال : يا امير المؤمنين ، ارى الناس قد طمعوا فيك وانت تجود عليهم وتعطيهم ، فان بقيت على ما كنت عليه افسدتهم وابطرتهم ، وان كففت عن العطاء والبذل اغضبتهم واسخطتهم ، ومع ذلك ، فالجند رعبتهم الهزائم ، ونهكتهم الحرب ، وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوهم ، فان سيرتهم الى طاهر ، غلب بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ، ضعف نيتهم ، واهل الشام قوم قد عرستهم الحروب ، وادبتهم الشدائد ، وجميعهم ينقادون اليّ ويخضعون لي ، فان وجهني امير المؤمنين ، اتخذت له منهم جنداً تعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم اولياءه ، واهل طاعته .

فقال الامين : اني موليك امرهم ومقوّيك ، بما سألت من عدة ومال ، فعجّل بالذهاب ، واعمل عملا تظهر آثاره ، وتحمد بركاته .

وولاّه الشام ، والجزيرة ، ووجه معه طائفة من الجند .

فسار عبد الملك حتى اتى الرقة ، وكاتب رؤساء اهل الشام ، واهل القوة والجلد .

فاتوه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فاكرمهم ومنّاهم ، وخلع

ا م ، ولي امل ان يسيروا الى القتال .

ولكنه انطرح مريضاً ، واشتد مرضه .

عمت الفوضى جيشه ، وكانت هنالك دعاية .. ثم فتنـــة .. ثم قتال ..

ف بامر ابناء بغداد ، الحسين بن علي بن ماهان ، وليس للاخرين رئيس .

وبلغ الخبر عبد الملك وهو في فراشه لا يستطيع عملا ..

فوضع يده على جبينه وقال :

واذلاه ، تستضام العرب في دورها وبلادها !

ثم تفاقم الامر ، وكانت الدعاية التي لجأ اليها ذو الرياستين ورجال المأمون قد فعلت فعلها في القوم .

فقام رجل من اهل حمص فقال :

« يا اهـــل حمص ، الهرب اهون من العطب ، والموت اهون من الذلّ ، انكم قد بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من اقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذل .. الا وفي الشر وقعتم ، وفي حومة الموت سقطتم .. فالنفير النفير .. قبل ان ينقطع السبيل ، وينزل الامر الجليل ، ويفـــوت المطلب ، ويعسر المهرب » ..

ثم قام رجل من بني كلب في غرز ناقته فقال :

« يا معشر كلب ، انها الراية السوداء والله مـــا ولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليّها ، وانكم لتعرفون مواقع سيوف اهـل خراسان في رقابكم ، وآثار اسنتهم في صدوركم .. اعتزلوا الشر قبل ان يعظم وتخطوه قبل ان يضطرم .. الشام الشام ..داركم داركم .. ان المـوت في فلسطين خير من العيش في الجزيرة ، الا واني راجع فمن اراد الانصراف فلينصرف معي

ثم سار وسار معه اهل الشام ، وتركوا عبدالملك مريضاً ولم يلبث حتى مات

ذلك هو اثر الدعاية، التي يقوم بها رجال المأمون، وتلك هي الحكمة السياسية

يقوم بها ذو الرياستين ، ولا يغفل عن امر مـن امور الدولة ، ولا يستسلم للاوهام ..

* * *

١٠

عندما مات عبدالملك بن صالح ، نادى الحسين بن علي بن ماهان في الجند ، ونقلهم في البر ، وفي السفن ، الى بغداد

فلقيه بعض القواد واهل المدينة ، وعملت له القباب ..! وافواس النصر !

ثم دخل منزله ، ولم يذهب الى قصر الخلافة ..

فلما كان الليل ، بعث اليه الامين يأمره بالركوب اليه

فقال للرسول :

ما انا بمغن ، ولا مسامر ، ولا مضحك ، ولا وليت له عملا ولا مالا ، فلأي شيء يريدني الساعة ؟.. انصرف ، فاذا اصبحت غدوت اليه .

وطلع الصباح ، فجاء الحسين حتى وقف عنـد باب الجسر ، واجتمع اليه الناس ، فقال لهم :

يا معشر الرجال ، ان خلافة الله لا تجاور بالبطر ، ونعمتـه لا تستصحب بالتجبر .. وان محمداً الامين ، يريد ان يذلكم ، وينقل عزكم الى غيركم ، والله لئن طال به الزمان ليرجعن وبال ذلك عليكم ، فاقطعوا اثره ، قبل ان يقطع اثركم ، وضعوا عزه قبل ان يضـع عزكم ، فوالله لا ينصره ناصر منكم الا خذل

ثم امر الناس بالعبور ، فعبروا حتى اتوا باب خرلسان ..

وعرف الامين ، ان الحسين خرج عن الطاعة ، وفكر في الشر .
فارسل اليه الخيل ، وجردت السيوف ، ولكن النصر كان للحسين
فانهزم جند الخليفة ، وتفرقوا ، وذلك يوم الاحد ، لاحـــدى عشرة ليلة
... من شهر رجب .

فخطب الحسين في الجماعة خالعاً الامين ، واخذ البيعـــة للمأمون يوم
الاثنين .

ثم وثب العباس بن موسى ، بن عيسى ، يوم الثلثـاء فاخرج الامين من
قصر الخلد ، وقيده ، وجعله في قصر المنصور .. ثم اخرج امه زبيدة وجعلهـا
... ومدت الفوضى خراطيمها ، في الجند ، فطالبوا الحسين بن علي بأرزاقهم ،
و... الخطباء .. خطباء الثورة .. هذا مع الامين ، وهـذا عليه ، حتى قام
رجل يقال له محمد بن ابي خالد بباب الشام فقال :

ايها الناس ، والله ما ادري بأي سبب يتأمر علينا الحسين بن علي ، ويتولى
... الامر دوننا .. ما هو بأكبرنا سناً ، ولا اكرمنا حسباً ، ولا اعظمنا منزلة
وان فينا من لا يرضى بالدنيـة ، ولا يقاد بالمخادعـة ، واني اول من ينقض
عهده ، وينكر عليه عمله ، فمن كان على رأيي فليعتزل معي

وقام رجل اخر يدعى اسد الحربي ، فقال :

يا معشر رجال الحرب ، هذا يوم له ما بعده ، انكم قد نمتم فطال نومكم
وتأخرتم فتقدم غيركم ، وقد ذهب قوم بذكر خلع الامين ، فاذهبـوا انتم
... فكه واطلاقه ،

ويقول التاريخ ، ان شيخاً كبيراً له هيبته ، اقبل على فرس فصاح بالناس
قائلا : اسكتوا

فسكتوا ، فقال :

هل تزعمون ان محمداً قطع ارزاقكم ؟

قالوا : لا

فهل قصّر بواحد منكم او من رؤسائكم ؟

- لا

- فهل عزل احداً من قوادكم ؟

- معاذ الله ان يكون فعل ذلك

قال : فما بالكم خذلتموه ، واعنتم عدوه على اسره ؟..

اما والله ما قتل قوم خليفتهم قط الا سلط الله عليكم السيف القاتل والحتف الجارف .. انهضوا الى خليفتكم وادفعوا عنه ، وقاتلوا من اراد خلعه والفتك به ..

فنهضوا ، وقاتلوا الحسين قتالاً شديداً ، ثم اسروه ..

ودخل اسد الحربي على الخليفة فكسر قيوده ، واقعده في مجلس الخلافة فرأى الامين رجالاً ليس عليهم لباس الجند ، فأمرهم باخذ السلاح.. فانتهبه الناس ، ونهبوا ما انتهت اليه الايدي!!

ثم حمل الحسين اسيراً الى الامين ، ومثل بين يديه ، والمجلس يغص بالناس ..

فجعل يلومه على ما فعل ثم قال له :

ألم اقدم اباك على الناس ، واوله اعنة الخيل ، واملأ يده من الاموال واشرف اقداركم في اهل خراسان وارفع منزلتكم على غيركم من القواد؟

قال : بلى ياامير المؤمنين

وقال : فما الذي استحققت به منك ان تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس عليّ وتندبهم لقتالي!؟

قال : الثقة بعفو امير المؤمنين وحسن الظن بصفحه !

قال : لقد احسنا الظن وعفونا عنك ، وولیناك الطلب بثأرك ، وثأر من قتل من اهل بيتك ..!

ثم دعا بخلعة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وامره بالمسير الى حلوان، ليحارب اصحاب المأمون !!

مصرع الحسين ، ووقف بباب الجسر والناس يهنئونه ،

فلما انصرفوا عنه ، عبر وهرب !

فبعث الامين في طلبه كتيبة من الجند ، ادركته في مسجد كوثر، على فرسخ من بغداد

وبينما هو يقاتل ، ويدافع عن نفسه ، عثر به فرسه ، فسقط عنه فقتل واخذ رأسه ..

فرأى المستشارون والخاصة ، بعد مقتله ، ان يجدد الجند البيعة للامين ففعلوا ، وظن الناس بعد ذلك ، ان الامن يسود البلاد

ولكنهم فوجئوا بعد ايام ، بفرار الفضل بن الربيع من بغداد ، واختفائه في مكان لم يعرف به احد !!

ولماذا لا يفر ، المستشار المنافق ، والوزير الكذاب ، وقد رأى ان النفوذ الشامل ، والسلطان المطلق ، اللذين فكر فيهما ، كانا حلماً ، وان المأمون الذي حمل اخاه على خلعه ، وسلبه الحق الذي هو له ، سيجلس على عرش الخلافة ، على الرغم من جميع قوى الفساد والشر ، التي عرضت له

وعند ئذ .. نعم عند ئذ تضيع حياته ، ويضرب المأمون عنقه ، في ساحة القصر ، ثم تعلق جثته قطعاً على الجسور ، كما علق الرشيد جثة جعفر

فخير له اذاً ، ان يطلق بغداد ، او يدفن نفسه حياً في كوخ ناء من اكواخها امام رأسه ..

وهكذا فعل ، ولم يدر الناس الا ان الفضل ابن الربيع قد اختفى ..

***

كان طاهر بن الحسين يومئذ في طريقه الى الاهواز

فلما قاربها ، وجه اليها الحسين بن عمر ، وامره بالحذر

ثم خبروه ، ان محمد بن يزيد المهلبي ، عامل الامين على الاهواز ، توجه في

جيش عظيم الى جند يسابور ، ليحمي بلاده

فدعا ، طاهر ، محمد بن العلاء ، ومحمد بن طالوت ، وبعض اصحابه ،ورغب اليهم في المسير ، حتى يتصل اولهم بآخر اصحاب الحسين ، بن عمر ، فان احتاج الحسين الى معونة اعانوه

فساروا ، ثم لحق هو بهم واشتعلت النار فرأى عامل الامين ، ان الدائرة ستدور عليه ، وقد رجع عنه بعض رجاله ، فقال لمواليه :

ما رأيكم ، اني ارى من معي قد انهزم ، ولا ارجو رجعتهم ، وقد عولت على النزول والقتال بنفسي حتى يقضي الله بما احب .. فمن اراد الانصراف فليفعل ، فو الله لئن تبقوا ، احب اليّ من ان تموتوا ، فقالوا :

والله ما انصفناك .. تعتقنا من الرق ، وترفعنا من الضعة ، وتغنينا بعد القلة ، ثم نخذلك على هذه الحال ، فلعن الله الدنيا والعيش بعدك .

ثم نزلوا ، فعقروا دوابهم وقاتلوا ، فقتل محمد

واستولى طاهر على الاهواز ، ثم استعمل الاكفاء من رجاله على اليمامة ، والبحرين ، وعمان ، وكانت يده قد قطعت في ذلك اليوم فامسى اقطع واعور ...

وبعد ان دبر الامر ، في ذلك الاقليم الواسع الذي تم له فيه النصر،سار الى واسط ، فهرب عاملها منها وكان يقول معتذراً :

انه طاهر ولا عار في الهرب منه ...

وامست واسط ملكاً للمأمون بدون حرب ،

وكان العباس بن الهادي ، ابن عم الامين ، والياً على الكوفة ، وعمه المنصور بن المهدي ، على البصرة ، وقد بلغهما ان طاهراً قواجه قواده اليهما ،

فكتبا اليه ، بخلع الامين ، والبيعة للمأمون ، والخضوع له

وكذلك فعل عامل الموصل ، خلع وبايع ، جرى ذلك كله في شهر رجب سنة ست وتسعين ومئة

فامرهم طاهر على اعمالهم ..

ولكن الامين ، الذي بلغه خبر البيعة والخلع لم يسكت

وجه محمد بن سليمان القائد ، وابن حماد البربري ، وامرهما باسترجاع البلاد التي خرجت من يده

غير ان رجال طاهر ، ظفروا بهما ، فانهزما

فاستعمل الامين ، الفضل بن موسى الهاشمي على الكوفة ، وارسله في خيل ،

فقال طاهر لمحمد بن العلاء : هذا الفضل بن موسى قد اقبل ، افلا تستطيع ان تقطع عليه طريقه ؟

- بل استطيع ان ارده الى صاحبه

ولقي الفضل في احدى القرى ، فارسل اليه ان يرجع ، فاجابه الفضل: اني سامع ومطيع ، ولكني خرجت كيداً مني لمحمد لاني لست على دعوته ، قال :

لا اعرف هذا ، ولكني اسألك ان ترجع فالرجوع اسهل عليك وايسر عاقبة ...

فرجع الرجل فقال ابن العلاء لمن معه :

كونوا على حذر فأنا اخاف ان يغدر بنا .

وهي نبوءة صدق فيها محمد ، فان الفضل رجع فرسخين ثم عاد يريدان يأخذ خصمه على غرة ، وهو يظن انهم على غير أهبة .

ولكنهم كانوا متيقظين ، فلما تلاقت الخيل ، لم يجد الفضل بن موسى بداً من الهرب ، حاملاً الى مولاه امير المؤمنين عار الهزيمة والذل .

وانضمت المدائن بعد ايام ، الى منطقة نفوذ المأمون ، دون ان يشهر فيها سيف .

دانت فارس كلها للمأمون ، من هذه الناحيـــة ودان له الحجاز كله من الناحية الاخرى ، فازداد هو قوّة ، والامين ضعفاً .

وكان داود بن عيسى ، عاملاً للامين على المدينة ومكة كما علمت ، فلما انتهى اليه مافعله خليفته من خلع المأمون ، واخـــذه الكتابين اللذين كانا في الكعبة ، وتمزيقها جمع حجبة البيت الحرام ، ورجال قريش والفقهاء والعلماء والشهود الذين وقعوا العهدين ، وهو احدهم وقال لهم :

لقد أخذ الرشيد علينا العهود في الكتابين اللذين علقهافي الكعبة لولديه وان نكون مع المظلوم على الظالم أليس كذلك .

قالوا : نعم

— ولكن محمداً بدأ بالظلم ، فخلع اخويه ، وبايـــع لابنه موسى ، ومزق العهدين ، منتهكاً حرمة بيت الله فرأيت ان اخلعـــه وان ابايــع لاخيه ، فقـالوا :

أنا على الطاعة .

فنادى في آخر رجب ، وهو في البيت الحـــرام ، بخلع الامين والبيعة للمأمون ، ثم كتب الى ابنه سليمان ، خليفته على المدينة يأمره بان يفعل مثلما فعل هو .

ثم ترك مكة سائراً على طريق البصرة ثم الى كرمان ، حتى انتهى الى مرو عاصمة المأمون، فخبره بما جرى فسرّ المأمون ، وكتب الى اهل الحجاز يعدهم ويبسط أملهم ، واقرّ داود عـــلى ولايته مضيفاً اليه ولاية اخرى ، واعطاه خمسمائة الف درهم معونة له وسير معه ابن اخيه العباس بن موسى ، وجعله على الموسم .

فغادر الاثنان مرو ، ومرا وهما راجعان ، بطاهر بن الحسين ، فأكرمهما وقربهما ، ووجه معهما يزيد بن جرير القسري ، والياً على اليمن ،يأخذ فيها البيعة للمأمون ، ويخلع الامين .

ويزيد هذا من دعاة خليفة خراسان .

وفي ذلك العام ، عقد الامين زهاء اربعمائة لواء لطائفة من القواد اميرهم الاكبر وقائدهم العام ، علي بن محمد بن نهيك ، وامرهم بالمسير الى حرب هرثمة بن أعين في ضواحي النهروان .

غير ان هذا الجيش الكثير ، لم يستطع ان يثبت لهرثمة ، واميره الاكبر وقائده العام ، ابن نهيك ، اخذ اسيراً واسيره هرثمة مقيداً الى المأمون .

اجل ، كتب الظفر لطاهر وهرثمة في جميع الميادين، لايأتيهم جيش من جيوش الامين الاهزموه ، واوقعوا باصحابه .

حتى كان قواد بغداد ، يترددون في الطاعة ، اذاندبهم الامين لحرب قائدي خراسان .

وقدراى القائدان الكبيران انه لم يبق لهما،وقد اخضعا ماوراءهما من البلاد الا ان يتقدما وينزلا في ضواحي بغداد ، ليخضعا العاصمة الكبرى بعدان يستسلم الامين لهما .

ودخلت السنة السابعة والتسعون ، فبذل الامين امواله من وراء الستار لرجال طاهر ، فترك طاهراً من هؤلاء زهاء خمسة الآف رجل ، واتوا الامين يظهرون خضوعهم له .

فجعل يثني عليهم ، ثم غلف لحاهم بالغاليـــة ، المسك ، وجعل بعضهم قوادا ، وفرق جواسيسه في جيش طاهر ، ودس الى رؤسائه يطمعهم ويرغبهم في الخروج عن طاعة قائدهم والالتجاء اليه .

فتمرد بعضهم وثاروا ، ثم انضموا الى جنود الامين ، فبعث بهم الى مكان يقال له صرصر ، يقاتلون طاهرا ، فهزمهم طاهر وغنم ما كان لهم من دواب ومال وسلاح .

وبلغ ذلك الامين ، فعمد الى الاموال مرة اخرى يبذلها بدون حساب واعطى كل رجل من الرجال الذين جعلهم قواداً قارورة غالية ولم يعط القواد الاخرين شيئاً .

فراسل طاهر هؤلاء ، واستمالهم وكان هنالك ردّ فعل كما يقولون.

ثاروا على الامين ، في شهرذي الحجة من ذلك العام ،فصعب عليه الامر واشار رجاله بان يحسن اليهم ، فلم يرض وامر بقتالهم جماعة من الذين استأمنوا وانضموا اليه.

فكان ذلك القتال في مصلحة عدوه وقد قال بعضهم في ذلك :

قل لامين الناس في نفسه ماشتت الجند سوى الغاليه

وطاهر ، نفسي فدى طاهر برسله والعدة الكافية

اضحى زمام الملك في كفه مقابلا للفئة الباغيه

فاهرب ، فلا مهرب من مثله حقاً الى النار او الهاوية

ثم مشت جنود المأمون الى الامام يحاصرون بغداد .

نزل طاهر البستان، الذي بباب الانبار .

ونزل هرثمة عند نهر بين، وحفر هناك خندقاً وبنى سوراً لمعسكره وانزل عبد الله بن الوضاح ، بالشماسيه وزهير بن المسيب رقة كلواذى ونصب المجانيق .

فحوصرت العاصمة من النواحي الاربع ، وتمشت الفتنة في شوارعها ومنازلها،وخرج اهل السجون ، وشذاذ البلد ، يثبون على اهل الصلاح الامنين حتى خيل الى الناس ان الساعة قد اتت .

وكان الامين قد وهب ماكان في يده من المال، فأمر ببيع مافي الخزائن من امتعة وتحف ، وضرب آنية الذهب والفضة دراهم ودنانير ليعطي اصحابه .

واستأمن الى طاهر ، سعد بن مالك ، فولاه الاسواق وشاطيء دجلة وما اتصل به من احياء ، وامدّه بالمال والرجال وكثر الخراب والحريق والهدم في ناحية الرشيد .

ووضع طاهر يده على ضياع القواد ، وبني هاشم والوجوه الذين لم يستسلموا واخذ اموالهم ، فذلوا ، وذلّ الجند ، وضعفوا الا العراة ، واهل السجون وابناء الازقة ، فهؤلاء لم يتراجعوا ، وكانوا ينهبون اموال الناس

ومنازلهم .

فلقيهم طاهر في قصر صالح ، فاستعرت النار ، وكانت معركة كبرى ، قتل فيها من اصحاب طاهر وقواده جماعة كثيرة وابلى فيها محمد بن العلاء احسن بلاء ولم تكن معركة ، لاقبلها ولا بعدها اشدّ على طاهر منها .

ثم راى هذا القائد ، ان يكاتب القواد الهاشميين وغيرهم من رجال الحرب بعد ان أخذ ضياعهم ، ويدعوهم الى الامان والبيعة للمأمون ، وكان في كتبه قاسياً وليناً في وقت واحد فبايع بعضهم منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة واخوته ، وابناء الحسن بن قحطبة ، ويحي بن علي بن ماهان ومحمد بن ابي العباس الطائي وغير هؤلاء .

وكان الشرّ الذي اصاب بغداد من اهل السجون والشذاذ ، اعظم بكثير من الشر الذي اصابها من العدو ! !

وقاست تلك المدينة العظمى من متاعب الحصار وفظائع النهب والسلب وسفك الدماء والجوع ، مالم تحتمل مثله مدينة اخرى حتى درست محاسنها وامحت بعض معالمها وخرج منها من كانت فيه قوة يحمل ماله وينجو بنفسه حتى وصف الشعراء نكبتها بقصائد كثيرة ، نذكر منها بعض ابيات قالها ابن عبد الملك العتري .

من ذا أصابك يابغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم	وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم	الاتحدّر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم	والدهر يصدع مابين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد من قصيدة :

بكيت دماً على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الانيق
تبدلنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدّلنا بضيق
أصابتنا من الحسادعين	فأفنت اهلها بالمنجنيق

وقوم احرقوا بالنار قسراً   ونائحة تنوح على غريق
وحوراء المدامع ذات دل   مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب   ووالدها يفر الى الحريق
حياري هكذا ومفكرات   عليهن القلائد في الحلوق
ومغترب قريب الدار ملقى   بلا راس بقارعة الطريق

ومن احسن ماقيل في وصف النكبة ، قصيدة للخريمي طويلة ، ابياتها مئة وخمسة وثلاثون ، منها :

يا هل رأيت الجنان زاهرة   يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة   تكنّ مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غرس   الاملاك مخضرة دساكرها
فانها اصبحت خلايا من الانسا   ن قد دميت محاجرها
قفراً خلاء تعوي الكلاب بها   ينكر بها الرسوم دائرها

ومنها :

يا بؤس بغداد دار مملكة   دارت على اهلها دوائرها
امهلها الله ثم عاقبها   لما احاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالحرب التي اصبحت تساورها
حلت ببغداد وهي آمنة   داهية لم تكن تحاذرها
رق بها الدين واستخف بذي الفضل وعز النساك فاجرها
وحطم العبد انف سيده   بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم   وابتز امر الدروب ذاعرها

ومنها :

وقد رأيت الفتيان في عرصة المعرك معفورة مناخرها
كل فتى مناع حقيقته   تشقى به في الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشه   مخضوبة من دم اظافرها
اما رأيت الخيول جائلة   بالقوم منكوبة دوائرها

تمثر بالاوجه الحسان من القتلى وغلت دماً اشاعرها
بطأن اكباد فتية نجد تفلق ها ماتهم حوافرها
اما رأيت النساء تحت المجانيق تعادى شعثاً ضفائرها
عقائل القوم والعجائز والعنس لم تختبر معاصرها
يحملن قوتاً من الطحين على الاكتاف معصوبة معاجرها

« الحربي : هو اسحق بن حسان ويكنى ابا يعقوب من العجم ، وكان مولى ابي خريم الذي يقال لابيه خريم الناعم »

٥٥٥

١١

خطر للامين ، بعد المعركة التي دارت رحاها في قصر صالح ، بين ابناء الارذلة والاشقياء الذين خرجو من السجن ، وبين جند طاهر ، ان يقبل على الاكل والشرب واللهو ..!!

هذا ما ورد في تواريخ العرب ..

ويقولون : انه فوض الى محمد بن عيسى ، بن نهيك ، والى رجل آخر يقال له الهرش ، ان يقوما بالامر ، فاتبع الهرش اصحاب الاموال والودائع ، وغلت الاسعار ، واشتد ذلك على الناس ، وقبض على الابرياء بالتهمة والشبهة ، وفر الاغنياء من الظلم ، وفي ذلك يقول علي الاعمى :

اظهروا الحج وما يبغونه بل من الهرش يريدون الهرب
كم اناس اصبحوا في غبطة ركض الليل عليهم بالعطب

وكانت المعارك تدور رحاها كل يوم ، وقد كثر القتل في اصحاب الامين واصحاب المامون ، حتى ايقن الناس في بغداد ان خليفتهم صائر الى الهلاك !

هو يلهو ورجاله يطويهم الموت ، ويتهم بعض قواده بالخيانة وهم يذودون عنه ، وقد هرب منه عبد الله بن خازم ، لمثل هذه التهمـــة خوفاً من ان يامر بضرب عنقه

ثم تخلى عنه خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن ماهان ، ولحقا بجيش طاهر ، ولم يلبثا حتى وثبا على جسر دجلة ، في مطلع العام الثامن والتسعين بعد المئة فقطعاه وخلعا محمداً ، ودخل هرثمة الى الجانـب الشرقي ، ثم تقدم طاهر الى الكرخ يقاتل الناس ، ويدفعهم الى الفرار

حتى دخل المدينة بالسيف ، وامر مناديه فنادى :

من لزم بيته فهو آمن

وبعد ان وضع الجند في سوق الكرخ ، وقصر الوضاح ، مشى الى مدينة المنصور ، واحاط بها ، وبقصر زبيدة وقصر الخلد ، من باب الجسر الى باب خراسان ، وباب الشام ، وباب الكوفة ، وباب البصرة ، وشاطىء الصراة الى مصبها في دجلة

فعل ذلك ، لان جواسيسه خبروه ، ان الامين اخذ امه زبيدة وبنيه واهل بيته وخاصته ، الى تلك المدينة ،

ثم قالوا له : ان عامة جنده ، وخصيانه ، وجواريه تخلوا عنه في الطريق لا يلوي احد على احد .

وتفرق السفـلة والشذاذ . وقـد اعمـــل فيهم طـاهر السيف ، وحصـر الامـين .

وانا لنورد لك الان خبراً تعجب له كما عجبنا نحن وقد ذكره المؤرخون قالوا :

بعث الامين ، وهو محاصر ، الى عمه ابراهيم بن المهدي فصار اليه فاذا هو جالس في قبة خشبها من عود وصندل وعنده عم ابيه سليمان بن المنصور وقد فرشت القبة بالحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر واذا امامه قدح بلور فيه شراب وبين يدي سليمان قدح مثله فقال لابراهيم :

ناعم ان الحرب بيننا وبين طاهر بن الحسين قد سكنت وانت ترى طيب
هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في مياه دجلة فهل لك في
الشرب !

قال : شانك يا أمير المؤمنين .

فشرب وسقاه ، ثم غناه ما كان يعلم انه يحبّه .

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها ضعف .

فتطير ابراهيم من اسمها ، فقال لها الامين غني .

فغنت بشعر الجعدي .

كليب لعمري كان اكثر ناصرا وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه .وقال :

اسكتي قبحك الله .

فجعل ابراهيم وسليمان يحادثانه حتى ضحك ثم قال لها :

غني غير ذلك ، فغنّت :

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه
بني هاشم كيف التواصل بيننا وعند اخيه سيفه ونجائبه

فقال لها : لعنك الله اما تعرفين من الغناء غير هذا ، قالت :

ما تغنيت الا ما ظننت انك تسر به ، ثم غنت :

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ويقو ابن الاثير انها غنت:

اما ورب السكون والحرك ان المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء في الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك
وملك ذي العرش دائم ابداً ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها : قومي عني الى لعنة الله

فقامت ، فعثرت بالقدح الذي كان بين يديه فكسرته فقال :
ويحك ياابراهيم اما ترى ما جاءت به الجارية، ثم ما كان من كسرها القدح، والله ما اظن امري الا قد قرب

فقال : يديم الله ملكك ، ويعز سلطانك ويكبت عدوك
ولم ينته من كلامه ، حتى سمعوا صوتا يقول :
قضي الامر الذي به تستفتيان
فقال ياابراهيم : اما سمعت ما سمعت ، قال :
ما سمعت شيئاً ، وكان قد سمع...
ثم عادوا الى الحديث ، فعاد الصوت..
فقام من مجلسه ، وقد ضاق صدره وملأه الهم
وكان الامين ، مولعاً بزوجته فطم ، وهي ام موسى الذي سماه الناطق بالحق ، ففاجأها الموت في مساء يوم ، ولم تكن مريضة

فجزع عليها جزعاً شديداً ، فاقبلت عليه امه زبيدة فقال لها : ماتت فطم، فقالت له :

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف :
ففي بقائك مما قد مضى خلف
عوضت موسى فهانت كل مرزئة
ما بعد موسى على مفقودة أسف

وسينسيك الخبر الذي نثبته لك الان ، في السطور الاتيـة،الخبر الذي قرأته عن الجارية ضعف

استأذن ابراهيم بن المهدي يوماً على الامين ابن اخيه ، وقد اشتد عليه الحصار من كل وجـه ، فابى الحجـاب والغلمان ان يأذنوا له في الدخول عليه .
فلج في طلبه ودخل ، فاذا الامين يتطلع بوله الى دجلة
وكان في رحبة القصر حوض عظيم ، له مخترق الى الماء في النهر ، وفي

الصرق حاجز حديد

وسلم عليه ابراهيم، وهو مقبل على الماء ، والخدم والغلمان قد انتشروا
يفتشون عن شيء ، فقال له وقد ثنى بالسلام

لا تؤذوني، فمقرّطتي قد ذهبت في الحوض الى دجلة

والمقرطة ، سمكة كانت قد صيدت له وهي صغيرة ، فقرطها حلقتين من
ذهب ، فيهما حبتان من الدر !

فخرج ابراهيم وكان يقول في نفسه :

لو كان عاقلا لارتدع الان ...

•

١٢

عندما لجأ الخليفة الى مدينة المنصور ، واستولى طاهر على الكرخ ،وحفظ
الشوارع والطرق ، عرف قواد الامين ومريدوه ، انهم لا يستطيعون الدفاع
الى النهاية ، لانهم ليس لهم عدة الحصار ، وخافوا ان يظفر بهم طاهر فيقذف
بهم الى دجلة

فاجتمع محمد بن حاتم بن الصقر ، ومحمد بن ابراهيم بن الاغلب ، وغيرهما
واتوا الامين فقالوا له :

هذه حالنا كما ترى ، وقد رأينا رأيا نعرضه عليك فانظر فيه ، فنحن نرجو
ان يجعل الله فيه الخير لك وللامة

قال : ما هو ؟ قالوا :

لقد تفرق عنك الناس ، واحاط بـــك عدوك ، ولم يبق معك من خيار خيلك ، غير سبعة الاف فرس ، فمن الرأي ان نختار لك من الرجال المخلصين لخلافتك سبعة آلاف ، تحملهم على هذه الخيل ، وتخرج بهم ليلا على باب من هذه الابواب ، فان الليل لاهله ، ولن يثبت لنا احد ان شاء الله ، حتى تلحق بالجزيرة والشام فنفرض الفروض ، ونجبي الخراج ، ونصير في مملكة واسعة وملك جديد ، فينضم اليك الناس ، وينقطع الجند عن طلبك

ففكر ملياً ثم قال : نعم ما رأيتم

وعول على ذلك

فبلغ الخبر طاهراً ، فكتب الى سليمان بن المنصور ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، والسندي بن شاهك يقول :

اما بعد ، فوالله لئن لم تردوا محمداً عن هذا الرأي الذي رأوه له ، لاتركت لكم ، لا ضيعة ولا داراً ، ولا مالا ، ولا يكون لي همة الا انتم ، فانظروا فيما تفعلون والسلام

فخاف القوم على مالهم ، وعلى انفسهم ، ودخلوا على الامين فقالوا :

يا امير المؤمنين ، لقد بلغنا ما عولت عليه من الخروج الى الجزيرة وارض الشام في سبعة الاف رجل ، فنحن نذكرك الله في نفسك ، ان هؤلاء الرجال الذين تخرج معهم صعاليك ، وقد بلغ بهم الحصار الى ما ترى ، فهم يرون ان لا امان لهم عند اخيك وعند هرثمة وطاهر ، لما اظهروه في الحرب ، ولسنا نأمن ، اذا انت خرجت معهم ، ان يأخذوك اسيراً او يأخذوا رأسك ، فيتقربوا بك ، ويجعلوك سبباً لامانهم ..

وجعلوا يضربون له الامثال ثم قالوا :

انما غايتك السلامـــة واللهو ، واخوك يتركك حيث احببت ، ويجعل لك كل مـــا يصلحك وكلما تحب ، وليس عليك منه بأس او مكروه

فرجع الى قولهم واجابهم الى طلب الامان ، والخروج الى هرثمة ، فقال له اصحاب الرأي الاول :

اذا لم تقبل ما اشرنا به عليك ، وقبلت من هؤلاء المداهنين المرائين ، فالخروج الى طاهر ، خير من الخروج الى هرثمة ، فقال :

انا اكره طاهراً لاني رأيت في المنام كأني قائم على حائط من شاهق في السماء لم او مثله في الطول والعرض ، وعلي ردائي ومنطقتي وسيفي ،وكان طاهر في اصل ذلك الحائط ، فما زال يضربه حتى سقط وسقطت انا ، وطارت قلنسوتي عن رأسي ، فانا اتطير منه واكرهه ، وهرثمة ، مولانا ، وهو بمنزلة ابي ، وانا اشد انساً به ، وثقة اليه ، ومع ذلك فسأكتب الى طاهر ،

وكتب اليه :

اما بعد ، فانك حاربت فانتصرت ، وقد يغلب الغالب ويخذل المفلح ، وقد رأيت الصلاح ، في معاونة اخي ، والخروج اليه من هذا السلطان اذ كان اولى به واحق ، فاعطني الامان على نفسي وولدي ، وامي وحاشيتي وانصاري واخواني اخرج اليه ، فان رأى الوفاء لي بامانك والا كان اولى ،

فلما قرأ طاهر الكتاب قال :

الان ضيق خناقه ، وهيض جناحه ...لا والذي نفسي في يده لا ارضى ، الا اذا وضع يده بيدي ونزل على حكمي ،

فارسل عندئذ الى هرثمة يطلب امانه ، فاجابه الى ذلك ، وحلف انه يقاتل دونه اذا هم المأمون بقتله .

فلما علم ذلك طاهر غضب وقال :

لا ادعه يخرج الى هرثمة ...انه في جندي ، وفي الجانب الذي انا فيه ،وانا الذي اخرجته بقوة الحصار حتى طلب الامان ، فلا اقبل ان يخرج الى هرثمة ، فيكون له الفتح دوني..

وانتهى هذا الخبر الى هرثمة ، فاجتمع مع القواد ، في دار خزيمة بن خازم ،

وحضر طاهر وقواده وسليمان بن المنصور ، والسندي بن شاهك ، ومحمد بن نهيك ، وجعلوا يتشاورون

ثم قالوا لطاهر :

انه لا يخرج اليك ابداً بل يخرج الى هرثمة ،ويدفع اليك الخاتم والقضيب، والبردة ، وهذه هي الخلافة ، فاغتنم الامر ولا تفسده ،

فرضي طاهر بما قالوه ..

على ان الهرش ، اراد التقرب الى طاهر ، فبعث اليه يقول :

انهم يعبثون بك ، وان الخاتم والقضيب والبردة ، تحمل مع الامين الى هرثمة !

فاغتاظ من ذلك ، وجعل حول قصر الامين ، وقصور الخلد ، رجالا لم يعلم بهم احد ،

فلما كانت ليلة الاحد ، لخمس بقين من محرم سنة ثمان وتسعين ومئة ، خرج الامين بعد العشاء الى صحن الدار ، وعليه ثياب بيض ، وطيلسان اسود ،

فارسل اليه هرثمة يقول :

جئت في الموعد ، لاسير بك في السفينة ، ولكني ارى ان لا تخرج هذه الليلة ، فقد رأيت على الشاطىء ما رابني ، واخاف ان اغلب ، وتؤخذ من يدي وتذهب نفسك ونفسي ، فابق الليلة ، حتى استعد واتيك في الليلة الثانية ، فان قوتلت قاتلت دونك

فقال الامين للرسول :

ارجع اليه وقل له لا يبرح ، فاني خارج اليه الساعة ولست ابقى الى غد ، ثم قال :

لقد تفرق عني الناس ، من الموالي والحراس ، ولا آمن ، اذا انتهى الخبر الى طاهر ، ان يدخل علي فيأخذني

ثم دعا بفرس ادهم يقال له الزهيري ، ودعا بابنيه موسى وعبدالله ،فضمهما

« ، وجعل يقبلها ، ثم قال :

استودعكما الله عز وجل ، انه خليفتي عليكما فلست ادري التقي بعدها ام لا

وانحدرت دموعه فمسحها بكمه ، وسمعوه يقول :

وددت لو أن الله قتل الفريقين جميعاً فما منهم الاعدو، من معي ومن علي، هؤلاء يريدون نفسي ، واولئك يريدون مالي

ثم ركب الى الشط ، وقدامه شمعة ، وكانت حراقة هرثمة «السفينة الحربية» عند باب خراسان

فنزل ، وكان احمد بن سلام ، صاحب المظالم ، عند هرثمة

فلما دخل الامين السفينة ، جثا هرثمة على ركبتيه ، لانه لم يكن قادراً على الوقوف ، من مرض النقرس ، ثم احتضنه وضمه اليه ، وجعل يقبل يديه ورجليه وعينيه

وعندما امر هرثمة ، بان تدفع السفينة ، شد عليهـــا اصحاب طاهر في زوارقهم ، ثم غاصوا تحتها فانقلبت بمن فيها وسقط هرثمة والامين وابن سلام في الماء ...

فتناول الملاح شعر هرثمة واعانه على الصعود الى احد الزوارق ، ثم رافقه الى الشاطىء ، فمضى الى معسكره في الجانب الشرقي ،

وشق الامين ثيابه فنجا

واما ابن سلام ، فاخذه رجل من اصحاب طـــاهر وسأله قائلا : من انت ؟ قال :

انا احمد بن سلام صاحب المظالم مولى امير المؤمنين ،قال :

كذبت فاصدقني ، قال : قد صدقتك ، قال : فما فعل المخلوع ، وهو يعني الامين ، قال :

رأيته قد شق ثيابه ..

فجعل في عنق ابن سلام حبلا ، وركب ، وهمز فرسه ، وصاحب المظالم

يركض وراءه حتى عجز عن الركض

فامر بضرب عنقه ، فقال له اعطيك عشرة آلاف درهم على ان تخلي عني

فعرج به على احد المنازل ، وامره بالبقاء فيه ، حتى يقبض المال في صباح اليوم الثاني

وكان في المنزل ، وسائد وحصر ، وقد ساد الظلام

فلما ذهب من الليل ساعة ، فتح الباب وادخلوا رجلا عريانا عليه سراويل وعمامة ، وعلى كتفه خرقة بالية

ادخلوه ، ثم اغلقوا الباب وانصرفوا ،

فحسر الرجل العمامة عن رأسه فاذا هو الامين !

فبكى ابن سلام ، والامين ينظر اليه ، ثم قال له : من انت ؟ قال : انا مولاك ياسيدي

قال : اي الموالي انت ؟

ابن سلام ، قال :

يااحمد ، ادن مني ، وضمني اليك ، فاني اجد وحشة شديدة

فضمه اليه فاذا قلبه يخفق مضطربا ثم قال :

خبرني عن اخي المأمون ، أحي هو ؟ قال:

نعم حي ، وهذا القتال من اجل من؟ قال :

قبح الله البريد ، كان يقول انه قد مات !

ولعل الامين كان يعتذر عن الحرب ..فقال احمد:

قبح الله وزراءك فهم الذين اوردوك هذا المورد

قال : ليس هذا موضع عتاب وشكوى ، ولست اول من طلب امراً ولم يقدرعليه ...

وجعل يضم الخرقة على كتفه .. فقال ابن سلام :

البس هذا الازار ، وارم بهذه الخرقة...

ودفع اليه ازاره ، فقال :

من كانت حاله مثل حالي ، فهذا كثير عليه ، ثم قال :

ما تراهم يصنعون بي ، ايقتلونني ام يحملونني الى اخي ... ان امي قاتلي .. قال :

كلا فستعطفه الرحم عليك

قال : هيهات ، ان الملك عقيم لا رحم له ...

- ولكن امان هرثمة امان اخيك ...

وجعل يلقنه الاستغفار ، وذكر الله ...

فبينا هما كذلك ، دخل عليهما رجل عليه سلاح ، فجعل ينظر في وجهيهما يستثبتهما ، ثم انصرف

فعرف ابن سلام انه محمد بن حميد الطاهري

وايقن عندئذ بان الامين مقتول ، وخاف ان يقتل معه ، فقام وجعل يصلي ، فقال محمد :

لا تبعد ، وصل بالقرب مني ،

فدنا منه ، وما لبثا حتى سمعا حركة الخيل ،..

ثم فتح الباب ، فاذا قوم من العجم معهم السيوف مسلولة

فلما رآهم الامين ، وثب قائماً وجعل يقول :

انا لله ، وانا اليه راجعون ..ذهبت والله نفسي في سبيل الله ..اما من مغيث ..اما من احد مخلص لخليفته..

واقبل بعضهم حتى وقفوا على باب البيت ، والواحد منهم يقول للاخر : تقدم ، وهم يترددون ..

فاخذ الامين وسادة وقال :

ويحكم ، انا ابن عم رسول الله ..انا ابن هارون ، انا اخو المأمون .. الله الله في دمي

فدخل رجل منهم فضربه بالسيف ضربة وقعت في مقدم رأسه ، فضربه الامين بالوسادة على وجهه وهمّ بان ينتزع السيف من يده

فصاح الرجل : قتلني ،قتلني..

فدخلت عندئذ جماعة كانت عند الباب ،وضربوه ..فسقط على الارض .. فذبحوه ذبحاً من الوراء ! واخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر ، وتركوا الجثة في ذلك البيت !

فلما وضع الرأس بين يدي طاهر ، قال:

اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير !!

فلما كان السحر ، اخذوا جثته ، ونصب طاهر الرأس على احد الابراج ، وخرج اهل بغداد ليروا رأس خليفتهم ، الذي قتل وهو عريان !

وكان طاهر يقول :

هذا رأس المخلوع محمد بن هارون

واتي بخادمه كوثر ، فنصب على باب يعرف بباب الحديد ، وندم جند بغداد ، وجند طاهر ، على قتل الامين ، لما كانوا يأخذونه من المال

وبعث طاهر برأس محمد الى اخيه ، مع ابن عم له يدعى محمداً ، وكتب معه بالفتح ، وسلم اليه البردة والقضيب والخاتم

فلما دخل محمد ، قصر المأمون ، اخذ الرأس ذو الرياستين ، ووضعه على ترس ، ودخل على مولاه ،

فاسترجع المأمون وبكى ، فقال له الفضل :

الحمد لله ياامير المؤمنين على هذه النعمة ، فان محمداً كان يتمنى ان يرى رأسك .

ويقول بعضهم : ان المأمون طيب الرأس ، وجعله في سفط ، ورده الى

العراق ليدفن مع الجثـــة وكان ذلك في السنة الثامنـــة والتسعين بعد المئة

٥

ننشر هنا ، بعض ما جاء في قصائد الرثاء والهجاء ، التي قيلت في الامين بعد موته :

من قصيدة نسبت الى امه زبيدة ، ولم تكن زبيدة شاعرة :

رزئته حين باهيت الرجال به وقد بنيت به للدهر اساسا
فليس من مات مردوداً لنا ابداً حتى يرد الينا قبله ناسا

ورثته زوجته لبابة ابنه عمه علي بن المهدي قالت:

ابكيك لا للنعيم والانس بل للمعالي والسيف والترس
ابكي على سيد فجعت به : ارملني قبل ليلة العرس

وقال عمه ابراهيم بن المهدي من قصيدة :

عوجا بمغنى الطلل الداثر بالخلد «ذات» الصخر والآجر
والمرمر المنسوب يطلى به والباب باب الذهب الناضر
عوجا به فاستيقنا عنده على يقين قدرة القادر
وابلغا عني مقالا الى المولى على المأمور والآمر
قولا له يابن ابي الناصر طهر بلاد الله من طاهر
لم يكفه ان حز اوداجه ذبح الهدايا بمدى الجازر

وجاء في قصيدة لعبد الرحمن بن ابي الهداهد :

أقول وقد دنوت من الفرار سقيت الغيث ياقصر القرار
رمتك يد الزمان بسهم عين فصرت ماوحاً بدخان نار
ابن لي عن جميعك اين حلوا واين مزارهم بعد المزار
واين محمد وابنـــاه مالي ارى اطلالهم سود الديار

كأن لم يؤنسوا بانيس ملك يطول على الملوك بخير جار
امام كان في الحدثان عونا لنا والغيث يمنح بالقطار
لقد ترك الزمان بني ابيه وقد غمرتهم سود البحار
اضاعوا شمسهم فجرت بنحس فصاروا في الظلام بلا نهار
واجلوا عنهم قمراً منيراً وداستهم خيول بني الشرار
الا بان الامام ووارثاه لقد ضرم الحشى منا بنار
وقيل الخلد بيع ، فقلت ذلا يصير ببائعيه الى قرار

ومن قصيدة قالها مقدس بن صيفي:

لقد عظمت مصيبته على من له في كل مكرمة نصيب
على امثاله العبرات تذرى وتهتك في مآتمه الجيوب
وما اذخرت زبيدة عنه دمعاً تخص به النسيبة والنسيب
رأيت مشاهد الخلفاء منه خلاء ما بساحتها مجيب .

وجاء في مروج الذهب ، ان محمداً لما قتل دخل على زبيدة احد خدمها فقال لها :

ما يجلسك وقد قتل امير المؤمنين محمد ، فقالت :

ويلك ما اصنع ؟ قال

تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت :

اخسأ لا ام لك ، ما للنساء وطلب الثأر .. ثم امرت بثيابها فسودت ولبست مسحاً من شعر ، ودعت بدواة وقرطاس وكتبت الى المأمون هذه القصيدة :

«القصيدة من نظم خزيمة بن الحسن»

لخير امام قام من خير عنصر وافضل سام فوق اعواد منبر
لوارث علم الاولين وفهمهم وللملك المأمون من ام جعفر

كتبت وعيني مستهل دموعها ... اليك ابن عمي من جفوني ومحجري
وقد مسني ضر وذل كآبة ... وارق عيني يا ابن عمي تفكري
وهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فامري عظيم منكر جد منكر
ساشكو الذي لاقيته بعد فقده ... اليك شكاة المستهام المقهر
وارجو لما قد مر بي مذ فقدته ... فانت لبثي خير رب مغير
اتى طاهر لا طهر الله طاهراً ... فما طاهر فيما اتى بمطهر
فاخرجني مكشوفة الوجه حاسراً ... وانهب اموالي واحرق آدري
يعز على هارون ما قد لقيته ... وما مر بي من ناقص الخلق اعور
تذكر امير المؤمنين قرابتي ... فديتك من ذي حرمة متذكر

فلما قرأ المأمون هذا الشعر بكى ثم قال:

اللهم اني اقول كما قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل عثمان :

والله ما امرت ، ولا رضيت .. اللهم جلل قلب طاهر حزناً

ومن قصيدة لخزيمة نفسه يرثيه

سبحان ربك رب العزة الصمد ... ماذا اصبنا به في صبحة الاحد
وما اصيب به الاسلام قاطبة ... من التضعضع في ركنيه والاود
بالبلة يشتكي الاسلام مدتها ... والعالمون جميعاً آخر الابد
غدرت بالملك الميمون طائره ... وبالامام وبالضرغامة الاسد
ساورت اليه المنايا وهي ترهبه ... فواجهته باوغاد ذوي عدد
فصادفوه وحيداً لا معين له ... عليهم غائب الانصار بالمدد
فجرعوه المنايا غير ممتنع ... فرد فيالك من مستسلم فرد

ومنها :

هذا حديث امير المؤمنين وما ... نقصت من امره حرفاً ولم ازد
لا زلت اندبه حتى الممات وان ... اخنى عليه الذي اخنى على لبد

وقيل في هجائه :

لم نبكيك ، لماذا للطرب : ياابا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس في اوقاتها حرصاً منها على مــاء العنب

ومنهـا :

لم تكن تعرف ما حد الرضى لا ولا تعرف ما حد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم تعطك الطاعة بالملك العرب
ايها الباكي عليه لا بكت عين من ابكاك الا للعجب
لم نبكيك ، لما عرضتنا للمجانيق وطوراً للسلب
ولقوم صيرونا اعبداً لهم يبـدو عـلى الرأس الذنب
في عذاب وحصار مجهد سدد الطرق فـلا وجـه طلب
زعموا انك حي حاشر كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة من جميع ذاهب حيث ذهب
اوجب الله علينا قتله فاذا ما اوجب الامر وجب
كان والله علينا فتنة غضب الله عليـه وكتب

واسرف الحسين بن الضحاك ، في مراثي الامين وذم المأمون ، فحفظها له المأمون ، فمن قوله:

ومما شجى قلبي وكفكف عبرتي محارم من آل النبي استحلت
ومهتوكة بالخلد عنها سجوفها كعاب كقرن الشمس حين تبدت
وسرب ظباء من ذوابة هاشم هتفن بدعوى خير حي وميت
ارد يداً مني اذا ما ذكرته على كبد حرى وقلب مفتت

وقوله من قصيدة :

ياخير اسرته وان زعموا: اني عليك لمثبت اسف
الله يعلم ان لي كبداً حرى عليك ومقلة تكف
هلا بقيت لسد فاقتنا ابداً وكان لغيرك التلف .
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا أفليس يعوز بعدك الخلف

ومنها

تركوا حريم ابيهم نفلا والمحصنات صوارخ هتف
هيهات بعدك ان يدوم لنا عز وان يبقى لنا شرف
افبعد عهد الله تقتله والقتل بعد امانة سرف ..
فستعرفون غداً بعاقبة عز الاله فاوردوا وقفوا

ومنها :

قد كنت لي املا غنيت به فمضى وحل محله الاسف
فالشمل منتشر لفقدك والدنيا سدى والباب منكشف

وكانت خلافة الامين ، اربعة اعوام وثمانية اشهر ، وكان عمره في السنة الثامنة والتسعين ، ثمانياً وعشرين سنة

ويصفه الذين عاصروه ، انه كان سبطاً جميلاً صغير العينين ، اقنى الانف طويل القامة .

ولم يكن الذنب في مقتله ، على الصورة التي قرأت ، ذنب المأمون، وانما هو ذنب الرشيد ! ..

***

دخل طاهر العاصمة ، بعد مقتل الامين ، ونودي بالامان ، ثم صلى بالناس، وخطب للمأمون ، وذم الخليفة القتيل !! ..

ثم كتب الى ابراهيم بن المهدي ، عم امير المؤمنين:

اما بعد فانه عزيز علي ان اكتب الى رجل من اهل بيت الخلافة بغير التأمير ، ولكن بلغني انك تميل بالرأي ، وتصغي بالهوى الى الناكث المخلوع .. فان كان كذلك فكثيراً ما كتبت اليك ، وان كان غير ذلك فالسلام عليك ايها الامير ورحمة الله

وبعد ايام، حمل زبيدة ، وولدي الامين ، موسى وعبـــد الله ، الى قرية عـــلى الزاب الاعلى ، ولم يلبث حتى امر بحمـل الولدين الى عمهما في

خراسان

وعندما عمد الى الراحة في بغداد ، منتظراً امر المأمون ، طلب الجند منه مالا ولم يكن معه شيء ، فوثبوا به وثاروا ..فضاق به الامر ، وظن ان اهـــل الضواحي شاركوهم في ثورتهم ، فلم يجد بداً من الهرب الى مكان غير بعيد ، يعدّ فيه ، مع القواد الذين ساروا معه ، عدة الدفاع ، واسترجاع السلطان الذي كان له

وبلغ ذلك اعيان المدينة ، وبعض قوادها ، فانكروا على الجند ما فعلوه، وخرجوا اليه يعتذوون ، ويسألونه الصفح عن السفهاء والاحداث الذين حملوا السيف في وجهه ، فقال :

ما خرجت عنكم الا لوضع السيف فيكم ، واقسم بالله عز وجل لئن عدتم الى مثلها لاعودن الى رأيي فيكم

فحلفوا له انه لم يخرج عليه من اهل بغداد احد وضمنوا له القوم

فسكن غضبه وعفا ، واعطى الجند رزق اربعة اشهر ، وخضـع النـاس للمأمون ، في المغرب والمشرق، واظهروا الطاعة له

* * *

١٣

عندما خرج طاهر من الري ، بعد ظفره بعلي بن ماهان ، لم يشأ ان ترافقه زوجته وبنوه ، فقد كان يخشى ان يخونه الحظ فيقع اسيراً او يقتل ، فتنتهك حرمة الزوجة ، ويذل البنون ..

امرهم بالرجوع الى مرو ، ليظلوا في كنف المأمون ، حتى تنتهي الحرب له او عليه

واوصى بهم الفضل بن سهل ، واخاه الحسن ، وبعض اصحابه من وجوه الناس

وقد علمت مما قرأت ، ان لاهل خراسان والموالي ، شأناً عظيماً في دولة بني العباس ، ومقاماً حجب مقام العرب

ذلك لان لهم فضلاً على هذه الدولة منذ نشأت ، ولم ينس الناس ، ان ابامسلم وهو خراساني ، حمل عرش السفاح والمنصور على منكبيه ، وقضى على الحزب الاموي ، في ذلك العهد ، وهذه دولة المأمـــون ، لم يكن لها وجود ، لولا خراسان

فاذا اوصى طاهر ذاالرياستين ، واخاه الحسن ، باهل بيته ، فكأنه اوصى المأمون نفسه بهم ، لان الاثنين يمثلان الخراسانيين ، وهما سيدا القوم واقرب الناس الى الامير

على ان المأمون ، لم يكن يحتاج الى من يوصيه بالجماعة ..

كان يدعو طلحة وعبدالله واخوتها بني طاهر الى القصر ، ويـــأذن لهم في الجلوس بين الشيوخ ، والفقهاء والعلماء .. ثم يسألهم ويختبرهم ، ويحسن اليهم ، ويحوطهم بالعناية

اليس ابوهم هو الذي يقود الكتائب الى الظفر ، ويخضع البلاد له ..

وكما نشأ طاهر ، شهماً شجاعاً ، واديباً جريئاً ، هكذا نشأ بنوه ، وقـــد زاد اعجاب المأمون باحدهم عبدالله ، وهو يرى ذكاءه وصـــدق نظره ، وعزة نفسه ، وكان يظهر له الحب والرضى ، كلما جالســـه واصغى اليه

ولد عبدالله في خلافة الرشيد سنة اثنتين وثمانين ومئة ، فكان عمره ، في ذلك الزمن ، حين تألق نجم ابيه ، وذهب صيته في دنيا العرب ، بعد مقتل الامين ، ست عشرة سنة .

وفي هذا العمر ، كان اهلاً ليتولى القيادة والحكم !

ولولا الفضل بن سهل ، لجعله المأمون على البلاد التي فتحها ابوه !

نعم ، اراد امير المؤمنين ، بعد مقتل اخيه ، ان يجعله من الولاة ، وكان يقول لذي الرياستين :

كنا ننتظر ان يبلغ هذا الغلام سن الشباب لنوليه وقد بلغها اليوم كما ترى، فيقول الفضل :

اخشى يا امير المؤمنين ، ان يستخف به الناس لصغر سنه ، ثم يدفعهم هذا الاستخفاف الى ابعد من ذلك ..

وهو قول لا يقدر الخليفة ان يرده ، ثم يقول :

متى كان الخلفاء يجعلون عمالهم من الغلمان .؟وهل تجيز لك السياسة والحكمة يا مولاي ، وقد امسيت خليفة المسلمين ، ان تفتتح عهد خلافتك بجعل عمالك فتياناً في مطلع الشباب ؟. اصبر يا مولاي، فسيصير عبدالله واخوه طلحة،بعد حين ، من رجال الدولة ، فللاثنين مواهب يرتاح اليهـــا امير المؤمنين ، فقال :

ان طلحة لا بأس به ، ولكن عبدالله يرتفع عنه ، وعن معظم الرجال الذين هم من عمر ابيه فلا بد من ان نوليه

— سنفعل ذلك يا مولاي بعد النظر في امور بغداد ..

وكان الفضل قد رأى، ان طاهراً وهرثمة ،هما اللذان انتزعا الخلافة انتزاعاً من الامين ، واجلسا المأمون على العرش ..

وهما اللذان ذللا الرقاب ، واخضعا القواد لخليفتهما الجديد ..

وقد اشتهرا وبعد صيتهما في البوادي والمدن ..

وتحدث الناس ، في كل بقعة من بقاع الدولة ، بفضلهما على الخلافة

رأى كل ذلك ، فلم يطق ، وهو صاحب النفوذ الاكبر في البلاط ، وسيد المستشارين والمقربين ، ان يشاركه احد في هذا النفوذ ، او يذهب له في البلاد ذكر ، ينال من منزلته وذكره ، لدى الخليفة، وعند العرب ،فحاول بسياسته ودهائه، ان يثني المأمون عما هم به من استعمال عبدالله، ويحمله على تأجيل النظر في الامر ، ريثما ترد عليه اخبار بغداد ..

ان طاهراً وحده ، يحمل من العظمة والمجد ما يحمل ، افلا يكفيه هذا حتى يهب المأمون لابنه عبدالله ، عظمة اخرى، يضيفها الى عظمة ابيه، فيمسي الاثنان في الصف الاول ، وتنحني لهما الرؤوس ، ويهابهما الناس ؟

ومن يقف في وجه طاهر وبنيه بعد ذلك ؟

لا ، ان المصلحة ، تقضي على المستشار الاكبر ، بان ينحي عبـــدالله عن المناصب .. ثم ينحي اباه طاهراً عن مقامه الرفيع .. ثم يعمل على تحطيم هرثمة ، الذي هو من احب القواد وامراء الحرب ، الى المأمون

وليس لذي الرياستين ، هدوء وراحة ، الا اذا نفذ ما يفكر فيه

والمأمون يسمع له .. ولا يخالفه فيما يراه لمصلحة الدولة ، فقد رأى بعينه . الى اي حد انتهت سياسته وحسن تدبيره ، ولمس بيده جهـــاده في سبيل عرشه ووفـاءه ، فليس من المروءة اذاً ، ان ينسى هـذا الجهـاد ويحول وجهه عنـه

لقد كان ذو الرياستين ، في بلاط المـــأمون ، كما كان جعفر في بلاط الرشيد

رأي متبّع ، وارادة نافذة ، وسلطان واسع ، هو سلطان امير المؤمنين ، لا زيادة ولا نقصان !

وليس غريباً ان يدب الحسد في صدور الوزراء ..فهم يخافون على منزلتهم في القصر ، ويخشون ان يمتد نفوذ احدهم فيضعف نفوذهم ، فهم يضعون من اجل ذلك ، بين الخليفة والرعية ، اذا استطاعوا ، حجاباً لا تبصر ما وراءه العيون ..

وانهم لقادرون ان يقولوا للخليفة عن المبصر، انه اعمى ..وعن الابيض انه اسود ، وعن المغفل الابله انه نابغة الجيل ..

وكل شيء في نظرهم ، جائز لهم ..

يذبحون البريء بايديهم الناعمة .. ويذلون اصحاب الحق ..

والحرام في شريعتهم حـــلال لهم اذا رأوا فيه مـا يغذي الاطماع

والنفوذ

لقد جعلهم الخليفة ، في دولته كل شيء ،فيجب ان يظلوا كل شيء،ولو مشوا على الجثث ..

اوصى طاهر ذا الرياستين باهل بيته ، فقام الرجل بواجب الوصيـة ، على الوجه الاكمل ، وكان يسعى ، من الناحية الاخرى ، ليهدم ما بناه طاهر ، من مجد وجاه ، في حروبه وفتوحه ..

ان تلك الصحبة القديمة ، ابتلعتها المصلحة الخاصة ، وتلاشى اثرهـا في نفس الفضل ..ولم يبق في تلك النفس الكبيرة الطامعة ، غير غاية واحدة ، ورغبة واحدة ، هي ان يستأثر بالنفوذ كله ، وينفرد به ، ليس في خراسان فقط ، بل في العراق والشام ومصر وافريقيا وفي كل بلد ترتفع فيه اعـــلام دولة المامون .

اليس هو الذي انشأ هذه الدولة بسياسته وتدبيره ، وهو الذي اختـــار طاهراً وهرثمة ليقودا الجيوش ويحاربا اهل العراق ، وبفضل ارائه وحكمته دانت الدنيا لامير خراسان ؟؟ اذاً فمن العدل ان يكون رجال المأمون جميعهم ابواقاً له ..وآلات في يده ، وان يكون سلطانه في الدولة التي انشأ، سلطانا لا حد له !

وكيف يستقيم له الامر في العراق وفيه القـائدان الظـافران ، هرثمـة وطاهر ، وهما سيدا الموقف ، وهيبتها في كل نفس؟

ومن يضمن له ان الاثنين لا يستخفان باوامره ولا يعبثان به ؟

فعوّل على المضي في الامر الذي فكر فيه ، وكان الحظ ، في ذلك الحين، رفيقاً له ..بل كان من عبيده كما سيجيء..

كان نصر بن سيار ، من بني عقيل ، بطلا من ابطال العرب ، وهو يقيم في كيسوم ، شمالي حلب .

وكان في عنقه بيعة للامين ، وله فيه هوى ، فلما قتل ، اظهر الغضب وقال لاصحابه :

ان المأمون هو المعتدي على اخيه طمعاً بالعرش ، فمن اراد ان يخرج معي الى القتال فليحمل سيفه ، ووالله لولم يقدم العجم على العرب لما فكرت في قتاله .

واستولى على ما جاوره من البلاد ، وقد انضوى تحت لوائه ، فريق كبير من الاعراب اهل الطمع ، فقويت نفسه وعبر الفرات الى الجانب الشرقي ، وهو واثق بان هذا الجانب سيدين له.

ورأى الناس تقدمه وظفره ، فجعلوا ينضمون اليه فرقاً فرقاً ، ويبايعونه على الطاعة ، وجنود الدولة يخافونه ويتراجعون

وبلغ خبره المأمون ، فاهتم له ، وفوض الى الفضل بن سهل ، ان ينظر في الامر ، ويعهد في قتاله ، الى من يشاء من القواد

فقال الفضل : ليس بين القواد ياامير المؤمنين ، من هو خير من طاهر واكفأ منه ، ومقامه اليوم في بغداد قريب من نصر ، فان شئت فليتولّ حربه ..

— واي رجل يقوم مقام طاهر في الولاية ، لقد افتتح فارس ، و الجبال ، والاهواز ، ودانت له البصرة والكوفة والحجاز واليمن والعراق فمن نختار لهذه البلاد ؟

— نختار رجلا ليس في الدولة اخلص منه لامير المؤمنين

— أتعني هرثمة بن أعين ؟

— ان هرثمة وطاهراً من رجال السيف يامولاي ، والرجل الذي توليه ابعد نظراً منهما ، في الادارة ، والسياسة ، والحكم ؟

— من هو ؟

— عبدك الحسن بن سهل ..

— اخوك ؟ انه كما قلت ، فافعل ..

وارى ان يعود هرثمة الى خراسان يامولاي

— ليعد فخراسان احوج اليه اليوم من العراق ..

فكتب الفضل العهد لاخيه ، يستعمله على البلاد التي ذكرها المأمون . والتي كانت لطاهر . وكتب الى طاهر يأمره باسم المأمون بان يسلم جميع ما في يده الى الحسن ، وان يسير الى الرقة ليحارب نصر بن شبث ، وولاه في الوقت نفسه الجزيرة والموصل والشام

وكتب الى هرثمة يأمره بالرجوع الى خراسان

ويقول بعض المؤرخين ، انه لم يستشر المأمون في التولية والعزل ، وانما فعل ما فعل والمأمون لم يعلم .. وقول المؤرخين الاخرين اصح.

وقبل ان يجيء الحسن بن سهل ، كتب طاهر الى احمد بن هشام ، الذي كان على شرطته وهو في الري ، يقول له :

ان زوجتي وبنيّ وخدمي في مرو ، كما تعلم ، فوجههم اليّ مع عبد الرحمن بن فهر الحامل كتابي اليك

وعبد الرحمن هذا ، هو شقيق نائلة زوجة طاهر

وكان عبدالله بن طاهر ، يعلل النفس بالرجوع الى الرقة ، التي كانت في نظره جنة الله ...

اجل كان ذلك الفتى ، الذي خرج مع ابيه الى خراسان ، وهو في العاشرة من العمر ، يذكر سباق الخيل في الميدان الفسيح ، وراء قصر الخليفة ، ويحن ، باشد ما وهب له من شعور وعاطفة ، الى ذلك البلد الساحر ، الذي لم ينسه اياه ، ما رآه في مرو ، من ، جيوش وجماعات وميادين ..

وكان يذكر مروان والمغيرة ، وسعدى وزينب ، بني حاتم الطائي ، رفاق اللعب ، والركض ، والبنـــاء ... ويود ، وهو الان في السادسة عشرة ، لو يطير الى تلك الربـوع ، التي كانت ازقتها وشجرها وارضها وسماؤها ، ملء

ا ب والروح .

وكلما استعرض ماضيه ، بما فيه من براءة ، وعبث ، مثلت زينب ، تلك الطفلة الحسناء امام عينيه ، وذكر انها كانت تبكي ، كلما بكى ، وتضحك كلما ضحك ، وانها وحدها ، كانت تشاطره الكآبة وبهجة النفس

ثم يذكر مقتل حاتم فيضيق صدره .. ويقوم في ذهنه ، ان آل حاتم ، سيغلقون بابهم ، في وجوه آل طاهر بن الحسين

وكان همه يزداد ، كلما امعن في تفكيره .. ثم يجد بعض العزاء ، عندما يعود بالذكرى ، الى براءة ابيه ، من دم القتيل ..

فلما انتهى كتاب طاهر الى ابن هشام ، اهتم للامر ، واعد ، بالاشتراك مع عبد الرحمن ، وطلحـة ، ما تحتـاج اليه الجماعة في مثل هـذا السفر الطويل ، ولم يلبثوا حتى ودعوا خراسان ، تحمل النوق والخيل ، اشياءهم وزادهم الى بغداد

وعبد الرحمن ، يقص على شقيقته في الطريق ، اخبار طاهر وهرثمة ، ويصف لها المعارك الكبرى التي كثر فيها القتل ، وجرت فيها دماء الرجـال والفتيان من انصار الاخوين ، الامين والمأمون

ثم روى لها ما يعرفه عن مقتل الخليفة الشاب ، الذي ضيع خلافته ثم ضيع حياته ، وعبدالله ، يجلس بالقرب من امه في ليالي السفر ، ويصغي الى تلك الحكايات التي يقصها خاله عن حروب الخليفتين ، وذلك الصراع الهـائل ، الذي بذلت فيه النفوس من اجل العرش

وهو يستلذ احاديث الحرب ، كما يستلذ الحديث عن الرقة ..

ولا يكتم خاله وامه ، اعجابه بعبقرية ابيه ..

حتى انتهوا الى بغداد ، فوجدوا طاهراً في ثورة من ثورات غضبه ، واركان الحرب والقواد ، الذين يقفون ببابه ، يلعنون الزمان .. ولولا هيبـة الخلافة للعنوا الجالس على العرش

ولم تكن نائلة ، وبنوها واخوها عبدالرحمن ، يعلمون ان الخليفة عزل طاهراً

وولاه حرب نصر ، وامره بان يجعل الرقة مقراً له ، وانه جعل الحسن بن سهل اميراً على الاقاليم ، التي انتزعها طاهر من يد الامين ، وجعلها غنيمة باردة لاخيه

فخيل اليها - اي الى نائلة ، ان اهالي بغداد خرجوا عن الطاعة فقالت لزوجها :

أفي بغداد ثورة ؟

قال : اما اليوم فلا ، ولكن قد تنشب غداً بعد رحيلي عنها ورحيل هرثمة

فقال عبدالرحمن : الى اين ايها الامير ؟

- الى الرقة ، ثم الى ضواحي كيسوم لحرب نصر بن شبث بن سيار

- انت ؟

- نعم انا فالفضل بن سهل لم يجد بين قواد الخلافة ، ورجال السيف ، قائداً يعهد اليه في القضاء على نصر ، غير طاهر بن الحسين ..

افتتح البلاد من الشرق الى الغرب ، واجعل الارض كلها ملكاً للمأمون بعد مقتل الامين ، حتى اذا دانت له كان جزائي العزل ، والتخلي عما كان في يدي ، والانصراف الى قتال اعرابي خارجي ..

قال : ومن هو الوالي بعدك ؟

- الحسن بن سهل ، وقد رأى اخوه الفضل ، ان يجود علي ، منة وكرماً ، بالولاية على الجزيرة والموصل ، والشام ...

وكان عبدالله بن طاهر يصغي الى حديث ابيه ، وهو يكره ان يخرج ابوه عن حده ، ويتهم المأمون بالتحامل عليه ، فقال :

وعلى اي شيء عولت ؟

- على ان اسلم كل شيء الى الحسن عند قدومه ، ثم انصرف الى الرقة

قال : اليس لك ان تجعلني نائباً عنك في قتال الخارجي ؟

فابتسم قائلاً : وهل رأيت ان عربياً تولى القيادة وهو في السادسة عشرة من عمره ؟! ما غايتك من هذا ؟

- ان تبقى انت في بغداد واسير انا الى الحرب ..

قال : يأمرني الخليفة بان احارب عدوه ، فاعتذر ، واندب ابني لما ندبني هو له ؟.. ومع ذلك ، اتريد ان ابقى في بغداد ، رعية للحسن بن سهل كأني من العامة ؟! لا والله ، انه لخير لي ان اعيش وحيداً في كوخ خشبي ، على الزاب الاعلى ، وانا سيدنفسي ، من ان اقيم باعظم قصر من قصور العاصمة والحسن بن سهل سيد لي .. تلك هي نتيجة الوفاء لامير اقتحمت الموت دفاعاً عنه ، وحملت روحي بيدي لارفعه الى العرش ..

فخفض الفتى صوته قائلا :

ليس الذنب ذنب الخليفة يا سيدي بل ذنب وزيره

— اجل ، ذنب وزيره ، الذي فوض اليه ان يفعل ما يشاء كأنه هو الدولة.. لقد طاب له ان يبعدني ويبعد هرثمة بن اعين عن بغداد ، لينسى اخوه الآمر الناهي في ربوع فتحناها للمأمون بالسيف ، وامتزجت مياه دجلة بدماء ابنائها الابرياء

— لك ان تقول عن الفضل ما تشاء .. ولكن المأمون

فقاطعه قائلا : ولكن ليس لي ان اذكر المأمون بكلمة سوء .. أليس المأمون هو الذي يأمر الفضل بان يعزل هذا ويولي هذا ، ويعهد اليه في اختيار الرجال ، الذين يصلحون للقيادة والحكم ؟

— بلى يا ابي ، ولكن ليس لنا ان نتهمه بانه اراد ، في توليته الحسن بن سهل ، ان يسيء اليك

— وماذا اذاً ؟

— لقد بلغه عصيان نصر ، في نواحي كيسوم،فاستشار الفضل في قائد يقف في وجهه ويعيده الى الهدى فلم يجد غير طاهر بن الحسين الذي ملأ صيته بلاد العرب ، فوافقه الخليفة في ذلك ، وليس في الامر خروج عن الرضى كما تظن

قال: لو كان الامر كما تقول، لما اخذوا ما في يدي، وجعلوه في يد الحسن..

— ولكنهم ولوك الجزيرة والموصل والشام وهذا يكفي

— نعم وانا قد اكتفيت فتهيأوا للمسير الى الرقة ، فقد يجيء الحسن

بعد ايام ..

ونهض القائد الكبير وخرج الى شرفة داره ، والغضب في عينيه ..

فهو لم يكن راضياً عما ندبوه له .. ولم تحمله على الرضى، براهين عبدالله ..

وقد قام في ذهنه ، ان الفضل يريد ان يجرده من هـذا النفوذ الذي تم له ، والمأمون من رأيه

غير ان عبدالله وطلحـــة ، وامهما نائلة ، كانوا مؤمنين ، بان الخليفة لم يشأ اغضاب طاهر وانكار حقه ، وانما قضت بذلك مصلحة الخلافة التي كان طاهر نصيرها الاكبر ، في خراسان والعراق

•

١٤

تفرق الجنود ، الذين حاربوا تحت لواء علي بن ماهان ، وزملائه قواد بغداد راجعين الى بلادهم بعد مقتل الخليفة الامين

من هؤلاء الجنود ، ضابط من ضباط جيش همذان ، يدعى سليمان بن سعد ، عاد الى بلده الرقة ، يحمل في صدره لطاهر بن الحسين ، بغضاً لا تعرف الصدور اشد منه

لقد قال له المنهزمون من الري ، عندما انتهوا الى همذان ، ان طاهراً ، بعد ظفره في المعركة ، امر مناديه بان ينادي :

من القى سلاحه فهو آمن ، فالقى الناس سلاحهم ، بينهم ولدا سليمان ، حمزه وسعيد ، واخوه عثمان ، فلما رآهم طاهر قال :

من انتم ؟

هذكر الفتيان اباهما سليمان ، فقال لمن حوله :

ارموهما بالنبال ..!

تلك هي الرواية التي نقلوها اليه ، وهي رواية كاذبة ، ذكرها له اصحاب الغايات اعداء طاهر ،ولا صحة لها

وهنالك رجل آخر من اهل الرقة يقال له فياض بن قيس كان يقول الناس :

ان طاهراً رأى ولده عكرمة بين الاسرى فذبحه بيده !!

وهذه ايضاً حكاية كاذبة اخترعها المنهزمون

ان حمزة وسعيداً ، وعثمان وعكرمة ، قتلوا في الحرب ،وطاهر لايعرف احداً منهم ..

وقد كثرت الروايات في الرقة يتناقلها اصحاب الامين الذين فشلوا ويرددها الناس ..

حتى ان القائد العظيم ، الذي اخضع الدنيا للمأمون اصبح في نظر المقيمين بالرقة ذئباً يفتك بالابرياء ، ويكرع في الدماء ...

وكان سليمان بن سعد ، وفياض بن قيس يقولان :

ان حاتماً الطائي قتل غدراً ، قبل ان يجرد السيف !

وكانت الغاية من هذه الاكاذيب ، ان يوغروا الصدور على القائد الظافر .. وقد انتهت هذه الاخبار جميعها ، الى ابي حاتم ، وحبيبة ، فاشتد البغض ، ونما الحقد ...

ثم بلغ القوم ، ان طاهراً سينتقل الى الرقة بأمر المأمون لحرب نصر ، فامتلأت القلوب من الغم ، ولكنهم لم يستطيعوا الا ان يخفوا حقدهم ، وراء مظاهر الابتهاج والرضى !

ومن هو الرجل ، الذي يجسر على ان يجاهر طاهراً بالعداوة ؟. ان ظفره المستمر ، ودهاءه الحربي ، يملأ المسامع ، وهو قائد الخلافة الاكبر ، الذي وضع امير المؤمنين عرشه بين يديه

على ان مروان واخوته ، ابناء حاتم ،لم يفكروا فيا فكر فيه الجد والام ، ولم ينظروا ، الا الى الرقة يعود اليها بنوها الذين نجوا من الحرب ، وسيعود اليها طاهربن الحسين وبنوه

وكان ابو حاتم قد امسى اعمى ، فلما سمع ان طاهراً سيجيء ، قال لحبيبة :

اخشى ان ينسى بنوك دم ابيهم وينسوا قاتله ..

وامرها بان تدعوهم اليه ، فاقبلوا ، فقال لهم :

كنتم صغاراً عندما كان طاهر بن الحسين وبنوه في الرقة أتعرفونه ؟

فقال مروان :

نعم وهذه داره ..

واشار الى ناحية الدار ، فقال :

وانا اعلم انكم كنتم ، منذ ستة اعوام ، رفاقاً لبنيه ، تحبونهم وتؤثرونهم على ابناء القواد والامراء ... أتذكرون ذلك ؟

— نعم

— ثم دار الزمان ، فسار طاهر الى خراسان ، وساروا معه ، ولم تلبث الحرب حتى تلظت نارها ، فقتل ابوكم وانتم تعرفون القاتل ...

— قلتم ان طاهراً هو قاتله ..

— هو ذاك ، وسيأتي طاهر الرقة بعد حين ، فتناسوا ما كان بينكم وبين بنيه ، واذكروا دائماً ، ان دم ابيكم القتيل في عنقه ...

ثم قال : ووالله لو كنت مبصراً لبارزت طاهراً فهو في يد واحدة وانا مثله ، ولانتقمت لابني ..

وجعلت حبيبة ، تروي لهم من جديد ، حادث القتل ، كما خبّروها به ، وكانت تقول :

لعن الله هذا الاعور الغدار الذي يذبح الاسرى ، ويرمي بالنبال ، ابناء القواد ، الذين القوا سلاحهم عند قدميه ... اسمعوا يابني .. اني اريد ان اذكر

اكم مثل ابيكم كل يوم ، لاني اخشى ان تنسيكم الايام عدوكم النذل ، الذي جنى عليكم وانتم اطفال

وقامت ، وقام ابو حاتم ، وهما يرددان الفاظ اللعنة ..

ثم نهض الاخوة الاربعة ، وقد ذكروا ماضيهم البري، مع طلحة وعبدالله واخوتهما ، وكأنهم في حلم ...

* * *

في السنة التاسعة والتسعين بعد المئة ، اقبل الحسن بن سهل ، يجر اذيال العظمة ، وحوله طائفة من رجال خراسان ، هم خاصته ، ورجال المشورة

فاعطى طاهر الجند ، ما لهم من الرزق ، وسلم الى الحسن ما كان في يده واستعدللرحيل

واطاع هرثمة امر امير المؤمنين ، فتخلى عن منصبه ، ورجع الى خراسان ..

فقال بنو هاشم وتحدث الناس في العراق، ان الفضل بن سهل هو رجل الساعة ، وامور الخلافة كلها على هواه ، وقد انزل المأمون قصراً حجبه فيه عن اهل بيته وقواده ، والمأمون يخضع له خضوعاً لا تردد فيه،وهو لا يجسرلضعفه على ان يخالفه فيما يأمره به !

ثم قالوا :

يريد الفضل ، ان يولي الاعاجم امور الدولة،ويعزل الامراء والقوادالعرب الواحد بعد الآخر ، لتمسي الخلافة في النهاية في ايدي الفرس

تحدثوا بهذا ، وانتشر حديثهم في كل شارع وكل حي .. وكانت نتيجة هذه الاحاديث ان بني هاشم ووجوه الناس ، استنكروا وغضبوا ..ثم امعنوا في الغضب واجترأوا على الحسن يطعنون عليه وعلى اخيه ، ويستخفون بما يفعله

الرجلان

حتى انتهى هذا الاستخفاف ، الى الفتنة في الاقاليم ، هذا يدعو الناس الى الخروج عن الطاعة ، وهذا يدعوهم الى البيعة لرجل من سلالة الامام علي ، وحتى اندلعت السنة النار ، في الكوفة وضواحي الكوفة ، اشعلها رجل يدعى السري بن منصور ، ودعا الناس الى العمل بكتاب الله والسنة ، في طاعة العلوي المعروف بابن طباطبا ، واسمه محمد بن ابراهيم

والسري بن منصور ، ويقال له ابو السرايا الذي ، ادعى انه من ولد هانىء بن مسعود ، كان من قبل ، من رجال هرثمة ، وقد حارب معه في معارك كثيرة عرفت فيها شجاعته وجرأته .

ولكن هرثمة ، مطله برزقه وارزاق اصحابه ، فترك الجيش ثائراً ، يتبعه فريق من اعوانه وأتى الرقة .

وفي الرقة التقى محمد بن ابراهيم ، فبايعه واتفقا ، على ان ينحدر محمد في الماء ويسير السري في البر حتى يأتيا الكوفة .

وهكذا فعلا ... واول عمل بدأ به السري الثائر ، انه استولى على قصر العباس بن موسى ، واخذ ما فيه من المال والتحف ، واقبل الناس من الكوفيين وجيرانهم ينضمون اليه ويبايعون صاحبه .

ووالي الكوفة ، سليمان بن المنصور ، عاجز لايشهر سيفاً ولا يدافع .

فبعث اليه الحسن بن سهل يعتبه ويلومه ، ووجه زهير بن المسيب الى الكوفة ، في عشرة آلاف رجل ، ليقضي على الجماعة ، ويحمل رؤوسهم اليه ..

على أن المسيب كان أضعف من الوالي ، فلم تكن غير واقعة واحدة حتى انهزم ، واستباح القوم جيشه وغنموا ما كان معه .

فلما كان الغد ، في اول رجب ، من ذلك العام ، اصبح الناس ، فاذا محمد بن ابراهيم ، الذي بايعه اهل الكوفة قد مات !!

مات مسموماً ، وابو السرايا نفسه هو الجاني ..

لقد منعه محمد من ان يستاثر بالغنائم ، فعرف عند ئذ انه لا حكم له معه ، اوضع له السم في الطعام ، فمات ..

وبايع بعده غلاماً امرد هو محمد بن زيد العلوي ، والامر والنهي للسري !

ثم بعث الحسن بن سهل بجيش آخر يقوده عبدوس بن محمد ، فقتل هذا القائد ، وتلاشى جيشه بين قتيل وجريح واسير ،

وانتشر بنو علي عندئذ في البلاد ، وسير السري جنوده الى البصرة ، وواسط ، وما حولهما ، وجعل الولاة عليهما وعلى مكة واليمن ، وفارس والاهواز ، كأن الخلافة امست طوع يديه

والحسن بن سهل ، ينظر في امر هذا الثائر ، وقد ضاق صدره ، وخاف ان تخرج البلاد من يده

فاشار عليه اصحابه ، ان يستدعي هرثمة من خراسان ، ويندبه لقتال هذا العدو الذي يرافقه النصر

وقد علمت ، ان هرثمة انتقل الى خراسان ، على الرغم منه ، ولم يكن راضياً

فلما دفع اليه رسول الحسن ، ذلك الكتاب الذي يامره فيه بالرجوع الى بغداد ، قال له :

لست براجع ، فقل للحسن ان في البلاد قواداً غيري فلينتدب احدهم ...

فاسترضاه الحسن ، فتردد اولا ثم أطاع .. وترك خراسان مكرهاً حتى نزل الكوفة وحاصر أبا السرايا فهرب هذا منها ولجأ الى احدى القرى البعيدة ، فقبض عليه ، وعلى اصحابه ، واخذوا الى الحسن ، فضرب عنق السري وبعث برأسه الى المامون ، ونصب جثته على جسر بغداد .

وسير الغلام الامرد ، محمداً العلوي الى امير المؤمنين ، ليرى رأيه فيه ، واقام

ينتظر ما يفعله نصر بن شبث وطاهر بن الحسين ، وكان ذلك سنة مائتين

***

١٥

استقوى نصر بن شبث في الجزيرة ، وكثر انصاره

فخافه الناس ، واقبلوا اليه يظهرون خضوعهم له

ثم اتاه فريق من شيعة علي ، فقالوا له :

لقد وترت بني العباس ، وقتلت رجالهم ، فلو بايعت لخليفة كان ذلك اقوى لامرك ، فقال :

من اي الناس ؟

قالوا : من آل عليّ

قال : ليس لي هوى في هؤلاء

: اذن نبايع لبعض بني امية !

قال : اولئك أدبر أمرهم والمدبر لايقبل ابداً .. لقد قلت من قبل ،واقول الان ، اني لاأوثر قوماً على بني العباس ، ولكني حاربتهم انتصاراً للعرب الذين سيمسون عبيداً للاعاجم : ثم قال :

بلغني ان الفارسي الفضل بن سهل ، امر طاهر بن الحسين ، بأن يأخذ له رأسي : فوالله لولا هذه السهول والجبال ، التي تفصل بيني وبين الفضل ،لاخذت انا رأسه ، وقلت لجماعة العرب في العراق : هذا عدوكم ليس لكم عدو سواه :

ثم ابتسم قائلا :

سأجرب نفسي مع طاهر الذي تهابه العرب ، وانا بانتظاره .

فقال احدهم : لقــد ترك طاهر بغداد الى الرقة ، مـع الجيش الذي يقوده ..

ـ : اذن لايلبث حتى يجيء فاهلاً به ، وليت الحسن بن سهل معه ، لاحييه تحية الطاعة ، وابعث بسلامي الى اخيه !.

وقبل ان ينصرف القوم ، اعادوا عليه طلبهم ، والتمسوا منه ان يبايع العلوي ، فلم يرض ، وكان يقول :

ما بايعت ولن ابايع غير العباسيين.

وكان طاهر ، قد انتقل الى الرقة ، مع اهل بيته ، كما قال ذلك الطالبي ، ولم يكن الجيش الذي يرأسه كثـير العدد ، ليس لانه كان مستخفاً بنصر ، ولكن لم تكن له رغبة ، كما يستدل مـن التاريخ ، في ان يحـارب الرجـل ،

اي انه لم يكن يريد ان ينتصر .. ! كي لايرتفع في هذا النصر اسم الحسن بن سهل ، ويعزى الظفر اليه ، والى سياسته وبعد نظره في العراق !! .

وبيناهو في الرقة ، ولم تمر على وصوله اليها ليلة واحدة ، اقبل رسول من مرو ، يحمل اليه ، من امير المؤمنين ، نعي ابيـه الحسين ، الذي اثر البقاء في خراسان ، مـع خدمه ومواليـه ، ولم يشأ الانتقال الى الرقة مـع ولده ..

فقرأ كتاب التعزية ، الذي بعث بـه المأمون ، ثم اعاد قراءتـه وشفتاه ترتجفان ، ثم رفع رأسه الى العلاء وقال :

انا لله ، وانا اليـه راجعون .. كيف كانـت جنازة الحسين ، يارجل .

قـال . شهدها امير المؤمنـين نفسه ، وشيع الفقيد الى مضجعـه الاخير .

ـ والفضل بن سهل .

ـ نزل الفضل الى قبره وصلى ، يحيط به رجال القصر والخاصة ، ووجوه

الناس .

فدمعت عيناه على الرغم منه ، لانه لم يكن يريد ان يراه بنوه ، او يراه احد باكياً ..

وبلغ الناس في ذلك اليوم ، خبر موت الحسين ، فاقبلوا وفوداً وفوداً ، يعزون طاهراً ، حتى ان سليمان بن سعد ، وفياض بن قيس اللذين كانا يعدانه عدواً لهما ، لم يترددا في الدعاء له ولبنيه بطول العمر !؟

وكان طاهر ، يسأل الذين يعرفهم ، عن المعزين الذين لم يرهم من قبل ، ثم قال لاحدهم ، وولداه طلحة ، وعبد الله بالقرب منه :

اين ابو حاتم الطائي لااراه .

قال : ان اباحاتم أعمى ايها الامير لايخرج من الدار .

فتمتم قائلاً : مسكين أبو حاتم ، وام مروان كيف هي .

— كيف تكون حال المرأة التي خسرت زوجها واخاها .

— تلك هي نتائج الحرب ... غفر الله لحاتم فقد جنى على نفسه وكان صديقاً لي ..

فقال سليمان بن سعد : يعلم الامير ان الصداقات تضيع في الميادين !

— هوذاك ، حتى ان الولد يطعن اباه ولا يبالي ... ولكن ابا حاتم ،رمى بنفسه مختاراً الى الهوة ، دون ان يدفعه اليها احد ... اكنت انت في حرب الري ؟

— كنت في همذان ..

— في جيش عبد الرحمن بن جبلة

— نعم

— وخسرت احداً من اهلك ؟

— خسرت في الري اخي عثمان ، وولدي حمزة وسعيداً ..

— اذن كانوا في جيش ابن ماهان

— نعم وقد قتلوا بعد المعركة ، وبعد الامان!

فانتفض قائلاً : ماذا ؟! بعد الامان ! هذا كــذب .. ان الذين القوا سلاحهم امسوا منا، وقد انضم الينا بعضهم، وعاهدنا البعض الآخر، قبل انصرافه على ان يخضع للمأمون ، ولا يحمل السيف دفاعاً عن الامين

قالها طاهر بغضب ، وقد اصفر وجهه ..

فسكت سليمان ، وهو مؤمن ، بان الامير تظاهر بالغضب ، وتجاهل الامر ، ليظهر امام الجماعة بمظهر البريء !

ثم عاد طاهر الى هدوئه فقال :

ليس للعالم حيلة في منع الحرب ، يريــد الناس ، ان يعيشوا آمنين في ديارهم ، وينصرفوا مطمئنين الى اعمالهم ، فيأبى القدر الا ان يعكر عليهم صفو العيش ... انظروا الآن الى نصر بن شبث ، الذي خرج على مولانا المأمون ، أفلا يعلم ان العصاة الذين خرجوا قبله على الخلفاء ، افناهم وافنى رجالهــم السيف ؟!

فقال سليمان : يقولون ان عرب الجزيرة جميعهم اصبحوا من رجاله

— لو كان جيشه اكثر عدداً من طير السماء ، لما استطاع ان يفعل اكثر مما فعل سواه ... اما القتل، واما ان يخضع مكرهاً ،هو وعرب الجزيرة لامير المؤمنين ، ويطرحوا سلاحهم عند قدميه..

— ولكن جيشك قليل ايها الامير

— ذلك ما اراده الحسن بن سهل ، ومع ذلك ، فرب فئة قليلة ، غلبت فئة كبيرة ، والنصر بيد الله ..

ثم استدرك قائلاً :

ليست الغاية ان نظفر اليوم بنصر ونفرق جيشه

— وماذا اذاً ؟

— ان يحفظ جيشنا هذه الربوع ، ونصبر حتى يمعــن الخارجــي في عصيانه

— وتبقى هنا مع جيشك ؟

- بل نذهب الى ضواحي كيسوم لنسبر الغور ثم نتراجع !!

- وبعد ذلك .

- لك ان تسأل الحسن بن سهل عما يفعله بعد ذلك ، فالامر له .. ايـذهب الناس في الرقة الى القتال ؟

فقام فتى في زهرة العمر فقال :

ان الحسن لم يندبنا لهذا ايها الامير ، ونحن ما نحب ، على كل حـال ان نبـذل ارواحنا من اجل هذا الغريب ، الذي جعله امـير المؤمنين سيداً لقواده واهل بيته : :

قال : من انت .

- عثمان بن ابراهيم .

- ممـــن .

- من بجيلة ..

فقال : أتعصى امير المؤمنين .

- بل اعصى الحسن بن سهل ، الذي امسى رجل السيف طاهر بن الحسين من عماله !!

قال - كلنا عبيد الخليفة اعزه الله ، وهكذا اراد .

- اما انا فلو امرني الخليفة بان اطيـــع هذا الخراساني لما سمعـت له ..

- اذن تموت .

- ان الموت ، خير من الحياة في ظل رجل يستخف باصحاب الفضـل ولا فضل له .. ومن هو الحسن بن سهل ايها الامير ؟ يرتفع اخوه الفضل بدهائه ، وريائه ، واكاذيبه الى منصب الوزارة ، ويستأثر بالنفوذ والسلطان ، ثم يولي اخاه هذه الاقاليم الرحبة ، من الري والجبال الى بغداد ، ويقول لنا هذا سيدكم فأطيعوه ، لا والله ليس هنا واحد عـــلى الطاعة ، ولئن قال احدهم غير ذلك ، فقوله باطل ، وهو المرائي الكذوب الذي لا كرامة له .

وارتفع صوته وهو يقول .

من اخضع هذه الاقاليم لامير المؤمنين ؟ تخضعها انـــت وهرثمة بن اعين ، وعند ما قعد وقعدت لتـتربحا امرك الفضل بان تسلم مـــا في يدك الى اخيه وتنصرف الى قتال نصر ، وامر هرثمة بان يتخلى عن عمله ويرجع الى خراسان اهذا هو العدل الذي يدفع الناس الىالطاعة .. اني من الفتيان الخاضعين لامير المؤمنين ، المعترفين بخلافته وقد بايعته ، ولكني لااريد ولااطيق ، ان يسوق وزيره كبار القواد والرؤساء بالسوط..

ثم جلـس ، وهـو ينظر مـــزهواً الى الناس ، كأنـــه في مجلـس طرب .

وساد الصمت ..

فانتظر الناس ان يأمر طاهر بضرب عنقه ، ولكن طاهراً كان يبتسم .. ان تفكير الفتى هو تفكيره ، ورأيه هو رأيه ، والذي انكره هو من قبل وذكره لخاصته، انكره عثمان الان ، فليس من العدل اذاً ، ان يعاقب الشاب الجريء الصريح ، على صراحته وجرأته ..

ولكن الحكمة ، بل قل السياسة ، كانت تقضي عليه ، في ذلك الموقف ، واهل الرقة في المجلس ، بان يتظاهر بالغضب ، ويهـدد عثمان بالموت ، اذا هو اهان الفضل بن سهل ، واخاه الحسن ، وذكرهما بسوء فقال له وقـد اختفت ابتسامته ..

اخشى ايها الفتى ، ان تقودك هذه الصراحة الى الموت .. لـك ان تبغض من تشاء وتحب من تشاء ، دون ان تظهر بغضك وحبك ، كما فعلت الان فاذا اردت ان تحفظ حياتك ، فاحفظ لسانك وقد نصحتك .

فهم عثمان بالجواب فاسكته قائلاً .

خير لك ان تكتفي بما سمعت .

ثم هامس ولده عبدالله ، فخرج من القاعة ، ولم يلبث هو حتى نهض ،فنهض

القوم وانصرفوا .

وكان عثمان بن ابراهيم آخر من خرج .

فلما انتهى الى الفناء ، لحق به احـــد الغلمان وقال له وهو يخفـــض صوته ..

اجب الامير .

قال ـ انا .

ـ الست عثمان بن ابراهيم .

ـ انا هو .

ـ اذن فارجع فالامير بانتظارك .

ومشى وهو يتبعه ويقول في نفسه .

لقد اتت الساعة فالموت خير من الذل.

حتى انتهيا الى بهو ، فيه الحصير والوسائد وقد قعد طاهر .

وولداه طلحة وعبد الله بين يديه .

فلما اقبل الفتى امره بالجلوس ثم قال .

كان علي ان اضرب عنقك امام اهل الرقة ، ولكني كرهـت ان تترك هذه الدنيا وانت في هذه السن .. ويلك ، اتعرض لما يفعله امير المؤمنين ولا تبالي .

ـ قال ايأذن لي الامير ان اقول كل شيء .

ـ اجل تستطيع ان تقول ما تشاء فقدتموت اليوم !

قال ـ ان هذا الموت الذي تهددني به ياسيدي ، لااخافه ، وقـد كنت احدث نفسي به منذ لحظة .. واما اني عرضت لاعمال امير المؤمنين فقل متى كان ذلك .

ـ ألم تنكر عليه ، والناس في المجلس ، توليته الحسن بن سهل .

ـ أنكرت ذلك على الفضل فهذا رأيه ، وهو الذي يولي ، ولو علمت ان لامير المؤمنين يداً في الامر ، لقلت فيه ماقلته في وزيره ، ووضعت عنقي بعد

ذلك مختاراً تحت سيف الجلاد ...! اسمع ايها الامير ، لقد كان هواي في الخليفة الامين ، فلما قتل ، بايعت المأمون وايقنت عندئذ بانه احق ابناء الرشيد بالخلافة .. ولكنني لااتردد في خلع البيعة ، اذا رأيت ان هذه الخلافة خرجت من ايدي بني العباس ، وامست في ايدي الفرس ..

وسكت قليلاً ثم قال .

ايجعلك ابن سهل ، في هذه الزاوية من الارض ، لينعم هو بالولاية الكبرى وندعوني وتدعو الناس الى طاعته ؟! . لا والله لست مطيعاً لك اذا كنت على عهده ولك ان تنادي جلادك الان يدفنوني وانا عربي حر ، خير من حياتي وانا عبد لهذا الفارسي ؟!

فقال طاهر لطلحة .

مر الغلمان بان يحملوه الى السجن ريثما ينظر الحسن بن سهل في امره ::

قال – اما السجن فانا لااحتمل وحشته ، ولكن خذ رأسي ..

– لاافعل الا اذا امرني الحسن .

فقهقه كالمجنون وجعل يقول ..

تعالوا ياقواد العرب ، وانظروا الى سيدكم طاهر بن الحسين ، وضعف نفسه وذله !! ... اتنتظر امر الفارسي لتقول كلمتك ؟ .. انه يأمر بضرب عنقي اليوم .. ثم يضرب عنقك وعنق هرثمة غداً ، ولو استطاع لمحا آل العباس من الوجود وجعل الخلافة في آل علي ليظل النفوذ له ولذريته من بعده ..

قال – الم تسمع ياطلحة ماقلته لك ؟

فقال عبد الله : اسألك ياسيدي ان تعفو عنه فهو بريء :

– وفي اي شيء رأيت براءته ؟

– في هذه الصراحة التي سمعت .. انك تحب الفتيان الذين يجول في عروقهم دم العزة والشرف ، وقد قربت اليك ، في معارك الري ، وهمذان وبغداد

طائفة من هؤلاء .. وانت تأمرنا كل يوم بان نقول الحق لانتردد في اظهاره ، ولو هلكنا ،ويظهر ان هذا الفتى لم يتعود الرياء كما رأيت ، فقد اثر الامين على المأمون ، ثم آثر المأمون على جميع بني العباس ، وهو يعترف الان بانه لايحب الفرس الذين يستخفون بالعرب ، ويستأثرون بنعم الخلافة ويحاولون ان يخضعوا لسلطانهم ، جميع النبلاء والقواد ، والامراء .

ثم قال : وانا ! انا عبد الله بن طاهر ، احب امير المؤمنين المأمون حباً انت تعرف مقداره ، وابذل روحي من اجله وفداء عنه ، ولكني لااطيق ان يكون الفضل بن سهل ، شريكاً له في ملكه ، وعاملاً على ابعاد المخلصين من وجوه العرب عن العرش !

قال : ان الفضل وزيره ، وامور الدولة جميعها في يده ، وقد فوّض اليه ان ينظر في شؤون الخلافة ، كما كان يفعل جعفر بن يحيى ايام الرشيد ، أفليس علينا ، نحن العرب ، ان نطيعه كما نطيع الخليفة ؟

– ولكنه لم يفوض اليه ان يجعل ابناء قومه سادة الارض ، ويطعمهم خراجها واموالها ، ويبعد بني هاشم عن الحكم ،ويعهد الى اخيه في ادارة الجيوش وهو لا يحسن حمل السيف ..! ان الفتى على حق فيما ذكره الآن ، فاعف عنه واجعله من الخاصة !

وقام طلحة فقال : قد لا تجد في الرقة يا مولاي ، رجلاً له شجاعة هذا الفتى ونبالة خلقه فقرّبه اليك ...

ثم قال عبد الله مثل قوله ، لايترك الاثنان لابيهما مجالاً للكلام ،هذا يستعطف وهذا يرجو... وعامر يبتسم لما يسمع ، وكأنه واثق بان الامير من رأي ولديه ...

حتى مسّت الرحمة قلب طاهر ... فقال :

نعفو ، اذا وعدنا بانه لن يعود الى ذكر الحسن والفضل في مجلس الامير ، وعلى مسمع من اهل الرقة ،

فقال عثمان : اما في مجلس الامير فسأكون اخرس اصم ، لانك تريد

ذلك ، وانت صاحب الامر في مجلسك وقصرك ، واما ان اسكت عن انتقاص الرجلين في ساحة المسجد ، وعلى الشاطىء ، وفي الليالي التي يكثر فيها اجتماع الناس ، فهذا لا يكون ، الا اذا عمد الاثنان الى الاعتراف بما للعرب من حقوق في هذه الدولة ، والا اذا ترك الحسن ولايته الكبرى ، وسلم مقاليدها الى طاهر بن الحسين ، الذي يريد ان يضرب عنقي الآن ...

فاخفى القائد الكبير ابتسامة بدت على شفتيه ، وجعل يقول :

ليس لنا حيلة في ردّك الى الهدى فكن كيف شئت فقـــد عفونا عنك ..

قال : اني اطمع باكثر من عفوك ايها الامير

ـ بماذا ؟

ـ بان تجعلني من حراسك لامنع يد الغدر من ان تمتد اليك!

قال : ان الرجل الذي لا يستطيع ان يحمي نفسه لا يحميه الناس ، ومع ذلك فالحرس والجند لا يفعلون شيئاً عندما تأتي الساعة ... أسمعت احداً يقول انه سيغدر بنا ؟

فتردد قليلاً ثم قال : لا ايها الامير ، ولكني اخاف عليك وزير المأمون واخاه ، اللذين لا يطيب لهما ان ينظرا اليك ، وانت في مقامك ومجدك ... كما اني اخاف ... ان يصاب احد شذاذ الرقة بالجنون ، فيعمد الى الفتك بك ...

فقال طاهر في نفسه : ان في صدر الفتى سراً لابد من ان يبوح به ..

والتفت الى ولديه قائلاً :

ليس من الرأي ان نجعل صاحبكما من الحرس الان .. ولكن ليكن رفيقاً لك يا عبد الله ، وليقم بالقصر ... ايرضيك هذا ياعثمان ؟

قال : اشكر الامير على نعمته ، وساكون من اصدق خدمه ، ولكن لي رجاء ...

ـ ماهو؟

— هو ان تأذن لي في الانصراف كل ليلة الى منزلي ، لاكون بالقرب من امي

— أمتزوج انت ؟

— لا يا مولاي

— وابوك حي ؟

— لا

— ولك اخوة ؟

— كان لي اخوان ابتلعهما النهر وهما صغيران

— ويلك ، ومتى كان نهر الرقة يبتلع الصغار ؟

— كانا يلعبان على الضفة فسقطا فيه ، فحملهما التيار ثم طواهما الماء

— اذن انت وحيد امك

— نعم

— وماذا ترك لك ابوك ؟

— خمسين ناقة ، وضيعة صغيرة تجاور ضيعة لحاتم الطائي قريبة من الرقة وبيتنا يجاور بيت حاتم ، وبين امي وام مروان ، صحبة يعود عهدها الى ايام الشباب

فجعل طاهر يقول : ام مروان !! هذه الارملة التي كان زوجها اخاً لي .. ثم قال :

اذن تقيم بيننا النهار كله وتذهب في آخر الليل

— اذا اراد الامير

— وعندما نخرج الى قتال نصر اتبقى هنا ؟

— بل اذهب الى حيث تذهب ، على ان تجيء امي لتقيم مع نسائك وجواريك

— سنفعل ذلك ، ولكن قل لنا ، أتحسن القتال ؟

فضحك قائلا : كما احسن الكلام ...

— ومن علمك ؟

- لقد خلقت بجيلة في ساحات الحرب وتموت فيها

ودخل عندئذ قواد طاهر ليتحدثوا بقضية كيسوم وحرب نصر

فخرج عبد الله وعثمان ، وبقي طلحة ،

ومنذ تلك اللحظة ، احب عثمان عبد الله ، الحب الكثير ، وادرك ان عبد الله ويبادله هذا الحب

٥٥

١٦

لم يرجع هرثمة ، بعد مقتل السري بن منصور « ابي السرايا » الى الحسن بن سهل ، وكان في المدائن ، بل سار الى بلد يدعى عقرقوف

وفي ذلك البلد ، طائفة من وجوه بني العباس واعيان بغداد

وكان قد عرف ، وهو يحارب اباالسرايا ، ان الجماعة ، ينكرون على الفضل بن سهل ، استبداده بالدولة ، ووضعه اخاه الحسن ، في الموضع الذيلم يخلق له واهتمامه للكبيرة والصغيرة من شؤون الناس ..

بل ينكرون على امير المؤمنين نفسه ، استسلامه الغريب للرجل

وقد نقل اليهم بعض اهل خراسان ، ان المأمون ضعيف ، والفضل قوي .. وان الخلافة في يد الفضل لايعرف المأمون منها غير الاسم ،وغير مظاهر التعظيم والتكريم ... كما نقل اليهم ، ان هذا الوزير الفارسي ، يستخف بسيد المسلمين، ولا يأذن له في الخروج من القصر !

وقد قرأت ذلك من قبل

فلما انتهى هرثمة الى عقرقوف ، وهو يريد ان يتركها بعد بضعة ايام ، الى

النهروان ، ثم الى خراسان، ارسل الحسن بن سهل،جواسيسه وعيونه،يشهدون مجالسه مع الجماعة ، وهم يلبسون لباس الاصدقاء ،ويصغون الى احاديثه واحاديث القوم ، ويطلعون على ما خفي عليهم من مؤامرات واسرار ...

وقد عرفت بما مر ، ان الحسن واخاه الفضل ، كانا يرغبان ، في قتل هذه الشهرة التي يتمتع بها القائدان هرثمة وطاهر .. وفي خفض الصوتين العاليين اللذين ملأا بلاد العرب

امر جواسيسه بان يتظاهروا بانهم خصومه وخصوم اخيه ، ليستطيعوا ان يحصوا الانفاس ، ويقرأوا ما في الصدور

وكان يعلم من ظاهر الحال ، ومن الفوضى التي تتخبط بها بغداد وضواحي بغداد ، والاخبار التي يرويها له رجاله كل يوم ، ان القوم يبغضونه ، وان هرثمة لا يعترف بولايته ، ولا يريد ، لولا المامون ، ان يسمع له

ومجيء هرثمة الى عقرقوف ، دون ان ياتي المدائن ، دليل على انه لم يكن يريد ان يراه ..

واجتمع القوم ... هرثمة وبنو العباس .. اجتمعوا مرتين وثلاثاً ، ولم يتحدثوا ، لا بالحرب ولا بمقتل ابي السرايا ، وضحايا الفتنة من الفريقين ، بل بذلك الأمر الذي تقوم الفتن من اجله . هو استئثار الفضل بالسلطان واستلام المأمون

وكان هرثمة ، يدافع عن الخليفة ، ويحاول ان يثبت للجماعة ، ان الذين نقلوا اليهم اخبار الخلافة في خراسان ، امعنوا في الغلو ، وان المامون عظيم الهيبة قوي الارادة ، لا يطمع فيه ، ولا يستطيع الفضل بن سهل ان يستخف به

غير ان العباسيين، كانوا يرون غير ما يراه ، حتى ان احدهم قام فقال ..

اتقدر ان تقول لنا ايها القائد اي شيء حمل المأمون على عزلك وعزل طاهر وتولية الحسن ؟

— حمله على ذلك مصلحة الدولة .

ـ وهل تضيع مصلحة الدولة اذا كنت انت وطاهر صاحبي الامر ؟!

ـ نحن الاثنين من رجال السيف .

ـ والحسن بن سهل من رجال الحكم ؟! انها والله مهزلة من مهازل القدر يمسي الفضل واخوه رجلي الساعة ، وابناء المهدي والهادي والرشيد اتباعاً لهما ونحن نرى ؟؟! لا والله لانعترف بخليفة وزيره الفضل ، وعامله الحسن. وعاصمته مرو .. ثم قام آخر فقال .

ان المأمون الذي تنتصر لههو منا .. من دمنا . وهو ابن الرشيد الذي اعز الاسلام ورفع شأنه . ونحن اعمامه وانسباؤه نحبه الحب الذي لايشك فيه . ولكننا لانرضى ان يماشي اخواله ويمسي فارسياً !! ويجعل عاصمته في بلاد فارس ووزراءه وعماله من الفرس .

والقائد يعلم ، ان العباسيين على حق فيما يقولون ، غير انه كان يكره ان يعيبوا المأمون ، وهو الخليفة الذي خاض الميادين من اجله ، وقضى الاعوا حاملاً سيفه للدفاع عنه ، فقال :

ليس على امير المؤمنين ذنب فيما تذكرون ، لقد جعل الرشيد خراسان مقراً له وهو ولي عهد ، وكانت بغداد مقراً لاخيه الامين وهو خليفة ، فلما قام النزاع بين الاثنين ، وانتهى امره بينهما الى الحرب ، لم يجد المأمون حوله غير اهل خراسان ، يذودون عنه ، وينتصرون له ، وكان اهل العراق جميعهم من اعدائه حتى انهم حملوا القيد الذي سلمته اليهم زبيدة زوجة الرشيد ليقيدوه به أفكان عليه ، بعد مقتل الامين ، ان يترك خراسان ، ويحول وجهه عن وزيره الذي وفى له ، وعن الفرس الذين كانوا جنوده ؟

ـ اذن فليبق في خراسان فهي دار خلافته ، وليستبد الفضل به ماطاب له الاستبداد، وسنختار نحن خليفة لنا يقوم بأمر العرب .. !

فضحك قائلا : اما الخليفة الآخر فلاسبيل لكم اليه ، واما الفضل فسأطلع المأمون على ماتنكرونه من امره ، وانقل اليه مايتحدث به الناس في العراق .

– يقول له الفضل ،ان الدنيا والعراق بألف خير . فقل له انت ان الشرق العراق ولا خير فيه ..

فثارت نفس هرثمة من جديد ، على الفضل واخيه ، وعوّل على المسير الى خراسان ، ليقص على مولاه ماسمع ، وينصح له بان يعمد الى استرضاء القوم لذين لا يطيقون ان يكونوا خدماً اذلاء للفرس

وكان جواسيس الحسن ، قد عرفوا ما ارادوا ان يعرفوه ، فانصرفوا الى المدائن ، يحملون الى سيدهم اخبار السوء ..

فكتب الحسن الى الفضل ،يصف له حال القوم .. ويدعوه الى حمل المأمون ليمنع هرثمة ، بالاسلوب السياسي ، من الذهاب الى خراسان ..

وقد جاء في كتابه : ابعد هرثمة عن خراسان ، فليس من الرأي ان يمثل بين يدي امير المؤمنين لانه عدو لنا

ولم يكن الفضل ، بحاجة الى اغراء اخيه ، فطاهر بن الحسين ، وهرثمة بن اعين ، هما في اللائحة السوداء ... وهو ينتظر بصبر وهدوء ، ذلك الزمن ، الذي يساعده في الخلاص من الرجلين ..

ومع ذلك ، فقد اعدّ العدة لابعاد هرثمة ، وكان واثقاً بانه يستطيع ان يخدع الخليفة ، ويدفعه الى تنفيذ ما يفكر فيه ...



١٧

لقد اعجبتني هذه الجرأة التي حدثت بها والدي ، كما اعجبني دفاعك عن قومك العرب ، وايقنت ، بانك ستكون وفياً ومخلصاً للامير الذي جعلك من خاصته

ألبس كذلك ؟

— قل اني امسيت عبداً له ولكم ، اجود بحياتي من اجلكم ، وسترى...

قالها عثمان بن ابراهيم ، لعبد الله بن طاهر ، وهما في فناء الدار

وكان الواحد منهما ، قد وثق بالآخر ، وعوّل عبد الله ، على ان يكون عوناً لصاحبه الجديد ، في كل ما يعرض له

وجعلا يمشيان ، حتى خرجا الى الشارع ، واقبلا على ساحة واسعة تغص بالنوق ، وجماعات العربان

فوقف عبد الله لحظة ثم قال ، وهو يشير الى الجانب الشرقي من تلك الساحة : اذكر ان امير المؤمنين الرشيد ، كان يقضي بعض الاشهر من كل عام ، في ذلك القصر القائم وراء النخيل

— هوذاك ، وقد امسى بعد موت الرشيد للامين ، يقابله من الناحية الاخرى قصور المأمون والقاسم وصالح والامراء الاخرين

— وكان بالقرب من قصر الخليفة ، دار يحيى بن خالد ودور بنيه

— ان دور البرامكة اصبحت ملكاً للخلافة ، بعد النكبة ، وكان يقيم بها بعض القواد والمقربين

قال : يظهر انك تعلم عن الرقة الشيء الكثير.. أتدرى اين كنا نقيم نحن ؟

— كانت داركم بالقرب من مسجد المهدي ، ودارنا غير بعيدة عنه

— اذن كنا جيراناً وانا لا اعلم

— وكيف تعلم وقد كنت صغيراً لا تعاشر من فتيان الرقة غير مروان بن حاتم واخوته

فدهش عبد الله وقال : وتعرف هذا ايضاً ؟

— نعم ، وكنت ارى البيوت التي تصنعها زينب ، وتصنعها انت عند الشاطىء ...

— انك اذاً لساحر ..

- بل انا بعيد عن السحر كما ترى ، ولكني كنت في ذلك الحين ، في السابعة عشرة ، وكنت اعرف عنك وعن الجيران ، ما يعرفه الفتى في هذه السن.

وظلا يمشيان ، حتى انتهيا الى مسجد المهدي ، فرأى عبد الله ان دارهم امست خراباً فقال :

تلك هي يد الزمان...

- بل هذه يد السياسة .. ويد الانتقام ... لقد كنتم من خصوم الامين ، فلم يبق لكم في الرقة دار ...!

فجعل يهز رأسه ويقول : اجل ، لم يبق لنا دار .. ولكني ساعيد بناءها ، وارفع جدرانها حتى تصير اعلى من هذه القصور التي ترى ..!!

ثم قال : هذا .. بيت حاتم ..

- اصبت ، والمنزل الذي هو في الجانب الغربي منه هو لنا

- وفيه تقيم امك ؟

- نعم يا سيدي فان شئت ان تراها ..

فتمتم قائلا : لابد من هذا ... لا بد من هذا ...

وسارا حتى دخلا المنزل

وكانت في البهو ، امرأة تغزل الصوف ، فقال عثمان :

امي ، أتعرفين هذا الفتي ؟

فجعلت تتفرس فيه ثم قالت : ان هذا الجبين الوضاح ، والعينين المتقدتين هما عينا ... عبد الله بن طاهر .. ألست عبد الله

فضحك وقال : انا هو

- لقد كنت صغيراً يوم تركتم الرقة ، ومع ذلك فقد عرفتك ... اين اجتمعتما ياعثمان ؟

- في مجلس الامير ابيه ، وقد جعلني اعزه الله من خاصته .

- ان امارة الرقة قليلة على طاهر ، وقد سمعنا ان الحسن بن سهل امره

بان يسير الى قتال بن شبث ، وكان عليه ان يوجّه احد صغار الفواد ...

وتقدمتهما الى قاعة فيها الوسائد ودعت عبد الله الى الجلوس .. وهي تقول نعم ، ليس من حق ابن سهل ان يفعل ما فعل .. ولكن ماذا تصنع وابوك من الذين يسمعون ويطيعون .. رعاه الله .. لقد جعل عثمان من خدمه ولا عهد له في خدمة الامراء .. من قربّك اليه يابني ؟

ــ سيدي عبد الله واخوه طلحة .

وقص عليها ماجرى ، في مجلس طاهر ، وهي تدعو وتشكر ثم ، قال .

وقد امرني مولاي الامير بان اتهيأ للخروج معه الى الحرب .

ــ انها منة له تحفظها الى الابد ، وانا ادعو الله عز وجل ، ان يهب له الظفر ، ويجعلك بين صفوف الابطال الذين يحسنون الدفاع عن امير المؤمنين ..

قال ــ وقد شاء ان تقيمي مع نسائه يوم نترك الرقة وتمكثي بينهن حتى نعود ..

قالت ــ أوثر ان اسير وراء الجيش لاضمد الجراح !

فقال عبد الله : لقد اراد ان تبقي وانتهى الامر .

وظل واقفاً .. وكلما دعته الى الجلوس اعتذر لها ..

ثم خرج الى الرواق ، وتبعه الاثنان ، وجعل ينظر الى منزل الطائي ، وقد استيقظ فيه ماضيه .. ماضي الطفولة البريئة العذب ، ايام كان يمرح ويلهو ، ورجع بالذكرى الى بيوت الطين .. وميادين السباق ، وابتسامات زينب . وعبث مروان والمغيرة ، وسعدى .. ثم انتقل بالروح .. وجعل يبتعد في تفكيره شيئاً فشيئاً عن الرقة ، حتى انتهى الى معركة الري .. فرأى حاتماً صريعاً في الساحة وسيف ابيه يقطر من دمه !!

فاضطرب .. وكأن جثة الطائي امام عينيه !

ومضت لحظة ، وهو مصاب بذهول ، حتى اخرجته ام عثمان من ذهوله بقولها له

كنت اراك دائماً في فناء بيت حاتم تلعب مع بنيه .

– وكذلك كان يراني عثمان . ان مروان واخوته رفاق لي ..

– وكانت ام مروان تحبك كما تحب بنيها حتى انها كانت تقول لي ما احببت غلاماً مثل هذا الغلام.. ولكنها نسيت كل شيء بعد مقتل ابي مروان واستولت عليها الكآبة والحزن .

– واين بنوها اليوم ?

– في هذه الدار لايتركونها الا الى ضيعة لهم ثم يعودون .. واما ابوك فقد كان صديقاً لزوجها ، وكثيراً ما كانا يجتمعان تحت النخيل ، فلما دعاهما داعي الحرب ، انصرف ابوك الى خدمة المأمون ، وكان ابو مروان بين الصفوف التي تحارب من اجل الامين . ثم التقى الصديقان في الري، فامسيا عدوين وكان ما كان ..

قال: ان ابامروان جنى على نفسه ، وكان عليه ان يخرج الى البراز كما يخرج سواه .

وهو يعني انه لم يكن سافراً عندما بارز اباه .

فقالت وهي تجهل ما عناه : الغريب في الامر ، انه قتل من يد ابيك وهذا ماتردّده ام مروان وتذكره لبنيها كل يوم .. ولو رأيت ابا حاتم في فراشه وسمعته يندب ابنه ، واحفاده حوله يبكون ، لبكيت معهم ، ولعنت هذه الدنيا التي لاتصفو لاحد ..

. وخفضت صوتها قائلة : انظر يابني . هذا المغيرة في فناء الدار عند مرابط الخيل . وهذا عبدهم مغيث بالقرب منه .. لقد اصبح المغيرة ومروان من احسن الفتيان . واصبحت سعدى وزينب من اجمل العذارى في العراق .ولولا هذه الذكرى المؤلمة لملأوا الحي انساً وبهجة .

قال : ألا يذكرون عبد الله بن طاهر ؟

- لا

- ولا يذكرون طاهراً ؟

- اذا ذكروه ، فبالمرارة والالم ، لانهم يعلمون انه هو القاتل

- اذن فهم لايعرفون شيئاً ..

- ماذا ؟

- ان ابي بريء من دمه

- ألم يكن هو قاتله ؟

- بلى

- وكيف يكون بريئاً ؟!

- لقد خرج حاتم الى الساحة يطلب البراز وهو مقنع الوجه ، وتحته فرس اشهب هو غير الفرس الذي كان له ، ولم تعلم غايته من ذلك

- وبارزه الامير وهو لايعرفه ؟

- اجل ، رأى فارساً يصول ويجول ، ويطلب الفرسان الى البراز ، فخرج اليه ، وكانت ساعته قد اتت ، وعندما قيل للامير بعد المعركة ، ان القتيل هو صاحبه الطائي ، اطرق نادماً ، ولو لم يكن هو القائد العام ، والقواد لايبكون لبكاه ، امام اركان الحرب ...

فجعلت هي وعثمان يتفرسان فيه كأنهما لم يصدقا ما ذكره لهما ، ثم قالت :

اذن ضربه ولم يعرف من هو

- نعم

- وانت واثق بهذا ؟

- كما اثق بانك ام عثمان

- ولكنهم يقولون في الرقة غير ما تقوله انت ... يقولون ان اباك امسك السيف بيديه الاثنتين وضربه به قائلاً له : خذها ياحاتم !!

فقال لعثمان أهذا ماتحدث به اهـل الرقـــة ، ونقلوه الى ابي حاتم وام مروان ؟

— نعم ، وقد وصفوا اباك بقولهم انه القائد الغدار ، الذي يخون اصحابه ويفتك بالابرياء !

فقال وشفتاه ترتجفان: بل هم الخونة الذين ملأ الحسد قلوبهم فأخذوا يكذبون على الله ، وعلى انفسهم ، وعلى الناس ، ويختلفون الاخبار ويجعلون الرجل الامين غداراً ، والبريء مجرماً ، والشريف الطاهر الذيل سفاحاً لاضمير له . ان طاهر بن الحسين لم يتعود الغدر ، ولم يعرف في حياته غير الوفاء لاصحابه والمخلصين من الناس .

قال : ان مثلك ياسيدي لايبالي بمثل هذا .

— ولكني لااريد ان يكون ابو حاتم واهل بيته اعداء لنا ، وسأنقل الى ابي ماخبرتني به .

— اما انا فأرى ان تصبر حتى يرجع ابوك من الحرب .

قال : لااطيق ان يمعن القوم في سوء الظن .

فقالت المرأة : سأقص على سعدى وزينب مارويتـــه لنا فقد تجيئان بعد ساعة .

— وام مروان الا تجيء ؟

— لم تخرج المسكينة من بيتها منذ نكبها القضاء بالشقيق والزوج ، بلى انها تذهب مـــرة او مرتين في العام ، الى الضيعـــة التي تركها حاتم في الضواحي .

فأحب عبد الله ان يسبر الغور ، فقال :

وانت يام عثمان ، الا تزورين الجماعة ؟

— ازورهم كل يوم وتأتي سعدى وزينب كل مساء ، والاثنتان تنظران الى عثمان كأنه أخوهما الاكبر :

— كل مساء ؟

- نعم كل مساء الا اذا دعاهما جدهما الاعمى الى البقاء بالقرب منه ..

- وهل يذكر الشيخ لاحفاده مقتل ابيهم ؟

- تحب ان تعرف كل شيء ؟

- نعم فلا تكتميني ماتعلمين :

قالت : ان الشيخ وام مروان ، يلعنان طاهراً كلما تنفس الصبح وغربت الشمس ،وقداوحيا الى مروان واخوته بأن يبتعدوا عنكم انتم ابناء طاهر ، وينسوا ما كان بينكم وبينهم من مودة وولاء ، وهما يقولان لهم في النهار والليل ، ان طاهر بن الحسين هو قاتل ابيكم فاحفظوا هذا ! ..

- اذن لم يبق الا ان يعرف القوم كيف جرت حادثة القتل .

- هو ذاك وسأتولى انا البحث مع سعدى وزينب ثم مع الام ،واعيدعليك ماسمعه منهن .

- واتركي ابا حاتم فلا تحدثيه بالامر .

- سأفعل .. والان ارجو منك ان تنهى عثمان عن شتم الحسن بن سهل واخيه ، فانا اخافهما عليه ،

فضحك قائلاً : لقد شتم الاثنين في مجلس الامير ، فغضب ، ثم رضي كما ترين ..

واطرق قليلاً ثم قال :

لقد فكرت الان في امر ، هو ان انصرف الساعة ، ثم أعود مع عثمان قبل المساء ، لاسمع ماتقوله الفتاتان .

قالت : اخشى ان تعرفاك فيكون وجودك سبباً لسكوتهما او لرجوعهما الى البيت .

قال : اصغي الى حديثهما دون ان تعلما اني هنا .

- وكيف ذلك ؟

ـ امكث في هذا المخدع فاسمع مايقال .

واشار الى مخدع صغير بالقرب من القاعة .

فقالت : اذن تعود عند العصر قبل ان تجيئا .

ـ نعم ، فماذا ترى ياعثمان ؟

ـ ماتراه انت .

ـ اذن فلنذهب ..

وخرجا راجعين الى دار الامارة ، وعبد الله يتلفت ، ويرسل نظره الى المنزل ، الذي كان يلعب في فنائه ..

***

١٨

قبل ان يقدم طاهر الرقة ، كتب الى نصر بن شبث العقيلي كتاباً يقول له فيه :

لقد بلغ امير المؤمنين ، خروجك عن طاعته و واستيلاؤك على كيسوم وما يجاورها من مدن وقرى ، وانك تدعو الناس الى الخلاف ونقض البيعة ، فاذا اتاك كتابي فاترك ما انت عليه ووافني مستسلماً الى الرقة .

فورد عليه جواب نصر ، وفيه مافيه من الاستخفاف به ، وبالخليفة الذي ارسله ، ويدعوه الى القتال !

وكان طاهر واثقاً ، عندما وجه اليه بكتابه بأنه لايستسلم ، لان طوائف الاعراب الذين انضموا اليه ، وبايعوه على الطاعة ، زادوه قوة ومنعة ولكنه كتب كتابه ، عملا بالقاعدة التي يتبعها رجال الحرب .

ولم يكن راغباً في قتاله كما عرفت .

على انه اراد بعد أخذه الجواب ، ان يجمع قواد الجيش وضباطه،ويتظاهر بأنه يستشيرهم في الامر ..

وكان عبد الله وعثمان ، قد رجعا الى القصر قبل ان يجتمع هؤلاء .

فدفع طاهر الى عبدالله كتاب نصر وقال : رأيك يابني ؟

فلما اطلع على ماجاء فيه قال :

ارى ان تتعجل في الخروج ، فقد يظن هو ويظـــن الناس في بغداد انك تخافه

قال : هذا ما يقوله اخوك طلحة ، ولكن ليس في بلاد العرب جميعها من يظن ، ان طاهراً يخاف احداً .. ومع ذلك فسنخرج بعد بضعة ايام

ودخل الحاجب فقال : لقد اقبل القواد يامولاي

فجعل يرحب بهم ثم قال : يظهر ان نصر بن شبث ، من اولئك الابطـال الذين يبتسمون للاخطار ، ولا يبالون بغضب امير المؤمنين .. اسمعوا ماورد في كتابه

واخذ يقرأ ، فلما انتهى ، وضعوا ايديهم على سيوفهم وقالوا :

الى الحرب !..

قال : أجل الى الحرب .. ولكن اين .. أفي كيسوم ؟

— نعم ، فقد اشتد ساعد الرجل ، وكثر الناس حوله ، ونحن نخشى ان يهاجم الرقة بعد حين ، اذا لم نتصد له في بلاده

قال : ارسلنا ثلاثة من رجالنا ، يستطلعون امره ، وامر الرجـال الذين خرجوا معه ، ولم يرجعوا بعد

فقال احد الخدم : لقد رجعوا ايها الامير وهم بالباب

فأذن لهم فدخلوا ، فقال لاحدهم واسمه حماد :

ماذا رأيتم ؟

— رأينا رجالاًيحملون ارواحهم على رؤوس الاسنة !

فضحك قائلاً : هذا وصف لابأس به ... ثم ماذا ؟

- ورأينا الخارجي بينهم كأنه من الالهة .!

- وكأنك انت من الشعراء ... كيف استطعم ان تروه ؟

كنا فقراء ، يطوف كل واحد منا في حي ، ويسأل الناس الاحسان وكان نصر امام فسطاطه الكبير يحوطه الكهول والفتيان وكأنهم في المسجد!

- وهل احسن اليك ؟

- امر احد خدمه فاعطاني خمسين درهماً

قال : انها عطية امير يبذل المال بدون حساب .. وعرفتم عدد رجاله ؟

- يقولون ، ان وراء عشيرته بني عقيل ، زهاء عشرة آلاف ، وعنده الطوائف الكثيرة من الخيل

فاستأذن عبد الله اباه وقال :

بلغنا انه عبر الفرات الى الجانب الشرقي أصحيح هذا ؟

- نعم فهو في الجانب الذي ذكرت ، وقد استولى على ميساط وحرّان وهم يسمونه اسد الجزيرة

- ان جميع الذين خرجوا على الخلفاء من قبل ، كانوا اسوداً ، ثم امسوا اذل من الثعالب ..

فقال خالد بن هشام ، وكان قد خرج مع طاهر من خراسان ، وهو من اركان الحرب ..

لو ندبني الامير لقتاله ، لأتيته برأسه

فقال : يا ابا محمد .. عشرة آلاف رجل ، وبنو عقيل ، وتأتينا برأسه ؟

ان رأسه ليس بهين ، وقد لا نستطيع ان نظفر به الا بعد معارك كثيرة تسفح فيها الدماء ،

فقال طاهر : اذا كنتم تعرفون شيئاً عن بني عقيل ، فاذكروه لنا

فقال حماد : هم ثمانمائة رجل ايها الامير كلهم من الفرسان

- ومن قال لك ذلك ؟

ـ احد الفتيان من قضاعة ، وهو من حراس نصر ..

ـ اذن فجيش الرجل اكثر عدداً منا ، وسيزيد انصاره من طلاب الغنائم واصحاب الطمع

واطرق قليلا ثم قال : ومهما يكن من امر ، فسنترك الرقة في الاسبوع القادم ولو كنا مئة رجل.. فانظروا في امر الجيش ، واعلموا انكم ستواجهون رجالاً يؤثرون الموت على الاستسلام

وجعل يباحث اركان حربه ويباحثونه حتى كان العصر ، فذهب كل واحد منهم الى عمله ، وخلا هو الى نفسه ، يفكر في هذه المهمة التي عهد فيها اليه ، وفي المنصب الكبير الذي عهد فيه ، الى الحسن بن سهل ...

ooo

جلس عبد الله وعثمان ، في المخدع الصغير ، الذي يطل بابه على قاعة الجلوس ينتظران قدوم سعدى وزينب !

وكان الجدار الفاصل بينهما وبين القاعة ، جداراً رقيقاً ، يستطيعان من ورائه ، ان يسمعا من الداخل ، همس الانفاس ..

ومرت ساعة ، وعبد الله صابر ، لايتذمر ولا يشكو ، حتى اقبلت الفتاتان ، ومعهما مروان ، وكانت سعدى تقول :

ان ام عثمان لاتترك مغزلها حتى يجن الليل

فقال عثمان لرفيقه : هذا صوت سعدى

ثم قال مروان : اتيت اسأل عامراً ان يرافقني غداً الى البيضاء فقد ماتت فيها ناقتان لنا ... اين هو لاأراه

« البيضاء ضيعة الطائيين » .

فقالت ام عثمان : انه في دار الامارة وقد امسى من خاصة طاهر بن الحسين ..

- عثمان ؟

- نعم ، ألم تعلم ان طاهراً ورد عليه نعي ابيه من امير المؤمنين ؟

- بلى ..

- فلما بلغ الخبر اهل الرقة ، ذهبوا يعزّونه ، وتكلم عثمان في مجلسه بما حضره ، فاعجب به ، وعندما خرج القوم من حضرته ، سأله عبدالله ابنه ، ان يلحق عثمان بخدمته ففعل ، وسيخرج معه الى كيسوم .

فخفض صوته قائلاً : عثمان في خدمة طاهر بن الحسين ؟!! انه اذاً في خدمة الذئب الذي يغدر بفريسته وهو يبتسم لها ... اسمعي ياسعدى ، واسمعي يازينب ، أن عثمان من اصحاب طاهر الذي غدر بأبيكم وقتله ، قبل ان يتناول السيف ..

قالت : مهلا يامروان ... مهلاً يابني ، لقد عرفت اليوم عن حادث القتل ، مالم تعرفوه ... ان طاهراً بريء من دم ابيك .

فضحك هازئاً وقال : يظهر ان الرجل امسى بريئاً عندما اصبح عثمان من رجاله ، وهو الذي نقل اليكِ خبر البراءة على ما اظن .

- ليس لعثمان يد في هذا ... ان الذي قص علي خبر القتل ، فتى لم تعرف الرقة اعظم نفساً منه واحسن وجهاً ... انه عبد الله بن طاهر نفسه .

فتمتمت سعدى وزينب تقولان :

عبد الله بن طاهر !! عبد الله ..

فقال عثمان لعبد الله : صوت زينب .. اسمعت ؟

- نعم ..

وكان مروان يقول :

يقوم في الذهن ، ان عبد الله الذي كان رفيقاً لنا ، وكنا رفاقاً له قبل سفره الى خراسان ، ابعد اثراً من ابيه ، في الخيانة ، والرياء والكذب ... اذاً من هو قاتل ابي ؟

– طاهر ..

– وتقولين انه بريء ؟

– اجل ، اقول انه قاتل ابيك ، وانه بريء !

فقالت سعدى : اين رايت عبدالله ياام عثمان ؟

في هذه الدار ، وقد ذكر ايام طفولته في الرقة ، وجعل يسألني عنكم انتم رفاقه ، وهو يدعو الله ان يجزل ثواب حاتم ويغفر له .

فقال مروان : لعله اراد من سوأله عـن رفاقه ان يغدر بهم كما فعل أبوه !

قال : لو كنت هنا يابني ، ورايت الهيبة تبعثها عناه ، والصراحة تبدو لك في حديثه ، لصدقت قوله ، وأيقنت بانه يؤثر الموت على الكذب .

فحاول ان يتكلم ، فاسكتته قائلة :

زد على هذا ، انه يحبكم اليوم ، اكثر مما كان يحبكم مـن قبل ، ولاهم له الا ان يثبت لكم براءة ابيه .

قال حديثينا بخبر البراءة .

– لقد نقل اليكم بعض الرجال ، الذين كانوا في جيش الامين ، ان حاتماً خرج الى الساحة وطلب البراز ، ففاجاه طاهر بالسيف قبل ان يتهيأ هو للامر أليس كذلك ؟

– بلى ، وهذا هو الواقع الذي لاشك فيه .

– بل هذا هو الخبر الذي لاصحة له .. وقالوا لكم ان طاهراً امر بقتل الجنود الذين القوا سلاحهم واستسلموا له .. وهذه رواية اخرى كاذبة ، قصّها عليكم وعلى اهل الرقة ، اصحاب الاغراض ، الـذين نظروا الى ظفر ابن الحسين ومنزلته ، ومجده ، بعيون يتوهج فيها لهيب الحقد والبغض .

– عجباً ، كنت تسبّين ابن الحسين وتقولين غيرهذا !!

– اجل ، كنت اسبه ، عندما قيل لي انه غدر بصديقه ، ولم يرع للمودة حرمة ، وكنت اقول ، انه الرجل الدموي الذي لايعرف الوفاء ، ولامروءة له

اما الان ، فقد فضحت رواية عبدالله الصحيحة ماعلق بالذهن من الروايات الكاذبة وامسيت مؤمنة ، بان طاهراً اليوم ، هو طاهر بالامس ، ذلك الرجل الابي الصادق في اخلاصه .

وذكرت له ماخبرها به عبد الله ، فقال .

ان الرجال الذين نجوا من معارك الري وهمذان ، ورجعوا الى الرقة لم يذكروا لنا شيئاً من هذا ، وقد اجمعوا ، على ان الرجل الذي تدافعين عنه هو المجرم ..

– اعرف هؤلاء واحداً واحداً ولا اثق بهم .

– كما اني لااثق بعبد الله – والا اريد ان اصغي الى روايته !

فهامس عبد الله عثمان قائلاً له :

قم نخرج من الباب الآخر ، الى الرواق ، ثم نفاجئهم في قاعة الجلوس فيخيل اليهم اننا دخلنا الدار الساعة .

قال : اذا فعلنا الان فضحنا انفسنا .. اسمع ، هذه سعدى تجاوب مروان ..

فاصغى الاثنان ، فاذا سعدى تقول :

من يعلم ياأخي ، فقد يكون عبد الله صادقاً في حكايته :

قال : فتى واحد يصدق ، وعشرون رجلا يكذبون ؟

– اذا كانت هنالك غاية لهم ، كما قالت ام عثمان فالوسيلة الوحيدة لهم هي الكذب ..

وجاء عندئذ دور زينب فقالت :

انك قادر يامروان ان تتبين صدق عبد الله .

بماذا ؟ ..

– بان تزور طاهراً كما زاره الآخرون ، وتطلعه على احاديث الناس ..ثم تبوح له باسماء الرجال الذين ملأوا الرقة اخباراً ..

فابتسم قائلا : وبعد ذلك ؟

- يدعوهم طاهر بعد ذلك ثم يسألهم عما نقلوه ، وانت ترى وتسمع فيتضح لك عندئذ كل شيء .

- ولكن ابا حاتم لايأذن لنا في هذا .

- بل يأذن ، عندما تذكر له خبر البراءة التي يزعمها عبد الله .

- وان لم يفعل ؟

- تعمد الى امر آخر فتبلغ الغاية .

- ماهو ...

- تجتمع بعبد الله نفسه في هذا المنزل ، فقد سأل أم عثمان عنا ، وحلف لها ان اباه ، بريء فليس هنالك اذا مايمنعك من الاجتماع به .

فقال عبد الله لعثمان والله ان زينب لصاحبة رأي ..

غير ان مروان تردد في الجواب ، فقالت ام عثمان .

يجب ان تقبل يابني ، فاما ان تجاهروا الجماعة بالعداوة ، كما انتم الان واما ان ترجعوا اصحاباً كما كنتم .

قال : ان اجتماعي به لايثبت براءة ابيه .

- يكفي ان تصغي الى مايرويه لك ، ثم تعود الى سؤال الاخرين الذين اتهموا طاهراً ، وتقابل بين الروايتين.

قال : سيزعم هؤلاء ان روايتهم هي الصحيحة ، ويزعم هو كما زعموا ، فتدب الريبة في الصدر ، ولا نعلم من هو الذي نطق بالحق ؟

فقالت زينب . اذكر ان سليمان بن سعد وفياض بن قيس ، هما اللذان نقلا الينا خبر الجريمة ، وقد سمعتهما منذ ليلتين ، يتحدثان بهذا ، وابو حاتم يجهش البكاء .

- وكنت قريباً منهم ، وقد زاد احدهما قائلا : ان طاهراً كان يقول لرجاله بعد ارتكابه الجناية .

لقد قتلت صهر علي وسأقتل علياً .

قالت : الست انت الابن الاكبر لحاتم الطائي ، ويعود اليك حق الطلب بدم ابيك ..

– بلى .

– وهل يطيب لك ان تقتل ابن الحسين او احد بنيه ، وهو بريء .

– لا .

– اذن فدع عبد الله الان ولا تجتمع به ، واذهب مع اخيك المغيرة الى دار القيادة كما قلت ، دون ان تستأذن احداً وقل لطاهر : ماجئت لاعزيك بابيك ، ولكني لاسألك كيف غدرت بأبي .

– وماذا يصنع جدّنا اذا عرف .

– ماذا يصنع ؟ يعلم عندئذ انك اردت ان تتبين الامر قبل ، ان تقدم على عمل .

– وسليان وفياض ، الا يمسيان عدوين لنا ان فعلت .

– خير لنا ان يكونا من الاعداء ، اذا كانا كاذبين .

فرأى عثمان في تلك الساعة ان خروجه من المخدع لابد منه ..

فقال لعبد الله : ابق انت هنا ، واصغ الى ماأقول .

ونهض فخرج من الباب المطل على الرواق ، ومشى في مهل الى القاعة وجعل يرحب بالجماعة ثم قال :

لم يأت مروان في مثل هذه الساعة الا لامر .

فاجابه الفتى قائلا : جئت اسألك الذهاب معي غداً الى البيضاء .

– ليس لي ان اعدك ، لان الامر في هذا لطاهر بن الحسين ، فانا من خدمه .

– عرفت ذلك الان ، وفقك الله في خدمة القواد الامناء .. ألم يقل لك طاهر كيف قتل حاتماً .

– قتله وهو لايعرف اي رجل هو .

وقامت امه ، تقص عليه ماتحدثوا به ثم قالت :

الا ترى ياعثمان ان يزور مروان والمغيرة طاهراً ، ويسألاه عما رواه سليمان بن سعد وفياض بن قيس :

بلى ، وارى ان يمهّد لهذه الزيارة ، عبد الله بن طـــاهر نفسه ، فهو يحب مروان واخوته حباً لم تنل منه يد الزمان ، وابوه معجب به يسمع لهويشاوره في جميع اموره .

ولكن مروان لايرضى بهذا ولا يطيق ان يجتمع بعدوه .

قال : ليس لك يامروان ان تظن ، ان طاهراً وبنيه اعداء لكم ، لقد عرفت انا ما اردت ان اعرفه . وامسيت واثقاً بان الذين ذكروا ما ذكروه من حادث القتل ، هم الاعداء . وسترى بعد اجتماعك بعبد الله ثم بطاهر ، اني كنت على حق .

– ألم تقل ان عبد الله يحبنا .

– بلى ، واعيد ما قلت ، الان ، وفي كل ساعة ، وعلى مسمع من جميـع الناس .

– اذن كان عليه ان يزورنا عند وصوله الى الرقة ،

– لقد هم بان يفعل فمنعته .

– انت :

– نعم ، لاني خفت ان يخرج جدكَ عن حدّه ، وان تستيقظ اللوعة في صدر امك ، فتسمعه مالا يحب . ثم قال .

لم يكن عبد الله يعلم شيئاً مما نتحدث به .. فلما خبرتـــه ، وكانت امــه حاضرة ، تميزّ من الغيظ وقال : سأثبت لاخواني بني حاتم ، انا لم نخن لهم عهداً ولم ننتهك لهم حرمة . وان القدر هو الذي تعجل في مقتل ابيهم رحمه الله . ماذا تقولين ياسعدى ؟

– لو سمع لي مروان ، لفعل ماتشير عليه به .

– وانت يازينب ؟

— لايزول الشك من النفوس ، الا اذا لجأنا الى مثل هذا ..

— لم يبق اذن الا ان نجعل مساء الغد موعداً للاجتماع .

فقال مروان : اما غداً فلا ، لاني ذاهب الى البيضاء مع امي كما قلت ..

— ومتى تعود ؟

— بعد يومين ، الا اذا حدث ما يدعو الى البقاء بضعة ايام .

— والمغيرة ؟

— باق في الرقة .

— وماذا تقول اذا اجتمع بعبد الله وانت غائب ؟

— فسكت لحظة ثم قال : لاتفعل شيئاً من هذا قبل ان اعود فسنجتمع به نحن الاثنين ، ثم ننظر في امر طاهر بعد ذلك .

واقبل في تلك الساعة ، مغيث الخادم يقول لمروان .

ان عصمة بن عبد الله الحرشي في الدار ، وقد امرني سيدي ابو حاتم بان ادعوك .

قال : متى رجع عصمة من بغداد ؟

— الان ، وقد سمعته يقول ، ان النوق في ارضه التي تجاور البيضاء تموت بالعشرات ، وهو ذاهب اليها غداً وستبقى سيدتي ام مروان هنا .

فخرج وهو يقول لعثمان : لم يبق ما نتحدث به الان فالى اللقاء .

فقالت سعدى . ونحن ؟

— اما انتما فستعودان الى المنزل قبل ان تغرب الشمس .

قالها وانصرف وخادمه وراءه .

وبينا القوم يتحدثون بامر طاهر وعبدالله ، سمعوا صوتاً في آخر الرواق ينادي : ياعثمان .

فوثب عثمان الى الباب قائلا : والله . صوت عبد الله .

فرددت الفتاتان هذه العبارة : صوت عبد الله ..

واقبل الفتى ..

فنهضت الاثنتان تهمان بالخروج ، وهما تنظران الى الارض .

فوقف عبد الله بالباب ، يحدق اليهما في دهشة وعجب ... ثم قال :

هذه والله سعدى ، وهذه زينب بنتا حاتم .. رحمه الله .

فتمتمت سعدى وهي لاترفع نظرها :

نعم سعدى ، وزينب اللتان أمستا يتيمتين !

قال:ذلك ذنب القدر الذي يسخر بالبشر !

ومد اليها يده . فقالت :

بل ذنب ابيك الطاغية الذي غدر بصاحبه .. ان ايدينا لاتصافح اليدالملوثة بالدم ..:

وكانت زينب تختلس النظرات ، وعبد الله يفعل مثلما تفعل ، فقال :

شهد الله ان يدي يد طاهرة ليس عليها اثر الغدر . لقد قصت علي ام عثمان ماتقل اليكم ، وما يتحدث به الناس هنا ، فانا اقسم لك ان حاتماً لما خرج الى الساحة كان مقنع الوجه ، وهو على فرس غير فرسه ، وان ابي عندما اهوى له بالسيف كان واثقاً بانه فارس من فرسان علي بن ماهان .

واعاد عندئذ تلك الحكاية التي رواها لام عثمان وزاد . قائلا :

لقد قتل ابن ماهان ، قائد جيش الامين في معركة الري ، وقتل الكثيرون من الرجال ، وكان ابي في ذلك اليوم البطل الذي مشى بركابه ملاك الموت،وهو يفاخر الناس الى هذه الساعة ، بأن اكثر من عشرين رجلا كانوا ضحاياها ، ولكنه

يقـــول لو خسرت المعركة وبقي حاتم لكان ذلك اخف وطأة عليّ من موته ..

فجعلت الاثنتان تمسحان الدمع الذي تلألأ في العيون .

وحاولت سعدى ان تتكلم فلم تقدر فقال عبدالله .

لقد كان الرواة الذين اخترعوا حكاية الغدر من اهل الفساد والشر ، وقد عملوا ذلك لغاية لهم فلا تصدقي كلمة واحدة مما يقولون ، واعلمي ان الرواية الصحيحة عن مقتل حاتم ، هي التي ذكرتها الان .

فرفعت زينب رأسها وجعلت تتفرس فيه ثم قالت :

الا تخاف الله ياعبد الله ؟

قال : بلى اخافه عز وجل ، وأؤمن بأنه يعلم ماخفي من الاسرار وسيجازي الكذوب الساعي بما يستحق .. فخذي كلمتي يازينب وانقليها الى من تشائين ان طاهر بن الحسين بريء وان الذين شوهوا الواقع هم المجرمون .

قالت : اذا صدقنا نحن، فأبو حاتم وامنا لايصدقان .. ومن يستطيع ان يقنع المغيرة ومروان ببراءة ابيك ؟

ـ يستطيع ذلك ، اولئك الرجال الذين اشتركوا في معركة الري وشهدوا براز الرجلين ..

ـ ولكن الذين نقلوا الينا مانقلوه ، اشتركوا في القتال ، وشهدوا البراز ..

قال سيدعوهم ابي الى اجراء الحساب ، على مرأى ومسمع من اهل الرأي والحرب،فتعلم الرقة عندئذ ، ويعلم ابو حاتم ، وام مروان ، ان طاهراً باق على العهد ..

ومدّ يده مرةً ثانية ليصافحها وقد ظهرت البراءة على جبينه .

وكانت زينب تنظر اليه بشغف .

فهمت بان تصافحه ثم اطرقت ولم تفعل ..

ولعلها ارادت ان تكون اختها الكبرى هي البادئة ..

اما سعدى فنهضت وهي تقول ، وقد تجاهلت مارأت :

لقد غربت الشمس وهذه ساعة الرجوع الى البيت ..

ومشت ، فتبعتها زينب ، فقالت لهما ام عثمان :

اكتماام مروان مارأيتما وما تحدثتم به ، فقالت زينب:

ونحن نسأل عبد الله وعثمان ان يكتما الناس جميعاً هذا اللقاء ..

وخرجتا الى الرواق ، ثم نزلتيا الى الفناء ، وعبد الله يشيعهما بالنظرات ..

حتى احتجبتا وراء المنزل فقال :

لقد استطاع رجال السوء من اهل هذا البلد ، ان يجعلوا البريء من المجرمين ..

وبدت الكآبة وآلالم عندئذ في مقلتيه .

١٩

***

ما هذا الحسن الخلاّب الذي استهوى عبد الله ؟ !

وهما طفلان ، تمسي الفتاة الساحرة التي يسبي جمالها القلوب ، ويفتن زينب بنت حاتم .. تلك الطائية الصغيرة التي عرفهاالعقول !!

وماذا رأى ؟ .. رأى غادة وضاءة الوجه وسيمة المحيا ، لها جبينها الزاهي وعيناها الذابلتان ، وثغرها الضاحك يفيض عذوبة وروعة .

اهذه هي زينب ، التي لم تكن تعرف رفيقاً لها غير عبد الله ، والتي كان عبد الله يحلم بها في نهاره وليله ، وقد جعلها عروس خياله وهو في خراسان ؟ .

زينب بنت حاتم .. التي شهدت شواطيء الرقة ورمالها ، ونساؤها ورجالها تعلقها بعبد الله ، وتعلق عبدالله بها وحبهما البريء ؟؟

اهذه هي ؟¡

ولكنها اصبحت سيدة الحسان ، في ذلك البلد الاهل بالنساء وقد لاتقع عين الغريب والقريب ، على اعجب واروع من هذا الجمال .

فتاة ، جذابة المظهر ، في ابتسامتها ، ووجهها ، وعينيها ، السحر كل السحر ..

وماذا رأت هي ؟

رأت ذلك الغلام ، الذي كان يبسط رداءه القصير الصغير على الرمل الحار يجعله مقعداً لها .. وقد يرفعه على عود ليكون مظلة تمنع عنها وهج الشمس . ثم يعالج الطين حتى يصير كوخاً .. او داراً وهي تساعده في البناء .. حتى اذا احتجبت الشمس وراء الافق وضعت يـــدها بيده يمشيان وينشدان اناشيد الاطفال ..

اهذا هو الغلام ، الذي بكت يوم ترك الرقة ، وظلت اسابيـع وشهوراً تردد الكلمات التي كانت تسمعها منه وهي تبكي ؟

تراه في اليقظة ، وتراه في المنام .. وكلما كبرت ونمت ، كبر الحب معها ونما .. وقد استبدرفيق طفولتها ، باحساسها ، وتفكيرها ، وعاطفتها لاتفارقها الذكرى ساعة واحدة ، وكأنها، وهو بعيد عنها، تراه قريباً منها تحدثه ويحدثها بلغة المحبين ..

ولكن .. ولكن هذا الفتى الذي ترسل عيناه اشعة الذكاء ، وتبدو في كل مظهر من مظاهره عزة النفس .. ان هذا الفتى لئيم .. نذل : وهـو ابن اللئيم النذل ، الذي كفر بالصحبة والـــولاء ، وقتل اباها غدراً في ساحة الحرب !!

حبيب اليها عبد الله ، وهي لاتعرف فتى اعز عليها منه .. وليست هي الان طفلة .. وليس هو طفلا .. انه في عنفوان الشباب . وهي الصبية التي عرفت الدنيا

فماذا تصنع بهذا الماضي الذي استيقظ فيها .. وكيف تستطيع الدنو منه ، وقد فرقت الجناية المروعة بينها وبينه ، الى الابد ؟:

ان ماضيها الذي استيقظ .. يريد ان تكون ملكاً له، تعيش في ظله، وتحياله وحده .. ويريد الشرف ، وشريعة الثأر .. وان اردت فقل ناموس العشائر ، ان يكون طاهر بن الحسين وبنوه ، اعداء بني طي ، حتى يؤخذ دم بدم ...:

ترى ايقدر طاهر على تكذيب سليمان بن سعد ، وفياض بن قيس ، والشهود الاخرين ، ويظهر براءته ، فتزول العداوة وينتصر الحب ، وتستطيع زينب عندئذ ان تفاخر بعبد الله حسان الرقة قائلة لهن :

هذا هو الفتى الذي احببت ؟:

بقيت هنالك العقدة الصعبة :

ابو حاتم وام مروان ..

لقد اعتقد الاثنان ، ان طاهراً هو القاتل .. فليس من السهل اذن ان يأذنا في الاجتماع واذا اجتمعوا فهما لايصغيان الى حديث البراءة الذي سيعمد اليه ..

ومع ذلك ، فاجتماع العدوين امر لابد منه .. فاما ان تخنق ماضيها الذي امسى غراماً ، واما ان تمضي في الهوى ، وتستسلم للعاطفة ، ثم تسأل القدر ان يجمعها بالرفيق القديم ، والحبيب الجديد .

ذلك ما كانت زينب تفكر فيه .. وذلك ما كان عبد الله يفكر فيه ..

ملأ قلبها .. وملأت قلبه .. وتلك الساعة القصيرة ، التي مرت عليهما في دار عثمان ، كانت كافية ، لتجعل الطفلين الرفيقين .. عاشقين ..

* * *

كان عبد الله يقول لعثمان ، وهما راجعان .

– الا ترى ، ان اقص على ابي الليلة ، كل ماسمعت ..

– ان الامير يهمّ بالخروج الى قتال نصر ، فلا تشغله اليوم بمثل هذا واصبر كما قلت لك من قبل ، حتى نعود من الساحة .

قال : اخشى ان يترك القوم الرقة ، ويلجاؤا الى بغداد .

– ولكن الشيخ الاعمى يؤثر الاقامة في الرقة ، على الرحيل الى بلد آخر ..

– ومن هو سليمان بن سعد ؟

– انه من رجال الامين ، الذين حاربوا اباك ، بقيادة عبد الرحمن بن جبلة ومثله فياض بن قيس .

– اذن كان الاثنان في همـذان وليس في الـري ... ويقيمان هنا ؟.

– نعم ، وقد كانا في مجلس ابيك ، بين وفود المعزين وسليمان هـو الذي كان يقول : ان ولديه حمزة وسعيداً قتلا في الري ، بعد الامان .

فذكر عندئذ كلام الرجل ، فقال :

لو عرفت في تلك الساعة انه العـدو الساعي ، لطلبت الى ابي ، ان يسأله ويسأل ابن قيس عما خبرا به القوم ، ويكرهها على الاعتراف بالواقع كما جرى .. لقد جملنا هذان الرجلان ، خصوماً لاحب الناس الينا ، وهذا لايطاق ثم قال :

اي دواء لما سمعته من سعدى وزينب ؟

– ليس لهذا دواء غير اللقاء .

– وان لم يرض اصحابنا به ؟

– انا اضمن هذا الرضى .

– وكيف ذلك ؟

– اسأل المغيرة ومروان ان يحملا ابا حاتم وأمها ، على التسليم بما نراه .

– ويفعلان ماتقوله لهما ؟

– اجل على ان يتم هذا الاجتماع بعد الرجوع من الحرب .

– قال يظهر انك نسيت ما تحدثنا به منذ ساعة . ان مروان سيعود من البيضاء بعد يومين ، او بضعة ايام ، فأراه ويراني ، واطلعه على ما لايعلم من حادث القتل . الم تقل هذا ؟

– بلى ، وهذا معناه ان اللقاء سيكون بينك وبين مروان واخيه ليس غير اما ابوك فيجب الآ يعرف شيئاً الان .

– اذن سأذكر للفتيين ماذكرته لشقيقتيهما .

– هو ذاك .

– وسأسمع منهما ماسمعته من سعدى وزينب .

– ماذا .

– خبرت الاثنتين كل شيء فلم تصدقا اترى الاخوين يصدقان، وهمايعملان اليوم على الاخذ بالثار ؟

– اظن انهما سيصغيان اليك ، عند ما تنقل اليهما ، ان اباك سيدعو السعاة الى الاجتماع به ، في مجلس يضم القواد ووجوه الناس ، ويأمرهما بان يقصا حكاية القتل من جديد .

– من رأيي، ان اكتم الاخوين مـا تقول :

– وما ذا تخاف ؟

– اخاف ان يبلغ الخبر سليمان بن سعد ، فيدعو رفيقه الى الاستخفاء ، فيبتلعهما العراق ، ويصعب عندئذ على ابي ان يظهر البراءة .

قال : وهل يعجز طاهر بن الحسين ، وهو الذي دانت له هذه الارض عن مثل هذا الامر ؟

قال : لو كانت القضية قضية قتال ، لكان ابي هو الظافر ، ولكنها جريمة ارادوا ان يتهموه بها ، وهذه تحتاج الى وجود الساعي والمتهم والشهود ، في مجلس واحد ، ليظهر كل شيء .

ــ لنفترض ان سليمان وفياضاً ، والجنود الذين حاربوا في الريّ اعترفوا جميعهم بان اباك هــو الجاني ، ولم تظهـر البراءة ، فـأي ضرر يلحق بـه ؟

فخفض صوته قائلا :

اريد ان يعلم الناس في العراق كله ، ان طاهراً ارفع من ان يغدر بصاحب له او بعدو ، واريد ان تعلم انت ، من الناحية الاخرى ، ان ماضيّ قد عاد واني احب زينب فلا اطيق ان تبعدها التهمة عني ، وتجعلها الاكاذيب عدوة لي ..

فابتسم عثمان وقال : لقد رأيت غرامها في عينيها .. ورأيت غرامك في عينيك ..

قال : ولن يطيب لي العيش بعد هذا اليوم ، الا بهذا الغرام .

وكانا قد انتهيا الى دار الامارة ، فرأيا فريقاً من القواد والضباط في الدهليز والخدم يروحون ويجيئون يدعون بعضهم الى الدخول على القائد العام .

فسأل عبد الله احدهم قائلا :

ماهذه الوفود التي تملأ الدار ؟ فقال :

لقد عول الامير على المسير غداً الى كيسوم .

ــ غداً ؟!

ــ نعم ، فقد بلغه اليوم ، ان نصر بن شبث سيزحف الى الرقة ، فلم يرض الا ان يسير هو اليه .

فدخل على ابيه ومعه عثمان ، فقال طاهر :

سيفك وفرسك ياعبد الله ، واستعد للقتال .

قال كنت اظن انك ستترك الرقة بعد اسبوع .

سنتركها غداً قبل ان يجيئها الخارجي الم يكن رأيك ورأي طلحة ان نتعجل في هذا ؟ سنخرج غداً وستقود انت مئة من الفرسان ، ويكون عثمان من حراسك لايغفل لحظة واحدة عنك .. ادع طلحـــة ياعثمان وانتظر عبد الله في البهو :

واقبل طلحة ، فاومأ اليه بان يجلس بالقرب من اخيه ثم قال لهما :

اريد ان تعلما ، قبل ان يزحف الجيش ، ان حربنا ستكون دفاعاً عن هذه الارض ، لاحرب هجوم ، فاذا تلاقت الخيل ، واشتد القتال ، اشرت عـلى الجيش بان يتراجع ، فافعلا انتما عندئذ مايفعله الآخرون من القواد !:

فقال طلحة : اذكـر ياابي ، ان طاهـــر بن الحسين لم يتراجع قـط :

قال : ان التراجع خير لي من الظفر بالعدو ..

فقال عبد الله لاخيه : سيقول الناس ، في بغداد ، وفي خراسان ، اذا نحن ظفرنا بنصر ، ان الحسن بن سهل هو الذي ظفر واخضع الرجل لامير المؤمنين فطاهر بن الحسين الذي لم يتراجع قط لايريد ان يستغل ابن سهل ظفره في كيسوم ..!

فأشرق جبين طاهر وقال : وانت ياعبد الله ، اتريد ان يرفع ابن سهل رأسه تيهاً وكبراً ، علي حساب ابيك ؟

ـ لا

ـ وانت ياطلحة ؟

ـ يريد بنوك ، ما تريده انت ، ولكن اخشى ان يقال : ضعف طاهر وفرّ من عدوه ...

ـ ساجعل فراري او تراجعي ، بعيداً عن مظاهر الهزيمة التي يكتنفها العار وسأحمي هذه البلاد ، حتى يعلم الناس ، ان ابن شبث لايجسر على الخروج من

البلد الذي هو فيه ... والآن فانصرفا وا وانظرافيما يصنعه القواد .

فلما امسى عبد الله في البهو ، ابصر عثمان يحادث احد الحراس .

فدعاه فقال : لم يبق لنا امل بلقاء مروان واخيه ، فسنزحف الى كيسوم عند الفجر ، ولا يعلم احد متى نعود .

قال : سمعت الحراس يتحدثون بهذا ثم سألت احدهم فقال : ان الامير يريد ان يترك الجيش الرقة قبل الصباح .

– وهذا الاجتماع الذي تحدثنا بأمره ؟

– سأوصي امي بان تنقل الخبر الى الجماعة وتعتذر لهم عنك .

– ولكني ارى انهم سيسيئون الظن بي ويقولون : لقد كذب عبد الله ..

– وكيف يقولون هذا وهم يرون الجيش في طريقه الى الحرب .

ثم ضحك قائلا : طب نفساً فستحملهم زينب على قبول الاعتذار .

قال : لولا هذا الواجب الذي يقضي عليّ بخدمة امير المؤمنين ، والذهاب الى القتال من اجله ، لبقيت في الرقة .. ولكن واجبي قبل غرامي ، وعليّ ان اكون غداً بين رجال السيف .. فاذهب وقل لامك ماتريد ان تقوله قبل ان ينقضي الليل ..

قال الا يأذن لي مولاي القائد في الدخول عليه الان ؟

– وماذا تريد منه في مثل هذه الساعة ؟

– اريد ان اسأله الوفاء بما وعدني به .

– اي ان يجعل امك مع جواريه ..

– نعم .

– خير لنا ان تبقى امك في منزلها حتى نرجع .

– ومن يقوم بامرها وانا غائب ؟

– ام عامر ..

– من هي هذه ؟

– المرأة التي ارضعتني وهي من افضل النساء وسأرافقها الى الدار بعد ساعة ، فاذا استطاعت امك ان ترى سعدى وزينب الليلة ، فلتفعل ..

فمشى عثمان من هذا الجانب ، ومشى عبد الله من الجانب الآخر الى جناح النساء ، ليطلع امه على مارأى ، ويستأذنها في ارسال ام عامر الى ام عثمان ..

وكانت نائلة في تلك الساعة ، تهتمّ مع الجواري لما يحتاج اليه طاهروبنوه في سفرهم الى كيسوم .

فلما خلا بها عبد الله ، اطلعها على كل شيء ثم قال :

ان خير الاصحاب امسوا لنا شر الاعداء ، وهم يطلبون بدم القتيل ، وقد يحاول احدهم ان يثأر به ..

ونائلة ، من النساء ، اللواتي يعتصمن بالهدوء ، ويلجأن الى الحكمة في امورهن ..

فقالت له : افعلها سليمان بن سعد ، وصدقته حبيبة ؟

– نعم ..

– فسكتت قليلاً ثم قالت : ان للطائي الذي قتل ولدين هما مروان والمغيرة ، فهل تظن ان احدهما يجسر على الغدر بابيك ؟

– ان لم يغدر به غدر بأحدنا في ساعة لايعرفها غير الله ، فمن الرأي ان نحتاط للأمر قبل ان يخلق لنا القدر مانكره .

– قلت ان ام عثمان ستعتذر عنك .

– اجل ، ولكني اخشى ان يهزأوا بهذا الاعتذار .

– هب انهم فعلوا ذلك،فهل يستطيع احدالفتيين انيمدّ الى ابيك او الى احدكم يد السوء وانتم في ضواحي حلب ؟

– لا ..

— اذن نصبر حتى تنتهي الحرب بينكم وبين نصر ، فنعمد عندئـذ الى الاجتماع الذي ذكرت ، وسيكون لنا شأن مع الشهود الكذبة الذين سعوا بابيك ..

قال : ان عثمان سيكون رفيقاً لنا في القتال ، وقد وعده ابي ، بان يجعل امه في هذه الدار بين الجواري .

— اما انا فلست من رأيك وراي ابيك في هذا .. يجب ان تظل ام عثمان قريبة من الجماعة تتصل بهم ويتصلون بها فنعرف كل مـــا يتحدثون به ..

— هذا ماخطر لي ، وقد اتيت الان اسألك ان تذهب ام عامر لتقيم مـع المرأة وتكون عوناً لها، في الاطلاع على الاخبار والاسرار .

— ومن يرشدها الى المنزل ؟

— انا وسأوصيها بان تكون عند حسن الظن .

قالت : لقد حادثت سعـــدى وزينب ، فأي اثر تركته احداهما في نفسك ..

قال : ان في القلب اثراً لزينب لا يزول .

— كـان هـذا الاثر قبـــل ان نرحـل الى خراسـان وكنتما صغيرين ..

— ولكن كان معناه من قبل ، غير معناه اليوم .. فزينـب الان ملء نفسي ، ولولا هذه الحرب ، لبحت لابي بغرامي، وطلبت اليه ان يكذب النمام الحسود ويخطب لي ..

فضحكت قائلة . ثم نحتفل بزواجك بعد شهر !

— اما الزواج فلا سبيل اليه اليوم .

— لماذا !.

— لاني لم ابلغ الغاية من الرفعة والمجد اللذين احلم بهما .

وظهرت العزة في عينيه ..

فوضعت يدها على رأسه تعبث بشعره وهي تقول :

لقد عدت الى النغم القديم الذي كنت اسمعه منك في خراسان . ماهذاالمجد الذي تفكر فيه ؟

قال : مجد الامارة فسأصير اميراً ، ثم قائداً يخافه الناس كما يخافون طاهر بن الحسين ، فاجمع بين الامارة والقيادة ، ويذهب لي في هذه الدولة ذكر لم يكن لاحد من الناس .

— ومن يضمن لك يومذاك ان زينب ستبقى على العهد ؟

— يحدثني هذا القلب بان عندها مثلما عندي ، وستنقل الي ام عامر ماتسمعه منها وما تحدث به ام عثمان .

قالت : كانت زينب في صغرها حسنة الوجه ، فكيف هي اليوم ؟

— لقد اشرق هذا الحسن وزها ، فغدا من الاعاجيب !

— اذن تصلح لان تكون عروساً للامير عبد الله بن طاهر .

وكانت تبتسم ..

فقال : لقد هزأت بي ، ونحن في مرو ، عندما ذكرت لك ما اذكره الان الا فاعلمي ان هذهالامارة ستمشي الي صاغرة بعد حين ، وستتحدث الدنيا بعظمة عبد الله .

فقبلته قائلة : ليست هذه الابتسامة التي ترى ، ابتسامة استهزاء ، وانما هي ابتسامة اعجاب فانا اعلم كما يعلم ابوك ، انك ستشرف قومك .

ونادت ام عامر ، فلما اقبلت قالت لها :

هذا ولدك عبد الله ، سيغيب عن الرقة ، وهو يسألك قضاء حاجة له في اثناء غيابه .

وقامت فخرجت الى البهو تنتظر طاهراً .

فقال عبد الله لام عامر : اتعرفين عثمان بن ابراهيم الذي جعله ابي من خاصته ..

ـ هذا الذي يتبعك الى حيث تذهب ؟

ـ نعم وهو زاحف معنا غداً الى كيسوم ، وسيترك امه وحدها ،في بيتها الذي يجاور المسجد .

ـ واذا كان هذا ..

ـ وعده أبي بان يأذن لامه في الاقامة ، بين نسائه ، ثم راينا ان تبقى في دارها على ان تقيمي انت معها حتى تنتهي الحرب .

قالت : لم افهم شيئاً ..

قال : اتبعيني الى هذه القاعة .

وتقدمها الى القاعة التي يجتمع فيها كبار الضباط وقال :

يتناقل اهل الرقة ، وآل حاتم الطائي خبراً كاذباً ، هو ان ابي غدر بصاحبه ابي مروان في معركة الري .. وقد عرفت ان الجماعة يريـدون ان يغدروا بنـا .

ـ اذن ذهبت تلـــك الصحبـــة التي كانت بينكم وبين هؤلاء ..

ـ اجل ، وانا اخشى ان تقع الواقعة فتسوء العاقبة .

وخبرها عدئذ بما خبر به امه ثم قال :

وابي بريء كما تعلمين ، وانا احب زينب ..واريد ان تكوني مع ام عثمان فتحسني الدفاع عنا ، وتحفظي كل ما يقوله القوم ..

قالت : سأفعل من اجلك ماتشاء يابني ..

قال : خذي الان ما تحتاجين اليــه ، وليحمله احـد الخدم ، وانـا بالانتظار .

ـ الليلة .

ـ بل الساعة وسأرافقك الى المنزل

وبعد ساعة ، كانا في بيت عثمان ، فوجداه فيه ، ولم يجداامه .

فقال عبد الله : اظن انها في بيت حاتم .

ـ نعم ، وقد ذهبت لتقول ماأمرتها بقوله .

ثم اقبلت المرأة ، فتمّ التعارف بين الاثنتين ، وجعل عبدالله يسألها عمافعلت فقالت :

لم افعل شيئاً ، ولم اقل كلمة للفتاتين ولمروان ، لان عصمة الحرشي كان حاضراً ، ولم يكن من الحكمة ان اخلو بالجماعة لاعتذر لهم عنك .

قال : لابأس فسيكون ذلك غداً ، ومن هو هذا الحرشي .

ـ الم تسمع عبد الطائيين يقول لسيده مروان ، عندما كان هنا ، انعصمة رجع من بغداد .

ـ بلى ، فمن هو .

ـ ابن عبد الله الحرشي احد قواد الامين .

فقال عثمان : عندما وجه الامين ، عبد الرحمن بن جبلة ، الى حرب ابيك في همذان ، عرفنا هنا ، انه اعد جيشاً آخر بقيادة عبد الله الحرشي واخيه احمد وارسله عوناً للرجل ، فلما كان هذا الجيش في بعض الطريق ، بلغ الحرشيين ان عبد الرحمن قتـل ، وانهزم اصحابه ، فرجـــعا الى بغداد من غـير قتال .

ـ واي شأن له مع آل حاتم ..

فقالت ام عثمان . شانه انلابيه ضيعة بالقرب من البيضاء كما قال مغيث ، وسيذهب اليها مع مروان .

اليس له شأن آخر ؟

ـ لااظن ، فقد سمعته يقول ، قبل ان ينصرف الى بغداد ، في الشهر الذي مضى انه سيعود ليسير اليها .. ثم قالت .

لقد كان ابوه ، جاراً لحاتم في خراسان ، يوم كان علي بن ما هان عاملا فيها للرشيد ، كما كنتم انتم جيراناً له في الرقة ، ومثلما كان ابوك صاحباً لحاتم

كان الحرشي صاحباً له ، ثم انتقل الطائي الى هنا ،واقام عبد الله ببغدادوبقيت الصحبة بين الرجلين .

ـ وبعد مقتل حاتم ؟

ـ طلق عبد الله الرقة فهو لايجيء اليها غير مرة واحدة في العام ، في حين ان عصمة يجيئها كل شهر ويمكث فيها وفي ارضهم بضعة ايام . وقد رأيت ان الشيخ الاعمى يحبه ، ويؤثره على الفتيان الذين يعاشرون حفيديه ، وهو يذكر بالخير عمه واباه .

ـ من حقه ان يذكرهما كما تقولين ، فهو على دعوة الخليفة القتيل ، وقد كان الاثنان من قواده .

ـ ولكنه كان يذكر في الوقت نفسه ، احمد بن هشام ، ومحمد بن طالوت ومحمد بن العلاء ، وهم من قواد المأمون .

ـ اعرف الثلاثة لانهم من رجال ابي وقد حاربوا تحت لوائه ، وهو يثق بهم .

ـ واين هم الان ؟

ـ في عاصمة الرشيد لان حرب كيسوم لايهتم لها قواد الخلافة .

والتفت الى عثمان قائلاً : ما ذا ترى ، الا يكون لهذا الحرشي، الذي يزور الرقة كل شهر ، غرض آخر غير الارض والنوق ؟

ـ قد يكون هنالك هوى يخفيه في الصدر ، ولعله يحب سعدى .

ـ او زينب .

قالها واصفر وجهه ، وجعل ينظر الى الخارج ، كأنه يرى ذلك الفتى الذي اقبل من بغداد ليسابقه في غرامه !!

فقالت ام عثمان : لم ار في العيون مظهراً من مظاهر هذا الهوى. فالفتى يجالس الرجال ، ولم اسمع النساء يذكرنه لي ! او يتحدثن بامره .

ـ ومع ذلك ، فانا ارجوان تسألي الفتاتين عنه ..

- سأفعل ، وسأجعل حديثي معهما امام ام عامر فقد ترى هي من دلائل الحب مالا اراه ..

- وقد ينكشف لك كل شيء بقوة الحيلة والدهاء .

وودعهما ، راجعاً الى القصر ، ثم لحق به عثمان وقد قالت له امه :

كن ذلك الرجل يابني ، واعلم ان اميرك قبل نفسك ، وانت لاتحتاج الى اكثر من هذا .

ooo

٢٠

ترك هرثمة بن اعين ، عقرقوف يريد مرو ، وليس له غرض فيها الا ان يطلع المأمون على اخبار بغداد ، وعلى ماسمعه من وجوه بني هاشم ، الذين ينكرون عليه خضوعه للفضل بن سهل ، ولا يريدون ان يعترفوا بخليفة يترك عاصمة ابائه ليقيم بخراسان .

وكان يرى ، وهو القائد الشريف القصد ، ان الواجب يقضي عليه ، بان ينصح مولاه وابن مولاه ، ويدعوه الى ترك مرو ، ارضاء لاخوته واعمامه ومن حولهم من الهاشميين ..

وسيكون صريحاً وجريئاً اذ يقول له : ان وزيرك الفضل ، يكتمك اخبار شعبك ، ويخفي عنك ، لغاية في النفس ، مافي صدور القوم من اضطراب وثورة ، وتحفز للوثوب .

ويحمله بقوة الدالة التي له عليه ، على المجيء الى بغداد ، ولو غضب الفضل ، ليكون الناس كبيرهم وصغيرهم ، رعية خاصعة مخلصة له ..

ذلك ما يمليه الشرف على القائد العظيم .

ولكنه نسي ، ان له في عاصمة الرشيد ، عدواً قوياً دانت له رقاب القوم هو الحسن بن سهل ، وفي قصر الخلافة عدواً اخر ابعد صوتاً من الحسن واوسع نفوذاً وقوة هو الفضل .

ولم يخطر له ، ان الاثنين لايطيب لهما عيش الا اذا قضيا عليه ..

مشى الى مرو ، فلما اتى النهروان ، وردت عليه كتب المأمون يستعمله على الحجاز والشام ويأمره بالرجوع ، وينهاه عن المجيء الى خراسان .

وهذه هي سياسة الفضل : قال للمأمون :

ان السري بن منصور، الذي يقال له ابو السرايا ، كان من جند هرثمة، ومن رجاله الامناء .

قال : لقد ذكرت لنا ذلك من قبل .

- كما ذكرت لك ياامير المؤمنين ، انه ترك هرثمة وخرج عن طاعته ولكني عرفت اليوم اشياء لم اعرفها يوم رويت لك خبره .

- ماذا عرفت ؟

- ان هرثمة هو الذي دفعه الى حمل السيف والدعوة الى محمد بن ابراهيم !!

فاختلجت عينا المأمون وجعل يقول :

هرثمة بن اعين .. يدفعه الى حمل السيف ، والخروج على امير المؤمنين .. ماهذا يافضل ؟!

- اقول ، ان هذا القائد ، الذي يتظاهر بالاخلاص لك ، هو الذي وضع يده في يد عدوك ، وساعده في ثورته من وراء الستار ، ؟

قال : يدفع أبا السرايا الى العصيان، ويساعده. ثم يقاتله ويكرهه على الفرار من الكوفة ، ثم ينتهي الامر بهذا الثائر الى القتل !!؟

- ان اخي الحسن ، هو الذي قتله ، ونصب جثته على جسر بغداد، وأرسل رأسه اليك .

قال : حمل الرجل اسيراً الى اخيك ففعل ما فعل ، ولولا هرثمة . لما استطاع الحسن ان يظفر به .

- لقد كان هرثمة ياامير المؤمنين ، قادراً على قتله ، وهو في الكوفة ولكنه مهد له سبيل الهرب في ظلام الليل ، وزعم عند الصباح ، انه فر مع رجاله ، دون ان يشعر الحرس به .. أيعقل يامولاي ان يخرج العدو من بلد يحيط به الجند من النواحي الاربع ، ويقوم الحراس على ابوابه دون ان يراه احد ؟ .

فاطرق ولم يجب .

ثم قال الفضل : قل لي ياامير المؤمنين ، كيف خرج ابو السرايا هو ورجاله من المدينة ، وخيام الجيش حولها ، والخفراء يروحون ويجيئون لايغمض لهم جفن ؟ احملتهم الجن وطارت بهم من فضاء الى فضاء ، حتى حطت رحالها في القادسية ، ام ركبوا الغمام ، وسدلت السحب عليهم ستارها فحجبهم عن العيون ؟ .

فجعل المأمون يعبث بلحيته الصغيرة ، وقد قلقت نفسه ، ودب الشك في صدره .. ان ما يقوله الفضل صحيح لاريب فيه . فكيف استطاع القوم ان يفروا ، وقد ضيّق هرثمة الحصار على الكوفة ، ومنع الناس من الدخول والخروج ؟ .

الا يّدل هذا الفرار ، على خيانة القائد ، واتفاقه مع الرجل ، الذي عهد اليه الحسن بن سهل ، في اخضاعه ؟ اذن فهرثمة نكث البيعة ، وقد يدعو الناس

الى امير من ابناء الخلفاء ، او من سلالة علي ، فيتبعه الفريق الكبير من الجيش، ومن العامة ، فيضحي العرش في خطر ، وقد يتدحرج التاج عن رأس امير المؤمنين ..

وأي قائد من قواد خراسان ، يقف في وجه هرثمة ، اذا هو ثار على مولاه وبايع رجلا آخر ؟

ان طاهر بن الحسين يحارب في كيسوم الواو وتبقى من يعلم ،فقد يوافق هرثمة في الامر الذي تدعو اليه ، فيضيع الامل عندئذ ، ويخيب الرجاء .

ذلك ما خطر للمأمون وهو مطرق ، ثم رفع رأسه وقد ظهر الاضطراب في وجهه وقال :

أواثق انت يافضل بما حدثتني به؟

— نعم ياامير المؤمنين فقد كتب اليّ الحسن: ان هرثمة من الاعداء فاحذروه وهو اليوم في طريقه الينا ، وقد يتعب وجوده الخلافة فمن الرأي ان نبعده عن خراسان .

الى اين ؟ .

— يأمره مولاي بان يتولى امر الحجاز والشام .

فقال وهو لايتردد : اكتب الان ومره بان يفعل .

فكتب الفضل كتابه ، وبعث به اليه مع رجل من خاصته ، وهو في النهروان كما قرأت.

غير ان هرثمة لم يشأ ان يرجع ، وقال للرسول :

لابد لي من ان ارى امير المؤمنين .

فلما نقل الرسول جوابه الى الفضل ، قال للمأمون : لقد رد الرجل امر امير المؤمنين ولم يرجع .

فقال : ليحضر رسولك .

فمثل الخراساني بين يديه ، فقال له : اين رأيت ابن اعين ؟

— في النهروان ياامير المؤمنين .

- ومن معه ؟

- رأيت حوله جماعات من الرجال .

قال اعد علينا ماسمعته منه .

- قال لست براجع حتى ارى الخليفة .

فأومأ اليه بان ينصرف ثم قال للفضل :

الا تكتب اليه مرة ثانية ؟

- لو كتب اليه امير المؤمنين الف مرة لما رجع .. انه في كبريائه وغروره اعظم شأناً منك !!

- اذن نصبر حتى يجيء فنرى رأينا فيه .. اجل انه اعظم شأناً من امير المؤمنين ، ولو لم يكن كذلك لسمع واطاع .

ولعله ذكر في تلك الساعة انسباءه بني العباس ، فقال :

ألم يكتب اليك الحسن شيئاً عن بغداد ؟

وكانت بغداد في ذلك العهد كأنها في اتون نار . فقال :

بلى ياامير المؤمنين ، ان السلام يبسط ظله فـــوق المدينة ، ويسودها الهدوء .

- وآل هاشم ؟

- يدعون لامير المؤمنين ، وقد عرفوا انهم كانوا على خطأ ، عندما شايعوا الامين وبايعوه .

- والعمومة بنو العباس ؟

- جميعهم على الطاعة ، وليس فيهم من يغمط النعمة والفضل !

واعمى الله بصيرة المأمون فلم يخطر له ان الفضل يكذبه الحديث ، ويحرق بخوره ليحفظ نفوذه ، ويبلغ غايته من بقاء الخلافة في خراسان .

ولتسقط اسوار بغداد وقصورها ، ومساجدها ودورها ، على رؤوس اصحابها فهو لايبالي .. وما عليه الا ان يبعد المأمون عنها ويجعل خراسان مقراً للخلافة الى الابد .. ثم قال الخليفة :

وماهي حال القوم مع الحسن :

ـ احسن حال ياامـــير المؤمنين .. وهم يحترمونـــه ويحبونه كأنه منهم :

وهكذا استطاع الوزير الداهية ، ان يخدر اعصاب مولاه بمثل هذه الاكاذيب ويحمله على الاعتقاد ، ان بغداد ساكنة هادئة ، واهل بغداد على الطاعة ، في ظله وظل اخيه .

اما هرثمة ، فقد عرف ، عندما انتهى اليه كتاب المأمون، ان الفضل يحاول ابعاده عن مرو ، وهو يغطي غايته ، بغطاء حسن المظهرنا عم الملمس ، هوولاية الحجاز والشام ..

ولكن القائد الكبير ، الذي قضـى حياته كلها على رأس الجيش ، وفي مقاعد الامارة ، لايؤخذ بالمناصب ، ولا تستهويه الرتب ، فقد شبعت نفســه ورويت ، من زخارف الدنيا ، وامست الشهرة والمجد في نظره متاعاً لابقاء له !

لقد عول على المسير الى مرو ، فلا شيء يثنيه عما عول عليه ، ورأى من الوفاء ، وهو لايطمع في صلة ، ولا يفكرّ في امارة ، ان يخبرّ الخليفة الذي احب ، بما يتحدث به الناس عنه ، وينصح له بان يهتمُ بنفسه ، لامور شعبه ولا هم له ، الا ان يجعله في الموضع الذي لاتنال منـــه السنة المنتقدين والمفسدين .

يفعل ذلك ، فيطمئن الى القيام بواجب وفائه ، ووحي ضميره ، ثم يرحل حاملا شيخوخته الى حيث يريد المأمون .

وكان يعلم ، ان الفضل سيغضب وسيجاهره بالعداوة ،وليس غضب الفضل بالشيء الهين .. وليس هو سحابة صيف ثم تتلاشى ، وانما هو حقد رهيب ، يقذف بالمغضوب عليه الى هوة المـــوت ، ويتناول ماله ، وضياعه ، وبنيه !!

نعم كان يعلم ذلك ، ولكنه لم يكترث ، فقد عودته الميادين ان يستخف

بالخاطر ، وكان له من منزلته لدى الخليفة ، مـــا يشفع فيه ويحميه .

ومن اجل هذا ،اقام بالنهروان اكثر من شهر ، يستعيد قواه بعدالحروب التي خاض عجاجها بضعة اعوام ، ثم خرج الى مرو ، والامل في صدره انه سينقذ الخلافة من فتنة تحطم العرش .

ولو لم يكن مؤمناً بان المأمون يجهل مافي بغداد من اضطراب ، وما في نفوس الهاشميين من ثورة ، لما فكر في السفر الى خراسان ،

وهو مكره ، بحكم ولايتـــه الجديـدة ، عـــلى الرجوع الى الشام .

وكان يقول في نفسه : لو عرف الخليفة ان اعضاء البيت المالك ، وجميع النبلاء والعامة في عاصمة ابيه يلعنونه ، ويلعنون الفضل والحسن واعوانهما من رجال فارس ، ويفكرون في خلع الطاعة ، لما سكت هذا السكوت الغريب الذي لايدل على شيء ، من حسن السياسة والحكمة والرشد .

وعندما كان هرثمة ، من هذه الناحية ، يريد الخير كل الخير ، لامير المؤمنين وللدولة ، كان الفضل ، من الناحية الاخرى ، يريد له الشر كل الشر ، ويوغر عليه صدر الخليفة ، وينصب له الشرك للوقوع فيه .

وليست السعاية والحسد ، ظاهرة جديدة في المجتمع ، وفي قصور الملوك والامراء ، والحكام .. انها طبيعة ، قديمة في الانسان . يحسد الاخوة الاخوة ويسعى بعضهم بالبعض الاخر .. وتكثر هذه الظاهرة وتشيع ، بين اصحاب المهنة الواحدة .. الزملاء .. وبين اولئك المتربعين في مقاعد الحكم . هذا يكيد لهذا ، وهذا يعتدي ، وهذا يدافع ، ثم تنقلب الآية فيمسي المدافـع معتدياً ، والمعتدي مدافعاً ، والاثنان يتجاذبان السلطة ، ويتنازعان المجد ، ويخشى الواحد منهما ان يسلبـه الاخر ما يتمتع به مـــن عظمة وجاه .

ولم يكن الفضل، يخاف على نفوذه في خراسان ، مثلما كان يخاف على هذا

النفوذ اذا انتقل الخليفة الى بغداد ، ففي بغداد ، اخوة المأمون ، واعمامه ، وابناؤهم ، ووجوه الهاشميين ، وهؤلاء جميعهم لايطيقون، على رواية اخيه الحسن ان يتولى امور الخلافة وزير فارسي!!

وهب انهم ماشوا المأمون في هواه ، ولم يعرضوا للفضل في شؤون الدولة افلا يعرض له ، بالخنجر او بالسيف ،صعلوك من صعاليكهم ، في ظلام الليل فيذهب الى العالم الآخر غير مأسوف عليه !

لا .. انه سيناضل عن رأيه ، في البقاء بمرو ، الى النهاية ، ولا يسلم ،بجعل بغداد عاصمة للمأمون ، الا اذا غلب على امره .

ومثل الفضل ، الذي هو رجل الدولة، وقد اعترف المؤرخون جميعهم ببعد نظره ودهائه ، وصلابته وذكائه ، لايبالي ، في سبيل الوصول الى غايته اسالت الدماء ، ام ذهبت حياة الابرياء ..

واذا كان لابد من قتل هرثمة ، قبل ان يحمل المأمون على ترك خراسان ، فليقتل .. وليقتل جميع اصحابه ، اذا كانوا يرون ، مايراه !

ooo

انتهى هرثمة الى مرو ،في شهر ذي القعدة سنة مئتين .

فقام في ذهنه ، ان الفضل سيكتم المأمون خبر قدومه . فامر رجاله بضرب الطبول لكي يسمعها امير المؤمنين .

فضربت : وسمعها الخليفة ، فقال للفضل :

ماهذا :

- هذا هرثمة : كتبت اليه كتباً كثيرة ليرجع الى الشام فلم يفعل ، وقد جاء مخالفاً لك ، ودخل مرو مع اصحابه دخول الفاتحين . اسمع يامولاي ايجوز لرجل في الدولة ، مهما يكن شأنه ومقامه، ان يدخل على امير المؤمنين والطبول تضرب بين يديه :

قال : مر الحرس بان يأذنوا له في الدخول وحده

فدخل وسلم ، وهو يبتسم ، وقد ظن ان امير المؤمنين سيعمل بكل مايشير عليه به ،

ففاجأه المأمون بقوله .

هرثمة ! تمالىء اهل الكوفة ، وتسلح يد ابي السرايا، وتطلقه في ارض العراق ولو شئت ان تأخذه وتأخذ جميع العلويين لاستطعت .. انكث للبيعة وخيانة في اخر العمر ..؟!

فتطاير الشرر من عينيه كما يتطاير من النار وقال .

لم يسمعني احد من الخلفاء مثل هذا ياامير المؤمنين .. لقد كنت صادقاً في خدمة ابائك ، ولم يستطع احد قط ان يتهمني بما تتهمني به .

ـ ذلك لان نفسك ، كانت في ذلك العهد ملكاً لك !!

ـ وماذا جرى لهذه النفس اليوم .

ـ بعتها من عدو الدولة ، ولولم يكن الحسن بن سهل ، عاملا لنا في العراق لدخلت خيل السري بن منصور بغداد ، ودعا على المنابر ، لذلك الغلام الامرد الذي يدعى محمد بن زيد .

فرفع صوته قائلا : دافعت عن عرش المهدي ، والهادي ، والرشيد، عمرهم كله وابليت البلاء الطيب في الحرب بينك وبين اخيك . وجعلت العصاة الذين رفعوا رؤوسهم عبيداً اذلاء لك، فنسب الشرف في الخدمة الى الحسن بن سهل ونسبت الخيانة الي .. وانا ..

فقاطعه قائلا : وتمنّ علينا ياابن اعين .

ـ لايامولاي ولكني اريد ان ابعد التهمة عني ، واثبت الك ان الذين سعوا بي عدواناً ولؤماً هم الخونة .

والتفت الى الفضل ، والنار لاتزال في عينيه

فأومأ اليه المأمون بغضب بان يسكت ، ثم قال للحراس القائمين بالباب ..

دوسوا بطن هذا الرجل ، واضربوه وجروه من هذا المجلس الى السجن كي لا يمن على امير المؤمنين مرة ثانية..!

فتسابق الحرس والخدم الى تنفيذ الامر الجائر .. ولم يستطع القائد الشيخ ان يدافع عن نفسه !!

ثم جروا به الى سجنه كما يجر الكلب الاجرب ، وكانت نتيجة الظفر الدائم باعداء الخلافة ، وختام المفاخر والامجاد ، ضرباً بالسوط وامتهاناً للكرامة !!!

وتبدلت القصور ببهجتها وانسها ، سجوناً ووحشة ..!

فسبحانك اللهم

ومكث الجندي النبيل بسجنه بضعة ايام لم ير في خلالها وجهاً ضاحكاً ولم يسمع كلمة عزاء ..

وهو يحتمل من حراسه الغلظة والشدة ، حتى اغرى الفضل بعض اعوانه ، فقتلوه خنقاً ، وقالوا انه مات .!!

وهكذا ، ذهبت حياة رجل السياسة والحرب ، والاخلاص ، ضحية السعاية والحسد واللؤم ، كما ذهبت قبله حياة الكثيرين ، من المقربين الى الخلفاء ..

• • •

٢١

قبل ان يسير مروان الطائي الى البيضاء دعاه ابو حاتم وقال له :

أوص رعاة النوق ، بما يجب ان يصنعوه ، وارجع بعد يومين فانا بحاجة اليك

ـ سأرجع بعد ان ينتهي عصمة من عمله

ـ دع عصمة في البيضاء ولا تنتظر رجوعه ، لان الامر الذي ساحدثك به اعظم مما تظن .

ـ اعتقد انه امر طارق بن الحسين

- هو ذاك ، فقد انت الساعة التي نعالج فيها قضية هذا الرجل

وكان عصمة الحرشي ، والمغيرة بن حاتم ، على سطح الدار ، وام مروان وابنتاها سعدى وزينب ، يصغين الى الحديث

فقال مروان : اذن ساترك الحرشي واعود كما قلت ، ولكن طاهراً زحف بالجيش الى كيسوم ، وقد يغيب شهراً او شهرين

- متى كان ذلك

- قبل صباح اليوم

- ومن خبرك

- مغيث، فقد سمع الناس ، في الليل الذي مضى يتحدثون بهذا، فذهب عند الفجر ينظر الى الجيش عند خروجه ، وعاد منذ ساعة

- وهل سار بنو طاهر مع ابيهم ؟

- لم يبق في الرقة غير النساء

قال : عسى ان يكفينا نصر بن شبث امر هذا السفاح

فقالت ام مروان :

ان الرجل الذي انتصر على جيوش الخليفة الامين ، في جميع الميـــادين ، لا يستطيع نصر بن شبث ان يظفر به ..

- اما انا ، فسأظفر به ان شاء الله وأثأر بولدي !

- انت يا ابا حاتم ؟

- اجل انا .. فسأقف وراء باب المسجد ، واضربه بخنجري ضربة واحدة تمزق احشاءه .. ثم امد عنقي لحراسه قائلا لهم :

اضربوا فقد طاب لي الموت الان .. فقال مروان :

وعندئذ يقول الناس ، ان لحاتم الطائي ولدين لم يجسرا على مواجهة ابن الحسين فأرسلا جدهما الشيخ الاقطع ، والذاهب البصر ، ليفتك به .. وكيف تضربه وانت لا تراه ؟

ادخل المسجد ، ويدي بيد مغيث ، فاذا اقبل طاهر ، انتزع مغيث يده

وكأنه يقول لي : اضرب ، فأضرب .. وتنتهي حياة الخائن

- اما انا فلست من هذا الرأي ؟

- لماذا ؟

- لاني لم اجد فيما ذكرته الان ، ما نبلغ به الغاية

- وكيف ذلك ؟

- تريد ان تقتل الرجل يا سيدي وانت لا تعلم اين تضع خنجرك .. وقد نسيت ان بنيه والناس الذين يمشون حوله سيتخطفونك بالسيوف قبل ان يصل خنجرك اليه : وهب انك ضربته ، واصابت الضربة اليد ام الذراع ولم يقتل .. افهذا هو الثأر الذي مرت الاعوام وانت تفكر فيه ؟

- اذن يتولى مغيث امر قتله ، في المكان الذي يراه

- ان العبيد يا سيدي لا يصلحون لمثل هذا

- وماذا نصنع ؟

فالتفت الى شقيقتيه ، كأنه يسألها الرأي ، في الافضاء بما تحدثوا به ، في بيت عثمان ، فشجعته نظرات الاثنتين ، على المضي في الامر ، فقال :

سننظر في هذا بعد العودة من البيضاء

- بل ننظر فيه الان .. فقل لي ، من يثأر بابيك ؟

- انا ، ولكن بعد الاجتماع بعبد الله ، والاصغاء الى ما يقول

- من هو عبدالله هذا ؟

- ابن طاهر !

فدهشت امه .. وانتفض ابو حاتم ، وجعل يرفع حاجبيه ويخفضها ، وشفتاه ترتجفان ثم قال :

اعد علي ما قلته يا بني ؟

- قلت اني سأجتمع بعبدالله بن طاهر ، الذي سيثبت لي ، كما اثبت لعثمان بن ابراهيم وامه ، براءة ابيه من دم ابي

واخذ يقص عليه ما سمع ، وهو ينظر الى امه

فصاح الشيخ قائلا : هـذا كذب ، فالذين شهدوا حرب الري ، وابصروا طاهراً يضرب اباك ، بيديه الاثنتين ، نقلوا الينا ما رأوه ، دون ان يزيدوا او ينقصوا شيئاً منه

- غير ان طاهراً سيدعو هؤلاء ، ويسألهم عن هذه الحكاية التي لا صحة لها ، سيدعو هؤلاء ، وانت حاضر ، فنصغي الى الفريقين ، ونعلم عندئذ من هو الذي كذب منهما .

قال : ابو حاتم الطائي يجتمع بقاتل ابنه ؟! لا والله لا اجتمع به ، ولا اصدق كلمة مما يقوله هو وبنوه

وجعل يهز رأسه ويقول :

لقد ضعف قلبك يا مروان ، وخفت ان يدعوك جدك الى الطلب بدم القتيل فزعمت ان سليمان بن سعد ورفاقه ، كذبة ، وان طاهراً من الابرياء .

فقالت سعدى : لقد سمعت عثمان وامه ، يسألان مروان ان يرضى بالاجتماع .

قال : وعثمان كاذب ، فهو ينتصر لطاهر ، لانه قربه اليه ، وجعله من خاصته

قالت : ليس لك يا سيدي ان تظن الظنون به ، فهو يؤثر مروان والمغيرة على عبدالله ، ولا يريد الا ان يبعدهما عن الخطر

- اي ان يبعدهما عن الاخذ بالثأر

قالت : ايطيب لك ان يعرض مروان نفسه للموت ، من اجل خبر قد تجده غداً كاذباً ؟ - افلا ترغب في قتل طاهر بن الحسين اذا ثبتت خيانته ؟

- بلى

- اذن فدع مروان يجتمع بمن يشاء حتى يبين الحق ويظهر لنا جلياً واضحاً ليس عليه حجاب من الشك ، فاذا صدق سليمان وفياض ، كان قتل طاهر لا بد منه ، وان رأينا انهما كانا كاذبين ، انتهى الامر بالحسنى ، بيننا وبين الجماعة ، ولم يبق لنا عندهم ثأر

وكانت ام مروان ، تفكر فيما يقولون ، وهي تنظر الى الارض

فلما ذكرت سعدى الخطر الذي يتعرض له مروان في طلبه الثأر ، خفق قلبها واحست الام .. ان ولدها سيواجه الموت ، اذا هو حاول ان يتصدى لطاهر ، او لاحد بنيه .

ان زوجها قتل : ولوعتها عليه لوعة المرأة الامينة ، التي قضت حياتها مخلصة له، .. وهي التي ارادت ان تسير مع الجيش ، لتغمد الخنجر في صدرطاهر على مرأى من الجند ..

وهي التي كانت تقول لولديها :

اذكرا دائماً، ان اباكما قتل غدراً ، وقاتله حي ...

لقد كان دمها يغلي .. وكانت نفسها في عنفوان الثورة .. وحاتم يدعوها ، وهو في حفرته الى الانتقام ..

ولكن .. ولكن عندما رأت بعين الام .. شبح المنون يكمن لمروان او المغيرة ، كما يكمن النمر لفريسته .. خمدت نار الثورة .. وخف الهياج، واثرت النظر في امر الثأر ، بالحكمة والهدؤ على التعجل الذي لا تجد وراءه غير الندم ..

على انها لم تكن واثقة ببراءة القاتل ، وخيل اليها ان هـذه البراءة رواية اخترعوها ليخفوا وصمة الغـدر التي تعيب طاهر بن الحسين ، ويظهروه ، بمظهر الصديق الشريف الذي لا يغدر ولا يخون

ومع ذلك ، فقد رأت ان توافق مروان ، في الامر الذي دعي اليه ، فقـد تكون في تصورها على خطأ ومن الضرورة ان يـدرس الموضوع .. موضوع الدم .. درساً وافياً كاملا من جميع نواحيه ، فالقضية ليست سهلة ، وانمـا هي قضية حياة وموت .

وانك لـترى ام مروان بين اليقين والشك .. وفي غمرة من المرارة والالم تراها بعد ساعة، وقد اضمحل المها ، وقام في ذهنها ان الغدر الذي نسبوه الى بطل الري . بهتان وزور ، وان الذين ملأوا الرقة اخباراً اعداء له .

واما الشيخ ، فلم يتردد الشك في نفسه . لقد آمن بان طاهراً هو الجـاني ، فهو لا يصغي الا الى حديث قلبه ، ولا يبـالي بما يدعيه عثمان وعبدالله ، فسليمان

وفياض ، في نظره من اصدق الناس

وهنالك طائفة كبيرة من الجند ، ذكر افرادها له ، ما ذكره الرجلان

وما هو هذا الخبر الغريب ، الذي قصه عثمان على حفيده مروان وحفيدتيه سعدى وزينب ؟

يبرز حاتم الى الساحة ، ويدعو الفرسان الى القتال وعلى وجهه لثام ، وهو على فرس غير فرسه !؟

وما الذي دعاه الي التنكر ، وهو في جيش امير المؤمنين الامـــين ، ومن اركان حرب علي بن ماهان ،؟! اتراه كان يخاف طاهراً فغطى وجهه ولم يجسر ، على البراز سافراً ، ام هو الخجل الذي منعه من السفور ؟؟

انه في صف ، وطاهر ، في صف ، واهل العراق وخراسان يعلمون ، انه على دعوة الامين ومن رفاق علي في الميادين فأي معني لهذا الخوف الذي يفترض وجوده

انها حكاية لم يسمع حياته كلها اغرب منها . وهو لا يطيق ان يهزأ به الناس ويقصوا عليه الا كاذيب .

ومع ذلك ، فقد اراد كما ارادت حبيبة ان يتظاهر بالرضى عن الاجتماع ، حتى اذا عاد الجيش من كسيوم، انقلب هذا الرضى الى اعذار ، لا يجد مروان بداً من الاصغاء اليها ، والرجوع عما يهمّ به

وكانت له من الناحية الاخرى غاية فيها الحكمة والدهاء هي ان يسأل سليمان وفياضاً من جديد ، عن هذه الرواية التي نقلها عثمان ، ورددتها سعدى ومروان

وقد اطمأن الى هذه الفكرة ، التي تزيده وثوقاً بنذالة طاهر ، وخباثة نفسه . . فقال وهو يبتسم :

ليكن الاجتماع ، فانا لا اريد ان يكون ولدي عرضة للخطر . . فاذهب يا بني . . اذهب غداً الى البيضاء واقم بها ما طابت الاقـــامة لك وسننتظر حتي تنتهي الحرب

فتمتمت ام مروان قائلة : نعم حتى تنتهي الحرب

ويظهر انها كانت تريد ، اذا صدق سليمان ، ان تسبق حماها وولديها الى القتل

وعندما كانوا يتحدثون بهذا ، كان المغيرة قد نزل الى فنـاء الدار ، ووقف عصمة الحرشي وراء باب المخدع المغلق ، يسمع ما يقوله القوم لا تفوته كلمة

والعبد مغيث ، مع سيده الاصغر ، يعلفان الخيل ..

والجارية راوية ، خارج المنزل

وقد اضطربت نفس الحرشي لما سمع !

يجتمع مروان بعبد الله ، ثم يجتمع الشيخ بطاهر .. ويبدأ العتاب .. وقـــد يظهر في الرواية كذب واختلاق ، فيقوم الصلح مقـــام العداء .. ثم يضحي هو كالغريب في بيت حاتم ، ويفوز عبدالله او طاهر بحب زينب .!

اهذه هي غاية عصمة من المجيء الى الرقة كل شهر ؟

— نعم ، ذلك هو الحب الذي برح به ، وقد استطاع ان يكتمه صابراً حتى تخف اللوعة على ابي مروان

احب زينب حباً ، بني عليه قصور الامل ..

انها احسن حسان الرقة ، وبنت البيت الطائي الكريم ، ولها من الجمـــال روعته وبهاؤه ، فاذا أمست له ، رفع رأسه بين فتيان بغداد تيهاً وكبراً

واي شيء هو هذا الاجتماع الذي تحدثوا به ؟

الا يجوز ان يجبن سليمان وفياض ، وهما في مجلس طاهر ، فيتراجعا .. وينكرا ما ذكراه للناس ، ثم تعلن البراءة ؟!

اليس في ذلك قضاء على اماني الحرشي العاشق ؟ وهل يستطيع هو ان يكون المقدم في الحب على عبدالله ، وبين هذا وزينب ، ذكرى طفولة ، وماض عذب ؟!

لا ، ليس هذا الاجتماع من مصلحته ، وهو قادر على منعه ، بما يخترعه من الحيل

وخرج الى الشرفة ، خوفاً من ان يفاجأ ، وهو في موقفه ..

لقد سمع ما سمع ... وكان يفكر .

ايطلب الى الشيخ والارملة ، ان يجعلا زينب عروساً له ، على ان يقتل طاهراً ويجعل دمه مهراً لها !.

ولكن ، كيف يصل الى طاهر ؟

واذا قتله في ساعة من ساعات الغفلة ، فكيف ينجو ؟
انها فكرة طائشة ، اذا هو مشي وراءها ، قذف بنفسه الى اشداق المنون .
وماذا يستفيد اذا فعل ؟
يقتل طاهراً فيخسر حياته ..
اذن فخير له ان ينظر في الامر ، من ناحية اخرى ليس فيها شيء من الخطر
وابتسم عندئذ للخاطر الجديد ..
ثم لحق بالمغيرة ، واخذ يحدثه بامر البيضاء والنوق ، كأنه لم يسمع شيئاً
والمغيرة يعبث بناصية فرسه الاشهب ، ويصف له قوته وصبره في حلبة السباق
ولما خرج القوم ، من مخدع الشيخ ، هامست زينب امها قائلة :
انظري . هذه آثار اقدام عند الباب .. وهذا التراب تراب السطح ..
فجعلت حبيبة تنظر الى الاثر ، ثم انصرفت وهي تظن ان المغيرة كان يهم بالدخول ، ثم عدل عنه .. ولم يخطر لها ان تسأله عن ذلك

اما زينب ، فقد سألته بعد ساعة ، وعرفت انه لم يقف عند الباب ، ولم يفكر في الدخول ، فاعتقدت عندئذ ، ان الاثر الذي رأته هو لعصمة الحرشي ..

●

٢٢

قال الحرشي لمروان ، في مساء ذلك اليوم :
لقد قيل لي ، ان رجلا من بني عجل ، خبيراً بهذا الداء الذي يصيب الابل ، وهو يعالجها اذا جربت .
قال : اين هو ؟
– في خيمة له لا تبعد كثيراً عن طريق الشام

قال . لا اعرفه ، ولم يذكر لي احد شيئاً عنه

ــ هذا ما سمعته عند المسجد .

ــ سأسأل جدي عنه فلعله يعرفه

ــ لا تسأل احداً فانا ذاهب الان لاراه

قال اركب فرسك فطريق الشام بعيد

ــ لا حاجة لي الى فرس .. اتذهب معي ؟

ـ لا ، فسر وحدك ، وساعد انا بعد الصلاة ، عدة السفر

ومشى الاثنان الى المسجد الذي كان يغص بالناس ، فصليا ثم انصرفا عندما انصرف المصلون .. وافترقا

ولم يكن هنالك رجل عجلي ، يريد عصمة ان يستعين بخبرته كما زعم .. ولم يكن يريد في تلك الساعة طريق الشام .. بل كانت غايته ، ان يعمد الى الطواف ساعة في الازقة حتى يجن الليل ، ثم ينثني راجعاً الى دار سليمان بن سعد ، ليطلعه على ما سمع

وسليمان ، من اصحاب ابيه ، وبين الاثنين رابط مبدأ ، فهما من حزب واحد وعلى دعوة واحدة ، وكان يعرف منزله ، وقد زاره غير مرة في العام الذي مضى

على انه اراد ان تكون زيارته في تلك الليلة ، سراً لا يعرفه احد

ومن اجل ذلك خدع مروان وخلقت مخيلته حكاية الخبير العجلي ، ليبقى بعيداً عن الظنون

فلما مد الليل ستاره ، دار دورة خلف طريق بغداد ، ثم اتجه الى الشاطىء ينظر الى ظلال النخيل تتهادى في الماء ، كما يتهادى السكارى .. ولم يلبث حتى رأى نفسه امام دار سليمان ، وابصر في الداخل ، نوراً ضعيفاً ، هو نور السراج الذي كاد ينطفىء

ولم يكن في الدار ضيوف ..

وسليمان على شرفة منزله المطلة على الماء ، وقد التف بعباءته ، وبين يديه وعاء فيه الطيب ..

فاستأذن الفتى ودخل ، فقال سليمان .

ما الذي أتى بك في هذا الليل يا بني

فاجابه وهو يخفض صوته :

جئت احدثك بأمر لا ينبغي ان نتحدث به الا في مثل هذه الساعة

- هنا على هذه الشرفة ؟

- لا ، بل في الدهليز حيث لا يسمعنا نساؤك وجواريك

فحمل طيبه ، وتقدم عصمة الى الدهليز ثم قال له :

حدثنا الان ..

قال : الم يأمرك طاهر بن الحسين بالمسير معه الى القتال ؟

- لم يدع احداً من اهل البلد .

- وهل رأيته بعد قدومه الرقة

- نعم زرته مع وفود الناس ، يوم ورد عليه نعي ابيه

- وبعد ذلك ؟

- لم اره غير مرة واحدة في مسجد المهدي وكنت بعيداً عنه وقـــد تركت المسجد قبل ان يخرج منه

- اذن ستراه بعد رجوعه فهو بحاجة اليك

قال : امن اجل هذا المزاح اتيت

- لا والله فهو سيدعوك اليه وسترى ..

- لماذا ؟

- ليوجه اليك سؤالا على مرأى ومسمع من خاصته وبنيه ، واصحابك الطائيين

فخفق قلب سليمان .. ولعله ادرك الغـــاية من هذا السؤال ، ثم قال :

حدثني بجلاء يا ابن اخي

قال : عرف عبدالله بن طاهر ان الطـائيين والناس جميعهم في هذه المدينة ، يقولون ، ان طاهراً غدر بحاتم ، ثم بلغه ان الرجل الذي اشاع هذا الخبر وردده في المجالس ، هو انت وفياض

فجعل يعالج ذبالة السراج ويده ترتجف ...

ثم تجلد وقال : ومن خبر عبد الله

- عثمان بن ابراهيم ، الذي امسي من خدم الامير

قال : خيل الي يوم كنا في دار الامارة، ان طاهراً سيضرب عنق عثمان ،لجرأته عليه ، واستخفافه بالحسن بن سهل ، فيظهر ان هذا الاستخفاف هو الذي قربه الى طاهر ... هات ايضاً . .

- وقد سمعت اليوم ، ان عثمان وامه يريدان ان يجمعا مروان بعبدالله ، ليزول سؤ الظن ، ثم يجتمع طاهر نفسه بأهل القتيل ، ويدعوك مع فياض ، كما ذكرت الان ...

فاستولى الرعب على الكذوب الجبان .. ولولا بقية من كرامة الرجولة ، لاستسلم الى الخوف استسلاماً فيه الفضيحة والذل...

ان طاهراً لا يصبر على اذى، واذا غضب فالرحمة لا تجد سبيلا اليه . فكيف يجسر الرجل ان يمثل بين يديه ويقول له : انه كان صادقاً فيما نقله عنه !

لا .. ليس بين الرجال من يجسر على ذلك ، ولو كان صادقاً ..

ووضع يده على جبينه وأطرق، فقال عصمة :

ماذا رأيت يا ابا خالد

- ليس لي ان افعل شيئاً قبل ان ارى فياض بن قيس

- ومتى تراه ؟

- عند الصباح فقد يخطر له ما لا يخطر لي . ثم قال :

اما وقد نقلت الي هذا فانا اشكرك . ولكن الا تذكر لي يا ابن اخي غرضك من ذلك

- اما غرضي فهو ان انبهك للامر قبل رجوع طاهر ، لاني اعلم كما تعلم ان الرجل لا يغفر لمن يسيء اليه

قال : سأحفظ لك هذا الفضل ما بقيت .. والان فانا اسألك سؤالا آخر ارجو ان تجيبني عنه .. من سمعت الخبر

- من مروان بن حاتم واخته سعدي ، وقد نقلاه بدورهما الى جدهما الشيخ ،

موافقها في الراي وسيتم الاجتماع بعد الظفر بنصر

قال : اخطأ مروان واخطأ جده فالقاتل هو طاهر ، وقد رآه رجال الجيشين

- اعرف هذا، ولكن مروان مؤمن بان عبدالله سيستطيع اثبات براءة ابيه من الغدر الذي وصم به

- اذن فهو يشك في وفي فياض

- هذا ما ظهر لي

- وعند ابي حاتم مثل هذا الشك

- لا ادري وقد تكون الارملة من رأي مروان

ونفد الزيت عندئذ من السراج وساد الظلام

ولو استطاع الحرشي الفتى ، ان يتبين الاشياء في تلك اللحظة، لابصر ذلك الاصفرار الذي صبغ وجه سليمان،ورأى في عينيه دلائل الذعر

ان الشك الذي ذكره هذا الحرشي ، خطر على ابي خالد ، وان هذا الخطر يحيط به من الناحيتين .. من آل حاتم وآل طاهر ، وهو لا يستطيع ان يرده

وماذا يفعل وقد انتهى الى الجماعة ، ان حكاية القتل كانت كاذبة

ايواجه القائد بشجاعة وجرأة ثم يلجأ الى الحسن بن سهل ليحميه من غضبه ، ام يستغفره عندما يجيء ويقول له : هذا ما نقل الي ولا ذنب لي

فكر في هذا كله ، ويده على السراج .

ثم رأى وهو يفكر في امر آخر،ان يظهر بمظهر القوي الواثق بنفسه ويستعين من وراء هذا التظاهر بنصيحة الفتى فقال :

سيعلم القوم اذا اجتمعوا، اني لم اذكر لهم غير الواقع ، وساقول لطاهر انك قاتل الرجل ، فافعل ما شئت

- ويفعل عندئذ ما يشاء .. يدعو الوجوه من الجيشين ويطلب اليهم ان يصفوا الحادث وهذا يكفي

- اما انا فلم ار ما رآه رجال الجيشين ، ولكني سمعت في همذان ما نقلته الى القوم ولم اكن كاذبا

- اهذا عذرك يا ابا خالد؟ انه عذر ضعيف لا يصغي اليه احد وانا اخشى ان ينقلب عليك وتقع الواقعة بينك وبين طاهر

- وما العمل

- ارى ان تترك الرقة قبل نهاية الحرب وقبل ان يعرف الناس مانعرفه نحن

- الى اين ؟

- لا اعلم فذلك راجع اليك والى فياض

- وماذا يقول الناس

- لا يقولون شيئاً ، فاهل المدن هنا وفي بغداد ، وفي كل مكان ينتقلون من بلد الى اخر ، وكذلك يفعل اهل البـــادية .. ولكن اذا بقيت حتى يعود الجيش من كيسوم ثم رحلت ، تكثر حولك الظنون ، ويقوم في الاذهان ، ان هذا الرحيل فرار لم تجد بدآً منه

وكان هذا الفرار هو الامر الذي فكر فيه قبل ان يستشير عصمة فقال:

لا اطيق ان يتصور ابن الحسين اني اخافه

- اترك هذا الان وافعل ما اشرت عليك به ولا تبال بما يحدث في الرقة وانت بعيد.. وان اردت فاذهب الى فياض الان ، وخبره بالامر وارحلا بعد غد

- اما الان فلا ، ولكن سأراه غداً ثم تجيء انت فاقص عليك ما تحدثنا به

قال : سأكون عند بزوغ الفجر في طريقي الى البيضاء

- مع مروان

- نعم ، وسنمكث هناك بضعة ايام

- اذن ستعلم كل شيء بعد رجوعك

- ليس من الراي ان تبقى بالرقة اكثر من يومين

قال : يخيل الي انك تخاف شيئاً لم تبح به

- اخاف هذا القدر الذي لادين له .. فعجل بالذهاب

- سافعل وارجو ان يبقى هذا الامر سراً بيننا

- وانا ادعوك بدوري الى الكتمان اذ لااحب ان يعرف آل حاتم اني رأيتك

ونهض يتلمس طريقه الى الباب وكان يقول :
سنلتقي في بلد غير الرقة ..
فشيعه قائلا : الى اللقاء
وبعد ساعة ، نعم بعد ساعة ، كان سليمان عند فياض بن قيس ، وكانايتهما سيان
وجعل عصمة يحدث نفسه قائلاً :
لو استطاع سليمان الفرار هذه الليلة لفعل

...

ارأيت الخبير العجلي امس ؟
- لا ؛ فهو في بغداد ؛ ولم اجد احداً من اهل بيته ، وقد قيل لي ؛ ان في جيش طاهر ، رجالا لهم خبرتهم في معالجة الابل التي يصيبها الداء
فقال مروان : اذن كان عليك ان تلحق بطاهر ، وتسأله ان يبعث بهؤلاء الرجال الى ارضك ليعالجوا ابلك
- بل كان علي ان اقول له : انقذ ابل آل حاتم فهي تموت !
وكان الحرشي ومروان على فرسيهما ؛ وهما يتحدثان ، وطريق البيضاء غير طويل ... ثم قال عصمة ، وهو يريد ان يسبر الغور :
عرفت امس ؛ ان الحسين ابا طاهر مات في خراسان ؛ وان شيوخ الرقة وفتيانها . وفدوا على طاهر يعزونه ؛ افلم تكن انت بينهم ؟
قال : اترى انه كان يجب علي ان اقوم بتعزية الرجل المتهم بقتل ابي ؟ اني سأعزي بنيه ان شاء الله يوم يقتل
قال : يخوض الغمرات منذ سبعة اعوام ولم يجد الموت سبيلاً اليه
قال لم يقتل بالسيف .؛ ولكن سيقتل بالخنجر اذا كان هو الجاني فنحن لا ننام عن الثأر

- لو لم تكونوا نياماً لما بقي طاهر ..

قال : لم تأت ساعته بعد

- واعتقد انها لن تأتي .. اتنتظرون رجوعه ظافراً بابن شبث ، والجنود حوله يحتفلون بالنصر ، والدنيا تبسم له ، ام تنتظرون حتى يعود الى بغداد ومنها الى خراسان ، فتتبعوه لتغمدوا الخنجر في عنقه وهو في حضن المأمون ؟! قل لي يا مروان ، كيف تأتي هذه الساعة وانتم غافلون عن الرجل ، لا تذكرون قتيلكم ولا تهتمون لما يتحدث به الناس ؟! ايقتل طاهر ، وانتم في الدار لا تخرجون منها لا الى الشارع ، او الى البيضاء ؟! ومن يتولى قتله ؟ ، ان جدك اعمى واقطع ، فهو عاجز عن هذا ، وليس في الساحة غيرك ، وغير المغيرة ، وانتما الاثنين لا تفكران الا في هذا الداء الذي يصيب النوق !!

واخذ يقهقه ويقول : عجبت لكلمتك ان ساعته لم تأت بعد ، فمن من بني حاتم يستعجل هذه الساعة حتى تاتي ؟! والله لو كان القتيل عبدالله الحرشي ، لظل بنو طاهر يبكون اباهم الى اليوم .

- اذن فانت تظن اننا تركنا دم قتيلنا وسكتنا عن قاتله ؟

- هذا ما يبدو لي ، فاذا كانت هيبة طاهر ، تمنعكم من الاقدام عليه ، فانا اقوم بالامر ..!

- ليست الهيبة هي التي تمنعنا من ذلك

- وماذا اذن ؟

- هنالك شيء آخر سننظر فيه بعد حين

- ولا تستطيع ان تذكره لي ؟

- بلى على ان لا تذكره لاحد . ان طاهراً لم يغدر بابي ! فاكتف بهذا ولا تزد

- ونسيت ما ذكره سليمان بن سعد وفياض ؟

- لم انس شيئاً ، ولكن الذين يقولون ببراءة طاهر ، يقولون ان الرجلين لم يكونا صادقين ..

قال : ابعد هذه الاعوام التي مضت يكذب خبر القتل ؟
قال : كان طاهر في خراسان وبغداد ، وهو لا يعلم ان النـــاس يعيبونه ويتهمونه فلما قدم الرقة ، ذاع خبر القتل من جديد ، فاراد هو وبنوه ان يكذبوا الذين اذاعوه
قال : في الرقة اكثر من خمسين رجلا يشهدون لسليمان
- غير ان هؤلاء الرجال جميعهم يشهدون على السماع
- ومع ذلك فانتم لا تستطيعون ان تتبينوا الامر الا اذا كذب سليمان نفسه
- قلت اننا سننظر في هذا ، وينبغي ان تعلم ، ان الرجلين ،كانا في همذان ، يوم قتل ابي في الري !
- يظهر انك مؤمن بان الغدر لا صحة له
- ليس لي ان اصدق هذا واكذب هذا ، وانما يجب ان نصبر حتى يظهر لنـا الحق كما هو لا يستره حجاب
- وكيف يظهر هذا الحق ؟
- ستعلم ذلك بعد شهر او اقل من شهر ..
وعندما انتهيا الى البيضاء ، كان الرعاة في السهل القريب منها ، ومعهم النوق
فافترق الرفيقان ، لينظرا في الامر الذي قدما من اجله ، على ان يتلاقيا عند المساء ، وقد اعتقد الحرشي ، ان آل حاتم سيطلبون ابا خالد ، فلا يجدونه ..

كانت ام عامر ، تصف لام عثمان ، اخلاق ابنها بالرضاع ، عبدالله بن طاهر وتخبرها ، ان امير المؤمنين يحبه وكان يدعوه الى مجلسه ، ويظهر امام رجـــال الدولة اعجابه به ، كما ان معظم المقربين الى المأمون ، من اهل خراسان ،كانوا ينظرون اليه نظرات الاحترام

وام عثمان ، تصغي اليها بشغف ، كأن عبدالله امسى قطعة من روحها ، بعد ان جعل ابنها رفيقاً له

والاثنتان تغزلان الصوف

فبينا هما على ما رأيت ، اقبلت سعدى وزينب ، وعيونها تنطق بالالم .

فلما ابصرتا المرأة الغريبة ، تراجعتا ، وترددتا في الدخول

فنهضت ام عثمان تستقبلهما قائلة :

اهلا بسعدى وزينب ، ادخلا فليس في الدار غـــير ام عامر احدى جواري نائلة زوجة طاهر بن الحسين ، وقد بعثت بها الي في غياب عثمان

فقالت زينب : يظهر ان عثمان يخاف على امه !.

ودخلتا ، وام عامر تبتسم لهما

ثم قالت زينب : اخرج عثمان الى الحرب ؟

ـ نعم ، وقد ذهبت امس لاعتذر لكم باسم عبدالله ، عن هذا السفر الفجائي الذي لم يكن له فيه يد ، فرأيت ابن الحرشي في الدار ، فلم اشأ ان اذكر لكما او لمروان شيئاً عن هذا الاعتذار

ـ ولماذا يعتذر عبدالله وهو حر في الاقامة والرحيل ..؟

ـ كان يخشى ان تظنوا ، انه عمد الى الهرب من الاجتماع الذي وعد به

فقالت سعدى لام عامر : متى يرجع الجيش ؟

ـ ان هذا الامر يعود الى النار التي يسعرونها في كيسوم ولا يعلم احد متى تنطفىء ، وقد امرني عبدالله في الليل الذي مضى ، بان انقل اليكما ، انه لم يستطع ان يرد امر ابيه ، في الزحف الى العدو

فتلألأت عينا زينب .. وام عامر تتفرس في تينك العينين .. وقـــد ايقنت ان هذه الألاة هي .. الحب .. ثم قالت :

وعندما ارادت مولاتي نائلة ، ان اقيم بهذه الدار ، رافقني سيدي عبدالله اليها ، واوصاني مرة ثانية بما ذكرت

فقالت ام عثمان : وسمعته يقول : ارجو الله ان يعيـــدني الى الرقة ، ويجمعني

هؤلاء الانذال الذين شوهوا سمعة ابي .. الا تريدان ان يعود عبدالله حياً الى هنا ؟

فاجابتها سعدى قائلة : اذا كان ابوه هو الذي جنى فلا اعاده الله

قالت : لنفترض ان طاهراً غدر بحاتم كما قيل فما هو ذنب عبدالله ؟

- ذنبه انه ابنه

- ومتى كان الناس يأخذون الابن بجريرة ابيه ؟

- ومتى كان الناس ، الذين غدر بهم يدعون للغادر ويرجون له الخير ؟

- ذلك ما يفعله الذين يخافون الله ، والله هو المنتقم ، ومع ذلك فلا بد للحق من ان يغلب الباطل ، وسترين

فقالت لام عامر : الم يكن عبدالله يعلم ان الجيش سيزحف الى كيسوم في صباح اليوم ؟

- لا ، فقد كان مولاي طاهر ، يعد العدة منذ اكثر من اسبوع ، للخروج الى القتال ، وهو ينتظر ان ترد عليه اخبار عدوه ، ولكن بلغه امس ان نصر بن شبث ، سيفاجيء الرقة بالخيل ، فأمر رجاله بالمسير ، قبل ان يجيء ، ولا يقـــدر عبدالله ، الا ان يخضع لابيه

- بل كان يستطيع ان يستأذن اباه ، في البقاء ، لانه ليس من رجال الحرب

- لا تقولي هذا عن عبدالله ، فقواد طاهر جميعهم يشهدون ، انه اهل لقيـادة الجيوش ، ويعترفون برباطة جأشه ، وبعد نظره ، وبان له على الرغم من صغر سنه ، خبرة الابطال ، الذين حفظوا هيبة الخلافة وحملوا امجاد النصر .

وانتقلت فجأة ، الى التحدث ، بتلك اللغة التي يستلذها المحبون ، فقالت :

وهي لا ترفع نظرها عن زينب :

لقد ذكرت لي مولاتي نائلة ، ماضي الصغير عبدالله في هـذه المدينة ، وكانت تقول : لم يكن له بين فتيان الرقة من يأنس به غير بني حاتم

فسكتت سعدى ، وجعلت زينب تنظر الى الارض

اما ام عثمان ، فلم تشأ ، الا ان تمد يد المعونة الى ام عامر ، في موضوعهـــا الجديد : وتمهد لها السبيل ، للوصول الى الغاية ، فقالت :

هذا صحيح ، فقد كان مروان واخوته اخوة لعبد الله

فقالت سعدى : ولكن هذا الاخ نسي الاخوة وامسى قاتلا ..

- بل امسى الشقيق الوفي ، الصادق في مروئته وحبه ،وهو لليوم اشد اخلاصاً منه فيما مضى ، ثم قالت لزينب :

اراك ساكتة كانك لا تسمعين ما نتحدث به .. اليس لك في هذا رأي ؟

- اقول انه ليس لنا ان نتهم طاهراً قبل ان نتبين ذنبه .. فاذا صدق الرواة فيما نقلوه ، فطاهر وبنوه اعداؤنا الى الابد

- واذا كذبوا ؟

- ذهبت العداوة .. ورجع .. الحب

- غير ان سعدى لا ترضى الا ان تظلوا اعداء !

فاجابتها الفتاة قائلة :

ما كنت قط راضية عن هذا .. ولكن ما حيلتي اذا صار الصديق عدواً والحمل من الذئاب .. كنت احب عبدالله وطلحة ، كما تحبهما امي وزينب ، وكما احبهما المغيرة ومروان ، فهل تريدين يا ام عثمان ، ان نبقى كما كنا ، اذا كانت هنالك جناية ؟

- لا ، وعثمان نفسه لا يريد ذلك، وقد اقسم لي ، انه سينقلب على آل طاهر، اذا ثبتت له الخيانة ، وسيكون اسبق من مروان الى الانتقام .. واما انا ، فسأقول لعبدالله اذا دخل هذه الدار : اخرج فلا شأن لك هنا ، وستمسي قاتلا مثل ابيك !

وضاق صدر زينب .. فأخذت المغزل من ام عثمان ، وخرجت الى الرواق فلحقت بها ام عامر ، ومعها مغزلها ، وهامستها قائلة :

ارى انك لا تطيقين الاصغاء الى حديث الجرائم ، فقالت وهي تجهش للبكاء:

كفانا ، اننا نردد حكاية القتل منذ ستة اعوام لم نغفل عنها يوماً واحداً فكأنه ليس لنا ما نقوله غير هذا .. انك تعيشين يا ام عامر ، في بيت طاهر ، وانت تسمعين كل ما يقال في ذلك البيت ، فقولي لي ، اكان مولاك غادراً ؟

- لا والله لم يخطر الغـــدر بباله ، ولم يعلم ان الرجل الذي طلب البراز هو حـــاتم ، واعلمي يا بنية ، اني مرضع عبدالله ، وانا اعرف كل شيء ، فصدقي ما اقوله لك ، ولا تظني اني انقل اليك غير الواقع لغاية لي

فمشت الى آخر الرواق وهي تقول : وحياة عبدالله ؟

- وحياة عبدالله ، ورأس طاهر اني لم اقل غير الحق

فتنهدت قائلة : وهؤلاء الناس الذين يتهمون الرجل ؟

- انهم اعداء طاهر ومن رجال السوء ، وستعلمين غـداً ، اذا اجتمعوا انهم اكذب خلق الله .

قالت : اذا كانوا كما تظنين فسيرفضون الاجتماع

- وهذا ما يقوله عبدالله ، واني مؤمنة بان الحب سيعود ، اليس كذلك ؟

فنظرت اليها نظرة استعطاف ، كانها تسألها ان تسعى لاعادة هذا الحب .. ثم حولت وجهها الى الجانب الآخر لتخفي الدموع

فقالت ام عامر : ماذا يا زينب ؟

- عليك ان تسألي عبدالله عن هذا الحب ..

- لقد سألته عنه وانتهى الامر

- وهل اعترف بان هنالك حباً ، وانه سيعود ؟

- بل اعترف بان هذا الحب لم يذهب ليعود .. وانما هو كامن فيه ، منذ كان غلاماً ، وكنت طفلة ، وسيبقى قويا طاغياً حتى ينقضي العمر

- اهو قال ذلك ؟

- نعم وستسمعينه منه اذا جمعك القدر به .. ولكن عبدالله شقي ولاحظ له..

- في اي شيء ؟

- في هذا الحب الذي نذكره الان .. ان الفتاة ، التي وهب لهـــا قلبه ، واعطاها من روحه ، ليست له ..!

- ولمن هي اذاً ؟

- لفتى آخر يقال له عصمة الحرشي

فاضطربت قائلة : ومن نقل الى عبدالله خبر عصمة ؟

ـ لا ادري ، فهو يعلم انه يأتي الرقة كل شهر ، ويمكث بهـــا بضعة ايام ، ثم ينصرف الى بغداد على ان يرجع

قالت : يجيء ، ليرافق مروان الى ارض لابيه تجاور ارضاً لنا

ـ نعم ، ومن اجل هذه الغاية ، ينزل عليكم ضيفاً ، وكانه في بيته !

ـ لا شأن لي بهذه الضيافة ، فابوه عبدالله من اصحاب ابي ، وجدي يحبه ، وهو الذي يدعوه الى الاقامة عندنا ، عندما يجيء

ـ وسيدعوه بعد حين الى امر اخر ترغبون فيه

ـ وما هو هذا الامر ؟

ـ الزواج ، فذلك هو غرض الحرشي من المجيء ..

قالت : يظهر انك تعلمين عن الفتى ما لا نعلم ..

ـ ان عبدالله نفسه ، هو الذي خبرني بكل هذا ، وقد امر ام عثمان ، بان تسألك وتسأل سعدي عنه ، فتوليت انا السؤال كما ترين ، لاني اعتقد ان القضية ، ستنتهي بين الحبيبين قبل ان ينتهي العام ..

ـ بين الحبيبين ؟!. وكيف تنتهي ؟

ـ بان تزف الفتاة الى حبيبها ، فيضيع الامل ، ويخيب الرجاء ..

فجعلت تقول : الرجاء والامل والفتاة والحبيب .. فمن هي الفتـاة اسعدى ام زينب ؟

ـ هي زينب بنت حاتم التي اخاطبها الان ..

ـ والامل الذي يضيع ؟

ـ أمل عبدالله بن طاهر ، الذي يؤثر الموت على الحياة، اذا كنت زوجة لآخر

فهمت بان تبوح بما في الصدر من لواعج الغرام ، ثم ذكرت ان الاعتراف بهواها انتهاك للكرامة ، فدم ابيها يطالب بالثأر ، وقد تكون البراءة التي يتغنون بها ، خديعة من خدائع العشاق .. فمن الخير لها اذا ، ان تعمد الى الصبر ، وتبقى بين بين .. ريثما تنكشف اسرار جريمة الري ..

ثم لج بها الهوى .. وتمرد القلب وعصى .. وهي تحاول ان ترده بالحسنى ، الى الهدى ، وتبعده ، ببقية من الحكمة ، عن الفضيحة التي تجعلها مضغة في الافواه

وغاصت في لجة بعيدة الغور .. من التصور والتفكير .

وام عامر ، تنظر اليها بهدوء . وهي تعلم ان نفسها في ثورة ، وان غرامها يريد الظهور .. ولا يطيق ان يبقى وراء الحجاب ..

ثم ابتسمت قائلة : ارى انك لا تهتمين كثيراً لامر عبدالله ، وستكونين لابن الحرشي !

قالت : اما ان اكون لهذا او لهذا فانا لا اعلم ، وهذا الامر ليس في يدي ..

- اي ان الكلمة الاخيرة فيه ، هي لابي حاتم ، وام مروان

- ولهذا القدر الذي يهزأ بنا ، ولا يبالي .. ولكن ايتنازل عبدالله ، وابوه من حماة الخلافة ، واعظم قواد هذا الشرق ، الى جعل فتاة يتيمة زوجة له ؟!

فادركت الداهية ، ان الفتاة ، تعمد الى المزيد في الاختبار ، في شيء من الدلال

فقالت : خيل الي انه يتنازل الى ذلك .. اسمعي يا زينب ان فتيين من فتيان العرب ، يرغبان في الزواج ، احدهما ابن عبدالله الحرشي الجبان ، والثاني ابن القائد العظيم الذي تقولين عنه انه اعظم قواد هذه البلاد ، فأيها خير من الاخر ؟

فاجابتها دون ان تتردد :

سيظل الحرشي في نظري ، خيراً من عبدالله ، حتى نعلم نحن ، ويعلم اهل الرقة جميعهم ، ان طاهراً لا ذنب له .!

- وعندئذ ؟

- وعندئذ يذهب عصمة ، ويبقى عبدالله وحده ..

- اذن فانت تحبين عبدالله على شرط !

- نعم على شرط .. وسأبغضه اذا رأيت في الخبر الذي قصه علينا شيئاً من الخداع

قالت : انها لاعجوبة من اعاجيب الطبع البشري ، ان يحب المرء عندما يشاء،

ثم يبغض من احب عندما يشاء .. مع اني اعلم ، انه من الصعب على الذي يحب ، ان يبغض ..

فتساقطت دموعها ولم تحاول ان تكفكفها وجعلت تقول :

كفى يا ام عامر ولا تزيدي ، فانا من اتعس الناس ..

- بل انت من اسعدهم ، فعبدالله لك وانت له ، وليرجع هـذا الحرشي الى البلد الذي جاء منه ..

فلم تجب ، لانها كانت قد استسلمت للبكاء

ولم يبق لام عامر ما تقوله ، فقد ابصرت غرام زينب في عينها ، وادركت ، ن ترددها في الاعتراف صراحة ، بهذا الغرام ، سببه الكرامة وعزة النفس ..

فوضعت يدها على كتفها وقالت لها :

امسحي الدمع ، وكوني مطمئنة ، ان الله معك

وكانت سعدى قد آمنت ، بفضل ام عثمان ، بان هنالك سعاية وكذباً ، وان اجتماع الضدين ، سيفضح السعاة ، ويظهر الاكاذيب ..

***

هذه طائفة من النوق والخيل ، عليها الرجال ، وهوادج النساء ، على بعد ثلاثة فراسخ من الرقة ، وخلفها بعض العبيد والغلمان ، في طريقها الى الشام

في المقدمة ، فياض بن قيس وبعض خدمه ، وفي المؤخرة سليمان بن سعد ، وقد ترك الاثنان مدينتها ، راحلين الى دمشق ، ومنها الى احدى القرى في الضواحي ، ليقيما بها الى الابد

رحلا مضطربين ، فقد كانا يخافان ان يعود طاهر ، فينزل غضبه بهما ، وهما اضعف من ان يقفا معه وجهاً لوجه

وقد مشت قافلتهما الفراسخ الثلاثة ، قبل ان تطلع الشمس ، لانهما آثرا الخروج في الليل ، على ان يراهما اهل الرقة في وضح النهار

وعندما بلغ الناس امر هذا الرحيل ، كانت القافلة قد ابتعدت ، وظن الجيران واهل الحي ، ان الاثنين سافرا الى بغداد

ولم يستغربوا هذا السفر ، فقد كان سكان هذه المدينة ، ينتقلون الى مدينة اخرى ، رغبة في تجارة ، او طمعاً في جوائز ينالونها من الامراء الولاة ، او فراراً من جور وحرب

حتى انتهى خبر السفر الى الطائيين

واقبل مغيث يقول لسيده ابي حاتم : لم اجد احداً من اصحابك يا سيدي فقد هجروا الرقة في الليل الذي مضى ، ولم يبق لهم فيها ، لا جارية ولا ولد

- هذا ما سمعته من راوية ، وماذا يقول الناس ؟

- لا يعلمون ، الا انهم استيقظوا عند الصباح فلم يروا الجماعة ، ويقول بعضهم انهم ذهبوا الى بغداد او الى الكوفة

قال : علي بام مروان

فجاءت حبيبة ، ثم دخل المغيرة ، فقال الشيخ :

لا سليمان ، ولا فياض ، فقد رحلا الى العراق

فقال المغيرة : لقد عرفنا ذلك

- اما انا فلو عرفت انهما سيرحلان ، لدعوتهما امس ، وسألتهما عما ذكره عثمان بن ابراهيم لمروان

- اذن فانت الذي ارسلت اليهما مغيثاً ؟

- نعم انا ، واني واثق بكذب عثمان وصاحبه عبدالله

قال : في الرقة فريق من الرجال ، يعلمون ما يعلمه الرجلان اللذان سافرا

قال : كان هؤلاء جميعهم في همذان ، وقد نقل اليهم الخبر كما نقل الى سليمان

- ولا تثق بهم ؟

- بلى فقد رددوا ما سمعوه ، ولم يزيدوا ، ولكني كنت اريد ان يبدي سليمان وفياض ، رأيهما في هذه الحكاية الجديدة التي سمعنا

قال : اتظن ان عبدالله لا يستطيع اثبات ما زعم

- بلى ، فطاهر بن الحسين ، يقود الالوف من الناس ، وسيكره بعضهم على ان يشهدوا له

- اي انه سيحملهم على بيع انفسهم في سبيل رضاه

- اجل ، فالذي يقتل الابرياء ، لا يعف عن مثل هذا .. وسأقول له ، اذا اجتمعت به ، انك تلجأ يا ابن الحسين الى النفاق ، وشهودك اكثر نفاقاً منك ..

- اذن فخير لك وانا الا تجتمع به

قال : لم يبق لنا بعد سفر سليمان وفياض ما نفعله في هذا الاجتماع

قال : اليس لك بين الذين اشتركوا في حروب الاخوين ، من تثق به ؟

- بلى ، لي بينهم اصحاب كثار ولكني لا ادري اين هم :

- يكفي ان تختار لك صديقين اثنين شهدا حرب الري ، فنسأل عن البلد الذي يقيمان به ، ثم نطلب اليهما باسمك ، ان يجيئا الرقة ، دون ان يعرفا سبب هذا المجيء

قال : لي في جيش طاهر ضابطان من اركان الحرب ، اصدقهما في كل ما يقولان

- في الجيش الذي خرج الى كيسوم ؟

- لا ، فقد عرفت انهما لم يرافقا طاهراً الى هنا ، ولم يريدا ان يكونا مع الجند ، الذي ندب لحرب نصر

قال : اظن انهما محمد بن طالوت ، ومحمد بن العلاء اللذان ذكرتهما من قبل

- نعم

ولكنك قلت الان ، ان طاهراً سيحمل رجاله على اداء الشهادة له ، والمحمدان من هؤلاء الرجال ..

- ومع ذلك فانا مؤمن بأنهما لا يكذبان

فقالت ام مروان :

لنترك الان كل شيء ، ولنصبر حتى ينتهي امر نصر بن شبث ، فننظر عندئذ في قضية الرجلين ، وندعوهما الينا ولو كانا في خراسان

قال : اخاف ان يأخذ الله روحي ، قبل ان تؤخذ روح طاهر !!

– خذ شهادة المحمدين ، قبل ان تأخذ روحه .. فاذا اقسما لنا ، ان حاتما قتل في براز صحيح لا غدر فيه ، كان القدر وحده خصماً لنا.. والا فانا التي اتولى قتل القاتل ، في ساعة لا يعرفها احد

وقامت فخرجت ، وخرج المغيرة ، الى مخدع الفتاتين ، فقالت حبيبة لهما :

ان اباحاتم ، هو الذي بعث بمغيث هذا الصباح ، ليدعو فياضاً وسليمان

فاجابتها زينب قائلة :

ولكن الرجلين الان في عرض الصحراء ، ولن يرجعا الى الرقة

– لماذا ؟

– لانهما يخافان طاهراً الذي سميا به

– زينب ! أأنت تقولين هدا ؟

– اجل ، انا اقول ، ان الاثنين لم يخرجا في ظلام الليـــل ، الا لانهما تعمدا الهرب ، من بلد يقيم به طاهر بن الحسين !

– واي شيء يدعوهما الى ذلك ؟

– حكاية الري التي ملأت الرقة ولا صحة لها ، وقد عرفا ان طاهراً سيدعوهما اليه بعد رجوعه

قالت : من اين لهما ان يعرفا ما تقولين ؟

– خبرهما بالامر،فتى ينزل ضيفاً علينا كلما اتى الرقة ، هو عصمة بن عبدالله..

– ومن خبر عصمة ؟

– رأيت اثار قدميه ، عند باب القاعة التي كنا نتحدث فيها بهـــذا الامر ، ومعنى ذلك انه سمع باذنيه كل ما قيل ..

– لقد كان مع المغيرة على سطح الدار

– مكثا على السطح بعض الساعة ، ثم نزلا ، فانصرف المغيرة الى مرابـــط الخيل ، وبقي عصمة في الداخل .. ماذا تقول يا اخي ؟

فقال المغيرة : أصابت زينب ، فقد نزلت انا وحدي ، ثم لحق بي بعد ساعة

فقالت لامها : اتستطيعين ان تعلمي ، في اي مكان قضى هـــذه الساعة ؟ انا اعلم .. لقد وضع اذنه على الباب ، يصغي الى مروان ، وهو يروي الخبر الذي رواه له عثمان ، ويسأل جدنا ان يرضى بالاجتماع ..

– وبعد ذلك ؟

– لحق بالمغيرة كما سمعت الان ، ثم قال لمروان عند غروب الشمس ، ان على طريق الشام ، رجلا خبيراً بهذه العلة التي تصيب النوق ، وانه ذاهب ليراه.. ولم يكن هنالك خبير كما زعم

– وماذا اذاً ؟

– زار سليمان بن سعد ، يحجبه الظلام عن العيون ، وقص عليه ما سمعه ، ولم يكن الاخر بحاجة الى من يدعوه الى الفرار ، وهكذا كان ..

– وهل كنت رفيقة له يا زينب ؟

– رافقته بالبصيرة ، وايقنت الان ، بانه هو السبب في خروج الرجلين

فقال المغيرة : وما هي غايته من كل هذا ؟

فترددت في الجواب

فقلت حبيبة : قولي يا بنية

– غايته ان يظل آل حاتم .. اعداء لال طاهر .. ليبقى هو الصديق الوحيد، الذي تؤثرونه جميعكم ، على جميع الاصدقاء .. وقد يكون له غاية اخرى هي انه يبغض الجماعة فلا يطيب له ان تكونوا اصحاباً لهم ..

– اذن فالذنب الذي نحاول ان نأخذ طاهراً به لا وجود له

– هذا ما يبدو لي ، وانا ارى ان تنظروا في امركم ، من وجه آخر ، اذ لا تستطيعون الوصول بعد اليوم ، الى سليمان وفياض

– يقول ابو مروان . ان بين رجال المأمون ، قائدين يثق بهما ، وقد حاربا ، بالاشتراك مع طاهر نفسه ، اخي علياً في الري ، ولم يأتيا الرقة مع الجيش

– وكيف يثق بهما ، وقد كانا من خصوم ابي في القتال ؟

– ليست الخصومة في الحرب من الذنوب ، انهما يكثران من السجود والصلا

وهما بعيدان عن المعصية ، ويعرف ماضيهما
ـ اذن فهو قادر على بلوغ الغاية ، ولكن لا تذكري له اني خبرتك بهذا
ـ كما انه يجب ان نكتم خبر المحمدين ، ليفاجئهما ابو حاتم بسؤاله عندما يشاء
وانصرفت ، وقد زادتها ظنون زينب يقيناً بان في الامر ما فيه
وقد اعتقد المغيرة ، ان في حديث اخته شيئاً من الصحة ..
وعندما ذهبا ، قالت سعدى :
من اوحى اليك بكل هذا يا زينب ؟
فوضعت يدها على فؤادها وقالت؟
هذا .. وهو لا يكذب ..!

●

٢٣

كان اهل العراق ، بوجه عام ، واهل بغداد ، بوجه خاص ، يحبون هرثمة بن اعين ، ويحترمون فيه جهاده من اجل الخلافة وبسالته في غمرات الحرب ، واخلاصه في الدفاع عن العرش

وهم يعلمون ، ان هذا القائد الحر ، جعل حياته كلها ، وقفاً على خدمة الخلفا من آل العباس ، ولم يستطع خصومه في السياسة ، وفي الميدان ، اذا كان هنالك خصوم ، ان يتهموه بالخروج مرة واحدة عن الهدى

كان كبيراً في ادب نفسه وخلقه ، كبيراً في شجاعته ، وصراحته وصبره ، ومنذ تقلد سيفه وهو غلام ، الى ان شاخ ، لم يتراجع في الشدة ، ولم يلو له عود

اجل ، كان الناس في معظم اقاليم الدولة ، في افريقيا ، وفلسطين ، والشام ، والعراق ، وارمينيا ، وخراسان ، يعترفون لهرثمة بكل ما قرأت ، ولا يترددون

في الاصغاء الى نصائحه ، والعمل بما يأمرهم به

فلما انتهى اليهم خبر موته ، في سجن المأمون ، بل في سجن الفضل . اضطربت بغداد .. وحمل اهلها لواء التمرد على الحسن بن سهل ، وعلى ولاته ، ثم اخرجوه من بغداد ، مستخفين باخيه الذي يحميه ، وبالخليفة الذي ولاه ، ولم يكن عند الحسن ، ما يستطيع معه ان يتصدى لهذه الثورة الطائشة ، والهياج العنيف الذي لا رفق فيه

زد على ذلك انه ضعيف ، وسيء الرأي ، والناس يبغضونه ويبغضون اخاه ..

فلجأ الى المدائن ، حتى اذا خاف ان يلحقوا به اليها ، هجرها الى واسط ،واقام بها مع القواد والجند ، الذين آثروا البقاء على عهده ، وهم يضعون خطة الدفاع

ومشت الفتنة في العاصمة .. وامتدت نارها ، حتى طغت على كل حي فيها من الغرب الى الشرق ، ومن الشمال الى الجنوب ، وقـــام رجال السوء ، وشذاذ الناس ، يزيدون هذه النار ضرماً .. ويفرضون ارادتهم على السكان الامنين ، لا يصغون الى شفاعة ، ولا يرحمون احداً ..

ثم امعنوا في التعدي ، واسرفوا في الجور .. يأخذون النساء والغلمان من الطرق ..! ويستأثرون ،بالاموال يجبونها من اصحابها بقوة السيف .! حتى ارتفعت اصوات الاستغاثة .. وملأت ولولة النساء وعويلهن الفضاء

وكان محمد بن ابي خالد ، احد القواد ، لا يحب الحسن ولا يطيق ان يكون هو الامير المسلط على ذلك الاقليم الرحب .

فتولى القيام بامر الناس ، ومشى الى واسط يريد حرب الوالي ، الذي خلع

فعرف طاهر بن الحسين ، وهو في طريقه الى كيسوم ، ان محمداً خرج الى قتال الرجل ، فوجه اليه ابنه ، عيسى بن محمـــد ، وكان في جيشه ليساعده فيما اقدم عليه

وعيسى من الابطال ، ومن خصوم بني سهل

فلما اجتمع بابيه ، انحدرا جميعاً الى واسط ، ففر الحسن منها الى مكان حصين غير بعيد وجعل يعد قواده وجنده ، للقتال

وكان الفضل بن الربيع ، قد ترك بغداد ، واستخفى عن الناس ، كما قرأت

ويظهر ان واسطاً وضواحيها ، كانت المخبأ الذي لجأ اليه

فلما رأى ان محمداً انتهى اليها ، طلب منه الامان ، فامنه ، فظهر ..

ولم يلبث الحسن ، حتي بعث بجنده للقاء العدو ، فـــاقتتلوا ، فجرح محمد ، ثم انهزم

فحمله احد بنيه الى داره في بغداد ، حيث اشتدت جراحه ، فمات .. وخلفه في قيادة الناس ابنه عيسى

والحسن يراسل اخاه ، ويطلعه على اخبار الفتنة والحرب ، واخوه يدفعه الى القسوة في رد الناس الى الطاعة ، ويدعوه ، من هذه الناحية ، الى تنجيد الرجال المخلصين له ، والى بذل المال ، من الناحية الاخرى ، لاخضاع المتمردين

واما المأمون ، فلم يصل اليه من بغداد ، غير الاخبار التي تطيب لها نفسه ..

ووزيره الفضل ، هو الذي ينقلها اليه

لقد كتمه كل شيء ، ولم يذكر له غير السياسة الرشيدة ، التي يسوس الحسن بها الناس ، وغير الهدؤ ، الذي يمد رواقه ، فوق الاقليم العراقي .!

والمأمون ، يثني على وزيره الامين ، الحكيم ، الذي احسن الى الدولة .! والى الرعية ، في اختيار اخيه للولاية في بغداد !!

وكان القوم قد خبروا الحسن ، ان الشذاذ واصحاب الفتنـــة ، انضموا الى عيسى بن محمد ، بعد توليه القيادة ، وبايعوه الى الطاعة

فعلم ، انه لا يستطيع ان يظفر به ، الا بالحيلة والاغراء ، وبريق الذهب ..

فبعث اليه بعض الخاصة ، يبذل له المصاهرة ، والامان له ولاهل بيته ، واهل بغداد ، وولاية اي النواحي احب ، ومائة الف دينار !!

وهي عطية ، لم يجد الرشيد بمثلها ، في ثورة البذل والعطاء ..

ولم يخطر للبرامكـــة ، وهم ينبوع الكرم ، ان يهبوها لامير ، او شاعر ، او صديق

فتراخي عيسي .. واستهوته الدنانير . فطلب ان يكتب المأمون كتاب

الامان بخطه .. ثم ارسل الى بغداد ، يقول لرجالها

اني مشغول بالحرب عن جباية الخراج ، فولوا رجلا من بني هاشم

فقال بعض الهاشميين للبعض الاخر :

لا نريد الا ان يكون لنا خليفة ، تؤيده البيعة ويسنده اعضاء البيت المالك وابناء الخلفاء

وعمدوا الى عم المأمون ، المنصور بن المهدي ، وهموا بان يبايعوه بالخلافة ويخلعوا ابن اخيه

فلم يقبل ، وقد كره ان يستعملوه لخصومة الخليفة ، وهو لا قبل له بخصومته :

فعرضوا عليه الامارة قائلين :

لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي ، الحسن بن سهل !

فرضي بهذا ، وتولى الامارة ، بعد ان سادت الفوضى، وهو يدعو المأمون ويقول :

اني خليفة امير المؤمنين حتى يجيء او يولي من يشاء

ولكن امارته ، امارة ضعيفة ،لا يحميها جيش ، وليس فيها من رجال الحرب غير فريق قليل ، لا يبرد الغليل

بلى ، كان جيشها هذه الطائفة من الشذاذ واللصوص، الذين كان يستعين بهم على امره !! وهم الذين يشكوهم الناس ، وقد نشروا الذعر في كل مكان

وعمت الفوضى .. وعجز ابن المهدي عن حفظ الامن ، فلم يبق ، الا ان يجمع كبار المدينة ووجوهها ، على امراخر ، ينقذون به الرعية من شر هذه الفئة الطاغية التي تحتمي بصاحب السلطان .!

واختاروا لهذه الغاية ، رجلين ، من كرام البلد ، وعهدوا اليهما في القضاء على الفساد ، والقائمين به

فجعل الاثنان ، يدعوان اهل الاحياء، الى ان يساعدوهما ، على الامربالمعروف والنهي عن المنكر ، وان يكونوا حرباً على هؤلاء اللصوص الذين نهبوا الاموال

وانتهكوا الحرمات

فاجابها الناس الى ما طلبا، فاشتدا على المفسدين وشهرا في وجوههم السيف ، حتى استقامت الحال ، وساد المدينة السلام والهدوء

وكان القواد والجند قد ملوا الحرب

ثم ورد على عيسى بن محمد ، كتاب الامان له ، ولاهل بغداد ، وكتاب اخر بعده الحسن فيه ، بانه سيعطي جنده اجر ستة اشهر كما انه سيعطي اصحاب المعاش اكثر بما لهم

فدخل عيسى بغداد ، وتفرق الجند ، ورضي الناس بهذا الصلح .. هذا مكره وهذا مختار .. وبقي الحسن في ضواحي واسط بعيداً عن العاصمة ، ونائبه فيها عيسى بن محمد

وشمل العفو العام ، جميع الذين اشتركوا في الثورة ، وتنكروا لامير المؤمنين

غير ان هذا السلام الذي ساد بغداد ، لم تتمتع الرعية ولم تهنأ به ، غير زمن قصير

ذلك لان المأمون ، استدعى الى مرو ، علي بن موسى : بن جعفر الصادق ، من سلالة الامام علي ، رضي الله عنه ، وهو الثامن من ائمة العلويين ، وجعله ، لغاية سياسية خاصة ، او لميله الى الشيعة ، ولياً للعهد ، لم يبال بكبير ولده العباس ، او باخوته ابناء الرشيد

وسماه الرضا من ال محمد

وانها لظاهرة من ظواهر تأثير البيئة في الرجال .

ان المأمون ، كان يؤثر الامام علياً ، على الخلفاء الراشدين الاخرين ، وهو مؤمن بانه احق بالخلافة منهم ، وكان الى تلك الساعة ، يرى الشيعة خيراً من بني العباس !

وقد يكون اختياره علياً لولاية عهده ، احدى حسنات الفضل بن سهل ..!

وقد يكون خدعه بقوله ، ان ولاية علي ، تخمد ثورة الشيعة في الاقاليم

نقول هذا ونحن نعتقد ، ان الفضل لا يتورع عن الالتجاء الى الخـــداع .. لتنفذ سياسته ، ويبلغ غايته

واصدر الخليفة امره الى عماله ، بان يأخذوا البيعة لولي عهده ، ويخلعوا الثياب السود ، شعار العباسيين ، ويلبسوا الثياب الخضر ، التي اختارها شعاراً للدولة

وبدأ هو ، فارتدى الثوب الاخضر ، واقتدى به المستشارون ، والقواد والجند

وانتهى الخبر الى الحسن بن سهل ، فكتب الى نائبه عيسى بن محمد في بغداد يقول له ..

لقد جعل امير المؤمنين ، علي بن موسى ، وليا للعهد من بعده ، وذلك لانه نظر الى بني العباس ، وبني علي ، فلم يجد افضل واعلم منه ، وقد سماه الرضا من آل محمد ، فاذا بلغك كتابي ، فاخلع السواد ، والبس الخضرة ، ومر من عنـدك من اصحابك والرؤساء والعامة ، وبني هاشم ، بالبيعة له ، وليخلعوا السـواد !

فتناول محمد الكتاب ، وقرأه على الناس ، وفيهم بنو هاشم !

فاجاب بعضهم ، وامتنع الاخرون ..

وجعل العباسيون يقولون :

لا والله ، لا نقضي على حقنا بالخلافة ، ولا يخرج هذا الامر من ولد العباس :

ومرت ايام ، وهم على الحال التي رأيت

حتى اجتمعوا اخيراً واظهروا العصيان ، وخلعوا المأمون ..

ثم اجمعوا على البيعة بالخلافة ، لعمه ابراهيم بن المهدي ، ولقبوه المبارك

وكان المطلب ، ابن صاحب شرطة الرشيد ، عبدالله بن مالك ، هو الذي تولى اخذ البيعة ، والسندي بن شاهك ، وصالح صاحب المصلى ، ونصير الوصيف ، هم الذين سعوا في هذا الامر ، وحملوا الناس على القبول به ، غضباً منهم على المأمون الذي ترك لباس ابائه ، واراد اخراج الخلافة من اهل بيته

ولقد ذكرنا ، في روايتنا السابقة ، اسد وكوثر ، ان ابراهيم بن المهدي ، الخليفة الجديد ، كان يحسن الغناء ، والموسيقى ، والشعر ، وكانت مجالسه كلهـــا مجالس طرب .. ولكنـــه لم يكن يحسن ادارة الملك ، ولم يكن على شيء من

الدربة السياسية والدهاء

واي شيء جرى بعد ذلك ؟

اشتعلت النار ، نار الحرب ، بين الجنود الذين بايعوا الخليفة المغتصب ، وبين جنود المأمون الخاضعين للحسن بن سهل ، اضطر الحسن ، بحكم هذا الانـــقلاب الذي قام به اهل بغداد ، الى البقاء في واسط ، بعيداً عن منطقة النار..

وكان عيسى بن محمد ، الذي تولى الامر في بغداد ، باسم الحسن ، قـــد خلع المأمون ، وانضم الى الصفوف التي مشت بركاب عمه ، يتبعه في ذلك ، بعض القواد بينهم ابن عائشة الهاشمي ، ونعيم بن خازم وغيرهما

وقد استطاع خليفة بغداد ، ان يستولي على الكوفة ، وارض السواد كلها وجعل المدائن مقراً له وللجيش الذي معه

ثم ولى ابن اخيه ، العباس بن الهادي ، الجانب الشرقي من المدينة ، واخـــاه اسحق الجانب الغربي ، ودانت له العاصمة

ولكن الفتنة في القرى ، وحول واسط ، لم تنم ، والحسن واصحابه متحصنون بالمدينة يخرجون منها الى قتال عيسى بن محمد ثم يرجعون

حتى تم النصر اخيراً للحسن ، وانهزم عيسى

وعلى الرغم من هذا النصر ، لم يترك جنود المأمون واسطاً ، بل كانوا يحفظون ما امامهم ، وما وراءهم ، وهم ينتظرون ، ان يرد عليهم من خراسان .. اي من الفضل بن سهل ، الامر الذي يجب ان يعملوا به .!

وكانت رسل الحسن ، تحمل اخبار الغرب الى الفضل في الشرق ، والمأمون غافل عن هؤلاء الرسل ، لا يصل اليه شيء من هذه الاخبـار ، ولم يبح له الفضل ، الا بامارة عمه ابراهيم ..

على انه لم يقل له ان القوم بايعوه بالخلافة ، بل زعم انهم جعلوه نائبـــاً لامير المؤمنين ، وتنكروا للحسن

والمأمون ، يصدق كل ما يقوله الفضل لا يراجعه فيه ، ولا تجد الريبة سبيلاً اليه

وبينا كان الخوف ، يملاء صدور اهل الغرب ، لا يغمض لهم جفن ، كان امير

المؤمنين ، ينام على فراش وثير ، من الطمأنينة والهناء ..!

والايام والشهور تمر ، والحال في بغداد وواسط ، والكوفة والمدائن ، على ما كانت عليه .!

٢٤

كان علي الرضا ، ولي العهد ، من اولئك الرجال ، الذين ينظرون الى الدنيا نظرهم الى متاع زائل لاخير فيه

فهو في ولاية العهد ، التي انتهت اليه ، لا يبالي بعظمتها وعظمة الخلافة بعدها ، وانما كان همه ، ان يروض نفسه ، على اللامبالاة بما يراه من مظاهر العزة والمجد ، وان ينقطع الى الصلاة في معظم لياليه :

انه رجل فضيلة وصلاح ، لا مطامع له ، والمبدأ الذي لا يحيد عنه ، هو ان يظل نقياً طاهراً لا يغش احداً ، ولا يخدع مسلماً حتى تأتي ساعته .

وكان يعتقد ، وهو يكبر المأمون ، باثنتين وعشرين سنة ، ان السياسة ، هي التي قضت على امير المؤمنين بأن يختاره للخلافة بعده

وقد تقضي عليه هذه السياسة بعد حين ، بان يندم على ما فعل .

وعندما كان الفضل ، يستقبل رسل اخيه الحسن ، ويقرأ كتبه في مخدعه لا يراها احد غيره ، كان ولي العهد ، يستقبل بعض قواد الجيش ، ويخلو بهم كل يوم مرتين ، وثلاث مرات .. فاذا خرجوا بان الهم على وجهه ، وخيل الى من يراه ، ان نفسه تضطرب في داخله ، وان الالم يسيطر عليه .

اجل ، لقد بدا علي الرضا ، مضطرباً مهموماً لا يستقر على حال ، ولا راحة له اذا جلس جلس بتعب ، وان مشى مشى بتعب .. واذا استلقى على فراشه فلكي يفكر في هذا الامر الخطير الذي ذكروه له .

افيطيب له العيش ، والهم يأكل ويشرب معه ، وهو يحس انه يخون واجبه ، ويخون ضميره ، اذا احتفظ بالسر ، ولم يبح به لامير المؤمنين

فخير له اذا ، ان يستأذن على المأمون ، ويخبره بما نقلوه اليه ، ولو غضب

وزيره ، فالامانة والاخلاص في نظره ، خير من ولاية العهد ، ومن الف وزير .

ودخل عليه فقال :

اذا اراد امير المؤمنين ان اخلو به ساعة.

فاجابه قائلا : نأذن لك يا ابا محمد في يوم كامل .

واومأ الى خدمه وغلمانه بان ينصرفوا ، وامر الحجاب بان يمنعوا الخاصة من الدخول حتى يأذن الناس ، ثم قال :

يظهر ان هنالك سراً من اسرار الخلافة ، ليس للفضل ان يعرف ما هو ..

ـ نعم وهو سر لا يصح السكوت عن الافضاء به الى امير المؤمنين

فاستند المأمون الى وسائده يصغي الى ولي عهده ، فقال علي :

ساذكر لك يا مولاي كل ما اعلم،لا اتحفظ في شيء لترى رأيك فيه،اتريدذلك؟

ـ : بل نامرك به

قال : ان بغداد في ثورة منذ قتل الامين ، وبنو العباس يستخفون بعاملك وهم الذين يوقدون النار .

قال : كان هوى هؤلاء في اخي ، فلما قتل ، ارادوا ان يثبتوا وجودهم بهذا الاستخفاف الذي ذكرت ...

ـ لا يا مولاي ، قلت ان في بغداد ثورة ، وهذا خطأ ، اذ كان يجب ان اقول : في بغداد حرب !

قال : حرب ؟ !

ـ نعم يا امير المؤمنين ، حرب يقتل فيها الشيخ والغلام ، والمرأة والطفل ، وتؤخذ فيها الاموال وتستباح الاعراض .!

ـ كان كل هذا بعد مقتل الامين ؟

ـ اجل ، ومنذ ذلك العهد الى اليوم ؛ لم تنطفيء النار ؛ الا عندما تولى الامر هرثمة بن اعين ، وطاهر بن الحسين

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ابعدت الاثنين يا مولاي ، هذا الى الرقة ؛ والاخر الى خراسان؛ واخترت

للولاية الحسن بن سهل ، فمدت النار السنتها من جديد ، وكادت تلتهم الكوفة ، والبصرة ، والحجاز ، ولو لم يظفر هرثمة بابي السرايا ، لخرجت البلاد من يد الوالي الذي استخفوا به

قال : اتقص علينا اخبار الماضي يا ابا محمد ؟

ـ ان هذه الاخبار ؛ التي مرّ عليها بعض الزمن يا اميرالمؤمنين؛ تتصل بالحاضر الذي نحن فيه .. ابلغك ان اهل بغداد جعلوا عمك المنصور بن المهدي اميراً عليهم بعد موت هرثمة ، وان الحسن لجأ الى المدائن ثم الى واسط ، خوفاً من الجماعة ؟

فدهش الخليفة وقال : عمنا المنصور .. يجلس في مقعد الامارة، ونحن لا نعلم ؟

ـ نعم يا امير المؤمنين وانت لا تعلم .. وكذلك لا تعلم ، ان عاصمة امير المؤمنين الرشيد ، امست في ذلك الحين ، نهباً لقطاع الطرق واللصوص ، ولولا رحمة الله لما بقي فيها حجرٌ على حجر ..

فاستوى في مجلسه ، وقلبه يرقص في صدره ، وجعل يقول :

من نقل اليك هذا يا ابا محمد ؟ انها حكايات لم يروها لنا احد من قبل

ـ سيعرف امير المؤمنين بعد لحظة ، ما ينبغي له ان يعرفه ..

قال : انا اسأل الفضل عن اقاليم الغرب فيقول لي : ليس في الغرب غير الرعايا الخاضعة لامير المؤمنين ، والمستسلمة للهدوء

ـ ان الغرب لم يعرف الهدوء ، منذ اربعة اعوام يا مولاي ، ويظهر ان الفضل لم يرد ان يعكر عليك هناءة العيش ..

فتململ على سريره من الغم ، وخفض صوته قائلا :

لم يرد ان يعكر علينا هناءة العيش .. وهل بقي شيء ؟

ـ بقيت اشياء يا مولاي ، اولها ولاية العهد

ـ ما شأن ولاية العهد فيما تحدثنا به ؟

ـ كان الناس في بغداد ، قد اجمعوا على حفظ الامن والضرب على ايدي المفسدين ، فلما اختارني امير المؤمنين لولاية عهده ، وامر بخلع الثياب السود ، انكر ذلك اعمامك وابناؤهم، وكرهوا ان يخرج هذا الامر من آل العباس..

- ثم ماذا ؟

- ثم خلعوك يا امير المؤمنين ، وبايعوا بالخلافة ، عمــك ابراهيم ، فدانت له الكوفة والسواد كله ، وولى العباس واسحق ، ولدي الهادي ، جانبي بغــداد ، واقام هو في المدائن مع حاشيته وجنوده ..

فابتسم عندئذ وقال : ان ابراهيم بويع بالامارة ، وليس بالخلافة ، وهذا مـا قصه علينا الفضل..

قال : اذا كان الفضل هو الذي قال ذلك ، فقد خدعك ، فالحرب اليوم قائمة بين ابراهيم ، والحسن بن سهل ، والناس لايعترفون بامارة الحسن ، ووزارة اخيه ، كما انهم لا يعترفون بي انا ولياً للعهد ، وهذا ما بلغني نقلته اليك

قال : من يعرف هذا في مرو ؟

- جماعة من القواد ووجوه الجيش ..

- سمّ بعضهم

- يحيي بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وموسى ، وعــلي بن ابي سعد ابن اخت الفضل ، وخلف المصري

فنادى حاجبه وقال له :

اين الفضل ؟

- عند ابيه سهل يا امير المؤمنين لانه مريض ، وهو في خطر

قال : ادعُ يحي بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وسمى له الآخرين ..

وما هي غير ساعة حتى امر بادخالهم ، فلما توسطوا المجلس ، قال ليحي قبل ان يأمرهم بالجلوس

تعرف ان ابراهيم بن المهدي بويع بالخلافة في بغداد ، ولا تخبر امير المؤمنين ؟

- وهل اجسر على هذا يا مولاي ، والفضل في بلاطك ؟

- وماذا يصنع الفضل ؟

- ان امير المؤمنين ادرى بما يصنع ، فان شئت فاضمن لنا الامان منه ..

قال : ضمنا ذلك

قال : اكتب لنا هذا الضمان بخطك ..

ففعل ، فقال يحي :

مر الان بما تشاء

قال : ابويع ابراهيم كما قال ابو محمد ؟

— نعم يا امير المؤمنين ، وسمّوه الخليفة السنّي ..

— والفضل يعرف ذلك ؟

— ان اخاه الحسن ، يصف له حال العراق كما هي فهـــو يعرف كل شيء

— ولمـــاذا كتمنا الامر ؟

— لان في هذا الكتمان ، نفوذه ونفوذ اخيه .. ولعله اراد في هذه المرة ، ان فعل ما فعله في المرة الاولى ، يوم جاء اليك هرثمة ، رحمه الله

قال : دخل هرثمة مرو كما يدخل الفاتحون والطبول تضرب بين يديه ، وكنا قد كتبنا اليه اكثر من مرة ، ليذهب الى الشام ، فلم يسمع لنا

قال : لم يكن في جيش امير المؤمنين ، رجل اكثر اخلاصا واصدق طاعة من هرثمة ، انه سمع واطاع .. ولكنه اراد ان يأتي مرو ، ليطلعك على اخبار بغداد ، وما حدثه به بنو العباس ، ويلتمس منك ، ان تنتقل الى عاصمة ملكك ، قبل ان ينتهي الامر الى ما لا تحب

— وتلك الطبول التي ضربت له ؟

— لقد خاف يا مولاي ان يكتمك الفضل خبر قـــدومه ، فامر بان تضرب لتسمعها انت .. ولولا هذه الطبول لما عرفت انه في مرو .. نعم يا امير المؤمنين .. اتاك الرجل ناصحاً فقتله الفضل في السجن ، وقد يكون لوزيرك من كتمانه اخبار بغداد ، غرض آخر لا ادري ما هو ..

فقال لعبد العزيز بن عمران :

اسمعت ما قاله يحيي ؟

— نعم يا امير المؤمنين

— وهذا ما تعرفه انت ؟

ـ نعم ، ويعرفه مثلي هؤلاء ، وبعض الضباط في الجيش

ـ وكيف عرفتموه ؟

ـ خبرنا به جنديان قدما من بغداد يحملان الى الفضل رسالة من الحسن

ـ وماذا يقول الناس في العراق ؟

ـ يقولون ان طـــاهر بن الحسين ، ابلى في طاعتك فاخرج من الامر كله ، وجعل في الرقة لا يستعان به في شيء ، ولو كان في بغـــداد ، لحفظ الملك .. ثم قال :

فنسألك الان يا امير المؤمنين ، ان تترك خراسان ، وتسير الى مدينة ابائك ، فان اهلك والموالي ، والقواد ، لو رأوك لاطاعوك

فتنهد قائلا : اذن ففي البلاد خليفتان .. المأمون في الشرق ، وابراهيم في الغرب .. ومن يعلم ، فقد ينبت انا خليفة آخر في ارض مصر .. قوموا فانصرفوا فسنأمر غداً بالرحيل الى مدينة الاباء والاجداد

وبعد ساعة ، كان الفضل بين يديه ، فقال له :

لقد عولنا على المسير الى بغداد ، فتهيأ ، واعدّ انت ما نحتاج اليه

فبغت وقال : الا نمكث شهراً آخر يا امير المؤمنين ؟

ـ وما الذي يدعونا الى ذلك ؟

ـ قضية اختيار عاملك في خراسان ..

ـ لقد اخترنا هذا العامل وسنوليه

ـ من هو يا مولاي ؟

ـ غسان بن عبادة .. ابن عمك الا ترى ما رأيناه

قال : يرى العبد ما يراه مولاه .. ولكن المسير الى بغـــداد اليوم ، امر لم افكر فيه .. !

ـ ذلك لانك لا تعلم ماذا يجري في عاصمة الرشيد .. نريد ان نزور امـــير المؤمنين عمنا ابراهيم بن المهدي ونهنئه بالخلافة .. ! !

فقال وهو يتجاهل : ابايعوه

قال : عجباً ، يخلع اهل العراق المأمون . وينادون بابراهيم خليفة لهم ، ولا يكتب اليك اخوك الحسن شيئاً من هذا ؟!

– كتب الي يا امير المؤمنين ، انهم جعلوا ابراهيم اميراً ، وخلعوا الحسن ، وقد خبرتك

– واين هو الحسن اليوم

– في واسط يا مولاي

– اذن فالناس الذين يحملون اليه اخبار بغداد ، ذكروا له امارة ابراهيم ولم يذكروا خلافته ...

قال : ايجوز لي ان اسأل امير المؤمنين كيف اتصل به خبر البيعة ؟

– وهل تظن ان الخليفة ليس له من يأتيه باخبار شعبه وبلاده ؟. ان الذين يتحدثون بهذا الامر ، في مرو ، كثيرون .

فادرك ان الخليفة لا يريد ان يزيد كلمة على ما قال ، فسكت ، وسكت المأمون ، ثم قام فغادر مجلسه الى الشرفة الكبرى ، المطلة على المدينة ، ولم يلبث حتى دخل القصر ، وجعل يتمشى في جناحه الخاص ، والغلمان يرون دلائل الغم على وجهه ...

اعتذر الفضل لامير المؤمنين ، مساء ذلك اليوم ، عن الخروج معه الى الصلاة بسبب مرض ابيه .

والمأمون يعلم ، ان سهلا ، الذي جاوز الثمانين ، يصارع الموت

فذهب مع الخاصة يصلي

فلما امسى في المسجد ، دعا الفضل حاجباً من حجاب المأمون يثق به ، وقال له

من دخل على امير المؤمنين عند الصباح

فلم يجب

فاعاد سؤاله بشيء من الجفاء ، فقال :

ارجو من سيدي الوزير ان يسأل غيري فانا لا اعلم .

- بل تعلم ، فلا تعتذر ولا تتردد في الجواب

قال : اخشى ان يغضب امير المؤمنين ، فتذهب حياتي .

- وهل قال لك احد ، ان الفضل بن سهل ، لا يستطيع ان يحميك ؟ . قل ما تعلم ولا تخف ، وهذه الف درهم تستعين بها على امرك

فلما رأى المال ، اضمحل خوفه وقال :

دخل عليه ولي العهد ، علي الرضا

- ومن كان معه ؟

- لم يكن معه احد ، وقد امرنا الخليفة بان نمنع الخاصة من الدخول

- ومتى انصرف علي ؟

- لم ينصرف الا بعد اجتماع امير المؤمنين ،بيحي بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وموسى ، وعلي بن ابي سعيد ، ابن اختك ، وخلف المصري

- وكيف اذن لهم ؟

- انه هو الذي دعاهم اليه ، ثم خرج الجميع بعد ساعة .. ثم اقبلت انت .

قال : هذه الف درهم اخرى فاحذر ان تقول لاحد اني سألتك عن شيء ودخل الخادم ابيه

فلما اقبل الليل ، عاد الى المجلس ، وعند المأمون علي الرضـا ، وغسان بن عبادة فاستدناه الخليفة وجعل يسأله عن ابيه

ثم امعن في الدهاء فقال له :

لقد رأينا امس ان نرحل الى بغداد ، ونحن نعهد اليك الان في اعـداد العدة ، والنظر فيما يحتاج اليه بيت الخلافة في الرحيل

- سأبدأ بذلك غداً يا امير المؤمنين

- وما رأيك في رجل نجعله خليفتنا في خراسان ؟

- ان هوى امير المؤمنين في هذا قوله ان شئت

واومأ الى ابن عبادة

– اذن فاكتب له العهد ، واعطه ثلاثة الاف دينار ينفقهـــا في حاجاته ريثما يجبي الخراج .

– سافعل يا مولاي

– وانت يا ابا محمد ، الا تطيب لك الاقامة على شاطيء دجلة في بغداد ؟

– اقيم حيث يقيم امير المؤمنين ، وحسبي من الدنيا رضاه

وباتوا يتحدثون حتى دب النعاس في جفون الخليفة فاستأذن الثلاثة وخرجوا ثم مشوا الى منازلهم ليستسلموا للكرى

الا الفضل ، فقد امر باحضار يحي بن معاذ ورفاقه

وجعل في مخدع قريب من مجلسه ، ثمانية من رجال الشرطة يحملون السياط فلما دخلوا عليه قال ليحي :

جعلناك في مرو ، من قواد الخلافة ، لتكون عيناً علينا ، تنقل ما يحد ثنا به الناس الى امير المؤمنين ؟!

قال : اما اني انقل الى امير المؤمنين ، ما يقوله لك الناس ، فهذا لم اتعوده ولم يخطر لي ، واما انك جعلتني قائداً من قواد الخلافة ، فامر لاعلم لي به لان هذه القيادة توليتها ايام الرشيد ، وفي جسمي اكثر من ثلاثين جرحاً تشهد لي

– الست القائل لامير المؤمنين ، ان ابراهيم بن المهدي ، بويع بالخلافة في بغداد؟

– بلى ، امرني ان اذكر له ما اعلم ففعلت ، ولم اكن قادراً على الرفض

– ومن قال له انك تعلم ؟

– ليس لي ان اسأله عن ذلك

– وانت يا ابن عمران ، من حدثك بحديث الفتنة والبيعة ؟

– عرفتها كما يعرفها غيري من وجوه الجند

– ممن ؟

– لا اذكر ، فلما دعاني الخليفة اليه ، وسألني عن ذلك ، بحت له بكل شيء

– وتظن ان خبر البيعة بالخلافة ، خبر صحيح ؟

- ما في ذلك شك يا سيدي الوزير ، والمأمون قد خلع

فاطل عندئذ رجال الشرطة ، وسياطهم في الايدي ..

فامرهم الفضل بان يضربوا الجماعة ، فهوت السياط ، حتى ارتوت نفس الوزير المطمأنة الى الانتقام

فغدا ولي العهد ، على امير المؤمنين ، في صباح اليوم الثاني ، وقال له :

ألم تؤمن ابن معاذ ورفاقه ، من غضب الفضل يا مولانا ؟

- بلى ، فماذا جرى ؟

- دعاهم الوزير بعد انصرافه من مجلسك ، في الليل الذي مضى ، وامر رجاله فضربوهم بالسياط ، ثم بعث ببعضهم الى السجن

فجعل يهزّ رأسه ويقول : انا نداري ما نحن فيه .. أتريد يا ابا محمد ان نأمر ضرب الفضل كما فعل بالاخرين ، وهو مستشار الخلافة ، والوزير القائم بالامر ؟ ! ان امير المؤمنين لا يؤدب وزيره من اجل هذا ...

وقام فامر خاصته وقواده وخدمه ، ونساءه بالرحيل ..

وكان يبتسم للفضل كلما رآه ، وكانه لا يعرف شيئاً مما جرى امس

ثم دعا غسان بن عبادة ، فقال له :

هل اعطاك الفضل ثلاثة الاف دينار ؟

- قال لي انه سيعطينيها اليوم

- اذهب وخذها منه الساعة وليكتب لك عهد الولاية ، واعلم ان خراسان هي البلد الامين ، الذي مشى وراء امير المؤمنين ، في حروب الخلافة ، وجاد بدماء بنيه من اجل العرش .. فاذا وليناك امره ، فلاننا نعلم انك لا تجفو ولا تجور .. وانت ترى ان لكبار مرو ، مكانة وحرمة ، فاحفظهما ، كما حفظناهما نحن ولا تجعل للقوم سبيلا الى الشكوى

قال : سأكون عند حسن ظن امير المؤمنين ان شاء الله

- ولا تضعف عندما يحتاج الامر الى القوة ، واوص رجالك بان يعمدوا الى اللين في الجباية . واعط الناس عطاءهم لا تتردد فيه ، وابعث بريدك كل شهر ..

اخرج فانت الامير منذ الان

فقبل غسان رداءه ، وهو لا يصدق انه اصبح سيد خراسان

ونادى المنادي بعد ثلاثة ايام : الى الرحيل

فتهيأ الناس .. ثم ركب الخليفة راحلته ، وركبوا ، وتقدمه بعد القواد والجند،والى جانبه الفضل على ناقته ، والمأمون ، يكثر على غير عادته من الكلام كما يكثر من الابتسام ، حتى اتوا بلدا يقال له سرخس ، فنزلوه عند الظهر

فلما كان المساء ، دخل الفضل الحمام ، وهو يعجب لتعجل الخليفة في المسير الى بغداد ، ولا يستحسن ان يسأله مرة اخري عن السبب

على انه كان مؤمنا ، بانه سيستطيع في بغداد ،كما استطاع في مرو ، ان يفرض ارادته في جميع مصالح الدولة لا يراجعه امير المؤمنين فيما يصنع .. ولا يسأله عما صنع ..

نعم ، لقد كتمه خبر خلافة ابراهيم بن المهدي ، ولكن هذا الكتمان ، لم يكن لمصلحته ، او لغاية خاصة له ، وانما فعل ذلك ، ليظل الخليفة مطمئناً الى السلام يسود بلاده .. وهو، اي الفضل ، قادر على اخضاع ابراهيم عندما يشاء ؛ واخضاع العباسيين جميعهم لامير المؤمنين ..

فكر في هذا ، وهو في حمامه ، وسيكون هذا عذره ، اذا عتبه المأمون على ما كان منه

وقبل ان يرتدي ثيابه ، تحطم باب الحمام ، ودخل اربعة رجال ، من خدم امير المؤمنين .. هم غالب المسعودي الاسود و وقسطنطين الرومي ، وفرج الديلمي ، وموفق الصقلبي،وجعلوا يضربونه بسيوفهم حتى قتل دون ان يستنجد او يستغيث..

ثم هربوا يطويهم الليل ..

وبعد ساعة ، قال المأمون للحرس القائمين الباب :

لقد ترك الفضل مجلسنا عند غروب الشمس ولم يعد ، فانظروا في اي مكان هو لاننا بحاجة اليه ..

ثم قال لولي عهده :

دعونا الفضل ، ليكتب الليلة الى اخيه الحسن ، ان امير المؤمنين في طريقه الى بغداد وكان عليه ان يفعل دون ان نقول له

قال : اذا اراد امير المؤمنين ان اكون كاتبه الليلة ..

فابتسم قائلا : كتاب الخلافة كثيرون كما تعلم .. ولكننا لا نحب ان تخرج من الديوان ، رسالة واحدة لا يكون للفضل رأي فيها ، فهو الذي يقوم بشؤون الدولة وقد سميناه ذا الرياستين ، رياسة القـــلم ورياسة الحرب لتكون الكلمة الاخيرة له في الامرين ..! لحظة اخرى فيحضر ، ويكتب ما يشاء ..

وانتهت هذه اللحظة .. فاقبل احد الحراس يقول :

لقد ذهب الفضل يا امير المؤمنين ، ولن يرجع

فاهتز ولي العهد في مقعده ..

اما المأمون فقد اصفر وجهه وجعل يقول : ويلك اين هو ؟!

— قلت انه ذهب الى العالم الآخر يا مولاي

— مات !! ؟

لم يمت حتف انفه ، ولكنه قتل وقد شوهته السيوف ..

— هنا .. في دار امير المؤمنين ؟!

— لا يا مولاي بل في البيت الذي نزل فيه وقد قتل في حمامه ..

فمشى الى باب القاعة يتبعه علي الرضا ..

وامر فحضر صاحب الشرطة والقواد ، وبعض كبار الجنـــد .. فرفع صوته قائلا :

ان وزيرنا الفضل وجد قتيلا في داره هذا المساء ، فهل يعرف احدكم قاتله ؟

فقال صاحب الشرطة : ما عرفنا انه قتل يا امير المؤمنين الا الان ، ولم يخطر لاحد منا ان يداً اثيمة تمتد اليه

— وانتم ايها القواد ؟

— لم نعلم شيئاً يا امير المؤمنين ..

قال : لقد جعلنا لمن يجيء بالقاتل عشرة الاف دينار لا تنقص

فقال العباس بن الهيثم :

كنت خارجاً من المسجد يا مولاي ، فرأيت اربعة رجـــال يركضون في الجانب الغربي منه ، وقد منعني الظلام من ان اتبين الوجوه ..

= ولكنك ظننت على الاقل .. فمن هم ؟

- لا والله لا ادري من هم يا امير المؤمنين ، ولكني سأسير في اثرهم الليلة

قال : افعل ولك جائزتك

ثم قال للاخرين :

اما انتم فليقم كل واحد منكم بما يجب ، فامير المؤمنين سيبقى في هذا البلد حتى يقبض على المجرمين .. اذهبوا ، وبثوا عيونكم واستعينوا بالحيـــلة وبالقوة ليتم لكم الامر ..

ورجع الى مجلسه ، ويده على كتف علي الرضا وهو يقول له :

لم نكن نظن ، ان في خراسان كلها عدواً واحداً للفضل بن سهل .. لقـــد راينا الناس جميعهم يحبونه ، وسمعناهم يشكرون له عمله وفضله .. اترى ان احداً من اهل هرثمة بن اعين فعل ذلك ؟.

- ليس للراحل اهل في خراسان يا امير المؤمنين

- الم تقل لنا ان القتيل امر بضرب يحي بن معاذ ومن معه ، ولم يبال بالضمان الذي كتبناه لهم ؟

- بلى يا امير المؤمنين ، وقد رأيت اثار السياط

- اذن فقد يكون هؤلاء الرجال هم الذين اقدموا على الجريمة ..

- لااظن ان واحداً منهم يعمد الى الغدر.. فاذا اراد امير المؤمنين فلينتظر رجوع العباس بن الهيثم فقد يساعده الحظ

قال : مسكين الفضل .. قتل قبل ان يقوم بالامر في بغداد ، وقبـــل ان يلمس بنو العباس ، حكمته في السياسة وادارة الملك.. سنشيع جثمانه غـــداً .. مسكين ، كان عمره قصيراً في وزارته ، ولو عاش لظل وزيراً ما بقينا ..

وبات علي الرضا يحادثه ، حتى اذن له في الانصراف .

وكان الاثنان ، يفكران في هذا القتيل المخضب بدمه .. وفي عظمته التي لم تعش ..

وقد زاد ولي العهد زهداً في هذه الدنيا الزائلة ، التي لا تصفو لاحد ..

***

مثل العباس بين يدي المأمون وقال له :

جئتك بالرجال الذين قتلوا الفضل يا امير المؤمنين

– كم هم ؟

– اربعة يا مولاي .. وذكر اسماءهم له ..

– واين لقيتهم ؟

– في كوخ لعجوز في آخر البلد

– وكم كان رجالك ؟

– ثمانية ولكني جعلت أهل البلد عيوناً لي

– وهل اعترفوا لك ؟

– اعترفت سيوفهم وثيابهم يامولاي ، ولما سألتهم عما فعلوا ، انكروا فلم الحّ في السؤال

قال : احضرهم الساعة ولا يدخل علينا احد

فدخلوا ، والطمأنينة في العيون ، فكأنهم كانوا مؤمنين بان حكم الخليفة عليهم سيكون العفو ..

وحفظت الابواب ، فقال لهم :

من قتل الفضل بن سهل ؟

فقال غالب الاسود : نحن قتلناه يا امير المؤمنين !

– ومن دفعكم الى ذلك ؟

ـ ابن اخته علي بن ابي سعيد

فقال فرج الديلمي، يعلم امير المؤمنين ان عليا لم يكن له يد في هذا.

ـ ومن اذاً ؟

فنظر الى ابن الهيثم ثم الى المأمون ولم يجب

فانتهره قائلا : يسألك امير المؤمنين فتسكت ؟

فقال العباس : تكلم ولا تخف شيئاً

قال : ان الذي امرنا بقتله .. اعظم رجل .. في الاسلام !

ـ من هو ؟

ـ أأقول وانا آمن ؟

فقال الخليفة قل ولا تشترط

ـ الم تأمرنا يا امير المؤمنين .. بقتل الرجل .!

فارتجفت شفتاه وكانت يده التي تعبث بلحيته ، تضطرب وتهتز .

ثم قال للعباس :

ليحضر عبد العزيز بن عمران ، وموسى وعلي بن ابي سعيد ، وخلف المصري، وخذ هؤلاء الاربعة ، فاضرب اعناقهم !!

فقال قسطنطين الرومي : كلمة يا امير المؤمنين

قال : اذهب يا ابن الهيثم وافعل ما امرناك به

وحول وجهه كانه لا يريد ان تقع عينه ، على المجرمين الذين يغتالون الابرياء..

فدفعهم العباس امامه ، وهم مقيدون

ولم يلبث عبد العزيز ورفاقه الثلاثة حتى دخلوا وسلموا ، وهم لا يعلمون ما هي الغاية من هذا الطلب

وقد وقف الحرس بالباب ، كما فعلوا منذ ساعة

فقال لعبد العزيز وهو يرفع صوته ، ليسمعه الحرس ، ورجال البلاط :

لقد احسنت يا ابن عمران فيما فعلت ، ولم تنم على ذل !

ـ في اي شيء يا امير المؤمنين ؟

– في اتفاقك مع ابن ابي سعيد هذا ، وانتقامك لنفسك !
– ممن يا مولاي ؟
– من الفضل بن سهل الذي امر بضربك
انا يا امير المؤمنين ؟
– اجل وقد يكون يحي بن معاذ شريكا لك
قال : عرفت الان ان العباس بن الهيثم اتاك بالقتلى ، واعترفوا لك ، وستضرب اعناقهم أفاكون انا القاتل
– لا ولكنك مع هؤلاء الرجال ، دفعتم الجماعة .
وامر بقتلهم !
فقال علي بن ابي سعيد : لا تقتل الابرياء يا امير المؤمنين فوالله الذي رفعك الى هذا السرير لم ادفع احداً ولم افكر في الانتقام
فاومأ الى الحرس بان يذهبوا بهم
وبعد ساعة كان الرجال الثمانية جثثاً بدون رؤوس !
ثم امر لابن الهيثم ، بعشرة الاف دينار ، وكتب الى الحسن بن سهل
لقد قتل اخوك الفضل منذ ثلاث ليـال في سرخس وهذه رؤوس الذين قتلوه بعثنا بها اليك ، فامير المؤمنين ، الذي اكبر المصيبة بوزيره الامين ، يعزيك ويدعوك الى الصبر . وستقوم انت بمنصب الوزارة بعد القتيل رحمه الله .
ووضعت الرؤوس في الاوعية .! وارسلت الى الحسن ، الذي كان جيشه في قتال دائم ، مع جيش خليفة بغداد ، ولم ينس ان يقول له انه ترك مرو الى العراق
نعم ، كتب المامون كتابه ، وقد غسل يديه من دم الفضـل .. ولكنه لم يستطع ان يغسلهما من دماء الرجال ، الذين جعل رؤوسهم هدية او تعزية للحسن .
على ان التاريخ ، الذي له عينان تنظران ، لم يرحم الخليفة الذي تجاهل الامر وتظاهر بالبراءة ، بل جعله المجرم الذي امر باغتيال وزيره ، وحـاول ان يخفي بالقتل ، جريمة القتل ! !
ضرب اعناق الكثيرين من رجاله ، ليقول الناس ، ان امير المؤمنين ، لم يشأ الا ان ينزل القصاص بجميع الذين اشتركوا في الجناية

اجل ، ان الخليفة نفسه هو القاتل .. وكل امير ، او ملك ، او خليفة ، ينفرد في الحكم ، ولا رقيب عليه من الامة ، هو « مكيافلي » ، يحطم ويهدم ، ويذبح اذا قدر ، وعلى عباد الله جميعهم ان يكونوا عبيداً له ! !

ومن يحاسب الخليفة اذا اخطأ ؟ ان الله وحده عز وجل ، هو الذي يسأله يوم الدين ، عما فعل

ويظهر ، ان الملوك المستبدين ، والخلفاء، كانوا يعتقدون ان اخذ الارواح ليس حراماً .. وان لهم ان يفعلوا بالبريء، ما يفعلونه بالمجرم ، او انهم – وهم اصحاب السلطان الذي ليس له حد – لم يكونوا يخافون الله ..

واغرب من هذا كله .. انهم يضربون الرقاب، وينظرون الى الرؤوس المقطوعة واللحى المخضبة بالدم ، كما ينظرون الى اشياء الفتها العين !!

وكل من يقرأ التاريخ العربي ، والكتب التي وضعها العالمان « ميور وبرون » وزملاؤهما المستشرقون ، يرى ان المأمون ، هذا الخليفة العظيم ، الذي ارتفع في خلقه ، وادب نفسه ، وسعة صدره وعفوه ، الى الذروة ، وكان في خلافته نصيراً للادب والعلم ، وبعيد الاثر في الكرم والبذل للشعراء والندماء حتى قيل انـــه اكثر جوداً من ابيه الرشيد ، وحتى ملأ صيته بلاد الروم وبلاد العرب ..

ان من يقرأ التاريخ ، يرى – ان هذا الخليفة ، هو الذي دفع رجـــال حاشيته الى القتل ! !

على ان هذا القتل ، كان في نظره حلالا كما ذكرنا لك ..

لقد خدعه الفضل وغشه ، وقص عليه الا كاذيب التي كاد يضيع معها الملك ولم يبح له بذلك الحدث الخطير الذي يتعلق مباشرة بالعرش ..

وهو الذي اوغر صدره على هرثمة بن اعين ، الذي قدم مرو لينصح له بالمسير الى بغداد ، ثم ارسل من قتله في سجنه

فعل كل ذلك ، وهو ساكت .. لم يقل لمولاه كلمة ، ولم يخطر له ان يستشيره ويسأله رأيه في الامر .. فاحس ، اي المأمون ، وهو سيد العرب جميعها ، ان يد الفضل ثقلت عليه .. وانه جاوز حده في التدلل .. وان انقياده واصغاءه اليه ،

جملا بني هاشم جميعهم خصوماً له ، حتى تجرأوا فخلعوه وبايعوا ابراهيم ، و فجعل يفكر في الوسيلة التي تنقذه منه فلم يجد منقذا غير الموت .. ! ففي الموت راحة الاثنين ..

وهذا هو الامر ، الذي اقدم عليه ابوه ، وجده ، وجد ابيـــه ، مع الوزراء والمقربين ..

• • •

كان الفضل بن سهل ، كما قرأت في الاجزاء السابقة ، رجلا ذكياً ذا دهـــاء وسياسة وحذق ، وهو الوزير الذي ، دلت حياته القصيرة في الوزارة ، على انـه الاداري الحكيم ، البعيد النظر ، الذي خلق ليسوس الشعوب ويدير الدول

وعرفت انه فارسي ، ومن رجال جعفر البرمكي

اما الان ، فنحن نعطيك صورة تـكاد تكون كاملة ، عن هـــذه الشخصية السياسية التي كان لها مقامها ومنزلتها في عهد المأمون ، ونذكر لك باختصار مـــا يقوله عنها المؤرخون

عندما اراد جعفر ، ان يجعل الفضل من رجال المأمون ، وهو ولي عهد، وصفه الرشيد ، وزيره الا كبر يحي بن خالد ، واطال الوصف ، فقال الرشيد :

مره بان يحضر لنراه

فلما دخل ادركته الحيرة وسكت ..

فنظر الرشيد الى يحي نظر منكر لاختياره رجلاً مثل هذا

فقال الفضل : يا امير المؤمنين ، ان من اعدل الشواهد على فراهة المملوك ان تملك قلبه هيبة سيده

فقال : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام فلقد احسنت ، وان كان بديهة انه لاحسن واحسن ..

ولم يسأله بعد ذلك عن شيء الا اجابه بما يصدق وصف يحي له

ويقول الفخري :

ان دولة بني سهل ، هي مختصر الدولة البرمكية ، ولا غرو اذا كانت غرة في جبين الدهر ، ودرة على مفرق العصر

وذكر ابو عثمان ، الجاحظ ، وهو احد رجال البيان والادب،في دولةالمأمون:

ان جعفراً الضبي ، وصف الفضل بن سهل بقوله :

ايها الامير ، اسكتني عن وصفك ، تساوي افعالك في السؤدد ، وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس الى ذكر جميعها سبيل وان اردت وصف واحدة منهـــا اعترضت اختها اذ لم تكن الاولى احق بالذكر ولست اصفها الا باظهار العجز عن الوصف ..

وروى ابن طباطبا في الاداب السلطانية :

ان الفضل كان سخياً كريماً يجاري البرامكة في الجود ، شديد العقوبة ، سهل الانعطاف ، بليغاً حليما عالماً بآداب الملوك ، وكان يقال له الوزير الامير

وكان الرجل كثير الشبه باساتذته البرامكة ، يناصر الشعر ، ويشجع الشعراء ويعطيهم ، وكنت تراهم ببابه ، وفي مجلسه ، قبل ان يرتفع الى منصب الوزارة وقد قال فيه مسلم بن الوليد ، وكان من ندمائه .

وقائـــل ليس له همة	كلا ولكن ليس لي حـــال
وهمـــة المقتر امنية	عون على الدهر واثقـــال
لاجدة ينهض عزمي بها	والنـــاس سؤال وبخـــال
فاصبرعلى الدهر الى دولة	يرفـــع فيها حالك الحـــال

ويقول الفخري :

ان الفضل لما ارتفعت حاله ، وتولى الوزارة ، اتاه مسلم بن الوليد ، فلمـــا رآه سر به وقال له :

هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال .

وامر له بثلاثين الف درهم ، وولاه البريد في جرجان ، فجمع المال الكثير

وقال ابن خلكان :

قال الفضل يوماً لثمامة بن الاشرس :

ما ادري ما اصنع بطلاب الحاجات ، فقد كثروا علي واضجروني ، فقال له :

تنحّ عن موضعك في الوزارة ، وانا اضمن لك انه لا يلقاك احد بعد ذلك

فاجابه قائلا : صدقت ، وجعل يجلس لقضاء الحاجات ، ويطيل جلوسه .

وكان قد مرض في خراسان واشرف على التلف ، فلما عادت اليه العافية ، جلس للناس فدخلوا عليه ، وهنأوه بالسلامة ، واكثروا القول

فلما انتهوا قال لهم :

ان في العلل لنعما لا ينبغي للعقلاء ان يجهلوها : تمحص الذنوب والتعرض لثواب الصبر ، والايقاظ من الغفلة ، الاذكار بالنعمة في حال الصحة ، واستدعاء التوبة والحض على الصدقة .

واصيب بابن له يقال له العباس ، فجزع عليه اشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى ، بن جعفر شقيق علي الرضا ولي العهد ، وانشده

خير من العباس اجرك بعده　　　والله خير منك للعباس

وقال مسلم بن الوليد من قصيدة :

لو نطق الناس او انئوا بعلمهم　　　ونبأت عن معالي دهرك الكتب

لم يبلغوا منك ادنى ما يمت بـه　　　اذا تفاخرت الاملاك وانتسبوا

فامر له عن كل بيت من قصيدته بالف درهم

والفريق الكبير من الشعراء ، مدحوا الفضل ، واخذوا الجوائز والصلات ..

وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصولي :

للفضل بن سهل يـد　　　تقاصر عنهـا المثل

فنائلهـا للغنى　　　وسطوتها للاجل

وباطنهـا للندى　　　وظاهرها للقبل

وقد اخذ ابن الرومي من قول الصولي هذا ، شعره الذي قـاله في الوزير القاسم بن عبدالله وقد جاء فيه

اصبحت بين خصاصة وتجمـل　　　والحر بينهما يموت هزيـلا

فامدد الي يداً تعود بطنهـــا بذل النوال وظهرهـــا التقبيلا

وفيه يقول شاعر اخر

لعمرك ما الاشراف في كل بلدة وان عظموا للفضل الا صنائـــع

ترى عظماء الناس للفضل خشعاً اذا ما بدا والفضل لله خـــاشع

تواضع لمـــا زاده الله رفعة وكل جليل عنده متواضـــع

وقد ترك في نفس المـــأمون ، شيئاً من الحسد والحقد ، هذا الشعر الذي قيل في الحسن :

اقمت خلافة وازلت اخرى جليل ما اقمت وما ازلتا

وانا لنرى ، ان معظم الشعراء الذين مدحوا البرامكـة هم الذين مدحوا آل سهل وقد يكون هذا المديح المستمر ، سبباً من الاسباب التي اوغرت صدر المامون على الفضل .

٢٥

بلغ جيش طاهر ضواحي كيسوم ، وضرب خيامه في سهل مكشوف ، ثم احاطها بنطاق من الخفراء والحرس

ولم يكن يحتاج الى ارسال الطلائع ليتبين مواقف العدو ، ومناعة المكان الذي ينزل فيه

ذلك لان نصر بن شبث ، كان قريباً منه في خط ينحرف قليلا الى الغرب ، وقد وقف بسلاحه مع العشائر التي انضمت اليه

وبين الجيشين رقعة من الارض ليست اكثر من ثلاثة الاف ذراع

ونصر يظن ، ان طاهرا سيبعث اليه بكتاب يدعوه فيه الى التسليم ، ولكن هذا الكتاب لم يصل ، وقد عرف طـــاهر ، جواب الرجل عن رسالته الاولى

فلم يبق له ما يكتبه اليه

والاثنان ، يعقدان مجالس الشورى ، ويتحفزان للوثوب

وكان اركان الحرب في جيش الخلافة ، يرون ان يهاجموا عدوهم في ظلام الليل من الامام والوراء ، ويضعوا النار في منازله فيدب الذعر في الصفوف ، ثم تخور القوى في الدفاع ، فيلقي رجال العشائر سلاحهم ، ويعمد رجال نصر ، بنو عقيل، الى الفرار

وصاحب هذا الرأي ، الحسين بن عمر الرستمي ، وهو من الرؤساء

وقد حاول اقناع طاهر ، لتكون معركة الليل ، هي الاولى والاخيرة ، مع جيش نصر ، الكثير العدد

غير ان طاهراً لم يصغ اليه ، وكان يقول :

هذا غدر ، وانا لم اغدر بعدو مذ حملت السيف

قال : نحن في حرب ، ومن حقنا ان نخدع عدونا ؛ ونأخذه كما نشاء

ـ وكيف تاخذ هذا العدو من الوراء ، وفرسانه يحفظون السهل ، ويحمون المؤخرة ، وهم لا ينامون ؟

ـ نوجه احدى الكتائب في اول الليل ؛ فاذا فاجأنا القوم من الامام ، وتضعضعوا ، اخذتهم كتيبتنا من خلفهم ؛ واوقدت النار

ـ وهل تظن ، ان هذا العقيلي ، الذي انضوت العشائر تحت لوائه ، يقودها من نصر الى نصر ، يغفل عن مثل هذا ، وهو يرى عدوه بالقرب منه ؟ !

ـ جرّب ايها الامير

ـ نخشى ان تنتهي بنا هذه التجربة الى الفشل ، ولم نكن لنخاطر بالجند

فهامس عبدالله بن طاهر اخاه طلحة قائلا :

لو كانت غاية ابي ، ان يظفر بنصر ، لفعل ما يشير به الحسين ، ولكنه يريد ان يكون نصر هو الظافر

ـ واذا تلاحمت الصفوف غداً فماذا نصنع ؟

ـ نفعل ما يفعله فتيان الميادين ، حتى اذا امر ابي بالكف عن القتال ، كنا

اول من رجع

ثم قال طاهر : متى ترون ان نبدأ الحرب ؟

فقال بعضهم : غداً ، وقال البعض الاخر : بعد ثلاثة ايام ريثما يستريح الجيش

- ولكن كونوا على حذر ، ولتنم الجنود والسيوف في الايدي ، فقد يفاجئنا نصر ونحن غير مستعدين

والتفت الى عبد الله قائلاً :

لقد جعلناك على صغر سنك يا عبدالله قائد مئة ، فهل رضيت بهذه القيادة ام ماذا؟

قال : انك القائد العام يا سيدي ، وانا جندي من جنودك ، فليس لي الا ان ارضى ، واخضع لما تأمرني به .. ثم قال :

واما الرجال الذين جعلتهم اتباعاً لي ، وهم مئة ، فسيحملون اليك مئة رأس من رؤوس بني عقيل

فضحك وقال : هذا وعد لا يستطيع ان يفي به احد يا بني

- اذا طالت الحرب بضعة ايام وفيت ان شاء الله

قال : بارك الله فيك ... اين عثمان ؟

- في المعسكر

- لقد امرناه بان يبقى دائماً الى جانبك فلم يفعل

- سيكون الى جانبي في ساعات الخطر .. اما الان فنحن في بيوتنا والخطر بعيد

- بل نحن في ارض العدو ورجاله بيننا .. ونحن لا نعلم

واستأذن عثمان في تلك اللحظة ودخل ، فقال :

رأيت اعرابياً وراء الخيام يا مولاي ، واعتقد انه من جواسيس نصر

- اين هو ؟

- بالباب يا مولاي

فقال لعبد الله : ارأيت ان العدو يتبين ما عندنا ويسرق اسرارنا اذا قدر ...

احضر الرجل يا عثمان

فادخلوه ، وقد قيده الحرس ، فقال طاهر :

نسألك سؤالا واحداً ، فاذا رأيناك صادقاً في جوابك وجهنا اليـــك سوألا آخر ، وان كذبت امرنا بقتلك .٠. الست من رجال نصر بن شبث ؟

- بلى

- وهو الذي ارسلك الى هذا المعسكر ؟

- نعم

- ما غرضك ؟

- اعد الخيام ، والخيل والنوق ، ثم اعود !

- وماذا يستفيد مولاك من هذا ؟

- يعرف من عدد الخيام ، عدد جيشك ، ومن عدد الخيل عدد فرسانك .. والمؤونة التي تحمل من عدد النوق !.

فقال طاهر في نفسه : ان رجال البادية يعلمون ما لا نعلم ..

ثم قال له : وماذا رأيت ؟

- رأيت ضعفاً في المؤونة والخيل والجيش

- اي ان مولاك سيظفر بنا عندما تجول الخيل

- ما في ذلـك شك ٠. وستعلم عندئذ ، ان المجوسي الحسن بن سهل الذي طردك طرداً من العراق ، كان مغروراً عندما عهد اليك في المجيء الى كيسوم ، كما كنت انت مغروراً عندما قبلت !

قال : اصبت ، فما اسمك ؟

- يحي العقيلي

- اذن انت ابن عم نصر

- من عشيرته

- ونراك كثير الاعجاب به ..

- لو عرفت الرجل ، لاعجبت به مثل جميع الرجال الذين عرفوه

- صفه لنا..

قال : شباب تزينه العفة ، وصبر في المحن ، ونفس ترتفع الى العلاء .. وجود الا يذكر معه جود مولاك المأمون وابيه الرشيد ..

ـ تقول المأمون ، ولا تقول امير المؤمنين ؟.

ـ لو اعترفنا به لما حملنا السيف نريد حربه .. ان امير المؤمنين هو المجوسي الاخر الفضل بن سهل !

ـ ولا تخاف ، وانت مقيد ، وحولك الحرس من اعدائك ؟

ـ وماذا اخاف يا ابن الحسين ؟. ضرب السياط وانا لا ابالي بطعنات الاسنة ، ام الموت وقد نذرت نفسي له منذ اليوم الاول الذي مشيت فيه وراء نصر ؟؟ لا والله لا اخاف في هذه الدنيا غير امر واحد هو ان يخذل الله سيدنا ابن شبث ، في ثورته من اجل الحق ..!

ـ قل من اجل الباطل .. يا غلام .. سيفك ..

قال : اتضرب عنقي

ـ اجل ، ونعلق جثتك فيراها سيدك الذي قذف بك الى هوة الموت

قال : لو كان سيفي في يدي لما تم لك شيء من هذا

ـ وما كنت تفعل ؟

قال : اعطني سيفاً ، وليأخذ هؤلاء الرجال سيوفهم ، فان لم اصرع خمسة منهم فدمي حلال

فقام عبدالله بن طاهر فقال :

اتأذن لي يا سيدي في برازه ؟

فاشار طاهر الى الحرس ؟ فاخرجوا يحي ، ثم قال لعبدالله :

يا بني .. تبارز رجلا يئس من الحياة ولم يبق له بها امل ؟!

قال : انها امنية لي فلا تمنعني اياها

فسكت ملياً ثم قال : ليكن ذلك .. ادخل يا يحي

فلما صار بين يدي الامير ، جعل ينظر الى عبدالله ويقول :

ارضيت ان يبارزني هذا الفتى ؟

- نعم فرجالنا ارفع من ان يبارزوك
- وانا ارفع من ان اشهر سيفاً في وجه غلام
- هذا عبدالله بن طاهر .. وقد اراد ان يقتل فيك هذا الغرور ..
فظهرت الغبطة والفرح على وجهه وقال :
ابن طاهر ؟ اذن ستكون روحه التي يلفظها بعد ساعة ، فاتحة الظفر ..
- وتبقى انت يا لعين ؟
- اما انا فروحي فداء الرجل ، الذي خرج على المأمون ، واتيت انت بامر ابن سهل لتقضي عليه
قال : اسمع يا يحي : لا روحك ولا روح عبدالله .. ان هذا البراز لا يعقبه موت احدكم ..
- وماذا اذن ؟
- نختبر ضرب هذا الفتى ، ونختبر ضربك .. وللفائز جائزة
« اراد بذلك ان ينقذ حياة ابنه »
قال : وما هي جائزتك ؟
- اذا انتصرت عدت الى قومك على الاثر ، والا فانت اسير حتى تنتهي الحرب
فلمع الغدر في عينيه وقال : اعطني السيف وافعل ما شئت
فقال الحسين بن عمر : دعني ابارز الرجل ايها الامير
فقال عبد الله : لقد اذن لي ابي في ذلك ولست براجع
فقام طاهر فخرج ، وخرجوا خلفه ، وامر بان يعطوا الاثنين سيفين من سيوف الحرس
ووقف القوم ، ينظرون الى المتبارزين ، وعثمان غير بعيد عن عبد الله ..
ثم حبست الانفاس ، لا يسمع في تلك الساحة ، غير وقع السيفين على الترسين
وعبد الله ، اخف من خصمه ، واكثر نشاطاً ، ولكن الاخر كثير الجلد .. وقد ادرك الامير وضباطه ، انه يضرب ضرب خبير
وبيناهما في ثورة البراز ، احس الفتى ، ان يحي يحاول ان يغدر به ..

وفي الوقت نفسه ، كانت عين ابيه ترعاه ، وقد ابصر كما ابصر عثمان ، الدليل الفاضح من دلائل الغدر

فرفع الاثنان صوتيهما قائلين : احذر يا عبد الله ..

ولم يقولا كلمتهما ، حتى رأى الناس سيف يحيى قطعتين ، وقد افلت من يده وسيف عبد الله فوق رأسه ، وهو يقول له هازئاً :

لقد خسرت المعركة ايها العقيلي ، وخسرنا نحن السيف

فجعل يحدق اليه وهو ذاهل ، ثم قال لطاهر :

لقد امسيت اسيرك ، فاختر لي مكانا لا يراني فيه احد .. ان عهداً يغلب فيه الغلمان رجال السيف ، ليس بالعهد الذي ينبغي ان نعيش فيه .. ليهنئك ابنك ..

واقبل الناس يصافحون عبد الله ، وكانه لم يفعل شيئاً ..

فقال طاهر : لقد اردت ان تغدر بعبد الله يا يحيى فلم يرد الله ما اردت

ـ اي والله ، اردت ذلك لاقهرك ، ولو قتلت

فخيل الى الامير انه مجنون .. فقال له : اذن فانت تستحق الموت

ـ نعم ، فاذا كانت لك رغبة في قتلي ، فناد غلامك

فقال لرجاله : الم يعترف بانه تعمد الغدر بعبد الله ليقهر اباه ؟

ـ هذا ما سمعناه

ـ ويجب ان يموت ؟

ـ نعم ، وفي هذه الساعة ..

ـ ولكننا لا نفعل الا بعد ان يبوح لنا بسره الجديد .. قل لنا يا يحيى من علمك هذا البغض الذي اعترفت به ؟

ـ انت يا ابن الحسين !!

ـ وكيف ذلك ؟

ـ اي شيء اتى بك الى هذه الارض ، وانت انت .. اتيت لتقاتل ابنـــاء قومك العرب بامر من المجوسي ، وتقول لماذا ابغضناك ؟

فطاب للامير ان يمعن في الحديث معه ، فقال :

وهل نسيت ان وراء هذا المجوسي ، خليفة يفعل ما يشاء ، ولا مرد لما يأمر به .

– قلت لك ان الفضل هو الخليفة .. واما مأمونك فراض بان يقول له الناس : السلام عليك يا امير المؤمنين .!

قال : اسكت ولا تعد الى مثلها

– بل ازيد ان هذه الخلافة ستخرج من يده وسيتولاها غيره !!

قال : كان اخوه الامين حياً ، وهو صاحب الحق الاول بالعرش ، ولم يثبت في الساحة ، فمن يقدر اليوم على ذلك ؟

– ان اهل العراق جميعهم يلعنونه ، وبنو العباس في اول الصف

– ولكن هذه اللعنات ، سترجع الى صدورهم بعد حين ، فقل لصاحبك ، ان يترك السيف ، ويظهر الطاعة ، فابعث به الى امير المؤمنين ، مع كتاب الامان

فقهقه طويلا وجعل يقول : سمعت الناس من قبل ، يذكرون القائد الظافر طاهر بن الحسين ، فظننت انه القائد الحكيم الذي يعلم ماذا يفعل !

– والان ؟

– اما الان فقد رأيت انه القائد الذي لا عقل له !!

فرفع عثمان سيفه يهم بان يضربه به

فامره طاهر بان يتراجع ، وهو يقهقه كما قهقه يحيي ، ولم يره احد ضاحكا مثل ضحكه في مثل هذا اليوم

على ان يحيي لم يسكت ، بل كان يقول :

قل لصاحبك ... !! اقول ماذا وانا اسيرك ولا سبيل الى الوصول اليه ؟ ! بلى ساقول له ، ان رجعت :

خذ بني عقيل ، والجنود الذين رافقوك في الثورة الى بغداد ، واسجد لسيد العراق الحسن بن سهل ، ثم تسير بعد ذلك الى مرو لتسجد لاخيه ... وطاهر بن الحسين يضمن حياتك !! اليس هذا ما تريد ان اقوله لصاحبي ؟ ! اسمعوا يا ناس : اني اسير هذا الرجل ، وهو يأمرني بان اقول لنصر ان يترك السيف !! اهذا هو القائد الذي تمشون تحت رايته الى القتال ؟

وجعل يردد كلامه ... ثم بكى ، كما يبكي الطفل

فقال له : ما الذي يبكيك ؟

قال : فكرت في هذا الاسر الذي يمنعني من خدمة سيد العشيرة

– تعزّ فقد قمت بما يجب .

– ولكن خانني الحظ ، وسيظن انني غفلت عن الامر الذي عهد الي في قضائه

– اذن فانت تخافه ، وعهدي ان المجانين لا يعرفون الخوف

– بل احبه ، وهذا الحب هو الجنون ، فاذا كان لك من المروءة مثل ما لك من الشهرة ، فاضرب عنقي ، فالموت خير لي

قال : سالتنا منذ لحظة ان نختار لك مكاناً تحتجب فيه ، فماذا جرى لك الان لتطلب الموت ؟

– رأيت الموت احسن حل لما انا فيه ، فاسألك بحياة هذا الفتى الذي كسر سيفي ، ان تفعل

فاعجب الامير بهذا الوفاء الذي لا شبيه له

وسمع عثمان يقول : اتأمر يا مولاي بان نقيده من جديد ؟

– بل نخلي سبيله ليعود الى قومه ... اذهب يا يحيى فانت حر .

فدهش الضباط لهذه الحرية يهبها الامير ، لعقيلي اهانه واهان الخليفة ، وجعلوا ينظرون اليه

واصيب العقيلي بشيء من الذهول ، ثم رفع رأسه وقال :

انا حر ؟

– اجل وليست هذه الحرية كثيرة على وفائك لصاحبك .. فاذهب والى اللقاء في هذا السهل .

قال : كذب الذي قال ان طاهراً لا مروءة له . الى اللقاء ولكن في غير هذا المكان فحرام علي ان احاربك .

قال : لا تخن سيد العشيرة .

– ولن اخون المحسن الي ..

واومأ اليه والى القوم بالسلام ، وانثنى يمشي في مهل ، كانه بين قومه ، وقد تقدمه احد الحراس يقول للناس : كان اسيراً فاطلقه الامير .

فلما ابتعد عن الجماعة ، قال طاهر :

خذوا هذا العقيلي مثلا فقد علمنا ان نكون رجالا .

• • •

وقف الجيشان بعد ثلاثة ايام ، وقد اخذا للحرب اهبتهـا ، واستعدا وكان طاهر قد جعل رجاله صفوفاً متفرقة لا رابط لها .. وقد عجب اركان الحرب لهذا التدبير الحربي الغريب الذي لم يألفوه

الا عبدالله وطلحة ، فقد علما ان هذا التفرق في الصفوف ، مقدمة للفرار

ومع ذلـك فلم يعرض الضباط لطاهر فيما فعل ، ولم يقل احدهم كلمة

انه هو القائد العام المسؤول عن الجيش .

وصاحب الحق ، الذي يحاسبه عن الكبيرة والصغيرة ، هو الحسن بن سهـل

وانك لترى نصر بن شبث على جواده ، ينظر الى صفوف عدوه ، وهو يطوف بين الكتائب ، ينفخ في صدور افرادها روح التضحية ، ويحرضهم على النضال

على انهم كانوا بغنى عن مثل هذا ، فهم يشبهون يحيى العقيلي في الاخـلاص وقوة العقيدة ، وكانت لهم في انفسهم ثقة لا تتزعزع ، ولا تنال منها كثرة الجيوش

وقبل ان يبدأ القتال ، اقبل الحسين بن عمر يقول لطاهر

ان رجال نصر يزيدون على رجالنا ايها الامير فلو كتبت الى بغداد .

— نكتب ماذا !

— ان يبعثوا الينا بالمدد

وننتظر شهراً حتى يجيء ، ثم نسعر النار

— لا ، نحارب الجماعة اليوم او اليومين ، فان لم نظفر ، رجعنا الى الرقة نمكث

بها حتى يصل الجند .

قال : سننظر في الامر عند الحاجة .. ان الظفر اقرب الى العدو منه الينا

— هذا ما يبدو لي ، الا اذا حدثت الاعجوبة كما جرى في معركة الري ..
ورب فئة قليلة غلبت فئة كثيرة والنصر بيد الله .

وبدىء عندئذ بالهجوم

فتغلغل رجال نصر ، في قلب جيش الخلافة وفي جناحيه ، ينقضون على عدوهم كما تنقض انثى العقاب على صغار الطير ..

وكان هنالك فرسان ثلاثة ، لا تقف افراسهم ولا تهدأ سيوفهم ، والنـــاس يتنحون عنهم خوفاً من الموت.

احدهم نصر بن شبث نفسه ، والاخران طلحة رعبدالله ، بينهما عثمان يدافع من الجانبين ، ومن الوراء عن الاثنين ·

حتى اصيب عبدالله بطعنتين في ساعده الايمن ؛ وفوق المرفق

ولو لم يضيع عثمان بسيفه ، الطعنة الثالثة ، لهوى عبـــدالله عن فرسه جثـــة خرساء

حتى رأى طاهر ، ان ساعة الهرب قد اتت ، فأمر الجيش المضطرب بالتراجع ، على ان يحفظ الحرس المؤخرة ، ويردوا عنها العدو

فأومأ نصر الى جنده بالوقوف ..

لقد خاف ان يكون تراجع طاهر ، وهو لم يتراجع قط ، خدعة او كميناً له

وظل على جواده حتى ابتعد جيش الخلافة والحرس يحميه

فابتسم ابتسامة الفوز . وايقن بانها الهزيمة ، التي تحمل طابع الدهاء الحربي ..

وبات ليلته والليلة التي بعدها ، في ذلك الموضع ، وكان يقول لرؤساء العشائر المعجبين به :

لقد غلبتم طاهر بن الحسين الذي لم يغلب بعد ، وحسبكم هذا

واما طاهر ، فلما انسحب الجند ، سأل عن طلحة وعبد الله ·فقيل له : انهما مع الحرس

فقال : وعثمان ؟

ـ ومعها عثمان

ولم يذكروا له ان عبدالله جريح ..

حتى كان المساء ، وقد ابتعدوا كثيراً عن الساحة ، التي نشبت فيها المعركة ، فرأى عبدالله ، يمشي متثاقلا بين رجلين ، يعالجان جرحى الحرب ، وهو معصوب الذراع ، من العضد الى الكتف ، فقال :

جرحت يا بني ولم اعلم ؟

قال : اجل ؛ ولولا عثمان لمزقتني السيوف والاسنة ، فقال :

ان عثمان نعم الفتى ، وقد جعله الله عز وجل رفيقاً لك

وعرف طاهر ، ان الجريح يصارع الحمى فقال :

هذا اول جرح في الميدان .. فاصبر على الالم ، فحروب الخلافة ستكثر فيك الجراح

وأوصى الرجلين بالعناية به

والايام تمر ، وعبدالله يحمل من شدة الحمى في محفة ؛ او فيما يشبه هوادج النساء وكان الجيش ، من اجل هذا البطل الفتى ، يمشي في الليل ، ويضرب خيامه في النهار ، حتى وصل الى الرقة ، وقد سبقته اخبار الهزيمة ، وتحدث الناس بالامر ، وعجبوا لما سمعوه

طاهر بن الحسين .. وجيش امير المؤمنين .. والمال الكثير الذي لا ينضب .. والمؤونة التي تكفي نصف العراق ... يغلب على كل هذا ، خارجي يقال له نصر بن شبث ؟!!

لقد كان فراره في نظر الناس ، احدى الاعاجيب .. وكانوا يقولون :

في هذا الفرار سر لا يعرفه غير طاهر نفسه

حتى قام احد شيوخ الرقة ، وهو لا يحب طاهرا ، فقال :

لقد آثر الرجل ذل الهزيمة ، على عز النصر ، انتقاماً من الحسن بن سهل ..

وجعلوا يرددون هذا القول ..

حتى ان آل حاتم جميعهم ، الا الشيخ الاعمى ، لم يصدقوا ، ان القائد

العظيم ترك الساحة عن عجز ، وانما كانوا مؤمنين ، بان هنالك غرضاً خـاصاً له خفي على الجند

نعم ، وليس لاحد ان يصدق ، ان نصر بن شبث ، يستطيع ، ولو كان جيشه عشرين الفاً ، ان يقهر الرجل الذي قهر جميع الرجال ..

ذلك لان العصابات والشذاذ ، الذين يخرجون على الدولة ، ويستخفون بقوتها التي هي قوة الامة ، لا يكتب لهم النصر ، واذا ظفروا مرة او مرتين ، فقـد مهدت لهم سبل ظفرهم ، غفلة القدر ..

ثم لا يمتد الزمان ، حتى يستسلموا او يجوهم السيف ..

وفي كل دولة ، وكل امارة ، عصاة ومتمردون، يتنكرون الملوك والحكام، ثم لا يلبثون حتى يخضعوا ويحنوا الرؤوس

الا الذين يستعينون بالجيش ، او يخونون الوطن مستندين الى قوى تجيئهم من اجنبي ، فلهؤلاء شأن اخر ليس لنصر بن شبث شيء منه

انه عدو الخليفة ، وعدو الجيش ، وعدو الامة ، وهذه العشائر التي انضمت اليه ، اضعف من ان تخلع خليفة وترفع اخر الى العرش

ولا تنس ، ان للشهرة ، في كل شيء ، أثرها البعيد ، وقد عرفت شهرة طاهر في حروب الامين والمأمون ، وقرأت الفصول الطويـلة ، عن مهـارته ، وحذقه الحربي

افتظن بعد كل هذا ، انه خاف الفشل في كيسوم فعمد الى الهرب ؟

لا ، فقد صدق التاريخ في قوله ، ان الهزيمة كانت في نظره خيراً من الظفر ..

ولم نخطىء نحن في تعليل هذه الظاهرة الغريبة ؛ التي اثر معها التراجع ، على مواصلة القتال ..

وعندما حط الجيش رحاله في الرقة ، كانت جراح عبد الله في فورتها ، واطباء الجيش والخبراء ، يعالجونها بالوسائل التي يعلمون

وامه نائلة عند رأسه ، تبذل له من العناية ، ما تبذله الام للابن البـار ، ولم تضيع الرجاء بالشفاء

وطاهر ، يردد كلمته التي قالها وهم راجعون ·
اصبر يا بني فحروب الخلافة ستكثر فيك الجراح

• • •

مكث مروان ، وعصمة الحرشي بالبيضاء ، ثلاثة ايام ، ثم رجعا الى الرقة ، ولم يلبث الحرشي ، حتى تعجل في العودة الى بغداد ..

وبعد عشرين يوماً ، دخل على آل حاتم ، قبل غروب الشمس ، عبدالله الحرشي وابنه عصمة ، وعطاء بن خالد التميمي

فمد الشيخ ابو حاتم يديه الاثنتين ، يضم الى صدره صديق ولده القتيل ، وجعل يرحب بعطاء ، عندما ذكر له ، وقد اشرق جبينه ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رضى ، وهو لم يبتسم منـذ اعوام ، ثم قال :

متى قدمت يا ابا عصمة ؟

– في هذه الساعة ، وقد قدمت لاراك ، وانقل اليك اخبار طاهر بن الحسين .

– الم تكن في بغداد ؟

– بلى

– ومن اين لك ان تعلم اخبار طاهر ؟

– خبرني بها ابو هشام

وهو يعني عطاء

= وهل كان في كيسوم ؟

– كان قريباً منها ، ولم يحارب ، وقد رأيته في الرقة ، عندما وصلت

قال : هات يا ابا هشام

قال : ان الرجل ، الذي عرفته ببغداد وهمذان والري فرآ ، كان في كيسوم

اذل من ثعلب .

– هكذا يقول الناس ..

– بل هذا ما اقوله انا واثبته لك ..

قال ، يظهر ان جيش نصر كثير العدد

– نعم ، ونصر من الابطال الذين لم تنبت البادية مثله ، فهو اجرأ وادهى قائد تقع عليه العين

– وماذا فعل ؟

= اكره جيش طاهر على الهرب ، تاركا في الساحة بعض المؤونة والقتلى

– ليته استطاع ان يضع سنان رمحه في صدر طاهر

– ولكن الرجل ظل بعيداً عن المعركة ، وكان ابن شبث يقول : دلوني على عبد المجوسي لآخذ روحه ..

– وفي اي يوم من ايام الحرب كان ذلك ؟

– في اليوم الاول ، الذي هو اليوم الاخير ..

– اي ان القتال استمر يوماً واحداً ليس غير ..

– اجل ، من الصباح الى العصر ، ثم كانت الهزيمة ، وطاهر الان ، في رجوعه الى الرقة ، يتعهد الجرحى ، منهم ابنه عبد الله

واخذ يقص عليه كل ما يعلم ، والشيخ وحفيداه مروان والمغيرة ، يصغون اليه ، حتى انتقل في حديثه الى بغداد ، فقال ابو حاتم : ما حال الخليفة ابراهيم

– لقد ظفر بجيش الحسن بن سهل ، واستولى على المدائن والسواد كله ، وهو ينتظر قدوم المأمون ، الذي ترك مرو ، وانتهى الى سرخس

– وبنو العباس ؟

– امسى بنو العباس فريقين ، احدهما يناصر ابراهيم بن المهدي ، ويؤثره على ابن اخيه ، والآخر لا يلعن ولا يبارك حتى تميل احدى الكفتين ..

– وانت يا ابا عصمة ؟

– اما انا فمع الفريق الاول لا اتغير ، وسأحمل السيف اذا ندبت للدفاع عن

ابراهيم

قال : يجب ان يكون العباسيون صفاً واحداً لحفظ الخلافة ، قبل ان يستولي عليها الفضل بن سهل

- لقد قتل الفضل في سرخس ، وهو يغتسل

- الفضل بن سهل ؟ !

- نعم ، والناس يتهمون المأمون بقتله

فارتسمت دلائل البشر على وجهه وقال :

وسيقتل الحسن وطاهر بعد قليل ان شاء الله ، فلا يبقى للمأمـــون من يقوم بامره .. انها يد الله .. قتل هرثمة بن اعين، ثم قتل الفضل ، ولو عقل بنو العباس، لرفعوا اصواتهم قائلين للمأمون :

ارجع الى خراسان فلسنا بحاجة اليك

ونهض عبدالله عندئذ يهامس الشيخ

فخرج المغيرة من المخدع ، وكانت امه وشقيقتاه في غرفة لهن ،

فقال : من يصدق ان نصر بن شبث يغلب طاهر بن الحسين ؟ .

فقالت ام مروان : وهل غلب طاهر ؟

اجل ، فان عطاء التميمي ، وصف لنا فشله ورجوعه منهزماً الى الرقة

قالت : لو كان هنالك عشرون رجلا مثل نصر ، ووراء كل رجل عشرة آلاف جندي ، لما استطاعوا جميعهم ان يقهروا هذا اللعين ... ولكن نصبر حتى يرجع فيذكر الجيش لاهل الرقة اسباب هذا الفشل

فقالت سعدى : اظن ان ام عثمان التي تزور نائلة كل يوم تعرف كل شيء وسنسألها غداً ... ثم قالت للمغيرة :

من هو عطاء التميمي هذا ؟

- كان من جنود الامين ، فلما تولى المأمون ، آثر الاقامة بالبادية على بغداد وهو اليوم يدعو في باديته لابن المهدي

- واين رآه الحرشي ؟
- في هذا البلد عند وصوله
قالت : لم يتعود الحرشي ان يأتي الرقة في مثل هذا الشهر
- يظهر ان عصمة حمله على المجيء الى البيضاء ، وقد يكون له غرض آخر هو الاطلاع على اخبار الحرب بين طاهر ونصر

وكانت زينب ساكتة ، وقد بدا على جبينها الهم ..

ان رجوع عصمة من بغداد مع ابيه ، بمثل هذه السرعة ، لم يكن من اجل البيضاء كما يظن ، ولا من اجل الحرب ، وانما كانت للاثنين غاية ستظهر في ذلك المساء أو في صباح اليوم الثاني ..

تلك هي الفكرة التي استولت على الفتاة ، حتى انها حاولت اكثر من مرة ان تتناساها فلم تقدر ، وقد قام في ذهنها ، ان هذا القدوم الفجائي سيخلق لهـا تعب القلب

وبعد ساعة انصرف عطاء ، وبقي عبدالله وعصمة يحادثان أبا حاتم ... ثم اقبل مروان فقالت حبيبة :

اين الحرشيان ؟
- في الداخل ، وخيل الي ان بين عبدالله وبين جدنا سراً لا ادري ما هو
- وكيف عرفت ذلك ؟
- رأيت الاثنين يتهامسان ، وقد حولا وجهيهما عني
فاستأذنت وخرجت ، ولا يزال عصمة عندهما
فاسودت الدنيا في عيني زينب وقالت له :
كان عليك ان تبقى لتعرف هذا السر
قال : اظن ان حديثهما يتعلق بطاهر
- لو كان الامر كذلك لما تهامسا
فابتسم المغيرة قائلاً :
اما انا فاعتقد ، بعد هذا الهمس ان عبد الله قدم اليوم ليخطب زينب لابنه ..

فقالت ام مروان : ما هذا يا بني ؟

- خاطر خطر لي .. لقد كان عصمة ينظر الى زينب نظرات حب ..

- زينب ..! اتعلمين ما يعلمه المغيرة ؟

- لا اعلم شيئاً

- ونظرات الحب ؟

- يصفها لك المغيرة فانا لم ارها ..

قالت : ماذا ترى يا مروان ؟

قال : حدثني عصمة بامر طاهر وامر الانتقام منه ، ولم يذكر لي هذا الهوى بل لم يذكر زينب .. وقد يكون هواه ملء نفسه وهو يخفيه

- وماذا تقولون اذا كان قدوم عبدالله من اجل الخطبة ؟

- سيبدي جدنا رأيه في الامر ثم تسألين زينب

- ان ابا حاتم سيرضى ، فهو يحب عصمة كما يحب احدكم ، وابوه عبد الله من اصحاب ابيك ، وهو من القواد الذين كانت لهم منزلتهم في جيش الامين

- وانت ؟

- اما انا فليس لي الا ان ارضى بما يرضى جدك به

- اذن لم يبق الا ان نسمع كلمة زينب .. قولي يا زينب ..

- وماذا تقول زينب ، اذا كان جدها وامها قد رضيا ..

وقامت فخرجت الى الشرفة لتذرف الدمع .

فقالت سعدى : ان زينب لا تحب عصمة ، ولا تريد ان تكون له ، ومع ذلك فانتم تتحدثون بامر لم يحدثكم به احد ، وهو وليد الظنون ..

- هو ذاك .. ولكننا اردنا يابنية ان نتدارك القضية .. فقد يسألنا ابو حاتم رأينا فيه وعبد الله حاضر .. ومن قال لك ان زينب لا تريد ان تكون لعصمة

- عرفت ذلك من جوابها الذي سمعناه الان

- ولم تذكر لك شيئاً من قبل ؟

- لم يخطر لنا ان نتحدث بمثل هذا ؟

قالت : لنفرض ان الخطبة او الزواج غاية الحرشيين ، وقام ابو حاتم يأمـــر زينب بان تزف الى الفتى ، افتعصاه وتقول له لا ارضى به ؟

– من يعلم فقد تكون راضية ، وانا لا ادري

فقال مروان : وانا افترض ان زينب لا تريد هذا الزوج الذي اخترتموه لها :

فقاطعته قائلا : ليس للفتاة ان تقول : لا اريد

– وماذا اذن ؟

– عليها ان تسمع وتطيع ، ولا تصغي الى العاطفة

– واذا كان هنالك من لا تستطيع ان تعيش معه العمر كله ؟

– قل لماذا لا تستطيع ذلك

= لان الزوج الذي اختاروه لها ، صعب المراس ، وهي هينة المأخذ ، ولان له الخلق السيء ، وهي كالحمامة الوديعة لا تعرض له في شيء ، ولا تقول كلمة ، الا ترين ان بعض الرجال ذئاب خاطفة ، وان النساء اللواتي جعلهن القدر زوجات لهم هن كالنعاج ؟

– بلى ارى كل هذا ، واعرف فريقاً من النساء ، يضربهن ازواجهن كل يوم ، كما يضربون الارقاء ، وينظرون اليهن كما ينظرون الى الخـــدم .. واذا شكت احداهن امرها الى ابيها وامها ، او الى رجل من عشيرتها ، فوجئت بالطلاق ...

– اذن ليس لها ان تشكو امرها الا الله

– نعم ، فينبغي ان تحتمل اذا قدرت على الاحتمال ... او تموت ..!

– وتلك هي حياة المرأة

– اجل ، فهكذا خلقها الله

– اي انه لا يحق لها ان تعيش كما يعيش الرجل ؟

– لا ، فالرجل حر ، وهي مقيدة لا ارادة لها ، ولا تفعل شيئاً الا اذا امرها به .. وهو يفعل ما يشاء

ولم تكن هذه الفلسفة ، من رأي مروان والمغيرة ، ولكن الاثنين ، كرها ان يدخلا في جدل ليس لهما من ورائه غير الخيبة ..

لقد كانت المرأة في نظر معظم الرجال ، عبدة لهم . والاغرب من هذا ، ان المرأة نفسها كانت مؤمنة بانها عبدة .. الا طـــائفة من النساء ، سمت انفسهن ، ونضجت عقولهن ، فعلمن ان امهاتهن ولدتهن حرائر ...

وحبيبة ، ام مروان ، من هذا الصف ، غير انها لم تكن تريد الخروج على التقاليد .. كما انها لم تكن تريد ، ان تطمع كريمتيها ؛ فتنزع نفساهما الى الحريه التي لم يألفها القوم . !!!

وهي تعلم ان ابا حاتم من المحافظين ..

وكما كره مروان ، ان يناظر امه ، كرهت هي ان تمعن في شرح ما غمض من فلسفتها الخاصة

وكانوا جميعهم يظنون، وهم في الداخل ، ان زينب لا تسمع ما يتحدثون به..

في حين انها سمعت كل شيء .. ولم تكف عن البكاء ...

وكان ذلك قبل رجوع الجيش من كيسوم ، بليلة واحدة ...

•••

لم يقل احد لسعدى وزينب ، ان عبدالله بن طاهر جريح

فلما ذهبتا الى دار ام عثمان ، عصر اليوم الثاني ، لم تجدا احداً، فقالت سعدى:

ان ام عثمان الان ، في دار القيادة ، فلنعد الى البيت

فقالت زينب : بل نصبر ساعة فستجيء

— واذا بقيت الى الليل ؟

— نعود اليها غداً

وبيناهما تترددان في البقاء ، اقبلت المرأة وحدها ، وكانت الاثنتان تظنان ، ان ام عامر معها

فقالت سعدى : الحمد لله ، فقد رجع عثمان بخير

– الحمد لله .. ان الناس جميعهم بخير ، الا عبدالله بن طاهر

– ماذا جرى لعبدالله ؟

– جرح وانتقضت جراحه

ودعتها الى الدخول

فأحست زينب ، ان الرواق ينحدر بها الى الاعماق ..

وتعجلت في الدخول ، فجلست ، وامام عينيها غشاوة سوداء ..

ثم قالت ام عثمان :

لو خسر طاهر في قتاله الف جندي ، لما كانت هذه الخسارة ابعد اثراً في الجيش من جرح عبدالله ..

فتجلدت زينب وقالت :

يظهر ان عبدالله في خطر .

– نعم في خطر ،ولولا عناية اطباء الجيش لذهبت حياته

– وكيف هو اليوم ؟

– تقول نائلة ، انه اغمي عليه مذ يومين ، كما خبرها الاطباء ، ولم يصح الا امس ، وقد عرفها عندما فتح عينيه ، وجعل يتمتم اسمها ، واسماء اخرى يحبها وهي عزيزة عليه .

– ولم يؤذن لك ان تريه ؟

– اني لا احتاج في الدخول عليه الى اذن .. بلى دخلت ، وابتسم لي .. ثم سألني عما اعلم من اخبار امير المؤمنين ، وكان يردد اسماء مروان والمغيرة ، وسعدى وزينب ، فتراجعت خوفاً من ان يسترسل في حديثه ، وهو غير قادر على ذلك

قالت : اما سؤاله عن امير المؤمنين ، فهذا لا شك فيه .. ولكن السؤال الآخر ..

– اقسم لك اني لم ازد كلمة على ما قاله لي

فارتسم البشر على محياها .. ثم ذكرت عصمة .. فجعل قلبهـــا يضطرب ، وارسلت ضفيرتيها الى صدرها تعبث بها ، وهي ساكتة ..

وجاء دور سعدى فقالت :

يتحدث الناس هنا ، بفرار طاهر من كيسوم ، فهل استقوى نصر بن شبث ، الى الحد الذي يستطيع معه ان يقهر طاهر بن الحسين

فابتسمت قائلة : يطيب لاهل الرقة ان ينتقصوا طاهراً كل مرة ، ويعيبوه في كل ما يفعل .. لقد نسبوا اليه الخيانة والغدر من قبـــل ، ليعكروا الجو بينكم وبينه ، ويريدون اليوم ، ان يجعلوه من القواد الجبناء ، الذين يفرون من عدوهم، عندما يشهر في وجوههم السيف:

– ولكنه تراجع ، كما نرى

– اجل تراجع لسببين ، احدهما جرح عبدالله ..

– والآخر ؟

– اما الاخر فارجو ان تكتميه الناس، هو انه اراد ان يظفر نصر،لغاية له !

– وهل يطيق ان تقول العرب ، ان طاهراً كان خواراً ضعيفاً في قتاله ؟

– هذا ما ظهر لعثمان، وقد خبرني به ، ولو استمرت الحرب يوماً آخر ، لضاع ابن شبث وضاع جنده

واقبل عثمان في تلك اللحظة ، وكأنه كان مع الفتاتين ، على موعد

فسلم عليهما ، وهو يهش لهما ، فقالت امه ؟

كيف تركت عبدالله ؟

– سمعت الاطباء يقولون للامير : لقد زال الخطر الآن

– ودخلت عليه ؟

– كنت عند فراشه منذ ساعة ، وقد امرني بالمجيء الى هنا ، لانقـل الى ابناء حاتم قبل كل شيء ، انه لم ينس وعده بالاجتماع ، وسيعهد اليه عندما يشفى

– ولم يذكر سعدى وزينب؟

– طلب الي ان احييهما باسمه اذا رأيتها ، وارجع اليه بعد غروب الشمس

فقالت لزينب : لقد زال الشك الان ، اليس كذلك ؟

فحنت رأسها ، وانفرجت شفتاها تغتصب الابتسامة اغتصاباً وظلت ساكتة

فقال عثمان : اي شك هذا ؟

قالت : لم تصدق ان عبدالله سأل عنها وعن سعدى

قال : والله ، كانت اول كلمة قالها بعد صحوه ، انه نادى امه .. ثم لفظ اسم المأمون ، واسماء آل حاتم ..

– ولم يسمعه ابوه ؟!

– كان الامير ساعتئذ في مجلسه وعنده رسول امير المؤمنين ..

– في اي شيء قدم هذا الرسول ، واين هو المأمون اليوم ؟

– في طريقه الى بغداد ، وقد كتب الى طاهر ليوافيه مع عبدالله الى النهروان

= وبماذا اجابه ؟

– سيذهب الاثنان وطلحة ، بعد ان يتعافى عبدالله ويترك فراشه

– ومن يكون خليفة الامير في الرقة ؟

– الحسين بن عمر حتى يرجع عبدالله ، لانه سينوب عن ابيه في الولاية

فقالت زينب في نفسها :

عصمة الحرشي من ناحية ، وسفر عبدالله من ناحية اخرى ، فلا حول ولا قوة الا بالله

وفكرت في الاجتماع ...

فسبقتها سعدى قائلة : قلت ان عبدالله سيعمد الى الاجتماع بعد شفائه ، وتقول الان ، انه سيسير الى النهروان مع ابيه ، فكيف ذلك ؟

– وهل يستطيع الامير وبنوه ان يخالفوا المأمون فيما يأمرهم به ... بعث رسوله يدعوهم اليه ، فليس لهم الا ان يطيعوا ، ولا تطول غيبة عبدالله ، ثم قال : واما الاجتماع ، فقد حدثني به ، قبل ان يعلم ان رسول امير المؤمنين في المجلس فلما نقلوا اليه امر المأمون قال : كتب لنا ان نجعل لاجتماعنا موعداً اخر ، فطاعة الخليفة امر لا بد منه

– وهل عرفت ان طاهراً سيرجع الى الرقة

- لا ، وقد سئل الرسول عن ذلك فلم يعلم

- اذن فهذا الاجتماع الذي ذكرتموه قبـــل ان يسير مروان الى البيضاء ، وتذكرونه الان لن يتم

- لماذا ؟

- لان طاهراً لن يعود

- ومن اوحى اليك بهذا ؟

- امر الخليفة الذي حمله الرسول اليه

قال : ليس في الامر ما يدل على عدم الرجوع

قالت . ان رغبة المأمون بين السطور ... فلو لم يكن بحاجة الى وجودطاهر بالقرب منه لما دعاه

قال : اذا لم يعد طاهر عاد عبدالله

- وماذا يصنع عبدالله ؟ يجتمع بمروان والمغيرة ، ويذهب اجتماعهم كلاماً لا قيمة له ... ومع ذلك ، فاذا رجع طاهر فهو لا يجد الرجلين اللذين ملأا البـــلد اخباراً عنه ...

- سليمان وفياض ؟

- نعم ، فقد تركا الرقة منذ بضعة عشريوماً دون ان يقولا كلمة عنهذا الرحيل

- الى اين

- هذا يقول الى الكوفة ، وهذا يقول الى البصرة ، ولم يرهما احد عندمـا خرجا ...

فجعل يهز رأسه وهو يردد : صدق عبدالله ... ان هذا الرحيل ، لم يكن من اجل العيش ، كما يفعل معظم الناس ، وانما كان فراراً لجأا اليه ، قبل نهاية القتال في كيسوم

- وما الذي دفعهما الى ذلك ؟

- خوفهما من طاهر ومن الاجتماع به ، لان الباطل لا يجسر على مواجهة الحق

- وهل قال لهما احد ، ان طاهراً سيجتمع بهما ؟

- لا ادري ، فقد تركنا نحن الرقة الى الحرب ، وبقيتم انتم فيها ، وقد يكون مروان هو الذي خبرهما بالامر

قالت : عندما ذهبا ، كان مروان في البيضاء ، ولم يعلم انهما رحلا ، الا بعد رجوعه

- ولم يذكر لجده شيئاً عن هذا الاجتماع ؟

- بلى ، نقل اليه الحديث الذي جرى بينك وبينه في هذا المعنى ؛ وسأله رأيه

- وكان راضياً ؟

- اجل

- اذن فابو حاتم هو الذي حملها على الهرب من حيث لا يعلم

- ولكنه لم يرهما ، ولما بلغه خبر الرحيل قال : ليتني طلبت سليمان ، لاسأله عما يزعمه عبد الله

فاطرق ملياً ؛ ثم رفع رأسه قائلا :

كنا خمسة في هذه الدار ، عندما رأينا ان يجتمع الفريقان ، مروان ، وسعدى وزينب ، وام عثمان ، وعثمان ، فواحد من هؤلاء الخمسة هو الذي خبر الرجلين ..

وكانت زينب ، تنظر الى عثمان وسعدى ، وهي تقول في نفسها :

ان ألعين عصمة الحرشي ، هو الذي باح بالسر

فقالت سعدى : وكنا خمسة ، في مخدع ابي حاتم ، عندما اعاد عليه مروان ما تحدثنا به ، زينب ، وسعدى ، ومروان ، وام مروان ، وابو حاتم ..

- واين كانت الجارية راوية ، والعبد مغيث ؟

- كانا خارج الدار

- والمغيرة ؟

- كان على السطح مع عصمة الحرشي ، ثم نزل المغيرة ليعلف الخيل

- وبقي عصمة في الداخل ؟

فقالت زينب : نعم ، ووضع اذنه علي باب المخدع ليسمع ما يقال ، وقد رأيت عند الباب آثار قدميه

فأخذ يردد كلمته الاولى : صدق عبد الله .. صدق والله .. لقد قال لي ، ونحن ذاهبان الى دار الامارة ، في ذلك المساء : اخشى ان ينتهي شيء مما تحدثنا به الى الى سليمان وفياض ، فيرحلا في ظلام الليل الى بلد بعيد لا يعرفان فيه .. قتل الله هذا الحرشي ، . فهو الذي اعاد ما سمعه على الرجلين ، وزين لهما الرحيل ... وقد عرفت غايته من ذلك

فتلالأ الدمع في عينيها ، ثم اختفى ..

لقد خافت ان يفضحها هذا الدمع ، وكرهت ، وهي تعشق ابن قاتل ابيها ، ان تظهر ضعفاً واستسلاماً للغرام ..

ولكنها أبت ان تكتم عثمان ، ما تفكر فيه من امر عصمة ، فقالت :

وانا اعرف هذه الغاية ..

فقالت لها سعدى : اسكتي يا زينب ..

قالت : ليس في الامر ما يدعو الى السكوت .. ان عثمان يريد الخير لنا ولاهل طاهر ، فينبغي ان نطلعه على كل شيء

قال : وما هي غاية الحرشي ؟

- اذكرها انت ، اذا كنت تعرفها كما تقول

قال : له ولابيه ، ولجميع القواد الذين خسروا معارك الري وهمذان ، غاية واحدة ، هي ان يبعدوا الناس عن القائد الكبير ، الذي ظفر بهم ، وقتل خليفتهم الامين

- لقد ذكرت هذا ، وذكره عبد الله قبل اليوم

نعم ، ولكن بقيت هنالك غاية اخرى ، هي ان الفتى ، يخشى ان تظهر براءة طاهر بعد الاجتماع ، فيخيب رجاؤه

- اي رجاء ؟

- رجاؤه ان تصبح احدى الفتاتين ، سعدى او زينب ، زوجة له

قالت ، اراك انتقلت ، في وثبة واحدة ، الى موضوع اخر لا اجد سبباً له

فابتسم قائلا :

فرار سليمان وفياض، وزواج عصمة ، موضوع واحد ، لم انتقل منه الى سواه .. ان هذا الحرشي يعلم ، انه اذا تم الصلح بينكم وبين الجماعة ، كان طلحة وعبد الله اقرب اليكم منه

ـ وما علاقة هذا الامر بسفر الرجلين ؟

ـ ان الصلح لا يتم ، الا اذا تم الاجتماع ، فالغاية اذن من اختفاء الاثنين، الا يتم شيء من هذا ..

فقالت لسعدى : ماذا ترين .. الم اقل لكم امس ، ما يقوله عثمان الان ؟ ان عصمة يرغب في الزواج ، وقد قدم أبوه من اجل هذا الغرض ، وجدنا مثلهما يرغب في ذلك

وباحت عندئذ بظنونها ، فيما يعني الحرشي .. وخانتها الدموع

فقال عثمان : ان الذي تخافه زينب ، يخافه عبد الله ، وقد اعترف لنا بخوفه ، في هذه الدار ، وكان يقول :

ان تردد الحرشي الى الرقة ، كل شهر له معانيه ..

ثم قال لامه : الا تذكرين كلامه ؟

ـ بلى واوصاني بان انتبه للامر ، وكانت ام عامر حاضرة

وأيقن عثمان عندئذ ، بعد ان ابصر دموع زينب ، ان الفتاة ، تعيش اليوم ، كما كانت تعيش في عهد الطفولة ، اي انها تؤثر عبدالله على جميع الفتيان ... وذلك الحب ، الذي خلقته العشرة وهما طفلان ، اضحى هوى طاغياً ، وهما فتيان ..

ولكنه لم يكتف بالدمع تذرفه العينان الساحرتان ، وانما كان يريد ان يسمع اعترافها الصريح ، بهواها الذي دله الدمع عليه

على ان سعدى ، لم تكن من رأي زينب

كانت تحب ان تحتفظ اختها بظنونها فلا تبوح بها ..

وحاولت ان تمنعها مـــن الافضاء بما تفكر فيه ، فأبت الا ان تخبر عثمان ، كما رأيت

وسعدى تعلم ، من مظاهر زينب، في منزل ام عثمان ، وفي البيت ، انها علقت عبدالله ، وشغفت به ، وكانت تخاف ساعتئذ ، ان يخونها جلدها ، كما خانها الدمع

ولبلغ المدى في الاعتراف بكل شيء

غير ان العاشقة ، كانت تذكر كرامتها ، كلما لج بهـــا الغرام ، وهي لا تنسى ، ان حبيبها سيظل عدواً لها ، حتى تنكشف الرغوة ويبين الحق ...

والويل لزينب ... انها بين عاملين قويين ، ثقلا عليها ، عامل الخضوع لارادة الجد والام ، وعامل الحب الذي استبد بها ، وملك عليها الامر

وماذا تصنع اذا قيل لها غداً : لقد اصبحت خطيبة لعصمة ، وستمسين زوجة له؟

أتتمرد وتخرج عن الطاعة ، ثم تقول : اني لا احبه ؟

والى اي درك يحطها هذا التمرد ؟

تغضب جدها ، وامها ، واخوتها ، من اجل حب لا تعلم الى اين ينتهي ؟ !

ومن أحبت ؟ احبت فتى دم ابيها في عنق ابيه ، وقد خدعها بقوله ، ان اباه بريء ، فاين هي هذه البراءة ، وكيف تظهر .. والشاهدان ابتلعتها الارض ، وطاهر وولداه طلحة وعبدالله سيسيرون الى النهروان ، بامر المأمون

اجل انها خدعة !

وعدها عبدالله بالاجتماع ، ثم بعث ام عثمان تعتذر عنه بالحرب . وعندما انتهت الحرب بعث يعتذر بالمسير الى ما وراء بغداد .. فان لم يكن هـذا خداعاً فأي شيء هو ؟

ورأى عثمان في عينيها ، وعلى جبينها ، دلائل التفكير .. بل رأى دلائـــل التعب .. ولم يخطر له انها اساءت الظن بعبدالله

فقال لسعدى وهو يضحك :

لقد كثر طلاب الزواج ، وستحيران غداً ، بين ان تردا هذا ، وتقبلا الاخر ..

فاستحيت وقالت : لم نجد اثراً لهؤلاء الطلاب الذين ذكرت

قال : اولهم هذا الحرشي ..

ـ ولكنه لم يطلب شيئاً بعد

قال : سيفعل اليوم او غداً فذلك هو غرضه وغرض ابيه ، غير اننا لا نعلم من هي امنية نفسه ، انت ام زينب .. ما رأيك فيه ؟

ـ الرأي في مثل هذا الامر ليس لي

ـ ولمن اذن؟

ـ لابي حاتم وام مروان

ـ واذا قال عبدالله الحرشي لابي حاتم : جئتك خاطباً سعـدى لابني عصمة ، فماذا تقولين ؟

ـ ما يقوله الاثنان ، لا انقص ولا ازيد

ـ وان اقبل احد القواد يخطب لعبدالله بن طاهر ، وخيروك بين الفتيين ؟

ـ اذا حدث ذلك ، وهو بعيد ، اخترت الحرشي ، وان يكن عبدالله خيراً منه

ـ ولم ذلك ؟

ـ لان طاهراً في نظري ونظر الناس قاتل حاتم ، فلن اكون زوجة لابنه

ـ ولكنه يعلم ، والله ورجال الجيش يشهدون ، انه ليس قاتلا

ـ ليثبت هذا ثم نرى

ـ وانت يا زينب ؟

ـ فتلجلج صوتها وهي تقول :

ليس لزينب رأي غير رأي سعدى .. اني بنت الطائي الذي قتل غدراً ، وهو يدعو ابناءه الى الطلب بدمه ..

وكانت تؤثر ان تلفظ روحها ، قبل ان تلفظ هذه الكلمات

غير انها كانت مكرهة على ان تماشي اختها ، وتماشي تقاليد العشائر وناموسها العام ..

وعثمان يمعن في الدرس ، ويغوص الى الاعماق ...

وقد تغلغل في نفس الفتاة ، حتى انه ليستطيع ان يحس الالم الذي شعرت به ، عندما ذكرت الطلب بدم القتيل

وعلى الرغم مما رأى ، لم يشأ الا ان يتمادى في الاختبار فقال :

اذن فانتما تردان عبدالله اذا جاء خاطباً !

فلم تجب

فقالت سعدى : اما اليوم فنعم

- وغداً ؟

- لا نعد بشيء ، فالرضى والرفض ، يتعلقان بالاجتماع الذي لا يستطيعون ان يقوموا به ..

وكانت الشمس تهم بالاحتجاب ، فقالت لزينب :

قومي نذهب ، فقال :

الآن ؟

- اجل ، ففي مثل هذه الساعة يجيء الضيوف

.. اصبت فقد نسيت عصمة واباه .. وبماذا اجيب عبد الله ؟

- أأنت ولي امره يا عثمان ؟

- بل انا خادمه ورفيقه ، وقد امرني بان اسألكما انتما الاثنين رأيكما فيه

وكان عثمان كاذبا ، فعبد الله لم يأمره بشيء من هذا ..

فضحكت قائلة : ولم يامرك بان تخطب له ؟

- سينظر في امر الخطبة بعد رجوعه

- خير له ان يتدبر امر ابيه ، قبل ان يفكر في الخطبة

- اي ان يمهد سبيل الاجتماع

- هو ذاك ، ويجب ان تعلم الرقة واهل العراق ، ان اباه كان بريئاً

قال : اهل العراق يعلمون ذلك ، حتى ان الجنود الذين حاربوا تحت لواء علي بن ماهان لا يستطيعون ان ينكروا هذه البراءة .. ولو لم يكن لهؤلاء الكذبة ؛ الذين اشاعوا ما اشاعوه في هذه المدينة ؛ غاية خاصة ، املاها الحسد والبغض ، لما تحدث احد بغدر ابن الحسين ؛ الذى لا وجود له ..

فنهضت وهي تقول :

انصح لك بان تبقي دفاعك عن الجماعة لوقت آخر ، وقل لعبدالله ، ان آل حاتم لا يريدون ان يكون لهم علاقة به وبابيه ، الا اذا برّ فيما قال ..

وقبل ان تنصرفا ، قالت زينب :

بل قل له ان الذي يعد يجب ان يقترن وعده بالوفاء

وكانت زينب تسأل الله في سرها ، ان يمن بالشفاء على الحبيب ..

ولما رجع عثمان ، لم يشأ ان يخبر عبدالله بكل ما سمع ، خوفاً من ان يؤثر هذا الخبر فيه

على ان الحكمة ، كانت تقضي عليـــه ، بان يعترف له بالاشيـــاء الاخرى ؛ ليتدارك الامر

وسأله عبد الله قائلا :

من رأيت من ابناء حاتم ؟

- سعدى وزينب

- ومروان والمغيرة

- كانا خارج الدار

- وذكرت للاثنين كتاب امير المؤمنين الذي يمنعنا من الوفاء بالوعد

- ذكرت ذلك ، ولم يبق لنا بالاجتماع امل

قال : ويلك ؛ ارفض ابو حاتم ؟

- لا ولكن ضاعت اثار سليمان وفياض ، فقد تركا الرقة ، ووقع الامر الذي خفت منه

- ولم يعلم مقرهما ؟

- لم يسأل احد عن هذا المقر

- ومتى كان ذلك ؟

- بعد مسيرنا الى كيسوم

- كان عليهم ان يستطلعوا الناس ، حقيقة هذا الرحيل

- لقد فعلوا فلم يجبهم احد ، حتى ان الجيران انفسهم ، لم يعرفوا شيئاً

فسكت لحظة ثم قال :

اما انا فسأعلم .. وسأنتزع الاثنين ولو كانا بين براثن الاسد ، واكرههما على الاعتراف بما جرى .. والان قل لي ، ماذا سمعت من زينب ؟

- ما يسمعه المرء من عاشقة ، لا تقدر على الوصول الى من تحب ..

قال : خبرتني ام عامر ، قبل خروجنا من الرقة ، انها بكت ، عندما ذكرت لها مسيرنا الى الحرب ، وكادت تبوح لها بالغرام .

قال : تستطيع الفتاة ان تكتم هواها ، ولكنها لا تستطيع ان تخفي الدمع .. انها تحب حباً لم تعرف قلوب العذارى اشد منه ؛ وانا ارى انها ستشقى بهذا الحب

- اتظن ؟

- نعم يا سيدي ، فهذه الشائعة التي يتناقلها الناس ، ويرددها الافواه ، تزيدها بعداً عنك .

- هذا في الظاهر ، واما القلب الذي يخفق على الهوى ، فهو يزداد خفوقاً كلما قسا الزمان .. فلا تخف ياعثمان ، ان زينب ستكون لي ، وسترى

- وعصمة بن عبد الله ؟

- ماذا فعل ؟

- لم تتغير عادته في المجيء كل شهر ، وهو اليوم في دار حاتم ، ومعه ابوه

- ومن خبرك ؟

- زينب نفسها ، فكأنها كانت تطلب الي ، ان انقل الخبر اليك

- وما غرض عبدالله ؟

- ان يخطب زينب

- كذبت ظنونه فزينب لا ترضى بعصمة ، ولا تترك الفتى الذي وهب لها قلبه ، منذ بضعة اعوام

قال : يظهر انك نسيت يا سيدي دم حاتم

- وانت نسيت ان حاتما قتيل حرب

- ولكن القوم لا يعرفون ذلك

- سيعرفونه بعد ان نعود من النهروان ... ادع ام عامر

فلما اقبلت قال لها :

بلغني ان عصمة الحرشي ، سيخطب زينب ، وقد قدم ابوه من بغـــداد من اجل هـــذا ..

- عصمة الحرشي .. رفيق مروان الى البيضاء ؟
- اجل ، فاذهبي غداً الى دار عثمان ، وسترين زينب عند المساء
- واسألها عن هذا ؟
- نعم ، وقولي لها ان ترده وترد اباه ، وتصبر حتى نرجع فانا على العهد
قالت : فهمت ، وهل بقي شيء ؟
- بقي ان تحفظي ما تقوله لك دون ان تسمع سعدى
وفي عصر اليوم الثاني ، كانت النساء الاربع ، في منزل عثمان .
وام عامر تغزل صوفها ، وهي تقف بالباب ، ثم تخرج الى الرواق، ثم تعود ، فعرفت زينب ، ان في صدر المرأة سراً ..
فلحقت بها ..
فقالت ام عامر وهي تخفض صوتها : لتهنئك الخطبة .. فمتى يكون الزواج ؟
قالت : لا خطبة ولا زواج ..! اتعنين ابن الحرشي ؟
- نعم ، فقد قيل لعبدالله انك امسيت خطيبة له !
- كذب القائل .. ولكن اباه سيخطب له على ما اظن
- وتقبلين انت هذه الخطبة ؟
- ما كنت لاخالف امي وابا حاتم فيما يأمرانني به
- ألهما رغبة في الامر ؟
- هذا ما ظهر لي
- اذن فانت لا تفكرين في عبدالله ، وستكونين لعصمة !
- سأكون للرجل الذي يختارونه لي !
واين هو هذا الحب ، الذي رأيت صورته في عينيك الصافيتين ؟
- ذهب .. ولم يبق له اثر ..
وسبقتها الدموع .. فقالت :
بل هو باق ، وهذا الدمع ابلغ دليل على وجوده .. انسيت عبدالله ، الذي نسي جراحه وحماه ، وبعث عثمان امس ، ثم ارسلني اليوم ، لارى زينب فتاة

احلامه ، واصف لها لواعج هواه ؟..

قالت : صدقت من قبل ، كل ما ذكروه لي عن عبدالله ، وكنت اظن انه الفتى الشريف القصد ، الذي يحفظ عهد ماضيه ، ويفي بما يعد به .. اما اليوم ، فقد عرفت انه يهزأ بي ، ويريدان يعبث بالحب الذي كاد يفضحني ويفضح العشيرة.. لقد قال لنا هنا .. في هذه الدار .. ان اباه ليس قاتلا ، وان الناس سيعلمون ، ان الذين اشاعوا خبر القتل كانوا رجال سوء .. قال هذا ، ثم رايناه يسير الى الحرب ، ونراه الان يعد عدة السفر الى النهروان ، بعد شفائه ، وقد نسي ما قاله لي .. افلا تقولين لي بدورك ، اين هو هذا الحب ، الذي زعمت انت ، وزعم هو انه استيقظ فيه ؟؟

قالت : تعلمين انه جريح ، وكان بينه وبين الموت ، قيد ذراع ، ثم تسألينه الوفاء بالوعد ؟!

- كان على ابيه ان يفعل ما لا يفعله هو ..

- ان طاهراً لا يعلم شيئاً ، وعندما بلغ عبدالله امس ، ان سليمان وفياضاً غادرا الرقة ، لم يشأ ان يذكر ذلك لابيه ..

- اذن فطاهر يجهل ما يردده القوم

- نعم

- واذن ، فبين كيسوم والنهروان ، وجهل طاهر ، ينقضي العمر ...

قالت : على المحبين ان يعتصموا بالصبر اذا جار القدر .. فثقي بعبدالله ، واعلمي ان الحياة لا تطيب له ، اذا لم تكوني قريبة منه ، وهو يقول لك ، انه على العهد ، فاصبري حتى يرجع

- واين اجد هذا الصبر ؟

- ان عبد الله سيمكث عند المأمون زهاء شهر ، وليس هذا بكثير

- ومن يسألني ابا حاتم ان يصبر ؟

- اي شأن لابي حاتم ؟

- شأنه انه يميل الى عصمة الحرشي ، وسيأمرني بان ارضى به

- سمعتك تقولين انه ليس هنالك خطبة

- اخشى ان يطلب ذلك غداً ، ويرضى الجد والام ، افأدعوهما الى الصبر حتى يرجع عبد الله ؟؟

واطلقت لدموعها العنان ، فتساقطت على خديها .. ثم استندت الى الجدار كي لا تسقط على الارض

فقالت ام عامر : بل تقولين انك لا ترغبين في الزواج اليوم

فقالت وهي تشهق بالبكاء : ذلك عار لم تقدم على مثله فتاة من بني طيء ...

- واين هو العار ، في رد فتى لا رغبة للفتاة فيه

- ليس للفتاة عندنا ، لا ارادة ، ولا رغبة ، وليس لها حق الاختيار ..

- واذا اصرت على عدم الرضى ؟

- فضحت اهلها وعشيرتها ، وتنقصها الرجال والنساء .. ويكفي انها تحمل عارها الى الابد !!

- واذا تزوجت من تحب ؟

- تنشب الحرب بين العشيرتين ، عشيرة الزوج ، وعشيرة الزوجة ، او بين الحيين او بين ابناء العشيرة الواحدة ، وتستمر العداوة بينهما الى اخر الزمان

- كان ذلك في العهود التي مضت

- بل هو باق في بني طي ، وبعض العشائر الى اليوم .. فالويل لي ...

وجعلت تكفكف دمعها وتقول :

نعم ، أحببت عبدالله وانا طفلة ، واحببته اليوم ، حتى لابذل حياتي من اجله ولكن هذا الحب سيضيع ، والذنب في ذلك ذنبي ، اذ لم يكن لي ، وانا بنت حاتم الطائي ، ان اعشق ابن القاتل ... فاذهبي يا ام عامر ، اذهبي وقولي لعبدالله ، ان زينب اعترفت بهواها اعترافاً صريحاً لا غموض فيه ، وستحفظ هذا الهوى حتى تأتي الساعة ... بل اعيدي عليه كل كلمة قلتها واذكري له هذه الدموع التي تنطق بما في القلب ... واذا تزوجت ، فسيكون غرضي من زواجي ، ان احفظ شرف اسرتي وتقاليدعشيرتي ، وسيظل خياله في نهاري ، وطيفه في ليلي عزاء لي ...نعم .

اولي اه كل هذا ، وليذهب الى كيسوم ، والى النهروان عندما يشاء ، فقد فرقت الاقدار بيننا ، وخاب الرجاء باللقاء ...

قالت : لا تستطيع الاقدار ان تفرق بين حبيبين ..

فابتسمت ابتسامة ألم وقالت :

اجل ، فان فرقت بينهما في هذا العالم فسيجتمعان في العالم الآخر ..

فحاولت ان تعيد اليها الامل.. ولكن سعدى كانت قد خرجت وهي تقول:

خيل الي ان ام عامر اختطفت زينب ، فقالت :

لو كنت رجلا ، وفي مقتبل العمر ، لفعلت ..

ولما جاوزتا فناء الدار قالت :

اراك باكية يا زينب فماذا جرى ؟

قالت : وانا اراك تسألينني عما تعلمين .. لقد بكيت هـــذا الحب الذي خلق ليختنق في الصدر ..

وعندما دخلتا المنزل ، كانت دموعها قد اختفت

وكانت ام عامر تقول في تلك الساعة لام عثمان

ان هذا الحرشي راغب في الزواج ، وقد يكرهون زينب على الرضى به

- ونسيت عبدالله ؟

- لا ، فهي تحبه حب عبادة ، غير انها مؤمنة ، بانها ستقضي العمر بعيدة عنه

- واعترفت بذلك ؟

- نعم ، وقد دفعتها خيبة الرجاء الى هذا الاعتراف

قالت : احذري ان تذكري الحرشي امام عبدالله ، فجراحه لم تبرأ بعد

- لا تخافي ، فهو ولدي ، وانا اعرف الناس بعواطفه وامانيه

● ● ●

ماذا يا ام عامر ؟

- لا استطيع يا بني ، ان اصف لك ما رايت ، ان الفتاة تطلب اليك ، وهم

تلج في الطلب ، ان تتعجل في اظهار براءة ابيك ، كي لا يذهب هذا الحب ..

فقال عبدالله : وكيف اتعجل في ذلك ؛ وسأترك الرقة بعد بضعة عشر يوماً ، وانا لا اعرف البلد ، الذي لجأ اليه عدوا ابي .. افلم تقولي لها ان تنتظر رجوعي لاتفرغ للامر ، واجعل البراءة حديثاً لجميع الناس ؟

- بلى ، ولكنها تخاف ان يمعن الدهر في جفائه ..

قال : نستعين بجميع الوسائل على هذا الجفاء ، فنبلغ الغاية

قالت : اسمع يا بني ، الم تقل ، انك ستعمد بعد حرب كيسوم ، الى النظر في التهمة التي نسبت الى ابيك ؟

- بلى

- وماذا جرى بعد هذه الحرب ؟ جرحت وانتقضت جراحك .. وورد امر المأمون يدعوكم الى المثول بين يديه ، فلم يكن لك في هذه الحادثات ، ما تستطيع معه التفرغ لما قلت ، افرأيت كيف يجفو الدهر الذي تستخف به ؟

= ولكننا انتهينا الان ، وستزول بعد عودتنا من النهروان ، هذه الصبغة التي صبغوا بها طاهر بن الحسين

قالت : ذكرت ذلك لزينب ، فلم ار غير الايمان الضعيف ، واليأس الذي لا يعقبه رجاء ومن يدري ، فقد يأمرك الخليفة ، وانت في النهروان ، بالمسير الى ما وراء خراسان ، وقد تمكث في ذلك القطر بضعة اعوام ، تذوب في خلالها الصداقات ، ويضمحل الغرام ...

- واي عمل لي في تلك الناحية البعيدة ، من الشرق ؟

- هذا ما لا يعلمه غير امير المؤمنين ، فقل لي يا بني ، ما تكون قيمة وعودك وحبك ، اذا انت ندبت لمثل هذا ؟

فسكت ملياً ثم قال : انه خاطر غريب يا ام عامر

- اجل ، وتقضي عليك الكرامة بان تحتاط له ، اتقدر ان تهرب من امر يريده امير المؤمنين ؟

- لا

- وهل يليق بابن طاهر ان يتراجع ، اذا عهد اليه في تنفيذ هذا الامر ؟

- لا

- واذا حدث ما نقول ، افلا يجوز لزينب ، ان تحول وجهها عنك ، وتمسي زوجة لرجل اخر يحفظ لها العهد ؟ . قل ، الا يجوز لها ذلك ؟

- بلى ، غير ان الامر الذي تذكرينه لن يتم ، ولا يستطيع امير المؤمنين نفسه ، ان يبعدني عن زينب ، حتى ان المعالي ، والسياسة ، والاطماع ، اضعف من ان تنسيني الفتاة ، التي يخفق لها هذا القلب .. ووالله ، لو امرني المأمون ، بالذهاب الى بلد لا اراها فيه ، لبحت له بغرامي ، وسألته ان يعطف على الفؤاد المعذب ويرفق به .

قالت : اذا سألته ذلك ، قام في ذهنه ، انك تؤثر هواك ، على مصلحة الخلافة

قال : هو يعلم ، ان طاهراً وبنيه ، من اصدق الناس في خدمة العرش ، وان مصلحة الدولة في نظرهم ، فوق كل شيء ، وانا مؤمن على كل حال ، بان زينب ستبقى لي ، ولو ابعدني المأمون الى اخر الارض ..

وكانها لم تشأ ان تزيد كلمة على هذا ، فقالت :

هذا ما ارغب فيه يا بني ، شفاك الله

وفي تلك اللحظة ، اقبل طاهر والحسين بن عمر ، ومعهما بعض الضباط

فلما ابصر طاهر ام عامر ، بالقرب من فراش الجريح قال :

ان امك بالرضاع يا عبدالله ، ستشفي جراحك .. بما تحدثينه يا امعامر ؟

- اصف له يا مولاي ، عظمة الرجال ، الذين تكثر جراحهم ، في سبيل الدفاع عن امير المؤمنين ...

- احسنت ، فقد امسى عبدالله ، على صغر سنه ، من هؤلاء .. كيف انت يا بني ؟

- كما ترى ، وسأترك الفراش بعد بضعة ايام ان شاء الله

- ونسير يومذاك الى النهروان ، ان امير المؤمنين يريد ذلك ، ونحن لا نسافر ، الا بعد ان تشفي

وخرجت عندئذ ام عامر ، فقال عبدالله :

انظن يا ابي ، ان امير المؤمنين ، سيأمرك بالبقاء معه ، ويترك حرب نصر ؟

- اما نصر ، فليس من الحكمة ان يغفل عنه ، واما بقائي بين يديه فامر لا اشك فيه ..

- لماذا ؟

- لان العباسيين خصوم له كما علمت ، ولى الفضل بن سهل ، واخاه الحسن ، ومن ينتمي اليهما ، المناصب الكبرى في الدولة ، وجعل علياً الرضا ولياً لعهده ، كانه يريد ان تنتقل الخلافة من بني العباس .. ثم لبس هو الثياب الخضر ، وامر الناس بان يخلعوا السواد ، شعار بني العباس ... فعل ذلك ، فجعل اهل بيته جميعهم اعداء لعرشه .. وهو يخشى ، في مجيئه الى بغداد ، ان يحمل الجيش الذي انضم الى ابراهيم بن المهدي ، لواء العصيان ، ويساعده الناس في عصيانه ، فيضطر مكرهاً الى التراجع ، وهذا ما لا تطيقه النفوس الكبيرة ، مثل نفس المأمون

قال : ومن اجل ذلك ، عمد الى دعوة المخلصين له من القواد ، ليكونوا الى جانبه ، قبل ان ينقل قدماً الى عاصمة الرشيد

- هو ذاك ، وقد يدعو الجيش المقيم بالرقة ، لينضم الى جيش الحسن بن سهل

واومأ الى الحسين بن عمر قائلا :

وقد عهدت في القيادة ، وحفظ هذه الارض ، الى ابي علي ، حتى يرى امير المؤمنين رأيه بعد ذلك

- اي ان ابا علي ، سيمكث بالرقة ، لا يخرج منها ، ولا يشهر سيفاً ، الا اذا أتاه امر آخر ..

- نعم ، فاما ان يبقى ، او ان يتركها الى الابد... وانت يا بني ، اي البلدين احسن في نظرك ، بغداد ام الرقة ؟

فظن الفتى ، ان خبر غرامه ، انتهى الى ابيه ، فقال :

ليس في بغداد ، التي تخرج عن طاعة امير المؤمنين ، شيء حسن ... ان الرقة

خير منها ..

فالتفت الى الحسين قائلا : أسمعت ابلغ من هذا ؟

ـ لا اعجب لما يقوله عبدالله ، فهو سر ابيه ، وسيكون له شأن

قال : لا خير في بنيّ ، ان لم يكن لهم شأنهم ، في دولة المأمون

فالما وخرج مع خاصته يزورون الجرحى من الجنود ، ولم تلبث نائلة ؛ حتى دخلت على عبدالله

فجعل يخبرها بما قصته عليه ام عامر ، وكانت تقول :

طب نفساً يا بني ، فزينب لن تخون من تحب ، ولن تنكث العهد . . .

***

٢٦

كيف رأيت البيضاء يا ابا عصمة

ـ في احسن حال ، وقد ذهب الداء الذي اصاب النوق . .

ـ وعبيدنا فيها ؟

ـ انك لا تجد عبيداً اشد اخلاصاً من هؤلاء

ـ ومتى ترجع اليها ؟

ـ بعد شهر ، او شهرين ، او اكثر من عام . . لا اعلم

ـ اذن تقيم عندنا بضعة ايام ثم تعود الى بغداد

قال . لقد طالت الغيبة عن بغداد يا ابا حاتم ، فسأنصرف بعد يومين

ـ بل تمكث اسبوعاً كاملاً ، فكلما سمعت صوتك خيل الي ان حاتماً في الدار

ووضع يديه على عينيه المغمضتين ، كأنه يريد ان يحبس دمعه . .

فقال الحرشي : لي في الرقة حاجة ، فان قضيت بقيت

– واين هي حاجتك .. عند طاهر ؟

– بل هي في هذا البيت ، ولم اذكرها قبل ذهابي الى البيضاء

قال : عندنا يا ابا عصمت وتسكت ؟ . ما هي ؟

– جئت اسألك ان تجعل زينب خطيبة لعصمة ..

ويظهر ، ان الشيخ ، فكر في هذه الخطبة ، قبل ان يحدثه بها عبدالله

فقال دون ان يتردد :

وعصمة هنا ؟

– انه مع المغيرة ومروان

قال: ليس بين الفتيان من هو احب الي منه.. ولكن عليّ ان اسأل ام مروان

– اذن فانت راض

– نعم ، واضمن لك رضى الام

– والفتاة ؟

– اما الفتاة فليس لها الا ان تطيع .. ثم قال :

تخطب لعصمة اليوم ... والزواج ؟

– في هذا الشهر ، وقد وثقت بوعدك

– على ان لي شرطاً ارجو ان توافقني فيه ، هو ان يقيم عصمة مع زوجته بالرقة ، وليس ببغداد

– ولم ذلك ؟

– لاني اريد ان يظل ابناء حاتم حولي ، حتى يغمض الموت عيني ..

قال : اعدك بهذا ...

فنادى راوية وقال لها :

علي بام مروان

فلما اقبلت ، اعاد عليها حديث عبد الله ، وجعل يقول :

انك تعرفين الفتى كما اعرفه ، وتحبينه كما احبه ، وانا اعلم انك سترضين به

زوجاً لزينب كما رضيت ، ولكني احببت ان اسمع منك ، ويسمـــع ابو عصمة ، كلمة الرضى

قالت : ولا تسأل زينب ؟

قال : اعادة جديدة في بني طيء يا ام مروان ؟ ومتى كان لعذارى العشيرة رأي في هذا ؟ لقد زوجنا عصمة بن عبدالله الحرشي بزينب بنت حاتم الطائي وانتهى الامر ..

قالت : ليس لي ان اعرض الك في الامر الذي ترغب فيه .. ولكن ما كنت احب ان ينتهي شيء قبل ان احدث الفتاة ، واذكر لها رغبة جدها في هذا الزواج واحملها على الرضى ان لم تكن راضية ..

قال : افعلي الان ، ما كنت تريدين ان تفعليه من قبل ، فانا قد وعدت فآ لما هذا التعجل في الوعد ..

غير انها لم تشأ ان تشكو ، فقد تعودت ان تطيع ابا حاتم ، وحــاتم حي ولم تكن لتغضب الشيخ الاعمى الذي كان زوجها يوصيها دائما بالخضوع له

على انها كانت تعلم ، ان زينب لا تريد ان تكون لابن الحرشي .. فقد رأتها اكثر من مرة ، تخرج من الدار الى الفناء ، لتبتعد عنه .. وسمعتها تصف لؤمه ، وخباثة نفسه .. وما نسيت ، انها دلتها على آثار قدميه .. لتثبت لها ، ان طهارة الخلق ، وعظمة النفس بعيدتان عنه ..

اجل ، كانت تعلم ذلك .. ولكن العادة جــائرة .. والتقليد لا يرحم .. فعليها ان تعمد الى الحسنى فيما تحدثهـا به ، وجعلت تقول :

ليس هنالك ما يمنعني من الاعتراف ، بان ابا عصمة ، كان من اخلص الناس لحاتم ، واحبهم اليه ، وان زينب ستكون سعيدة وقريرة العين ، اذا زفت الى ولده ، وانما اردت ان امهد الامر ، واذكر لها حاجة المراة الى رجــل تعيش في ظله ، قبل ان انقل اليها خبر الخطبة ، ليهون الصعب ، اذا وجد ..

ــ اذن فانت ترين ، ان الفتى كفوء لزينب

ــ نعم

ـ اذا كان هذا ، فقولي لها ما تريدين، ويجب ان تعلم ، اننا سنعقد له عليها في هـذا الشهر ، وسيقيم الزوجان بالرقة ..

فخرجت وهي واثقة ، بان مهمتها ليست سهلة ، وستواجه الصعوبة في حمـــل الفتاة على القبول

وكانت سعدى واختها ، في غرفتها ، وزينب تبكي ..

لقد عرفت ، ان ابا حاتم لم يدع امها الى مخدعه ، وعنده ابو عصمة ، الى للامر الذي كانت تخافه ..

وهي لا تدري ، اتبيعها امها بيعاً لا رجوع فيه ، ام تسألها رأيها قبل ان تفعل

وماذا يصنع ابو حاتم . أيقسو ام يلين .. وهو الذي لم يحد حياته كلها عـــن عادات قومه ؟ !

ان النكبة ستقع ، وستخسر عبدالله ..

هنالك هوى سيموت في فجر عمره.. وحبيب لوث يديه دم الجريمة .. فعلى اي رجاء ، واي امل ترد الحرشي ، وهـذا الحبيب الذي وهبت له الروح ، لا يبر في قوله ولا يبالي ؟ !

اكتب لها ان تعيش عمرها كله ، مع رجل لا تحبه ، ولا تفكر فيه ..

ومن يستطيع ان يحمل مثل هذا الشقاء الى الابد ؟

وتبكي .. ثم تبكي .. وسعدى تقول لها :

كفى ، فانت تبكين من غير أن تعلمي شيئا

وهي لا تسمع ، ولا تصغي الا الى صوت القلب ..

حتى عادت امها .

فرفعت رأسها قائلة لها :

اتم البيع ، وقضي الامر ؟

ـ اي امر واي بيع ؟

ـ الم يخطب هذا الحرشي لابنه ؟

فتكلفت الابتسام وقالت :

اتكون الخطبة بيعاً ؟ ! ان الفتيان ، في جميع بلاد الله ، يتسابقــون الى خطبة الحسان .. بلى ، لقد خطب عبدالله لعصمة ، ووعده ابو حاتم

- وانت ؟

- ان ابا حاتم اراد ذلك ، فعلينا جميعنا ان نريد ما يريده ، فهو ولي الامر بعد ولده القتيل ، ويعلم ما لا نعلم ...

قالت : وهذا هو البيع ؟!

ثم اوحى اليها الهوى ، بفكرة غريبة ، فقالت :

خطبة .. وزواج .. ودم ابي يذهب هدراً !! ألا فاذكروا قتيلكم يا آل حاتم قبل ان تقيموا الاعراس ...

وكأن سهماً اصاب ام مروان ! لقد نسيت الزوجة دم زوجها ، ونسي الوالد دم ولده ... غير ان الفتاة ، التي اراد الاثنان ان يزوجاها ، لم ترد ان يكون هنالك عرس ، قبل ان ترى جثة القاتل معفرة بالتراب ...

انها حيلة من حيل الشيطان ..

فحنت حبيبة رأسها حزناً وخجلا .. وقد ايقنت بان حماهــا سيجعل الزواج موعداً آخر ، وسيتدبر امر الثأر

ولكن ، من يقتحم عرين الاسد ؟ من يقتل طاهراً ؟ أمروان ام المغيرة ؟

واذا خسرت احدهما ، فأي نفع للحياة بعده ؟

هكذا كانت تفكر ، منذ قتل حاتم ، وهكذا تفكر الان ..

وكلما عرضت الموقف ، تبين لها انه يجب ان تكون هي الضحية ..

اي ان تطعن القاتل طعنة تزهق معها روحه ، ثم تموت .

والشيخ ؟ اما الشيخ فهو في خريف العمر ، وقد تفاجئه المنية بعــد عام او عامين ، فمن يبقى لابنيها الاربعة ، اذا قتلت طاهراً ، وقتلوها به ؟

واسودت الدنيا في عينيها ، فالثأر قبل العرس كما تقول زينب .. ولكن لا سبيل الى ذلك ، الا اذا كانت روحها هي الثمن ..

وحاولت ان تخفي مظاهر الالم ، فقالت :

اتظنين يا بنية اني غفلت عن القتيل ؟ لا ، والذي روحي بيده .. وانما اضن بحياة المغيرة ومروان ، واخشى اذا انا ذكرت اباهما كل يوم ، ان يخرجا طالبين بدمه ، دون ان نعلم ، فيضيعا ..

- ومن يطلب هذا الدم اذاً ؟ جدي ضعيف ، ونحن نساء ثلاث لا نصلح لاخذ الثار ، فلم يبق الا ان نبحث عن رجل يتولى الامر ، وقد وجدته

- من هو ؟

- الحرشي نفسه !

وقبل ان تجاوب ، اقبل الشيخ في الدهليز ، يتلمس الجدران بعصاه يستعين بحفيديه مروان والمغيرة اللذين كانا عن جانبيه

حتى انتهى الى باب الغرفة فقال :

لقد انصرف عبدالله وابنه ، فاذا كان لكم جميعكم ما تقولونه ، فلا تترددوا وارشدوه الى البساط ، فجلس بين الوسائد ، فقالت حبيبة :

زوجنا زينب ، ونسينا حاتماً ... افلا يهزأ بنا اهل الرقة غداً قائلين : لقـــد ماتت كرامة الطائيين ، واخذتهم غمرة الفرح ، فتركوا ثأرهم ؟

فتلجلج صوته وجعل يقول :

ولدي ... وهل ينسى ابو حاتم ولده ! ولكن الزواج شيء ، والثأر الذي لا يموت شيء اخر ... وطاهر سيقتل

وكأنه عول على تنفيذ فكرته الاولى ، التي املت عليه ان يسلح يد مغيث ويبعث به الى المسجد ، ليغدر بطاهر او باحد بنيه

قالت ، اما انا فلي كلمة اقولها ان شئت ، أليس لزينب صداق من المال يدفعه عصمة ؟

- بلى

- وما هي قيمته ؟

- لم نتحدث بالامر فعبدالله يعلم ان مال الصداق مهما كثر قليل على زينب ..

- اذن ينبغي ان نتنزل له عن هذا المال ، مهما يكن

- لماذا ؟

- لنجعل المهر شيئاً اخر ..

قال : لم افهم

قالت : ارى ان يكون مهر الفتاة ، قتل طاهر

- اي ان زينب لا تزف الى عصمة ، الا بعد ان يذهب القاتل من الوجود

- نعم

- واين هي الكرامة في ما تقولين ؟! يعجز الطائيون في الرقة عن قتل رجل، فيعهد كبيرهم في قتله الى عصمة الحرشي ، ويعده بان يجعل حفيدته زينب زوجة له ، على ان يكون هذا القتل مهراً لها ؟! ما شاء الله ، اهذا هو الشرف ام هو الهوان والذل ؟ ... اني لا احب ان اسمع شيئاً من هذا مرة ثانية .. قلتم ان مروان وعبدالله بن طاهر سيجتمعان ، ثم يجمعني مجلس اخر بطاهر ، فرضيت ، وفي ذلك ذل لنا ، افتريدون اليوم ، ان يلعنني الناس ، وانزل الى قبري متلبساً بالعار ؟ .

واستعان بعصاه يهم بالخروج

وكانت سعدى قد خبرت مروان والمغيرة ، بما قصه عليهما عثمان .

فاستوقفه مروان قائلا :

لقد عرفت ، ان عبدالله بن طاهر رجع جريحاً ، وان سليمان وفياضاً لم يبق لهما في الرقة أثر ، فكيف نجتمع؟

– انا لا ابالي اتم هذا الاجتماع ام لم يتم .. ولكني لا اطيق ان يكون لكم في كل يوم رأي ... قلت ان طاهراً سيقتل فلا تعلقوا الزواج على القتل ...

- واين يقتل ، افي المسجد ؟

قال : اما الان فلا اعلم

– ألم يبلغك خبر سفره ؟

– لا

– لقد دعاه المأمون الى النهروان ، وسيسير اليها مع بنيه واهل بيته بعد

شفاء عبدالله ، فاذا كان لا بد من قتله فليكن ذلك قبل ان يرحلوا

فقال وهو لم يهتم بما سمع :

وعدت الحرشي بالزواج ، واعدكم انتم بتسليم طاهر او احد بنيه الى الشيطان وسأفي بالوعدين

قال : اعتقد ياسيدي انك لست قادراً على الوفاء بالوعد الاخـــير ، ونحن لا نريد ان تقوم انت بالوفاء به

ـ لا انا ولا انتم ، فهنالك رجل يتولى الامر

فظنوا جميعهم ، ان طالب الزواج هو ذلك الرجل ، وان الشيخ اراد ان يكتمهم ذلك ، فقالت حبيبة :

ـ اهو عصمة ؟

قال : ما كنت لاعهد في القضاء على عدوي ، الى رجل غريب عن العشيرة

ـ اذن هو فتى من فتيان طيء ...

ـ ليس لكم ان تسألوني عن هذا

ـ ولكن لنا ان نسألك متى يكون ذلك ، أقبل الزواج ام بعده ؟

ـ لا ادرى ، فقد يكون قبل الزواج

فجعلت ام مروان تنظر الى بنيها ، ولم تطب نفوسهم الى هذه الالغاز التي لم يفهموا منها شيئاً ، وخافوا ان يحوجوه ، فيخرجوه

غير ان صدر زينب كان يغلي ، وثورة نفسها قد جاوزت حدها ، فقالت :

خير لنا يا سيدي ، ان يضرب الرجل ضربته ، قبل ان انتقل من هـذه الدار الى دار الحرشي

ـ لماذا ؟

ـ لان اهل الرقة كثيرو الظنون ، فسيخلقون الاكاذيب وانت لا تريد ان يسخروا بي

وكانت غايتها من ذلك ، ان يعمد الرجل الى ضرب طاهر فيقبض عليه قبل ان يفعل ، فيعترف بان ابا حاتم هو الآمر بالقتل ، ويقوم عبدالله عندئذ بدور الوسيط

فيقول لابيه : ان الرجل الذي قبض عليه يطلب الثأر للطائيين الذين بلغهم انك غدوت بحاتم ... وحينئذ يجتمع الفريقان ، فتظهر البراءة دون ان يحتاج طاهر الى سلمان وفياض ، ويتم الصلح ...

وتستطيع زينب في ذلك اليوم ، انتعترف بغرامها ؛ وتقول للحرشي :

ان عبدالله بن طاهر سيكون زوجاً لي ، فاذهب انت الى لعنة الله ...

غير ان الشيخ اراد غير ما تريده هي .. لقد وضع خطته لم يبح بها لاحد ولم يستعن برأي ، وامعن في الكتمان ، لا يصغي الى ما يقوله حفـــدته الاربعة وام مروان .. فقال لزينب :

اني راض يا بنية بان يسخروا بي ، فانا كبيركم ، والطلب بدم ابني مفروض علي لا عليك ، فارضي بما رضيت

وكان يعرف مقامه .. فتدلل ...

ونهض قائلا : خذ بيدي يا مروان

فمشى معه حفيداه الى حجرته ، وارتفع صوت زينب بالبكاء ...

فقالت سعدى لامها : انها لا تحب عصمة ولا ترغب فيه ، فاتركوا الزواج الان

قالت : اتنتظر الام ان تحب ابنتها رجلا لتزفها اليه ؟! ان الفتى الحرشي لا بأس به ، وسيكون خادماً لها لا زوجاً ، فقالت زينب :

أوثر ان اكون جارية في بيت ابي ، على ان اصير سيدة في بيت اخر ...

ــ اما نحن فنؤثر ان تصبحي زوجـة لفتى ، هو وابوه من وجوه الناس ... قولي ، اتحبين احداً ؟

فلم تجب

ودلت دموعها الغزيرة على أنها تحب ..

ــ ماذا يا سعدى ؟

ــ لا اعلم شيئاً ، بلى اعلم انها تكره الحرشي ، وهي مؤمنة بانه اخبث الناس

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ من اثار قدميه عند باب المخدع ، ومن رحيل الرجلين اللذين اتهما طاهراً

وهي تقول ، ان عصمة نفسه هو السبب في هذا الرحيل

— وما الذي يهمها من هذا الامر ؟

— يهمها منه ان الفتى بعيد جداً عن المروءة ، ولا كرامة له

فقالت : زينب ، ما هذه الظنون يا بنية ؟

فجعلت تمسح دموعها وتقول :

انها امور لمستها بيدي وليست ظنونا .. الم يكن الفتى نذلا ، عندما وقف بالباب يصغي الى ما يقال في الداخل ، وعندما نقل ما سمعـــه الى ابن سعد وابن قيس ؟ اذن فعلى بني طيء ، وهم من اشرف العشائر ، ان يبتعدوا عنـه ... واما الذي يهمني ، فهو هذه العداوة بيننا وبين طاهر ، والتي اخشى ان يذهب نيارهـا باخوي الاثنين ، قبل ان نتبين صحة الخبر او كذب الوشاة .. ستقولين لي ، مـا شأن الحرشي بكل ذلك ، اما شأنه فقد اراد ان يترك الرجلان الرقـــة ، ليغلق علينا وعلى طاهر ابواب الاجتماع ، فتزداد العداوة عنفاً ، وتزداد الرغبة في اخـذ الثار .. وهو يخاف من ناحية اخرى ، اذا كذب الواشي ، ان تزف زينب الى احد ابناء طاهر ، ولا تبقى له .. تلك هي غاية الفتى ، الذي تريدون ان تبيعوني منه ..

واستسلمت للكآبة والبكاء ..

فتفطر قلب الام ، ولم تكن تريد ، كأ مر ، ان تزف ابنتهـــا مكرهة ، الى رجل ينفر قلبها منه ، وتعيش حياتها معه ، شقية معذبة .. بل لم تكن تريد الا ان تختار هي بنفسها ، ذلك الرجل ..

ولكن ما حيلتها ، وتلك هي عادة العشيرة .. وذلك هو الناموس الذي لم يتغير بتغير الزمان ...

ولم يخطر لحبيبة ، ان هنالك هوى ملك على الفتاة قوى العاطفة ..

ومن اين لها ان تظن ، ان عبدالله بن طاهر ، الذي كان رفيقاً لها في اللعب ، امسى رفيق الروح .. وان ابنتها تطمع في ان يكون رفيق العمر ..

لقد كتمت الفتاتان ، خبر لقائها بعبدالله ، في دار عثمان ، فلم يعلم احد غير

سعدى ، ان الحب القديم بعث حياً بعد ان طوته الاعوام ..

وام مروان الان ، بين شرين ، فمن الرأي ان تختار الاصغر منهما ..

لتغضب زينب .. وان يكن غضبهـــا سهما في قلب الام .. ولا يغضب ابو حاتم ..

ان لزينب في سنها دواء .. واما ابو حاتم ، الذي جاوز الثمانين ، فلا دواء له..

وعولت على المضي في الامر ، فقالت :

مهما يكن غرض عصمة يا بنية ، فقد رأينا انه اهل لك ، وهذا جدك لا يريـد الا ان ينجز ما وعد ، فقالت سعدى :

اجعلوا موعد الزواج بعد ثلاثة اشهر

— وهل تتغير الحال اذا فعلنا ؟

فنظرت الى زينب نظرة خاصة قائلة :

اظن ان زينب ، بعد الاشهر الثلاثة ، ستعرف الشيء الكثير عن هذا الحرشي فترضى به

وقد ارادت بذلك ، ان تمد اجل الزواج ، ليتسع المجال امام عبدالله بن طاهر ، فيسير الى النهروان ويرجع ، ويكذب الرواية التي اشاعها المبغضون ..

نعم ، كانت سعدى تود لو تظهر براءة طاهر ، ليصير عبدالله زوجا لاختها

وقد ادركت زينب غاية سعدى ، فارسلت اليها بدورها نظرة شكر

وكانت ام مروان تقول : اما انا فيطيب لي ، ان يكون الموعد بعد عـام ، اذا رضي ابو حاتم

وعندما عرض هذا الرأي على الشيخ قال :

لا باس ، فليكن ذلك في جمادى الاول

اي بعد شهرين ونصف الشهر

وفي المساء عرفت ام عثمان كل شيء ، ولم يلبث الخبر حتى انتهى الى عبدالله ، وكان قد غادر فراشه ، والقوم يهمون بالسفر

فاضطربت نفسه ، غير ان العزة ابت عليه ان يظهر الضعف فقال لام عثمان :

قولي لزينب ، ان غيبتي في النهروان لا تطول ، وان يوم الحساب بيننا وبين اعدائنا قريب انشاء الله ، فلتطمئن ، وسأراها بعد يومين ..

ولكنه لم ير احداً ، فان زينب قبل سفره بليلة واحدة ، كانت مريضة وهي تهذي ، ولم تعلم انه ترك الرقة

• • •

٢٧

لم يكن المأمون ، ليغفل لحظة واحدة ، عن السياسة التي تجعله ناعم البال ، وتجعل ملكه موطد الاركان

وهي سياسة خليفة واع ، فيها الحكمة ، وبعد النظر ، والرشد

اراد اولا ، ان يوثق عرى المودة بينه وبين العلويين .. فعقد زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل ، وهي آية في الذكاء والجمال ، ولم تبلغ سن الزواج

وزوج بنته ام حبيب ؛ من ولي عهده علي الرضا ، وبنته الاخرى ام الفضل من محمد ابن ولي العهد !!

وأمر ابراهيم بن موسى ، شقيق علي الرضا ، أن يحج بالناس ، ويدعو لاخيه بولاية العهد ، بعد الدعاء لامير المؤمنين

وكان يفكر ، في ان يسترضي بني العباس ، من غير ان يشعر احد ، ان له من وراء ذلك غاية خاصة ..

وقبل ان يصل الى مدينة طوس ، بلغه نعي سهل ، والد الفضل والحسن ، فتظاهر بالحزن عليه ، وبعث بكتاب تعزية الى ولده

وكان يسير في مهل ، من مكان الى اخر ، يمكث بكل بـلد الشهر والشهرين والثلاثة ، يجلس فيها المظالم ، وينظر في امور الرعية ، وكلما اتى بلداً ، اظهر له اهله الطاعة والخضوع

حتى كان خريف ذلك العام ، عام ثلاثة ومئتين فنزل بطوس ؛ وعقد فيهـــا مجالس الشورى ، يضع النهج الذي سيسير عليه في بغداد

وهناك في طوس ، المدينة التي مات فيها الرشيد ، مات فجأة علي الرضا ...

اكل عنباً .. فاكثر منه فمات !

فاهتزت الدنيا لموته ، وكان من الطبيعي ، ان يتحدث النـاس ، بامر ذلك العنب اللعين ، الذي يقتل عباد الله .. وان تملأ الاشاعات جميع الاقطار .

وتهامس بعضهم قائلين :

هذه ضحية اخرى من ضحايا امير المؤمنين !

امر بقتل وزيره الفضل ؛ ثم ضرب اعناق قاتليه ، وجعـل السم في العنب ، الذي كان ولي العهد يحبه ويفرط في اكله ، فمات ..

على ان هذه الاشاعة ، التي كذبها بعضهم ، وصدقها البعض الاخر ، ووقف عندها فريق من المؤرخين ، لا يلعن ولا يبارك ، لا تستند الا الى الظنون

لقد رعى ولي عهده علياً ، رعاية فيها العطف والايثار .. وصاهره.. واحاطه هو واهل بيته ، بجميع اسباب التكريم .. وكان يحفظ له فضله في افشاء ما كتمه الفضل بن سهل ، من اخبار الفتنة في بغداد ..

وهو لو تعمد قتله ، لما زوجه وزوج ابنه محمداً ، ابنتيه

ذلك هو رأي بعض رجال التاريخ

يقابله رأي اخر ، هو ان المأمون ، لم يكن مطمئنا الى ما يفعله العباسيون في الخفاء ، وكان قد عرف ، انهم ينكرون عليه انصرافه عنهم ، وميله الى الحزب العلوي ، وجعله علياً ولي عهده ، فعول على قتله ، كما قتل الفضل ليقول لهم :

انظروا ، لقد ذهب رؤساء الشيعة ، فبايعوا واطيعوا ..

اما الاستاذ ميور فيقول ، ان هذه الحادثة ، وجميع الحوادث التي مضت ،

يكتنفها الابهام والغموض ..

اجتمعت طوس ، تشيع ولي العهد الصالح ..

وصلى عليه امير المؤمنين نفسه ، ودفنه عند قبر ابيه الرشيد ..

ثم كتب الى الحسن بن سهل يقول :

ان الفاجعة بموت علي ليست فاجعة اسرة وحزب ، وانما هي فاجعة الخلافة وفاجعة العرب

ثم كتب الى بني العباس ، والموالي واهل بغداد :

ان الرجلين ، اللذين انكرتم عليهما الوزارة وولاية العهد ، قد ماتا ، فادخلوا في الطاعة

فكتبوا اليه اغلظ جواب كتب الى خليفة ..

على ان كتابه ، احدث بعد ذلك رد فعل ، فقد اخذ بنو العباس يقولون :

ان المأمون ، هو الخليفة الشرعي بعد الامين ، وانه خير ابناء الرشيد ، في ادبه وعلمه ، ورحابة صدره وحلمه .. وان عمه ابراهيم بن المهدي ، الذي اختاروه خليفة لهم في بغداد ، لم يكن بالرجل الاداري السياسي ، الذي يستطيع ان يسود العرب

وجعل بعضهم يحرض عليه اهل الاحياء ..

ثم تمادوا فقالوا

ان هذا الامير العباسي ، الذي هو سليل الخلفاء ، لم ينشأ كما اراد آباؤه وانما آثر المغنين واهل اللهو ، على العلماء والفقهاء ، ورجال السياسة ، ولم يتمرس بما ينبغي ان يتمرس به ابنا الملوك ..

وشايع بني العباس ، في هذا الانقلاب الفجائي ، معظم قواد الجيش وافراده اولئك الذين حملوا سيوفهم من قبل ، ليدافعوا عنه ، ويردوا جيش الحسن بن سهل

فعلوا ذلك ، لانهم راوا ان المأمون ، سيصل ظافراً الى بغداد ، اي ان اهل المدن جميعهم سيمشون في ركابه حتى يبلغ العاصمة ، فمن مصلحتهم اذن ، ان يحملوا المباخر ، ويتخلوا عن الضعيف ليتبعوا القوي !..

وهذا هو شأن معظم الناس ، في كل زمان .

زد على كل هذا ، ان الحسن ، ومن معه من رجال السيف ، رفعوا رؤوسهم وخرجوا من ارض السواد وضواحيه ، زاحفين الى المدائن ، عاصمة ابراهيم

وقد ملأت الثقة نفوسهم ، ان ساعة النصر النهائي قد اتت، وان القدر سيحط الخليفة البغدادي عن مقعده ، الوثير ، الرفيع

وراح عيسى، بن محمد بن ابي خالد، الذي كان يقوم بامر ابراهيم، يكاتب الحسن واحد قواده حميد بن عبد الحميد ، ويسألهما ان يقدما بغداد ليسلمها اليهما

وبلغ ابراهيم ، ان حميداً احدق به ، ومعظم اهله بني العباس ، ومن يتبعهم من الناس ، تفرقوا عنه

فاخرج جميع من بقي معه من الجند ، واعطاهم السلاح والمال ليقاتلوا عدوه

فالتقوا في احدى الضواحي ، ولم تمر بضع ساعات من اليوم ، حتى كان حميد قد ردهم مرتين ، ثم انهزموا في المرة الثالثة لا يلتفتون الى الوراء

فدخل حميد بغداد ، في اخر ذي القعدة ، من ذلك العام ، وابراهيم في المدائن بعد عدة الهرب ، الى مكان لا تعرفه الشياطين ..

والفضل بن الربيع ! نعم ، الفضل بن الربيع ، بنفسه وجسده ، كان مع خليفة بغداد ، وكان ينصح له ، على عادته مع الخلفاء . . بان يتخلى عن الخلافة لصاحبها الشرعي ، وان ينقطع الى العبادة والزهد ، في بقعة بعيدة عن اكاذيب الناس ، وزخارف الدنيا . . .

ان ابن الربيع ، صاحب المآثر والمفاخر ، كان مستشار ابراهيم ، يوغر صدره على المامون ، ثم على جميع بني العباس ... ويدفعه الى قتال من يريـــد خلعه عن العرش ...

ومثلما فعل مع البرامكة والرشيد ، ومع المأمون والامين .. هكذا فعل مع ابراهيم بن المهدي وابن اخيه ..

ان هذا الرجل ، الذي عاش في بلاط الخلفاء ، وتبين جميع وجوه السياسة ، والادارة والدهاء ، وكان كثير الفطنة ، وكثير الحذر .. لم يكن يستطيع العيش

الا اذا وشى ونم ، وسعى وغدر .. وكان يحلم ، وهذه هي نقطة الضعف فيه بانه سيرجع الى مقامه في الدولة ، وستكون الكلمة الاخيرة في شؤون الخلافة ، له لا لسواه ..

الفضل بن سهل ، الذي انشأ دولة المأمون، وبسط ظلها في فضاء هذا الشرق.. وعلي الرضا ، الطاهر الوجدان ، الذي جعل ولياً للعهد ، انتقلا الى العالم الاخر ، فلم يبق للخليفة خراسان، من يستعين به على امره، غير الحسن بن سهل ، وطاهر بن الحسين ، من وجوه دولته ، والاثنان ، لا يقدران على حفظ العراق من الفتن..

فليكذب ابن الربيع ، ما طاب له الكذب ، وليحمل السم في وعاء ظاهره عسل .. وليغر العم بابن اخيه ، وابن الاخ بعمه .. حتى يقوم السيف مقام الكلام فيتفرق الاصحاب ، ويحفظ الرؤساء رؤوسهم عند تغيير الدول ، كما يقولون .. فلا يجد المنتصر عندئذ ، من يستطيع ان يعيد الهدوء والأمن ، الى البلد الذي نكب ، غير رجل السياسة والصلاح ، والصدق ، الفضل بن الربيع ...

وهو لو وجه اختباره ، وسياسته ، ودهاءه ، الى الخير ، لكان رجل دولة ، ومن اعظم الرجال، الذين انجبهم العراق ..

ولكن مساعيه كلها ، ذهبت في الهواء ..

فصاحبه ابراهيم يزداد ضعفاً ، والحسن بن سهل يزداد قوة ، وامير المؤمنين في طريقه الى بغداد،تنحني له جباه القوم.. وطاهر بن الحسين سيوافيه في النهروان.. وذلك الامل ، بوقوف بني العباس ، في وجه المأمون ، كان املا خائباً ..

فلم ير ، الا ان ينزل الى بطن الارض مرة اخرى ، ويستخفي عن الناس ، هو وسيده الجديد ..

ولم يلبث حتي احتجب .. ثم تحول الى حميد ، واقبل العباسيون والقواد بعده ، يأتون حميداً ، الواحد بعد الاخر ، ويظهرون الطاعة ..

فتلفت ابراهيم .. فلم يجد حوله غير الخاصة .. فجعل يداري ، ويجامل ، ويتظاهر بالهدوء ، الى ان جن الليل ، فخرج من قصره ، في شهر ذي الحجة ، وقد وضع خطة الفرار .

وقد ظن المطلب بن عبدالله ، بن مالك ، انه في القصر لا يجسر على الظهور فكتب الى حميد يقول :

ان جنودي يحيطون بقصر بن المهدي

فاقبل القائد الى القصر ، يفتش عن صاحبه ، فلم يجده ، وتعب كثيراً في السؤال عنه ، فلم يرشده اليه احد ..

وكانت ايامه على العرش ، سنة واحدة ، واحد عشر شهراً ، وبعض الشهر ..

• • •

زلزلت الارض زلزالها في خراسان

ومادت المدن بسكانها ، في ذلك القطر الواسع ، فتهدمت الاكواخ والقصور ، وفتحت الارض شدقيها تبتلع الالوف من البشر ، وتغوص في اعماقها ، المساجد والشوارع ، والبيوت ، حتى شملت النكبة خطاً طويلا جداً ، من بلخ ، الى ما وراء النهر

وبلغ عدد الضحايا ، بضعة الاف من الناس ..

وظلت الزلازل ، في تلك الرقعة من البلاد ، سبعين يوماً ، تثور وتهدأ ؟ واصحابها المساكين المنكودي الحظ ، الذين كتبت لهم الحياة ، يفرون الى البقاع ، التي لم ينزل بها غضب الطبيعة الرهيب

فارسل غسان بن عبادة ، والي خراسان ، من يحمل النبأ المروع الى امير المؤمنين

وكان المأمون قد بلغ همذان

فدعا الرسول وقال له :

ويلك .. اكانت النكبة كما وصفها لنا غسان في كتابه ؟

— نعم يا امير المؤمنين ، ولعلها اعظم مما كتب

— واهل المدن الذين خسروا كل شيء

— لجأوا جميعهم الى المناطق السليمة في البلاد ، وهم يعيشون في العراء

— وماذا صنع غسان ؟

— ارسل رجال الشرطة والجند، يطوفون في النواحي ، ويحملون اليه اخبارها وهو ينتظر اليوم امر امير المؤمنين

وكان في مجلس الخليفة ، في تلك الساعة ، العباس بن المسيب بن زهير، صاحب شرطته ، وقائد الحرس عبد الواحد بن سلامه ، وحاجبه عبد الحميد بن شبث

فقال لهم : ما رأيكم في خراج خراسان ، نهبه لهؤلاء الذين نكبوا ؟

فقال العباس : في هذا خير علاج ..

فقال للرسول : ما تعلم انت عن هذا الخراج .. اجباه غسان عن هذا العام ،

— نعم يا امير المؤمنين ، ودفعه اليه الجباة ، منذ اكثر من شهر

اذن نكتب اليه ، وانت تقول له : ان يرد الى الجماعة خراج ارضهم ، ويعطيهم خراج الارض الاخرى كله لا يترك منه شيئاً في بيت المال .. وان لم يكف ، فليكتب الينا لنرسل اليه من بغداد ما يزيد على ارزاق الجند

والتفت الى خاصته قائلا :

اكتبوا ما سمعتم الى غسان ، ولا تنس انت يا رجل ما اوصيناك به

وقبل ان يأمرهم بالانصراف ، استأذن عليه صفوان بن سلمة ، وهو من جنود الحسن بن سهل ، يحمل اليه كتابا من حميد بن عبد الحميد ، وعلي بن هشام

وقد جاء في كتابهما :

ان الحسن بن سهل ، تغير عقله ، فهو يضرب غلمانه وقواده وجواريه ، وكل من يراه ، ضرب مجنون لا يعلم ما يفعل ، وقد شد من الحديد وحبس .. فلم نستطع ، الا ان نكتب في ذلك الى امير المؤمنين ، والامر له ..

فأطرق وهو يعبث بلحيته الصغيرة ثم قال :

انا لله .. لقد جن الحسن .. اكتب يا غلام .

من عبدالله المأمون امير المؤمنين ، الى قواد الخلافة في بغداد :

ان امير المؤمنين سيصل اليكم بعد زمن قصير ، فاجعلوا على الجيش دينار بن عبدالله ، وانتظروا قدومنا

ثم انتقل الى جرجان ، فاقام بها شهراً ..

ثم قدم النهروان ، وارسل في طلب احمد بن ابي خالد ، الذي كان أبوه كاتباً لعبيدالله ، كاتب المهدي

وكان طاهر واهل بيته ، على رأس مستقبليه ..

فسلموا عليه ، وجعل يسأل طاهراً عن نصر بن شبث ..

وطاهر ؛ يعد له العشائر والرجال ، الذين حملوا معه السيف ، وكان يقول :

كنا الفين يا امير المؤمنين ، ونصر في عشرة آلاف ..

قال : ما رأيناك قط تحسب حساباً للعدة والعدد .. ولكن بلغنا انك كرهت ان تسير الى قتال خارجي ، بعد ان ظفرت بخليفة .. وسقت الخلافة الى خليفة آخر وقد قلت للحسن :

كان ينبغي ان توجه الى قتال نصر ، قائداً من قوادي .. اليس كذلك ؟

— بلى يا امير المؤمنين ، قلت هذا ، وذهبت مكرهاً الى حرب الرجل ..

قال : اخطأ الحسن فيما فعل ، ولو عرفنا انه سيوليك قتال نصر ، لمنعناه ..

ثم جلس للناس قبل الغروب

وفي اليوم الثاني ، دعا طاهراً وصاحب الشرطة ، وقال لهما :

ليذكر كل واحد منكما ما يعرفه عن احمد بن ابي خالد

فقال طاهر : اعرف فيه الكفاية ، والبصر بالامور ، والاخلاص لاصحابه ، فاذا اردت ان تستعمله يا امير المؤمنين فافعل

— وانت يا عباس ؟

— اسمع الناس يتحدثون بادب نفسه ، وصدقه في الخدمة

— ونحن قد عرفناه كاتباً واديباً ، كما يعرفه الحسن بن سهل

ونادى حاجبه قائلا :

ارسل يا عبد الحميد ، الى احمد بن ابي خالد ، ليحضر الينا

فخرج الحاجب وبعث برسوله

فلما اتاه الرسول ، خاف ولم يدر في اي شيء طلبه امير المؤمنين

وعندما اقبل قال المأمون :

اجلس ، ان امير المؤمنين كان قد عول من قبل ، على الا يستوزر حداً .. اما الان فقد طاب لنا ان نعرض الوزارة عليك ، فما تقول ؟

قال : اعفني من التسمي بالوزارة يا امير المؤمنين ، وطالبني بالواجب فيها ، واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي ، ويخافني معها عدوي ..

فاستحسن الخليفة كلامه وقال :

ان هذين الرجلين ، وهو يعني طاهراً والعباس ، نصحا لنا بان نستعملك ، لانك كفوء فانت وزيرنا مذ الان ..

فحنى رأسه وقال :

بل انا خادمك يا امير المؤمنين ، كما كان ابي خادماً لابائك

فنهض طاهر والعباس يهنئانه بوزارته وكان يقول :

اني كاتب امير المؤمنين ولست وزيره

وهذا يدل ، على انه كان قد اعتبر ، بما جرى للفضل بن سهل وامثاله ، فلم يشأ الا ان يتنازل عن هذا اللقب الضخم ... الذي يقود صاحبه الى الهلاك ..

وجعلوا يتحدثون بامر ابراهيم بن المهدي ، والحسن ، والفضل بن الربيع ، وغير هؤلاء

الى ان قال العباس :

اخشى ان يمكر بنا اهل بغداد كما مكروا بابراهيم

فاجابه طاهر قائلا :

اما انا فاظن ، انهم سيأتون امير المؤمنين مستغفرين ، ويسألونه ان يعفو ،

ويقبلون الارض التي تطأها قدماه .

قال : لو كانت هذه غايتهم لقدموا النهروان ..

قال : يخيل الي ، اننا سنراهم هنا بعد بضعة ايام ، وسيقابلهم امير المؤمنين بعفوه واحسانه ..

فابتسم المأمون وقال :

اما الاحسان فامير المؤمنين لا يملك الان من المال ما يحسن به الى رعيته .. لقد اعطينا الناس ما حملناه من خراسان ، ولم يبق معنا غير خمسين الف درهم . ونحن الان واثقون بان القوم جميعهم في العراق سيبايعون مختارين ، ويخضعون ..

فقال الوزير الجديد ، وهو يبتسم كما ابتسم مولاه :

لو اتينا بغداد ، وليس معنا الا خمسون الف درهم ، ورأينا النـــاس في فتنة غلبت قلوبهم ، فما يكون حالنا ؟

قال : صدقت يا احمد ، ولكن اسمع ، ان الناس على طبقات ثلاث : ظـالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فاما الظالم ، فلا ينتظر الا عفونا عنـــه ، واما المظلوم فيتوقع أن ينتصف بنا ، واما الاخر الذي ليس بظالم ولا مظلوم ؛ فهو في بيته ، لا يفكر في غير اهله ، ولا يهمه من هـــذا الامر كله ، الا ان يعيش مطمئن الخاطر قرير العين .

وكان بعضهم قد خبر طاهرا ، بان الحسن بن سهل اصيب بالجنون ، فقال :

اي حادث نزل بالحسن يا امير المؤمنين ؟

قال : قتل اخوه الفضل في سرخس ، ثم مات علي الرضا في طوس ، وثارت عليه بغداد وطرد منها الى السواد ، وهو يحارب ويدافع ، فجن .. انه عـارض ويزول ..

ثم قال : انظروا كيف ندخل العاصمة بعد ايام . ومن ندعو من القواد ؟

فالتفت القوم الى طاهر فقال :

سندعو جميع الجنود والقواد ، الذين خذلوا ابراهيم ، وتخلوا عنه ، ليرى الناس ان رجال السيف ، يمشون في طليعة المو كب ، وقد بايعوك

- والذين لا يكترثون للدعوة ، ولا ينقلون الينا قدماً؟
- أعرفهم واحداً واحداً ، وسأسلمهم الى امـــير المؤمنين ، ليعلق اجسادهم على الجسر .. فقال :
بل نفعل معهم ما يفعله الوالد البار مع بنيه الجهلة .. اكتبوا غداً ، اسـما الذين ستدعونهم مع الجيش الخاضع لهم ، وادفعوا الي ما تكتبون
- وهل تطول اقامة امير المؤمنين بهذا البلد؟
- لا فسنتركه بعد يومين ، الا اذا طرأ ما يدعو الى البقاء
واومأ اليهم بالخروج ، ليدعو غيرهم من خاصته ، ويشاورهم في اموره
وهي عادة لم يغيرها المأمون ، في حياته
ونظر يومه ، في ما عرض عليه ، وقضى حاجات الناس ، حتى اقبـل المساء ، فجلس لاصحابه من جديد ، يصغي الى ما يقولون
وكان ذلك يوم خميس ، من شهر صفر
فلما اصبحوا يوم الجمعة ، والنهروان لم تستيقظ بعد ، رأى العبيد والغلمـان ، طائفة من الخيل ، على ظهورها الفرسان ، تدخل البلد من جانبه الغربي ..
واطل رجال الخليفة ، يتبينون القادمين
ثم ارتفعت اصوات الخدم يقولون :
هؤلاء بنو العباس ..
فقام المأمون فاخذ مجلسه ، وجلس حوله مستشاروه ورجـاله ، بينهم عبد الله وطاهر ، ابنا طاهر ..
ثم اذن للقوم وهم :
اعضاء البيت المالك ، وكبار القواد ، ووجوه الناس ..
دخلوا وقالوا بصوت واحد :
السلام عليك يا امير المؤمنين
فنهض واقفا ، ويداه الاثنتان الى الامام .. يأخذ هذا بينهما ، ويضم هذا .. ويهش للاخر حتى انتهى ، فامر لهم بالجلوس

وقد سمع باذنيه اعترافهم به ، اذ سلموا عليه بالخلافة .. ثم قال :

مرحباً بكم بني العباس ، ووجوه العراق .. لقد ترك خليفتكم خراسان ، واقبل اليكم ليقيم بينكم ، ويحسن الى من يستحق الاحسان منكم .. وقد نسي ما فعلتم .. فاذا كفرتم بالطاعة عما مضى ، كان امير المؤمنين ابا واخاً لكل واحد منكم .. والا وتربة امير المؤمنين الرشيد ، لاجعلن المسيء الخداع عبرة ، لاهل هذا الجيل وللاجيال التي تأتي بعده .. اذكروا حاجاتكم ..

فقام عمه المنصور بن المهدي فقال :

لا حاجة لنا يا امير المؤمنين ، الا ان تغفر للذين خرجوا عليك

قال : سنفعل ما تشير علينا به يا عم فانت لم ترض ان يبايعك الناس بالخلافة ، وانما توليت امر بغداد باسم المأمون ، وهذ شأن الرجال البررة الذين يطيعون خليفة رسول الله . واما عمنا ابراهيم ، فكنا نتمنى ان نراه ، لنحمل اليه تهانيء رعيته في خراسان ..

فقال احمد بن ابي خالد : قلت يا امير المؤمنين ، انك نسيت ما فعله القوم في بغداد ..

– اجل ، نسينا ، ولكن كنا نحب ان نظهر خضوعنا ، لمن جلس في مقعد الخلافة ، والخليفة الشرعي حي ! .. اين هو ابراهيم اليوم يا عم ؟

– لا يعلم المكان الذي لجأ اليه غير الله

– وغير رجال الشرطة .. والفضل بن الربيع ؟

– كان قد فر ثم استسلم ..

– لمن ؟

فقال حميد بن عبد الحميد : لي انا يا امير المؤمنين

– وبقي في بغداد ؟

– نعم

– اذن سنحظى برؤيته .. وكيف تركت الحسن ؟

– انه يتماثل شيئاً فشيئاً من علته ، وقد تركناه احسن حالا من ذي قبل

قال : عندما بلغنا خبر مرضه ، جعلنا دينار بن عبدالله على الجيش

قال : سمعنا واطعنا ، وخدمة امير المؤمنين فرض على كل عربي

ـ اما انت فسننظر في امرك بعد وصولنا الى العاصمة ، وسنعهد الى وزيرنا في تولية الرجال المخلصين للخليفة

فقال اخوه صالح بن الرشيد : من هو وزيرك يا امير المؤمنين ؟

فاشار الى احمد قائلا : هذا ، فقد وليناه امور الخلافة بعد الفضل

وجعل يتفرس في جلسائه ثم قال :

اين المطلب بن عبدالله ؟

فوقف الرجل وقال : بين يديك يا مولانا

قال : الم يكن ابوك صاحب شرطة الرشيد ؟

ـ بلى

ـ الم تكن للرشيد يد عليك ؟

ـ بلى ، ولن ننسى ذلك يا امير المؤمنين

ـ بل نسيت ، وقد رأيناك تخونه في بنيه !..

ـ انا ؟

فضحك قائلا : نعم انت .. اخذت البيعة في بغداد لابراهيم بن المهدي، وكنت تدعو الناس الى قتال عاملنا الحسن بن سهل يساعدك في ذلك السندي بن شاهك ، وصالح صاحب المصلى، ونصير الوصيف، الذين طاب لهم ان يستبدلوا خليفة باخر..

قال : فعلت ذلك يا امير المؤمنين ، ثم ندمت وعدت الى صوابي ، وجعلت ادعو الى خلعه ، وهذا عمك المنصور ، وخزيمة بن خازم ، يشهدان

قال : لا نسأل احداً عن شيء عرفناه .. ونحن لا نريد بك شراً، وانما احببنا ان نذكر لك هذا ، لتعلم ويعلم هؤلاء ، ان امير المؤمنين لم يكن غريباً عما جرى في بغداد

ـ وهل علمت يا امير المؤمنين ، ان رجال ابراهيم نهبوا داري ، ودور اهلي ، لم يبقوا على شيء

قال : فعلوا ذلك بامر خليفتهم ، وللخليفة ان يفعـــل ما يشاء .. تقوم بامر البيعة ، ثم تتخلى عنه ، وتريد ان يسكت ويغض طرفه عنك ؟ ولمـــاذا لا يأمر بنهب دار ابن عمنا العباس بن الهادي ، الذي جعله على الجانب الغربي من العاصمة، ودار اخيه اسحق ، الذي ولاه الجانب الشرقي ؟؟ انهما ظلا خاضعين طائعين له لم يخوناه ، ولم يكاتبا اعداءه كما فعلت انت ..

وكان ولدا الهادي في القوم ، ولكنهما لم يقولا كلمة ..

ثم التفت الى اخيه ، ابي اسحق بن الرشيد ، وقال له :

اكنت تدافع عن ابراهيم ، ام عن اخيك المأمون ، يوم خرجت الى قتـــال مهدي بن علوان ؟

قال : عندما ندبني ابراهيم الى قتاله ، احسست اني اوافع عن الخلافة التي هي لك ، وكرهت ان يمد الخارجي يده الى ملكك ..

قال : هذا جواب رجل خبر دنياه .. احسنت يا ابا اسحق ..

وجعل يسألهم عن دجلة ، والرصافة ، والشماسية وجميع الاحيـــاء ، ويعرض اخوته واعمامه ، وابنـــاءهم ، والقواد والوجوه الذين حوله ، وهو يفكر في ان يستعمل بعضهم وينحي البعض الاخر ، عندما يستوي في مقعد الخلافة ، في بغداد

وقد طابت نفوس القوم ، واطمأنوا الى هـــذا التسامح والعفو يظهرهما لهم امير المؤمنين ، بعد ان اساءوا اليه

• • •

٢٨

اقام المأمون بالنهروان ثمانية ايام ، ثم غادرها الى بغداد

فلما انتهى اليها ، خرج اهلها يستقبلونه بجميع مظاهر الاستبشار والحب

وقد احسوا ، ان الفتنة قد ماتت ، وان الطمأنينة ستسود المدينة ، التي ظلت بضعة اعوام ، طعمة لرجال السوء

ورأوا ، ان خليفتهم واصحابه ، يلبسون الثياب الخضر ..

فاستبدلوا ثيـــابهم ولبسوا الاخضر ، وجعلوا يمزقون كل لباس اسود تقع عليه العين ..!

نزل امـــير المؤمنين الرصافة ، ثم تحول الى قصره على شاطيء دجلة ، وامر قواده بان يقيم كل واحد منهم في معسكره ..

واقبلت الوفود ، من اتباعه ، واتباع الامين وابراهيم ، تظهر خضوعها له ، وهو لا يسأل احداً عما فعل ..

وعندما جلس للناس ، كان الحسن بن سهل ، اول رجل سأل عنه

ثم لم يلبث حتى رآه بين يديه ، وقد عادت العافية اليه

وجعل المأمون يمتحن ..

طلب اليه ان يصف له حال بغداد من قبل ، وحالهـــا اليوم ، ففعل ، وجاء وصفه دقيقاً صحيحاً كأن ذلك العارض الذي فاجأه ، منـــذ اكثر من شهرين ، لم يؤثر في المخيلة

بلى .. كان يذكر من ساعة الى ساعة ، اخاه الفضل ، واباه سهلا ، ثم يذكر علياً الرضا ، وتدمع عيناه .

فلم يشأ المأمون ان يتزيد في حديثه معه ، وآثر ان يدعـــه في داره ينفرد فيها شهرين آخرين حتى يتم له الشفاء

وبعد بضعة ايام ، بلغ الخليفة ان الناس يتحدثون بامر هذا الشعار الاخضر ، الذي اختـــاره لدولته ، وانهم يظهرون رغبتهم في خلعه ، والرجوع الى شعار العباسيين

وبنو العباس ، هم الذين تحدثوا بهذا ، ورددت الخاصة احاديثهم حتى بلغت امير المؤمنين ..

فرأى ان يماشي الجماعة هذه المرة ، لانه امسى واثقاً باخلاصهم ، ولمس طاعتهم

بده ، وكان دهاؤه السياسي ، من وجه آخر ، يقضي عليه بذلك ، فقـال لطاهر ن الحسين :

اذا جلسنا للناس غداً ، فاسألنا ان نعود الى لبس الشعار العباسي ..

ــ سافعل يا امير المؤمنين

ــ واين ولداك طلحة وعبدالله لا نراهما في القصر ؟

ــ انهما في ظل مولانا الخليفة اعزه الله

ــ لماذا لا يجيئان مع الناس؟

ــ لاني لم ارد ان يدخلا ويخرجا ، ويضيعا مع الوفود ، ولا حاجة لهما

ــ ارسلها الينا بعد ذهاب وفود الاقاليم

وفي الغداة ، اقبل بنو العباس على عادتهم ، وفيهم اخوته ، وكانت مقاعدهم ومقاعد الوزير والخاصة في صدر المجلس ..

ثم وفد الشعراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والجماعات من النواحي ، هـــذا يصف عدالة امير المؤمنين وحلمه ، وهذا يصف ذكاءه وسياسته ، وهذا ينشد شعره الرائع في فضائله حتى انتهوا من حرق بخورهم فقال لهم :

اذكروا حاجاتكم

فتكلم بنو العباس ، والقواد ، والذين قدموا معه من خراسان ، وذكر كل واحد منهم ما اراد ، وهو يأمر لهم بما طلبوا ..

وطاهر ساكت لا يسمع له صوت !

فقال له المأمون :

اليس لك حاجة يا ابا الطيب ؟ « ابو الطيب كنية طاهر »

قال : لي حاجة يا امير المؤمنين اخشى ان اسألك قضاءها فتغضب ..

قال : هاتها ولا تخف ..

قال : اسالك باسم امير المؤمنين الرشيد رحمه الله ، وباسم ولدك العباس واخوته ان تخلع هذا الثوب الذي لم يكن قط شعاراً للدولة ، وتامر بلبس السواد ...

فجعل ينظر الى من حوله ، كانه يستشيرهم في الامر .. ثم قال :

اهذه حاجتك ؟

– نعم يا امير المؤمنين وليس لي سواها فان اردت ان تقضيها لي ..

فقال الحاجبه : الثياب السود يا عبد الحميد ..

فارتفعت اصوات بني العباس والجلساء بالدعاء له ولبنيه ودولته ..

وحملت الثياب ، فلبس هو .. وامر بخلعة سوداء لطـــاهر بن الحسين صاحب الاقتراح .. ثم خلع السواد ، على القواد ، وظهرت الغبطة على وجهه ، ووجوه القوم .. ان الشعار الذي استرجعه ، كان دليلا على ان الخلافة لن تخرج من آل العباس

وهذا ما دعا الجماعة ، الى الابتهاج والاستبشار

ثم خرجت الوفود .. ولم يبق في المجلس غير العباسيين ورجـــال البلاط ، والقواد ، وعبدالله بن الحسين ، من سلالة الامام علي ، فقال المأمون لاخيه صالح :

لقد وليناك البصرة ، فانهج فيها نهج الرجال ، الذين يعلمون ما يجب لله ، وما يجب للناس ..

وقال لاخيه الاخر ابي عيسى : وجعلناك انت عاملا لنا على الكوفة فاحفظ ما قلناه لاخيك ..

ثم التفت الى عبيد الله بن الحسين قائلا :

اما انت فقد استعملناك على الحرمين ، وامرناك بان تحج بالناس هذا العام

فقام الثلاثة فاثنوا وشكروا !

وخطر له في تلك الساعة ، ان يسأل العباس بن المسيب صاحب شرطته ، عن عمه ابراهيم ، فاجابه

لم يقف له رجالي على اثر يا امير المؤمنين

ودخل الحاجب عندئذ فقال :

محمد بن الحسن الهمداني ، من الموصل

– وما حاجته ؟

– يطلب المثول بين يديك

فدخل الرجل ، فقال : اتظلم يا امير المؤمنين من السيد بن انس الازدي!..

– ماذا صنع ؟

– قتل اخوتي ، واهل بيتي ، وغصبنا ما نملك بدون حق

قال . سندعو ابن انس من الموصل ، فاذا دخل علينا فادخل انت

قال : انه في بغداد يا امير المؤمنين ، في دار ابن عمه موسى العبادي

فقال لابن المسيب : احضر الرجل

فلم تكن غير ساعة قصيرة ، حتى التقى الخصمان.. فقال الخليفة لابن انس..

انت السيد ؟

– انت السيد يا امير المؤمنين وانا ابن انس

فاستحسن ذلك فقال :

انت قتلت اخوة هذا ؟

– نعم يا امير المؤمنين ، ولو كان هو معهم لقتلته ..

– وفي اي شيء استحقوا القتل ؟

– ادخلوا الخارجي مهدي بن عمران بلدك ، واعـلوه على منبرك ، وابطلوا دعوتك ، فسله عن هذا يا امير المؤمنين

قال : اصحيح ما يقوله ابن انس ايها الهمداني ؟

فظل ساكتاً ، فقال له :

لقد احسن الازدي فيما فعل ، ويكفيك انت ، انك نجوت من الموت ، وان امير المؤمنين عفا عنك .. اتدخلون الخارجي بلدكم ، وتستعينون به على خصومكم، وتتظلمون ؟.. قم فاخرج ولا تعد الى بغداد ..

وانت يا ابن انس ، فالموصل ولايتك .. واجعل على قضائها الحسين بن موسى الاشيب ، وعلى شرطتها رجلا من قومك الأزد .. واحـذر الظلم فليس لعمالنا الظالمين غير السيف

ثم قال لجلسائه :

غداً يوضع الطعام للناس ، فمن اراد الحضور منكم فليفعل

قالها ونهض يريد القصر فالتقاه ابراهيم بن السندي ، صاحب اخباره فقال له :

انا" اصبنا يا امير المؤمنين رقاعاً فيها كلام السفهاء ، وفيها التهديد والوعيد لك ، وهي محفوظة عندنا الى ان يأمر امير المؤمنين فيها بامره

فقال : هذا امر ان اكبرناه كثر غمنا به ، واتسع علينا خرقه ، فمر رجالك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة ان يمزقوها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم ير لهـــا لا اثر ولا عين

وهي سياسة فيها الحكمة ، وبعد النظر ، والحلم

فلما طلعت الشمس في اليوم الثاني ، اذن للناس ، فدخلوا ، واخذوا مجالسهم، واذا الفضل بن الربيع بالباب ويداه على صدره ، وهو مطرق .!

فظن القوم ، ان هذا الرجل ، الذي استولى على كل ما تركه الرشيد للمأمون في طوس من مال ومتاع ، وخيل وجيش ، وامر الناس بالرجوع الى بغـداد ، حاملا كل ذلك للامين ، مخالفاً وصية مولاه ، الذي نام في طوس، نومه الابدي..

هذا الرجل ، الذي استخدم مقدرته وذكاءه ، وخبرته ونفوذه ، ليفسد على المأمون امره ، ويخلعه عن ولاية العهد ، والذي ، حمل الامين على ارسال الجيوش الى خراسان لقتل اخيه !

الرجل الذي بذل جهده كله ، ليجعل خلافة ابراهيم بن المهدي ، خلافة قوية ثابتة لا تمتد اليها يد الزمان

نعم ، لقد ظن القوم ، ان هذا الخائن الاكبر ، الواقف بالبـــاب ، سيخرج امير المؤمنين عن حده ، فيأمر حجابه بان يتخطفوه بالسيوف ؟ . قبل ان تطأ قدماه ارض المجلس

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث

فقد رأوا الخليفة ينظر اليه ، وتغمر ثغره ابتسامة ليس لهـا لون ، ثم سمعوه يقول :

ادخل ، ادخل ، فمجلس امير المؤمنين مفتوح للصديق والعدو ..

فحاول ان يتكلم ، فلم يقدر ..

ولكنه خطا بضع خطوات ، يريدان يقبل قدمي المـأمون .. غير انه حول وجهه عنه ولم يجد عليه بعد ذلك بنظرة واحدة .. ولم يوجه اليه كلمة ..

وهو واقف كانه بين يدي الجلاد

حتى اتت ساعة الغداء ، ووضعت الموائد للناس على مراتبهم ..

وجلس المأمون ، وعلى مائدته طاهر بن الحسين ، وسعيد بن سلم ، وحميد بن عبد الحميد ، وعلى رأسه سعيد الخطيب ، وهو يقرظه ، ويذكر مناقبه ..

والفضل بن الربيع ، مع الحرس ..

فبينما هم يا كلون ، انهملت عينا المأمون بالدموع .. فرفع يده عن الطعام ، وامسك القوم .. حتى اذا كف قال لهم :

كلوا ..

فقالوا : يا امير المؤمنين، وهل نسيغ طعاماً او شرابا ، وسيدنا على هذه الحال؟

قال ، اما والله ما ذلك من حدث ، ولا لمكروه هممت به باحد ، وانما هو واجب من واجبات الشكر لله ، لعظمته ، وذكر لنعمته التي اتمها علي كما اتمها على ابوي من قبلي .. اما ترون ذلك الذي في صحن الدار – يعني ابن الربيع – وقد كان في ايام الرشيد ، وحاله حاله ؛ يراني بوجه اعرف فيه البغض والحقد .. وكان له عندي ، كالذي لي عنده .. ولكني كنت اداريه خوفاً من سعايته وحذراً من اكاذيبه .. وكنت اذا سلمت عليه ورد علي اظل لذلك فرحاً ومبتهجاً به ..

ثم قال :

وكان هواه في الامين .. فحمله على ان اغراه بي ودعاه الى قتـلي ، ولكن الامين انكر عليه القتل وقال له :

اما القتل فلا ، ولكني اجعله بحيث اذا قال لم يطع ، واذا دعـا لم يجب ، فكان احسن حالاتي عنده ، انه وجه مع علي بن ماهان ، قيد فضة ، بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به .. انظروا الى موضعه من الدار ، انه اخس مجالسها وادنى مراتبها ..

واومأ الى سعيد الخطيب قائلا :

وهذا الخطيب على رأسي وكان بالامس يقف مرة على هذا المنبر ، وعلى المنبر الغربي مرة اخرى ، فيزعم اني المأفون ولست بالمأمون .. ثم هو الساعة يقرظني تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام ..

فقال طاهر : يا سيدنا لقد اباحك الله اراقة دمائهما فحصنتهما بالعفو والحلم ، فقال :

فعلنا ذلك لموضع العفو من الله ، ثم قال :

مدوا ايديكم الى طعامكم ...

واكل فاكلو ، وقد عجبوا لعظمة نفس الخليفة وعفوه ، وجعلوا يرسلون النظرات الى الربيع .. حاجب الرشيد العظيم ووزيره ، الجالس بين الحرس بباب القصر ، وقد زالت عنه النعم ، كما ازالها هو عن البرامكة ، وكما جرب ان يزيلها عن المأمون نفسه ، وكانوا يقولون :

هذه يد الله ...

وما من يد الا يد الله فوقها : ولا ظالم الا ويبلى بأظلم .

• • •

قال عبدالله بن طاهر لابيه :

دعانا امير المؤمنين الى النهروان ، ثم امرنا بالمجيء معه الى بغداد ، ولم ندر ما هي الغاية من ذلك ، فهل عرفت شيئاً

قال : ان الخليفة لا يسألونه عن غايته يا بني ، وهو لم يحدثني بهذا

فقال طلحة :

يظهر انه يريد ان يولي الرقة رجلا آخر ، على ان تبقى انت في بغداد

- لا اعلم فهو قد سألني عنك وعن اخيك ، وامرني بان تمثلا بين يديه ، بعد انصراف وفود الاقاليم ، وانا اظن ، انه يريد القضاء على هؤلاء الخوارج ، الذين

يعكرون الجو ، ويفسدون عليه الامر ، في كيسوم ، وعلى طريق البصرة ، وفي الجانب الشمالي من بلاد الفرس

فقال عثمان بن ابراهيم وكان حاضراً ، وهم واقفون في اول الليل على شاطيء دجلة

- في الرقة يا مولاي نصر بن شبث ، ولكن من هو الخارجي في البصرة

- قوم من اخلاط الناس ملأوا القلوب ذعراً ، وسلبوا السكان الامنين اموالهم واشباههم ، ويقال انهم من النور ، وهم بضعة عشر الفاً يحملون السلاح

- وفي بلاد الفرس ؟

رجل له خطره يقال له بابك الخرمي ، يدعو الناس الى مذهبه الاباحي الجديد ، وقد امتدت فتنته عنيفة مدمرة ، الى الجانب الشمالي كله ، حتى تبعه الالوف يدينون بما يريدون ويشتهون ، ويبيحون ما حرمه الله

فاضطرب عبدالله وقال : اذن فقد امرنا بالمجيء ليباحثنا بأمر هؤلاء العصاة ، وقد يندبنا ويندب قواداً آخرين ، لحمل رؤوسهم اليه

- هذا ما خطر لي وقد اكون مخطئاً ، افلا ترضى يا عبدالله ، ان يعهد امير المؤمنين الينا ، في اخماد النار التي تشتعل في بلاده ؟

- بلى يا سيدي ، ولكن ابن شبث في كيسوم ، ابعد اثراً ممن ذكرت ، فعلى امير المؤمنين ان يوليك قتاله ، ويولي غيرك قتال اشقياء البصرة والخرمي

قال : لقد بدأ هذا الخرمي بنشر دعوته ، مذ كان المأمون في خراسان ، فازدادت اليوم انتشاراً ، كما ازداد هو قوة ؛ فمن واجب امير المؤمنين ، ان ينظر في امره ، قبل ان يستولي على المدن الاخرى التي لم تخضع له .

- كما ان من واجبه ، ان يخضع ثائر كيسوم ، الذي استخف بالخليفة وجيش الخلافة ، بعد ان تراجعت انت عنه

قال : سيفعل ، ويخيل الي انه سيختار احد قواده لقتال الرجل

- ساطلب اليه ان تكون انت هذا القائد

- هذا لن يكون يا بني

- لماذا ؟

- لانه عرف اني لم ارد ان اظفر بنصر ، فهو سيبعدني عن الرقة ما استطاع ،
قال: انا اضمن له الظفر !

فابتسم قائلا : انا اعلم انك اهل لقيادة الجند ، وحفظ البلاد من الفتن ،ولكن المأمون لا يسلم اليك قيادة جيشه ، وانت في هـــذه السن ... وكيف تضمن له النصر ، وعدوك من الطراز الاول في الدهاء الحربي ، وحوله رجـــال العشائر وفرسان البادية ؟!

- احيطه بالجنود من الجهات الاربع ، وامنع المؤونة عنه فيستسلم وهو صاغر

- انه رأي لا بأس به ، ولكن خير لك ان تذهب انت وطلحة ، الى حيث اذهب فاجعلكما من اركان الجيش ، وتصبحا من القواد المجربين

ولكن عبدالله ، الذي شاقه الحب الى الرقة ومن في الرقة من الاحباء ... لم يعجبه رأي ابيه فقال :

أوثر حرب كيسوم ، على المسير الى البصرة ، والى القطر الفارسي ، لاني اكره ان يقوم في الاذهان ، ان نصر بن شبث غلب طاهر بن الحسين

فقال لطلحة : وانت ماذا تفعل ؟

- افعل ما يأمرني به امير المؤمنين ، ولو كان لي ان اختار ، بـــين كيسوم وبلد اخر ، لاخترت الاول ، فبيننا وبين العقيلي ثأر كما تعلم

قال : سترجع الوفود الى بلادها في هذين اليومين ، وتقل حاجات الناس ، فيتفرغ الخليفة لرجاله ، ويوجههم الى حيث يشاء

ومشوا على الشاطيء ، وهم يتحدثون بحلم المأمون ، ورحـابة صدره ، وعفوه عن المجرمين ، الذين حاولوا ان يخلعوه عن عرشه ، وان يقتلوه ..

حتى وصلوا الى قصر الخلافة ، ورأوا الانوار في دهاليزه ، فقال طاهر :

سأرى من في القصر ، في مثل هذه الساعة من الليل .. فاذهبوا الى المـــنزل وسألحق بكم

فانصرفوا ، وآوى طلحة الى فراشه ، اما عبدالله وعثمان فقـــد جلسا في آخر

الرواق ، وعبدالله يقول :

ستطول الاقامة ببغداد ، وكنت اظن اننا سنعود منهـا ، في الشهر الذي مضى ... أكتب لنا ان نمكث بضعة اشهر ، حتى تنصرف وفود الاقاليم ؟ ..

– يقول ابوك انها سترجع في هذا الاسبوع ..

– ثم نقيم اسابيع اخرى حتى يأذن امير المؤمنين في الدخول عليه ... وماذا تقول زينب ، اذا مرت الاشهر ، ونحن هنا ؟ الا تظن اني كنت اهزأ بها وتهزأ ام عثمان ، عندما نقلت اليها اننا سنغيب زمناً قصيراً ثم نعود ؟

– بل تظن ان امير المؤمنين ، أمرك بالبقاء شهراً آخر لغرض له

– وهذا الحرشي الذي لا يترك الرقة ؟

– ان الفتاة لا تحبه ، فهو لا يصل الى غايته ولو اقام بالرقة سنة ...

– اما انا ، فنفسي تحدثني ، بان ابا حاتم وام مروان ، سيكرهانها على الزواج

= وهل يقدران على هذا ؟

– نعم ، فبنات طيء ليس لهن حق اختيار ازواجهن كما تقول زينب

ثم قال : غادرت الرقة وهي مريضة ، ولم يتسع المجال لاراها ، فانا لا اعـلم أتزوجت ام ماتت .. وليس لي ان اترك بغـداد من غير اذن ، فسأسأل امير المؤمنين غداً ان يأذن لي

– انت يا سيدي ؟

– ان لم اسأله انا سأله ابي

– وماذا تقول لابيك ؟ اتقول انك عاشق وانت غـير قادر على فراق من تحب ؟

– بل اقول له ، اني ارغب في قتال نصر ، فليطلب من الخليفة ان يوجهني اليه

– واذا ابى امير المؤمنين ، واصدر امره بان تظل في بغـداد ريثما يرى رأيه فيك ؟

– اعترف له عندئـذ بكل شيء ، والتمس منه ان يكون عوناً لابي ، في تكذيب كل ما نسب اليه

قال : اخشى ان فعلت ان يعمد المأمون الى امر اخر ليختبر طاعتــــك ... سيقول لك : ابق مع خليفتك ، واترك هواك ...

قال : ان الخليفة الذي يغفر للفضل بن الربيع ذنبه ، لا يقول مثل هذا لعاشق هو من اصدق رعاياه ...

- ومع ذلك ، فعزة عبدالله بن طاهر ، وعظمة ابيه ومجده ، كل ذلك لا يجيز لك ان تجعل الهوى فوق الطاعة ، وان تظهر بالمظهر الذي لا يليق بك

- واذا خسرت زينب ؟

- خير لك ان تخسرها وتخسر جميع الطائيين ، من ان تخسر ثقة امير المؤمنين ، الذي جعلكم في الصف الاول بين رجاله ... اني احبك يا سيدي الحب كله وقد احببت زينب كما احببتك ، فانا اضن بمقام امرتك الرفيع ان يحطه غرامك ، ولا اطيق ان يسخر بك المأمون ورجال بلاطه ، عندما يعلمون انك استأذنت في الرجوع من اجل هذا الغرام ...

ومثل عبدالله ، لا يتردد في الاحتفاظ بشرف اسرته ، وقد تعشق المعالي كما تعشق زينب ، وهـــو يطمح ببصره الى ان يصير من كبار الامراء في الدولة ، فقال :

ألا يعتقد الطائيون اني كنت كاذباً في كل ما وعدتهم به ؟

- ان الماضي قد مضى ، وانت في رجوعك الى الرقة لا تستطيع ان تزيل هذا الاعتقاد ، الا اذا اجتمعت بالقوم ، واظهرت لهم بالدليل الذي لا يرد ، كذب رجال الذين لوثوا عرض ابيك ... أليس كذلك ؟

- بلى

- ولكنك لست قادراً على ذلك ، لان هذا الدليل ليس بيدك ، فماذا تستفيد من ذهابك ، وابوك في بغداد ، وليس في الرقة من يشهد لك ؟

- امنع زواج الحرشي على الاقل

- وكيف تمنعه

- استعين بام عثمان فزينب تسمع لها

قال : لو كان الامر في يد زينب ، لما زفت الا الى عبدالله ، ولكنك تقول ، ان البنات في طيء ليس لهن رأي في الزواج

فسكت ، وهو يعلم ، انه اذا هو طلب العلى ، ومشى في طريق المجد ، فراق من يحب ، والشقاء في الحب ، امر لا بد منه ..

ورجع طاهر في تلك الساعة ، فقال :

سيدعو امير المؤمنين قواده غداً ، ليستشيرهم في قضية الخوارج ، وقد يعزل بعض العمال ، ويولي آخرين ، فقال عبدالله :

من كان في مجلسه الليلة ؟

- الوزير احمد بن ابي خالد ، وسعيد بن سلم ، ويحي بن معاذ ، ومحمد بن طالوت ومحمد بن العلاء . وكانوا يذكرون العقيلي والخرمي ، عندما اذن لي

- ومن قال لك انه سيجمع رجاله غداً :

- يحي بن معاذ . وقد امر عبد الحميد بن شبث صاحب الشرطة بان يستدعوك ويدعو اخاك ، وهو كثير الاهتمام بنصر بن شبث ، ومن رأيه ان امره يجب ان ينتهي بالنظر الى قربه منه ، قبل ان ينتهي امر بابك

- ولم يذكر لك جلساؤه اسماء الرجال الذين سيجعلهم عمالا له ، ويسلمهم الى القتال ؟

- لم يسم احداً ، حتى ان وزيره احمد لا يعرف من هم

وناموا ، ليلتهم ، وعبدالله يحلم بالامارة ، وكلما استعرض غرامه واحلامه ، احس ان شغفه بالمعالي لا يقل عن شغفه بزينب ، وكان مؤمناً بان المأمون سيحتاج اليه ، حاجته الى عظماء رجاله ، وان دولة الخلافة الكبرى ، التي ارتفعت اعلامها في كل فضاء ، لا غنى لها عنه ...

ولولا هذا الهوى الذي كاد يبرح به ، لظل بين يدي امير المؤمنين ، يشهد مجالسه ، ويعالج السياسة ، حتى يرفعه الى المقام الذي يستحق

واغمض عينيه ... فرأى فيما يرى النائم ، ان زينب امست زوجة لعصمة الحرشي .. وامسى هو اميراً تخضع له الاقاليم الواسعة الرحاب ...

ولكن زينب كانت تبكي ...

• • •

٢٩

كان احمد بن ابي خالد وزير المأمون ، رجلا حكيما حسن التصرف ، كثير الذكاء ، يحمل في صدره الاخلاص لمولاه ، ويعمل على اصلاح الحال ، بينه وبين رجال الدولة ، الذين ينظر اليهم خليفتهم نظرة غضب

وكان الناس جميعهم يعلمون ، انالوزير من خيرة رجالالادارة ، ومناعظمهم قدراً ، وابعدهم عن الكذب

الا انه كان شرهاً الى الطعام ، لا تقف شراهته عند حد ! !

والمأمون يعلم ذلك ، حتى قال احد معاصريه :

ما اظن ان الله خلق في الدنيا نفساً انبل واكرم من نفس المأمون

فلما سئل عن ذلك قال : لانه عرف نفس احمد بن ابي خالد وشرهه ، فكان اذا وجهه الى احدهم برسالة ، او في حاجة قال له :

ائته بالغداة ، واخلع ثيابك ، واجلس عنده يومك كله ، فان انصرفت فاكتب لنا بجراب ما جئت به ، في رقعة وادفعها الى احد الخدم يحملها الينا ..

وقد جاء في كتب التاريخ ، ان احمد ولى رجلا بلاداً كبيرة كثيرة الخصب ، بخوان فالوذج اهداه اليه ...!

« الفالوذج كلمة من الدخيل وهو طعام يصنع من العسل والدقيق »

وقيل ، ان جماعة من اهل الاهواز شكوا عاملاً كان عليهم فعزل ، وصار الى بغداد ، ولحقت به الجماعة

فلما انتهى خبرهم الى المأمون ، احضرهم ، واحضر العامل الذي عزل ، وأمر احمد لينظر في امرهم ، فقال رجل من الجماعة :

يا امير المؤمنين جعلنا الله فداءك .. قل لوزيرك احمد ألا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع امرنا ، فوالله لئن اكل من طعامه رغيفاً ، ومن فالوذجه جاماً ، ليدحضن الله حجتنا ، وليبطلن حقنا على يديه ...

فامرهم المأمون بان يحضروا مجلسه يوم الاربعاء ليقضي بينهم ..

ومن اجل ذلك ، اجرى على وزيره في كل يوم الف درهم لطعامـــه ، خوفاً من ان يشره الى طعام احد من الخاصة ، ومن الناس ! !

ومن اغرب ما ذكر عن هذه الشراهة ، ما رواه ابن طيفور في كتابه قال :

قال المأمون يوماً لاحمد بن ابي خالد : اغد علي باكراً لاخذ القصص التي عندك فانها قد كثرت لنقطع امور اصحابها ، فقد طال انتظارهم اياها

فبكر ، وقعد له المأمون ، فجعل يقرأ ويعرضها عليه فيوقعها ، الى ان مر بقصة رجل من اليزيديين ، يقال له فلان اليزيدي ، فقرأها فصحف ، وكان جائعاً فقال : الثريدي ..!

« الثريد ، خبز مفتوت بالمرق واللحم »

فضحك المأمون وقال ·

يا غلام ، ثريدة ضخمة لابي العباس فانه اصبح جائعاً ...

فخجل الوزير وقال : ما انا بجائع يا امير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة احمق ، وضع على الكلمة ثلاث نقط فقال :

دع عنك هذا فالجوع اضر بـك حتى ذكرت الثريد ..

فجاؤه بصفحة عظيمة كثيرة اللحم ، فاحتشم ، ولم يأكل ، فقـال المـأمون : بحياتي عليك لما عدات نحوها

فوضع القصص ، ومال الى الثريد فاكل حتى انتهى ، والمأمون ينظر اليه

فلما فرغ ، دعا بطست فغسل يده ورجع الى القصص ..

فمرت به قصة فلان الحمصي ، فقرأ :

فلان الخبيصي !

« الخبيصة نوع من الحلوي »

فضحك المأمون وقال : يا غلام ، جاماً ضخما فيه خبيص فان غداء ابي العباس كان مبتوراً ..

فخجل احمد وقال : يا امير المؤمنين ، صاحب هذه القصة احمق فقد اخطأ في كتابة الميم ، فقال :

لولا حمقه وحمق صاحبه لمات جوعاً :..

وجاؤه بجام خبيص فتردد فقال الخليفة : بحياتي عليك الا ملت اليه ... فانثنى يأكل حتى انتهى وغسل يده وعاد الى القصص فما اسقط حرفاً حتى اتي عـــلى اخرها ...

ومما ذكر عنه ، ان عينه كانت تمتد الى هدية تأتيه من احدهم ..

ولم يكن يهش للناس ، بل كان عابس الوجه يستقبل اصحاب الحاجات بشيء من الجفاء ...

غير ان عدالته في قضاء حاجاتهم ، كانت تنسيهم جفاءه

وكل من عرف طباعه واخلاقه ، واحتمل ما يراه منه ، بلغ الغاية التي اراد

واغرب من هذا كله ، اجتماع الشراهة والكرم في رجل ! .

فهذا الوزير الشره ، كان كثير البذل ، يعطي الناس مـــن ماله لا من مال الدولة ، حتى تحدث اهل بغداد والجماعات التي كانت تفد عليه ، بكثرة عطاياه .

وجاء في كتاب اخبار بغداد ، انه كان يقول :

يهدي الي الطعام صديق لي ، فاستحي من رده عليه ، ووالله ما ادري مـــا اصنع به ..

ومع ذلك ، فقد اصطفاه المأمون ، واكبر فيه صراحته وصدقـــه ، فهو من هذه الناحية من خيار الوزراء

وقد احب مولاه ، وبذل جهده كله ، ليحبه جميع الناس ، من جميع الطبقات كما يحبه هو ، وفي الحكاية الآتية ما يثبت لك ذلك

كان عمرو بن مسعدة يتولى ديوان الرسائل عند المأمون ، وهو من رجال الحاشية المقربين

فاستبطأه المأمون يوماً ، وقال لاحمد ولجماعة من بني هاشم كانوا عنده :

يحسب ابن مسعدة اني لا اعرف اخباره ، وما يجبى اليه ، وما يعامل به الناس بلى والله اني اعرف كل شيء ..

فذهب احمد فخبر عمراً بما جرى ..

وما هي غير ساعة ، حتى استأذن عمرو على المأمون ، فاذن له ، وقد ظن انه لم يجيء في تلك الساعة ، الا لامر له علاقته بالرسائل والمظالم ..

فلما دخل ، وضع سيفه بين يديه ، وقال :

يا امير المؤمنين ، انا عائذ بالله من سخطه ، وعائذ بك من سخطك .. اني اقل من ان يشكوني امير المؤمنين الى احد ، او يظن بي الظنون ، قال :

وما ذاك ؟

فاعاد عليه ما سمعه ، ولم يسم له الخبر ، فقال له :

لم يكن الامر كما بلغك ، وانما كانت كلمة ، قلتها على ان اخبرك بها ، وليس فيها ما يغضبك ، وليس لك عندي الا ما تحب ، فلتطب نفسك ..

فاعاد عمرو كلامه ، والخليفة يطيب من نفسه ويسكن منه حتى زال بعض ما كان في قلبه ، وقبل يده ، فاهوى ليعانقه ، وقد تبين عمرو في وجهه الحياء والخجل .. ثم انصرف

ولما غدا احمد على المأمون ، قال له :

يا احمد ، اما لمجلسنا حرمة ؟

قال : يا امير المؤمنين لم تكن الحرمة الا لمجلسك

قال : ما اراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم

— واية معاملة يا امير المؤمنين . هذا كلام لا اعرفه

— بلى ؛ اما سمعت ما كنا فيه امس من ذكر عمرو بن مسعدة ، ذهب بعض من حضر من بني هاشم فخبره به ، فاتاني عمرو مظهراً ما وجب عليه ان يظهره ،

فدفعت منه ما استطعت دفعه وجعلت اعتذر اليه بعذر تبـين في الخجل منه ، وكيف يكون اعتذار رجل من كلام قد تكلم به ؟ .. فقال :

يا امير المؤمنين ، انا خبرت عمراً به لا احد من بني هاشم

— انت ؟

— نعم انا ..

— وما حملك على ما فعلت ؟

— الشكر لك والنصح والمحبة لان تتم نعمتك على اوليائك وخدمك ... انا اعلم ان امير المؤمنين يحب ان يصلح الاعداء فكيف الاولياء والاقرباء ، ولا سيما مثل عمر في دنوه من الخدمة ، وموقعه من العمل ، ومكانه من رأي امير المؤمنين اطال الله بقاءه ... سمعت امير المؤمنين ينكر منه شيئاً ، فخبرته ليصلحه ، ويقوم من نفسه اودها لسيده ومولاه ، ويتلافى ما فرط منه ، ولو اشعت سراً فيه قدح في السلطان او نقض تدبير ، لكان ذلك عيبا ، واما مثل هـذا فما حسبته ان يكون ذنباً علي ..

فنظر اليه ملياً ثم قال :

اعد ، فاعاد عليه ، ثم قال : اعد ، فاعاد الثالثة فقال :

احسنت ، فقد نفيت عني سوء الظن ، وصدقتني القول بارك الله فيك

وامر له بمال

• • •

كان الوزير ، بين القواد والخاصة ، الذين اجتمعوا في اليوم الثاني ، في قصر الخلافة ، فقال له المأمون :

ما رأيك في هذين الفتيين؟

واشار الى طلحة وعبدالله ، فقال :

هما فرع لاطيب اصل يا امير المؤمنين

- ولكن اباهما طاهراً بخل علينا بهما ، ولم يأمرهما بان يحضرا مجلسنا الا اليوم !

فقال طاهر : ان الذي يأمر فيطاع في هذه الدولة ، هو سيدنا امير المؤمنين ويفتخر طلحة وعبدالله بانهما من عبيده

قال : أصحيح هذا يا طلحة ؟

- وهل يشك امير المؤمنين فيما يقوله له طاهر بن الحسين ؟ اننا جميعنا عبيدك واهون شيء علينا ، ان نبذل ارواحنا من اجلك

فضحك قائلا : واصعب شيء

- ان نخالف امير المؤمنين فيما يأمرنا به

- كيف انت في الحرب ؟

- لست في الحرب شيئاً حتى يجربني امير المؤمنين ويرى فعلي ..

قال : سنفعل ، ونرى فعلك .. وانت يا عبدالله ، الم تكن مع ابيك في كيسوم

- بلى يا امير المؤمنين ، وقد جرحت

- بلغنا ذلك ، ولكن احببنا ان نسألك .. أرأيت ابن شبث

- رأيته على فرسه بين الصفوف ولم استطع الوصول اليه

- يقولون انه كثير الحركة في قتاله ، وكثير الحيل

- اما انه كثير الحركة ، فنعم ، واما انه كثير الحيل ، فقائد داهية من قواد امير المؤمنين ، يضيع حيله .

قال : ما رأينا قائداً ادهى من ابيك ، وقد ولاه الحسن بن سهل حربه ، فلم يظفر به

فابتسم ولم يجب

قال : ماذا يا عبدالله

قال : اذا اذن لي امير المؤمنين . ذكرت ما اعلم

- وما تعلم ؟

- ليس من الهين على القواد ، الذين توجههم الى قتال نصر ، ان يظفروا به في المعركة الاولى

- ولم ذلك ؟

- لان الرجل من الابطال ، وعنـــده المال الكثير ، والجيش الذي يغطي السهل

- غير ان القائد الذي عركته الحروب ، يصبر الى المعركة الثانية والثالثة الى العاشرة ، حتى يظفر ، ولم يفعل ابوك هذا

قال : كان جو كيسوم رطباً يا امير المؤمنين ، ومناخها قاسياً على أبي ، فرجع الى الرقة ...

فرفع صوته في الضحك وقال : مثلك من ينتصر لابيه ... افلا تقول انه خاف ان يمعن في قتال الرجل ، فيخسر جيشه ، ويتراجع بذل !؟

- ان امير المؤمنين اعلم الناس بطاهر بن الحسين ، فهو لا يتراجع الا لغاية له

- وما عسى ان تكون هذه الغاية ؟

فالتفت الى ابيه كانه يستشيره في الجواب ثم قال :

لا ادري يا مولاي ، فأبي بين يديك ، وقد يكون المناخ اثر فيه .. او انه لم يكن له رغبة في القتال ..

- اما الان فقد اصبت .. ارسله عاملنا الحسن ليحارب عدو الخلافة ، فلم يشأ ان يفعل كما فعل في الميادين الاخرى ، بل رأيناه يؤثر الفشل على النصر ، ليس عن خوف او عجز ، وانما كان ذلك لغرض عرفناه نحن كما يعرفه هؤلاء القواد .

وكان طاهر يصغي الى ما يقال ، وكانه لم يسمع شيئاً ،

ثم قال الخليفة لعبد الله :

ذلك كان غرض ابيك ، فما غرضك انت ؟

- بماذا يا امير المؤمنين ؟

- بقتال نصر !

- وهل توليني قتاله ؟

- نفعل اذا كانت لك رغبة في قتال العدو ...

وكانت كلمته تعريضاً بطاهر ..

فجعل القواد ينظرون الى الخليفة ، والى عبدالله ، ولم يخطر لاحدهم ، ان امير

المؤمنين سيعهد الى هذا الفتى ، في قيادة الجيوش ، والزحف الى حرب ابن شبث . .
وقواده حوله ، وهم من ابطال العرب
وحبسوا انفاسهم ، ينصتون الى كلمات المأمون الذي كان يقول :
اجل ، سنوليك امير المؤمنين حرب نصر ، على شرط ان تضمن لنا النصر ، قبل ان نكتب لك العهد
قال : ان النصر بيد الله يا امير المؤمنين ، فانا اضمن لك اني سأقوم بما يقوم به القائد الامين ، من جهاد ودهاء ، وجلد واخلاص ، حتى يتم لك ما تريد ، او القتل
قال : ان جميع القواد الذين نوجههم الى الميادين ، يقولون مثلما تقول ، ونحن نحب ان نسمع غير هذا .
- اذن فاسمع يا امير المؤمنين ان شئت ، سأحمل اليك رأس نصر ؛ او اجعله من عبيد عرشك ، ان بقيت . .
قال : اشهدوا يا ناس . . .
- ويشهد الله ، ولكن ارجو ألا يرد لي طلب ، وانا في الساحة
- نعدك بقضاء حاجتك . . وقال لطاهر :
ألم تذكر لنا ان خليفتك في الرقة الحسين بن عمر ؟
.انه خليفة عبدالله يا امير المؤمنين
- وترى ان يبقى فيها حتى يذهب عبدالله ؟
- لا ادري اتطول اقامة عبدالله ببغداد ، ام ينتقل الى الرقة في هذا الشهر . .
- سيظل الان في بغداد ، يشهد مجالس امير المؤمنين كل يوم ، ثم نرى بعد ذلك .
فاصفر وجه عبد الله وقال في نفسه :
يظهر ان المأمون تعجل في وعده ثم ندم . . . اريد ان يجعلني حاجباً من حجابه ، او كاتباً لاحمد بن ابي خالد ؟ . وما هي حاجتي الى مجالسه كل يوم ؟
الكنه و ستطاع على الرغم من هذه الصفعة المؤلمة ، ان يحتفظ بهدوئه ، ويوجه

الى الخليفة نظرات الشكر

وقلبه يضطرب . ونفسه تتألم ..

وقد حيره قول المأمون ، انه سيبقى في بغداد ، ليحضر مجلسه كل يوم

وجعل الخليفة يهامس وزيره ، ثم قال :

يحي بن معاذ .. لقد كنت معنا في خراسان ، ونحن نعلم من انت ، فقل لنا أتعرف الجانب الشمالي من بلاد الفرس ؟

ـ اعرفه يا امير المؤمنين ، فهو الجانب الذي يشتد برده ، ويكثر ثلجه ، ويسيطر بابك الخرمي على الجبال والاودية فيه ...

قال : وهل تستطيع انت احتمال البرد الشديد ، والثلج الكثير ؟

احتمل كل شيء في سبيل الخلافة

ـ اذن فاستعد للمسير الى تلك الارض ، لتعالج امر الخرمي ، الذي يفسد على الناس امرهم ، ويدعوهم الى المروق من دين الاباء والجدود ، وخذ ما تشاء من الجنود ، وما تحتاج اليه من سلاح ومؤونة ومال ، فالرجل الاباحي اللعين مثل بابك ، يجب ان يموت

ـ قتله الله يا امير المؤمنين وجعلنا فداك

وظن القواد الآخرون ، ان دورهم سيجي ، وانتظر كل واحد منهم ان يذكر المأمون اسمه ويوليه

على انه لم يفعل ، بل نادى عبـــد الحميد بن شبث صاحب شرطته وقال له : اعتزل عملك ، وسنختار لك في هذا العام ، اوالعام الذي بعده ، ولاية قريبة من بغداد ، وسلم ما في يدك الى ابي الطيب « اي طاهر بن الحسين» ثم قال لطاهر : انك حاكم العاصمة ، وصاحب الشرطة ، فاحفظ الامن في الجـــانبين الغربي والشرقي ، فمنهما تولد الفتنة ، ولا تنس السواد وضواحيه فهو منبت الشر من عهد جدنا المنصور الى اليوم .

قال : العهد بيني وبينك يا امير المؤمنين ، ان الصوت الذي يرتفع ، داعياً الى الفتنة ، في بغداد وجوار بغداد ، يختنق في صدر صاحبه . . . ووالله ، لئن سرق

احدهم دجاجة جاره ، او حمامة من حمام الرصافة ، لاقطعن يده ، واجعلن في عنقه حبلا واربطه بين النخيل على الشاطىء فيراه الناس

- افعل ما شئت ، على ان يسود الهدوء هذه المدينة التي جارت عليها الاقدار بضعة اعوام ، واجعل ولدك طلحة معاوناً لك ، على ان يدخل علينا مع اخيه كل يوم

وعندما انصرف القوم ، ولم يبق في مجلسه غير طاهر وولديه ، واحمد بن ابي خالد ، قال لهم .

كونوا انتم الاربعة عيوناً على ابن عائشة الهاشمي ، فهذا الرجل عدو في ثوب صديق ، ونحن نرى الغدر والخيانة في عينيه فاحذروه

فقال طاهر . هاشمي ، وعدو لامير المؤمنين ؟!

- اجل ، ففي بيتنا اعداء لنا ، وقد بلغنا انه يدعو سراً الى الخلع فلا يجيبه الى ذلك احد

قال : سادل طلحة وعبد الله عليه فهما لا يعرفانه ..

فقال عبدالله : بلى عرفناه ، فقد سألنا عنه محمد بن العلاء فسماه لنا

- واين رأيتماه ؟

- كان خارجاً من هذا القصر ، والى جانبه الفضل بن الربيع

فهز رأسه قائلا :

اما الفضل فقد ذهبت دولته فلا نكترث له ، وقد عفونا عنه ، ونسينا كل ما فعل ، واما ابن عائشة ، فسيكون لنا وله شأن .. احذروه وتجاهلوا امره فقد يثبت لكم ما بلغنا عنه

وصرفهم ثم قال لحسين الخادم :

انظر اذا كان الحسن بن سهل قادراً على المجيء الينا ..

ولم يلبث الحسن حتى اقبل ، فجعل يسأله عن القواد ورجال الدولة ، وهو يصفهم له وصف عاقل خبير لم يبق لجنونه اثر

وكان عبد الله بن طاهر يقول لابيه ، وهما في طريقهما على الشاطىء

يريد امير المؤمنين من حضورنا مجلسه ، ان نطلع على ما لا نعلم من شؤون الدولة ..

ـ هو ذاك ، وسيجعلكما عاملين له ، وبالرغم من ان عبدالله سيبلغ غايته من الامارة ، وان حلمه اصبح يقظة ، كانت الكآبة في نفسه ، والهم يملأ صدره ..

● ● ●

ماذا رأيت يا سيدي في مجلس امير المؤمنين ؟

ـ وعدني بانه سيجعلني خليفة لابي في الامارة والقيادة ، في الرقة .. ولكنه امرني بالبقاء في بغداد ، ريثما يرى رأيه الاخير في هذا

ـ ولماذا لم تعترف له بغرامك ، كما كنت تقول ..؟

ـ لان مجلسه كان يغص بالناس ، وقد كرهت الظهور بمظهر العاشق ، بين الخاصة والقواد .

ـ وعزل احداً من عماله ؟

ـ عزل عبد الحميد بن شبث ، وجعل ابي صاحب شرطته ، وحاكما على بغداد ، وولى يحي بن معاذ حرب بابك الخرمي ، في بلاد الفرس

ـ والقواد الاخرون ؟

ـ لم يخاطب احداً منهم ، وكانهم لم يكونوا بين يديه

ـ اذن فالسلام عليك ايها الامير ..

قال : ستكون هذه الامارة التي طمعت فيها ، شؤماً علي

ـ وكيف ذلك ؟

ـ يكفي انها ابعدتني عن زينب ، وقد مرت الشهور وانا لا اعلم شيئــاً عن الرقة ، وكان على ام عثمان ، ان تبعث الينا باخبارها مع رسول الحسين بن عمر ، الذي يجيئنا كل شهر .

قال . سأكون انا الرسول الذي يحمل اليك هذه الاخبار

– ومتى تذهب ؟

= عند الفجر ،فاوص بما تشاء

قال : لا اوصيك بما تعرفه ، ولكني ادعوك الى السرعة في الرواح والمجيء

قال : اخشى الا يأذن لي الامير في الذهاب

= ابي ؟

= نعم

– سيأمرك هو نفسه بان تغادر بغداد غدا ، حاملا وصيته الى الحسين بن عمر ، ابشند في حفظ السلام ، ويمنع رجال ابن شبث من التوغل في الجانب الغربي من الرقة

– اخاطبته بذلك ؟

– لا ، ولكن سأفعل الليلة ، وسأقول له انك ذاهب لترى امك . ولا تنس ان تقول لزينب ، وآل حاتم جميعهم ، اني سأرجع اميرا على الرقة وعلى الجزيرة ..

وعندما جن الليل ، واجتمع طاهر بولديه وعثمان ، اذن لهذا الاخير بالسفر ، وامره بان يستطلع امر خليفته الحسين ، ويكتمه خبر امارة عبدالله

وفيما هم في هذا ، دخل عليهم محمد بن العلاء ، ومحمد بن طالوت ، والاثنان من احب القواد الى طاهر ، ومن اخلص الرجال ..

فرحب بهما صاحب الشرطة ، واجلسهما عن جانبيه ، وابن العلاء يقول :

كان على امير المؤمنين ، ان يجعل في هذا البيت امارات ثلاثاً لا امارتين ... بلغنا انه ولاك الشرطة وبغداد ، وولى عبدالله الجزيرة ..

فقاطعه طاهر قائلا : وسيستعمل طلحة على اقليم اخر بعد قليل.. انه لم يكتب العهد لعبدالله ، بل امره وامر اخاه ، بان يحضرا مجلسه ، ليريا ويسمعا كيف تقضى الحاجات ، وكيف ينظر امير المؤمنين ، في مظالم الناس ..

– ومتى يكتب هذا العهد ؟

– من يدري ، فقد يأمر بكتابته بعد شهر ، او بعد عام ...

قال : اسألك عن هذا ، لاني مع رفيقي ابي القاسم « اي محمد بن طالوت » ، راغبان في الابتعاد عن بغداد ، ونحن نعلم ان اقليم الجزيرة خير الاقاليم

— اي انكما تريدان الاقامة مع عبدالله

فقال ابن طالوت : نعم نريد الاقامـــة في ظل الامير الشاب ، الذي لم يوا، الرشيد والمأمون ، رجلا اصغر منه ، والذي سيرث مع طلحة مزايا ابيهما وخبرة، وعظمته في السياسة والادارة والحرب

فقال عبدالله : ساسترشد برأيكما وانا في الرقة ، وستكونان عونا لي

— بل نكون جنديين لك كما كنا من جنود ابيك ذي اليمينين ... لقـــد كنت صغيراً في معركة الري ، بيننا وبين علي بن ماهان ، ولم تر اباك يقبض على سيفه باليدين ، ويضرب به اعداءه ..

— عرفت ذلك ، وقد قتل بضربته الأولى ، صديقه وجاره حاتماً الطائي

فقال : مسكين حاتم ، بارز اباك وعلى وجهه لثام ، وابوك لا يعرف من هو مسكين .. كان لنا اخاً كما كان لابيك ، وكان ابوه من ابر الآباء واطيبهم عنصراً .. أحي هو ؟

— نعم ، ولكنه اعمى ، وهو لا يخرج من المنزل الا الى المسجد ، مستنداً الى ذراع أحد حفيديه ، كما خبرني عثمان ...

وجعل يقول في نفسه : لقد وجدت من يشهد ببراءة ابي ..

ولم يشأ ان يذكر شيئاً لابيه ، ثم قال :

ان عثمان ذاهب غداً الى الرقة ، فاذا اردتما ان توصياه بشيء

فقال ابن العلاء : سنزور ابا حاتم ، عندما نضع اقدامنا في ذلك البلد ، فلا وصية لنا اليوم

وكان طاهر ساكتاً ، ولعله كان يفكر ، في ذلك القتيل الذي ذكروه

واخذوا يتحدثون ، بخلافة ابراهيم بن المهدي ، ويذكرون المواقع بينهم وبين جنود الامين في بغداد ، وفي الشرق ، ثم ذكروا مساعي الفضل ، لخلع امـــير المؤمنين ، حتى انتصف الليل

وعند الفجر ، خرج عثمان من بغداد ، على ناقـــة له ، تحمل زاده ، ولم يكن وحده في طريقه الى الرقة ، بل كانت هنالك طائفة من الناس ، تريد ذلك الاقليم واد اختلط برجالها كأنه منهم ...

• • •

بين الرقة وبغداد ، مراحل كثيرة ، في معظمها مواضع وخيام الراحة جعلها بعضهم باباً للرزق

ففي ليلة من ليالي السفر ، وقد لجأ الناس الى احدى هذه الخيام ، رأى عثمان على نور المصباح الضعيف ، رجلا نائماً على غرارة من القش ، وعند رأسه حزامه ، واشياء يحملها المسافر

فاشتبه به ... فدنا منه يتبين وجهه ، ثم تراجع متعجباً وهو يتمتم قائلا : هذا مغيث عبد الطائيين فأي غرض له في بغداد ...

ثم انتفض لفكرة خطرت له .. وخرج فجلس وراء الخيمة مـــع صاحبها ، وقال له :

يظهر ان هذا الضيف الذي استسلم للنوم في خيمتك ، من كرام الناس

— وكيف عرفت ذلك ؟

— من هذه الاشياء التي وضعها عند رأسه ...

قال : يبدو انه كذلك

— ومتى قدم

— منذ ساعتين ، وهو لا يريد ان ينتظر مرور البريد

— بريد العاصمة ؟

= لا ، بل بريد الرقة لانه منها

— اذن سيسلك طريق بغداد عند الصباح

ـ هذا ما ذكره لي

ـ اما انا فسأسلك طريق الرقة بعد ساعة

ـ في هذه الليلة السوداء ؟

= اجل ، لاني رسول امير المؤمنين الى القائم بالامر فيها

ـ وما اسمك ؟

ـ مصطفى الخراساني .

قال : تنام الليلة هنا ثم ترحل

-- لا اقدر على ذلك

ـ جميع الرسل الذين يبعث بهم امير المؤمنين ، يبتون هنا حتى الصباح

ـ اما انا ، فالامر الذي اتيت من اجله ، حرمني الراحة في الليالي السود ، ولكني لا احرمك اجر الليلة

واخرج له من جرابه خمسين درهما وقال له . خذ هذه ..

قال : انك من الامراء

ـ بل انا من صعاليك بغداد

ـ غير ان هذه العطية عطية امير

قال : يعطيني امير المؤمنين ، فاعطي الرجال الصالحين الذين يعدون خيامهم لراحة المسافرين .. الى اللقاء

فصافحه قائلاً : الى اللقاء

وقام في ذهنه ، ان عثمان ، او مصطفى الخراساني ،.. من العمال الذين يجبون مال الشعب ، ويستأثرون بالنصيب الاكبر منه

وجعل ينظر الى دراهمه الخمسين ، وهو لا يصدق انها في يده

وكيف يصدق ، واذا جاد عليه احدهم اعطاه درهما او اثنين

وطوى الليل عثمان .. ولكنه لوى عنق ناقته الى بغداد ، لا الى الرقة ، ومشى الليل كله لم يسترح غير مرة واحدة قبل ان يطلع الصبح ..

وما راع عبد الله غير رجوعه ، بمثل هذه السرعة ، وقد رآه وراء مسجد

المنصور

ففاجأه بقوله : ليس لخير رجعت

- بلى يا سيدي فهيا بنا الى الدار

- قل انك لم تصل الى الرقه

- لا .. فاين مولاي الامير ؟

- مع صاحبيه ابن طالوت ، وابن العلاء ، وطلحة في الشماسية والمحمدان

فاهبان الى الكوفة مع طلحة

ودخلا المنزل ، فقال عثمان :

اردت المسير الى الرقة ، فرأيت في الطريق رجلا كفاني مؤونة السفر اليها ،

وستعرف منه كل شيء

- من هو هذا الرجل ؟

- مغيث عبد الطائيين

- ويلك واين رأيته ؟

- على بضعة عشر فرسخا وقد سبقته الى هنا

وقص عليه ما رآه

قال : ما عسى ان تكون غايته من المجيء الى بغداد ؟

- اظن ان هذه الغاية ... هي ..

ووقفت الكلمات الاخرى ، عند شفتيه

فقال عبدالله : هي ان يغدر بابي ..

قال : والله هذا ما خطر لي يا سيدي ولم ارد ان اذكره لك

= ويخيل الي ان امر زينب قد انتهى

- ماذا ؟

- سيتزوجها الحرشي

- وما دليلك على هذا ؟

- قدوم العبد الذي رأيته .. طلبوا الى زينب ان ترضى بعصمة ، فأبت ان

تتزوج الا بعد ان يثأروا بابيها ، وتلك هي عادة العشيرة ، فارسلوا مغيثاً ليثأر لهم ؛ وكانت زينب تظن ان الحرشي نفسه سيقوم بالامر ، فنقبض عليه ، وننظر عندئذ في تكذيب الشائعة ، التي تبعد الواحد منا عن الاخر ..

— ولكن عصمة كان جبانا فلم يجسر على ذلك

= او ان ابا حاتم لم يرد ان يثأر الغريب بقتيله ، كما ان ام مروان لم ترد ان تدفع ولدها الى الموت .. ثم قال :

متى تظن ان العبد يصل الى بغداد ؟

— في هذا المساء

— اذن يجب ان ننتبه له

— سأنتظره عند باب الشام حتى يدخل ، وهو لا يراني ، فالحق به الى المكان الذي سينزل فيه ، ثم اراقبه بصبر ، الى ان يظهر الغرض الذي قدم من اجله ..

قال : لا تنس انه يعرفك يا عثمان

— ولن انسى انه سيتنكر ويغطي وجهه ، كما اتنكر انا واخفي وجهي ، وشلتقي ..

قال سأكون معك الليلة .. ولكن اذا سألك ابي عن سبب رجوعك فماذا تقول له ؟

— اقول ، لقد عرفت من بعض القادمين من الرقة ، مـــا اردت ان اعرفه ، فعدلت عن الذهاب ، وآثرت البقاء بالقرب من الامير عبدالله

— احسنت ، ويجب ان تكتم طلحة الخبر ، بعد رجوعه

وسار الاثنان قبل غروب الشمس الى باب الشام ، وهما متنكران

وجلسا في كوخ قريب منه يساومان صاحبه على السمك ، الذي صاده في ذلك اليوم

والعيون تراقب الداخلين ..

حتى احتجبت الشمس ومغيث لم يصل

فتركا الكوخ ، بعد ان ابتاعا بعض السمك ، ووقفا عند الباب وبعد ساعة ،

دخل الرجل يقود ناقته السوداء ...
فأومأ عثمان الى عبد الله .. ومشيا وراءه حتى انتهى الى بيت ينزل فيه الغريب ، وهو يعرفه من قبل

واسم صاحب البيت علي

ومغيث ، لا يضيع في بغداد ، فقد اقام بها عشرة اعوام قبل ان يشتريه حاتم وينتقل الى الرقة

ولو طلب اليه ، ان يعد القصور والاحياء ، ودور الغرباء في عاصمة الرشيد ، لفعل ..

دخل فسلم على علي .. ثم خرج الاثنان ، فربطا الناقة في الفناء ، وانزلا رحلها ، وكانا يتهامسان ، فقال عثمان

اتعلم ما يقوله مغيث يا سيدي ؟

قال : انه يسأل الرجل عن طاهر بن الحسين

فضحك قائلا : صدق محمد بن العلاء اذ قال : ان الامير عبد الله لا يفوته شيء
واخذا يتمشيان حتى نام اهل المنزل ، فانصرفا

وكان طاهر يسأل الخدم عن عبد الله وهم يقولون :

خرج مع عثمان

فلما اقبلا قال للفتى : اين كنت ، ألم تذهب الى الرقة ؟

– لا يا مولاي ، فقد رأيت الكثيرين من اهلها في طريقهم الى بغداد ، وخبروني ان امي بخير

ـ ومتى رجعت ؟

ـ منذ بضع ساعات ، وكان سيدي الامير في الشماسية

قال الم تشهد مجلس امير المؤمنين

ـ ان مثلي لا يرى امير المؤمنين في مجلسه ، الا اذا ظلمه أحد

ـ اذن سأستأذن لك غداً

ـ لماذا يا مولاي ؟

ـ لتسمع ما يقوله امير المؤمنين في مجلسه

ـ والحسن بن سهل ، الا يكون حاضراً ؟

ـ ان امير المؤمنين يدعوه اليه كل يوم

قال : دعني يا مولاي ، فانا لا اطيق ان تقع العين على هذا المجوسي واوثر الصلاة في المسجد على مجالس الخلفاء

ـ ومتى كنت من الزهاد يا عثمان ؟

ـ بدأت زهدي منذ امس يا مولاي ، وسترى العجب منه ...

قال : اخشى ان تدعي النبوة بعد حين

قال · ما خلقت لهذا ، ولكن اصلي ليصلح الله هذه الامة في عهد امير المؤمنين ... الا تأذن لي ان اذهب الى المسجد كلما ذهبت اليه انت ؟

فقال عبدالله : وهل رأيت ان اميراً او خليفة .. يمنع الناس من الذهاب الى المساجد .. كن في المسجد عندما تشاء ، وصل عندما تشاء

ولما طلع الصبح ، خرج طاهر الى الصلاة

فخرج الاثنان يسيران بعيدين عنه ، بحيث لا يشعر الناس انهما حارساه ولم يكن يبين من وجهيهما ، غير العيون .

حتى ان طاهراً نفسه لم يعلم ، ان الاثنين المتنكرين هما عبدالله وعثمان ولكنهما لم يريا مغيثاً ، ولم يجدا له في المسجد اثراً ..

ودامت الحال ، على ما رأيت ثلاثة ايام ، يدخل الفتيان المسجد وراء طاهر ، ويتبعانه الى قصر الخلافة ، ويحضران مجلس امير المؤمنين ، لا يفارقانه لحظة واحدة ، وكأن العبد غير موجود في بغداد

فاعتقدا ، انه قدم لغرض خاص ، لم يلبث حتى رجع بعد فراغه منه ، على انه بقي على عثمان ، ان يستطلع امره في البيت الذي نزل فيه فلم يره ، ولكنه رأى ناقته ، فقال لعبدالله :

انه في المدينة فليس من الرأي ان نغفل عنه

ومرت ثلاثة ايام اخرى على الحال التي رأيت ، حتى كان اليوم السابع ، فاذا مغيث في مسجد الرشيد ، والقوم يصلون فيه

وطاهر يسجد ويقوم لا ينظر الى احد

والمسجد قائم على عمد متقاربة ضخمة بين الواحد والاخر ثلاث اذرع

وقد ركع مغيث عند عمود منها قريب من صاحب الشرط حاكم بغداد :

وهو ينظر اليه ، من حين الى حين ، بعينين تشبهان عيني الذئب

غير ان هناك عيوناً اخرى ، كانت تنظر الى العبد الذي يتظاهر بالصلاة وقد بدأ المصلون ينصرفون

وكانت عادة الحاكم الجـــديد ، انه يخرج من المسجد وحده بعد خروج الناس لا يرافقه شرطي من رجاله الكثيرين

فلما نهض لينصرف ، نهض العبـــد وهو يتلفت الى يمينه وشماله فلم ير غـــير طاهر ...

ذلك لان عبدالله وعثمان ، كانا وراء عمودين ، لا يتحركان ، كانهما صنمان

وطاهر يختتم صلاته ، ويذكر الله

واذا بالخنجر تلمع شفرته في يد مغيث ، وهو يمشي في مهل كما يمشي اللص

حتى دنا من طاهر ، الذي خطا خطوتين ، متجهاً الى الباب

ورفع خنجره يهم بان يهوي به

ولكن ساعده ظل مرتفعاً .. لان اصابع من الفولاذ ، انطبقت عليـــه ، هي اصابع عبدالله ... ويدين حديديتين قبضتا على عنقه ، هما يدا عثمان ، وقـد رفع صوته قائلا :

انظر يا مولاي ... الى الوراء

فانثنى طاهر ، فرأى المشهد الرهيب ، فقال :

صوت عثمان ...

- نعم يا مولاي صوت عثمان الزاهـــد في دنياه .. والذي يكثر من الصلاة ليصلح الله هذه الامة ...

ورفع لثامه ، وفعل عبدالله مثله ...

فقال طاهر : وانني عبدالله ؟!

- نعم يا سيدي فقد علمني عثمان الصلاة والزهد

- ومن هو هذا ؟

فانتزع عبدالله لثامه وخنجره وقال : اتعرف هذا الوجه ؟

فجعل يتفرس فيه ثم قال :

يخيل الي اني رأيته من قبل ، ولكن لا ادري متى كان ذلك

قال : اذا ذكرت حاتماً الطائي ذكرت خدمه

قال : هذا عبد حاتم

- انه هو ، وقد خطر له ان يجود عليك بطعنة من هذا الخنجر الجميل ..

قال : انظرا ، فقد يكون معه خنجر آخر

ففتشاه ، فوجدا خمسمائة درهم ، فقال طاهر لعثمان :

ادع اثنين من رجال الشرط

وكان مغيث يرتجف ، ويكاد يسقط من خوفه على الارض ؛ ولكنه لم يستغث ولم يرتفع له صوت

واقبل الشرطيان ، فقال لهما طاهر ؟

خذا هذا الرجل الى الدار

وتقدمهم مع عبدالله وعثمان ، وهو ساكت ، حتى وصلوا

فرأوا خادماً من خدم القصر بالباب ، وكان يقول لصاحب الشرطة :

أجب امير المؤمنين الساعة

قال : سمعا وطاعة ، ثم قال لعبدالله :

انظر في امر الرجل ريثما ارجع

وكانت نائلة عند جارة لها ومعها ام عامر

فصرف عبدالله الشرطيين وقال لمغيث :

تكلم ولا تخف .. من ارسلك الى بغداد ؟

- سيدي ابو حاتم
- وامرك بقتل ابي ؟
- نعم ، ووعدني بانه سيجعلني حراً ان فعلت
- وكم اعطاك من المال ؟
- الف درهم ، انفقت نصفها وبقي النصف الآخر
- وتعلم لماذا امرك بذلك ؟
- لان أباك قتل سيدي حاتماً في معركة الري
قال : كان ذلك منذ اعوام
- اجل ، ولكنه كان يظن ، في خلال تلك الاعوام ، انه سيقوم هو نفسه بقتل ابيك ، فمنعه حفيداه ..
- ومنعت ام مروان ولديها من ذلك ؟
- نعم
- ثم عمدوا اليك فبعثوا بك ثائراً ، وكان عليهم ان يثوروا ونحن في الرقة
قال : ايقتلني ابوك ام يعفو ؟
- وما الذي حملك على هذا السؤال ؟
- اذا اردتم قتلي كتمتكم ما اعلم
- نعفو اذا بحت بكل شيء
- وتحلف لي
- اجل فهات ما عندك
قال : عندما كنتم في الرقة ، طلبت انت ان تجتمع بالقوم ولم تجتمعوا
- لم يتسع لي مجال الاجتماع في ذلك الحين
- هذا ما كانت تقوله لهم ام عثمان
- وكان عليهم ان يصدقوا لانها لا تكذب .. ماذا قال لك ابو حاتم عندما امرك بالمجيء ؟
- شجعني بقوله : اقتل وانت حر !

- ومروان والمغيرة ؟

- سألا سيدي ابا حاتم ان يقوم احدهما بتنفيذ هـــذا الامر فأبت سيدتي ام مروان ... واما سيدتي زينب ، فقد ارادت ان يجيء عصمة الحرشي لهـذه الغاية فلم يسمع لها

فخفق قلبه وقال : اي شأن لهذا الحرشي مع الطائيين ؟

- خطب الفتاة ، فأحبت ان يكون رأس القاتل مهراً للزواج ، فرد طلبها ، ثم امروها بان ترضى بالحرشي ، ولم تكن راضية ، فاطاعت، وتم الامر كما ارادوا هم ، لا كما ارادت هي

فتجلد قائلا : اذن فقد امست زينب زوجة لعصمة

- نعم يا مولاي ، والغريب انها زفت اليه وهي مريضة ولا تكف عن البكاء

قال : يظهر انها لا تحبه ؟

فابتسم قائلا : انك يا سيدي اخبر الناس بانها لا تحبه ...

- وكيف عرفت ذلك ؟

- باحت لاختها بهواها ، وخبرتها انها اعترفت بهذا الهوى ، لجارية يقال لها ام عامر ، وكنت اسمع حديث الاثنين

- ومتى كان هذا ، قبل الزواج ام بعده ؟

- قبل ان يكتب العقد بيوم واحد

- والفتى الذي تهواه ؟

- هو سيدي عبدالله بن طاهر الذي وعدني بالعفو

قال : ثبت لي الان انك لم تكذب . ولكن لم تـــذكر لي شيئاً عن سعدى أكانت تميل في حديثها الى الحرشي ، ام ماذا ؟

- بل كانت تميل عنه ، وسمعتها تنصح لاختها بان تعتصم بالصبر ، وتوجه اللوم اليك ، لانك لم تمهد السبل للاجتماع الذي ذكرت

- واين يقيم الحرشي اليوم :

- بالرقة ، والاقامة بها من شروط الجماعة عليه

- وهل اذهب الله مرض زينب بعد الزواج ؟

- بل زادت ضعفاً ، وكلما خرج زوجها من الدار استسلمت للبكاء . . . والان ارجو ان تصغي الي . . . أليست حياتي الان ملكاً لابيك يأخـــذها اذا شاء ، ويدعها يشاء ؟

- بلى

- وانت الم تعدني بالعفو ؟

- بلى ، وسأسال ابي عند رجوعه ان يهبه لك

- اذن فالفضل يقضي علي بان اكون عبداً لكم فمروا بما تحبون

قال : لو كانت زينب باقية في بيت ابيها ، لعهدت اليك في كلمة تقولها لها ، ولكنها انتقلت الى بيت الزوج فلم يبق لي مـا اقوله

- اما هي فستسألني عنك . . .

- ما اظن انها تفعل ، ومع ذلك فاذا خطر لها ان تعلم شيئا من امر عبدالله ، قل لها ان امير المؤمنين جعلني اميراً على الجزيرة ، وقائداً للجيش الذي يحـارب نصر بن شبث ، وسأرجع الى الرقة بعد زمن قصير . . . قل لها هذا ولا تزد

ونهض قائلا لعثمان :

لقد جاء دورك الان ، فاسأله عن امك وارضك ، ونخيلـــك ونوقك وكل شيء لك

ودخل غرفة اخرى وقد تفطر فؤاده ، ولولا عزة فيه ؛ لذرف الدمع

فقال مغيث لعثمان :

اصحيح ان عبدالله صار اميراً ؟

- نعم وسيحفظ الجزيرة لامير المؤمنين

- ولكنه لم يبلغ السن ، التي يجوز ان يصبح معها من عمال الدولة

قال : انك لا تجد مثله بين الامراء الشيوخ ، الذين تولوا الامور من عهـــد الرشيد الى اليوم . . .

قال : لولا هذا الدم بين الطائيين وطاهر ، لكانت زينب اليوم اميرة الجزيرة . .

وابوه ؟

- ولاه المأمون شرطته وامارة العاصمة ... ثم قال :

كيف تركت ام عثمان ؟

- لم ارها بعد زواج زينب .. غير ان سعدى تقول انها على احسن حال ..

- ولم تكن تحدث الفتاة بامر عبدالله ؟

- كنت اراها في الدار كل يوم ، ولكن لا ادري ما كانتا تتحدثان به

واصفر وجهه وجعل يقول :

اني خائف يا سيدي ، فالتمس منك ان تسأل الامير طاهراً ليرفق بي

- لقد وعدك الامير عبدالله بالعفو فهو لا يخلف وعده

- غير ان اباه لم يعد

- سترى ان الامير الكبير ، لا يتردد في تنفيذ ما يريده الامير الاصغر

وسمع عندئذ صوت طاهر ونائلة في الفناء

فخرج عبدالله من الغرفة التي كان فيها ، وليس على وجهه دليل من دلائل الهم ...

وكان طاهر ، قد خبر زوجته التي لقيها مع ام عامر ، في الطريق ، بحادث المسجد ، فتعجلت في الرجوع ، لترى مغيثاً

ودخلوا جميعهم فجلسوا ، وسيطر الذعر من جديد ، على العبد الجاني

فقال له طاهر : في اي شيء استحققت القتل ايها الرجل ؟

فعقل الخوف لسانه ولم يجب ، فقال عبدالله :

في قتلك مولاه حاتماً الطائي ..

قال : رحم الله مولاه ، لقد كنت اؤثر ان يفنى الجيش كله ولا تسيل نقطة واحدة من دمه .. ولكن دفعه القدر الى الموت ، ولم يكن لي حيلة في رده ، ولو عرفته قبل ان اهوي بالسيف ، لرميت سيفي ، وتركت البراز ... ان آل الطائي ليس لهم ثأر ليطلبوا به ...

- ومع ذلك فقد نقلوا اليهم انك غدرت به .

وجعل يقص عليه كل ما سمعه وهو في الرقة ، الى ان قال :
ولم يشأ ابو القتيل ، الا ان يبعث بعبده ، ليغدر بك ، كما غدرت بابنه ! ..
ـ اذن فابن سعد وابن فياض هما اصل البلاء
ـ نعم ، وقد جعلا آل طاهر ، اعداء لآل حاتم ، تستمر العداوة بينهم الى الابد .
قال : عجباً ، امكث بالرقة زماناً طويلا ولا اعلم شيئاً ؟
ـ اردت ان اكتمك الامر لتتفرغ للحرب
ـ واين نجد سليمان وفياضاً
ـ لا ادري ، ولا يعرف احد الى اي بلد رحلا
ـ اذن فانا في نظر الجماعة من المجرمين
.. نعم
قال : اذا اتيت الرقة فخبرهم بما تعلم
والتفت الى مغيث قائلا :
اما انت فسأسأل اميرالمؤمنين في هذا المساء ، انيرى رأيه فيك ، فقال عبدالله لقد وعدته باني سالتمس منك ان تعفو عنه
قال : اذا عفوت عن القاتل اسأت الى العدالة ..
ـ ولكنك تحسن الى المروءة ... انه عبد ياسيدي . وقد امروه بان يفعل فلم يستطع الا ان يطيع
فقالت نائلة : لماذا لم يعمدوا الى قتل ابيك عندما كنا بينهم ؟
ـ لانهم جعلوا لهذا القتل موعداً ، هو زواج زينب !
فاضطربت وقالت : وهل تزوجت ؟
ـ اجل ، وزوجها عصمة بن عبدالله الحرشي ، والاثنان يقيمان بالرقة فالها وهو يحتفظ بهدرئه
فسكتت ، وهي تعلم مدى الألم في نفسه
اما طاهر فقال : عبدالله الحرشي .. واخوه احمد .. لقد كان الرجلان من

قواد الامين ارسلها على رأس جيش ليحملا اليه راسي ... فرجعا هاربـــين الى بغداد ، قبل ان اصل اليهما ... اذكر ان لحاتم ابنتين

- اجل ، وهما سعدى وزينب

- كنت اود لو امسيتما ، انت وطلحة زوجين لهما ، فحبيبة بنت ماهان امهما هي نعم المرأة والام ... ولكن هذا الثأر الوهمي ، الذي خـلقه الوشاة ، يفصل بيننا ... الا تقع العين على سليمان وفياض ، قبل ان اترك الدنيا ؟ اني اتمنى ان يجمعني الله بهما ، لاشكر لهما هذا الجميل الذي غمراني به ...

قال : اوصيت طلحة بان يسأل عنهما في الكوفة

- لا أظن انهما يجيئان الى هنا .. فالشام ارحب صدراً ، وقد يكونان فيها

قال : ساقوم بما يعجز عنه رجال الشرط حتى اجدهما ، فان شئت فاعف عن هذا ...

قال : أنعفو يا نائلة ؟

قالت : اعف يعف الله عنك

- وانت يا عثمان ماذا تقول ؟

- ان عظمة القوي يا مولاي ، تتجلى في عفوه عن الضعيف

فقال لمغيث : عفوت ، فارجع ، وقل لمولاك ما اردت ، على ان تعلم ام مروان ان حاتماً لم يكن قتيل غدر ، وسيقص عليها عـبدالله الواقع لا كما رواه المبغضون

فجثا العبد على ركبتيه يقبل قدمي الامير وهو يقول :

لقد حفظت لي حياتي يا مولاي حفظ الله حياتك وحياة بنيك ، وجعلك نصيراً لكل ضعيف ..

فقال وهو يبتسم :

لنفرض ان مولاك امرك هـذه المرة ، بان تغتال عبدالله وهو في الرقـــة ، افتطيع أم تعصى ؟

قال : ان الموت سيكون جزاء لي اذا ترددت في الامر ، ومع ذلك ، فالموت احب الي من ان اسيء الى الامير عبد الله ، او الى رجل ممن ينتمون اليـــك ..

وازيد على هذا يا مولاي ، اني اليوم عبد لكم ، كما انا عبد لآل حاتم ، وسترون ان هذا العبد اشد اخلاصاً ووفاء من كثيرين من الرجال ..

قال : هذه كلمة يقولها جميع الناس ، عند النجاة من الموت ، فمن يضمن لي انك صادق ؟

فقال : الامير عبد الله نفسه

- اصحيح يا عبدالله ؟

- نعم

قال : احذر ، فهو يعتقد اني قاتل سيده ..

فاجابه مغيث قائلا : كنت اعتقد ما تقوله يا مولاي ، اما الان فقد اعتقدت ، ان الذين سموك قاتلا ، هم اعداؤك ، واعداء الله ، واقسم برأس امير المؤمنين الذي بدأت ان احبه ، اني سأبذل جهدي لاحمل الجماعة على الايمان بما امنت به الان ..

قال : كفى ، فكن وفياً لعبد الله كما قلت ، وسألتمس من امير المؤمنين غداً ان يجعلك حراً

- وكيف ذاك يا مولاي ؟

- يبعث من يامر ابا حاتم وحفيديه بان يخرجوك من الرق

قال : الا تعلم يا مولاي، ان الحرية خير من الاسر، وانها اعز شيء على العبد؟

- بلى

- ولكن لا اريدها اليوم

- لماذا ؟

- لانهم سيظنون ، اذا بلغهم امر امير المؤمنين ، اني خرجت من الرقة ثائراً مخلصاً للقضية ، فلما قدمت بغداد ، ورأيت مولاي الامير ، تبدلت الحال ، وامسيت خائناً

- اي انهم سيتهمونك بانك بعتنا نفسك ..

- نعم يا مولاى ، ولو لم يكن الامر كذلك ، لما طلب امير المؤمنين اخراجي من الرق ..

– اذن فهم لا يصدقون اننا عفونا عنك ، وسيقولون انك كاذب ..

– اما هذه الناحية فلا اخافها ، وستكون سعدى وزينب عونا لي

قال : اعطه يا عبدالله الف درهم يستعين بها في سفره

قال : معي ما يكفيني يا مولاي

قال : اذكر انك عبد حاتم ، وكان مولاك رحمه الله اخاً لي .. اعطه يا عبدالله

فقام فاعطاه ثم قال لابيه : ماذا فعلت في قصر الخلافة ؟

– اراد امير المؤمنين ان يحدثني بامر خراسان ، ولا اعلم لماذا

وعندما انصرف العبد ، خرج معه عبدالله الى الشارع ، يشيعه ، وهو يحس انه لا يشيع عبدا وانما يشيع زينب .. بل يشيع الامل الذي ضاع ..

• • •

٣٠

لا ، فعل كل ذلك ، ولم يشاور احداً ، حتى ان امي لم تعلم من قبل ، ان مغيثاً في بغداد !

– وكيف عرفت بعدئذ ؟

– خبرها مروان ، الذي افضى اليه مغيث بالامر ، قبل ذهابه

فقالت زينب : كنت اظن انه في البيضاء

– لقد ذهب اليها ، ليجيء منها بعبد اخر يقوم مقامه في الخدمة ، وهو العبد الذي رايته الان في الفناء

– اذكر انه كان هنا منذ بضعة اعوام

– هوذاك ، ثم بعث به جدنا ليتعهد النوق

ثم قالت سعدى . لقد طالت غيبة مغيث ؛ ونحن لا ندري مـــاذا جرى له ، ايستطيع ان يقتل طاهراً ام يفشل فيقبض عليه ؛ ثم يحملونه الى المأمون فيأمر بضرب عنقه ؟

قالت : لا ابالي ايقتل طاهر ام يبقى ، ولكني اظن ان العبد لا يقدر عـــلى تلك المهمة التي عهد اليه فيها .. واذا قدر فهو لن يعود ..

- ذلك ما كان يقوله مروان لامي منذ يومين

- وان رجع ، فستظل حياته في خطر ، الى آخر العمر

- مسكين مغيث ، انه العبد الامين الذي احبنا كما يحب الرجل بنيه ، وانا ارجو الله ان يحفظه لنا ... آه لو سمع جدنا لك ، وارسل عصمة لهذه الغاية قبل الزواج ...

فهامستها قائلة : لم تكن له رغبة في الذهاب ، ولو طلب منه ذلك لرفض ، وكان يقول :

ان الثأر ثأر بني طيء ، لا ثار الحرشيين

= وكيف يزعم الناس ، ان المحبين يقدمون على التضحية ولا يبالون ؟

فتنهدت وقالت : يقدم المحب على ذلك ان لم يكن من الجبناء ...

وجعلت تبكي . فقالت سعدى :

ليس لك مرجع ترجعين اليه غير البكاء ..!

- والى من ارجع .. الى هذا الجد الذي كنت اعتقد انه اقرب الناس الى الرفق بي ؟! ام الى امي التي لا تملك غير الطاعة ، وليس لها رأي ؟!.. اكرهني جدي على الزواج ، وانا اعلم انها ترغب فيما ارغب فيه ، ولكنها لم تقل له كلمة ولم يخطر لها ان تنقذ ابنتها من المأزق الذي وقعت فيه ...

نعم ، ان عادة العشيرة وتقليدها ، كانا في نظرها خـــيراً من زينب ، وصحبة عبدالله الحرشي ، كانت في نظر ابي حاتم ، خيراً من حفيدته الـــتي قذف بها الى الهوة !!

قالت : كفى يا زينب ، فقد دب فيك الهزال ، وامسيت خيالا لا اثر للحياة

فيه ، غير هذا النور في عينيك الغائرتين ..! لقد انتهى امر عبدالله اليوم ، فانت زوجة عدوه ، وسيتزوج هو فتاة يختارها له اهله ... فما هـذا البكاء ، واي شيء لك من ورائه ؟ !

– اما بكائي ، فلاني زوجة رجل غير عبدالله ، على اني سأحترم هذا الزوج ما بقيت ، واحتفظ بشرفي ، واصون عرضي ، حتى تظل عشيرتي مرفوعة الجبين بين عشائر العرب ، واما ان امر عبدالله قد انتهى ، فهذا خطأ .. ان امره لا ينتهي حتى تنتهي الحياة ، فصورته امام عيني ، وذكره في فمي وقلبي .. وهذه اللوعة التي ترين ، سترافقني الى القبر ! ...

انا اعلم ، انه ليس لي من وراء البكاء ، غير الشقاء ، ولكني استلذ شقـائي ، واستعذب بكائي ، ويطيب لي ذرف الدموع ، عنـــدما تطيب الحياة للاخرين ويصفو لهم العيش

– واذا ظهر لنا غداً ان التهمة كانت صحيحة ، وان طاهراً هو المجرم ؟

– اقسم بتربة ابي ، ان الجريمة بعيدة عن الرجل ، كما أنها بعيدة عن عبدالله ... ومع ذلك فانا اشعر ، ان الجرائم كلهـــا ، اذا اجتمعت ، لا تستطيع ان تفصل روحي ، عن الفتى الذي احببت ، وان يكن قاتلا ...

وكانت الاختان تتحدثان ، وهما في مخدع سعدى ، وعصمة مع المغـــيرة ومروان ، في المسجد ، وابو حاتم نائم في حجرته الصغيرة المطلة على الفناء

واما حبيبة وراوية ، فكانتا تعالجان اللبن ، الذي حمل الى الدار في ذلـــك اليوم ، من البيضاء

واذا ابو حاتم ينادي الجارية

فاقبلت سعدى ، فرأته جالساً في فراشه ، وهو يقول :

خيل الي اني سمعت في الخارج ، صوت مغيث ... انظري يا سعـدى ، أليس هو الذي يتكلم ، مع العبد الآخر ، علي ؟

ولم يقل كلمته ، حتى دخل الدار حفيداه ، وصهرهما ، ومغيث خلفهم

وارتفعت اصوات النساء :

هذا هو مغيث ، وقد نجا !
ثم جلسوا عند فراش الشيخ ، يصغون الى ما يقوله عبدهم القاتل
ولقد اشرق وجه ابي حاتم ، وكان الناظر اليه ، يظن ، انه يبصر ما حوله ..
ثم قال :
ادن يا مغيث ... أقتل طاهر ؟
- لا يا مولاي
فدهش الجميع ، وحبسوا انفاسهم
فقال : ويل لك ، وماذا فعلت ؟
- اردت قتله يا مولاي فلم تصل اليه يدي .. لقد كان في المسجد ، وكنت قريبا منه ، فلما خرج المصلون وقام لينصرف ، جردت خنجري واهويت به فوقف الخنجر في الهواء ...
- وهل شلت يدك ؟
- لا يا مولاي ، وانما كانت هنالك يد اخرى قبضت على ساعدي هي يد ابنه عبدالله ، ثم احسست ان روحي تكاد تخرج من فمي ، لان يدين اخريين ، قويتين اطبقتا على عنقي هما يدا عثمان بن ابراهيم !
- واين كان الاثنان ؟
- وراء احد العمد ، وانا لم ارهما
- اذن عرفا انك تريد الاساءة اليه ، فتبعاك من مكان الى اخر ، حتى ...ما عليك
- نعم يا مولاي ، راني عثمان ، فخبر عبدالله ، وظن الاثنان اني قدمت بغداد لاثأر بسيدي القتيل ، وهكذا جرى ..
وكان الصمت يسود حجرة الشيخ ، والشيخ يتنفس بصعوبة وتعب ويقول .
ام فررت ، ولم يستطيعوا ان يلحقوا بك ؟
- وكيف افر ، ورجال الشرط يملأون بغداد ، وقد امرهم رئيسهم طاهر ، بان يحملوني الى المنزل الذي يقيم بـه ..

فقال الحرشي : طاهر رئيس الشرط ؟

– نعم ، وهو في الوقت نفسه حاكم العاصمة

– وكيف نجوت ؟

– اعترفت بالواقع ، فعفا طاهر عني ، بشفاعة عبدالله وامه ، وعثمان ،وامرني بالرجوع الى الرقة

فصاح قائلا : اقبضوا على العبد فهو يكذب ..! ان طاهراً الذي يفتك بالابرياء لا يعفو !

فاجابه من غير ان يضطرب :

اصبر يا مولاي حتى تنتهي القصة ... قلت انه عفا ، ثم امرني بان اقول لسيدتي ام مروان ، انه لو عرف ان سيدي حاتما هو الذي طلب برازه ، لرمى السيف من يده ، وتراجع الى صفوف الجيش

فجعل مروان ينظر الى امه واخوته ، وهم ينظرون اليه ،

وزينب تتنهد وتقول في نفسها : سبق السيف العذل

فهم عصمة بان ينتهر العبد ، فاسكتته حبيبة قائلة :

دعوني اتكلم .. وماذا ايضاً يا مغيث ؟

قال : لم يكن طاهر يريد ان يعفو ، ولم يكن يعلم ، وهو في الرقة ، انكم تتهمونه بالغدر ، اذ لم يقص عليه احد قصة سليمان وفياض ، فلما خبره الامير عبدالله بذلك ، دمعت عيناه وقال لي :

ما كنت لاغدر باحب الناس الي ، فارجع الى الرقة فقد عفوت عنك ، واوصاني بما ذكرته الان ، ثم قال لولده الامير عبدالله :

لقد ولاني امير المؤمنين بغداد ، فقد لا ارى ام مروان بعد الان ، فاذا اتيت الرقة ،فاذكر ما تعلم عن حادث القتل ، ودافع عن ابيك ..

فجعل الشيخ يهز رأسه ويقول :

كلام سمعناه قبل اليوم ولا شاهد له ، قال :

الم يكن طاهر قادراً على قتلي ؟

- بلى
- ولماذا لم يفعل ؟
فابتسم باستهزاء وقال : رواية لا صحة لها ولا اصـــل ، فانت لم تذهب الى بغداد ، ولم تر طاهراً لانك لم تجرؤ على ذلك
قال : اقسم بمن اجرى دجلة والفرات ، اني لم اذكر لكم غير الذي جرى لي؟
ومد يده الى كمه قائلا لمروان
كم اعطيتني يا سيدي من المال ؟
قال : الف درهم
قال : انفقت الالف الذي اعطيتنيه ولم يبق منه غير ستين درهماً هذه هي ..
واخرجها من كمه
فقال مروان : اي شأن للمال بما تحدثك به ؟
- انه يثبت لكم اني كنت صادقاً فيما اقول
واخرج عندئذ الف درهم لا تنقص درهماً وقال :
هذه الالف الدرهم امر لي بها طاهر عندما هممت بالخروج من بغداد
فقال عصمة : لقد سرقتها من احدهم ! !
قال : لو كنت لصاً لما ابقيت في هذه الدار على شيء
فقالوا جميعهم الا الشيخ :
ان مغيثاً الامين ، لا يسرق
فنظر اليهم والشكر يتلألأ في عينيه ، ثم قال :
سترون عندما يجيء الامير عبدالله ، ان هذا المال عطية ابيه
فاراد الحرشي ان يعلم ، ما الذي يدعو عبدالله الى المجيء ، ولمــاذا يسميه مغيث اميراً
والذي اراده الحرشي ، ارادته زينب ..
الزوج يكره ان يعود الفتى الى الرقة ، والزوجة تسأل الملائكة واهل الجنة ان يعود ...

وهي لا تطمع في ان تراه .. ولكنها تتعزى بقربه ، وهذا جنون المحبين ولولا اجتنابها الخفة والخطأ ، لتولت سؤال العبد عن الحبيب ، الذي خاب الرجاء به ..

وقد تحير القوم في امرهم حتى ان ابا حاتم الذي لا يلين ولا يلوى عوده ، كان يفكر فيما سمع ، وهو لم يحط نفسه ، فيما مضى ، الى درك التفكير ...

وصبغت الغيرة والبغض وجه عصمة ، بـلون جديد غريب ، وهو يقول : ذكرت لنا الان ؛ ان طاهراً تولى الشرطة وامارة بغداد ...

- نعم ، ذكرت هذا

- وان عبدالله سيأتي الرقة

- نعم

- فماذا يصنع فيها ، والحسين بن عمر خليفة طاهر على الجيش ؟

قال : عندما يضع الامير عبدالله قدمه ، في هذه المدينة ، يتخلى الحسين عن القيادة والامارة ، لان المأمون جعل عبدالله ، على صغر سنه ، القائد والامير

فاهتزت زينب من فرحها ..

وقال عصمة : وتزعم انك لا تكذب ؟

- اجل لا اكذب ، والمأمون ، وبنو العباس ، واهل بغداد جميعهم ، يعتقدون اليوم ، ان الجزيرة ستخضع للامير الصغير ، خضوعاً كاملاً لا رياء فيه ، وهـذا الخارجي ، الذي يقال له نصر بن شبث ، والذي تراجع طاهر نفسه عن قتاله ، سيحني رأسه للقائد الجديد ، الذي لا يداري في الحرب ولا يجاري ، وسيكون وجوده في هذه البلاد ، ضماناً للشعب ، الذي ثقل عليه وجود الخوارج والجيش..

ثم قال :

وقد وعد الامير الفتى اباه ، بانه سيطلب سليمان وفياضاً ولو احتجبا وراء السحب ، ويستعيد حكايتها ، ثم يدعو بعض الذين شهدوا مقتل سيدي ، ليعترفوا بالواقع ، امام سيدتي ام مروان

فقال الشيخ :

احب ان اسمع رأيكم جميعاً ... أصدقتموه ؟

فقالت حبيبة : ما كنا لنشك فيه كما تعلم

وهكذا قال مروان وشقيقاه سعدى والمغيرة

اما زينب ، فلم تقل كلمة ، لان الغيرة طغت على عصمة ، وهي لا تريد ان تقيل له سبباً ، يخرجه عن الحد الذي يجب ان يقف عنده

ثم قال مروان لجده :

وأنت يا سيدي ، انشك في مغيث ؟

قال : اذا قدم عبدالله بن طاهر ، كما خبرنا الساعة ، زال الشك ...

- اذن ننتظر ...

- اجل ننتظر ، والويل له اذا كذب ..

فقال الحرشي : وانا سأنتظر ، فاذا صدق مغيث ، وتولى عبـــد الله الامر ، تركت الرقة ..

فاجابه ابو حاتم : لن تفعل هذا

- بلى ، فانا لا اقيم ببلد يسوده هذا الفتى الغر ..

- وهل نسيت وعدك بالبقاء هنا مع زينب ؟

- لا ، ولكن اخشى اذا اضطررت ، ان انقض ما وعدت

- اما هذا الاضطرار ، فليس في الامر ما يدعوك اليه

- وهل تريد ان يكون ابن طاهر في الرقة « سيداً » لي ؟

انه سيد نفسه ، كما انك انت سيد نفسك ، وليس عامل الخليفة غير خادم من خدم الشعب

- واذا خطر له ان يندبني لامر ؟

- ان العدو ، لا يندب عدوه ، لقضاء اغراضه

- ومع ذلك ، فالرجوع الى بغداد خير لي ..

فقال له مروان : اتعرف عبدالله ؟

- لا

– وبينك وبين احد من اهله عداوة

– لا ، ولكني اعلم ، ان ابي من اعداء ابيه ..

– لقد كان ذلك في حرب الامين والمأمون ، على ما قيل لي

– نعم

– اي ان اباك كان على دعوة الخليفة الذي قتل ، وكان طاهر من رجال اخيه

– هو ذاك

– اذن فعليك وعلى ابيك ، ان ترحلا عن بغداد ، لان سيدها وسيد المسلمين جميعاً ، هو المأمون الذي كان ابوك خصماً له

= والى اي بلد نسير ؟ ان ارض العرب كلها خاضعة له ، ونحن لا نستطيع ان نجاهره بالعداوة

= وطاهر من خاصته ، ومن اعاظم الرجال في الدولة ، فهل يطيق ابوك ان يعاديه ، ويتظاهر بانه من خصومه ؟

– ليس لي ان اسأل ابي عن ذلك ، اما انا فسأفعل ، لان العيش في ظل هؤلاء الناس ، صعب علي

– كما يصعب علينا نحن ، ان تقيم انت وزينب ، بعيدين عنا

فقال ابو حاتم :

لا ، لا نرضى ان تبتعدا ، فليجيء عبدالله ، وليتبعه طاهر ، وجميع آل الحسين فالرقة بلدنا وليست لهم ، وسننظر عندئذ فيما ذكره مغيث ... الا تريدين يا زينب ان تبقي عندنا ؟

فقالت وهي تغص بالقول : اود لو اقضي العمر كله قريبة منكم ، ولكن اذا اراد عصمة ان نرحل ...

فقاطعها قائلا : بل يبقى ، فقد اشترط ، انه لا يغادر الرقة بعد الزواج ، وكذلك وعدني ابوه ، أليس كذلك يا عصمة ؟

قال : سنرى ..!

– قل انك باق وستفي بما وعدت

ـ اخشى ان اعجز عن الوفاء

فرفعت ام مروان رأسها وقالت :

افعل ذلك من اجلنا واجل زينب ..

ونظرت اليه زوجته بشيء من الانكسار ..

فقال : اذا طابت لكم الاقامة بالرقة ، وقاتلكم اميرها ، فانا لا تطيب لي

قالت : قاتلنا في داره ، ونحن في دارنا ، لا يرانا ولا نراه ؛ ولا علاقة لنا به ، وكنا كنا مع ابيه سنكون معه ، الا اذا رأينا كذب سليمان ..

ـ وعندئذ تعودون الى ما كنتم عليه .. لا ، ساذهب ولا اعود ، الا اذا امحت آثار اميركم ، الذي ينتصر له هذا العبد ، والذي كنت اظن ، انكم ستلعنونه وتلعنون اسرته اليوم ، كما كنتم تلعنونها بالامس ..

وغشت الغيرة مع دمه ..

ان زينب لا تحبه ! فهو يعرف ماضيها وماضي عبدالله .. وعندما رضيت به زوجاً لها ، رضيت خوفاً من الفضيحة تلحق بني طيء ..!!

اجل ، انه يعرف كل شيء ، ولكنه لم يكن يريد ان تغضب ، فهي المرأة التي لم تخنه ولم تسيء اليه

فاذا جاء عبد الله ، وعادت الصحبة بينه وبين الجماعة ، فهناك الخطر ،

وهذا ما يخافه الزوج الغيران ..

واتقدت النار في صدره ، فجعل يتكلم كانه يهذي ..!

وعرفت زينب ، ان الوهم يسيطر عليه ، فاشارت بعينها الى اختها لتعيده الى هداه ، فقالت سعدى :

ليس لكم ان تتحدثوا بهذا الان ، فعبدالله لم يات ، وان جاء فسيظل بعيدا عنا كما هو الان

فاخذ الشيخ يقول : نعم ، سيظل بعيدا عنا كما هو الان ، وسيبقى عصمة وزينب بيننا ..

فقام الحرشي فخرج ، ثم نادى زينب وانصرفا

وكان مروان يقول لجده :
ان صهرنا لم يصغ الى ما قلته له ، وسيعود الى بغداد ..
وابو حاتم يقول : لا والله لا تترك زينب الرقة وانا حي

• • •

٣١

انا اعلم يا بني ، ان الحادثات ، وان اشتدت وكثرت ، لا تنال منك ، ولكني اريد ان احدثك بامر زينب ، لان هذا الحب الذي اختنق في صدرك ، يجب ان نجد له العلاج الذي يشفيك منه

فقال عبدالله لامه ان الذي يعرف الداء ، يصف الدواء ..

قالت لقد نلت ما كنت تطمع فيه ، وامسيت من كبار الامراء

- ذلك من فضل الله

= وستنتقل بعد قليل من الرقة ، فتنزل قصرا يحف بـــك فيه ، الغلمان والخدم ، واهل المشورة

- نعم

= ثم تخرج الى قتـــال عدوك ، وتقتحم الصفوف ، كما فعلت بالامس في كيسوم ...

= اجل ، سيكون ذلك

= واذا جرحت ؟

= يعالج الخبراء جرحي ، كما عالجوه في المرة الاولى حتى ارجع الى القصر

- ولكنك لا تجد في القصر من يعتني بك

- وهؤلاء الخدم والغلمان ؟

- لا يفعلون شيئا فينبغي ان تتزوج ...

قال : كل هذه المقدمة من اجل الزواج ؟

- هوذاك ، فالعذارى الحسان يملأن بيوت القواد في العراق ، وهذه ارادة ابيك ، فلا تتردد

قال : زوجوا طلحة ..

- لو جعله الخليفة اميراً وارسله الى بلد ناء ، لزوجناه ..

قال : ان الفتاة التي اردت ان اجعلها رفيقة لي ، انتزعها القدر من يدي ، فلم يبق الا ان اطلق الان فكرة الزواج ، وانفرغ لبناء هذا المجد الذي بزغ فجره..

وكان يتكلم ، وكأنه لم يتعشق زينب ، ولم يعرف الحب ! !

- وبماذا تعتذر لابيك ؟

- اقول اني سأنظر في امر زواجي ، بعد مقتل نصر بن شبث ، او بعد حضوره

قالت : لقد ذكر لي ابوك امس ، ثلاثة من اصحابه ، هم الوزير احمد بن ابي خالد ، ومحمد بن العلاء ، ويحي بن معاذ

- وما غرضه من ذلك ؟

- ان يدلني على الفتيات اللواتي يصلحن لك ولطلحة .. اني اعرف حسناء بنت الوزير ، وريحانة وروضة بنتي ابن العلاء فهن من اطيب النساء خلقاً ، واكرمهن عنصراً ، فان شئت فاختر لك احداهن

قال : والله لو هبطت الى الارض احدى عذارى الجنة لما حولت اليها وجهي!

قالت : سمعت ان اخا امير المؤمنين ، صالح بن الرشيد ، سيخطب حسناء

قال : ان رجلا ابوه خليفة ، واخوه خليفة ، أحق بحسناء مني ، وليس لي ، وانا من العامة ، ان افكر في فتاة يريدها ابن الرشيد لنفسه

وريحانة وروضة ؟

- لا هذه ولا هذه ، فزينب قد تزوجت ، واما انا فلن يجد الزواج سبيلاً الي

قالت : أليس بين خلق الله فتاة مثل زينب ؟

— بلى ، واني لأجد من هي اكثر جمالا وبهاء ، واشرف نسباً ، ولكني سأظل اشعر اني لست لها ، وليست لي

— وهكذا ينقضي العمر يا بني ؟

— اقضيه بين عز وعز ، وانتقل من امارة الى امارة ، في ظل امير المؤمنين الذي جعلني من امراء دولته

— سأسأل اباك الليلة ان يخاطب الخليفة بامرك

— ومتى كان الخلفاء ، يكرهون الفتيان على الزواج ؟ ان في الامر فضيحة لنا فلا تفعلي

ولو لم يكن الفتى ، عظيما في جلده وصبره ، وله الارادة التي هي اقوى من الفولاذ ، لهوى تحت تأثير هذه الذكرى التي ذاب لها قلبه ، وتحطمت قواه ...

وقد استطاع وهو يترك امه ، ليرافق عثمان الى الرصافة . ان يملك نفسه ، ويبدو مبتهجاً ضاحكا ، زاهي الجبين ..

وهذه ناحية من نواحي عظمة الامير الشاب

ولولا هيبة الخلافة ، لسأل امير المؤمنين ان يأذن له في السفر ، فقد نزعت نفسه الى الرقة ، وشاقه الهوى الى الحبيب ...

• • •

هناك ، في الناحية الاخرى من الارض ... كان شخص آخر يتعذب ويشقى ، وهو لا يشكو شقاءه وعذابه الا الله

واذا رآه الناس ، رأوه مستبشراً طلق الوجه ، كأن الدنيا حوله دنيا مرح ولهو !!

وانك لتعرفه ، فهو زينب ، فكأن النفسين ، نفسها ونفس عبدالله ، اتحدتا فى الاباء والشمم ، والصبر

على ان زوج زينب كان مجنوناً ... فهو يخاف على زوجته العيون ...!

ولكن لا يتهمها .. وكيف يتهم النعجة التي ساقها اهلها الى الذبح ، والتي خضعت له خضوع الجارية الذليلة ، لا خضوع المرأة الحرة الكريمة النبعتين

بل كيف يتهمها ، وهي في نهارها وليلها ، بين اربعة جدران، لا ترى الشمس ولا تبصر القمر ، واذا خرجت من سجنها ، فالى بيت ابيها القريب لتهامس سعدى بالشقاء الذي تعانيه

اجل ، كان يغار ، ولا يتهم .. وكلما ذكر عبدالله على مسمع منه ، دب في قلبه الذعر

وهو لو عرف بهذا الحب ، الذي حفظه الاثنان وكتماه ، واستطاعا ان يصبرا على جواه ، لفضح نفسه بين الازواج ، ولتحدث بجنونه اهـــل الرقة من رجال ونساء ..

ولكن العاشقة التي تفدي عبدالله بروحها ، لم يقدر الزوج والجار ، وآل حاتم انفسهم — الا سعدي — ان يروا في حياتها بينهم ، دليلا ظاهراً من دلائل الغرام مع ان حياتها ، اذا انفردت ، وخلت الى نفسها ، كانت همساً بينها وبين من تهوى ، وبكاء يتفطر له القلب...

وقد رأيت ، يوم رجع مغيث من بغداد ، وهي في بيت ابيهـا ، كيف كانت هادئة ، ومحتفظة برصانة المرأة ، البعيدة عن التبذل والاستهتار

كما رأيت ، ان عصمة كان يهذي ، وانه كان ثائراً لا يلتفت الى الوراء ، ولا ينظر الى الامام . .

فلما انصرف هو وزينب ، كانت وطأة الثورة قد خفت ، ولم يبق لها في قلبه غير اثر ضعيف ، فقال لزوجته :

اترين ان عبدالله سيعود ؟

قالت : وهل تظن ان المـــأمون ، وهو الخليفة العاقل كما يقولون ، يجعل الفتيان من عمر عبدالله ، امراء وقواداً ، ويعهد اليهم في قتال المتمردين عليه ؟

قال : ان هذا الخليفة ، الذي قتل اخاه ليجلس في مقعده ، وقتل قائد الخلافة الاكبر هرثمة بن اعين ، ثم قتل وزيره الفضل بن سهل ، وولي عهده محمـــداً الرضا

والذي تسمينه عاقلا ، رجل لا يصحو من السكر ، ولا عقل له ...

قالت : احذر ان تقول للناس ، ما تقوله لي

- قلت هذا امس امام المسجد ، وسأقوله كل يوم ، لكل من اراه من اهل الرقة وحلب ، وحمص والشام ، حتى تعلم العرب جميعها ، ان الخليفة يشرب الخمر مع الندماء والمغنين ، في الصباح والمساء ولا يرتوي ..!

- ولا تخاف ان ينقل هذا الكلام الى بغداد ، فيبلغ امير المؤمنين ؟

- لا ، فالرجل الذي يقضي ايامه ولياليه في مجالس الشراب ، لا اخافه !

قالت : كان الرشيد يشرب الخمر ، وهو الخليفة الكريم الجواد ، الذي غمر الشعراء والعلماء بفيض من احسانه ، والعادل الحازم الذي لم يغفل عن امر من امور الخلافة ...

قال ؟ ليس المأمون مثل ابيه

- والخليفة الامين ، الم تكن حياته القصيرة كلها عربدة ، ومجوناً وسكراً

- ومن قال لك هذا ؟

- ابو حاتم ، فهو يعرف اخلاق الخلفاء وعاداتهم ، من عهد المهدي الى اليوم

قال : مهما يكن من امر ، فانا لا احب هذا الخليفة الظالم ، ولو بقي الامين لكنت انا اليوم ، عامله على الجزيرة !

- كن مخلصاً للمأمون يقربك اليه ، ويستطيع ابوك الان ، ان يظهر خضوعه وندمه ، كما فعل الاخرون ، فيغفر له ، ويوليكما كما ولى طاهراً وعبدالله ، اذا صحت حكاية مغيث

- لو جعلني وزيراً له ، لرميت بعهد وزارته ، وعفرته بالتراب

- قلت لك احذر يا عصمة فللجدران آذان وعيون ..

- ما ابالي بهذه الاذان والعيون ، ولئن جاء عبدالله اميراً كما قيل ، لانتقلن الى بغداد ، واجعلن المأمون ، وطاهراً وبنيه ، مضغة في الافواه

- وعندئذ ، يحدق بك الخطر ، ثم يضرب عنقك ..

قال : اتدافعين عن هؤلاء وهم اعداء لي ؟

لا علم لي بانهم اعداؤك ، اذ لا يعادي المرء قوماً لا يعرفهم ، ولا علاقـــة له بهم ، ولم يفكروا قط في اظهار العداوة له ... ومع ذلك ، فانا اخاف عليك وادافع عنك ، لا عنهم ، وما همني الا ان تكون في مأمن لا تصل اليـك فيـه يد سوء ، الم يكن ابوك من قواد الامين ؟

- بلى

= ولماذا جعله من قواده ؟

= لانه كان من الرجال الاوفياء له

- وهل كان طاهر بن الحسين وفياً للمأمون يحارب عدوه ويصون عرشه ؟

نعم

- فلأي سبب اذن تنكر عليه استعماله طاهراً وبنيه وما هي الغاية من الطعن فيه وفي خاصته ، وانت تعيش في بلاد هي له ، وهو الذي سلطه الله عـــلى عباده يرفع من يشاء ويحط من يشاء ؟!

فعمد عندئذ الى الحيلة والرياء فقال :

الغاية من هذا كله ، انه جعل ابن الحسين من اقرب الناس اليه ، وهو قاتـل ابيك !!

قالت : دع بني طيء فهم يعرفون انفسهم ، ولا ينسون ثأرهم

- ولكنني افعل هذا من اجلك ، ومن اجلك ساقتل عبدالله او ارحـــل عن الرقة ...

وجعل يتفرس في عينيها ليرى تأثير هذا الاقتراح

فادركت زينب غرضه فقالت : اقتله اذا اتضح لـك ان اباه هو المجرم ... ولكن لا ، فانا ساتولى قتله عندئذ فيقول الناس :

لزينب عذرها فقد قامت مقام زوجها واخويها في اخذ الثأر ..

فضحك قائلا : اخشى ان تنسي هذا الثأر عندما ترين الرجل

- ومعنى هذا ؟

- معناه انك ستذكرين يومئذ ذلك الماضي الصافي على شواطيء الرقة ...

فابتسمت بدورها وقالت :

كان ذلك ماضي طفلين يلعبان ، وقد مر عليه الزمان ...

ـ ولكن يقولون ان عهد الطفولة اطيب العهود

ـ الم يكن لك عهد على شاطىء دجلة وانت طفل ؟

ـ بلى ، واني لاذكره كلما رأيت الماء يعلو وينخفض ، والسفن تروح وتجيء فيه ...!

ـ اما انا فاذكر من ماضي شيئاً واحداً لااذكر سواه ، هو ان ابن طاهر الذي تردد اسمه الان ، كان ابي الذي احتضنني ورباني ، ضحية ابيه ..!

فقال وهو يتكلف الهدوء :

كنت اظن ان بينك وبين عبدالله حباً . .

ـ كان بيني وبينه حب ، لا نعرف نحن الاثنين معناه ، فلما عرفنا الحياة ، اضمحل كأنه لم يكن ، وكنت انا هنا ، وعبدالله في خراسان ثم رأيت امي تبكي زوجها الذي قتل ... وجدي يبكي وحيده ، فلعنت هذا الماضي الذي تذكرني به ، وانتهيت بعد ذلك الى هذه الدار حيث امسيت زوجة لك ... افيعجبك هذا الصنف من الحب ؟

قال : على ان الفتى انتقل من خراسان الى الرقة ولم تكوني بعيدة عنه ...

ـ اجل ، لم اكن بعيدة عنه ، ولم يكن بعيداً عني ... كنا في بلد واحد ، تقيم به العشائر والاسر وطوائف العرب ، ولكن كانت تفصل بيننا كما تعلم ، عداوة تدوم ما دام العمر ... ثم قالت :

لقد كنت انت في الرقة ، وكان فيها .. فماذا رأيت ؟

ـ لم ار شيئاً ، ولكن لا اعلم ما الذي تخفيه القلوب

قالت : لو كان القلب على غير ما هو عليه اليوم ، لما رآني الناس زوجة لعصمة الحرشي ...

ثم رفعت صوتها قائلة :

اني احب عبدالله ، حباً ما عرف مثله الناس ... فهو الرجل الذي اتوجه اليه

لي صلاتي وتفكيري ، بعد الله ، بل هو المعبود الذي اسجد في هيكله كل ليلة لاجيه ...! واما انت ! انت زوجي ، فاني ابغضك ، ولا احب ان اراك او اسمع صوتك ، ولو في الحلم !! ولكن ، هل رأيت مظهراً واحداً من مظاهر هذا البغض ، وذلك الحب ؟ وهل انكرت علي اسلوباً من اساليب العيش ، في بيتك ، ومع اهلك ، واهل هذا الحي ؟ ؟

فدهش لهذا الاعتراف الغريب ، وتردد في الجواب

فقالت وهي تتظاهر بالغضب :

قل ارأيت شيئاً مما ذكرت ؟ اذن فمن الحكمة ومن العدل ، ان تكف عن هذه الالغاز التي تخاطبني بها من حين الى اخر ، وتكتفي بهذا الظاهر الذي تراه لانك لا تعلم كما قلت ، ما الذي تخفيه القلوب ، من بغض وحب ..

- ولكنك اعترفت الان ، بما في القلب ، وظهر الخفي ..

فقهقهت قائلة :

لقد كان هذا الاعتراف كاذباً لا صحة له ... اني لا احب ولا ابغض .. وانما هي حيلة اردت بها ان اقول لك ، ان الباطن لا يعرفه غير الله

فعمد الى الدرس من وجه اخر ، فقال :

واي رأي لك في الرحيل عن الرقة بعد قدوم الرجل ؟

- لا رأي لي في هذا ، وسترى اني سأتقدمك في الرحيل اذا هممت به ...على اني ارجو ، ان يظل ابو حاتم راضياً عنا فهو الشيخ الذي ينبغي ان تحفظ كرامته الى ان يموت

- ولكنه لا يرضى

قالت : ليس لنا ان ننظر في الامر الان ، فساعته لم تأت بعد

- ولكني اريد ان يعلم الشيخ اليوم ، اني عولت على ذلك ، وان ارجع

وقام ليذهب الى الصلاة

فاستوقفته قائلة : ان لهذا الرحيل سبباً احب ان اعرف ما هو

- ستعرفينه بعد حين

– بل الان

– لا اذكره الا اذا تولى الامارة عبدالله

قالت : لقد عرفته .. انه الغيرة التي تتلظى نارها في صدرك ، وليس لها سبب ، فاذهب .. اذهب الى صلاتك فما هكذا تكون الرجال ...

فخرج دون ان يجيب ، وكانت ابتسامته مزيجاً من السذاجة والاؤم ..

وبعد خروجه اقبلت ام عثمان تقول لزينب :

ارأيت كيف عفا طاهر عن مغيث وكان قادراً على ان يبري عنقه بالسيف

قالت . عجبنا لهذا العفو يجود به رجل قاس لم يتعود ان يعفو

– ذلك فعل عبدالله ، لا فعل طاهر ، وقد دفعه الحب الى التماس العفو عن عبد تعطف عليه زينب وترعاه ..

قالت : الشكر لعبدالله على كل حال ...

– واي رجل يعطي قاتله الف درهم يستعين بها على الرجوع الى بلده ؟ ان هذا ايضاً فعل الحب .. نعم ، ولو لم يكن طاهر ونائلة حاضرين ، لاعطاه عبدالله ثلاثة الاف ..

– انها لاريحية عجيبة يقوم بها عبدالله ، نحو العبيد .. اراه يبذل لهم عطاياه ، وكنت اود لو بذل القليل من جهده ، من اجل فتاة حرة باحت له بحبها وهو لا يستحق الحب !

وجادت عيناها بالدموع ، على عادتها كلما رأت ام عثمان

فحاولت المرأة ان تعود الى ذكر المصاعب التي عرضت لعبدالله في قضيته ، فلم تسمع لها ، واومأت اليها بان تسكت ، ثم قالت :

كفى يا ام عثمان ، فقد فصل الدهر بيني وبين الفتى الذي خدعت بوعده ، فكل حديث عنه جرح لي فلا تزيدي ، واسألك بالله الا تذكريني له اذا ما اتى الرقة ، ولا تذكريه لي

قالت : سيتولى عبدالله تكذيب سليمان وفياض

– اذا عثر عليهما فليفعل

- وسيشكوهما الى امير المؤمنين لينزل العقوبة بهما

قالت . لا شأن لي بكل هذا .. لقد كان رجائي ان يقوم بهـذا الامر ، عندما كنت زينب بنت حاتم الطائي ، التي كانت لهـا حريتها ولم تكن مقيدة بقيد ... اما اليوم ، فانا زوجة رجل ، يغار علي ان فتحت الربع نافذتي ، وان مر صياد في سفينته تحت غرفتي ، بل يغار من صوت المؤذن يرتفع عند الفجر ..! فما هي غايتي اذاً من التكذيب الذي تتحدثين به .. بلى ، ان الغاية منه ان يصوره اهلي واهله الولاء ، كما سادهم الجفاء .. ولكن زينب ستظل بعيدة عن كل هذا ، لان عصمة سيترك الرقة ، ولان طاهراً وآل الحرشي اعداء ...

وارتمت على المقعد وهي تشهق بالبكاء

فلم تشأ ام عثمان ، ان تكثر من ذكر عبدالله ، خوفاً من ان تزيدها ضعفاً على ضعف ، وآثرت الانصراف قبل رجوع عصمة الكثير الظنون

وقبل ان تخرج قالت لها :

ان ابا حاتم وام مروان لا يريدان ان تبتعدي عنهما

فاجابتها قائلة :

اما عصمت فهو يريد ذلك ، والكلمة الاخيرة له ، وانا لم يبق لي في الرقـة غرض ... لا ، لا ، قولي لامي ، حرام ان تترك زينب هـذا البلد الذي نشأت فيه ، فهي تموت اذا اكرهوها على الخروج منه .. وانت ترين ، انه ليس بيني وبين الموت غير ذراع .. فليتق الله عصمة الحر ...

واغمي عليها قبل ان تلفظ هذه الكلمة ..

فجعلت ام عثمان تعالج اغماءها ، وتنضح وجهها بالماء وهي تقول :

طيبي نفساً يا بنية فالفرج لا بد منه ، وسيصفو الجو ان شاء الله

• • •

عندما كانت زينب ، تتقلب متألمة ، بين الوسائد ، كان زوجها امام مسجـد

المهدي ، يلقي محاضرته عن امير المؤمنين !! وهو يصف للقوم حياتـــه في قصور الخلافة ، بين خاصته وندمائه ، يحيط به المغنون وعشاق الخمر ، وتسود مجالسه قهقهة السكارى ، واستخفاف الخدم !

ثم ينتقل الى درس الناحية الاخـــلاقية فيه ، فيذكر لسامعيه ، استبداده بعباد الله ، وجوره على الرعية الآمنة ، واستئثاره باموال المسلمين ، وميله الوحشي الى الغدر بالمقربين اليه ، من وزراء وقواد ، ومستشارين ، يقتل هـذا بالسيف ، وهذا بالسم ، ثم يغسل يديه من دمهم ويضرب رقاب الابرياء ..!

والناس يصغون الى المحاضر ..! وهم فريقان :

احدهما ، وهو بقية حزب الامين ، يبغض المأمون ولا يجسر على اظهار بغضه والاخر خليط من اهل الجزيرة والشام ، لا يؤمن بما يقوله الحرشي ، ولكنه يسمع مع السامعين ، ويتبين ما عند الرجل ، من اشياء واكاذيب

وعصمة لا يسكت ، وقد طابت له الخطابة في الجماعات ، وخيـل اليه ، لقلة عقله .. ان الناس سيتحدثون ببلاغته وجرأته في ليالي الشتاء السود

وانضم في تلك الساعة الى القوم ، بضعة رجـال من اهل الكوفة وكربلاء اقبلوا يشترون الجياد من الجزيرة ، وقـد نزلوا الرقـــة ، لان فيها طائفة من كرائم الخيل

وكان الخطيب عندئذ ، في ثورة غضبه على الخليفة ، ينتقده . ثم يشتمه ... ويعيد الشتيمة مرتين وثلاث مرات ، حتى ظن هؤلاء الكوفيون ، انه من المجانين واخذوا يسألون عنه

فلما عرفوا انه الحرشي بن عبدالله ، قام في اذهانهم انه ليس هنالك جنون ، وانما هو حقد هائل اتصل اليه من ابيه واهله الحرشيين ، الذين مات نفوذهم ، وقل مالهم ، بعد مقتل الامين ..

وانصرفوا وهم يقولون في انفسهم :

يظهر ان الحسين بن عمر ، خليفة طاهر على الرقة ، لا يجسر على اثبات وجوده على ان رجلا منهم كان يقول :

ان الذي يسب الخلفاء في ساحات المساجد ، على مسمع ومرأى من الناس ، واحد من اثنين : اما ان يكون خلفه الالوف من السيوف .. واما ان يكون من اولئك الفتيان الصرعى ، الذين استهوتهم الجن .

وليس وراء الحرشيين اليوم ، رجال يلتفون حولهم ويشدون ازرهم ، كما كانوا ايام صاحبهم الفضل بن الربيع

اذن فالحرشي الخطيب .. من الصنف الاخر .. ما في ذلك شك

هذا ما كان يقوله الكوفي ، والحكمة والمنطق فيما كان يقول ..

• • •

الى امير المؤمنين عبدالله المأمون من الحسين بن عمر :

عرفت اليوم يا امير المؤمنين ، ان فتى يقال له عصمة الحرشي ، ابوه عبدالله احد قواد الامين ، يسب امير المؤمنين ويدعو الى الخلع فاذا اذنت لي في ضرب عنقه

فلما انتهى الكتاب الى المأمون ، ضحك وقال لاحمد بن ابي خالد :

لو اراد الحسين بن عمر ان يضرب عنق الفتى ، لفعل دون ان يستأذن .. ان اعداء الخلافة يكثرون في الشرق وفي الغرب .. من هو هذا الفتى .. أتعرفه ؟

ـ اعرف اباه يا امير المؤمنين

ـ وهل اظهر خضوعه لنا كما فعل القواد الاخرون ؟

ـ ان جميع الذين حملوا السيف دفاعاً عن اخيك ، دخلوا فسلموا عليك بالخلافة وكان الرجل بينهم ، ولكنه لم يتكلم

قال : ادع صاحب الشرطة

فخرج احد الخدم فدعاه ، فقال له الخليفة

اقرأ هذا الكتاب يا ابا الطيب وهات رأيك

فقرأه طاهر فقال

عصمة الحرشي ! ! سمعت وانا في بغداد انه تزوج بنتاً لحـــاتم الطائي ، الذي

قتل من يدي في الري

– واي شأن لهذا الفتى في الرقة ؟

– ليس له شأن يا امير المؤمنين فمر بان يجيء ابني عبدالله فهو يعلم عنه مـا لا نعلم

قال ليحضر

فاقبل عبدالله ، وكان يظن ان ساعة الفرج قد اتت ..

فقال له المأمون

يا عبدالله ، ماذا تعرف عن عصمة الحرشي ؟

فلم يدرك معنى هذا السؤال فقال

اعرف عنه الشيء الكثير يا امير المؤمنين ، ولكني لم ار وجهه

– وكيف ذلك؟

– ذكروه لي وانا في الرقة فحفظت ما قيل لي عنه . لقـــد كان ابوه من اعدائك ...

– هذا صحيح

– وله ضيعة تجاور البيضاء ، ضيعة حاتم الطائي ، لا تبعد كثيراً عن الرقة

= ثم ماذا ؟

– وكان يحب زينب بنت حاتم فتزوجها وهو يقيم بين اهلها

– ومن يتبعه من العشائر ؟

– ليس له عشيرة يا امير المؤمنين ولا يتبعه احد

= وواثق انت بما تقول ؟

= نعم ، ولامير المؤمنين ان يسألني بعد حين ، عما اقصه عليه الان

فقال لاحمد

اكتب الى الحسين ليبعث الينا برأسه ..

فعرف عبدالله ان هناك ذنباً يستحق القتل

غير انه لم يجرؤ على السؤال ، فقال أحمد :

لو كتب أمير المؤمنين الى الحسين يأمره بارساله

- والغاية من ذلك ؟

ان تقرأ ما في نفسه ثم تضرب عنقه ان شئت

فالتفت عبدالله الى ابيه ... فقال طاهر :

الا يطيب لامير المؤمنين ان يتبين امر الرجل ، ويطلع على سره ، قبل موته ؟

قال : ان امير الرقة بيننا وله رأيه في ذلك .. ماذا ترى يا عبدالله ؟

قال : ما ذنب الرجل يا مولانا ؟

كتب الينا ابن عمر ، انه يدعو اهل الرقة الى خلع امير المؤمنين

قال : عهدي بهذا الحرشي انه اضعف من هذا الا اذا كان قد اصيب بعقله

ليس في رسالة الحسين شيء من الغموض

ودفعها اليه ، فجعل يقرأ ويهز رأسه ثم قال :

ارى ان تدعوه اليك يا امير المؤمنين ، كما قال سيدي الوزير ، وتأمر الان عبدالله الحرشي ، فيمثل بين يديك ، فقد تظهر من حديث الوالد ، غاية الولد

فقال لطاهر : هل الرجل في بغداد ؟

- اعتقد انه فيها

وقام فارسل اثنين من رجاله فوجداه في دجلة ، في احدى السفن القريبة من الشاطىء ، مع فريق من اصحابه

فلما امراه بالذهاب معهما الى القصر ، خاف ، وارتجفت ركبتاه ، ثم جعل يقول :

اهناك وشاية ؟

فقال احد الشرطيين : لا ندري ، فهلم بنا

وعندما رآه رجال القصر ، داخلا على امير المؤمنين ، خيل اليهم ، وقد ابصروا اضطرابه واصفرار وجهه ، ان النطع فرش له ، امام باب المجلس ، والجلاد بالانتظار ...

حتى دخل وسلم ، وهو يرتجف

فاخذ الخليفة ينظر اليه ، وهو لا يذكر انه رآه من قبل ، ثم قال له :
الك ولد يدعى عصمة ؟
- نعم يا امير المؤمنين
قال : نراك خائفاً فما سبب خوفك ؟
- اعتقادي ان عدواً وشى بي
- ليس في الامر وشاية ، ولكن نسألك عن ابنك ماذا يفعل في الرقة ؟
- لي في تلك الربوع ضيعة يا مولانا
- وهو يقيم بها ؟
- يقيم بالرقة يا امير المؤمنين لان زوجته منها وقد طلب اهلها ان تبقى بينهم
- ومن طلب اليه ان يسب امير المؤمنين ، ويـــدعو الناس الى ترك البيعة والخروج عن الطاعة ؟

فتهيب الموقف ، وجعل ينظر الى القوم ثم قال :
ابني عصمة يسب امير المؤمنين ؟ ! لقد كنا ولم نزل خدماً لعرش الخلافة ...
- اجل ، كنتم خدماً عندما كان غيرنا على هذا العرش ... لقد كنتم تحلمون عندما وجهكم الامين الى همدان ، بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة ، انكم ستأخذون رأس ابي الطيب ، هذا الذي تراه الان ، ثم تزحفون منها الى مرو ، لتأخـذوا رأسنا وتحملوه في مخلاة بعير الى بغداد ..! امثل هذه المكرمات كنتم خدماً لنا ؟

قال : رجعنا يا امير المؤمنين قبل ان نبلغ همدان ، ولم نشأ ان نشهر سيفاً في وجه ابي الطيب ، الذي كان يدافع عنك
فاومأ اليه بان يسكت وهو يقول :

بل رجعتم ، لانكم خفتم ان ينتهي بكم الامر الى مثل ما انتهى اليه امر علي بن ماهان ، وعبد الرحمن ... قل ما تعلم عن موقف ولدك ولا تذكر ماضيك
قال : والله الذي انزل القرآن هدى للناس ، وجملك بالحكمة والعدل والرفق
لا اعلم شيئا مما تقوله يا امير المؤمنين ، ولم اسمع قبل هذه الساعة ، ان عصمة ركب رأسه ودعا الناس الى المروق من طاعة الخليفة اعزه الله

- واذا ثبت لنا غداً انك تعلم ؟

اجعل جسدي موطئاً للنعال على الجسر ، ثم اقذف بنفسي الى دجلة وهنك ترى

قال : كنا امرنا وزيرنا بان يكتب الى الحسين بن عمر ليضرب عنق عصمة ، ولكن عبدالله بن طاهر ، الذي وليناه الجزيرة ، رأى ان ندعوه الينا لنتبين امره ، وستكون انت حاضراً يوم يجيء .. اخرج الان واحذر ان تكتب اليه كلمة يا عصمت

- اليس لي يا امير المؤمنين ان اسأل عن الكذوب النمام الذي سعى به ؟

- قلنا لك انه ليس هنالك كذوب ونمام ، ان الحسين هو الذي خبرنا بامره ..

واومأ اليه بالانصراف ، ثم قال :

اكتب يا احمد :

من عبدالله المأمون امير المؤمنين الى الحسين بن عمر :

اما بعد ، فقد انتهى الينا كتابك ، وعرفنا ما يجب ان نعرفه عن عصمة بن عبدالله الحرشي ، فاذا اتاك كتابنا فابعث به الينا على جمل بدون وطاء ، وليقم على حراسته اربعة من رجال شرطة الجيش ... وانظر ، فقد يكون في الرقة من يقول قوله ...

وقال لعبدالله :

- سنكل امره اليك عندما يحضر ، فانت أمير الجزيرة ، والحرشي رعية لك

قال ؟ لو كنت في الرقة يا امير المؤمنين ، لفعلت ما تفرضه العدالة على العامل الامين ، الذي يخاف الله ، ويحب مولاه ، ولكن في بغداد ، وليس لي ان افعل والا فيها ، الا ما تأمرني به

ثم قال : كان أبي قد جعلني خليفته على الرقة عندما بلغه امر امير المؤمنين بالمجيء الى النهروان ، ولكني آثرت المجيء معه لاحظى برؤية مولاي ، وكان ذلك ، من حظ الحرشي ...

- قلت انك لا تعرفه ، ولم تر وجهه

ـ نعم ، ولا اريد ان اعرف الفتيان ، الذين لا يبذلون ارواحهم من اجل امير المؤمنين

ـ يظهر انه كان في الرقة بعيداً عن دار الامارة

ـ اجل يا مولاي فهو في الجانب الغربي ، وكنا نحن عند قصور الخلفاء ..

ـ وراء الجسر ؟

ـ لا ، ولكن بالقرب من دار جعفر بن يحي وزير امير المؤمنين الرشيد

فقال طاهر : بالقرب من قصر اخيك الامير صالح يا امير المؤمنين

ـ اذن كان بعيداً كما قلنا ولم يكن له علاقة به

ـ لا ، حتى ان اباه لم يخطر له ان يشرفنا بزيارته ! !

ـ وكان يأتي الرقة ؟

ـ نعم

فقام عندئذ احمد بن ابي خالد ، والرسالة التي كتبها الى الحسين في يده ، فتناولها المأمون ، ووضع عليها خاتم الخلافة وقال :

ارسلها اليوم

ثم نهض يريد القصر

فاستأذن الحاجب للحسن بن سهل ، فقال له :

مرحباً بالحسن .. ليتبعنا الى البهو

فقال طاهر في نفسه :

لا يزال ابن سهل احب الناس الى امير المؤمنين

ولم يعرف اهل القصر ، ما يتحدث به المأمون والحسن ، غير ان هـذا الآخير كان طلق المحيا بعد خروجه ، وقد رآه غلمانه يهامس ابنته بوران ، في دهليز داره ،

وهو يبتسم ، فظنوا ان موعد زفافها الى الخليفة قد قرب ، وكان ظنهم لا صحة له ...

• • •

٣١

اقام المأمون بعد قدومه من خراسان، زماناً طويلا ، لا يجلس للشراب ، ولا يسمع الغناء ...

في حين انه كان ، يميل الى المرح في ساعات فراغه

حتى نزعت نفسه اخيراً الى مثل هذا

فامر اخاه ابا عيسى بن الرشيد ، في احدى الليالي بان يغنيه

وابو عيسى ، مثل عمه ابراهيم بن المهدي ، يجيد الموسيقى والغناء ، ويكثر من مجالسة رجال الطرب والمغنين

فسر المأمون في تلك الليلة ، وواظب على السماع ، ولكن ، كان متستراً ، يتشبه بالرشيد في اول امره ...

على ان الذين كانوا يغنون بحضرته ، ويستلذ غناءهم ، جميعهم من اهل بيته ليس منهم غريب عن الاسرة المالكة

لقد كان يرى ، وهو في اول عهده ، في بغداد ، انه لا يجوز للخليفة ، ان يجالس اهل الموسيقى والغناء لما يتخلل مجالسهم من عربدة تذهب بهيبة الخلافة ...

وصبر على ذلك شهوراً ، لا يغير النهج الذي تمشى عليه ، ولا يطمع احد، من هذه الفئة ، في الوصول اليه ...

ثم ظهر فجأة .. للندماء والمغنين ..!!

وحين ترك العادة التي ذكرنا ، واحب السماع ، سأل عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي الموسيقي العظيم ، الذي قرأت شيئاً عنه في روايتنا السابقة ، اسد وكولا ، والذي اشتهر في دولة العباسيين

وكان في مجلسه ساعتئذ ، بعض الرجال الذين يحسدون اسحاق .. فقام احدهم طاعن عليه ويقول :

ما رأي امير المؤمنين ، في رجل يتيه على الخلافة ؟!

فقال المأمون : ما ابقى هذا من التيه شيئاً الا استعمله

قال : انه اسحاق الموصلي

فامسك عن ذكره ، لا يسأل عنه ، ولا يريد ان يدخل القصر . . حتى جفاه من كان يصله ، لسوء رأي امير المؤمنين فيه ..

والمغنون جميعهم ، علويه ، ومخارق ، وغيرهما ، يدخلون على الخليفة ويغنونه كلما طاب له السماع ..

فأضر ذلك باسحاق ، حتى جاءه علويه يوماً فقال له :

لقد دعينا اليوم الى القصر ، فهل تأذن لي ان اذكرك لامير المؤمنين ؟

قال : لا ، ولكن غنه بهذا الشعر ، فانه سيبعثه على ان يسألك لمن هذا ، فاذا سألك انفتح لك ما تريد ، وكان الجواب اسهل عليك من الابتداء بالسؤال .

قال : هات . .

فألقى عليه لحنه في شعره :

يا سرحة الماء قد سدت موارده   امـــا اليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حيـــام له   محلاء عن طريق المـــاء مسدود

« الحائم : العطشان . والمحلاء : المطرود »

فمضى علويه ، فلما استقر به المجلس ، غنى المأمون بالشعر الذي امره به ، فلما سمع الصوت قال :

ويحك يا علويه لمن هذا ؟

قال : يا امير المؤمنين ، هذا لعبد من عبيدك ، جفوته واضطرحته من غير

الب

فقال : أاسحق تعني ؟

ـ نعم

ـ يحضر الساعة

فجاءه رسوله ، فصار اليه ، فلما دخل قال المأمون :

ادن ، فدنا فمد يديه وهو يعيدها واسحق يدنو حتى احتضنه واظهر من بره واكرامه ما يظهره الصديق للصديق

ثم قال له : غنني يا ابا محمد

فغناه هذين البيتين :

لاحسن من قرع المثان ورجعها   تواتر صوت الثغر يقرع بالثغر
وسكر الهوى اروى لعظمي ومفصلي   من الشرب في الكاسات من عاتق الخمر

فقال له : ألا اخبرك باطيب من ذلك واحسن :

الفراغ ، والشباب ، والجدة .. ثم قال :

ما اقل الهزج في الغناء القديم ..

فقال : ما اكثره يا امير المؤمنين

ثم غناه نحو ثلاثين صوتاً في الهزج القديم ..

وكان عمر بن بانة ، بين المغنين ، فقال لاصحابه :

هذا الذي يزعم بعضهم انه قليل الرواية

ثم دخل صالح بن الرشيد ، وقد غربت الشمس

فهش له اخوه ، واجلسه بالقرب منه ، وكان مخارق يغني :

أعاذل لا آلوك الا خليقتي   فلا تجعلي فوقي لسانك مبردا
ذريني اكن للمال رباً ولا يكن   لي المال رباً تحمدي غبه غدا
ذريني يكن مالي لعرضي وقاية   يقي المال عرضي قبل ان يتبددا
الم تعلمي اني اذا الضيف نابني   وعز القرى اقري السديف المسرهدا

« السديف شحم سنام الجمل ، المسرهد : السمين »

فقال له المأمون : لمن هذا اللحن ؟

قال : لهذا الاسد الجالس

« يعني اسحاق »

فقال لمخارق : قم فاقعد بين يدي واعد الصوت

فقام فجلس بين يديه ، واعاده فاجاده

وشرب المأمون عليه رطلاً

ثم التفت الى اسحق وقال له : غن هذا الصوت

فغناه ، فلم يستحسنه كما استحسنه من مخارق

ثم دار الدور الى علويه ، فقال له : غن . فغنى :

أوريت اليـــوم نارك لم اغمض   بواقعة ومشربنا برود
فلم ار مثـل موقدهـــا ولكن   لاية نظـــرة زهر الوقـــود
فبت بليــلة لا نوم فيهـــا   ا كابدهـــا واصحـــابي رقود
كأن نجومهـــا ربطت بصخر   وامراس تـــدور وتستزيـــد

« واقعة : منزل بطريق مكة ، البرود : البارد ، زهر الوقود : اضاءت ناره»

فقال له المأمون :

أعده ، فاعاده فشرب عليه رطلاً ، ثم قال لاسحاق :

غنه ، فغناه ، فلم يطرب له طربه لعلويه

فنظر اسحاق الى صالح ثم قال له :

ايها الامير ، لولا انه مجلس سرور وليس مجلس لجاج وجـدال ، لاعلمته انه طرب على خطأ ، وان الذي استحسنه انما هو تزيد منهما يفسد قسمة اللحن وتجزئته وان الصوت ما غنيته انا، لا ما زادا فيه

ثم اقبل على مخارق وعلويه فقال :

يا مخنثان ، قد علمت انكما لم تريدا بما فعلتماه ، مدحي ورفعتي ، وانا عـــلى مكافأتكما قادر ..

فضحك المأمون وقال له .

ما كان ما رأيته من طربي لهما ؛ الا استحساناً لاصواتهما ، لا تقديماً لهما ولا جهلا بفضلك

وامر لكل واحد منهم بمال ، وآثر اسحاق بالعطاء ...

• • •

لم نذكر لك ، في رواية اسد وكوثر – تاريخ الرشيد – ما يجب ان نذكره من رجل له منزلته وشأنه في دولة بني العباس ، مثل اسحاق الموصلي

لقد قرأت الشيء الكثير ، عن مجالس غنائه وطربه ، وعذوبة حديثه ، وخفة روحه ، ولكنك لم تعلم مكانه من الادب والشعر

كنيته ، ابو محمد ، وكان الرشيد يولع به فيكنيه ابا صفوان

وهذه كنية اطلقها عليه ، اسحاق بن ابراهيم بن مصعب مزحاً

وموضعه من العلم ، ومحله من الرواية ، وتقدمه في الشعر ، ومنزلته في سائر المحاسن ، اشهر من ان يدل عليه بوصف

واما الغناء ، فكان اصغر علومه ، وادنى ما يوسم به ، وان كان الغالب عليه ، وعلى ما كان يحسنه ، فانه كان له في سائر ادواته نظراء واكفاء ، ولم يكن له في هذا نظير ، فانه لحق بمن مضى فيه ، وسبق من بقي ، واوضح طريقه للناس ، وسهل عليهم سبيله واناره ، فهو امام اهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك منهم الكبير والصغير ، ويشهد به القريب والبعيد

على انه كان اكره الناس للغناء ، واشد بغضاً لان يدعى اليه ، او يسمى به ، وكان يقول .

لوددت ان أضرب – كلما اراد احدهم ان اغني ، وكلما ، قال قائل اسحاق الموصلي المغني – عشر مقارع لا اطيق اكثر من ذلك ، واعفى من الغناء ، ولا ينسبني من يذكرني اليه

وكان المأمون يقول .

لولا ما سبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء بحضرتي ، فانه اولى به ، واعف واصدق ، واكثر ديناً وامانة من هؤلاء القضاة ...

وكان مع كراهته الغناء ، أضن خلق الله ، واشدهم بخلاً به على كل احد ، حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه، منتسباً اليه ، متعصباً له، فضلا عن غير هؤلاء

وهو الذي صحح اجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه احد قبله ، ولا تعلق به احد بعده

حتى اتى على كل ما رسمته الاوائل ، من اهل العلم بالموسيقى ، ووافقهم ، بطبعه وذهنه ، فيما افنوا فيه الدهور ، من غير ان يقرأ لهم كتاباً او يعرفه

وام اسحاق ، امرأة من اهل الري ، يقال لها شاهك

وذكر قوم، انها دوشار ، التي كانت تغني بالدف،فهويها ابوه ابراهيم وتزوجها وهذا خطأ

لان دوشار ، لم تلد من ابراهيم الا بنتاً، واسحق وسائر اخوته من شاهك هذه

وقد اخذ منه منصور زلزل ، الى ان تعلم منه الضرب على العود اكثر من مئة الف درهم ، وكان يقول

بقيت دهراً اجيء في كل يوم الى هيثم فاسمع منه ثم اصير الى الكسائي او الفراء وابن غزالة ، فاقرأ عليه جزءاً من القرآن ، ثم آتي منصور زلزل فيضاربني نغمتين او ثلاثاً بالعود ، ثم آتي عاتكة بنت شهدة واحدى المغنيات المحسنات وامها جارية الوليد بن يزيد وكانت مغنية ايضاً ، فآخذ منها صوتاً او صوتين ، ثم آتي الاصمعي ، وابا عبيدة فاناشدهما واحدثهما فاستفيد منهما ، ثم اصير الى ابي ، فاعلمه ما صنعت ، ومن لقيت ، وما اخذت ، واتغدى معه ، فاذا كان العشاء ،رحت الى الى امير المؤمنين الرشيد

وذكر المؤرخون ، ان ابا عبد الله بن الاعرابي ، وقف يوماً على رجل يقال له المدائني فقال له.

الى ابن يا ابا عبد الله ؟
قال : امضي الى رجل هو كما قال الشاعر :

نحمل اشباحنـا الى ملك نأخذ من ماله ومن ادبه

« هذا البيت لابي تمام الطائي »
وكان اسحاق يعطي ابن الاعرابي في كل سنة ، ثلاثمائة دينار
فمر ابن الاعرابي يوماً بدار الموصلي ، ومعه صديق له ، فقال له صديقه :
هذه دار صديقك ابي محمد اسحاق ، فقال :
هذه دار الذي نأخذ من ماله ومن ادبه
ولكي تدلك على منزلته في قصر الخلافة، وادلاله على امير المؤمنين المأمون ،
انه سأله يوماً ان يكون دخوله عليه مع اهل العلم والادب ،والرواة ، لا مع المغنين
فاذا اراده للغناء، غناه !
فاجابه الى ذلك
ثم سأله بعد حين ، ان يأذن له في الدخول مع الفقهاء
فاذن له
فبينما كان مخارق وعلويه ، ومحمد بن الحارث جلوساً في بهو القصر ، ينتظرون
خروج الناس من عند المأمون ، وجلوسه لهم ، دخل عليه يحيى بن اكثم ، قاضي
القضاة ، وعليه سواده وطويلته ، ويده في يد اسحاق يماشيه حتى جلس معه بين
يدي امير المؤمنين ..!
فكاد علويه ان يجن وقال لرفيقيه :
يا قوم ، اسمعتم باعجب من هذا ، يدخل قاضي القضاة ، ويده في يد مغن حتى
جلسا بين يدي الخليفة !
ثم مضت على ذلك مدة ، فزاد اسحاق في دلاله ، وسأل المأمون ، ان يأذن
له في لبس السواد يوم الجمعة ، والصلاة معه في المقصورة!!
فضحك المأمون وقال له :
ولا كل هذا يا اسحاق ... اني لاشتري هذه المسألة منك بمئة ألف درهم على ان

لا تعود الى ذكرها ...

وامر له بمال !

ذلك هو اسحاق الموصلي ، رجل الادب والشعر والرواية ، وسيد الموسيقيين والمغنين في ذلك العهد ...

• • •

اقبل الى دار عصمة الحرشي ، اربعة رجال من شرطة الرقة ، ووقفوا بالباب وكان اربعة آخرون على مدخل الفناء

ثم دخل رئيسهم الدار ، وسأل احد الغلمان عن سيده فقال له :

انه مع زوجته في منزل الطائيين

فانتقل مع رجاله الى ذلك المنزل ، والقوم جميعهم فيه ، فقال :

أيكم عصمة بن عبد الله ؟

فقام فقال : انا ، فقال

ارجو ان تسير معي الى دار الامارة .

فدهشت الجماعة ، وجعلوا ينظرون اليه ..

اما زينب فلم تستغرب ما سمعت ، فكأنها كانت واثقة ، بان تحامل زوجها على المأمون ، وطعنه المستمر فيه ، سيقوده الى السجن

وكثيراً ما كانت تنبهه وتنهاه عن ذلك ، وهو لا يرعوي ..

وقد ايقنت في تلك الساعة ، بان امره انتهى الى المأمون ، وستذهب حياته وهي لا تريد ذلك

فقال عصمة لقائد الشرط ، واسمه عباد :

من امرك بهذا ؟

ـ الحسين بن عمر

فجعل يتلفت الى الجانبين ، ثم قال :
اسير عند غروب الشمس
- بل الآن ، والا فانا اقبض عليك اذا عصيت ..
وكان ابو حاتم ، لا يعلم من امر صهره ، ما يعلمه حفدته وام مروان ، فقال :
أتعرف ذنبه ؟
- ليس لي ان اسأل ولي الامر ، عن ذنوب الناس، الذين يأمرني باخذهم اليه.
وقال لعصمة : تهيأ فانا بانتظارك
قال : ألا امر بداري ؟
- وما تصنع في دارك ؟ انك لا تحتاج في مسيرك الى شيء ، فهي كلمة يقولها الحسين ثم تعود
قالت زينب : وكيف علمت انه سيعود ؟
- رأيت الحسين يبتسم عندما امرني بذلك ... قم يا عصمة
فظل قاعداً ، ومظاهر الاستخفاف على وجهه ، وفي عينيه
فنادى الشرطي رفاقه قائلاً :
اقبضوا على هذا
فقال مروان : بل يذهب ، ونذهب معه
وخرجوا جميعهم ، ومعهم المغيرة ، فقالت زينب :
هذا امر المأمون لا امر الحسين ..
وقصت على جدها ما يقوله زوجها عن الخليفة ، وخبرته بقضية الخطاب الذي ارتجله امام المسجد ... فقال :
نحن نبغض المأمون ، كما يبغضه هو ، ولكننا لا نعرض له بكلمة ، ولا نذكره ...
ثم امر بغيث فاقبل ، فقال له :
مر الى دار الامارة ، واعلم ما يريده الحسين بن عمر ، وارجع حالا
وجعلوا يفكرون في الامر

تقول سعدى : سيسأله الحسين سؤالا ثم يخلي سبيله

فتقول ام مروان : لو كانت هذه غايته لما امر بالقبض عليه

اما زينب ، فكانت تعتقد ، ان مسير زوجها الى بغداد لا بد منه ، والويل له من غضب امير المؤمنين

وكان الحسين بن عمر ، في قاعة الجلوس ، وعنده وجوه القواد ، وبعض الخبراء وفريق من اهل الشام وصلوا الى الرقة في ذلك اليوم

فلما دخل عصمة ، مع ضابط الشرطة ، اخذ الحسين ينظر اليه نظرات السخرية والاستهزاء ، ثم اومأ الى الضابط بالخروج ، ولم يقل كلمة

وبقي مروان والمغيرة في الخارج وقد قال الضابط لهما :

سانقل اليكما ما يفعله الحسين

ثم جاء مغيث وانضم الى غلمان الدار ، وكان يعرف بعضهم ، واقاموا ينتظرون

والحسين ، الرجل الحديدي ، والجندي القاسي ، الذي لا يعرف الرحمـــة ، يخاطب جلساءه ، وقد حول وجهه عن الحرشي كانه لم يره !

والحرشي واقف وعيناه تختلجان .. ولكنه لم يكن خائفاً ! !

ومرت ساعة ، وحديث القوم لا ينقطع ، وهم يـــذكرون ثائر كيسوم ، والحرب التي نشبت بينه وبين طاهر

ثم سال احد الشاميين الحسين قائلا :

ألم يامرك الخليفة بقتال نصر ؟

ــ لا ، وانما عهد الي طاهر في حفظ هذه الربوع

ــ وما هو الغرض من ترك القتال ؟

ــ لا ادري ، فابنه عبدالله هو خليفته على الرقة ، وانا اليوم اقوم مقامه حتى يعود

فاضطرب عصمة ... ثم تعزى بان طاهراً هو الذي ولى عبـــدالله ، وليس المامون

ومكثوا على ذلك ساعة ، وحال عصمة على ما رأيت

حتى قال الحسين للقوم :

أرأيتم هذا البطل العظيم الذي يتوسط القاعة ؟ انه عصمة بن عبدالله الحرشي يعيب امير المؤمنين ، ويطعن في خلافته ، ويدعو الناس ، الذين تجمعهم المساجد، الى ترك البيعة .. ثم قال له :

ألست القائل عند مسجد المهدي ، ان امير المؤمنين يجالس المغنين نهاره وليله ولا يرتوي من شرب الخمر ؟

ـ بلى

ـ وما الذي دعاك الى ذلك ؟

قال : لقد كان الرشيد يشرب ، وكان من اعظم الخلفاء . !

ـ وانت اردت ان تقول للناس هذا ؟

ـ نعم

ـ ومن هو ذو الذيل الوحشي ، الذي يقتل وزراءه والمقربين اليه ؟

ـ لا اعلم من هو ؟

ـ ومن هو الخليفة المستبد ، الذي يجور على عباد الله ، والمستهتر الذي تسود مجالسه عربدة السكارى ، وقهقهة الخدم ؟

ـ ذلك احد خلفاء بني امية

ـ وكان يدعى المامون ؟

ـ لا اعلم

ـ ان الذي لا تعلمه هنا،ستعلمه في بغداد ، وانت بين يدي امير المؤمنين... يا غلام خذه الى السجن ، وقل لعباد يحضر الساعة

وجاء عباد ، فقال له الحسين :

تسير غداً الى بغداد ، ومعك عصمة الحرشي على بعير بدون وطـــاء ، يحرسه اربعة رجال ، وسنكتب الليلة الى امير المؤمنين كتاباً بشأنه

فخرج عباد ، ولم يستطع ان يقول لمروان غير هذه الكلمة :

الى بغداد ..

وكان مغيث ، قد عرف ذلك من الغلمان

فعاد الثلاثة الى الدار يخبرون الجماعة

فساد الصمت ، ثم تنهدت زينب قائلة :

هذا الذي كنت اخافه

واخذ الشيخ يقول : لقد ظفر المأمون بجميع الجيوش التي بعث بها اخوه الى قتاله ، وانتزع الخلافة التي اوصى له بها ابوه الرشيد ، أفيرجع الى خراسان اذا عابه عصمة الحرشي،ويبعث الامين حياً فيجلس على العرش؟! ما هذا الجنون؟. افلا تكفينا لوعتنا على قتيلنا حتى يضيف هذا الحرشي هماً آخر فيفضحنا ويفضح نفسه باظهار هذه العداوة من جديد ؟

فاجابه مروان قائلا : انت الذي زوجته ..!

ـ اجل ، واكرهت زينب على الرضى به ، وانا اخشى الا يغفر الله لي

فقالت حبيبة : دعوا هذا الآن ، وانظروا فيما تصنعون . ان مغيثاً يعرف بغداد ، كما يعرف الرقة ، وهو يقول ، ان طاهراً عفا عنه ووصله بالف درهم ، فليلحق بعصمة ، وليتبين امره عن كثب ، وقد يكون طاهر هذه المرة ايضاً من انصاره فيسأل امير المؤمنين ان يرفق بالمجنون الذي طعن فيه ...

فوافقها القوم فيما رأت ، وامروا العبد بان يتهيأ للسفر ..

وقبل ان يطلع الصبح ، خرج من الرقة ، الى بغداد ، سبعة رجال :

عباد ، وعصمة وحراسه الاربعة ، يتبعهم مغيث على ناقته بينهم وبينه فرسخ على الافق ...

حتى قاربوا العاصمة ، في ليلة من ليالي صفر

فرأوا الانوار الضعيفة في الضواحي ، وسمعوا بكاء الاطفال ، وجعجعة الجمال ، وصهيل الخيل ، فظنوا ان بغداد انتقلت بمن فيها الى ذلك المكان

وقد صدقت ظنونهم ، فاهل بغداد ، انتقلوا منذ بضعة ايام ، الى الضواحي التي لا يصل اليها الخطر ، وتركوا بيوتهم وبساتينهم ، ومعظم ما يملكون من متاع ، عرضة للتلف ..

لقد فاض دجلة وطغى ، ثم امعن في طغيانه ، فاستأصل تياره النخيل على الشاطئين ، واجتاح بيوت الصيادين .. وهو يعلو ويمتد ، حتى هدم القصور والدور ، وذهب بكل ما عرض له من بساتين وجنان ، لم يبق على شيء ، والناس يغادرون منازلهم ، لا يهمهم الا ان يفروا من الموت ...

وخرج الخليفة ونساؤه ، وغلمانه وجواريه ، من قصورهم ، الى ملاجيء بعيدة عن الماء الهائج الصخاب ، وراح صاحب الشرطة ، طاهر بن الحسين ، ورجاله ، وكبار القواد وصغارهم ، ينقذون ما يستطيعون انقاذه ، ويساعدون الشيوخ والاطفال ، والنساء على الهرب

وامير المؤمنين نفسه ، يسير ماشياً من حي الى حي ، يحيط به فريق من الخاصة يشرف على ما يفعله رجاله من وسائل الانقاذ

حتى طاب لدجلة ان يكف عن طغيانه ويهدأ ، بعد ان جار بضعة ايام خسر فيها الناس جهاد العشرات من الاعوام

تلك هي الطبيعة التي تعطي وتأخذ ... وليس لهذا الاخذ والعطاء نظام ...

وصل اصحابنا ، في الليلة الاخيرة من النكبة

وكان المأمون ، ورجال الدولة ، قد رأوا ان المياه تنقص وتتراجع . فمهدوا للشعب ، في اليوم الثاني ، والايام التي بعده ، اسباب الرجوع الى المنازل التي سلمت

وبذل الخليفة المال للفقراء ، ليبنوا بيوتهم واكواخهم من جديد ويستعينوا به على الحياة

ولم يجلس للمظالم ، الا بعد ان استعادت المدينة الكبرى شيئاً من الطمأنينة والهدوء

فاضطر عباد ، الى الانتظار بضعة ايام ، لا يجسر على مقابلة المأمون وكيف يمثل بين يديه ، وعاصمته لم تمسح دموعها بعد ..

فلما استأذن عليه ، كان مغيث قد رأى طاهراً وولديه طلحة وعبدالله كما رأى والداً بن ابراهيم ، وخبرهم ، ان عباداً يحمل كتاب الحسين بن عمر الى امير المؤمنين ، وسيدخل عليه ومعه عصمة الحرشي

وبعد يومين ، استأذن عباد على الخليفة ، فلم يؤذن له ، الا بعـد ان دعي الى المجلس ، طاهر وولداه ، وبقي عصمة في بهو الخدم

وعندما وقعت عين عباد ، على طاهر وولديه ، في صدر المجلس ، مع صالح بن الرشيد، واحمد الوزير وغيرهما، أحس بشيء من الجرأة،لانها كانت المرة الاولى ،التي يدخل فيها على الخلفاء

فقال المأمون لطاهر :

أتعرف هذا الرجل ؟

- نعم يا امير المؤمنين ، كان من ضباط الحرس ، فجعلته من ضباط الشرطة وهو من المخلصين للخلافة

- واسمه ؟

- عباد الازدي

فقال له : يا عباد ، اسمعت انت الحرشي بن عبدالله ، يسب امير المؤمنين عند مسجد المهدي

- لا يا مولانا ، ولكن بلغنا انه فعل

- ومن سمعه من رجال الشرطة ؟

- لم يكن احد من هؤلاء امام المسجد ، في تلك الساعة

- اذن فالذين نقلوا الخبر الى الحسين كانوا من اهل الرقة

- اظن انهم من اهل الكوفة تجار الخيل ، وقد سأل الحسين جيران المسجد ، فاثبتوا له ما نقله الكوفيون ، حتى ان الحرشي نفسه اعترف بذلك

فقال لحاجبه : ادع عبدالله الحرشي الان

وبعد قليل ، دخل الوالدوالولد ، وليس على وجه عصمة ، دلائل خوف ، او دلائل جنون ! !

غير ان اباه ، كان ابعد نظرا منه ... وهو يعلم ان غضب الخليفة يعقبه الموت

واومأ المامون الى عصمة وقال ؟

اهذا صاحبك يا عباد ؟

- نعم يا امير المؤمنين

فقال لعصمة : اخلعت امير المؤمنين عن العرش ام ماذا ؟

- ليس لمثلي ان يخلع الخلفاء ...

- بلى تخلعهم امام المساجد ، وعلى مسمع من المصلين ، فمن هو الامير العباسي الذي تدعون الناس ايها الحرشيون الى البيعة له ...! لقد كنتم من انصار الامين يوم كانت جيوشكم تملأ الارض ، فاخذه الله اليه ، فهل توليتم اميناً آخر ، وانتم لا تملكون اليوم سيفاً ، وليس عندكم جندي ؟؟ قل ، اخلعتنا ام انت صابر حتى يسير العراق كله بركابك ، ويتهيأ الجيش للقيام بما تأمره به ؟ ! أهذا ابنك الذي اخذ الوفاء عنك يا عبدالله ، وتعلم الاخلاص منك ، تبعث به الى الرقة ، ليؤدي رسالة الخلع ، وانت في بغداد تتجاهل امره ، وتحلف انك بريء من كل ما فعل !

فهم بان يجاوب ، فانتهره قائلا :

اسكت ؛ فما نحب ان نسمع انغـــام البراءة منك ... ماذا يا عصمة ؟ ألم تقل للناس ان امير المؤمنين يستبد بعباد الله ، ويستأثر باموال المسلمين ؟!

- قلت ان الناس يتحدثون بهذا

- ومن هم هؤلاء الناس ؟ ابوك واهلك ، اشياع علي بن ماهان ، الذي حمل من بغداد قيداً يجرنا به جراً من خراسان !؟ الم تقل ان امـــير المؤمنين ، يسفك الدماء ويقتل الابرياء ؟!

وسكت ملياً ، وعبد الله بن طاهر ، ينظر الى هذا الحرشي الجبان ، الذي سلبه احب الناس اليه ، وقد آمن بان زينب نكبها الدهر ، وهي منكودة الحظ..

ثم رفع المأمون صوته قائلا :

- الم تقل كل هذا ؟

- ... بلى ..

- ولم تعلم ان الذي يقول قولك يستحق الموت ؟

- بلى ... اعلم ذلك ولا ابالي !! ..

فجثا عبدالله الحرشي على ركبتيه وقال :

لقد عرفت الآن يا امير المؤمنين انه مجنون ، فاضرب عنقه لتنقذني من العار الذي يلحق بي ... انه يعترف بذنبه ، وانا اعترف الان ، باني كنت من انصار الامين ، وقد عرضت عليه سيفي لاحارب طاهراً صاحب الشرطة ، واوطد له قوائم العرش .. وكنت اتمنى ان يخذلك الله ، ويأخذ بيد اخيك ليبلغ غايته من الخلافة ، فخذلنا نحن ، وذلك امره عز وجل ، وامسيت انت يا مولانا خليفة المسلمين ، فلم يبق علينا ، ونحن من اعدائك ، غير الطاعة لك ولعمالك ، وليس لنا في ذلك فضل ... فاذا تجاوزت عن ذنبي فمثلك من ينسى الاساءة ، والا فانا استحق ان تقذف بي الى اتون النار وانا حي ..

ثم التفت الى عصمة قائلا :

والله لو لم تكن بحضرة امير المؤمنين لانتزعت لسانك بيدي فتمسي العمر كله اخرس لا يسمع لك صوت ...

وسالت دموعه وجعل يقول : فاضرب يا مولاي ، اضرب الوالد عدو الامس واضرب الولد عدو اليوم ، فهذه شريعة الله والله لا يحب المعتدين !!

وعصمة يبتسم ، والقوم يرون ، ان في ابتسامته شيئاً من البلاهة ، او شيئاً من الجنون ...

وجعلوا ينظرون الى شفتي الخليفة اللتين ستلفظان الحكم

ثم سمعوه يقول :

انهض يا عبدالله ، فلو اراد امير المؤمنين ان يجازي جميع الرجال الذين جاهروه بالعداوة وخانوه ، بعد موت الرشيد ، لقضى على الكثيرين وانت منهم ... انهض فقد دلنا اعترافك بما كان منك ، على ندمك ، وعفا الله عما مضى .. ولكن عصمة ...

قالها ووقف .. فكأنه كان يريد ان يذكره بما قاله عن العربدة والخمر ، فمنعته عزة الملك ..

ثم قال : يا غلام ، النطع .. افرشوه في ساحة القصر ، وقل للحرس ان يقودوا اليه هذا المسلم الشجاع ، الذي يخلع خليفة ويولي خليفة اخر بكلمة منه .. ! واما

الث يا عبدالله فالعزاء لك ... واذا كان لك بنون غير هذا فليتعظوا .. قم يا عباد، وخذ رأس الحرشي الى الحسين بن عمر ، ليعلقه في الرقة على باب مسجد المهدي ...

والتفت الى الجماعة يتبين ما احدثه حكمه بالنفوس !

فرأى عبدالله بن طاهر ، ينظر الى المحكوم عليه ، والشفقة في عينيه ، فقال له: ألك ما تقوله ؟

- اذا اذن لي امير المؤمنين

- ماذا ؟

- ألم ير مولانا مد الله عمره ، ان المحكوم عليه الواقف كالصنم بين يديه ، لا عقل له ؟ ..

- وأين ذهب عقله ؟ هل استأثر به المأمون ، كما استأثر باموال الناس ؟ بقيت العقول لم نستأثر بها ولكننا سنفعل ... اتشفع الى امير المؤمنين ، في فتى يطعن عليه ويضحك مستخفاً في مجلسه ، كانه على شاطىء الرقة ؟!

- بل اشفع في فتى ضيع صوابه ، وانا لا اشك في جنونه .. ارأيت عاقلا يحكم عليه امير المؤمنين بالموت ويبتسم للحكم ؟!

- انه يتباله لينجو ، ونحن نخشى ان يعود الى الرقة ، فيخطب الناس خطبة اخرى ينشر فيها اكاذيبه ، فيذهب دفاعك عنه في الهواء ، وقد يكرهك الواقع وانت امير الجزيرة ، على الحكم بمثل ما حكمنا الان

قال : ان المجانين لا ضامن لهم يا امير المؤمنين ، ولكني اضمن هذا ، حتى يعود الى الهدى

وساله العفو ، طاهر وابن ابي خالد ، وجميع الجلساء ، فقال لعبدالله .

لا نقبل ضمانك الا على شرط ، هو ان تعيده الينا ، اذا عاد الى مثلها

- سافعل يا مولانا

- وستخرج انت ، بعد ذهابك الى الرقة ، الى حرب نصر بن شبث ، أليس كذلك ؟

- هذا ما امرتني به

ـ اذن فاعلم ان لنا شرطاً آخر لا نعفو عن هذا الجرم الا اذا عاهدتنا على القيام به

ـ ما كنت لاخالف امير المؤمنين فيما يشاء

فقال : يا عبدالله الحرشي ... اسمع .. واسمعوا انتم ايها القوم ، ان الاشتراك في قتال العدو ، والدفاع عن الخلافة ، خير لهذا الفتى ، من القاء الخطب في الساحات ... فينبغي اذاً ان يكون بين الصفوف التي يقودها عبدالله بن طاهر امير الجزيرة الى كيسوم ، وليجرب سيفه باعداء الدولة ، كما جرب لسانه بخلق الفتنة بين الجماعات ... افهمت يا ابن طاهر ؟ ووالله لئن علمنا انه اقام بالرقة يوماً واحداً بعد خروجك ، لننتزعنك من كيسوم انتزاعاً ، ونجعلن الموت جزاء له

فجعل عصمة ، ينظر الى عبدالله ، بعينين كأنهما عينا ذئب ، والحسد ، الذي هو من طبع الاثيم ، يملأ صدره ...

ثم بدا ، كأنه ذاهل لم يسمع كلام عبدالله ، وكلام امير المؤمنين

فقال ابوه :

الا يجعلني امير المؤمنين ، في جيش الرقة اخضع للاميرعبدالله كما يخضع الجندي لقائده ؟

قال : ندعوك عندما نحتاج اليك .. لقد عفونا الان عن ولدك ، بطلب عبدالله ، فاوصه بما نعلم ، وليمح هو جريمته بالاخلاص والجهاد من اجل الخلافة ، وليطع اميره طاعة حب ، لا طاعة خوف ... ولينظر اليه ، بعينين صافيتين ، لا كما ينظر الان ...

ثم قال لعصمة :

اما الان فارجع الى الرقة ، واذا اتيت المسجد وأتاه المسلمون ، فقل لهم ان امير المؤمنين قد استبد بعباد الله ... اخرج ، واما انت يا عباد ، فكن عيناً عليه في الطريق ، وفي البلد ، حتى يذهب عبدالله ، وقل للحسين ، لولا شفاعة ابن طاهر لكان راسه بين يديه ...

وعندما خرج الحرشيان ، قال المأمون لمن حضر :

صدق عبدالله ، فالفتى مجنون ، ولكننا لا نطيق جنونه

فقال عبد الله : ما هي الغاية من ارساله الى الحرب يا امير المؤمنين ؟

- ليس من الرأي ان تذهب انت الى كيسوم ويبقى هو في الرقة

- اذن فالغاية من ذلك ألا يسمع الناس خطبه من جديد

- اجل ، وان امير المؤمنين قادر على قتله، ولكننا نكره ان يقال ان المأمون قتل مجنوناً من مجانين الحرشيين.

وكان عبد الله الحرشي يقول لابنه ، وقد امسيا خارج القصر :

ما هذا يا بني ؟

فيقول عصمة : سر يا ابي ... فهذا جنون ..!!

وعندما انتهيا الى المنزل ، اراد عبد الله ان يسبر الغور ، فقال :

اي شيء جرى لك يا بني ؟ أجننت كما يقولون ، ام هو تظاهر بالجنون ؟ قال :

لا ادري ، فقد يكون ذلك جنوناً ولكن له حد !!

قال : لم افهم

- انه عارض يفاجئني مرة واً مرتين كل شهر ، وقد يغيب سنة .!

- وليس لهذا العارض هدف غير المأمون ؟

- يظهر انه جعل الخلفاء والامراء هدفاً له ...! فمرة يتناول المأمون ، ومرة يتناول طاهراً فكأنه يعلم انه ليس بين الناس من يستحق العناية غير هذين الرجلين

- ولكن الاثنين لا يطيقان هذه العناية ، وقد تصير وبالا عليك !!

فضحك وقال :

وما عساه ان يكون ذنبي ، اذا كان الجنون هو الذي يتكلم ... يقول عصمة الحرشي الذي يصيبه الجنون : ان المأمون يرضى عن رجاله في هذا الصباح ، ثم يغضب عند المساء ، فتتدحرج رؤوس هؤلاء الرجال ، عند قدميه ... ولا يعلم غير الله لماذا رضي ، وكيف غضب ... او يقول : ان طاهراً يغدر باصحابه ويهب الامان في الحرب لكل من يلقي سلاحه ، ثم يأمر بقتل المئات والالوف بعد امانه كما يقتل الصيادون بنات آوى وراء غابات النخيل ... فيبلغ هذا الخبر ذلك الذي

يسمونه امير المؤمنين ، فيأمر باحضار عصمة ، ثم يسأله عما حدث به الناس ، فيقف الفتى مستخفاً مستهزئاً ، ثم ذاهلا ، كأن الامر لا يعنيه . . . وتنتهي الرواية بخووجه سالماً من بين يديه ، كما يخرج الجانين !!

وجعل يقهقه ثم قال :

أعرفت الآن كيف يجيء جنوني ثم يذهب ؟

- عرفت ذلك ، ولكنك انت لم تعلم كيف يجيئك الموت ثم يذهب بك ، وانت مجنون ، الى العالم الآخر

فخفض صوته قائلا :

والله اني لاؤثر العالم الآخر الذي ذكرت ، على العالم الحاضر ، الذي جعل فيه ابن مراجل ، هذا الاعور الخراساني ، سيد القواد ، وجعل بنيه من الامراء

« ام المأمون اسمها مراجل ، والاعور الخراساني هو طاهر »

قال : ويلك يا بني ، أتحسد طاهراً وبنيه ، على النعمة التي انعمهم الخليفة بها ، ولولا طاهر لبقي المأمون في خراسان بعيداً عن مقعد الخلافة . . . انسيت مقتل علي بن ماهان في الري ، وعبد الرحمن بن جبلة ، ومقتل امير المؤمنين الامين ، وخضوع الجيوش كلها ، في الشرق والغرب ، لابن مراجل ، فمن فعل كل هذا ، ومن هو الرجل الذي حمل المأمون بيديه القويتين ، واجلسه على العرش ؟ ! ان طاهراً يا بني ، احد الاركان التي تستند اليها هذه الدولة ؛ في حين ان اباك وعمك احمد ، والجيش ، كانوا خصوماً لها ، ولو اظفرهم الله بالمأمون لشربوا دمه ! .. أفتطمع في ان تصير من الامراء في عهد الخليفة الذي لعنه ابوك ، وجرد سيفه ليأخذ به رأسه ؟ ! ام تطمع في ان يوليك قيادة حرسه ، وانت عدوه وابن عدوه . !! ان جنونك يا عصمة سيقودك الى الهلاك فافعل ما اشير به عليك ، واسع لتسترجع العقل الذي ضيعته ، قبل ان تضيع انت ، ويضيع ابوك !

قال : اراك امسيت من انصار ابن مراجل ، وعهدي بك انك لا تطيق ان يذكر لك اسمه

- اجل ، امسيت كما تقول ، ولكن في الظاهر ، لان الحكمة تقضي علي بذلك

وانا لا احبه ، فهل تظن ان الحيلة التي تتذرع بهـا ستعيش ؟ لا والله فما هي غير مرة اخرى ، حتى ينكشف امرك وتشخب اوداجك دماً ، ثم قال :

ألم يأمرك الخليفة بان تسير الى حرب نصر ؟

- بلى

- وتعصى امره ؟

- لا ، بل اسير في الطليعة

- ولكن المجانين لا يحاربون

- احارب اولا حرب العقلاء ، ثم يفاجئني العارض العين فيتغير الامر

قال : اريد ان تقول لي كيف يتغير ؟

- لا استطيع الآن ان اذكر لك هــذا التغير ، فقد اقتل عدواً من اعداء الخليفة ، اي رجلاً من رجال نصر ، وقد يكون هذا القتيل قائداً من قواد عبدالله او عبد الله نفسه !

قال : اخشى يا بني ان ينتقل جنونك الي في هذه الليلة

- وكيف ذلك ؟

- اعود الى القصر فاقول المأمون ، ان عصمة الذي رحمت جنونه ، وغفرت له ذنبه ، لم يكن مجنوناً وانما كان ذهوله واستخفافه حيلة منه !

- وماذا يفيدك هــذا ؟ يضرب المأمون عنقي ، فتشقي انت ، ويظل رأسي المقطوع ماثلاً امام عينيك عمرك كله كأنه يقول لك ، في نهـارك وليلك ، انت قاتل ولدك !

قال : كفى يا بني وعد الى رشدك

- قل لمأمونك ان يعود الى رشده اولا ثم نرى بعد ذلك ...

ودخل الدار عندئذ ، مغيث العبد فقال لعصمة :

الحمد لله ، لقد نجوت يا سيدي بفضل الامير عبد الله !

فصاح به قائلاً : من خبرك بهذا يا عبد السوء ؟

- سمعت غلمان القصر يتحدثون به

قال : كذبوا وكذبت أتعني عبد الله بن طاهر ؟ انه لم يقل كلمة ، ولو كان الامر في يده لما بقي في هذا الوجود رجل يدعى عصمة الحرشي ... اخرج واحذر ان تقولها مرة ثانية ... ولكن .. لا .. اجلس وقل لي من ارسلك

- سيدتي زينب !

- واوصتك بماذا ؟

- بان استعين بجميع من اعلم من رجال بغداد ، لينقذوك من غضب امير المؤمنين !

- ومن هم هؤلاء الرجال الذين تعرفهم ؟

- نخبة من القواد وامراء بني العباس !

قال : لم يكن احد من هؤلاء في مجلس المأمون

- كانوا يهمون بالدخول ، عندما بلغهم انه عفا عنك ..!

- سم احدهم

- المنصور بن المهدي ، وعيسى بن الهادي ، واخوه ...

- ويلك ، الك علاقة بمن ذكرت ؟

- نعم ، وبامراء وقواد اخرين

- اذن فقل للقوم في الرقة ، انهم هم الذين شفعوا في الى الخليفة ، ولا تذكر عبدالله .. أفهمت ؟

- لماذا يا سيدي ؟

- لاني اريد ذلك ...

قال : لقد فهمت الان ، وسأفعل

وكان يقول في نفسه :

هذا حسد يقتل صاحبه وما كنت لافعل ما تأمرني به

فقال عبدالله : سترجعان انتما الاثنين الى الرقة في يوم واحد ، فقل للجماعة ما يقوله عصمة لا تنقص ولا تزد

وكان مغيث قد رأى بعينه كل ما جرى في المجلس ، وسمع كل ما قيل ، لانه

كان واقفاً في الدهليز مع الغلمان والخدم

وكان يهزأ في سره ، بما يقوله الوالد والولد

ولم تكن حكاية المنصور بن المهدي ، وعيسى بن الهادي ، غير اكذوبة من تلك الاكاذيب التي كان العبد يعمد اليها كلما دعته الحاجة واكرهته الحادثات ...

وقد رأت انه بدأ يحب عبد الله ، من يوم مجيئه الى بغداد في المرة الاولى ، كما يحب الرجل منقذه من الموت

وعول منذ ذلك اليوم ، على ان يطيعه فيما يرغب فيه ، ويكون له من وراء الستار عبداً اميناً لا يتردد في بذل حياته من اجله

وكما احب عبد الله ، ابغض عصمة،فهذا من صنف الرجال الانذال الذين يغمطون النعم ، ويجحدون الاحسان ، والآخر من اولئك البررة ، الذين يمدون ايدي المعونة الى الضعفاء والبؤساء ، ويدفعهم خلقهم الطاهر الى العناية بالعبيد الارقاء

وقد استطاع مغيث ، ان يخفي بغضه وحبه لا يتظاهر بهما ، ولا يعرفهما الناس فيه

ولكنه كان يعد لهما عدتهما،ويحتفظ بها ، لليوم الذي لا بد لهما فيه من الظهور، فقال لعصمة :

متى يرجع سيدي الى الرقة ؟

— بعد يومين ، فاحفظ لسانك ، ولا تنس في هذين اليومين اني مجنون ...

— ما نسيت ، وساحدث الناس بجنونك ...

— وهل رأيت صاحبك عبد الله ؟

— رأيته ورأيت اباه ، واخاه طلحة وعثمان ، واما قولك يا سيدي انه صاحبي فليس لي صاحب غير سادتي الطائيين ، وصهرهم عصمة الحرشي ...

قال : أتحسبني سيداً لك ؟

— نعم

— وتفعل ما اشاء ؟

- وافعل ما تشاء

- اذاً ساعطيك مئة درهم ، بعـــد بلوغنا الرقة ، على ان تردد على مسامع القوم ما اذكره لهم ..

- ساعيد قولك كلمة كلمة وسترى ...

فقال عبد الله لابنه :

اذكر ما يطيب لك دون ان تسيء الى امير المؤمنين

قال : اتسألني مرة ثانية ان اعود الى الرشد ؟؟ لقد عدت ، وساذكر دائماً ان امير المؤمنين هو خليفة رسول الله ...

وخرج قائلاً لمغيث :

هلم نذهب الى الرصافة الشمالية ، ونركب احدى سفن الصيد ...

وعندما بلغا الشاطىء قال له :

أعد علي ما اوصتك به زينب

فلما فعل : اشرق وجهه وجعل يقول :

لقد كانت ولم تزل ، نعم الزوجة ، واحسن النساء . ثم هامسه قائلاً :

اتحب المامون يا مغيث ؟

- احب الذي تحبه ...

- وما رأيك في طاهر ؟

اما طاهر فساتظاهر بالاخلاص له ولبنيه لانه عفا عني كما تعـــلم ، ولكني لا استطيع ان احب قاتل سيدي ابي مروان ! ..

قال : احسنت ومن اجل ذلك ساجعلك عوناً لي في ما افكر فيه

وبعد رجوعهما الى الرقة بيوم واحد ، عرف الناس ان المأمون عفا عن عصمة ، بشفاعة كبار القواد ولانه سليل الرجال الذين خدموا الخلافة ...

ثم عرفو بعد ثلاثة ايام انه عفـا عنه لانه مجنون ... وقد شفع فيه عبد الله ابن طاهر امير الجزيرة ...

وادركت زينب ان هذه الشفاعة في المجرمين الاثنين مغيث وعصمة ، والعفو

عنها كل ذاك كان من اجلها ... من اجلها وحدها . وذلك ما يفعله الحب ...
وما خفي هذا الامر على سعدى وام عثمان
وكان مغيث قد خبر النساء الثلاث بكل ما رآه ...

• • •

٣٢

من الضرورة ، وانت تقرأ تاريخ المأمون، ان تقرأ شيئاً عن الادب في عهده ، وعن بعض الرجال ، الذين كان لهم شأنهم، في دولته ، سواء ا كانوا قواداً ام وزراء وكتاباً ام شعراء واطباء ، ام مغنين وندماء

اما القواد، فقد عرفت منهم ، هرثمة وطاهراً ، اللذين هما اشهرهم ، ومر ذكر العشرات من زملائهم ، مثل يحي بن معاذ ، وعيسى بن محمد ، وخزيمة بن خازم واخيه نعيم ، وحميد بن عبد الحميد . وغير هؤلاء

كما عرفت من الوزراء والمقربين ، الفضل بن سهل واخاه الحسن ، واحمد بن ابي خالد ، وعلياً الرضا ولي عهده ، ومن المغنين ؛ اسحاق بن ابراهيم ، وعلويه ، ومخارقاً ، ونحن نورد لك هنا ، بعض ما ذكره المؤرخون ، عن طبيبه ، وقاضي قضاته ، وكاتبه ، وشخصيتين اخريين ، كانت لهما صلة به ، لتصبح صاحب خبرة ، بكل ما يتعلق بذلك الخليفة العظيم الذي زها عهده ، وعهد ابيه الرشيد ، في ذلك الجيل

ثم نذكر لك بعض العلماء ، الذين دفعهم ببذله وعطاياه ، الى تأليف الكتب ، ووضع الاسفار ، ونقل الفلسفة والمنطق ، والطب الى لغة العرب

يقول الاستاذ وليم ميور ، في كتابه « الخلافة » الذي له اثره في التاريخ العربي

من نواحي السياسة ، والادب ، والعلم والذي درس مؤلفه ، قبل وضعه ، كتب العرب والمستشرقين ، امثال نولدكه ، وكريمر ، وميناود ، وماكولم ، وبرون ، وغيرهم ، ان مجلس المامون كان حافلا ، بالادباء والشعراء والمحـدثين والفقهاء ، وكان يحترم علماء اليهود والنصارى ، ويوسع لهم في مجالسه ، ويحتفي بهم ليس لانهم كانوا علماء فقط ، بل لانهم كانوا يحسنون لغة اليونان ، ولغة العرب وقد اخرجوا مـن اديرة سوريا ولبنان وفلسطين واسيا الصغرى ، كتباً خطية ، في الفلسفة والتاريخ والهندسة ، ثم ترجموها الى العربية ، ببراعـة وعناية ، فانتقلت بفضلهم علوم اليونان ، الى العالم العربي ، ثم توسعوا فاضافوا اليها ما اكتسبوه من كثرة الاطلاع ، وبنوا في سهل تدمر مرصداً مجهزاً بالالات ، يستخدمونه لدرس الهندسة والفلك وما لبثوا حتى وضعوا كتباً ، في الرحلات والتاريخ والطب

ونبدأ الان بكلمة عن احد اطباء الرشيد والمأمون :

جبريل بن بختيشوع

كانت اسرة جبريل ، الاسرة المسيحية الوحيدة ، التي ارتفع ذكرها ، وعاش مجدها ثلاثة اجيال كان لها فيها العز والجاه والحظوة لدى الخلفاء

وقد نفعت الطب وغيره من العلوم ، بالاثار التي لا تبلى

وكلمة بختيشوع ، مركبة من كلمتين سريانيتين ، بخت ، ومعناهـا العبـد ويشوع ، ومعناها يسوع ، اي عبد يسوع

واصل الجماعة من مدينة جنديسابور واول رجل منها عرفـه التاريخ هو ديوجرجس بن بختيشوع وكان يزاول الطب فبرع وذهب له فيه ذكر وجعل في ذلك العهد رئيساً لمستشفى مدينته

ثم بلغ خبره ابا جعفر المنصور ، وكان مريضاً ، فارسل وفداً الى جنديسابور يستدعيه اليه ..

فابى المسير الى بغداد

فاعتقله عامل البلد ، واقبل اعيان جنديسابور واصدقاؤه فيها ، من اساقفة ، وكهان ، ينصحون له بان يمتثل للامر

فسمع لهم وانصرف الى دار السلام ، فكانت له الحظوة عند المنصور

نشأ جبريل طبيباً ، ونبغ في صناعته كما نبغ ذووه ، وقد ظهرت فيه عوامل الوراثة ، آخذاً عن آبائه الصفات الطيبة ، والبراعة في المهنة ، وطهارة الخلق ، وعرف في دنيا الطب سنة ١٧٥ للهجرة ، ٧٩١ للمسيح

ذلك لان جعفر بن خالد ، شقيق يحي بن خالد ، وزير الرشيد الاكبر ، فاجاته علة فأبل منها بعناية بختيشوع ، فرغب اليه في ان يبقى عنده فاعتذر واقام مقامه ابنه جبريل فلقي منه الرعاية والعطف

ثم كاشفه جعفر بداء خفي كان قد اصابه فعالجه ثلاثة ايام من الله عليه بعدها بالشفاء

فزادت منزلة جبريل رفعة ، وقربه اليه ، وجعله جليسه ونديمه ، لا يفارقه في نهاره ساعة واحدة

وحدث ان جارية من جواري هارون الرشيد ، شلت ذراعها ، وكانت عزيزة على امير المؤمنين ، فشفاها جبريل بحيلة لطيفة ، بعد ان عجز الاطباء الاخرون من شفائها ...

فوصله الرشيد بخمسين الف درهم ، وعظم شأنه بين الخاصة ورجال القصر ، حتى قال الرشيد لاصحابه واعضاء اسرته :

كل من كانت له الينا حاجــــة ، فليخاطب بها جــــبريل ، لاننا نقبل كل ما يسألنا فيه

ولازم هارون بعد ذلك ، يصحبه كلما انتقل الى الرقة ، وكلما سار حاجاً الى الحجاز ...

ولما تولى الامين الخلافة ، عرض عليه نفسه ، فرحب به ، وانزله المنزلة التي يستحق ، حتى انه لم يكن يأ كل شيئاً الا باذنه

فغضب المأمون عليه ، بعد خلافته ، وامر به فاعتقل ، ولم يطلق سراحه حتى شفع فيه الحسن بن سهل

ومرض المأمون مرضاً لم يعرف الاطباء ما هو ، وعلى رأسهم مخائيل ، صهر جبريل

فعالجه جبريل حتى شفي ، فغمره بالنعم ، واصدر امره الى الوزراء والقواد والعمال ، بان يحترموه ويعظموه

واطلق يده في شؤون الرعية ، حتى ان امور طائفته كانت في يده ، وبنفوذه وتأثيره ، انتخب البطريرك جورجيس المعروف بابن الصباغ ، وهو شيخ

وظل له تأثيره ونفوذه ، حتى مات

يحي بن اكثم

ينتهي نسبه الى اكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب

انخرط يحي في سلك القضاة صغيراً ، لذكائه وفطنته

ثم تقلب في مناصب القضاء ، حتى امسى قاضي القضاة ، اسمى مناصب الدولة

كانت له مكانته في العلم ، وعرف بالحزم وحسن السياسة ، وسرعة الخاطر ، ورباطة الجأش

واول عمل اتاه ، انه تولى قضاء البصرة ، قبل خلافة المأمون ، وعمره عشرون سنة

فاستصغره القوم وقالوا له :

كم عمر القاضي ؟

فعلم انهم استصغروه ، فقال « اكبر من عتاب بن اسيد ، الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم ، قاضياً على مكة ، يوم الفتح ، وانا اكبر من معاذ بن جبل الذي جعله النبي قاضياً على اليمن ، واكبر من كعب بن سور الذي ولاه عمر بن

الخطاب قضاء بلدكم هذا ، ثم عزل عن البصرة لواحد من سببين ، اما لامره بتعذيب احد الخدم بالقصب ، واما لقوله ابيـــاتا من الشعر تغزلا في ابني مسعـدة ، وكانا نهاية في الجمال ..

ويقول ابن خلكان :

اراد المأمون ان يولي رجلا القضاء ، فوصف له يحي بن اكثم ، وهو لا يعرفه فامر باحضاره ، فلما دخل عليه ، وكان قبيح الوجه ، احتقره واستخف به ، فعلم ، فقال :

يا امير المؤمنين ، سلني ان كان القصد علمي ، لا صورتي

فسأله مسألة في الارث ، فاحسن في الجواب ، فقلده القضاء : ثم ادرك ما هو عليه من العلم والعقل ، فقلده قضاء القضاة ، وتدبير شؤون الدولة ، فكان الوزراء والمستشارون لا يفعلون شيئاً ، الا بعد ان يأخذوا رأي يحي

حتى امسى صاحب الكلمة العليا ، والامر النافذ ، وكان مقامه عند المأمون المقام الاول ، والرأي الاول

ولكي ندلك على منزلته ، وادب الخليفة معه ، نروي لك الحادثة الآتية :

بات يحي ليلة عند المأمون ، فانتبه في بعض الليـل ، فظن انه نائم ، فعطش ، ولم يدع غلامه لئلا ينتبه يحي ...

وقام متسللا ، خائفاً هادئاً في خطـاه ، حتى اتى البرادة ؛ فشرب ثم رجع ، وهو يخفي صوته كأنه لص ، حتى اضطجع واخذه سعال ، فرآه يحي يجمع كمه في فمه كي لا يسمع سعاله !!

وعندما طلع الفجر ، واراد القيام ، تناوم يحي ، فصبر المأمون الى ان كادت تفوت الصلاة

ثم تحرك القاضي ، فقال المأمون :

الله اكبر يا غلام نبه ابا محمد ، فقال :

يا امير المؤمنين ، رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صنيعك ، وكذلك جعلنا الله عبيداً لكم ، وجعلكم لنا اربابا

وهذه حكاية اخرى تثبت الك حظوة الرجل ، لدى مولاه :

رواها ثمامة بن اشرس صديق يحي ، واحد المقربين الى الخليفة قال ثمامة :

كان يحي يماشي المأمون يوماً في بستان ، والشمس عن يسار يحي والمأمون في الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحي ، وهما يتحادثان

حتى بلغ حيث اراد ، ثم رجع في الطريق الذي جاء منه ، فقال ليحي :

كانت الشمس عليك لانك كنت عن يسارنا ، وقد نالت منك ، فكن الآن حيث كنت انا ، واتحول انا الى حيث كنت انت ، فقال يحي :

والله يا امير المؤمنين ، لو امكنني ان اقيك هول المطلع بنفسي لفعلت ، فاجابه قائلا :

لا والله لا بد من ان تأخذ الشمس مني مثل ما اخذت منك

فتحول يحي ، واخذ من الظل مثلما اخذ المأمون

ويظهر ان حظ يحي من الادب ، لم يكن كحظه من غيره ، فانه لم يؤثر عنه في المصادر التي بين ايدينا ، قطع رائعة في النثر والشعر ، الا ابيات في الغزل نسبت اليه وليست هي في المنزلة التي يجب ان تكون لمثله

على انه تملك قلب المأمون ، بما كان له من فطنة وحزم ، ، وحسن تدبير ، حتى غلب عليه دون الناس جميعاً ، وكان مهيباً ، سريع الخاطر ، خفيف الروح

واما سيرته ، فلم نر رجلا في مركزه الديني والاجتماعي ، حامت حوله الريب والاشاعات مثلما حامت حول قاضي القضاة ، ومع ذلك فقد كان مرعي الجانب ، موفور الكرامة ، ويظهر ان جل الناس ، حتى اخص اصدقائه به كانوا يميلون الى تصديق ما يقال عنه ، الا رجال الدين ، فقد كانوا ينكرون ان يكون هذه الاشاعات ظل من الحق

والذي يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف ، وانكارهم ما ينسب اليه من اشاعات ، هو انه كان يخالف المأمون في بعض آرائه ، مما جعله في نظرهم بطلا من ابطال الدين

وقد قال يحي نفسه ، لرجل كان يأنس به ويمازحه .

ما تسمع الناس يقولون في ؟
قال : ما اسمع الا خيراً ، فقال :
لا اسألك لتزكيني ، قال :
اسمعهم يرمون القاضي
فضحك قائلا : اللهم غفرانك ، المشهور عنا غير هذا
وقد ألف كتباً في الفقه ، واخرى في الاصول ، وله كتاب اورده على العراقيين سماه : كتاب التنبيه
وستقرأ في الفصول التي تجيء ، ان المأمون غضب عليه واقصاه عن مناصب الدولة .. وتلك هي نتيجة معظم المقربين

احمد بن يوسف

هو ابو جعفر ، احمد بن يوسف ، بن القاسم ، بن صبيح ، من اهل الكوفة ، ومن موالي بني عجل
كان يتولى ديوان الرسائل ، وهو المعروف بين رجال عهده ، بعلو كعبه في الادب ، والكتابة ، والشعر ، وقد جعلته رسائله واسلوبه في مقدمة اصحاب العلم ، شهد له بهذا اهل عصره ، ومن جاء بعده من الكتاب
قال الصولي : لما مات احمد بن ابي خالد وزير المأمون ، شاور الخليفة الحسن ابن سهل ، فيمن يوليه الوزارة ويكتب له
فاشار عليه باحمد بن يوسف ، وبابي عباد ثابت بن يحي الرازي وقال : هما اعلم الناس باخلاق امير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه
فقال : اختر لنا احدهما
فقال الحسن : اذا صبر احمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلا فهو احبهما الي وافضلهما ، لانه اعرف في الكتابة واحسنهما بلاغة ، وجاء في التاريخ :
ان رجال الادب والعلم اجتمعوا عند احمد بن اسرايل ، فذكروا الذين مضوا

من الكتاب ، فاجمعوا على ان اكتب من كان في دولة بني العباس ، احمـــد بن يوسف ثم ابراهيم بن العباس .

واما اشعرهم ، فابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبـــد الملك الزيات ، فابراهيم اجودهما شعراً ، ومحمد اكثرهما شعراً ، ثم الحسن بن وهب ، واحمد بن يوسف

اجل ، ان ادباء ذلك العهد ، لم يقدموا احداً على احمد بن يوسف في الكتابة . في دولة بني العباس ، وان قدموا عليه في الشعر

والحق ، ان نبوغه في الصناعة ، رفعه الى الذروة

وذكروا ، انه لما قتل الامين ، امر طاهر بن الحسين الكتاب ، ان يكتبوا الى المأمون ، فأطالوا ، فقال :

اريد اقصر من هذا

فوصف له احمد بن يوسف ، فأمر به ، فاحضر ، فكتب :

« اما بعد ، فان المخلوع وان كان قسيم امير المؤمنين . في النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن اجماع المسلمين ، قال الله عز وجل : لنوح عليه السلام في ابنه :

« يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل غير صالح »

ولا صلة لاحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ، وكتبت الى امير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع ، واحصد لامير المؤمنـــين امره ، وانجز له وعده ، فالارض باكنافها اوطأ مهاد لطاعته ، واتبع شيء لمشيئته وقد وجهت الى امير المؤمنين بالدنيا ، وهو راس المخلوع ، وبالآخرة وهي الـــبردة والقضيب ، والحمد لله الآخذ لامير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ، ونكث عقده حتى رد الالفة ، واقام به الشريعة ، والسلام على امير المؤمنين ورحمـــة الله وبركاته »

فرضي طاهر ذلك ، وبعث بالكتاب ، ووصل احمد ، وقدمه على الآخرين

ومما كتبه للمأمون ، حين كثر طلاب الصلات واصحاب الحاجات ببابه :

« داعي نداك يا امير المؤمنين ، ومنادي جدواك ، جمعا الوفود ببابك يرجون

فالك المعهود ، فمنهم من يمت بجرمة ، ومنهم من يدل بخدمة ، وقد اجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الايام ، فان رأى امير المؤمنين ان ينعشهم باحسانه ، ويحقق حسن ظنهم بفضله ، فعل ان شاء الله تعالى

فكتب المأمون في ذيل الكتاب :

الخير متبع ، وابواب الملوك مغان لطالبي الحاجات ، ومواطن لهم

ولذلك قال الشاعر :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب   وتغشى منازل الكرماء

فاكتب اسماء من ببابنا منهم ، ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه ، ولا تكدر معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب ، وقد قال الشاعر :

فانك لن ترى طرداً لحر   كالصاق به طرف الهوان

وقال ابراهيم بن العباس

سمعت احمد بن يوسف يقول :

امرني المأمون ، ان اكتب الى النواحي في الاستكثار من القناديل في المساجد فبت لا ادري كيف افتتح الكلام ، ولا كيف آخذ به

فأتى آت في منامي ، فقال :

قل ، فان في ذلك انساً للسابلة ، واضاءة للمتهجدة ، ونفياً لمكامن الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عن وحشة الظلم ، فانتبهت وقد انفتح لي ما اريد ، فابتدأت بهذا ، واتممت عليه

ومن رسائله :

لقد احلك الله في الشرف اعلى ذروته ، وبلغك من الفضل ابعد غايته ، فالامال اليك مصروفة ، والاعناق اليك معطوفة ، عندك تنتهي الهمم السامية ، وعليك تقف الظنون الحسنة

اما شعره ، فلم يكن بالشعر الجيد ، وقد رأيت انهم قدموا عليه الكثيرين من الشعراء

ولم يكن المدح — اذا نظم — كثيراً في شعره ، فانه في منصبه كوزير

للمأمون ، ورئيس ديوان الرسائل ، لا يحتاج الى ان يتكسب بالشعر

من اجل ذلك لا تجد في شعره شيئاً من المدح، الا للمأمون ، ولي نعمته ومولاه

وكذلك كان هجاؤه قليلاً ، فان ادبه ومقامه ، وعزة نفسه ، كل ذلك كان يرفعه عن ان يكون هجاء طويل اللسان ، وانما كان يضطر الى ان يذم اعداءه ، ذماً لا فحش فيه ..

ذكر يوماً سعيد بن سالم الباهلي وولده ، وكانت بينهم وبينه عداوة :

لولا ان الله عز وجل ختم رسالته بمحمد صلى الله عليه وسلم، وختم كتبه بالقرآن، لبعث فيكم نبي نقمة ، وانزل عليكم قرآن غدر ، وما عسى ان اقول في قوم محاسنهم مساوىء ، ومساوئهم فضائح الامم

وقال يهجوهم :

أبني سعيد انكم من معشر … لا يحسنون كرامة الاضياف

قوم لباهلة بن اعصر ان هم … فخروا حسبتهم لعبد مناف

مطلوا الغداء الى العشاء وقربوا … زاداً لعمر ابيك ليس بكاف

وكان ذكياً بصيراً بآداب الملوك ، وذا مروءة وكرم ، وهو يميل بطبيعته الى المجون واللهو ، ولذلك قال الحسن بن سهل حين شاوره المأمون فيمن يختاره للوزارة بعد احمد بن ابي خالد :

« اذا صبر احمد وجفا لذته قليلاً فهو احبها الي وافضلها عندي »

الجاحظ

الكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وبستان يحمل في ردن ، وروضة تتقلب في حجر ، ينطق عن الموتى ويترجم كلام الاحياء ، ولا اعلم جاراً أبر ، ولا خليطاً انصف ، ولا رفيقاً اطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية ، ولا اقل جناية ، ولا اكثر اعجوبة وتصرفاً ، ولا اقل صلفاً وتكلفاً

ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان جوده ، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الاخبار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، والمذاهب القويـة ، والتجارب الحكيمة ، والاخبار عن القرون الماضية ، والامثال السائرة ، والامم البائدة ، ما يجمع الكتاب

هذه سطور قليلة من اسلوب الجاحظ شيخ الكتاب ، الذي يتخير الفـــاظه فصيحة سهلة ، ويجعل عباراته منسجمة مطردة ، ولا عجب ، فهو من نوابغ الادباء الذين رفعوا شأن القلم ، وبلغوا الغاية في الادب العربي

والجاحظ صاحب مذهب في الاعتزال ، هو المذهب الجاحظي

ونحن نورد لك بعض مـــا ذكره عنه ابن خلكان ، وصاحب معجم الادباء ، وكتاب عصر المأمون :

هو ابو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ، ولم يكن ينتسب الى اسرة عريقة كريمة المحتد ، بل كان اهله خدماً وخولاً لمولاهم عمرو بن قلع الكناني ، وقد قال :

ان فزاراً جد الجاحظ كان جمالاً ، وان الجاحظ نفسه كان يبيع السمك والخبز في سيحان

قال الجاحظ :

انا اسن من ابي نواس بسنة ، ولدت في اول عـام ١٥٠ هجري ، وولد هو في آخره

وقد انكب على العلم منذ طفولته ، وشغف بالمطالعة والقراءة ، وعكف على الدرس والحفظ ، وقد قال عنه ابو هفان ، احد معاصريه :

لم ار قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع في يده كتاب قط الا ستوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت للنظر فيها

سمع الجاحظ من ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري ، واخذ النحو عن صديقه ابي الحسن الاخفش ، والحديث عن يزيد بن هارون ، والسري بن عبدويه ،

وابي يوسف القاضي ، والكلام عن ابراهيم سيار النظام المعتزلي النابه الذكر ، وأخذ عنه مذهبه في الكلام والاعتزال

واتصل بالكثير من العلماء ونوابغ الجيل ، والمترجمين ، ومن سريان وفرس ، فنضج ذكاؤه بهذا الاختلاط ، وطالع الكتب التي ترجمت في ايام المنصور والرشيد والمأمون ، فما كان يري كتاباً الا استوفى قراءته ، فكان لذلك من نوابغ العالم

وغلب عليه امران اثنان ، الكلام على طريقة المعتزلة ، والادب ممزوجاً بالفلسفة والفكاهة

وقضى عامة عمره في البصرة ، موفور الكرامة ، محبوباً من الناس ، ولاسيما رؤساء الموالي ، واعيان الهاشمية والعثمانية

وكان هؤلاء يهبون له العطايا والمنح ، لما كان يصنفه لهم من الرسائل التي كان يعتمد في كتابتها التشيع لمذهبهم ، والردعلى مخالفيهم ، وكانت له مهارة في التلاعب بعقولهم وابتزاز اموالهم ، واقتدار علي التعبير في كل ما يعالجه ، وفي كل موقف من مواقفه مع الناس

وفي اواخر عهد المأمون ، كان يأتي الى بغداد ، فيصله الخليفة ويعطيه

ثم لازم محمد بن الزيات ، وبعد موت محمد ، اقام بالبصرة حتى اصيب بالفالج وبقي مفلوجاً حتى اسلم الروح

وكان الجاحظ ، رقيق الشعور ، وافر الذكاء ، وحاضر النكتة حاضر البديهة ولكنه كان غريب الاطوار وفيه شذوذ ، وهو يجمع بين الفكاهة والجد في دعابة ومجون

ولم يكن يحفل ، بما يحفل به الناس ، من عادات وتقاليـــد ، تتعلق بالمذهب والجنس ، وهو الى ذلك ، طلق المحيا ، كريم الاخلاق ، ندي الكف ، اضف الى هذا كله حلاوة في اللفظ ، وخفة في الروح تغطي دمامته وقبح وجهه

قلنا انه اخـــذ عن ابراهيم بن سيار النظام مذهبه في الاعـــتزال ، وقد استخدم مواهبه ، وما منحه الله من فصاحة اللسان ، وحسن البيان ، في ترويج مذهبه ، فكان لسان المعتزلة الناطق ، وسيفهم القاطع ، يزين كلامـــه ويخلطه

بالفلسفة اليونانية ، حتى رماه بعضهم بالضلالة ، واتهمه بالمجون والهذر

ثم قالوا : انه نقال يتلاعب بالناس ، ويهدم اليوم ما بناه امس

وقد دافع عنه ابو الحسن الخياط ، في كتابه «الانتصار» ورد على ابن الزاوندي الذي تناول عقيدة الجاحظ بالتجريح والنقد

« المعتزلة ، فئة تجحد القدر ، قالوا انهم اعتزلوا اهل الضلالة الذين هم على زعمهم السنة والخوارج »

ومما قاله ابو الحسن الخياط في رده على ابن الراوندي :

« اما رميك للجاحظ ببغض الرسول صلى الله عليه وسلم فهو دليل على انك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولي من العدو ، لانه لا يعرف المتكلمون احداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذالك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القران وعجيب تأليفه وانه حجة للنبي على نبوته ، غير كتاب الجاحظ »

« وهذه كتبه في اثبات الرسالة ، وكتبه في تصحيح مجيء الاخبار مشهورة

وهل يستدل على حب الرسول ، والايمان به ، وتصديقه فيما جاء به ، بشيء اوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول ؟ »

وقد تناول ابن قتيبة ، والازهري ، والمسعودي ، وبديع الهمذاني ، وابو العباس احمد بن يحيي ، ومحمد بن يزيد المبرد ، والفتح بن خاقان ، والرئيس ابو الفضل بن العميد ، وهم من كبار المؤلفين العرب ، شخصية الجاحظ بما تستحقه من العناية والدرس ، ومن النقد والتقريظ

يقول صاحب المعجم :

« كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ ، بحيث شاع ذكره وعلا قدره ، واستغني عن الوصف »

وقال غيره من رجال العلم :

« انه كان واسع العلم بفنون الكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ومن اخبر الناس به وبغبره من علوم الدنيا والدين »

وقولهم صحيح ، لان مؤلفات الجاحظ الكثيرة ، تشهد بانه كان غزير المــادة واسع الاطلاع ، وقد اكثر من التصنيف في الطائف ، والفكاهات ، والادب وكان من من ائمة الدين وكبار المتسامرين

وهذا الفتح بن خاقان ، في كتاب له الى الجاحظ يقول :

« ان امير المؤمنين يحبك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسه ، لمعرفتك وعلمك ، لحال بين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به »

وللجاحظ رسائل كثيرة ، قصيرة وطويلة منها :

انه كتب الى عبدالله بن خاقان في يوم عيد :

اخرتني العلة عن الوزير اعزه الله ، فحضرت بالدعاء في كتــابي لينوب عني ، ويعمر ما اخلفت العوائق مني ،واسأل الله ان يجعل هذا العيد اعظم الاعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الاعياد المستقبلة فيما يحب ، ويحب له ، ويقبل منا مـــا نتوسل به الى مرضاته ، وتمتعه بصحة النعمة ، ولباس العـافية ، ولا يريه في مسرة نقصاً ، ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلني من كل سوء فداء عنه

وله رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان ، آية في البلاغة ، لا يتسع لنشرها المجال في هذا الفصل الذي نكتب

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذاني :

« هلموا الى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ،قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة او كلمة غير مسموعة »

واما شعره فليس فيه ما تطيب له نفس القارىء وبما ينسب اليه قوله :

يطيب العيش ان تلقى حكيما ... غذاه العــلم والفهم المصيب

فيكشف عنك حيرة كل جهل ... وفضل العلم يعرفـه اللبيب

سقــام الحرص ليس له شفاء ... وداء الجهـل ليس له طبيب

ويقول المؤرخون في عصره ، والذين اتوا بعده ، انه صنف اكثر من مئتي كتاب !

وقال المسعودي :

وكتب الجاحظ مع انحرافه تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها احسن نظم ، ووصفها احسن وصف، وكساها من كلامه احسن واجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء ، خرج من جد الى هزل ، ومن كلمة بليغة الى نادرة طريفة ، وله كتب حسان ، فمنها :

« البيان والتبيين » وهو اشرفها ؛ لانه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الاشعار ، ومستحسن الاخبار وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى وكتاب « الحيوان » وكتاب « الطفيليين » وكتاب « البخلاء » وسائر كتبه في نهاية الكمال »

وقال ابن العميد :

كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانياً

ومن اخباره انه قال :

ذكرت للمتوكل امير المؤمنين ، لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فامر لي بعشرة الاف درهم وصرفني

فخرجت من عنده فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام ، فعرض علي الخروج معه ، والانحدار في حراقته

وكنا في مدينة « سر من رأى » فركبنا في الحراقة ، فلما انتهينا الى فم نهر القاطول ضرب ستاراً وامر بالغناء

فاندفعت عوادة فغنت :

كل يوم قطيعة وعتاب ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري انا خصصت بهذا دون ذا الخلق،ام كذا الاحباب

وسكتت ، فامر التي تضرب على الطنبور ، فغنت :

وارحمتا للعاشقينا ما ان ارى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمون ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة :

فيصنعون ماذا ؟

قالت : هكذا يصنعون :

وضربت بيدها الى الستار فهتكته ، وبرزت كأنها فلقة قمر ، فالقت نفسها في الماء !

وعلى رأس محمد ، غلام يضاهيها في الجمال

فاتى الموضع ، ونظر اليها ، وهي في الماء وانشد :

انت التي غرقتــــني   بعد القضا لو تعلمينا

والقى نفسه في اثرها

فادار الملاح الحراقة ، فاذا هما متعانقان !!

ثم غاصا فاختفيا ! !

فاستعظم محمد ذلك ، وهاله امرهما ، ثم قال :

يا عمرو ، لتحدثني حــديثاً يسليني عن فعل هــذين والا الحقتك بهما ، قال الجاحظ :

فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك ، الخليفة الاموي ، وقد قعد للمظالم يوماً وعرضت عليه القصص

فمرت به قصة فيها :

ان رأى امير المؤمنين ان يخرج الي جاريته فـلانة حتى تغنيني ثلاثة اصوات فعل ..!

فاغتاظ يزيد من ذلك ، وأمر رجلا من الحرس بان يخرج اليه ، ويأتيه برأسه

ثم اتبع الحارس حارساً آخر ، يأمره بان يدخل عليه الرجل

فلما وقف بين يديه قال له :

ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال :

الثقة بحلمك ، والاتكال على عفوك !

فامره بالجلوس ، حتي لم يبق احد من بني امية الا خرج

ثم امر فاخرجت الجارية ومعها عودها

فقال لها الفتى : غني :

افاطم مهلا بعد هـــذا التدلل وان كنت قد ازمعت صرمي فأجملي

فغنته ، فقال له يزيد ؟

اطلب ايضاً ، فقال : غني

تألق البرق نجديـــاً فقلت له يا ايها البرق اني عنك مشغول

فغنته فقال يزيد : قل ايضاً ، فقال :

يا مولاي تأمر لي برطل شراب !

فامر له به

فلما اتم شربه ، حتى وثب وصعد على اعلى قبة في قصر يزيد فرمى نفسه على دماغه فمات !

فقال يزيد : انا لله وانا اليه راجعون ، اتراه الاحمق الجاهل ظن اني اخرج اليه جاريتي ، واردها الى ملكي ... ؟!

يا غلمان ، خذوها بيدها ، واحملوها الى اهله ، ان كان له اهل ، والا فبيعوها وتصدقوا بثمنها

فاخذوها لينطلقوا بها الى اهله

فلما توسطت دار يزيد ، نظرت الى حفيرة في وسطها قد اعدت للمطر ، فجذبت نفسها من ايديهم ، وانشدت :

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت !

والقت نفسها في الحفيرة على دماغها ، فماتت

هذه كلمة قصيرة ، عن الجاحظ ، ولو اردنا ان نتبسط في البحث عنه ، لكتبنا الفصول الطويلة ، دون ان نصل الى الغاية ، من درس شخصيته البارزة في دنيا الادب ..

أبان بن عبد الحميد اللاحقي

ان في عصر الرشيد والمأمون ، شعراء ، ابعد صيتاً من أبان بن عبـــد الحميد

واكثر انتاجاً ، واعظم منزلة منه

ولم يكن الرجل من الشعراء ، الذين يجب ان نؤثرهم على الآخرين ، لولا فضله على لغة معرب ، بنظمه كتاب كليلة ودمنة

هو ابان بن عبد الحميد ، بن لاحق ، بن عفر ، مولى بني رقاش

كان يقيم بالبصرة ، ثم رحل الى بغداد ، لرغبته في الاتصال بالبرامكة

وقد استطاع الوصول اليهم ، فمدحهم ، واخذ جوائزهم ، ثم بلغ غايته فقويت الصلة بينهم وبينه ، حتى اتخذوه معلما ومرشداً

وحتى انهم كانوا يستشيرونه في امورهم ، وشؤونهم الخـــاصة ، وجعلوا اليه امتحان الشعراء ، الذين يقفون ببابهم ، وتقدير ما يستحقون من العطاء

غير ان هذا المنصب الذي رفعوه اليه جعله هدفاً لهجو زملائه الشعراء ، لانه لم يكن قادراً على ارضائهم ، من هـــذه الناحية ، ولانهم كانوا يرون ، انه ليس اهلا لان يكون في مقام الحكم

وكان ابو نواس ، الشاعر المعروف ، اشد الزملاء نقمة وغضباً على ابان

ذلك لان هذا الحكم ، جعله في المرتبة التي هي ادنى مما يستحق وما من شك في ان ابا نواس ، من الشعراء الذين ينبغي ان يكونوا في الصف الاول

قال ابو نواس ، من قصيدة يهجو بها الرجل :

جالست يوماً ابانا   لادر در ابان

ونحن حضر رواق الا   مير بالنهروان

حتى اذا ما صلاة الاولى   دنت لاوان

فقام منذر ربي   بالبر والاحسان

فكلنا قال قلنا   الى انقضاء الاذان

فقال كيف شهدتم   بذا بغير عيان

لا اشهد الدهر حتى   تعاين العينان

فقلت سبحان ربي   فقال سبحان ماني

« ١ اي ابان : وماني : اسم رجل من كبار الملحدين المارقين من الدين »

وهذه القصيدة بقية تراها في ديوان ابي نواس

فقال ابان يجيبه :

ان يكن هذا النو اسي بلا ذنب هجانا
فلقد عبناه حينا وصفعناه زمانا
هانيء الجون ابوه زاده الله هوانا
سائل العباس واسمع فيه من امك شانا
عجنوا من جلنار ليكيدوك عجانا

« جلنار ام ابي نواس ، والعباس ، زوجها بعد ابيه »

ومثل ابن ، لا يستطيع ان يحط ابا النواس ، الى المنزلة التي جعله فيها ، الا اذا اوحى اليه البرامكة بذلك ، فهم يكرهون ابا نواس ، وهو يكرهم ، ولا يقدر ابن هانيء ، ان يبرد غليله بهجوهم ، وان ينالهم بذم ، وهم الوزراء الذين كانت الرؤوس المرتفعة في الدولة ، تنحني لهم .

وكان ابان ، كثير الاعجاب بنفسه ، والادلال بعلمه وادبه ، وقد انساه غروره ، مقام الشعراء النوابغ ، الذين عاصروه .

وفي هذه الابيات التي تقرأ ، والتي حاول فيها ان يتقرب الى البرامكة ، دليل واضح ، على اعجابه وغروره

قال من قصيدة :

شاعر مفلق اخف من الريشة مما يكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة وانتقاد انا فيه قلادة بوشاح
وظريف الحديث في كل فن وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثاً هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو وتناجي في المشكل الفداح
أعين الناس طائراً يوم صيد لغدو دعيت او لرواح
ابصر الناس بالجوائز والخيل وبالخرد الحسان الصباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على انني ظريف المزاح

لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الامير اصلحه الله رماحاً ثلمت حد الرماح

على انه ، مع هذا الغرور والاعجاب ، كان عاجزاً عن ان يجاري ابا نواس ، وكبار الشعراء ، في جزالة اللفظ ، وقوة الشعر ، ورقة المعاني ، والتفنن ، في خلق الصور الخلابة ، والتشابيه

ولكن اذا ذكرنا عجزه من هذه الناحية ، فان له فضله من الناحية الاخرى ، اذ اقدم على نظم كتاب كليلة ودمنة ، كما قلنا ، وصاغه للبرامكة شعراً سهلاً فصيحاً لا تعقيد فيه ، فاعطاه يحي عشرة الاف دينار ، والفضل بن يحي خمسة الاف ولم يعطه جعفر شيئاً بل قال له :

يكفيك ان احفظه فاكون راويتك

وقد نقل الاصفهاني من هذا الكتاب هذين البيتين :

هذا كتاب ادب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

غير ان يد الزمان ، امتدت الى هذا الكتاب ، فاختفى لا يبين له اثر ، ولكن « الصولي » في كتابه « الاوراق » ذكر قطعة صالحة من نظم ابان كتاب كليلة ودمنه ، عثر عليها في مخطوطة ، في دار الكتب المصرية ، ننشر لك بعض ابياتها :

قال ، بعد البيتين اللذين قرأتهما اعلاه :

فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله
وهوعلى ذاك يسير الحفظ لذ على اللسان عند اللفظ

ومنها :

دنياك بالاحباب والاخوان كثيرة الآلام والاحزان
وهي وان نيل بها السرور آفاتها وغمها كثير

وقال من باب الاسد والثور :

وان من كان دني النفس يرضى من الارفع بالاخس

كمثل الكلب الشقي البائس   يفرح بالعظم العتيق اليابس
وان اهل الفضل لا يرضيهم   شيء اذا ما كان لا يعنيهم
كالاسد الذي يصيد الارنبا   ثم الى العير المجد هربا
فيرسل الارنب من اظفاره   ويتبع العير على ادباره
والكلب من رقته ترضيه   بلقمـة تقذفهـــا في فيـه

...

الاهل والاخوان والاعوان   عند ذوي الاموال حيث كانوا
والمال هادي الرأي والمروه   وهو على كل الامور قوه
والمـال فيه العز والجمـال   والذل حيث لا يكون المال

وهذه الابيات بضعة وسبعون بيتا ، جميعها نصائح وارشاد كما ترى ، على ما ورد في كتاب كليله ودمنه .

ومن الانصاف ان نقول ، ان ابان بن عبد الحميد ، هو الذي سبق الشعراء جميعهم الى ابتكار هذا الفن ، في الادب العربي ، فن الشعر التعليمي .

وله غير كتاب كليلة ودمنة ، قصيدة ذكر فيها مبدأ الخلق وامر الدنيا ، وشيئا من المنطق ، وقصيدة مزدوجة في الصيام والزكاة

هؤلاء هم الرجال ، الذين كانت لهم علاقتهم بامير المؤمنين المأمون، ذكرناهم الا ، ليس لانهم كانوا وحدهم من اصحاب هذه العلاقة ، بل لان كل واحد منهم ...اول ناحية خاصة من نواحي الحياة ، هذا طبيب ، وهذا وزير ، وذلك فقيه ، ...منهم الاديب والشاعر ، اي انهم كانوا يمثلون ، جميع هذه النواحي في صلتهم الخليفة ، وكان مجلس هذا الخليفة ، يضم هذه الاصناف الراقية ، من الرعية ، وقد ... لرتهم كتب التاريخ ، وامعن في درس شخصياتهم ، كتاب عصر المامون

● ● ●

٣٣

لم يكن عباد الشرطي ، عيناً على عصمة الحرشي في الرقة ، كما امره المأمون
ليس لانه عصى امر مولاه ، بل لان عصمة يعرفه ، ولو تنكر
وقد اثر ان يعهد الى احد رجاله ، في الامر الذي عهد اليه فيه امير المؤمنين
وكان الرجل الذي ندبه لذلك ، داهية الحيلة ...

يظهر للناس اليوم ، بمظهر يختلف عن مظهره بالامس ، فتراه في الصباح ، بدوياً خشن اللهجة والصوت ، بعيداً كل البعد عن نعومة اهل المدن ، وعما تلمسه فيهم من ادب وانس ،... ثم تحسبه عند المساء ، وجيهاً من وجوه الاقاليم ، يرتدي الحلة الفاخرة ، والعباءة المزركشة ، وقد قدم الرقة لقضاء عمل له في يوم ويومين ، حتى ان لحيته تطول او تقصر ... وعينيه يغيرهما الكحل . . . ويصير ، عندما يشاء ، عبداً جلده اشد سواداً من الليل !

وهو يدعى خالد بن مسعود

امره عباد بان يراقب عصمة بعين لا تنام ، ويصغي الى ما يتحدث به الناس ، ويتبعه كلما ذهب الى الصلاة ، وخرج من المسجد ..

على ان الحرشي ، كان عاقلا ، لا يلعن ولا يذم ، وقد فارقه ذلك الجنون ، الذي كاد ان يذهب بحياته

كان اصحابه يقولون له :

ماذا رأيت في بغداد ؟ فيقول :

رأيت مجلس امير المؤمنين ، حافلا بقواد وعظماء الدولة ، والامراء من بني العباس ، وسمعت نصائحه يجود بها على جلسائه ، ويدعوهم الى القيام بما يجب لخير المسلمين . .

وخالد يسمع ما يقوله ، وقد خيل اليه ، انه كان يعلم ، ان البدوي ، او المدني الذي يدنو منه عند المسجد ، وعلى الشاطىء ، هو من رجال الشرطة ...

على انه كان مخطئاً في ظنونه

بلى كان عصمة يذكر ، ولم ينس ، ان المأمون ، امر عباداً بان يحصي عليه انفاسه ، فتحفظ في احاديثه مع رفاقه واهل الرقة ، خوفاً من ان يسمى به احدهم فيطرح امير المؤمنين عن حلمه هذه المرة ، ويضرب عنقه

ولكنه كان اذا خلا الى نفسه ، يسب ابن مراجل ، واذا حدث زينب وآل حاتم ، صب اللعنات صباً عليه وعلى طاهر ، واتهم عبدالله ، بانه اراد قتله ، ولكن المأمون لم يسمع له .. ليس لانه رحمه ورفق به ، بل لانه خاف ان يثور الخرشيون وانصارهم من القواد ، فيزعزعوا العرش

وزينب وسعدى تتألمان لما يقوله ، ولا تبوحان بما خبرهما به مغيث

اجل ، كان العبد قد نقل اليهما ، والى ام عثمان ، ان عبـدالله هو الذي التمس العفو عن الاثيم ، بعد ان امر الخليفة باعدامه

وهو الذي ضمن سكوته ، ورجوعه الى الصواب . . .

كما نقل اليهن ، والى آل حاتم جميعاً ، انه سيخرج الى قتال نصر ، بقيادة عبدالله وهذا ما اراده امير المؤمنين

فبينما كان عصمة ، يذم ويلعن في احدى الليالي ، ويقص على القوم الا كاذيب قال له ابو حاتم :

خبرنا مغيث ، ان المأمون امرك بالذهاب مع عبدالله ، الى قتال نصر بن شبث اصحيح هذا ؟

– نعم ، ان ابن مراجل ، امرني بذلك ، فهزأت به ، كما هزأت بعبـــدالله الذي جعله عاملا له !

– وكيف ذلك ؟

– لقد ظن ابن مراجل ، اني سأحمل السيف من اجله ، وادافع ما استطعت عن خلافته ، وظن عبدالله ، اني سأكون جندياً من جنوده . يوم يـــذهب الى الروم ، الا فليعلم الاثنان ، اني لن انقل الى الحرب قدماً ، ولن اعترف بسلطان احدهما ، ولو قتلت !!

قال : ألا تعلم اننا كنا ولم نزل ، من اعداء المأمون ؟

ـ بلى

ـ وهل يستطيع الواحد منا ان يحب طاهراً ، وآل طاهر ؟

فسكت قليلا ، ثم جعل ينظر الى سعدى وزينب ... ثم تنهد قائلًا :

لا ...

ـ وهل رأيت اننا نطوف في الشوارع ، ونجلس على الشاطىء ، لنصف للناس غدر هؤلاء ، وظلم امير المؤمنين كما تفعل انت ؟

ـ تريد ان تقول ، انكم تحتفظون بما في الصدر من بغض وحقد لا تبوحون بها

ـ هو ذاك ..

ـ اما انا فلا اقدر على الكتمان ، واحب ان يعلم الناس ، في بلاد الشام ، وفي العراق ، ان المأمون خليفة مستهتر ، وان الاعور اللعين لا يعرف الوفاء ، وليس له عهد .

قال : ليكن هذا غداراً خائناً ، والاخر مستهتراً ، فنحن لا شأن لنا بذلك ، والامر الذي ينبغي ان نهتم له ، هو ان نحفظ ألسنتنا ، لتحفظ رؤوسنا والا كان الموت جزاء لنا .. !

فابتسم قائلا :

اني بعيد كل البعد عما تقول ، فانا لا اتحدث بذلك الا في هذه الدار

ـ وما معنى قولك انك لن تذهب الى كيسوم ؟

ـ معناه اني سأسير مع زوجتي الى العراق ، وقد اختار الموصل مقراً لي

فوضعت زينب يدها على صدرها تمنع قلبها من الوثوب ...!

وكان الشيخ يقول :

دع عنك هذا ، فالاقامة بالرقة ، وانت قريب من ارضك ، خير لك

ـ سأسأل ابي قبل الرحيل ان يعنى بارضه

قال : متى تذهب ؟

ـ بعد بضعة ايام

قال : اذا عرف الحسين بن عمر منعك من الذهاب

- لماذا :

- لانه سيحسب مسيرك الى العراق ، فراراً مما امرك به المأمون

- ولكني ساترك المدينة ،كما تركها سليمان بن سعد ، وفياض بن قيس ، لا يعلم بي احد .

- اذا فعلت كتب الحسين الى الخليفة فيطلبك ولو كنت وراء البحر

- ان هذا الخليفة لا يريد من خروجي الى القتال، الا ان يبعدني عن هذا البلد، وسأبتعد ..

ومع ذلك فقد امرك بهذا

- سيكف عن الطلب عندما يعلم اني غادرت الرقة

- بل يأمر عامله في الموصل بان يقبض عليك

- لا تخف ، فساتدبر الامر

فظهر الغضب على وجه الشيخ وقال : ووعدك ؟

- بالبقاء في الرقة ؟

- نعم

- اني عاجز عن الوفاء به

- وكيف نشأ هذا العجز ؟

- خلقه ابن مراجل ، والاعور الخراساني

قال : دائماً ابن مراجل والاعور ، وليس للاثنين يد في ذلك ... ارجو ان تبقى هنا

- لست قادراً على البقاء كما قلت

- وانا لست قادراً على الرضى بما تريد

ورقصت لحية الشيخ ...

فقال عصمة :

ومن قال لك اني لا اغادر الرقة الا اذا رضيت؟!

ـ اما انت فلك ان تغادرها عندما يخطر لك .. واما زينب ...

ـ واما زينب ؟ ..

ـ فبقاؤها لا بد منه ..

ـ هذا امر ما اظن انه يتم لك

فتميز من الغيظ ، وقبض على عصاه بيديه الاثنتين ، ثم قال :

ستری غداً انه سيتم لي

ـ بل نرى الآن ... ماذا تقولين يا زينب ؟

فلم تجب ، فقال الشيخ :

اين انت يا زينب ، قولي كلمتك ..

فظلت ساكتة كأنها لم تسمع ..

لقد انتقلت بروحها ، وتفكيرها ، واحساسها ، الى بغداد .. الى ذلك الفتى الذي طال بعاده ، وكثر الشوق اليه ...

فقالت سعدى :

زينب ، الا تسمعين ما يقولان ؟ ان عصمة يرغب في ترك الرقة والمسير الى الموصل ، وجدنا لا يريد ذلك

فقالت ، وهي تنظر من النافذة الى الافق البعيد :

من هو هو الرجل الذي اختار عصمة الحرشي زوجاً لي ؟

فقال ابو حاتم : انا

ـ وبماذا نصحت لي عندما تم الزواج ؟

ـ بالطاعة والخضوع للرجل

ـ اذن فانا طائعة خاضعة لما يأمرني زوجي به ، ولن ابقى هنا الا اذا اراد

وكفكفت بكمها دمعتين سقطتا على خديها ..

فقال عصمة :

اراك تؤثرين الذهاب معي الى البلد الذي اختار، ثم اراك تذرفين الدمع كأن فراق الرقة صعب عليك ، وانه لنوع جديد من الطاعة لا ارضاه .. فاذا شئت

فابقي ، اما انا فـاذهب ..

قالت : اسمع لك ، وافعل ما تشاء ، ولا ترضى ؟

— وهذا البكاء !؟

— انه بكاء المرأة ، التي عاشت بين اهلها ، ثم اكرهها الزمان عـلى الفراق .. اليس لي ان ابكي ، وانا اهم بان اترك البيت والام ، والاخوة ، والبـلد الذي ربيت فيه ؟؟ انا اعلم ان الخضوع مفروض عـلي ، ولكني لا اخجل من البكاء اذ ليس فيه ذنب كما ترى

— ومع ذلك فانا لا اطيق ان اراك باكية

قالت : مر الدمع بان يجف ، والعـاطفة بان تختنق ، وامنع زوجتك من ان تشعر وتحس ، فهذا خير ما تلجأ اليه ...

فرفع صوته قائلاً :

وهذه السخرية ، أليس فيها ذنب ؟

— انا لا اسخر ولا اهزأ ، وانما اردت ان اقول لك انك لا تستطيع ان تمنع العيون من البكاء ...

فنهض وهو يقول :

كما اني لا استطيع اكراهك على ترك الرقة

ـ ساتركها مختارة راضية

فقالت ام مروان :

اجلس يا عصمة .. اجلس يا بني ، ان قلبي يحـدثني باني لن ارى زينت ، اذا انا رحلتما الى الموصل ، أفيهون عليك ان تعيش البنت بعيدة عن امها وقـد وعدتنا واقسمت لنا انك ستقيم بيننا العمر كله ؟! قل لي ، اتضرب بوعدك وشرفك عرض الفضاء ، وتهدم اليوم ما بنيته بالامس وانت لا تبالي بما نقوله لك ؟

ـ قلت كلمتي فلن اتراجع ولو عرض لي الموت

قالت : لي كلمة اخرى ، الى متى تقيم بالموصل ؟

ـ الى الزمن الذي يرحل فيه عبدالله بن طاهر عن هذه الارض

قالت : قد يبقى فيها ما بقي المأمون على مقعد الخلافة
ـ وسنبقى نحن في الموصل ما بقي هو علي مقعد الامارة
ـ وتعدنا بانك تجيء الينا مرتين في العام :
ـ اما الان فلا اعد بشيء
وكان الشيخ يعبث بعصاه ، فقال :
أتريدين ان يعد الان ، كما وعد من قبل ، ثم ينقض وعده ؟ وهل تثقين بعد الذي جرى بكلمة يقولها لك ، وقد عرفت اي رجل هو ... لا ، لا نريـد وعداً جديداً ، بل نريد وفاء بالوعد القديم
قال : لن ترى وفاء ولن تسمع وعداً ، وسنسافر بعد يومين
قالها وخرج ، واوما الى زينب بان تلحق به
فناداه مروان قائلاً :
ارجع فلي ما اقوله لك
فلم يفعل
وكان الشيخ يقول لزينب :
ابقي هنا ولا تذهبي ، وهي تقول :
لقد كتب لي ان اتبع الرجل الذي اخترته لي....
وانصرفت ، وهي لا تبصر طريقها من الدموع
وكان مغيث في الدهليز ، وقد سمع كل ما قبل
فلما انتهت زينب الى الفناء ، لحق بها وهامسها قائلاً :
طيبي نفساً يا سيدتي ، فانت باقية ، وعصمة لا يستطيع الرحيل
فمسحت دمعها ، من غير ان تعلم ما وراء كلمته
اما عصمة ، فلم يسمع شيئاً ، ولم يلتفت الى الوراء

● ● ●

ـ من انت ؟

ـ عبد ابي مروان حاتم الطائي

ـ وتريد ان ترى الحسين بن عمر ؟

ـ الحسين او عباد بن جعفر

فقال الحاجب لمغيث :

اما الحسين ، فقد ركب مع ثلاثين فارساً الى الشاطىء الشرقي ، يتبينونه اثر العدو

ـ اي عدو هذا ؟

ـ نصر بن شبث ، فهم يخافون ان يعبر رجاله الى هذه الضواحي ، في ساعة لا يعلمها احد

ـ وعباد ؟

ـ واما عباد ، ففي بيت الشرطة ، الذي تجده خلف هذا القصر .. ولكن الا تقول لي لماذا تسأل عن الرجلين ؟

ـ ليس السر لي لابوح به ، وانما هو سر احدهم ، وقد ائتمنني عليه

وانثني يريد البيت الذي ارشده اليه

فلما وصل ، كان عباد جالساً مع بعض رجاله ، على مقاعد من الحجر ، في ساحة البيت الكبرى ، التي تعرض فيها فرق الجيش

ومغيث ، يعرف عباداً ، كما قرأت ، فسلم عليه وقال :

عندي حكاية قصيرة ، اقصها على سيدي عباد بن جعفر اذا اذن لي

فقال : ألست عبد الطائيين الذي رأيته في بغداد ؟

ـ بلى

ـ وما هي حكايتك ؟

ـ لو كان لي ان أرويها لك على مسمع من الناس ، لفعلت

ـ اذن تريد ان يكون ذلك في خلوة

ـ اجل يا سيدي فمر بها ان شئت

فقام الرجال فانصرفوا

فقال الشرطي : هات الان

قال : ما اظن انك نسيت عصمة الحرشي ، الذي امرك امير المؤمنين ، بان تكون عيناً عليه ، فقال ؟

وكيف انساه ، وقد كنت نديه في الرواح الى بغداد، والرجوع الى الرقة .. أعاوده الجنون ؟

– ليس في الامر جنون يا سيدي ، بل حيلة . . ألا تذكر ان مولانا الخليفة امره بان يخرج الى قتال نصر ، مع عبد الله بن طاهر ؟

– اذكر ذلك، وسيكون في مقدمة الجيش، عندما يجيء عبدالله

قال : سيكون يومئذ في الموصل ، فلا تصل اليه الايدي

– في الموصل ؟

– نعم ، وقد سمعته يقول انه سيغادر المدينة مع زوجته بعد يومين

– لاي سبب ؟

– لسببين ، احدهما انه لا يريد ان يحمل السيف في سبيل امير المؤمنين ، ولا يطيق ، من الناحية الاخرى ، ان يكون عبدالله سيداً له

قال : هذا نغم من انغام جنونه

قال : بينه وبين الجنون اكثر من الف فرسخ

– وهل كانت مظاهره في مجلس الخليفة مظاهر كاذبة ؟

– ما في ذلك شك

فاطرق لحظة ثم قال :

هب انه فعل ما فعل لينجو من الموت ، أفلا تقول لي انت ، اي شيء يدعوك الى السعاية به ، وهو صهر مواليك ؟

– يدعوني الى ذلك فضل علي لعبد الله بن طاهر

– اذكر لي شيئاً من فضله

– لقد رأيت عزرائيل ، يمد الي يديه الحديديتين ، ليذهب بي من هذه الدنيا

الهام عبد الله يسأل اباه ان يعفو ، فعفا ، وامر لي بالف درهم ..

ثم قال : ذلك هو فضله الذي لا انساه

ولم يذكر له شيئاً ، عن غرام امير الجزيرة ، وزينب

فنادى عباد شرطياً كان في آخر الساحة ، وقال له :

ألم يعد خالد بن مسعود ؟

ـ انه لا يعود يا سيدي الا في المساء

قال : اذهب الآن وائتني به ، فقد يكون عند المسجد او على الشاطىء ..

فخرج ، ولم تكن غير ساعة ، حتى رجع وخالد معه ، فقال عباد :

كيف كان صاحبك اليوم ؟

ـ كما كان امس ... يثني على امير المؤمنين ، ويذكر مناقبه وكريم خلقه ، وبذله المال للشعراء والفقراء بدون حساب ، وقضاءه حاجات الناس كل يوم

ـ قيل لي انه يتهيأ مع زوجته وعبديه للرحيل الى الموصل

قال : اظن الذي نقل اليك هذا الخبر لم يكذب .. لقد رأيت الحرشي ،راجعاً الى منزله وفي يده اكثر من اربعين ذراعاً من الحبال

ـ موعد سفره غداً او بعد غد وقد يخرج من المدينة في ظلام الليل فكن على حذر

ـ اتريد ان تمنعه عن السفر ؟

ـ اجل ، فاذا ترك منزله من اجل هذه الغاية ، فمره بان يأتي دار الامـــارة فالحسين بن عمر بحاجة اليه

ـ اذن فعلى رجال الشرطة ان يحيطوا بمنزله في هذه الليلة

ـ هوذاك ، وينبغي ان يبتعدوا مـــا استطاعوا عن المنزل ليخرج منه وهو مطمئن ...

ـ ثم ماذا ؟

ثم تجيء معه ، بعد ان تأمر زوجته وعبديه بالبقاء في البيت ، ريثما ينظر الحسين في الامر ، اذهب ومر من تشاء من رجال الشرطة ، بالذهاب معك

ولم يكن رجال الشرطة وحدهم ، ليلة الرحيـل ، حول بيت عصمة .. بل كان هنالك رجل آخر وراء شجرة ليست بعيدة عنهم ، هو مغيث ...!

لقد اراد ان يحول بين عصمة ، وبين الرحيل ، خدمة لزينب ...

اجل ، خدمة لهذه المرأة التي ظلموها بهذا الزواج ، والتي تذوب غراماً ، ثم تموت غما وقهراً ، اذا ابتعدت عن المدينة التي سيقيم بها الحبيب

وخدمة للامير العاشق ، الذي وهب له الحياة ، وهو الجاني ، واحسن اليه ...

فعل ذلك ، ولم يقل لاحد

وكان مروان والمغيرة ، يعمدان ، بامر الجد والام ، الى اختطاف زينب بالقوة ، اذا اصر زوجها على السفر

ولكنهما لم يكونا يعلمان ، اي يوم ينفذ فيه الزوج ، ما عول عليه

على ان الامر الذي اقدم عليه العبد ، كان اضمن عاقبـــة من الامر الآخر ، وسيكون ظاهره ، ان الحسين بن عمر ، يأذن للحرشي في ترك المدينة ، الا اذا اذن له في ذلك امير المؤمنين ...

احاط الرجال بالمنزل ، وخالد بن مسعود عند باب الفنـاء ، التي ربطت فيه النوق ، ينظر الى الداخل ، وهو يرى ، ومغيث يرى ، على نور المصباح ، ان عصمة يروح في الدار ويجيء ، ويساعد عبديه في اعداد ما تحمله الجمال ، من متاع واشياء .

حتى انتصف الليل ، فخرج العبدان على ظهريهما خيمتان ، وفراشان ، واوعية الماء وضعاها جميعها على الارض ، ثم رجعا ينقلان الاشياء الاخرى ..

وبعد لحظة ، ظهر عصمة وزينب ، ولم تستطع العيون ان تتبين دمع المرأة المظلومة يجول في المقلتين .

لقد كانت في تلك الساعة ، مثلا بليغاً للنساء في الطاعة التي ليس لها حد ، تهجر بلدها هجراً ابدياً الى بلد اخر بعيد ، من غير ان يؤذن لها في توديع أهلهـــا الذين أحبت ، وهي تسأل الله في سرها ، ان ينعمهم في غيبتها بسعة من العيش ، ويغفر للشيخ الاعمى ، جنايته الكبرى ، التي جعلت حياتها بؤساً دائما ، وشقاء لا تعرف نهاية له .

وسمع في ذلك الهدوء ، جعجعة الجمال ، وقد اكرهوها على ترك العلف ...

وبينما كانت زينب تفكر في تلك الكلمة التي قالها مغيث عندما خرجت من بيت ابيها :

« طيبي نفساً يا سيدتي فانت باقية »

دخل خالد ، وهم لا يرونه لشدة الظلام ، وخفض صوته قائلا :

الى اين ايها الحرشي في هذا الليل ؟

فاضطربت زينب اضطراباً هو مزيج ، من اليقين ، والشك ...

وخيل الى عصمة ، ان جاراً له دفعه الفضول الى سؤاله فقال :

من انت .. ابو الحسن ؟

« وهذا اسم جاره »

فقال : بل انا الشرطي خالد بن مسعود ، اقبلت الان اسألك عما تفعل

فارتجفت ركبتاه ، وجعل يحدق اليه وعيناه لا تبصران شيئاً ، ثم قال :

لم تكن الشرطة من جيراني ، وانا لا أعرف منهم احداً .. قل من انت ..

فحول خالد وجهه عنه ونادى :

يزيد ، شيبان ، عبد الملك .. احفظوا الباب !

وتقدم وهو يقول له : اعطني يدك فالحسين بن عمر يدعوك اليه

فلجأ على عادته الى الحيلة ، فقال :

مالي وللحسين بن عمر .. لقد جعلته اميراً على الرقة ويكفيه هذا ...

وخالد ، لا يعرف عن الحرشي ، ما يعرفه مغيث وعباد ، فقال :

ماذا فعلت ؟

— رفعته الى رتبة الامارة وسأنحيه عنها قبل ان يطلع الصبح ... امـــا انت فسأوليك الشرطة غداً واكتب الى امير المؤمنين .. تعال نتحدث

فسمع عندئذ صوت بعيد كأن صاحبه في بطن الارض يقول :

احذر يا ابن مسعود ولا تغر بما تسمع فهو يتظاهر بالجنون ليخدعك ! !

فركض عبد الملك ويزيد الى الجـــانب الذي خرج منه الصوت فلم يجدا احداً ...

فقال خالد : لعله احد افراد الشرطة ... متى فاجأك الجنون يا عصمة وعهدي انك الرجل العاقل الكثير الكلام والفصيح اللسان ! ! تعال ولا تتردد

ثم قال لزينب :

اما انت يا سيدتي فعودي الى المنزل وانتظري فيه رجوع الرجـــل من دار الامارة

فقالت وقد عرفت ان الصوت الغريب صوت مغيث :

وكيف اعود ونحن نهم بالسفر ؟

قالت ذلك لتسمع جواباً تطمئن اليه النفس ، فقال :

لم يبق من سبيل الى هذا السفر الليلة ..

- وغداً ؟

- الغد بيد الله ويد الحسين بن عمر .. امش يا عصمة ، فقال

ستری اني قادر على عزل اميرك

- لو كنت قادراً على ذلك لما منعت من السفر .. امش ...

وخرج الاثنان ، يتقدمها عبد الملك ، ويتبعها شيبان ويزيـــد حتى اتوا دار الشرطة ، فقال خالد لعصمة :

لا بأس اذا قضيت في هذه الدار ، ما بقي من الليل !

-اذن فانا سجين !

- بل انت ضيف الحسين حتى يفيق من نومه .. ولكن ارجو ان ترفق بي وبه فنحن لا نستحق غضبك

قال : ويل لكما انتما الاثنين

فدخل عباد بن جعفر ، وكان قد سمع كلامه فقال :

كفي ايها الحرشي فنحن نعرف من انت،وهذا الجنون الذي تتظاهر به خدعة خفي امرها علي وعلى امـــير المؤمنين ، وكل من حضر مجلسه ، فنجوت من الموت .. قل ما هذه الجمال والاحمال في فناء دارك ؟

- ساجاوب الحسين عن هذا اذا سألني

- ليس الحسين هو الذي امر باحضارك

- ومن فعل ذلك ؟

- انا عباد بن جعفر ، الذي شرفه القدر فكان نديك اياماً كثيرة ما نسيتها ..
الى اي بلد تهم بالسفر ؟

- الى بغداد

- كذبت فقد كنت تريد الموصل لغاية لا نعلمها فما هي ؟

- هي ان نغيب عن هذا البلد ، الذي يستبد رجاله بنا ، ويستأثرون بكل ما هو لنا .. فمن انت يا ابن جعفر حتى تعرض للناس في مثل هذه الساعة ، وتمنعهم من الذهاب الى حيث يريدون ؟

- انا عبد من عبيد امير المؤمنين افعل ما يأمرني به ولا ابالي ، أرضيت ورضي امثالك ام غضبوا ..

- وبماذا امرك ؟

- بان امنعك من ترك الرقة ، واصغي الى ما تحدث به الناس

قال : أليس المسلم حراً في الرواح والمجيء ، والاقامة والرحيل ؟

- بلى ، ولكن هذه الحرية تنتهي ، ساعة يريد الخليفة ، وانا انفذ ما اراد

فعمد الى الخداع من جديد فقال :

لقد سلط الله الخليفة على الناس الذن يعيشون في بلاده ، الا انا !

- لماذا

- لاني خلقت لاكون سيداً لا اخضع لاحد !

- قلت لك اني اهزأ بهذه الخدعة التي تلجأ اليها كلما عرض لك الخطر ، فاترك جنونك الكاذب ولا تعد اليه ، وابق في الرقة حتى يجيء الامير عبدالله فينظر في امرك

قال : أليس امري في يد الحسين بن عمر ؟

- اما الآن فنعم ، ولكن عندما يجيء الامير تتبدل الحال ... الا تذكر ان الخليفة امرك بالخروج مع عبد الله الى كيسوم ؟

فسكت

فقال عباد : الا تذكر ذلك ؟

- واذابيت الخروج معه

- اكرهك عليه بالسوط .. ان مسيرك الى الحرب لا بد منـه ، ومن اجل ذلك نريد ان تبقى هنا .. يا غلام . ادع خالداً

فلما اقبل قال له :

يرجع هذا الرجل الى منزله ، وليس له ان يغادر الرقة الى بلد آخر ، فاحذر فتلك ارادة امير المؤمنين

فضحك قائلا :

اخشى ان يعزلك ويعزلني ، ويعزل الحسين بن عمر ويولي آخرين ... ان امير المؤمنين لا يخالفه فيما يسأل ، وقد هددني بذلك

فضحك عباد بدوره وقال :

طب نفساً فهو من رجال الاحسان، وسينظر الينا نظرة رضى... عد يا عصمة الى منزلك ولا تحاول الفرار من واجبك مرة اخرى

- واذا فعلت ؟

- وضعنا القيد في رجليك الاثنتين كما نضعه للخيل ، ثم نجعـله في عنقك اذا بدرت منك بادرة سوء

وكان عبد الملك بالباب ، فقال له خالد :

هيا بنا

ومشى الحرشي بين الاثنين وقد ذهب جنونه ، وقام في ذهنه ، ان الشيخ ابا حاتم هو الذي ارسل من خبر عباداً بامره ، ولو لم يفعل ، لمـا عرف الرجل انه سيرحل في هذا الليل

ولكن كيف انتهى الى الشيخ خبر الرحيل ، وقد كتمه الحرشي جميـع الناس ، ولم يبح لعبديه الا في الهزيع الثاني من تلك الليلة ؟

اذن فزينب هي التي نقلت الخبر الى صاحب الشرطة .. وغرضها من ذلك انها لا تريد ان تترك المدينة ، التي ستجمعها بعبد الله ...

ولم يخطر له ان مغيثاً هو صاحب الفضل ...

وكانت زينب بانتظاره

فلما رجع قال لها :

لقد تم لك الامر الذي تريدين !

قالت : اي امر هذا ؟

ـ ان نقيم بالرقة العمر كله لا يخرجنا منها الا الموت !! ألم تخبري صاحب الشرطة اننا سنغادر المدينة ؟

ـ انا ؟

ـ وكيف عرف اذاً اننا سنرحل ؟

فقالت بغضب : كفى ولا تزد .. أأبوح لصاحب الشرطة بما لم ابح به لامي واخوتي ، وانا لا اعرفه ولا سبيل لي اليه ؟ وكيف افعل وانا لم اخرج من المنزل ولم ار الشمس ؟ . كانت لي جارية فبعتها ، ولم يبق في دارك غير عبديك ،فاسألها، فقد يكون احدهما هو الذي جعلته رسولي الى الرجل من غير ان تعلم ! ! الا فاتق الله وكف عن مثل هذه التهم فانا ارفع من ان اخون زوجي وواجبي وحسبك ما قلته لاهلي اني سأتبعك الى آخر الارض ...

فاطرق ولم يجب ، ولعله ادرك في تلك اللحظة ان الحق فيما تقول واستلقى على فراشه ، وهو يفكر في حيلة اخرى يبلغ معها غايته

• • •

٣٤

خرج في نيسابور ، ولاية خراسان ، رجل يقال له عبـــد الرحمن المطوعي ، وخلفه طوائف من الرجال ، يشهرون السيف في وجه فريق كبير ، يدعو الناس

الى مذهب غريب يخالف السنة ، ويخلق الفتنة بين الصفوف

فعل ذلك عبد الرحمن وجماعته ، من غير ان يشاوروا والي خراسان في الامر ويستأذنوه في القتال

فخاف الوالي ، وهو غسان بن عباد ، نسيب الحسن بن سهل ، ان تكون غاية المطوعي الخروج على السلطان ، وخلع طاعة امير المؤمنين

فكتب الى الحسن ، والى المأمون ، يصف لهما حال عبد الرحمن ، وحال الفئة التي تولى قتالها دون ان يسأل احداً

فرأى المأمون ، ان يترك رأي الحسن في القضية ، ويعمد الى رأي وزيره احمد بن ابي خالد

لقد كان يخشى ، ان ينظر الحسن الى غسان ، وهو ابن عمه ، نظرة تخالف نظرة الوزير

وهو لم يكن يريد ان يجامل الحسن على حساب مصلحة العرش

على ان ابن سهل ، حمل كتابه اليه ، وهو في صحة عقله ، وقال له .

لقد ورد كتاب مثل كتابي هذا على اميرالمؤمنين ، فبماذا امر .

ــ لم نأمر بشيء ، فليس فيما فعله المطوعي خطر على الخلافة ، وانما هو دفاع عن الاسلام ، ومع ذلك فسننظر في الامر بعد بضعة ايام فماذا تقول انت ؟

ارى ان تعهد الى غسان في اخماد النار

ــ اية نار اردت ؟ نار عبد الرحمن ام النار الاخرى ؟

ــ ينحي عبد الرحمن عن عمله ويتولى هو الامر

ــ لقد كان غسان قادراً على ذلك قبل ان يكتب الينا ، اتعرف المطوعي ؟

ــ نعم يا امير المؤمنين

ــ وعنده القوم يسيرون وراءه ؟

ــ ينضم اليه الناس ، من هنا ومن هنا ، حتى تمسي الفئة التي تماشيه ، جيشاً بعيد الاثر في خراسان

- اذن فاذا اراد ابن عباد ان ينحيه عما هو فيه ، استخف به واظهر العصيان
قال : هو يعلم ان امير خراسان اكثر جيشاً واعز شأناً ، وما من شك في انه مبلغي السلاح

قال : الا يعلم الرجال الذين يخرجون على الخلافة ، ان امير المؤمنين ابعد صوتاً منهم واطول سيفاً ، وان الجيوش كلها في هذه الارض ، تخضع له وتأتمر بأمره ؟

- بلى

- ومع ذلك فهم يتمردون على القوة التي لا تغلب كما ترى ، ولا يبالون أفلا يجوز ان يكون عبد الرحمن ، من هؤلاء

فسكت

فخاف المأمون ان يكون سكوته دليلاً على استيائه مما سمع ، وهو لا يحب ان يسيء اليه ، فقال :

ما بالك ؟

لقد فكرت فيما قاله امير المؤمنين ، فرأيت اني مخطيء ، وقد يكون ابن عباد اضعف من ان يعيد الناس الى الهدى

وعندما خرج الحسن ، دخل اصحاب الحاجات ، وكان ذلك عند المساء

فظل المأمون ينظر في امورهم حتى انتهى منها

ثم قام فانصرف ، فصلى ، ثم عاد فجلس

فاقبل طاهر يقول :

لقد عرفت يا امير المؤمنين ، غاية ابن عائشة العباسي ، ومن معه من الرجال

فاستوى جالساً وقال : من معه ؟

- محمد بن ابراهيم المعروف بالافريقي ، ومالك بن شاهي ...

فقاطعه قائلا :

كفى فنحن نعرف الباقين ... ولكن ما هي غايتهم ؟

- يسعون في البيعة ، من جديد ، لابراهيم بن المهدي

قال : عمنا ابراهيم تبتلعه الارض ، وتعجز الشرطة عن الاهتداء الى المكان الذي اختبأ فيه ، ويفكرون في البيعة له ؟ ... كيف عرفت ذلك ؟

— اطلعني عليه ؛ رجل يقال له عمران ، من قطربل ، جعلته عيناً عليهم يترصدهم في المساجد والمنازل ، ووراء الاكواخ ، ويقعد لهم على الطرق ، حتى يسمع ما يتحدثون به فنقله الي ؟

— وترى ان عمران هذا يؤخذ بقوله ؟

— خبرته اكثر من مرة يا امير المؤمنين فعرفت انه من اصدق الناس ، ولا غرض له غير خدمة الخليفة اعزه الله ، فاذا امر مولانا بان اقبض على الجماعة ...

— اما الان فلا

وجعل يعبث بلحيته وهو يفكر ، ثم قال :

لن نقبض عليهم ، الا اذا شهد اثنان انهم ائتمروا بامير المؤمنين ، وعولوا على البيعة لابراهيم ، فقد يكونون ابرياء من هذه التهمة التي تستحق القتل

ودخل عندئذ اخو المأمون ، ابو اسحاق محمد بن هارون « المعتصم » فقال له الخليفة :

الا تعلم يا ابا اسحق ، من هو الرجل الذي يدعو الناس ابن عائشة ، الى البيعة له ؟

— بل لم اعلم انه يدعو الى احدهم

— يقول ابو الطيب انه يعد العدة مع رفاق له ، ليبايعوا عمنا ابراهيم

— وهل يجسر ابراهيم على الظهور ، بعد خلافته الباطلة وهربه من وجه امير المؤمنين

— اما ظهوره بعد هربه ، فما نظن ان الغرور يدفعه اليه ، غير ان ذلك لايمنع انصاره من ان ينشروا دعوتهم متسترين ، ويحملوا اصحابهم على نشرها حتى يبلغوا الغاية منها فيخرجوا عندئذ الى الساحة وقد سفروا ، وسفر ابراهيم ومشت الخلافة اليه صاغرة ودانت له الارض ...

وضحك قائلا :

العمل ما اوصيناك به ، ومر صاحبك القطربلي بان يواصل ما ابتـدأ به ، ويحفظ السر حتى نرى رأينا في ذلك ، واحمل انت الينا اخبار الخائن كل يوم

وجعل يقول كأنه يخاطب نفسه :

مهلاً يا ابن عائشة ، خن الخليفة ما طابت الخيانة لك .. وجاهـد ما استطعت الوصول الى غرضك ، ولكن اعلم اننا سنلتقي والويل لك من هـــذا اللقاء ... اجلس يا ابا اسحاق

فادرك طاهر ، انه يأمره بالانصراف ، اذ لم يدعه الى الجلوس

فسلم وخرج ، وقد ساءه ذلك ، واستطاع المأمون ان يتبين الغضب على وجهه قبل خروجه ، فقال لاخيه :

لقد انصرف طاهر الان ، والغضب يملأ صدره

ـ ولم ذلك يا امير المؤمنين

ـ لاننا لم نأمره بالجلوس

ـ وهل كان رأيه ان تقبض على الجماعة ؟

ـ لقد جاء يسألنا رأينا في ذلك فمنعناه، ولو فعل دون ان يستشيرنا لعزلناه..

ثم قال :

لو قبضنا عليهم اليوم ، لخفيت علينـا اسماء الكثيرين من الخونة ، شركاء ابن عائشة في الخيانة ، ولكن نصبر قليلاً حتى يجتمع شملهم ،ويفضحوا انفسهم ،فتنقض الصاعقة على رؤوسهم ، ويعرف العباسي اللئيم ان المأمون، لم يكن في جميع الادوار غافلاً عنه ..

ودفع اليه كتاب غسان بن عباد قائلاً :

اقرأ هذا وهات ما تراه

فلما قرأه قال : لا اعلم شيئاً عن هذا المطوعي ، يا امير المؤمنين

ـ انه رجل حرب لا بأس به

ـ واولئك ؟

ـ لو لم يكن لهم شأنهم لما تهيأ الرجل لحربهم ، فاشر علينا

ـ امير المؤمنين اكثر خبرة مني ، وابعد نظراً ، وهو يعرف رجال خراسان واحداً واحداً كما يعرف غسان بن عباد

ـ ان الحسن بن سهل ، يريد ان يولي غسان قتال القوم

ـ وهو اهل لقتالهم ؟

ـ قد يكون كما تقول ، ولكن الامر الذي يجب أن نفعله ، هو ان نصغي الى ما يقوله بن ابي خالد ، وسندعوه الان ..

ونادى غلامه قائلًا :

يحضر الوزير

فمثل بين يديه ، وكان كتاب ابن عباد ، لم يزل في يد ابي اسحاق ، فقال المأمون :

الكتاب الذي يحمله ابو اسحاق ، كتاب والي خراسان، وانت لم تره ... انظر ما ورد فيه

ولم يكن ابن ابي خالد ، ليتعجل في رأيه عندما يكون للامر خطره ، فقرأه وقال :

دعني افكر في الامر يا امير المؤمنين

ـ لك ذلك ، ولكن متى نسمع جوابك ؟

غداً يا مولاي

ـ عند المساء ؟

ـ عند المساء

ـ فقال لاخيه : انها مهلة خير ان شاء الله

وانصرف الاثنان ..

ولم يكن ، في ذلك الليل ، دور المغنين ، فقعد وحده يشرب النبيذ ، وحسين الخادم الذي كان كثير الادلال عليه ، يسقيه

فبينما هو كذلك ، استأذن طاهر في الدخول

فقال المأمون في نفسه :

لامر رجع صاحب الشرطة بعد غضبه

فلما دخل ، هش له وقال لحسين :

اسقه رطلين

وامره بالجلوس ... فقال :

ليس لصاحب الشرطة ان يجلس عند سيده

قال : ذلك في مجلس العامة ، اما في مجلس الخاصة ، فله ذلك

قالها وتغرغرت عيناه بالدموع

فقال طاهر : يا امير المؤمنين، لمَ تبكي لا ابكى الله عينك ... والله لقد دانت الك البلاد ، واذعن لك العباد ، وصرت الى المحبة في كل امرك ..

قال : ابكي لامر ذكره ذل ، وستره حزن ، ولن يخلو احد من هم ... مـا الذي جاء بك الان ؟

قال : قبض رجال الشرطة على محمد الافريقي ..

- بامر من ؟

- كنت امرتهم بذلك قبل ان امثل بين يديك عند المساء

مرهم بان يطلقوه ، ويعتذروا له ... فليس من الرأي ان يظن بنا السوء ... اسقه يا حسين !

- عفواً يا امير المؤمنين فقد رويت

فاذن له في الانصراف

وكان طاهر قد اضطربت نفسه ، وخفق قلبه من الخوف ..!

أيبكي امير المؤمنين ، وهو يشرب الخمر ؟

واي شيء يكرهه علـى البكاء ، وهو سيد الارض ، ومالك البر والبحر ، وخليفة رسول الله ؟

ولماذا لم يبك عندما كان وحده ؟

دخل عليه فرأى الابتسامة على شفتيه ، ثم رأى الدمع في عينيه !

انها لظاهرة غريبة ، لم يستطع طاهر ان يجد معناها

ولم يغمض له في تلك الليلة جفن

واخذ يفكر ...

كثيراً ما كان السكارى يبكون ، بكاء سكر .. وهم لا يعلمون.. فاذا صحوا وسألهم الناس عن بكائهم انكروه ، وهزأوا بالسائلين !

فهل كان امير المؤمنين ، سكران الى هذا الحد ..؟ الى حد ان يبكي وهو لا يعلم ؟

لم يكن من عادته ، ان يغيب في شربه ، عن الصواب

ثم انتقل في تفكيره ، الى جانب آخر لا علاقة للخمرة به ..

استعرض موقفه معه عند المساء .. فزاد اضطراباً ! !

دعا اخاه ابا اسحاق الى الجلوس ولم يأذن له في ذلك ، كأنه لا يستحق ان يجلس بين يديه

ولكن دعاه في الليل ، الى ما لم يدعه اليه في المساء ، فقال له :

« ليس لصاحب الشرطة ان يجلس عند سيده » فاجابه المأمون قائلا

« ذلك في مجلس العامة ، اما في مجلس الخاصة فله ذلك »

أترى كان مجلسه ، واخوه ابو اسحاق عنده ، مجلس العامة ام هو مجلس الخاصة؟

لقد دل الواقع طاهراً ، على ان الخليفة لم يكن يطيق وجوده ، في تلك الساعة فكأنه كان يقول له :

اخرج فلا حاجة لنا اليك ..

وامعن حاكم بغداد ، في التفكير .. حتى ضاع ..

ثم خطر له خاطر جديد في اخر الليل ، بان له منه شيء من الفرج

ذلك انه بعث بخادمه في الصباح ، الى هارون بن جيعونة ، وهو من اهـــل خراسان ، يدعوه اليه

وطاهر يعلم ، ان خدم القصر يحبون الرجل وله منزلته عندهم

فلما جاء قال له :

ان اهل خراسان ، يتعصب بعضهم للبعض الاخر لتحفظ كرامتهم في العراق

وقد اخترتك لامر لا ارى غيرك اهلاً له

قال : ما هو يا ابا الطيب ؟

قال : ان محمد بن هارون هو كاتب الحسين ، خادم الخليفة

ــ نعم

ــ وان حسيناً ، هو الذي يؤثره امير المؤمنين على سواه

قال : انت تعلم يا سيدي اني من رجالك

قال : دخلت علي المأمون امس ، وعنده حسين يسقيه ، فلما رآني بكى وكان يقول :

بكيت لامر ذكره ذل ، وستره حزن ، وانا احب ان اعلم ما هو هذا الامر .

ــ وماذا ترى ؟

قال : اعطيك ثلاثمائة الف درهم ، تعطي منها حسيناً مئتي الف ، وكاتبه محمداً مئة ، على ان يسأل الحسين المأمون ، لم بكى

قال . امر هين اقضيه بعد ساعة

وذهب فقال لحسين : اصحيح بكى امير المؤمنين عندما كان طاهر امس بين يديه ؟

ــ نعم فمن خبرك بذلك ؟

ــ طاهر نفسه ، وقد حملت اليك مئتي ألف درهم لتعلم سبب بكائه

قال : الا تعطي محمداً شيئاً منها ؟

ــ ساعطيه الساعة مئة الف لا تنقص

قال : احمل اليك الجواب بعد الغداء

ــ وهل يتغدى الخليفة وحده ؟

ــ تلك هي عادته ، فاذا كان عنده اليوم ضيف ، جعلت لجوابي موعداً آخر

قال : اني بانتظارك بعد الغداء في البهو الكبير

واتت ساعة الغداء

فاذا المأمون وحده ، وليس على مائدته احد

فلما انتهى من غدائه قال :

اسقني يا حسين

فابتسم الامين وقال : لا والله حتى تقول لي لم بكيت حين دخل عليك طاهر

قال : ما الذي لفت نظرك الى هذا حتى تسألني عنه ؟

– اما الذي لفت نظري فبكاء امير المؤمنين ، وهو امر لم ار اغرب منه ، ولم ارد ان اسألك عنه امس خوفاً من ان ازيدك غماً ...

قال : اذا كان الامر غريباً عندك فليس هو عندي بالغريب

– الا تذكره لي يا امير المؤمنين ؟

– ليس للخدم ان يعرفوا ما هو

قال : اموت قهراً يا مولاي ان لم تفعل !

– انه من اسرار الخليفة لا ابوح به لئلا ينتشر، وانتم الخدم لا تكتمون الاسرار!!

– اما انا فقد تعلمت ان احفظ سرك ..

قال : اعلم انه اذا خرج من رأسك قتلتك .

– رضيت يا مولاي

فتردد لحظة ثم قال : عندما دخل طاهر ، ذكرت اخي الامين ، وما ناله من الاهانة والذل قبل مقتله ، فخنقتني العبرة ، وسيرى طاهر مني ما يكره ...!

– وما ذنب طاهر يا مولانا ؟

– طلب الامين رحمه الله ، ان يسلم نفسه الى هرثمة، فابى طاهر ، ثم امر رجاله بقتله ولم يأمره امير المؤمنين بذلك ... هذا هو سبب البكاء يا حسين ، فاحفظه تحفظ رأسك ..

على ان هذا الخادم الذي، يحتفظ باسرار مولاه، مشى بعد الغداء، الى البهو الكبير وقص على ابن جيعونة حكاية الخليفة ...

فقصها هارون بدوره على طاهر

فملأ الغم قلبه

سيرى من المأمون ما يكره ! ! اهذا هو الجزاء الذي يتحفه به ، بعد جهاده

المستمر ، وبلائه في حفظ الخلافة له !!

نحاه اولا عن الولاية الكبرى ، عن جميع الاقاليم التي اخضعها بالسيف ، وعهد بها الى الحسن بن سهل .. ثم ارسله الى الرقة ، تلك الزاوية من الارض ، وهو يود له الان ما يكره .. افلا يجوزان بعد له العزل او الجلد ، او القتل ؟!

وهل يتورع الخليفة الذي قتل هرثمة بن اعين ، ثم قتل وزيره الفضل ، وانهم بالقتل ولي عهده ، عن ان يقتل رجلاً آخر يقال له طاهر بن الحسين ؟!

وما الذي يمنعه من ذلك ؟

الضمير ؟ والخلفاء هم الذين يملكون رقاب الناس .. !ام الوفاء وهم لا وفاء لهم ؟

ان كلمة واحدة يقولها الخليفة ، تفصل رأس طاهر عن جسده ، ولا يجسر بنوه الاموم على ان يسألوه عما فعل . !

وماذا يصنع طاهر ؟

أيخرج عن الطاعة ، وينضم الى بابك الخرمي ، او الى نصر بن شبث ، ام يعمد الى الاقامة متنكراً ببلد ناء لا يعرفه فيه احد ؟ ..

ان الخطر يحدق به في الحالين فخير له ان يشاور صديقه احمد بن ابي خالد فقد يرى له مخرجاً من هذا المأزق الذي دفعه القدر اليه

واحد من انصاره المخلصين له

فركب اليه وهو في داره ، بين غلمانه وجواريه ، وكانت تلك الساعة من ساعات راحته .

فرحب به ، ووسع له ثم قال :

طاهر قدمت ابا الطيب فهات ما عندك

قال : ان المعروف عندي ليس بضائع ، فغيبني عن عيني امير المؤمنين

- انت ؟!

- نعم ، فانا اخشى ان اخسر رأسي

فضحك وقال : انك تهزأ بي

- لا والله فقد عرفت ان الخليفة ذكر اخاه الامين ، وما ناله من اهانة وذل ، فخطر له ان يثأر به ، من طاهر بن الحسين

واعاد عليه ما نقل اليه

- ولا تقول لي من خبرك

- خبرني حسين الخادم ومثلك من ينسى ماذا سمع

قال : موعدنا غداً وسافعل ما استطيع ... ما رأيك في خراسان ؟

- انها خير الاقاليم فهي بعيدة عن مقر الخلافة ، وهذا مـا ارغب فيه ، فاذا قدرت على ذلك فقد انقذتني

وركب احمد الى المأمون في اليوم الثاني ، فقال له :

ما نمت البارحة يا امير المؤمنين

- ولماذا ؟

- لاني كنت افكر في غسان بن عباد !

- وكيف انتهى تفكيرك ؟

- انتهى ، الى انه هو ومن معه اكلة رأس .. واخشى ان تخرج على البلد خارجة من الترك فتأكل الاخضر واليابس وتذهب بكل شيء

قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه ، فمن ترى ؟

قال : رجل الساعة طاهر بن الحسين

- ويلك ، هو والله خالع امير المؤمنين

- وكيف عرفت ذلك يامولاي ؟

- رأيت رغبته في الخلع ، على جبينه ...

- انا الضامن له

- لا تعجل فانا اخاف عليك هذا الضمان

- اني واثق به يا مولاي

- واذا نقض البيعة ؟

- احمله اليك ولو كان في قاع البحر

قال : ادعه لنوليه

فدعا طاهراً من ساعته ، فقال له المأمون وهو يريد ان يختبر : طاهر ، لقد عزلناك من شرطتنا ..

فقال : لو لم يكن هنالك من هو خير مني لما عزلتني

- وكذلك عزلناك عن ولاية العاصمة ..

- اني في خدمة امير المؤمنين اينما كنت

- وابعدناك عن بغداد

- سيبقى طاهر بن الحسين من اوفى الناس لك ولو كان بعيداً عنك ، الى اين يا مولاي ؟

- الى خراسان ، لتكون في طاعة صاحبها غسان بن عباد ، وتتولى قتال الجماعة التي يتولى قتالها ، عبد الرحمن المطوعي

ولولا ابتسامة احمد بن ابي خالد ، لخرج القائد الكبير عن حده ...

لقد كانت ابتسامته بعيدة المغزى .. فيها كل معاني التشجيع

فقال : اني اذ اكون في طاعة عاملك ، اكون في طاعتك ...

- وتعدنا بحفظ خراسان من الفتن ؟

- وكيف اعد امير المؤمنين بمثل هذا ، وسيد خراسان هو ابن عباد ؟

- واذا جعلناك سيدها ؟

- افعل ما تأمرني به ...

- اذن فانت الامير منذ الساعة .. ليحضر طلحة وعبدالله

فخرج احد الحراس يدعوهما فاقبلا

فأمرهما بالجلوس ثم قال لطلحة :

لقد ولينا اباك خراسان ، وهو ذاهب اليها في يومه هـــذا ، فكن معه حتى ينتهي اليك امر آخر

قال : ليكن ما تشاء يا امير المؤمنين

فالتفت الى احمد قائلاً ؟

اكتب الى يحي بن معاذ ان يعتزل قتال بابك الخرمي ، ويرجع الى بغداد

- ومن يجعل خليفته فيها ؟

- ليستخلف من يراه اهلاً لذلك حتى يذهب الوالي الجديد ... أليس عيسى بن محمد كفوءاً للولاية ؟

- بلى يا امير المؤمنين

- فاكتب له العهد على ارمينيا واذربيجان ، وحرب بابـــك ، وليخرج من العاصمة على الاثر ..

ولم يقل كلمة لعبدالله

فتجرأ وقال . وانا يا امير المؤمنين ؟

- اما انت فقد امسيت صاحب الشرطة ، وستسير الى الرقة في وقت اخر

فاسودت الدنيا في عينيه ، وسكت

فقال المأمون : الم يعجبك هذا ؟

- ليس علي الا الطاعة يا امير المؤمنين ، ولكن كنت اود لو ندبتني لقتال نصر ، الذي هابته العرب

- سنندبك للامر بعد حين ، اما اليوم فقد خطر لامير المؤمنين ان يرسل يحي بن معاذ الى تلك الارض ، فقد يظفره الله بابن شبث بعد فشله في حرب الخرمي .

اخرجوا الان ..

ثم قال لطاهر :

لك ان تذهب غداً الى خراسان ، ولا تنس ان تبعث الينا ببريدك كل اسبوع

ومد اليه يده فقبلها ودعا له ، ثم خرج

فلما اصبح الخليفة وحده ، دعا خصياً له اميناً وقال له :

تهيأ فستسير الى خراسان

- اليوم يا امير المؤمنين ؟

- في هذا الليل ، ألا تعرف طاهر بن الحسين ؟

- ومن لا يعرف طاهراً يا مولاي ، انه صاحب الشرطة وحاكم بغداد

قال : لقد جعلناه عاملا لنا على خراسان ، ولسنا مطمئنين الى وفائه ، فكن هناك اتبع له من ظله ، حتى اذا رأيت منه خروجاً دسست له السم ...

- ومتى يخرج من بغداد ؟

- غداً ، فاركب انت راحلتك ، قبل بزوغ الفجر ، وستلتقيان في الطريق

- واذا سألني عن عملي ؟

- قل له ان امير المؤمنين اخرجـــك من الرق ... اذهب واعلم اننا ننتظر المبارك

- سأطلب اليه يا امير المؤمنين ان يجعلني من خدمه

- افعل ما شئت ، على ان يثق بك كما نثق نحن

فانصرف الخصي ، الشهد في لسانه ، وفي منطقته السم ...

هذا ما ذكره بعض الرواة ، اما الفخري فيقول :

« ان احمد بن ابي خالد ، خطر له عندما تولى طاهر خراسان ، ان الرجـــل سيخرج عن الطاعة ، فوهب له خادماً ، واعطاه سماً ، وقال له :

متى ركب طاهر رأسه ، وقطع خطبة امير المؤمنين ، فاجعل له هذا السم في بعض ما يحب من الطعام »

وانا لا نستغرب الروايتين ، فالسم ، والغدر ، والاغتيال ، كان سلاح الخلفاء والوزراء ، والامراء ، في ذلك العهد ...

• • •

٣٥

لم يبق في بغداد ، من آل طاهر ، غير عبدالله ، ومعه عثمان ، يقوم عـــلى

خدمتها ثلاثة من العبيد

وقد ضاق صدر صاحب الشرطة الجديد ، وكان يود لو عزله امير المؤمنين عن منصبه وولى اخر ..

ان بغداد بما فيها من عظمة وعز !

وقصور الخلافة بما يحوطها من مظاهر السؤدد والسلطان !

وصاحب الشرطة ورجاله حوله يفدونه بالمهج !

واهل العاصمة كبارهم وصغارهم يحنون له الرؤوس !

كل ذلك لم يكن يساوي ، في نظر عبدالله ، غصناً واحداً من اغصان النخيل على شاطىء الرقة !

وليت الخليفة يعلم ما يقاسيه صاحب شرطته من مرارة ولوعة

وباح بألمه لعثمان ، فقال له :

لو كنت انا عبدالله بن طاهر صاحب شرطة المأمون ، لتركت الرقة الى الابد واقمت ببغداد

- ولم ذلك ؟

- لان في الاقامة بالرقة ذكرى مؤلمة ، ولان المرأة ، التي تريد ان تذهب الى تلك الديار من اجلها ، ليست لك !

- انا اعلم انها ليست لي ، ولكن يكفيني اني اعيش في البلد الذي تعيش فيه وان يحمل نسيم الرقة الي شيئاً من انفاسها كل صباح !

- وماذا تفيدمن كل ذلكياسيدي ، وانت لا تراها ، وهي في حمى زوج مجنون اغلق عليها ابواب بيته ، ومنعها من ان تخرج الا الى بيت ابيها مرتين في الاسبوع !

قال : ليس الرجل مجنوناً ولكنه مخادع

- وكيف عفا عنه امير المؤمنين

- زعمت انه مجنون ، وسألته ان يتجاوز عن ذنبه ففعل

- كان عليك ان تظل ساكتاً ، وكان يجب على امير المومنين ان يضرب عنقه ...

- واين هي التضحية يا عثمان ، أتريد ان تقول زينب في نفسها اني لم اشفع في زوجها الى المأمون ، وكنت انتظر بفرح وحشي ان ينفذ حكم الاعـدام فيه ؟ .. اهذه هي مروءة الرجال ؟ والله لو لم يصغ الخليفة الى شفاعتي لالتمست منه ان يهبني فداء عنه

ثم قال : وانت من خبرك ان الرجل يمنع زوجته من ان ترى النور ؟

- مغيث ، فقد قص علي كل شيء ، وقال : ان المرأة المظلومة لا تكف عن البكاء

- اذن فهي تشقى كما اشقى ، وقد يكون وجودي في الرقة سبباً لتخفيف هذا الشقاء

- بل يزيدها ويزيدك شقاء ، أفلا ترى ان القدر فصل بينك وبينها الى الابد ؟

- بلى

- وما الذي يمنعك ، وانت ابن القائد الاكبر ، وصاحب الكلمة المسموعة في بغداد ، من ان تتزوج فتاة من صفك

قال : لم افكر في الزواج بعد

- هذا خطأ يا سيدي فليس لمثلك ان يستسلم للعاطفة ، ويضيع الحياة ..

قال : دعني من هذا ، وانتظر فيما فعله امير المومنين .. لقد ولاني الجزيرة ، على ان اسير اليها بعد حين ، ثم رأى ان يولي يحي بن معاذ ، وجعلني على شرطته فماذا يقول الناس غداً عندما يرون يحي ولا يرون عبدالله ؟

- يقولون ان الخليفة عهد اليك في امارة بغداد ، وهي اعظم من الجزيرة

- بل يقولون ، انه رآني غير اهل لقتال نصر ، فوجـــه ابن معاذ ، لانه من المجربين !

- لنفرض يا سيدي انك بقيت على الشرطة اعواماً كثيرة ، فماذا تصنع ؟

- اطلب الى امير المومنين ان يرسلني الى الحرب

- اي الى كيسوم

- نعم

— الا يجوز ان يأمرك بالذهاب الى حرب بابك ، او الى حرب الجماعات التي تفسد ارض البصرة

فلم يجب ، فقال عثمان :

ما رأيك يا سيدي ؟

قال : اني بين عاملين ... المجد الذي ملك علي شعوري ، وكان حلمي الذهبي والحب الذي يستيقظ في كلما طال البعد

— اما المجد فقد انقاد اليك كما ترى ، فاحتفظ به ، واما حبك الذي لن تجد معه غير الفشل ، فاي معنى له ؟ أفتطمع يا سيدي ان تكون من رجال هذه الدولة ، ومن كبار الأمراء فيها ، وهذا الغرام الغريب يجذبك الى الوراء ؟

— لا ، لم يكن غرامي ليمنعني مما تقول ، ولكن ذكرى الطفولة لا تفارقني ، وعندما رجعت الى الرقة ، امست هذه الذكرى هوى ، طغى علي ، كما طغى علي بعد ذلك فراق من احببت

ودخل عندئذ احد رجال الشرطة فقال :

ان محمد بن طالوت ، ومحمد بن العلاء ، يستأذنان في الدخول

فنهض يرحب بهما قائلا :

متى قدمتما من الكوفة ؟

فقال ابن العلاء :

في الليل الذي مضى ، وقد بلغنا ان امير المؤمنين استعمل اباك على خراسان وولاك امر الشرطة

— هو ذاك ، وانها لمنة جديدة لامير المؤمنين ايده الله

— ولكنه كان قد جعلك على الجزيرة ، وعهد اليك في قتال نصر بن شبث

— غير انه رأى في اخر الامر ، ان يولي يحي بن معاذ ، وقد كتب اليه يأمره بالمجيء ، ولم يأت بعد

— بلى ، فهو في بغداد منذ ساعتين ، ولكنه مريض ، وقد قال لاحدهم : انه سيحمل مرضه الى الجزيرة حفظاً لثقة امير المؤمنين به

ـ وهل رأيته ؟

ـ لم نره بعد ، ولكن خبرنا بذلك جاره قحطبة بن رجاء

ـ وما هو مرضه ؟

ـ حمى تغيب وترجع ، وقد دب فيه الضعف ، حتى امست حياته في خطر ، وسيمثل عند العصر ، بين يدي امير المؤمنين

قال : كنت صغيراً عندما عرفت يحي ، غير ان ابي يقول ، انه من الابطال الذين لهم منزلتهم عند الخليفة ، وسأكون عند العصر في القصر ، فأراه من جديد ، واسمع رأي امير المؤمنين فيه ، وفي مرضه

وتنهد قائلاً :

لقد مكثتما طويلا بالكوفة ، وكنت اظن انكما تعودان مع طاحة

فقال ابن طالوت :

كانت الكوفة هذه المرة شؤماً علي ، فقد فقدت فيها شقيقة لي ، وهـــذا ما دعانا الى البقاء فيها ، الى اليوم

ـ انا لله ، ... وهل تفكران في المسير الى الرقة ؟

ـ اما اليوم فلا

ـ ومتى اذاً ؟

ـ عندما تنتقل اليها انت

قال : الا يسمع لكما امير المؤمنين رجاء ؟

ـ في اي شيء ؟

ـ اني اؤثر ولاية الجزيرة ، عـــلى امارة الشرطة ، فاذا رأيتما ان تسألا امير المومنين في ذلك ..

فقال عثمان : اذا فعلا ، عرف الخليفة انك غير راض بنعمته

ـ وانا اريد ان يعلم اني غير راض ..

قال : اذا راجعته في الامر نحاك عن الامارتين ، وايقن بانك لست اهلا لان تكون عاملا له ، انك فتى في عنفوان العمر ، وقد ولاك منصباً يحسدك عليـــه

الكثيرون من الرجال المقربين ، افتطلب اليه ، ان يستبدل هذه الامارة بامارة اخرى كأنك تقول له انه لا يعرف المقام الذي يجعلك فيه ؟

فقال ابن العلاء : اني من راي عثمان ، فمن الخير لـــك ان ترضى وتصبر ، فقد ينحي بن معاذ عن الجزيرة ، بعد ايام ، ويوجهك اليها :.. ثم قال :

لقد ابغض ابوك الفضل بن سهل ، واخاه الحسن ، عندما سألا امير المؤمنين ؟ ان يبعده عن بغـــداد ، ويجعله في الرقـــة ، افتكون الرقة في نظرك خيراً من العاصمة ؟

فقال في نفسه :

لو عرف ابن العلاء ، ما في هذا القلب ، لعذر ...

وقال له :

ان بغداد سيدة المدن في هذه الدولة ، ولكني اريد من انتقالي الى الرقة ، ان يعلم الطائيون ، ان ابي كان بريئاً من دم حاتم

ـ سنثبت نحن هذه البراءة ان شاء الله

فردد قائلا : ان شاء الله

ولم يزد

وجعلوا يتحدثون ، ويذكرون اختفاء ابراهيم بن المهدي ، وخيانة الفضل بن الربيع ، الى ان قال ابن طالوت :

اما ابن الربيع ، فانا اراه كل يوم ، جالساً على الشاطىء ، عند احدى السفن المحطمة ، وراسه بين يديه

فقال عبدالله :

لو لم يخن المأمون ، لكان اليوم وزيراً له .:: ان جلوسه على الشاطىء ، دليل على تفكيره فيما كان منه ، وتلك هي نتيجة الرجال الذين لا يعرفون الوفاء ، واما ابن المهدي ، الذي جلس على مقعد الخلافة ، وصاحبهـا في خراسان ، ثم استخفى فهو يظن انه يستطيع الاحتجاب عن العيون ، عمره كله ... انه في بيت مـــن بيوت بغداد ، ولا بد ، بعد زمن قصير ، من ان نهتدي اليه

- يقولون انه في كوخ ، من اكواخ رعـاة النوق ، المنتشرة في ارض السواد ...

- لم تجد الشرطة احداً في الاكواخ التي ذكرت

- وفي الكوفة وكربلاء ؟

- كذلك لم يجدوه في البلدين ، وكنت اقول لابي ، انه لم يغادر بغداد ، وهذا ما اراه اليوم ... والان قولا لي ، اتعودان الى الكوفة ؟

- بل نبقى هنا ، فقد يندبنا امير المؤمنين لامر

ونهضا لينصرفا ، فقال لهما .

ارجو ان اراكما كل مساء ، فقالا :

سنفعل

وبعد خروجهما ، قال ابن العلاء لرفيقه :

يخيل الي ، ان الامير الفتى من العشاق ...

- وكيف عرفت ذلك ؟

- من اصراره على الذهاب ، الى الرقة

- انه يريد ان يظهر براءة ابيه كما قال ..

- لو لم يكن عاشقاً لما اهتم لاظهار هذه البراءة ... ان في الامر سراً ستبوح لنا به الايام

• • •

عندما دخل عبدالله ، على امير المؤمنين ، عصر ذلك اليوم ، لم يكن في مجلسه غير اخويه ، ابي اسحاق ، وصالح ، واحمد بن ابي خالد ، وعمرو بن مسعدة فقال المأمون :

في اي مكان يجتمع ابن عائشة العباسي ، والرجال الذين معه ؟

- في احدى السفن يا امير المؤمنين

- وليس لهم موضع اخر يلجأون اليه ؟

- لهم بيت محمد الافريقي ، في اخر الرصافة

- وهم كثار يا عبدالله ؟

- لم ار غير بضعة عشر رجلا انت تعرف اكثرهم يا مولاي

- بل نعرفهم كلهم ، وكنا نظن ، ان رجالا اخرين انضموا اليهم ، فأوص رجالك بان يمنوا في الحذر ، حتى تأتي ساعة الحساب

واستأذن عندئذ يحي بن معاذ ، وابنه احمد

فرأى الناس ، رجلا طويل القامة ، ضعيف الجسم ، يتظاهر بالقوة ، وقد جعله المرض غير قوي ...

تقدم فقبل رداء المأمون ، وفعل ابنه مثله ، والمأمون ينظر اليه ، وهو يعجب لهذا القائد الجبار يمسي جلداً على عظم !!

ثم قال له :

بلغنا انك مريض يا ابا محمد ، فماذا تشكو ؟

- اشكو هذه العلة الخفية يا امير المؤمنين ، تلين ليلة ، وتقسو ثلاثاً ، وهي شديدة الوطأة علي ، وكثيرة الجفاء

قال : دعوناك لنوليك الجزيرة ، ولم ندر اننا ظلمناك ...

- قد يكون هواء الجزيرة علاجاً لي يا مولاي

- اقادر انت على الذهاب ؟

- نعم ، ولم يكن هذا الضعف ليمنعني من خدمة امير المؤمنين

قال : لا تنس ان نصر بن شبث في الجزيرة ، وبينك وبينه السيف ..

- تعودت يا مولاي ان اواجه الصفوف في الساحة ، وانا محموم !! متى تريد ان اذهب ؟

- لك ان تستريح في بغداد بضعة ايام ... اهذا ابنك ؟

فقال احمد : نعم يا امير المؤمنين

- ويحسن ادارة الحرب مثل ابيك ؟
- ولدتني امي يا مولاي في الميدان، وكنا في الشام
- اذن فانت من الابطال ... كم هم بنوك يا ابا احمد ؟
- اربعة يا امير المؤمنين
- وجميعهم هنا ؟
- نعم ، وهذا اكبرهم
- وهل شهدوا معك حرب الخرمي ؟
- نعم
- قص علينا شيئاً عن هذا الرجل
- انه يا امير المومنين آله في نظر اتباعه ..
- قيل لنا ان هؤلاء الاتباع كثروا حتى ملأوا الجبال
- اجل يا مولاي ، وليس في الارض كلها حصن امنع من جبلهم ... الثلج في الشتاء يمنع جيش الخلافة من الوصول اليه ، واذا جاء الصيف ، ظهر العدو لهذا الجيش ، مرة او مرتين ، ثم يتراجع الى معقله الذي لا يؤخذ فيه

قال : لقد كانت بينك وبينه وقعة .. ؟
- وقعة واحدة يا امير المومنين لم يكتب الفوز فيها لاحدنا على الاخر
- وجنود بابك ؟
- جميعهم رجال سيف ، وهم مؤمنون ، بان سيدهم او الههم لا يغلب ، ومن اجل ذلك تراهم يقتحمون الموت وهم يبتسمون
- واباح لهم سيدهم كل شيء ، كما فعل قبله ، مزدك الفارسي
- لقد عرفت عن مذهب الجماعة اشياء كثيرة يا مولاي
- خبرنا ما عرفت

قال : خرمة ، التي نسب اليها بابك ، قرية صغيرة في بلاد الفرس
- صحيح
- والخرمية صنفان : الاولون ، وكانوا منتشرين بين اذربيجان وارمينية

وهمذان ، والاهواز ، وصاحبهم مزدك الذي ذكره امير المؤمنين ، والذي قتله وقتل اصحابه ؛ انوشروان ، الملك الفارسي

- تلك هي حكاية مزدك ، وماذا ايضاً ؟

- امرهم الرجل ، بتناول الملذات ، والسير وراء الشهوة ، يشارك بعضهم البعض الاخر في الحرمات والاهل ، لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الاخر ولا يمنعه

فضحك المأمون قائلا :

ولكنهم كانوا يفعلون الخير ، ويتركون القتل ، ولهم في الضيافات مذهب غريب لم يكن مثله لاحد من الامم .. اذا اضافوا رجلا لم يمنعوه من شيء يريده مهما يكن..!!

- هذا ما كنت اريد ان اقوله يا امير المؤمنين ، وذلك هو مذهب مزدك

- واما بابك ، فقد اباح القتل ، والغصب ، والحرب ، ولم يكن اصحاب الفارسي يعرفون ذلك

- انت تعلم من امرهم يا مولاي ما لا اعلم

- وأبو بابك ، كان دهاناً يحمل ادهانه في وعاء على ظهره ، ويطوف في القرى وكانت امه ترضع للناس باجرة ، ، فلما كبر بابك ، وكان خادماً في منزل احدهم ، مات سيده ، فتزوج ارملته ، وهي التي علمته الخروج على الدين .

فقال ابو اسحاق :

ياامير المؤمنين ، أليست الفكرة السياسية هي التي اخرجت الرجل ؟

- لا ، ان الفضل بن الربيع ، في طوس ، ومحمد بن ابراهيم العلوي في الكوفة ونصر بن شبث في بلاد الشام ، وعمك ابراهيم بن المهدي في بغداد ، هؤلاء اخرجتهم السياسة عن الطاعة ودفعهم الغرور الى خلع امير المؤمنين ، واما بابك ، فقد خرج على النظم جميعها ، وعلى الاسلام ، ولم تكن غاية الخليفة من قتاله ، اخضاعه للدولة ، والرضى عنه ، اذا اطاع ، وانما الغاية من ذلك ، القضاء عليه وعلى مذهبه وتعاليمه التي افسدت الجماعات ... ان انوشروان قتل مزدك ، وسنقتل نحن هذا

الرمي العين ، اذا اظفر الله به عيسى بن محمد ... وسكت لحظة ثم قال :
اي رأي لك في عيسى ؟

قال : لولا هذه الثلوج والجبال ، التي يمتنع بها بابك ، لما ثبت يوماً واحداً امام جيش الخلافة .. لقد حاولت كثيراً انزاله الى السهل الذي يمتد في السفح فلم افلح ، فعسى ان يكون عيسى اكبر حظاً مني فيظفر به

- الم يكن قريباً منك ، عندما كانت الواقعة ، بينك وبينه ؟

- لا ، كان بعيداً يا امير المؤمنين ، وقد رأيته يأمر جيشه ، بالالتجاء الى مغاور الجبل وكهوفه ، ورأيت السهام ترسل اليه من كل جانب ، فاخطأته جميعها ، ونجا

قال : ليس في نواحي كيسوم ثلوج وجبال ، فنرجو الا تخطيء سهام الجنود نصر بن شبث ...

- النصر بيد الله يا مولاي .. ما هي اخبار الرجل في هذا الشهر ؟

- كتب الينا الحسين بن عمر يقول : لقد عظم خطره وكثر انصاره ، وطمح ببصره الى البلاد التي لم تخضع له بعد .. ولكنه لم يذكر لنا عدد الجنود ، الذين يمشون تحت لوائه .. اتعرف عددهم يا صاحب الشرطة ؟

فقال عبدالله :

كانوا بضعة الاف يا امير المؤمنين ، اما اليوم ، فقد زاد هذا العدد على ما اظن ..

- وعدد جندنا في الرقة ؟

- ثمانية الاف يا مولاي

فقال ليحي :

هذا عبدالله بن طاهر الذي جعلناه على شرطتنا ، وكان من قبل مع ابيه في تلك الارض ..

قال : توكلت على الله ، وسأسير بعد ثلاثة ايام

فقال لعمرو بن مسعدة :

اكتب الى الحسين بن عمر ، ان امير الجزيرة ، هو يحي بن معـــاذ ، فليسلم الامر اليه ، فانصرف يا يحي واعد عدتك

فلما خرج قال المأمون لعبدالله :

اكنت تعرف بن معاذ ؟

- رأيته مرة واحدة يا امير المومنين ، وانا غلام

- وماذا رأيت الان ؟

- رايت جسداً واهياً نهكه المرض ، وانا اخشى ان تزيـــده الحرب هزالا وضعفاً

قال : يظهر انك لا تعرف شيئاً عن الرجل ، انه من القواد الذين يعترف ابوك نفسه بدهائهم الحربي

- انا لا انكر دهـاءه وبصره بالحرب يا مولاي ، ولكني اردت ان اقول ، ن ضعفه سيمنعه من الوقوف لنصر ، وجهاً لوجه

فقال صالح بن الرشيد :

وانا اقول ما يقوله صاحب الشرطة يا امير المومنين ، ان يحي من الابطال ، الذين ابلوا في حروب الخلافة ، غير ان المرض يصرع الرجـــال ، ولو كانوا من الفولاذ

قال : لقد وليناه الان وانتهى الامر ، وانت ما تقول يا اباسحاق !

- لم ار على جبين الرجـل ، وفي عينيه ، مظهراً واحداً من مظاهر النشاط والقوة ...

وقام احمد بن ابي خالد يقول :

سيبلغ نعيه امير المومنين ، بعد بضعة اشهر !

قال : لو علمنا ، قبل ان نكتب له العهد ، انه مريض ، لما استعملناه .. اما وقد فعلنا ، فلن نتراجع وقد خيرناه بين الاقامة ببغـــداد ، والمسير الى القتال ، فاختار القتال ، فذنبه علي نفسه

فقال الوزير :

اذا اتت ساعة يحي ، تضعضع جيش الخلافة

- سنأمره بان يستخلف احداً اذا عجز عن العمل

ولم تستطع الخاصة ، على رغم المجهود الذي بذلت ، ان تثني المأمون عما عول عليه

وترك يحي واهل بيته ، بغداد ، بعد ثلاثة ايام ، وهم يريدون الرقة حاضرة لولاية ..

والمرض يزيد جوراً على الامير الجديد ، كما زاد الزمان جوراً على الامير العاشق الذي تولى امر الشرطة في بغداد

● ● ●

لم تقل زينب كلمة واحدة لمغيث !

ولم تسأله عما فعل ، كأنها لم تعلم ، انه هو الذي خبر عباد بن جعفر برحيل عصمة

ومغيث نفسه لم يقل لها شيئاً !

فقد اكتفى بقوله لها من قبل :

طيبي نفساً ياسيدتي فانت باقية في الرقة

وقد فرح الطائيون ، عندما عرفوا في اليوم الثاني ، ان الشرطة منعت صهرهم من السفر

وكان الشيخ اكثرهم ابتهاجاً وفرحاً ، فقد ساءه موقف عصمة ، ونقضه وعده وذالك الاستخفاف الذي ظهر منه ، يوم سأله البقاء في المدينة

حتى انه امر مروان والمغيرة ، بان يختطفا اختهما زينب ، كما قرأت

على انه لم يشأ ان ينكأ الجرح ، ولم يرد ان يحدث الحرشي بالامر مرة ثانية فقد اكتفى ببلوغه الغاية ...

غير ان عصمة لم يسكت ..!

كان قد ظن ، ان الشيخ ، هو الذي ارسل احدهم الى عباد ، ثم ظن انزوجته هي التي فعلت ذلك .. ثم امست زينب بريئة في نظره ، وقام في ذهنه من جديد ان ابا حاتم هو المذنب !

وراح يعتب ويلوم ، والشيخ يهزأ به الى ان قال :

من هو عباد بن جعفر قائد الشرطة في الرقة ؟ اني لا اعرفه ، ولا اريد ان اعرف رجلا واحداً من رجال الدولة التي ابغض خليفتها المأمون .. ومع ذلك ، فانا لم اعلم انك عولت على الرحيل في ذلك الليل ...

وطال الاخذ والرد بينهما ، حتى قالت سعدى :

ليس لك الا ان تسأل دار الشرطة ، عن الرجل الذي نقل اليها خبرك ..

قال : لا اريد ان ارى هذه الدار ورجالها ، فهم عصبة خبث وشر ، وجميعهم يحفظون الولاء لعبدالله بن طاهر

فقال الشيخ وهو يضحك :

انك تبغض هؤلاء ، ونحن نحبهم !!

– لماذا ؟

– لانهم منعوك من الرحيل

– اذن فانت تحب طاهراً وبنيه لاني ابغضهم !

– اما طاهر ، فلست احفظ له غير الحقد الذي لا يموت .. لقد ارسلت مغيثاً ليغدر به ، كما غدر هو بحاتم ، فخانه القدر ، ولكن لن يخوننا بعبدالله ...

– اتفكر في قتله ؟

– نعم

فبرقت عيناه قائلا : ومن يقوم بالامر

– مغيث

وكان مغيث في الدهليز على عادته ، وهو يصغي الى حديث القوم ...

فقال في نفسه :

الأثر ان يقتلني الله ، قبل ان امد يداً الى المحسن الي

وكانت زينب تقول في نفسها :

اذا قتلتم عبدالله قتلتم زينب

وجعل عصمت يقول ، وقد تغيرت لهجته :

كنت اظن يا سيدي انك نسيت ثأرك

قال : لايستطيع الوالد ان ينسى ولده

فاشرق جبينه ، ورقص قلبه من الفرح ..

ان عبدالله سيموت ، وهذا ما يرغب فيه ... وستمسي الرقة احب المدن اليه ، بعد موته !

وتبدلت حياة الحرشي ! فكنت تراه دائم المسرة ، والابتسامات لا تفارق شفتيه ، وقد ادركت زينب ، ان التفكير في اغتيال عبدالله ، هو السبب في ذلك الفرح المستمر

ومر شهر كامل ، على الحال التي وصفت لك .. والناس في الرقة ، وفي جميع ربوع الشام ، لم يعلموا ان عبدالله بن طاهر ، جعل على شرطة المأمون ، ويحي بن معاذ استعمل على الجزيرة

حتى قدم الرقة عبدالله الحرشي ، في مساء يوم

وكان عصمة وزينب عند الطائيين

فلما دخل الدار ، هش له القوم ، واستدعاه الشيخ يسأله عن بغداد

فقال : اما بغداد ، فقد لبست الحلة التي كانت تلبسها ايام الرشيد ، مع سعة في العيش ، وزيادة في الزخرف ... فمن جنات زاهرة ، الى اماكن على الضفتين زاهية ، الى قصور تبنى ، وخراج يكثر ، وانك لتجد اليوم بباب المأمون ، من الشعراء والفقهاء ، والعلماء والندماء ، من لم تجد مثلهم بباب الرشيد ، وهو كثير البذل ، يهب للناس ، ما لم يهب مثله ابوه ، والشعراء والمغنون ، يتحدثون بهذا الجود الغريب

فقال عصمة : لقد امسى ابي من رجال المأمون !

قال : اني باق كما كنت ، ولكني اذكر لابي حاتم ما اعلم ، واصف له حال العاصمة ..

فقال الشيخ : ما كنت لاهتم بما يفعله المأمون من هذه الناحية ، افلا تقول لنا متى يجيء عبدالله بن طاهر امير الجزيرة ؟

فحبست زينب انفاسها ..

فاجابه وهو ينظر الى ابنه :

ان امير الجزيرة يحي بن معاذ ، وليس عبدالله

فاستوى عصمة في مجلسه قائلا :

اعزل ابن طاهر ؟

— نعم ، عزل لينتقل الى منصب اخر هو صاحب شرطة الخلافة ..

فاصفر وجه زينب ، واحست ان الارض تهتز .. ثم تدور ..!

فهامستها سعدى تقول :

احذري الفضيحة ..

وكان عصمة يقول :

هذا خليفتكم يلقي مقاليد عاصمته الى الفتيان الاغرار

فانتهره ابوه قائلا :

كفى ولا تزد

فقال الشيخ : الم يكن يحي في بلاد الفرس ؟

— بلى ، ولاه الخليفة قتال بابك فلم يقدر عليه ، فاستدعاه ليوليه قتال نصر وقد سمعت ان المأمون قال لخاصته :

سنرسل عبدالله بن طاهر الى الجزيرة بعد حين ...

— ومن هو خليفة يحي في ارض فارس ؟

— عيسى بن محمد

— اذن فطاهر في بغداد ولا عمل له

— بل هو عامل المأمون على خراسان

- يظهر ان الخليفة لا يتخلى عنه
- هذا هو الواقع ، ولا يعلم احد غاية المأمون من التعيين والعزل
- تقول انه استعمل ابن معاذ وسيستعمل عبدالله فهل انت واثق بهذا ؟
- ذلك ما قيل لي . وابن معاذ الان في دار الامارة ، وقد قدم منذ ساعتين ، وهو مريض
- كنت اود لو اتانا عبدالله
- اتؤثره على هذا ؟
- اجل ، فلي على عبدالله ثار ، ولا علاقة لي بيحيى
- سيبقى ثأرك حتى تجد السبيل اليه ، فتبلغ غرضك
فقال عصمة : كنت اتمنى ما يتمناه ابو حاتم
- لاي سبب ؟
- لاخرج معه الى كيسوم كما امرني ابن مراجل
- لك ان تخرج مع يحيى
- ان الخروج مع هذا لا ارغب فيه
- اذن فانت تفكر في الشر .
- واي شر ؟ تتلاحم الصفوف والسيوف في كيسوم ، ويختلط الحابل بالنابل فيفلت عندئذ من القوس ، سهم طائش يصيب عبـــدالله في صدره ، او في عنقه ، وينتهي كل شيء ..!

قال : نصحت لك ، وانت في بغداد ، بان تحفظ لسانك .. ألم تر الموت يدنو منك ، ثم يدور حولك ، وانت في مجلس المامون ..؟ ان حياتك يا بني في خطر ، واحذر ، ودع عنك هذا الحسد الذي لا فائدة منه

فرفع الشيخ صوته قائلا :

مالك ولعبدالله يا عصمة ، فسنتولى نحن امره اذا جاء .. ولكني اعتقد انه لن يجيء .. والان قل لي يا ابا عصمة ، أليس من واجب اهل الرقة جميعهم ان يسلموا على الامير ؟

– بلى ، فسيذهب مروان والمغيرة وعصمة غداً ، وسأكون معهم

– غير اني اخاف ان يأمرهم بحمل السيف ، والمسير الى القتال ، وانا لا اريد ان ادافع عن خلافة المأمون !

– ليس لاحد ان يكره مسلماً على الحرب ، ومع ذلك ، فاذا ندبهم لها نظرنا في الامر

وناموا ليلتهم ، على ان يأتوا دار الامارة في اليوم الثاني ، ليهنئوا يحي ..

ولكن زينب لم تنم !

لقد خانها الحظ في غرامها ، وخانها في زواجها ، ثم ابعد الرجل ، الذي وهبت له الروح ، عن البلد الذي ربيت فيه !

واي شيء يبقى لها ، اذا منعها القدر الساخر ، من ان ترى عبدالله ؟ !

قلب يتفطر ، وجسم يذوب ... وهوى برح بها وهو يـــدفعها الى الهوة ، أفيتمادى الزمان في جفائه ، ويغمض الموت عينيها ، قبل ان تنظر نظرة التوديع ، الى الحبيب ؟!

وبزغ الفجر ... ثم طلع الصبح .. واشرقت الشمس ، ولم يغمض لها جفن

وما هي كلمة الحرشي ، ان المأمون سيرسل عبدالله الى الجزيرة بعد حين ؟

كلمة جوفاء ، لا اصل لها ولا فصل ...

اذ لو اراد ان يفعل ذلك لما اختار يحي

وعندما كانت تفكر في ذلك ، كان زوجها قد نام مـــلء عينيه ، واستسلم لاحلامه ...

وفي صباح اليوم الثاني مشى الفتيان الثلاثة ، يتقدمهم عبدالله الحرشي ، الى قصر يحي وعند يحي وفود الناس ، وبعض رجـــال الامارة ، بينهم الحسين بن عمر ، وعباد بن جعفر

ولم يكن بين قواد الخلافة ، جندي اقسى واغلظ نفساً وقولا مـــن يحي بن معاذ ...

فلما دخلوا وسلموا ، جعل يتفرس فيهم ، ثم قال :

عبدالله الحرشي احد قواد الامين ؟ ! اين انت ؟

ـ اني في بغداد ايها الامير منذ اعتزلت القتال

ـ وهؤلاء بنوك

ـ اما هذان الفتيان ، فهما مروان والمغيرة ، ولدا حاتم الطائي

ـ قتيل الري ؟

ـ نعم

ـ قيل لي ان طاهر بن الحسين ، سمي ذا اليمينين لانه ضرب حاتماً بيديه الاثنتين .. وهذا ؟

ـ هذا ابني

فقام الحسين بن عمر فقال :

هذا خطيب المسجد !

وروى له حكاية خطبته عن امير المؤمنين

ـ وماذا فعلت به ؟

ـ بعثت به الى بغداد ، مع عباد بن جعفر فعفا الخليفة عنه

فالتفت الامير الى عباد قائلاً :

ما هو خبر العفو ؟

فقصه عليه ، فقال :

اذن فجنونه طوع يده !

ـ هو ذاك ايها الامير ، ولولا عبدالله بن طاهر لذهبت حياته

قال اظن ان هـــذا المجنون لن يعود .. وانت يا عبدالله ، الم تبايع امـــير المؤمنين ؟

ـ بلى ، بايعته مع جميع القواد الذين كانوا من رجال الامين

ـ وكانت بيعة صادقة ، ام هي بيعة سياسة وخوف ؟

قال : ليس بين امراء بني العباس من هو اجدر بالخلافة منه ..

ـ ومع ذلك فقد بايعتم ابراهيم بن المهدي ، وحاربتم جنـد المأمون ، وكنتم

تظنون ان الدهر سيصفو لكم

– قلت الك ايها الامير ، اني اعتزلت القتال ، بعد مقتل الامين ، واما المبايعة فقد كانت ساعة وسوس لنا بها الشيطان وقد غفرها لنا امير المؤمنين

– كما غفر للفضل بن الربيع ، الذي سلبه كل ما اوصى له به الرشيد ...

ثم قال لمروان :

عرفت اباك هنا في الرقة ، قبل ان يخرج الرشيد الى طوس ، وكنت قادماً يومذاك من الشام .. أليست امك اخت علي بن ماهان ؟

– بلى ايها الامير

– لقد كان علي بطلا ولكن قتله الاستخفاف والغرور

فخطر لمروان خاطر فقال :

أكان الامير في معركة الري ؟

– كنت في الجانب الاخر من خراسان ، ولكن خبرني محمد بن العلاء ، بكل ما جرى في ذلك اليوم ، لانه كان حاضراً

– واين هو ابن العلاء اليوم ؟

– في بغداد ، وقد يتركها الى الكوفة ، شهراً او شهرين كل عام ثم يعود اليها

فهم بان يسأله ، عن ذلك الغدر ، الذي اتهم به الناس طاهراً

غير ان وفوداً اخرى ، من جيران الرقة ، دخلت في تلك اللحظة ، فلم يستطع ان يوجه سؤاله اليه

وقام القوم يستأذنون في الانصراف

وقبل ان يخرجوا ، قال يحي لعبدالله ، والناس يسمعون :

ارجو ان يطلق عصمة جنونه .. لاني لا اقبل شفاعة في مجنون ....

وكان ذلك انذاراً للحرشي ، ليس فيه شيء من الغموض

وعندما رجع المغيرة ومروان ، قال لهما ابو حاتم

كيف رأيتما ابن معاذ ؟

فقال المغيرة : انه من الدهاة ، ولكنه لا يعرف اللين .. لقد ذكر عبدالله

طراي بماضيه ، وهو يعلم انه كان على دعوة الامين

- ويعرف عصمة ؟

- لا ، غـــير ان الحسين بن عمر ، قص عليه كل شيء ، وقام عباد بن جعفر فذكر له ما جرى في مجلس الخليفة ، فقال لابيه :

ليعذر ابنك ، فلا رحمة عندي للمجانين

- وانتما ؟

- اما نحن ، فقد اعاد علينا ، ما قاله محمد بن العلاء ، عن واقعة الري ، ولو لم يطل عليه الناس ، لسألناه عن مقتل ابي

- خير لنا ألا نسأله فانا لا اثق به

- وابن العلاء ؟

- اين هو ابن العلاء يحدثنا بالامر ؟

- في الكوفة وبغداد

- ينبغي اذن ان نتصل به ، قبل ان نغدر بابن طاهر !

وبينما كانوا يتحدثون بذلك ، كان الحرشيان في المسجـد ، وكانت زينب تقول لهدى ، وهي عندها :

لقد خاب الرجاء ، وستبقى العداوة بيننا وبين الجماعة ، الى الابد

- من يعلم فقد تزول هذه العداوة ، في يوم ..

قالت : كنت مؤمنة بان عبدالله سيتولى الامارة في هذا القطر ، وسيعمد يوم يتولاه ، الى تكذيب ما نسب الى ابيه

- اما انا فقد آمنت من زمن طويل ، بان ما نقل الينا عن جريمة القتل لم يكن صحيحاً ، ولكن اي فائدة لنا من هذا ؟

قالت : لم افهم

اذن لنتحدث بجلاء . لقد احببت عبـــدالله ، واحبك هو الحب الصادق ، لأن الواحد منكما خلق للاخر ، أليس كذلك

- بلى

ـ احببته بالرغم من الاشاعة التي اتهمت اباه بقتل ابيك ..

ـ نعم

ثم ابعدك الدهر عنه وابعده عنك ، وامسيت زوجة لفتى آخر ، فقولي لي ، اتطمعين اليوم ، اذا اثبت براءة ابيه ، ان يثمر هذا الحب ، وزوجك حي ، ولمه قيدتك الشريعة به ؟

ـ لا

ـ وما هي غايتك اذن ؟

فدمعت عيناها وجعلت تقول :

غايتي أن تزول العداوة فاستطيع على الاقل ان اراه...

واقبلت عندئذ ام مروان وقالت :

ان ابن العلاء في بغداد ، وسنتصل به ، فيصف لنا ذلك البراز الذي كان حالم ضحية له

فعاد شيء من الامل الى صدر زينب

وقالت سعدى : متى تفعلون ذلك

ـ بعد زمن قصير ، فيسير مروان والمغيرة ، او احدهما

ـ وليكن مغيث رفيقاً لهما

ـ هذا لا بد منه

ولما خرجت رفعت زينب رأسها الى العلاء وتمتمت قائلة :

اللهم ، ارحم ... المحبين ...

• • •

خاض الجيشان ، جيش الخلافة بقيادة يحي بن معاذ ، وجيش نصر بن شبث ، مجال القتال ، في معركتين اثنتين ، من غير ان ينتصر الواحد منهما على الاخر ..

وكان ذلك بعد ان امسى يحي امير الجزيرة ، باربعة اشهر

وبعد المعركتين ، اشتد المرض على ابن معاذ ، واقعده عن الحرب

المرض الى ابنه احمد ، ان يقوم بالامر عنه

ولكن الموت ، كان مستخفياً في فراشه .. حتى اذا امعنت الحمى في قسوتها ، انشب ، في مخالبه فهوى القائد الكبير صريعاً ، وهو يفكر في ذلك العقيلي الذي لم يستطع ان يظفر به

فكتب خليفته احمد ، الى المأمون ، ان اباه قـــد مات ، وهو يتولى الامارة والقتال بعهد منه

فاستشار المأمون وزيره وبعض خاصته ، فكان هواهم جميعهم في عبـــدالله بن طاهر ، وكذلك كان هوى امير المؤمنين

غير انه اراد ان يتبين كفاءة احمد بن يحي ، قبل ان يفعل شيئاً

فدعا بعض القواد ، الذين رافقوا ابن معاذ في حروبه ، وجعل يسألهم ويصغي الى ما يقولون

حتى عرف اخيراً ان احمد لا يصلح للقيادة ، وليس له من الخبرة ، والدهـاء في الحرب ما كان لابيه

ومر شهر ، وهو يسأل ويدرس ، فكأنه لم يكن يريد ان يتخلى عبدالله عن شرطة بغداد

وقد ملأت الكآبة نفس صاحب الشرطة !

ان المأمون لم يوجه اليه كلمة ، ولم يسأله سؤالا واحداً في هذا المعنى

واظهر استياءه للمحمدين صديقي ابيه ، ابن العلاء ، وابن طالوت ، فنصحا له بان يعتصم بالصبر ، لان امير المؤمنين لم يعهد بعد الى احدهم ، في الامارة ، وهو يشاور قواده ورجال قصره ، ثم ينظر في الامر بعد ذلك

وانقضى يومان من الشهر الثاني ، وعبدالله ، يحمل اخبار العاصمـــة الى الخليفة كل يوم ، ثم يرجع دون ان يسأله رأيه ، كما يسأل الآخرين ..

وقد قام في ذهنه ، ان في الامر سراً ، وان امارة الجزيرة اضحت بعيـدة

عنه ، والدليل على ذلك ، ان المأمون لم يفكر فيه

فلما كان اليوم الثالث ، احضره الخليفة وقال له :

يا عبدالله ، استخير الله عز وجل منذ اكثر من شهر ، وارجو ان يكون اليوم قد خار لي

قال : ماذا يا امير المؤمنين ؟

قال : رأينا الرجل يصف ابنه لرأيه فيه ، ورأيناك فوق ما قال ابوك فيك ، قبل ان يسير الى خراسان ... لقد مات يحي بن معاذ واستخلف ابنه وليس بشيء وخطر لنا الان ان نشاورك فماذا ترى ؟

قال : وليتني من قبل يا مولاي ..

— اجل ، ثم رأينا ان نجعلك على الشرطة ، فبغداد بحاجة اليك

قال : اذا اذن لي امير المؤمنين قلت ما اعلم

— قل

— ان بغداد التي هي عاصمة الخلافة ، يقيم بها امير المؤمنين، ووزراؤه وقواده ومستشاروه فهي لا تحتاج الي ليسودها الهدوء ، واما الجزيرة ، التي عظم امر العقيلي فيها ، فهي مجال رحب يصول ويجول فيه ، وليس هنالك من يقف في وجهه ويكرهه على الخضوع

قال : لم نسلم اليك ولايتك من قبل ، لنحفظ بغداد من الفتن . اما الان فانت امير الجزيرة ، وامير مصر في وقت واحد ، وستحارب العقيلي حرباً ليس فيها شيء من اللين ..

فقام فقبل ركبته ، وهو يقول :

ارجو ان يجعل الله الخيرة لامير المؤمنين ، والمسلمين

قال : ستأتي بلدين فيهما الثورة

— اما الجزيرة فثائرها نصر ، فهل في مصر ثائر اخر ؟

— بلغنا امس ، ان امير مصر السري بن الحكم ، استأثر به الموت ، وخلفه ابنه عبيد الله ، ونحن لا نثق به ، ولا رأي لنا فيه ، ، ونخشى ان يحمل علم الثورة

في ارض فرعون

- وماذا ايضاً يا مولاي ؟

- لبدأ بنصر ، فاذا انتهى امره ، كتبنا اليك لتتوجه الى مصر

ثم قال : اشر علينا برجل نوليه الشرطة ..

- اذا اراد امير المؤمنين استعمل ابن عمي اسحاق بن ابراهيم ...

قال : سنفعل ..

وتحدث الناس في بغداد ، بولايتي عبدالله

ولكنهم لم يعجبوا لذلك ، فقد عرفوا من قيادته الشرطة ، وحفظه الامن في المدينة ، انه اهل المنصب الاكبر ، في دولة المأمون

وبلغ الخبر طاهراً ، فكتب الى عبدالله ، كتاباً جمع فيه كل ما يحتاج اليه الامراء ، في السياسة ، والصلاح ، والادب ، والادارة ، والاخلاق .. وهو كتاب اقل ما يقال فيه ، انه اعظم اثر ادبي ، يتخذه الملوك والعامة ، دستوراً لهم في الحياة

ولو لم يكن تعليما راقياً ، وادباً رفيعاً ، وسفراً خالداً فيه الخبرة والهدى وعظمه النفس ، والمروءة ، والنصح ، لما خطر لنا ان ننشره لك

على انه كتاب طويل ، نخشى ان تمل منه ، على الرغم مما ذكرنا الك ...

من اجل ذلك رأينا ان نختار بعض ما ورد فيه ، لتقرأه بروية وامعان ، وتتخذه لك هادياً ، في حياتك الخاصة ، واذا ندبت لامر

وهذا معظم ما جاء فيه قال :

عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وحفظ الرعية ، والزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لآخرتك ، وما انت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومسؤول عنه ، والعمل في ذلك كله ، بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه ، واليم عقابه

ان الله قد احسن اليك ، واوجب عليك الرأفة بمن استرعاك امرهم من عباده ،

وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والدفع عن حريمهم ، والحقن لدمائهم ، والامن لسبيلهم ، وادخال الراحة عليهم في حياتهم

ففرغ لذلك فكرك وعقلك ، وبصرك ورويتك ، ولا يذهلك عنه ذهل ، ولا يشغلك عنه شغل

وليكن اول ما تلزم به نفسك ، وتنسب اليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك ، من الصلوات الخمس ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك ، وتحت يدك

ثم اتبع ذلك الاخذ بسنن رسول الله « صلعم » والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء اثر السلف الصالح من بعدها ، واذا ورد عليك امر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما انزل الله في كتابه ، من امره ونهيه ، وحلاله وحرامه

ولا تمل عن العدل فيما احببت ام كرهت ، لقريب من الناس او بعيد ، واثر الفقه واهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله والعاملين به ، فان افضل ماتزين به المرء الفقه في دين الله

وعليك بالاقتصاد في الامور كلها ، فليس شيء ، ابين نفعاً ، ولا احضر امناً ، ولا اجمع فضلا من القصد ، فالقصد داعية الى الرشد ، والرشد دليل التوفيق ، منقاد الى السعادة ، وقوام الدين وسننه الهادية بالاقتصاد ، فآثره في دنياك كلها ، ولا تقصر في طلب الاخرة ، والاجر والاعمال الصالحة

واعلم ان القصد في شأن الدنيا ، يورث العز ، ويحصن من الذنوب ، وانك لن تحوط نفسك ومن يليك ، بافضل منه ، فاهتد به تتم امورك ، وتزد مقدرتك ، وتصلح خاصتك ، وعامتك واحسن الظن بالله عز وجل ، تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة اليه في الامور كلها ، ولا تتهض احداً من الناس فيما توليه من عملك ، قبل تكشف امره بالتهمة ، فان ايقاع التهم بالابرياء والظنون السيئة بهم مأثم

واعلم انك تجد بحسن الظن ، قوة وراحة ، وتدعو به الناس الى محبتك ، والاستقامة في الامور كلها لك ، ولا يمنعك حسن الظن باصحابك ، والرأفة

برعيتك ، ان تستعمل البحث عن الامور والسؤال عما يخطر لك

واخلص نيتك في جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك ، تفرد من يعلم انه مسؤول عما صنع ، ومجزي بما احسن فان الله جعل الدين عزاً ، ورفع من اتبعه وعززه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين ، وطريقة الهدى ، واقم حدود الله في اصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة اهل العقوبة ، فان في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك

واعزم على امرك في ذلك ، بالسنن المعروفة ، وجانب الشبه والبدعات يسلم لك دينك ، وتقم لك مروؤتك ، واذا عاهدت عهداً فف به ، وان وعدت الخير فانجزه ، واغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض اهله ، فان اول فساد امرك ، في عاجل الامور وآجلها ، تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ، لان الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لان النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها امر

واحب اهل الصدق والصلاح ، واعن الاشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وابتغ بذلك وجه الله ، وعزة امره ، والتمس فيه ثوابه والدار الاخرة ، واجتنب الاهواء والجور ، واصرف عنها رأيك واظهر من ذلك لرعيتك ، وانعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى

واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ، واياك والحدة والطيش والغرور ، واحذر ان تقول :

اني مسلط افعل ما اشاء ، فان ذلك سريع فيك الى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له

واعلم ان الملك لله ، يعطيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة ، الى احد ، اسرع منه الى اصحاب السلطان ، اذا كفروا بنعم الله واحسانه ، واستطالوا بما اتاهم الله من فضله

ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز ، البر

والتقوى ، واستصلاح الرعية وعمارة البلاد ، والتفقد للامور ، والحفظ للدماء

واعلم ان الاموال اذا كثرت وذخرت في الخزائن ، لا تثمر ، واذا كانت في اصلاح الرعية ، واعطاء حقوقهم نمت وربت ، فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال ، في عمارة الاسلام واهله ، واوف رعيتك من ذلك حصصهم ، فانك اذا فعلت ذلك ، قرت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله

فاجهد نفسك ، فيما حددت في هذا الباب ، ولتعظم حسبتك فيه ، فانما يبقى من المال ، ما انفق في سبيل حقه

واعرف للشاكرين شكرهم ، واياك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الاخرة ، فتتهاون بما يحق عليك ، فان التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارج الثواب ، فان الله قد ابلغ عليك نعمته في الدنيا ، واظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر ، يزدك الله خيراً واحساناً

ولا تحتقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ولا تداهن عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تتبعن غاوياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحقرن انساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً . ولا تجيبن باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا تذهبن فخراً ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين فرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولاتغمضن عن الظالم رهبة منه ، او مخافة ، ولا تطلبن ثواب الاخرة في دنياك ، واكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن اهل التجارب وذوي العقل والرأي ، والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك اهل الدقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فان ضررهم اكثر من منفعتهم

واعلم انك اذا كنت حريصاً ، كنت كثير الاخذ ، قليل العطية ، واذا كنت كذلك لم يستقم امرك الا قليلا ، فان رعيتك انما تعتقد على محبتك بالكف عن اموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء اوليائك لك

فاجتنب الشح ، واعلم انه اول ما عصي به الانسان ربه ، وان العاصي بمنزلة

خزي ، وهو قول الله عز وجل :

« ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون »

فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وايقن ، ان الجود من افضل اعمال العباد ، فاعدده لنفسك خلقاً ، وارض به عملا ومذهباً ، وتفقد امور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ، وادرر عليهم ارزاقهم ، ووسع عليهم في معايشهم ، ليذهب الله بذلك فاقتهم ، ويقوم لك امرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وامرك ، خلوصاً وانشراحاً ، وحسب صاحب السلطان من السعادة ، ان يكون على جنده ورعيته ، رحمة في عدله ، وانصافه ، وعنايته وشفقته ، وبره وتوسعته

واعلم ان القضاء ، ليس مثله شيء من الامور ، لانه ميزان الله الذي تعتدل عليه الاحوال في الارض ، وباقامة العدل في القضاء ، تصلح الرعية ، وتؤمن السبل وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة

واشتد في امر الله ، وتورع عن الفساد والشر ، وامض لاقامة الحدود ؛ واقلل العجلة ، وابعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، وانصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، ولا يأخذك في احد من رعيتك محاباة ولامجاملة ، ولا لوم لائم ، وتثبت وتأن ، وراقب وانظر وتدبر وتفكر ، وتواضع لربك ؛ وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن الى سفك دم

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية ، وجعله للاسلام عزاً ورفعة ، ولاهله سعة ومنعة ، فوزعه بين اصحابه بالحق والعدل والتسوية ، ولا تدفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، وعن غني لغناه ، ولا عن كاتب الك ، ولا احد من خاصتك

واحمل الناس كلهم على مر الحق ، فان ذلك اجمع لالفتهم ، والزم لرضى العامة ، واعلم انك جعلت بولايتك حافظاً وخازناً وراعياً ، وانما سمي اهل عملك

رعيتك ، لانك راعيهم ، تأخذ منهم ما اعطوك ، من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه في قوام امرهم وصلاحهم ، وتقويم اودهم ، فاستعمل ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم بالرزق ، فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت ، واسند اليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل فانك متى قمت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الاحدوثة في عملك

فنافس في هذا ، ولا تقدم عليه شيئاً ، تحمد مغبة امرك ، ان شاء الله

واجعل في كل ناحية من نواحي ولايتك اميناً ، يخبرك اخبار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم واعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاين لامره كله ، وان اردت ان تأمره بامر ، فانظر في عواقب ما اردت من ذلك ؛ فان رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع ، فاقضه ، والا فتوقف عنه ، وراجع اهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته

فاستعمل الحزم في كل ما اردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، واكثر استخارة ربك ، في جميع امورك ، وافرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، واكثر مباشرته بنفسك ، فان لغد اموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي اخرت

واعلم ان اليوم اذا مضى ، ذهب بما فيه ، واذا اخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين ، فشغلك ذلك حتى تعرض عنه فاذا امضيت لكل يوم عمله ، ارحت نفسك وبدنك ، واحكمت امور سلطانك

وافرد نفسك للنظر في امور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أخفى مسألة ، ووكل بامثاله اهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حاجاتهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به امرهم

وتعاهد ذوي البؤس واليتامى ، والارامل ، واجعل لهم ارزاقاً من بيت المال ، اقتداء بامير المؤمنين اعزه الله ، في العطف عليهم والصلة لهم ليرزقك الله به

واجر للامراء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لاكثره ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً يقيمون بها ، ورجـالا امناء يرفقون بهم ، واطباء يعالجون اسقامهم ، واسعفهم بشهواتهم ، ما لم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال

واكثر الاذن للناس عليك ، وابرز لهم وجهك ، واخفض لهم جناحك، واظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك

واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والاجر ، غـير مكدر ولا منان ، فان العطية على ذلك مقبولة عند الله

واعتبر بما ترى من امور الدنيا ، ومن مضى من قبلك ، من اهل السلطان والرياسة ، في القرون الخالية ، والامم البائدة ، ثم اعتصم في احوالـك كلها بامر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، واقامة دينه وكتابه

واعرف ما يجمع عمالك من الاموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق اسرافاً ، واكثر مجالسة العلماء ، وليكن هواك اتباع السنن واقامتها ، وايثار مكارم الامور ومعاليها ..

وليكن اكرم خاصتك عليك ، من اذا رأى عيباً فيك ، لم تمنعه هيبتك مـن انهاء ذلك اليك ، في سر ، واعلامـك ما فيه من النقص ، فان اولئك انصح اوليائك ومظاهريك

وانظر عمالك الذي بحضرتك ، وكتابك ، فوقت لكل رجـل منهم في كل يوم ، وقتاً يدخل عليك فيه ، بكتبه وما عنده ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك ، وفهمك وعقلك ، وكرر النـظر اليه ، والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فامضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه ، ولا تقبل من احـد منهم الا الوفاء والاستقامة ، والعون في امور امير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف الا على ذلك

وتفهم كتابي اليك ، وليكن اعظم سيرتــك ، وافضل رغبتك ، ما كان لله رضى ، ولدينه نظاماً ، ولاهله عزاً وتمكيناً ، وانا اسأله تعالى ان يحسن عونك وتوفيقك وان ينزل عليك فضله ورحمته ، بتمام فضله عليك ، وكرامته لك ، حتى يجعلك افضل امثالك نصيباً ، واوفرهم حظاً ، وان يهلك عدوك ومن بغى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، انه قريب مجيب »

هذا هو الاثر التاريخي الجليل ، الذي يجب ان يقرأه كل عاقــل ، ويعمل بما ورد فيه

فلما عرف الناس به في بغداد ، طلبوا الى عبدالله ان يكتبوه ، ففعــلوا ، ثم جعلوا يتنازعونه ، حتى شاع امره ، وبلغ المأمون

فدعا به ، وقرىء عليه ، فقال :

ما ابقى ابو الطيب شيئاً ، من امر الدنيا والدين ، والسياسة والراي والتدبير واصلاح الملك والرعية ، وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء ، الا اوصى به

وامر فكتب به الى جميع العمال في اقاليم الدولة ، القريب منها والبعيــد ، ليرجعوا اليه في سياستهم ، ويتبعوا ما جاء فيه

• • •

٣٦

اسمع يا مروان ، اذا اتيت بغداد ، تولى مغيث عنك امر السوال عن محمد بن العلاء

— نعم

— وقد عرفت ، ان الرجل من احب الاصحاب الينا ، فاستأذن عليه ، واذكر

« الامر الذي تركت الرقة من اجله ، واحفظ كل كلمة يقولها الك
- وأنقل اليه ما رواه لنا سليمان وفياض ؟
- اجل ولكن لا تحدثه بقضية الثأر ، فهو في الوقت نفسه صديـــق طاهر ، وربيبه في معظم الميادين
- واذا لم اجده في بغداد ؟
- ألم يقل لك يحيى بن معاذ ، انه هناك ؟
- بلى ، غير اني اخشى ان يترك العاصمة ، الى بلد اخر
فقالت ام مروان :
ان لم تجده فيها ؟ فاسأل عن محمد بن طالوت فهو يعرف ما يعرفه الاخر
فقالت سعدى لابي حاتم :
متى يذهب مروان ؟
- بعد بضعة ايام ، وله ان يذهب بعد يومين
- اما انا فارى ان ينتظر رجوع يحيى من نواحي كيسوم
- ولم ذلك ؟
- ليسأله مرة اخرى عن الرجلين فهو اخبر الناس بامرهما
فاطرق يفكر ثم قال :
والله انه لرأي ، ومن الحكمة ان يسير مروان الى بغداد ، وهو واثق بوجود احدهما ... وقال لمروان :
اذن فاصبر يا بني حتى يعود يحيى من الحرب فتسأله عما تشاء ، ثم تـــذهب متوكلا على الله
وبعد بضعة وعشرين يوماً ، رجع يحيى مريضاً الى الرقة ، ولبث يصارع المنية شهراً وبعض الشهر ، ثم اغمض الموت عينيه
فرأى ابو حاتم وحبيبة ، ان يبقى مروان في الرقة ، حتى يستعمل المأمون اميراً غير يحيى
وكفت زينب عن البكاء ، لانها آمنت ، بان الحبيب الذي حرمها الدهر منه ،

-يكون هو الوالي الجديد ...

وظل الطائيون ينتظرون

حتى شاع في البلد ، ان عبدالله تولى الامارتين الجزيرة ومصر ، وقــد ترك بغداد

وبعد ثلاثة ايام ، كان الحسين بن عمر ، وعباد بن جعفر يقولان للناس :

ان اميرنا سيصل الى الرقة هذا المساء ، ومعه محمد بن طالوت ، ومحمد بن العلاء ، وعثمان بن ابراهيم

فثار ثائر عصمة ، وهم بان يخرج ليلا من المدينة ، كما اراد ان يفعل في المرة الاولى ، من غير ان يذكر ذلك لاحد

غير ان رجال الشرطة لم يغفلوا عنه ، فاستسلم للقدر ، وهو يلعن المأمون الذي امره بالبقاء ، والمسير الى حرب نصر

وعندما نقل مغيث الى زينب ان عبدالله ، سيصل في المساء ، قالت له :

لا تطمئن هذه النفس ، الا اذا استطاع الامير الجديد ان يظهر براءة ابيه ...

واستقبلت الرقة اميرها ، في صباح اليوم الثاني ، وقــد حياه الجيش ، الذي وقف صفين في اول البلد ، يهتفان له

ورأى الناس ، المحمدين .. وعثمان بن ابراهيم عـــن جانبيه ، والعبيد وراءهم يقودون الخيل والنوق

ولم تكن غير ساعة ، حتى غص قصر الامارة ، بشيوخ البلد وفتيانه ، بينهم عصمة الحرشي نفسه !

الا مروان والمغيرة فلم يؤذن لهما في المجيء

ولولا هذه الطوائف من الناس ، الذين كانوا في القصر وخارج القصر ، لابصر عبدالله مغيثاً وراء احد الاعمدة ، ينتظر انصراف الوفود ، ليحيي الامــير الذي حفظ حياته ، وينقل اليه تحية المرأة المنكودة الحظ ، التي لم تعرف صفو العيش ..

وفي تلك الساعة ، كانت ام عثمان تقول لزينب :

لم ارد ان اذهب الى القصر ، قبل ان اراك ، فقد تحتاجين الي في كلمة اقولها

عبدالله !! فقالت لها :

لم يزل ابوه في نظري قاتلا ، فليس لي ما اقوله له

قالت : سيتفرغ للامر قبل ان يسير الى القتال ، ثم قالت :

لم يبق لمروان في بغداد حاجة

- لماذا ؟

- لان الرجلين الذين يطلبهما هما هنا ، وقد قدما مع الامير

فشهدت قائلة : اصحيح ما تقولين ؟

- نعم

- ولكن مغيثاً لم يقل لي شيئاً من هذا

- يظهر انه لم يعلم بقدوم الرجلين

- وهل رايت عثمان ؟

لا

- من خبرك ؟

احد الجنود ، وقد بعثه الي عبدالله نفسه !

وما هي غاية عبدالله ؟

لست بحاجة الى مثل هذا السؤال يا زينب ، فانت تعرفين الغاية اكثر مما

ام اما انا ... والان قولي لي ، من اشار على عصمة بالذهاب الى القصر ؟

لا ادري فقد خرج دون ان يقول لي كلمة

قالت : اني ذاهبة الان ، وسنلتقي عندما يخرج عصمة الى الصلاة ؟..

وكان الامير عبدالله عندئذ ، يقول لجلسائه :

- كيف كنتم في امارة يحي ؟

فاجابه احدهم قائلا : على خير حال ايها الامير

وفي عهد الحسين بن عمر ؟

- لم نر من ابي علي ، غير الرفق والدفاع عن المظلوم

والحسين واحمد بن يحي في المجلس ، وقد سمعا ما قيل

فاطرقا وظلا ساكتين

ثم قال الامير :

اين سليمان بن سعد لا اراه ؟ ...

- ترك الرقة منذ اعوام ، هو وفياض بن قيس ، ولا نعلم ، نحن اهل الرقة في اي بلد يقيمان

فأطل مغيث من وراء الاسطوانة ، فابصره عبدالله ... فابتسم له وهو يقول لاحمد بن يحيي :

كانت بينكم وبين نصر ، واقعتان ؟

- نعم ايها الامير

- وكان جيشكم اكثر عدداً من رجاله ؟

- نعم غير انه اختار الموقع الحصين الذي يصعب الوصول اليه ، وكان المرض قد اشتد على ابي في الموقعة الثانية ، فأثرنا الانسحاب على ان نعود الى الساحة ، بعد ان يمن الله عليه بالشفاء

- وانت الم تباشر القتال بعد موته ؟

- لا وقد علمت ان رجالا كثيرين من نواحي حلب ، انضموا من جديد الى الرجل ...

- اذن سيهاجم الرقة بعد حين ...

ثم التفت الى عباد بن جعفر قائلا :

افعلت ما امرتك به ؟

- نعم ايها الامير ، وقد عرف الناس الذين انصرفوا ، انك تريد ان تجتمع بهم في المسجد عند المساء

فنهض وهو يقول : الى المساء

فتفرق القوم ، ودخل هو احدى الحجرات ، واستدعى مغيثاً

فلم يلبث العبد حتى اقبل ، ومعه عثمان

فاومأ اليه بان يغلق الباب ثم قال :

هات يا مغيث

فارتمى العبد يقبل رداءه وركبتيه ، وعيناه تذرفان الدمع

فقال له : ابكاء فرح ام ماذا ؟

— انه بكاء عبد كان يصلي في نهاره وليله ، ليعيدك الله الى هـــذا البلد ، وقد استجاب عز وجل الدعاء

— واي غرض لك برجوعي ؟

— ليس الغرض غرضي يا مولاي ... ولم اصل من اجل نفسي ، بل من اجل مخلوق اخر كاد الفراق يذهب بحياته !

فملك نفسه وقال ،

اتعني زينب ؟

— نعم

— وكيف يذيبها الفراق ، ولم يكن بيننا لقاء من قبل ؟!

— ذلك ما لا اعرفه ايها الامير

— وماذا تعرف اذن ؟

— اعرف امرين اثنين ، احدهما انك لو لم ترجع الى الرقة لقتلها الغرام ...

— والاخر ؟

— اما الآخر فتلك الاشاعة التي تعلم ، وهي تنتظر ان يظهر كذب سليمان

قال ، سيظهر كذبه قريباً ان شاء الله

— وتأذن لي ان انقل اليها كلمتك هذه ؟

— اجل ، وتستطيع ان تقول لها انه لا يمر يومان حتى يعرف اهـــل المدينة جميعهم ، ان حكاية سليمان وفياض كانت حكاية عدو حسود ...

فمسح دموعه وقال :

سابشرها بهذا اليوم ، كما حملت اليها البشرى يوم وصولك ، واعتقدانها ستشعر للمرة الاولى ، بشيء من فرح النفس ..

قال : غير ان هذا الفرح لا يلبث حتى يضمحل ..

- وكيف ذلك ؟

- ان براءة طاهر مما اتهم به ستزيدها الماً

قال : زدني ايضاحاً يا مولاي

لقد قالوا لها ، ان عبدالله ، هو ابن المجرم السفاح ، الذي قتل اباها غـدراً ، وان الحرشي من اشراف العرب ! ثم اكرهوها على الزواج به وهي لا تحبه ...

- اصبت يا مولاي

- على انها ستعلم بعد يومين ، انهم كذبوا ، وان طاهراً لم يغدر بحاتم .. افلا ترى ان فؤادها سينفطر عندئذ قهراً وحسرة ؟

وقبل ان يجيب ، استأذنت ام عثمان ودخلت ...

فسلمت على الامير الذي هش لها ، وعانقت ولدها ثم قالت :

كلمة واحدة اقولها لسيدي الامير ثم اعود ... ان اباك يا مولاي لم يزل قاتلاً في نظر من تعلم ، فان شئت فأزل التهمة

فابتسم قائلا :

ذلك ما يقوله مغيث ... اتطمع زينب ان تستقبل حياة جديدة ان فعلت ؟

- بل تطمع في ان تراك ليس غير

فجعل قلبه يضطرب ... ولم يجاوب

فقالت : الم يدخل عصمة الحرشي مع القوم على الامير ؟

- بلى رأيته مع الوفود ولكني تجاهلت وجوده

فقال عثمان : خبرني عباد ، انه عول عـلي الفرار امس من الرقة ، فمنعته الشرطة

- واي شيء هوهذا الفرار ؟

- لا ادري ، فلعله لايريد ان يعيش في بلد انت اميره

- او لعله يخاف الحرب ، التي امره المأمون بان يتهيأ لها ... قل لعباد ، ياعثمان ان ينتبه ، ويسهر على حياته الغالية ... واسهر انت يا مغيث علي حياة زينب فهي بنت سيدك

- وهي المرأة التي احبت عبدالله بن طاهر واحبها ففرق الدهر بينهما ، والله لو طلب الي ان ابذل روحي من اجلها لما ترددت

فقال يخاطب عثمان :

سبحان من جعل العبيد ، اكرم نفساً واطيب عنصراً ، من اولئك الذين يزعمون انهم خير عباد الله ... يا عثمان اعطه خمسة الاف درهم ، على ان تعطيه مثلها كل شهر ...

فتمتم العبد قائلاً :

هذا كثير يا مولاي ولا عهد لي بمثله

- بل هو قليل على الرجال المخلصين الاوفياء . خذ المال وانصرف ، وكن في المسجد عند المساء ، واذا استطعت ، فاحمل مروان والمغيرة على الذهاب اليه

واومأ اليه فخرج ، فقال :

اشعر كلما حدثت هذا العبد ، اني احدث رجلا من عظماء الناس ... متى لترين زينب يا ام عثمان ؟

- الليلة يا مولاي

- وعصمة ؟

- يخرج الى الصلاة

- اذن فليبق طاهر في نظر زينب قاتلا حتى تسمع براءته باذنيها الاثنتين

ونادى غلامه قائلا :

علي بمحمد بن العلاء

فلما دخل عليه ، كانت المرأة قد انصرفت ، فقال له :

ماذا ترى ، ادعو الناس ، في اجتماع المسجد الى الحرب ، ام اصبر حتى ينقضي الاسبوع الاول ، ويحمل الي عباد أخبار القوم ؟

- ارى ان تترك الحرب الان ريثما تتبين ما في نفوس الجماعة ، ومع ذلك ، فانا لم اعرف اهل الرقة كما عرفتهم انت

قال : كانت الرقة في عهد ابي ، فريقين ، الفريق الاكبر من بقايا جيش علي

بن ماهان ، اي من انصار الامين ، وقد بايع المأمون مكرهاً ، والاخر على دعوة امير المؤمنين

ـ وهل ندبهم الامير طاهر الى القتال ؟

ـ لم يشأ ان يفعل ، خوفاً من ان يتهموه بالجبن والضعف... اما انا ، فسأفعل ما لم يفعله ، وسادعوهم الى حمل السيف ، ليحاربوا من اجل المأمون كما حاربوا من اجل الخليفة الذي قتل

ـ اذن فانصار امير المؤمنين لم يذهبوا الى كيسوم

ـ لا ، كما ان خصومه لم يذهبوا ، ولم ير ابي انه يحتاج الى احد منهم ، ولولا تلك الفكرة التي استولت عليه ، وهي تتعلق بكرامته ، لانتقل الى الاخرة ، هذا الرجل الذي يقال له نصر العقيلي ، ولما بقي في الجزيرة عدو لامير المؤمنين

ـ لقد عرفت يومذاك ، انه انسحب من كيسوم لغاية له تحدث بها الناس في العراق ، وانتهى امرها الى امير المؤمنين في خراسان

ـ هو ذاك ، ولكي يقهر الحسن بن سهل ، تراجع من الساحة ، واقام بالرقة يمنع عنها وعن هذه الربوع ، أذى العدو

ـ ولم يكن يعلم ، ان الناس هنا ، يرددون حكاية غدره بحاتم الطائي ؟

ـ لا ، ونحن لم نرد ان ننقل اليه الخبر ، لئلا يشغله عن الحرب ، كما خبرتها في بغداد

ـ وماذا جرى بعد ذلك ؟

ـ ارسل القوم عبدهم مغيثاً ليثأر لهم بحاتم ، كما علمت

ـ واليوم ؟

ـ وهم اليوم ، كما كانوا بالامس ، يعتقدون ان ابي هو الذي غدر بالرجل

ـ وانت راض بان يتهم ابوك؟

ـ لا ، ولكني مؤمن ، بان براءته ان لم تظهر اليوم ظهرت غداً

وجعل يدور بلباقة حول الموضوع ، الى ان قال عثمان لمحمد :

لقد رأيت ، ان اهل الرقة جميعهم اقبلوا هذا الصباح للسلام على الامير ، الا

مروان والمغيرة ..

— وهل تريد ان يسلما على رجل قتل حاتماً ؟؟ اني ذاهب غداً ، لارى ابا حاتم وام مروان ، واظن انهما سيذكران القتيل

— وان لم يفعلا ؟

— حدثتهما بالامر ، ووصفت لهما ذلك البراز ، الذي ذهب بحياة حاتم

فقال عبدالله :

من الرأي ان تصبر حتى يسألاك ...

— اذن فانت تخشى ان يظنا ، اني اتيتهما من اجل هذا الغرض

— اجل

— لا تخف ، فانا اعرف الشيخ كما اعرف نفسي ، وهو يثق بي ، فثق انت بدورك ، اني سأتدبر الامر

وكان مغيث قد خبر الجماعة بما رأى في القصر ، ولكنه لم يــــذكر لهم ، انه اجتمع بعبدالله على خلوة ، وكانت نتيجة هذا الاجتماع ، خمسة الاف درهم ، احسن بها الامير اليه ، وجعل له مثلها كل شهر

فقالت ام مروان :

اتعرف ابن العلاء وابن طالوت يا مغيث ؟

— وكيف لا اعرفهما يا سيدتي وقـــد كانا جارين لنا ، ومن احب الناس الى سيدي حاتم رحمه الله

— وهل رأيتهما في مجلس الامير ؟

— نعم ، وكانا بالقرب منه ، مع احمد بن يحيي ، والحسين بن عمر

فقال الشيخ لمروان :

لقد اصبنا بغنى عن المسير الى بغداد ، وسترى الاثنين بعد بضعة ايام ...

فقال مغيث :

يستطيع ان يراهما الليلة ، فقد امر الامير اهل الرقة بان يأتوا مسجد المهدي ، في المساء ، وسيكون هو هنالك مع الرجلين

قال : ماذا يفعل القوم في المسجد ؟

– يظهر ان الامير ، يريد ان يخطب فيهم خطبة الامـارة الاولى ، كما يفعل الاخرون

قال : اتذهب يا مروان ؟

– اجل ، فالمساجد لله ، وليست لامير الجزيرة

– والمغيرة ؟

– يذهب اذا شاء

– اذن قولا للمحمدين اني بحاجة اليهما فليتكرما بالمجيء

وبدأ القوم عند المساء ، يفدون الى المسجد حتى امتلأت الساحات الـتي تحيط به

وكان الحرشي قد خرج من منزله

فدخلت ام عثمان وسعدى على زينب ، وام عثمان تقول :

سيمر الامير الشاب من هنا ، بعد ساعة

ومشت الى النافذة المطلة على الطريق

فلحقت بها الاثنتان ، وجعلن يتحدثن

تقول ام عثمان :

لم يسمع من قبل ان فتى بعمر عبدالله ، تولى امارتين

فتقول سعدى :

لا تنسي انه ابن طاهر الذي مهد طريق العرش للمأمون ..

وزينب ساكتة ، وهي ترسل نظرها الى النواحي الاربـع ، لعلها ترى الفتى الذي اذابها هواه ...

وما هي غير لحظة ، حتى خفضت ام عثمان صوتها قائلة :

انظرا ، هؤلاء بعض رجال الشرطة ... ووراءهم عباد بن جعفر ...

ثم أطل الامير .. فاهتز جسم زينب ، وتمتمت تقول :

هذا ... هذا ... عبدالله ..

وابصرت النساء الثلاث ، عباداً يهامس اميره ، وكانه كان يقول له : هذابيت المرشي ، الذي تظاهر بالجنون

فرفع عبدالله نظره ، فوقعت العين على العين ...

ولولا عزة في نفس عبدالله ... لفضحته النظرات ، على مرأى من الرجال ، الذين يسيرون امامه وعن جانبيه !

اما زينب فقد تحدر دمعها تشيع به الحبيب ...

ثم قالت ام عثمان :

اما الذين عن يمين الامير وشماله فهم :

احمد بن يحي بن معاذ ، والحسين بن عمر ، وابن العلاء ، وابن طالوت

فقالت سعدى :

ايهما ابن العلاء

- الرجل الذي ترين لعمامته ذوأبة

- لقد كان مروان يهم بالذهاب الى بغداد ليراه ويسأله عن واقعة الري ،الذي كان من قواد المأمون فيها

- لم يبق من سبيل الى ذلك ، لان عبدالله يقول ان براءة ابيه ستظهر بعد يومين ، وقد امرني بان انقل اليكما ما قال

فقالت لها زينب ، من غير ان تحول نظرها عن الامير :

وحياة عثمان ؟

- وحياة عثمان ، ووالله الذي بسط هذه الارض ...

- وهو قال لك هذا ؟

- قاله لمغيث قبل دخولي عليه ، ثم هامسني به عندما خرجت ، بعد دخول محمد بن العلاء ، وهذا هو الامر الذي تطلبين ..

قالت : اخشى ان يعرض القدر لي ...

- لقد بدأ هذا القدر يبتسم لك ... فامسحي الدمع ..

وظل القوم سائرين ، والامير تمنعه عزته من ان يلتفت الى الوراء ..

حتى انتهوا الى المسجد ، فدخلوا ، ودخل الناس ، فصلوا ، ثم صعد عبدالله المنبر ، فشكر الله واثنى على امير المؤمنين ، ثم قال :

يا اهل الرقة :

لقد ولاني امير المؤمنين الجزيرة ومصر ، وقد عرفني بعضكم من قبل ، وعرفتم جميعكم ابي طاهر بن الحسين ، فليس لي اذاً ان اقول لكم من انا ، وليس لكم ان تقولوا لي من انتم ... اني لكل مسلم يبقى على طاعة امير المؤمنين ويتبع الحق ، ولكل فقير ظلمه غني ، وضعيف جار عليه قوي ، والويل لمن تحدثه نفسه بالخروج عن الهدى فوالله لئن خطر لاحدكم ان يستخف بهيبة الخليفة وسلطان عامله لانحرنه كما ينحر الجزور واعلقن جثته على باب الشام ..

فقال مغيث المغيرة ومروان !

والله انه لاثبت جناناً ، وافصح لساناً من ابيه

ونسي المغيرة نفسه فقال :

اظن ان الجزيرة لم تر ، ولن ترى والياً مثل عبدالله ! !

فابتسم مروان قائلاً :

لقد نسيتما انتما الاثنين انه عدو !

فاجابه مغيث :

سترى يا مولاي ان العدو هو الذي اذاع تلك الحكاية الكاذبة ، وعكر الجو بينكم وبين طاهر ..

وكان عبدالله يقول .

واعلموا اني سأخرج الى قتال نصر ، الذي تعلمون ، ولا اسير الى مصر ، الا بعد ان يلقي سيفه ، ويخضع لامير المؤمنين .. فليتهيأ رجال الحرب منكم للخروج مع الجيش وسيكون لكم حقكم ونصيبكم الذي لا ينقص ، من الغنائم

قالها ، وجعل ينظر الى القوم

، فسمع همساً فقال .

أرى بعضكم يهامس البعض الاخر ، فكأنكم تقولون لن نحمل السيف .. !
اما انا، فاقسم برأس امير المؤمنين ، لاسوقن بالسوط كل من يتردد في الامر ، وقد انذرتكم

فقام احدهم فقال .

لم يندبنا ابوك ايها الامير لما تندبنا انت له ، فقال :

لكل امير رأيه ، وقد يقوم الابن بما لم يرد الاب ان يقوم به ... قل سمعت واطعت

.فلم يجب

فالتفت الى عباد بن جعفر ، وكان عن يمين المنبر ، وقال له :

من هو هذا ؟ فقال عباد :

رجل من اهل حران ، يقال له بكار بن اسحاق

فقال الامير :

قل سمعت واطعت يا بكار

فلم يجب فقال :

احتفظ به يا صاحب الشرطة ..

فرفع الرجل صوته قائلا : سمعت وأطعت

فقال عصمة في نفسه .

قل ما تشاء يا عبدالله ، فموعدنا قريب ...

ولم يغفل مغيث لحظة واحدة ، عن هذا الحرشي

لقد كان واثقاً ، بان حسده ولؤمه ، سيدفعانه الى اغتيال الامير ، الذي ابعد سيف الجلاد عن عنقه !

ومن اجل ذلك كانت عيناه تراقبانه ، وان يكن بعيداً عن المنبر ..

وتابع عبدالله قائلا ،

لقد فرق بينكم الهوى . ومشى الكثيرون منكم الى الري وهمذان ،وبغداد يقاتلون جيش المأمون ، ويحاولون قتل قائديه ، هرثمة وطاهر ، اني اعلم

ذلك ...

فقال احدهم .

اي والله لقد كان ذلك فيما مضى ، فقال .

ومن هذا يا عباد ؟

عبد الوارث بن زياد ، من قرقيسياء ايها الامير ، فقال .

اسمع يا عبد الوارث ، واسمعوا ايها الناس ، نحن اليوم في عهد ، لا يكيد فيه الاخ لاخيه ، كما جرى بالامس ... وليس هنالك من يزعم ان له حقاً بالخلافة ،، فالمأمون سيدنا ، وخليفتنا ، وولي امرنا .. فانسوا الماضي ، كما نسيناه نحن ... وامشوا الى الحرب صفاً واحداً كأن لكم جميعكم قلباً واحداً يخفق على حب امير المؤمنين ، والدفاع عن عرشه ..

ثم قال .

من كانت له حاجة فليذكرها لنا غداً ، عندما نجلس للناس

فلم يسمع جوابا ، فقال .

ومن كانت له كلمة فليقلها

فقال بكار بن اسحاق .

لم يبق الا ان نقول . اطال الله بقاء الامير الشاب ، الذي سينقذ الجزيرة من نصر العقيلي . : قولوا ايها الناس . سمعنا واطعنا ..

فردد القوم هذه الكلمة بشيء من الهوس ...

الا الحرشي ، فقد كان يقول .

قتل الله من يطيعك ، ويطيع خليفتك الكافر ، المارق من دين الله ...

اما مروان والمغيرة ، فلم يسمع لهما صوت ...

● ● ●

٣٧

مشى الامير راجعاً الى القصر ، ووراءه رجال الامارة ، وقـــد ابصر مغيثاً وعبده عند الباب ، وكأنه لم يرهم ..

حتى اذا خرج ابن العلاء وابن طالوت ، تقدم العبد وقال لهما .

السلام عليكما ، ألا تذكران عبد حاتم الطائي ؟

فقال ابن طالوت . مغيث ... انك انت .. لم تنل منك الاعوام

فاشار الى مروان والمغيرة قائلا .

ولدا سيدي رحمه الله

فسلم الفتيان

ثم قال ابن طالوت لمروان

كيف ام مروان ؟ — بخير

— وابو حاتم ؟

— ضرير ، وقد فقد بصره بعد مقتل ابي ، وهـو يرجو ان تزوراه ، لانه لا يستطيع الخروج من المنزل

فقال ابن العلاء .

سنأتيه بعد غد ان شاء الله ... الا تزال البيضاء لكم ؟

— نعم يا سيدي

— لقد كنت انت واخوك صغيرين ، يوم فرقت الحروب شمـل الاخوان والاصحاب ... وكانت لكما اختان كبراهما سعدى

— والصغرى زينب ، وقد تزوجت

وتجاهل المحمدان امر الجماعة ، كأنهما لم يعلما شيئاً عنهم من قبل

ثم قال ابن العلاء .

ان الامير ومن معه قد وقفوا وهم ينتظرون فالى اللقاء بعد غد

فعاد الفتيان ومغيث الى الدار ، فقال الشيخ .

ماذا فعلتم ؟

فاجابه مغيث : سيجيء الرجـــلان يا مولاي

وذكر له الحديث القصير الذي جرى

ثم اخذ المغيرة ، يرده على مسامع جده ، وامه ، وسعدى خطبة الامـــير في المسجد ، وكان قد حفظها

فقالت ام مروان :

ألى هذا الحد بلغ بك الاعجاب بعبدالله يا بني ؟

قال : لو رأيته على المنبر ، وهو يلفظ خطبته ، خرجت من المسجـــد وانت تقولين : ليس بين امراء العرب مثل هذا ... جبين زاه ، وشباب نضير ، ومنطق يسحر سامعيه ، فكأنه وجد ليكون الامير النبيل والخطيب الساحر الذي يستهوي القلوب والعقول ! !

فقالت سعدى في نفسها .

صدق المغيرة

وقال مغيث . قد لا يخلق الجيل الحاضر مثل عبدالله !

فابتسمت الام وقالت . وانت يا مروان ماذا رأيت ؟

قال . لو لم يكن عبدالله ابناً لطاهر ، لكان ما يقوله المغيرة ومغيث صحيحاً لا ريب فيه ..! ولكن عيبه ، انه ابن الرجل الذي لا يهـدأ لنا بال ، الا بظهور براءته او بقتله

فهز الشيخ رأسه قائلا .

سنعرف بعد غد كل شيء ، فاما البراءة او الموت

فقال المغيرة .

اراهن ان طاهراً بريء

— ومن اين لك ان تعرف ذلك ؟

فقال مغيث . من همس سري بينه وبين الملائكة ...

وقام فخرج ، وهو يدعو الله ان يمد عمره وعمر الشيخ الى ساعة اللقاء

وعندما بلغ الامير وحاشيته القصر ، خلا بمحمد بن العلاء وقال له

كيف رأيت ابني حاتم ؟

- من احسن الفتيان ايها الامير ، وقد عرفتها صغيرين

- وباي شيء تحدثتم ؟

- بعث بها جدهما الشيخ ، مع مغيث ، ليطلبا الينا ان نزورهم

- اذن كان ما اردنا ان يكون

- نعم ، ولو لم تكن غاية ابي حاتم ان يسألنا عن مقتل ولده لما خطر له ان يدعونا اليه

قال . اما وقد تم الامر كما ينبغي ان يتم ، من هذه الناحية ، فلم يبق الا ان يصدق القوم ما نرويه لهم

قال ما من شك ، في ان ابا حاتم ، يؤمن بما نقوله له

وتحدثوا ساعة ، ثم انصرف محمد ، وبقي عثمان مع عبدالله

فدخل احد الغلمان وقال .

بالباب عصمة الحرشي ايها الامير

فدهش عبدالله ، وجعل ينظر الى عثمان وعثمان ينظر اليه ، ثم قال .

لقد ذهب دور الجنون على ما اظن ، وجاء دور الدهاء ...

فقال عثمان . ائذن له

فدخل عصمة وهو يبتسم ، ففاجأه الامير بقوله .

مرحباً بالحرشي ، الذي لم يشأ ان يزورنا الا في هذا الليل ؟

قال . جئت معمن جاء ، في هذا الصباح ، للسلام على الامير

- ولكني لم ارك مع الجماعة

- ذلك لان الناس كانوا يملأون القصر فلم استطع ان امثل بين يديك

- وكنت في المسجد ؟

- نعم ، وسمعت الخطبة البليغة التي فاه بها الامير ، ومن اجـــل ذلك اتيت الان !

- اذن لك حاجة ... فما هي

– لقد ندبت اهل الرقة للحرب ، فمتى تخرج اليها ؟

– لا ادري ، فقد يكون ذلك بعد اسبوع ، او بعد شهر .. اهذه حاجتك ؟

– نعم

= والغاية منها ؟

– ان اتهيأ لها ، واكتب الى ابي في بغداد ، ليكون قريباً من الضيعة التي له

– ولماذا لم تصبر الى الغد ؟

– لاني خفت ان تزحف الى كيسوم ، في هذين اليومين ، فآثرت المجيء الليلة لابعث بكتابي كما قلت ، قبل ان يفوت الاوان

قال . أتحب الحرب ؟

– لا ، ولكن امير المؤمنين ، وعامله في الجزيرة ، ارادا ذلك ، فلم اجد بداً من تنفيذ الارادتين ...

– انها عاطفة تستحق الشكر ايها الحرشي

– اما الذي يستحق الشكر فهو انت ايهـــا الامير ، انت الذي خلصتني من الموت يوم حكم به الخليفة في مجلسه .. ولو لم تكن حاضراً في تلك الساعة ، لما بقيت

قال . اتعلم اي شيء ، دعاني في ذلك اليوم ، الى طلب العفو عنـك من امير المؤمنين ؟

– دعاك الى ذلك الخلق العالي ، الذي جملك الله به ، والجنون الذي لزمـــني اكثر من شهرين ، في الرقة وبغداد ..

– اصبت ، فقد كرهت ان يأمر الخليفة بضرب عنقك ، وانت من المجانين

قال . انه فضل الامير سيبقى ما بقيت

– ولكن الا تقول لي كيف زال جنونك ؟

– لا ادري ، ولو لم يقل الناس لي ، بعد رجوعي من بغداد ، اني جننت ، لما عرفت نفسي ، فالجنون ، على ما ظهر لي ، كالحلم الذي لا يذكر المرء في يقظته ، شيئاً منه

- اي انك لم تكن في مجلس الخليفة ، من العقلاء
- لا ، وقد قال لي ابي ، اني كنت اضحك في ذلك المجلس ، واهزأ بما يقوله امير المؤمنين ...
قال . ألم تبغض المأمون يا عصمة ، قبل جنونك ؟
- لم اجد سبيلا الى هذا البغض
- ولكنك كنت تسبه وتلعنه امام اهل الرقة ، بعد ان جننت ، فما معنى ذلك ؟
- لا استطيع انا ، ولا يستطيع غيري ، ان يدرك معناه
- واليوم .. أتحبه ؟
- كما احب رسول الله
قال . هذا اسراف في الحب .. اذن تريد ان يظفر بنصر ، وبجميع الخارجين عليه ؟
- بل اريد ان تدين له الدنيا ، ما خفي منها وما استتر ...
- اذا كان الامر كما تقول ، فاكتب الى ابيك ، واستعد للقتال ..
قال . لي كلمة اخرى
- هات ...
- التمس من الامير ان يجعلني في كتيبة الحرس ! !
قال . الا تحارب الا اذا كنت من الحراس ؟
- لا ، ولكن لاقوم بما يجب علي نحوك ...
قال . لا احتاج باذن الله الى من يحرسني ، فالله حارسي ، وليقم كل واحد منا بواجبه ، دفاعاً عن الخلافة
قال . استحلفك برأس امير المؤمنين ان تصغي الى رجائي
- ان كتيبة الحرس ، ستهاجم الصفوف في الساحة ، مع الكتائب الاخرى ، ولن تبقى بالقرب من الامير ، فاذا اردت انت حراستي ، فافعل كما تفعل
قال . اخشى ان يغدر بك احدهم وانت في مؤخرة الجيش ... !

القلب والمقدمة ، والجناحين ، كالجندي الذي يحفظ كرامته ، ويفعل ما يمليه عليه الشرف ، دون ان يستعين بسيف غير سيفه ، واما اذا استطاع احدهم ان يغدر بي ، فذلك قضاء من الله لا اقدر على رده ، ولا يقدر الحرس ، ولو كانوا كلهم عيوناً ، ان يمنعوه

واشار الى عثمان قائلا :

لم ارد ان يكون لي ، في السلم والحرب ، رفيق غير هذا ... أتعرفه ؟

ـ انه عثمان بن ابراهيم

قال : يكفي ان تعلم ، انه الرفيق الذي ليس لي غنى عنه ، فاذا كانت لك حاجة ، فاسأله قضاءها فهو ينوب عن الامير في قضاء الحاجات ...

وقبل ان يخرج الحرشي ، من قصر الامارة ، كان مغيث قد خبر زينب بما جرى في المسجد ، وطلب اليها ان تشهد بعد غد مجلس المحمدين مع جدها الشيخ ..

فبدا البشر على محياها وقالت :

اواثق انت ان طاهراً لم يكن غادراً ؟

= سترى سيدتي غداً ، اني كنت على حق ، عندما قلت ان مثل طاهر لا يفكر في الغدر

ـ وهل عرفت غاية عصمة ، من الذهاب الليلة الى قصر الامير ؟

ـ عصمة عند الامير ؟ !

ـ نعم

ـ ومن قال لك ذلك يا سيدتي ؟

ـ هو نفسه ، ولكنه لم يذكر الغرض الذي ذهب من اجله

ـ اذن سأكون في القصر بعد لحظة ، فزوجك يا سيدتي يبغض عبدالله ، كما يبغض البشر جهنم ، وانا اخافه عليه ..

فخفق قلبها وقالت :

أيجسر على ... « ولم تجسر على ان تلفظ كلمة : قتله »

قال : لا يجسر على شيء ، والامير في قصره ، وبين حرسه ، وتنده عثمان

بن ابراهيم .. ولكن من يدري ، فعصمة لا يؤمن شره ، وقد ينصب الليلة شركاً يسلط فيه الامير بعد شهر ! !

ووثب وثباً الى الباب وهو يقول :

الويل له ... الويل له ...

وطواه الظلام

على انه خرج عن الطريق الذي يؤدي الى القصر ، الى طريق آخر قريب من الشاطىء ، خوفاً من ان يراه الحرشي

وكان عبدالله وعثمان ، بعد انصراف عصمة ، يعرضان موقفه ومأخيه ، وعبدالله يقول : اي رأي لك فيه يا عثمان ؟

ـ اعتقد انه يريد ان تقربه اليك لشر يريده ، وسيظهر بعد حين ... ان هذا اللعين لا يعرف الوفاء ..

واستأذن الغلام لمغيث ودخل

وقد حبس الامير وعثمان انفاسهما ليسمعا ما يقول ، فقال :

اكان عصمة الحرشي بين يديك يا مولاي ؟

ـ اجل

ـ ارجو ألا تثق باكاذيبه فهو الخائن النذل الذي لا يعترف بجميل

ـ اما انا فقد رأيت الاخلاص في عينيه ، وجعلته من الحرس !

ـ مولاي

ـ وماذا تخاف يا مغيث ؟

ـ اخاف ان يطعنك من الوراء فالحراسة لا يعهد فيها ، الى الذئب

قال : لقد انتهى الامر الان ...

ـ انه عدوك يا مولاي

ـ لا اعرف لي عدواً غير الطائيين

قال : ان هؤلاء الاعداء ، سيصيرون بعد غد من الاصدقاء

ـ ومع ذلك ، فلم يبق من سبيل الى الرجوع عما فعلت

فالتفت الى عثمان قائلا :
كن ذلك الرجل ، فحياة الامير بين يديك ..
وتساقطت دموعه على خديه .
فنهض عبدالله ، ووضع يده على كتفه وقال :
ان لي في كل يوم ، برهاناً على وفائك ، فاطلب ما تشاء ..
قال : ارجو من مولاي ان يبعد الحرشي عن قصره ، وعن حرسه ..
- لا مقام له في القصر وبين الحرس ، وماذا ايضاً ؟
- وان تحذر منه ، في الرقة وفي ساحة القتال
فقال عثمان : طب نفساً فالذئب لا يستطيع ان يغدر بالاسد
وكانت دموع مغيث ، ابلغ دليل على النبالة والحب ...

● ● ●

٣٨

سيار ؟ ألم تترك الرقة مع سيدك سليمان بن سعد ؟
- بلى
- واين انت اليوم ؟
- هنا في هذا البلد كما ترى
- وهل عاد سليمان اليه ؟
- .. لا ..
- اذن فكيف رجعت

- لم ارجع مختاراً ، ولكنه غضب علي فطردني من الخدمة
- وفي اي شيء كان هذا الغضب ؟
- شتمني غلام له صغير فضربته
- ومتى قدمت ؟
- في الليل الذي مضى ، وانا لا استلذ العيش الا في الرقة ، لانها المدينة التي نشأت فيها
- والى اي اقليم رحل سليمان ؟
- الى قرية صغيرة ، في اقليم الشام ، تدعى « المعلى » وهي في الغوطة
- وفياض بن قيس ؟
- انه هناك ، والاثنان يسألان الناس دائماً عن طاهر بن الحسين ، حتى انتهى اليهما اخيراً ان امير المؤمنين استعمله على خراسان
- وعرفت لماذا يكثران من السؤال عنه ؟
- اجل ، وقد احتفظت بما اعلم الى هذا اليوم ..

فقال مغيث :

تعال نجلس تحت النخيل على الشاطىء ..

وعلى ذلك الشاطىء ، روى الخادم سيار ، للعبد ، رواية طويلة اشرق لها وجهه ، وطابت نفسه

ثم جعل الاثنان يتهامسان ...

ولم يلبث مغيث حتى اخرج من كمه الف درهم وقال لسيار :

استعن بهذه ، فالمال الذي يحسنون به الي احسن ببعضه اليك ، والى اللقاء ..

قال : في اي يوم ؟

- لا ادري الان ، فقد يكون ذلك غداً او بعد ايام .. ولكن اين اجدك ؟
- في خيمة معاوية الكوفي ، الذي يبيع اللبن والتمر

قال : احفظ ما اوصيتك به

ـ ساعيد على مسامع القوم ، ما قاله الرجلان دون ان انسى كلمة

قال : ان لم استطع انا ان اجيء اليك ، جاء المغيرة

قال : افعل ما شئت ، وسأفعل ما يجب

فودعه مغيث وانصرف ، ليقص على سيده المغيرة ما سمع ، ويضع الاثنان خطة العمل المثمر ، الذي ينبغي ان يقدما عليه

• • •

دخل المحمدان ، في صباح اليوم الثالث دار الطائيين

فعانقهما الشيخ الاعمى ، بشوق وحب، واستقبلتهما ام مروان ، وبنوها الاربعة ومعهم الحرشي ، بمظاهر الرحابة والانس

وجعل مغيث ، يعد المقاعد للقوم ، وهو ينظر الى زينب ، من حين الى حين ، فيرى ، ان تلك الكآبة ، التي كانت تغمر وجهها ، تكاد تضمحل ...

وبدأ ابو حاتم يذكر الماضي .. ايام كان للشباب عنفوانه وزهوه ... ويصف المواقع التي خاض غمارها مع كبار القواد ، في العراق ، والشام ، وفلسطين ، ثم ينتقل الى ذكر الحروب مع الروم ، في هرقلة ، وما حولها ، الى ان قال :

وكان حاتم ، منذ جاوز السادسة عشرة ، الى ان قطعت يدي ، يسبق فرسه فرسي في الميادين ، ويبلي في كل واقعة ، على صغر سنه ، احسن بلاء ...

ثم تنهد وقال :

ولكن هذا الزمان ، الذي طغت فيه النذالة على نبالة الخلق واستولت الخيانة والطمع ، على نفوس الرجال الذين يعيشون فيه .. ان هذا الزمان الذي رفع النذل ، وسود الجبان ، اصابني بالنكبة الكبرى ... بمقتل ولدي .. الذي امتدت اليه يد الغادر طاهر بن الحسين ، قتله الله ...

فساد الصمت لحظة ، وخفقت القلوب ..

على ان الحرشي ، لم يشأ الا ان يقول ساخراً :

وكأن ابن الحسين ، كان يخاف ، ان تخونه اليد الواحدة .. فضربه بالاثنتين ، وسمي بعد ذلك ذا اليمينين ...

فقالت ام مروان :

واغرب من هذا كله ، ان القاتل كان جاراً لنا ، وكان حاتم من احب الناس اليه

فاجابها الحرشي :

غير ان هذا الصاحب والجار ، كان من طبعه الغدر ...

وابن العلاء وابن طالوت يبتسمان !

وقد قلقت زينب وسعدى لسكوتهما ، ولهذا الابتسام الذي لم يكن له لون يعرف به ...

اما المغيرة ومغيث ، فكانا مطمئنين ...

ثم قال الشيخ :

ومع ذلك فالناس يقولون ، هنا وهناك ، ان طاهر بن الحسين ، هو رجل الدولة ، وبطل خراسان والعراق ، وهو قادر على ان يحط خليفة ويرفع اخر ... ولو انصفوا لقالوا : انه الخائن الاكبر ، الذي لا يرعى حرمة ، ولا يقيم على عهد !

واتجهت الانظار عندئذ الى الرجلين

فقال ابن طالوت وهو هادىء :

الم يكن علي بن ماهان ، قائد جيش الامين في الري ، وقد سلمت اليه امجعفر « زبيدة زوجة الرشيد » قيداً من الفضة ، يقيد به المأمون ، ويحمله ، ذليلا صاغراً ، الى قصر الخلافة في بغداد؟

— بلى ..

— وحاتم رحمه الله ، الم يكن من رجال علي ، وقد خرج من الرقة ، على رجاء ان يبلغ الغاية من الظفر ؟

- بلى

- الم يكن يعلم ، انه سيحارب طاهراً ، ويبذل الجهد كله ، للقضاء عليه ، وعلى من يتردد في البيعة ، لخليفة بغداد ؟

- بلى

- فاية حرمة ، واي عهد بقيا اذن ، بينه وبين طاهر ؟ !

فلم يجب فقال :

اننا نحن الاثنين ، من اصحاب حاتم ، ومن رفاقه في السلم ولكن كنا في الري ، من خصومه ، وخصوم القائد الذي انضم اليه ، أفي هـــذا نكث للعهود ، وانتهاك للحرمات ؟

- لا ..

. - وهل عرفت يا ابا حاتم ، وانت من رجال الحرب ، ان في الساحة مجالا لحفظ الصحبة ، والقيام بواجب الوفاء ؟

فقال نحن لا نتحدث بمثل هذا

فتجاهل الامر وقال : وبماذا اذن ؟

- بذلك البراز المشؤوم ، الذي انتهى بقتل ولدي خيانة وغدراً ..

قال : ارجو ان تقول لي ، كيف انتهى ذلك البراز ؟

قال : همز حاتم فرسه ، وتوسط الميدان ، فخرج اليه طاهر نفسه ، وضربـــه بالسيف ، قبل ان يتهيأ لامره ..

- اما انا فاقول لك ، ان الذي قص عليك هذه الحكاية ، اكذب خلق الله ..

- لقد قيل لنا ، انك شهدت البراز ، أهذا صحيح ؟

فاجابه ابن العلاء قائلا :

نعم وشهدته انا ، وكنا في الصف الاول نرى كل شيء

فاستوى في مجلسه وقال :

اذا شئت فصف لنا ما رايت

قال : لم يعلم طاهر ، ولم نعلم نحن ، ان الذي جال على فرسه وطلب البراز

هو حاتم

— وكيف ذلك ؟

— ذلك لانه لم يكن سافراً ، حتى ان الفرس الذي ركبه لم يكن له !

فجعل يهز رأسه ويقول :

رواية لا صحة لها ، وقد سمعناها من قبل !

قال : ألا تثق بنا ياابا حاتم ؟

— بلى ، ولكن اخشى ان تخلقا العذر ، للرجل الذي نكبني بولدي

قال : والذي نفسي بيده ، لم اذكر لك غير الذي رأته عيناي ... ولما قيل لطاهر بعد المعركة ، ان ابا مروان هو قتيله ، وضع رأسه بين يديه وقال :

لو خسرت نصف الجيش ، وبقي حاتم ، لكان ذلك خيراً لي .. ثم اخذ يردد امام اركان الحرب هذه العبارة :

غفر الله لحاتم ... لقد دفعه تنكره الى المـوت ، ولو علمت انه هو ، لاغمدت سيفي ، وتركت البراز

وقال ابن طالوت :

وانا اقسم بالله الذي لا اله الا هو ، ان طاهراً لم يعرف ابا مروان عندمـا اهوى بالسيف ، ولم يغدر به كما قيل لك

— ولكن ، ما الذي دعا حاتماً الى اخفاء وجهه ؟

— لا نعلم ، على ان بعضهم كان يقول . عز على ابي مروان ان يرى طاهر وجهه ، فاخفاه ، وركب فرساً غير فرسه ..

قال : لا تخدعا الشيخ المنكوب في آخر عمره

قال : ادع الراوي الكذوب ، واجمعنا به ، فتعلم ...

قال : ترك الرقة فلا وصول لنا اليه

— ومن هو ؟

— سليمان بن سعد

— هذا كان في همذان ، مع عبد الرحمن بن جبلة ، الذي قتل

ـ وهنالك رفيق له يدعى فياض بن قيس

ـ فياض بن قيس ! ؟ البصري اللعين ؟ اني اعرفه كما اعرف ابن عمه موسى ، الذي أكل الخراج ، فأكل خمسين سوطاً امر بها الرشيد وقتئذ ، ووضعه في المطبق حتى شفع فيه الى الامين ، الفضل بن الربيع ، عدو الله ، فعفا عنه ونفي الى الموصل ثم قال :

والله ان هذا الرجل ، لم يعرف الصدق زمانه كله ، ولو اعطاه احدهم منه درهم ، لتخلى عن الامين ، في ذلك الحين ، وانضم الى اخيه ...

فخرجت زينب الى الدهليز ، لتمسح دموع الفرح ..

ثم رجعت ، وكان عصمة يقول لابن العلاء :

أتظن ان الرجلين ، لفقا رواية القتل ، على الصورة التي عرفنا ، ثم اقبلا يقصام على الناس ؟

ـ هذا لا شك فيه ..

ـ وما هو غرضها ؟

ـ اما غرضهما ، فبغض خلقته السياسة ، والهزيمة التي مني بها جيش الامين ، وهما من افراده ، والحسد الذي لا يعرف الهوادة واللين

ـ ولكن سليمان كان يقسم كما اقسمت انت ، انه صادق فيما رواه ..

فنظر اليه المغيرة ومغيث ، نظرتين لهما مغزاهما

وقال ابن العلاء :

اقسمت لاني رأيت ... وانا اشهد امام الله والناس ، اني وصفت الحادث كما هو ، لم ازد ولم انقص فيه . واما سليمان ، فقد كان قسمه اثماً وكذباً ، لانه لم يكن يومها في الري ، ولم ير شيئاً

قال : نحن نعلم انه لم يكذب ! !

ـ ونحن نعلم انه كذب ... وما نبالي اذا انت آمنت بما نقوله او لم تؤمن . فالقضية قضية ابي حاتم ، وام مروان وبنيها ، وليس علينا الا ان نذكر الحق لا نخافك ولا نخاف غير الله

وحول وجهه عنه يقول لابي حاتم :

ألم يقل لك احد من اهل الرقة ، الى اين سار الرجلان ؟

- لا ...

= وضاع اثرهما ؟

- نعم

- اذن سأسأل الامير اليوم ، ان يتولى رجاله امر العثور على هـــذا الاثر ،

فقال المغيرة :

رأيت ، في خيمة معاوية الكوفي ، خادماً لابن سعد ، يقال له سيار

- وسألته عن سليمان ؟

= لم اسأله عن شيء ولكني عرفته

فقال الشيخ لمغيث :

اتعرف الرجل ؟

- نعم يا سيدي

- علي به الساعة

فاصفر وجه الحرشي ، وهو لا يدري ، اي شيطان حمل سياراً الى الرقــة في لك اليوم ، كما انه لم يكن يدري ، ايكون وجوده خيراً ام شراً ..

وخرج مغيث ، وكأن له جناحين ..

ولم يلبث حتى عاد ، وهو يقول :

هذا سيار ، وقد ترك خدمة الرجل

وكان الخادم وراءه ، فقال ابو حاتم :

ادن يا سيار وقل لي ، اكنت مع سليمان قبل ان يرحل من هذا البلد ؟

- نعم

- وعندما رحل ؟

- رحلت معه ..

ــ الى الكوفة ؟

ــ الى الجــــانب الآخر يا سيدي ، انه في ارض الشام ، في زاوية من زوايا الغوطة تدعى المعلى

ــ وهو باق فيها ؟

ــ نعم

ــ وفياض بن قيس ؟

ــ انه جاره هناك ، كما كان جاره هنا ، وسيمكثان بالمعلى لا يخرجان منها الا الى القبر ! !

ــ اي انهما لن يعودا الى الرقة

ــ ابداً . . .

ــ وتعرف لماذا ؟

ــ لانهما يخافان طاهر بن الحسين

ــ يظهر ان بينه وبينهما عداوة . .

ــ فجعل يتلفت الى جانبيه ، كأنه يخشى ان يبوح بما يعلم . . .

فقال مروان :

قل ما هي علاقة الرجلين بطاهر ؟

فتردد في الجواب ، فقال :

تكلم ولا تخف

قال : ليس لي ان افشي اسرار وجل مرت الاعوام وانا في داره . . !

ــ ولكن الامر انتهى بينك وبينه ، وهو بعيد عنك . .

فقال الشيخ :

الا تعرف مروان والمغيرة ؟

ــ بلى يا سيدي ، اعرفها ، كما اعرف ام مروان ، وكما كنت اعرف حاتما

ــ وهل تظن اننا نريد بك سوءاً ؟

ــ لا

- اذن قل ما تشاء فليس فينا من ينقل الى الناس ، ما تحدثنا به

قال : لم يكن بين الرجلين وبين طاهر عداوة ..

- وماذا اذن ؟

- اتهماه بانه غدر بابنك ؛ ولم تكن التهمة صحيحة على ما علمت

فجعل الشيخ يقول : ادنُ ايضاً يا سيار !

فدنا ، حتى حاذاه ..

فوضع يده على ركبته وقال له :

اعد ما قلت يا بني

فأعاده ...

فاشرقت جباه القوم ..

الا الحرشي ، فقد اضطرب اضطراباً شديداً ، ثم قال :

أكنت تشرب الخمر عند معاوية ؟

فاجابه دون ان يلتفت اليه :

ليس عند معاوية غير اللبن والتمر ، ومثلي لا يشرب الخمر !

- غير ان كلامك كلام سكران ...

فابتسم قائلا :

ستعلم بعد لحظة واحدة يا سيدي الحرشي ، ان كلامي كلام رجل صاح يعي ما يقول ...!

فرفع الشيخ صوته وقال :

دعني اتكلم يا عصمة ... قل يا سيار .. ماذا جرى بعد ذلك ؟

- اما ما جرى بعد ذلك ، فقد كانت لسليمان وفياض غاية ، هي ان يظهرا طاهراً ، عند اهل الرقة ، بمظهر المجرم السفاح ، الذي قتل حاتماً ، وأمر ، وهو في الري ، بقتل الفتيان الذين استسلموا والقوا السلاح !

- وتم لهما ما ارادا ...

- اجل ، وكان طاهر امير الجزيرة يومذاك ، وقد خرج الى كيسوم لقتال

نصر ، فبلغهما انه سيدعوهما اليه بعد رجوعه ، ليسألهما عما اشاعا ، فخافا ان تسوء العاقبة ، فاعدا عدة السفر في ليلتين ، ثم رحلا يخفيهما الظلام عن العيون ! !

فقال ابن العلاء :

وهل فكر طاهر ، في ان يدعوهما اليه كما تقول ؟

— لا ، لم يفكر في ذلك ، ولم يكن يعلم ان في البلد اشاعة تجعله من المجرمين

— اذن فالذي نقل اليهما الخبر كان يهزأ بهما ..

— نعم ، وكان له هو الآخر ، غرض لم ادر ما هو ..

— وكيف تبينت غرضه ؟

— سمعته يزين لسليمان الخروج من الرقـــة ويدفعه الى الفرار منها قبل رجوع الامير من كيسوم

فغمرت البهجة الوجوه ... وتنهد الشيخ تنهد الفرج ، ثم قال :

واين كان ذلك ؟

— في دهليز الدار ، التي كانت لسليمان !

فانتهره الحرشي قائلا :

من اين لك ، وانت من احقر الخدم ، ان تعلم كل هذا ؟ !

فابتسم مرة ثانية وقال :

سترى يا سيدي ، ان احقر الخدم ، هم الذين يعلمون الاسرار

وجعل يتفرس فيه ، وهو لا يبالي ..

فقال الشيخ ..

وعرفته يا سيار ؟

— نعم يا سيدي ، ولم اكن سكران في تلك الساعة ... بل كنت في فراشي وراء البهو ، اصغي الى حديثه مع الرجل ! !

— ويلك .. قل من هو ..

— هو عصمة بن عبدالله الحرشي ، الذي يعرف اني لم اذق النبيذ ...

فاستغرب القوم ما سمعوه ، واتجهت النظرات الى عصمة ...

اما هو فجعل يقهقه .. ليخفي اصفرار وجهه ، وارتجاف شفتيه
فقال له ابو حاتم :
أصحيح هذا يا بني ؟
- نعم ، فقد بلغني في ذلك الحين ، ان طاهراً سيأمر بقتل الرجلين ، فنبهت سليمان للامر ، ولم ار فياض بن قيس
- واي شأن لك مع سليمان ؟
كرهت ان يضرب عنقه ، فخبرته بما قيل لي ، فترك الرقة
- ولكنك لم تذكر لنا شيئاً من هذا ؟
- خفت ان ينتشر الخبر ، فتذهب حياة الرجل ، الذي هو صديق ابي ...
وكان الشيخ في تلك الساعة ، قاضياً رصيناً هادئاً ، يستجلي ما غمض ، ويسبر الامور ، فقال لسيار :
وهل ذكر الاثنان ، براءة طاهر ؟
- لم اسمع لفظة البراءة ، ولكن دلني حديثهما ، وخوف سليمان ، على ال. . ي. . .
قال . احذر .. فالامر اعظم مما تظن
قال : برئت من دين الله ان كنت كاذباً
فقال المغيرة لجده
الم تقل لنا من قبل ، انك تطمئن الاطمئنان كله ، الى شهادة القائدين اللذين طلبت اليهما ان يزوراك ، وهما الان بين يديك ؟
- بلى
- وهل تظن ان خادم سليمان ، الذي اوجدته الصدفة اليوم ، في الرقة يخترع الحكاية التي اعترف بها عصمة نفسه ؟
- لا
- اذن لم يبق الا ان تسلم ، بان ابانا حاتماً ، قتيل حرب لا قتيل غدر ...
وقالت ام مروان :

اما انا فقد امنت الان بأن طاهراً بريء

وكذلك قال مروان وسعدي ..

حتى ان الحرشي ، لامعانه في السياسة والدهاء ، اعترف بالبراءة ..!!

غير ان زينب لم تقل كلمة ، وقد بدأت تحس باللوعة والندم على ما فات ..

وايقنت بان اعتراف زوجها ببراءة طاهر ، اعتراف زائف كاذب ، يخفي وراءه اشياء لا يعلمها الا الله ..

وكان الشيخ يفكر في الامر ، وهو ينكت الارض بعصاه

فقال ابن العلاء :

كلمتك يا ابا حاتم

فقال : خذوني الى دار الامارة ، فأرى بعيني المغمضتين ، عبد الله بن طاهر ، واقول كلمتي ..!

قال : الم تصدق ما ذكرناه لك ؟

— ليس لك ان تسألني الان عن شيء ... خذوني الى الغلام ، الذي كان يلعب في فناء دارنا ، ويركض وراء الخيل !

قال : اعدو انت ام صديق ؟

قال : اسير اليه ، وانا بين الاثنين ، العداوة والصحبة ..

— اذن فانت تشك فيما نقلناه اليك

— لو كان الشك هو الغالب علي ، لما خطر لي ان اسمع صوت عبدالله ، قوموا نذهب

فقاموا فخرجوا ، ولم يبق في الدار غير النساء ،

فقالت زينب لاختها :

غفر الله لمن جعلني زوجة لهذا الرجل ..

فاجابتها قائلة :

ذلك هو القدر لا غفر الله له ...

وكنت ترى زينب باكية ، ثم تراها ضاحكة .. ! تعبس لها الدنيا ثم تبتسم ، وهي كالريشة في مهب الريح ..

• • •

ماذا رأيت في المعسكر يا ابا علي ؟

قالها عبد الله للحسين بن عمر ، وهو في مجلسه

فقال الحسين :

الجيش في الخيام ايها الامير ، وقد شحذ سلاحه ، وتهيأ للامر :

— بقي ان تستعدوا للمؤونة ، وترسلوا الى رجال العشائر ان يجيئوا ، ومعهم النوق الصالحة للسفر

— ومتى نخرج الى الحرب ؟

— بعد بضعة عشر يوماً .. واما انت يا عثمان ، فقل لافراد الحرس ، وكتيبة الفرسان ، ان يذهبوا بخيلهم كل صباح ومساء الى عرض الصحراء ، ثم يعودوا بها ذهاباً واحضاراً ..

— لقد بلغهم امرك ، وسيفعلون ذلك منذ اليوم .

وجعل يختار المواقف ، التي ينبغي ان يقف فيها اركان الجيش ، وهم في ساحة الحرب ...

قال لاحمد بن يحيى ، بن معاذ :

ستقود انت الجناح الايمن ومعك عباد بن جعفر ، وكن انت يا ابا علي على الجناح الايسر

فقال عثمان :

والقلب ايها الامير ؟

— اما القلب فسنجعل له ايضاً جناحين ، يتولى احدهما محمد بن طالوت ، ويقود

الاخر محمد بن العلاء ، ويبقى الحرس والصفوف ، بين هذين الجناحين ، لي والك

ـ والفرسان ؟

ـ يقفون عن يمين الجيش وشماله حتى تبلغهم اشارة الهجوم

ثم قال :

من هم رجال الجناح الايمن ؟

فقال الحسين : خليط من اهل الموصل ونيسابور

والجناح الاخر ؟

من كربلاء والكوفة ، وبغداد

ـ واهل البصرة والشام ؟

ـ في القلب وبين الفرسان

ـ بقيت كتيبة الحرس

ـ هؤلاء مزيج من اهل العراقين ايها الامير وهم من ابطال العرب ..

ـ وقائدهم العباس بن بلال ؟

ـ نعم وهو من اصدق المسلمين في خدمة الخلفاء ، وقد قضى في الجيش ثلاثة وعشرين عاماً كان فيها كلها ، الجندي الباسل ، الذي يقتحم المنية من اجل امير المؤمنين

ثم قال :

الا يعرف الامير جميع الذين ذكرت ؟

ـ عرفتهم يوم كنت في الرقة ، ولكني ظننت ان يحيى بن معاذ ، خالف بين الصفوف .. وقال لعثمان :

اتريد ان تكون القائد الثاني لحرس الامارة ،

ـ اريد ان اظل الخادم الامين الذي لا يترك اميره ولا يغفل عنه

ودخل الحاجب فقال :

في رحبة الدار شيخ اعمى يتهادى بين القائدين ابن العلاء وابن طالوت

فقال : اهو الطائي يا عثمان ؟

فاطل الفتى على الفناء ثم قال وقد استولى عليه البشر :

ابو حاتم وحفيداه ، وعصمة يتبعهم مغيث ..

فقال في نفسه : لقد انتهى الامر ،

ثم قال للحاجب ائذن لهم

واومأ الى اعوانه فانصرفوا

فلما اقبل القوم ، سمع ابن العلاء يقول للشيخ :

هذا مجلس الامير ، فقال :

وهو هنا ؟ فقال عبد الله :

نعم هنا وهو الذي يستقبلك ..

واخذ يده بين يديه وهو يرحب به .

وقبل ان يحييه الاخرون ، قال ابو حاتم

احب ان اعلم الان من اخاطب ، أأمير الجزيرة ومصر ، ام الغلام عبد الله بن طاهر ، الذي عرفته وهو طفل ؟

قال الغلام عبدالله :

فقال الم تريا عبد الله ، ان الله اسبغ عليك نعمته ، وان امير المؤمنين اثرك على جميع الرجال الذين كانت لهم منزلتهم في دولة ابيه ، ولهم المنزلة نفسها في دولته ؟

– بلى

– وهل تطمع وانت ذو الامارتين ، واعظم من امراء الاسرة المالكة انفسهم ان تزداد رفعة ؟

– لا واني لا استحق ما انعمني به الله عز وجل

– اذن فانا استحلفك برأس ابيك ، وبهذه النعمة التي تتمتع بها ، ان تجيبني بوضوح وجلاء عما اسألك عنه

فادرك الامير مغزى كلمته فقال :

اجلس ولنتحدث

لا والله ، لا اطأ بساطك ولا اجلس على مقعدك ، الا بعد ان تزول الريبة

من هذا الصدر

فابتسم قائلا : سأجيبك عما اعلم لا اخفي شيئاً والله يشهد

—ماذا تعلم عن مقتل حاتم ؟

—اعلم ان ابي هو قاتله

و كيف قتله

قال : بالسيف ...

قال : انا لا اسألك عن هذا

— وماذا اذن

— اكانا في براز؟

— نعم

— قيل لي انه غدر به !

— وهل سمعت من احدهم ان طاهراً غدر بمسلم ؟

فقال المغيرة :

سمعناها من سليمان بن سعد ، وفياض بن قيس !

قال : علي بهما فانا لا اعرفهما ..

— انهما بعيدان عن الرقة

فقال الشيخ : ما لنا ولهما أفلا تذكر لي كيف قتل ابني ؟

— ان ابي لم يبارز حاتماً ، وانما بارز رجلا مجهولا لا يبين من وجهه غير عينيه .
ولم يندم قط على قتل رجل ، ندمه على مقتل حاتم

— وتحلف لي يا عبدالله ؟

— خير لي ان يأخذ الله روحي ولا اكذب .. نعم احلف لك

فمد يديه الى الامام قائلا :

تعال اضمك الى صدري فقد صدقت ، ولعن الله الكذوب الذي افسد بيننا
وجعل الواحد منا عدو الآخر ..

ثم قال : اين انت يا مروان ، واين المغيرة .. عانقا الغلام الذي كنتما تلعبان

معه ... والان فمر لنا بالجلوس ايها الامير

وعندما استووا في مجالسهم ، اراد ان يظهر عطفه امام الجماعة ، على مغيث ، فقال له :

اجلس فقد تم الصلح الان ولم اعد اخاف خنجرك .. اتذكر يا ابا حاتم انك ارسلت هذا الرجل ليفتك بطاهر ؟

- اجل ، واذكر اني لعنت طاهراً اكثر من الف مرة ، ولو استطعت ان اطعنه بيدي ، واكرع في دمه ، لفعلت

قال : لو كان مغيث ، قد تعود الاغتيال والغـــدر ، لكان ابي اليوم تحت التراب ... ولكنه كان خائفاً على ما ظهر لي

وكانت عينا الحرشي ، في تلك الساعة ، ترسلان ألسنة نار ...

فقال الشيخ : اصحيح انك اعطيت مغيثاً الف درهم ؟

- نعم

- وفي اي شيء استحق احسانك ؟

- في اعترافه بكل شيء ولو لم يعترف لضرب امير المؤمنين عنقه

وطاب له عندئذ ، ان يعبث بعصمة ، فقال له :

متى تنضم الى الجيش ؟

- يوم يريد الامير

قال : سينادى غداً في المساجد والشوارع ليتهيأ الناس

قال : سأكون اول من يتقدم الصفوف ...

- ولكن احذر ، وانت في المعسكر ، ان تذكر امير المؤمنين بكلمة ، كما فعلت من قبل امام المسجد

فغض طرفه ولم يجب ، فقال :

لقد قبل امير المؤمنين يومها ، شفاعتي فيك ، اما انا فلا اصغي الى شفاعـــة وسيكون الموت عقاباً لك ان فعلت

قال : لقد انقضى عهد الجنون ، ولن يعود

فقال لابي حاتم :

اعلم انكم كنتم ، مع معظم اهل الرقة ، على دعوة الامين ، وكان هوا كم فيه فهل بقي هذا الهوى بعد موته ؟

— كنا كما تقول ، ولكن لم يبق لنا اليوم غير خليفة واحد هو المأمون ، فنحن في طاعتـه وطاعتك ، وسترى ان حفيدي سيكونان مـن اشد الناس اخلاصاً له ، فقال الفتيين :

ماذا تقولان ؟

فقال مروان ، ليس لنا ما نقوله ، ولكن نفعل ...

— وتسيران الى القتال ؟

— نعم فقد سمعنا خطبة الامير في المسجد ، وليس هنالك ما يمنعنا من الدفاع عن الخلافة

— واي الـكتائب احب اليكما ؟

— الكتيبة التي يراها الامير

— اذن ليس لكما شرط كشرط الحرشي ... اراد ان يخرج الى القتال ، على ان يكون من الحرس ، وغايته من ذلك ان يحفظ حياتي ...

فقال ابن العلاء :

كما اراد ان يحفظ حياة سليمان بن سعد

قالها وهو لا يريد ان يسيء اليه .. فقال الامير :

— وكيف ذلك ؟

— مهد له ، ولفياض بن قيس ، سبل الفرار من الرقة

وخبره بما رواه سيار ..

فقال لعصمة :

هنيئاً لك ، فقد خلقت لتنقذ حياة الاخرين ...

وكان يقول في نفسه :

كثيرون هم الاعداء ، الذين يلبسون مثلك ايها الحرشي ، ثياب الاصدقاء :

ثم قال لابي حاتم :

الأذن لحفيديك ان يذهبا الى كيسوم ؟

– ينبغي لكل عربي في الرقة ان يذهب الى حيث يذهب الامـير ، ولكن الامر في ذلك لام مروان ، وليس لي ..

فقال مروان :

سنأذن لنا ، وسنقاتل الخوارج تحت لوائك حتى تظفر ...

وعندما ارادوا الانصراف ، سبقهم مغيث وام عثمان ، التي سمعت كل ما قيل لتقصا على زينب ما تحدث به القوم في مجلس عبد الله

وقد احست ام مروان وسعدى ، بعد رجوع الجماعة ، ان الزمان الذي تجهم لهم وجهه ، عاد الى الابتسام ..

غير ان زينب ، كانت ترى ، ان ابتسامته فيها القهر والمرارة ، والالم ...

وقد صدق عبد الله في قوله لام عثمان :

ان براءة طاهر ، ستكون حسرة ولوعة في قلب زينب .

ولا تنس ، وانت تقرأ هذه السطور ، ان الحرشي كان اكثر الناس فرحاً في في ذلك الخين ، فيوم الخلاص من عبد الله بن طاهر امسى غير بعيد ..

فالى كيسوم يا عبد الله ... وسيرى الجيش يومئذ ، ان ذلك الجنون ، الذي نام طويلا ، وكاد يغيب اثره ، سيستيقظ من جديد ...

• • •

٣٨

تولى طاهر شؤون خراسان ، وادارها كما ادار كل عمل عهد اليه فيه ..

انه رجل ذكاء وادب ، وسياسة وحرب ودهاء وحكمة ، ولم يكن لاحد من القواد والعمال ، مثلما كان له من قوة الارادة والحزم

يشبع الامر بحثاً ودرساً ، ثم يمضي فيه لا تثنيه المصاعب ولا يقف في وجهه خطر .

وكان يريد ان يفعل عماله كما يفعل ، وان تكون لهم العزيمة الثابتة لا يتراجعون عند الشدة ، ولا يترددون في القضاء على الفتن .

ومن اجل ذلك ، كان يختار اشدهم شكيمة ، واصلبهم عوداً ، ويرسلهم الى النواحي البعيدة في الولاية ، يجبون خراجها ، ويحملون لواء العدل بين اهلها ، ويحفظونها من عبث العابثين

وليس لطاهر في حزمه وصلابته حد ، وكثيراً ما كانت عزة نفسه هي التي توحي اليه بما يفعل ، وتسيطر على ارادته

لقد قرأت في فصل سابق ، ان المأمون ذكر مقتل اخيه الامين ، فبكى ..! ثم تنكر لطاهر

وان القلم ، ليقف متحيراً ، عند هذا التنكر الفجائي ، الذي لا يجد سبباً له ان طاهراً وهرثمة ، هما اللذان اجلسا المأمون على العرش ...

ولو لم يقتل الامين ، لظل المسلمون حزبين قويين ، في العراق وخراسان ، وظل الامين والمأمون ، يتنازعان السلطان ، ويمشي الواحد منهما ، الى مقعد الخلافة على جثث الابرياء !

اذن فموت الامين ، كان حياة لاخيه ، وطمأنينة للامة بعد خوف ، وسلاماً بعد حرب ...

ونحن الان ، في فجر السنة السابعة ، بعد المئتين ، وقد مر على الحادث تسعة اعوام .. ! فلماذا لم يتنكر المأمون لقائده العظيم ، على اثره ، ولماذا لم يذكر اخاه ، الا في هذا العام ؟

ان المؤرخين العرب ، سكتوا جميعهم عن هذه الناحية ، لم يعرضوا لها ، ولم يفكروا في اسبابها ...

وراح المؤرخون الفرنج يترددون في الحكم ، على هذا التنكر الغريب ، ثم انتهوا الى القول ، على ما ورد في كتاب الاستاذ ميور ؛ انه احدى القضايا التي يكتنفها الابهام والغموض

اما نحن ، فقد رأينا ان مقتل الامين ، على الصورة التي قرأت ، لم يكن سبباً لتغير الخليفة ، بعد تسعة اعوام ، وانما هي هذه القمة من المجد ، التي ارتفع اليها طاهر ، وامست العيون ، في بلاد العرب جميعها ؛ تنظر اليها واليه

والخلفاء ، لا يطيقون ان يرتفع الرجال في دولتهم ، الى القمم ... ويكرهون أن يلتف حولهم الناس ، ويكثر الانصار ... ففي ذلك شيء من الخطر على الخلافة .. !

لا سيما وطاهر ، من قواد الجيش ، بل هو القائد الاكبر الذي يطيعه الجند ويخضع له

على ان طاهراً ، لم يكن ، في حياته السياسية والحربية ، مثل اولئك المقربين الذين يدفعهم الفضول ، الى الاكثار من الدلال ...

لقد كان بعيداً عن القصر ، ولم يفرض ارادته على واحد من الحاشية ، ولم يتعرض مرة واحدة لما لا يعنيه .. ولم يكن المأمون ، وهو بعيد عنه ؛ اسأله رأيه في امور الدولة ..

ومع ذلك ، فقد بلغ المنزلة ، التي يستطيع معها ان يؤثر في الناس ، وفي الجيش ، وان يكون عوناً لعباسي طامع في الخلافة ، فيتحطم العرش او يهتز .. والمأمون ، بغنى عن تعب القلب ...

ابعده الى خراسان .. وارسل معه احد خصيانه ، لينعم عليه بالسم ، اذا بدرت منه بادرة سوء ...

ولو رجعنا الى الماضي القريب ، لرأينا الخليفة ، بعد خروج طاهر من مجلسه ، وقد اخذ منه الغضب ، يحسب له حسابه ..

ورأينا طاهراً ، بعد ان رأى وسمع ، ما رأى وسمع ، يحسب للمأمون حسابه الاول ، يخاف الثاني ، ويضمر له الشر ، والثاني يخاف الاول ، ويفكر في

التنكر له ! !

وهو يظن ، ان خراسان ، ستكون له المعقل الحصين ،الذي لا تصل اليه فيه، يد امير المؤمنين

ومن اين له ان يعلم ، ان الخصي يحمل له الموت ، وان عامل البريد في خراسان يحصي عليه كل كلمة تنطق بم شفتاه ..

قال المأمون لخادمه حسين .

« ذكرت مقتل اخي ، فلن يفوت طاهراً مني ما يكره »

اذن فطاهر في خطر ، وهو لا يدري ، اي يوم يطيب فيه للمأمون ، ان يبره الغليل ! !

ولطاهر في خراسان ، انصار .. بل قل ان معظم الرجال هناك من انصاره. الا غسان بن عبادة ، واشياع الحسن بن سهل ..

فاذا هو بادل المأمون حباً بحب ... فما عليه من باس ، ولا خوف من الجاهه ان يسلموه ...

قلت انه ادار خراسان ، بالحزم والعدل ، واعطى اصحاب الحق حقهم يأخذه لهم من مغتصبيه ، ومهد للفقير سبل العيش ، وضمن لليتيم خبزه ومأواه ... حتى ارتفعت اصوات القوم بالدعاء له ..

وآمن الناس ، بان امير المؤمنين ، لا يستطيع ان يتحفهم باحسن منه

وقد مضى العام الاول ، والقوم في سعة وامن

وطاهر يفكر فيما جرى له ، مع الخليفة ، ويعول على الظهور ، بمظهر العدو ، ثم يتراجع ...

فلما كان العام الثاني ، وحضر الناس الجمعة الاولى منه ،صعد طاهر المنبر ،فخطب وعندما انتهى الى ذكر الخليفة ، امسك عن الدعاء له ، على عادة العمال والامراء في خطبهم ، وقال .

اللهم اصلح امة محمد ، بما اصلحت به اولياءك ، واكفنا مؤونة من بغى علينا ، بلم الشعث ، وحقن الدماء ، واصلاح ذات البين ! !

وكان كلثوم بن ثابت ، عامل البريد ، حاضراً

فقال في نفسه .

سأكون اول مقتول اذا انا كتمت الخبر

ثم كتب الى المأمون ، يذكر له خطبة طاهر ، ودعاءه المبهم

فدعا المأمون وزيره احمد بن ابي خالد ، وكان ذلك ، في مساء يوم من ايام الربيع ، وقال له :

سر الى خراسان وجيء بطاهر كما زعمت وضمنت ، فقد خلع ، ودفع اليه كتاب كلثوم .

فلما قرأه اسودت الدنيا في عينيه وقال :

ابيت الليلة ثم اذهب عند الفجر ،

قال : بل تسير الان ، فالخطر يزداد في كل ساعة

قال : سأقوم بالضمان يا امير المؤمنين ، ولو ذهبت بعد شهر ، فاذن له في المبيت

على ان عامل البريد في خراسان ، بعد ان كتب كتابه الى الخليفة ، دخل على طاهر ، فرأى ان حادثاً حدث له ثم سقط ميتاً .. !!

فرجع ليكتب بوفاته

فخرج اليه طلحة بن طاهر فقال له :

اكتبت الى الخليفة بأمر الخطبة ؟

— نعم

قال : فاكتب الان بموته ، واني قمت بأمر الولاية والجيش

ففي ذلك الليل ، الذي اذن المأمون لوزيره ، ان يقضيه في بغداد ، على ان يسير الى خراسان في صباح اليوم الثاني ، في ذلك الليل نفسه ، وردت على امير المؤمنين رسالة كلثوم الثانية ، تنعى طاهراً

فقال : الحمد لله الذي قدمه وأخرنا ...

ثم قال لاحمد :

لقد مات ، فمن ترى ؟

قال : طلحة ابنه ..

قال : اكتب بتوليته ، وتسير انت الى مرو ، لتنظر في امره ، فقد يخدع مثل ابيه .

قال اني ضامن هذا ايضاً ، وسأذهب بعد يومين كما امرت وهكذا ذهب طاهر ، كما ذهب الوزراء والقواد المخلصون قبله ، ضحية خاطر غريب ، خطر لأمير المؤمنين .

وقد قال بعضهم فيه :

يا ذا اليمينين وعين واحدة ‏ ‏ ‏ ‏ نقصان عين ويمين زائده ،

وهو يعني ان لقبه كان ذا اليمينين

وبعد مرور يومين على ورود النعي ، سار الوزير ابن ابي خالد الى خراسان ، وعبر الى ما وراء النهر ، ومهد الامور لطلحة ، واوصاه باليقظة والحرص ،والوفاء لامير المؤمنين ..

ثم رجع بعد اشهر الى بغداد ، وقد وهب له طلحة ، ثلاثة الاف الف درهم ، واشياء اخرى ، واعطى كاتبه ابراهيم بن العباس ، خمسماية الف

وبعد عودة الوزير ، بلغ امير المؤمنين ان عبد الرحمن بن احمد من سلالة علي بن ابي طالب ، خرج في اليمن ، يدعو الى الرضا من آل محمد

وكان سبب خروجه ، ان عمال الخليفة ، في ذلك الاقليم الكبير ، اساءوا السيرة ، فقام الناس ، فبايعوا عبد الرحمن

فعقد المأمون مجلساً للشورى ، من وزيره وقواده ، ومستشاريه ورجال ديوانه واهل بيته ، يسألهم رأيهم في الرجل الذي يبعثه الى اليمن ، ليعيد الخارجين عليه ، الى الطاعة ، فقال الوزير :

اذا اراد امير المؤمنين ، ان يوجه دينار بن عبدالله في جيش ، ويكتب معه كتاب الامان ، في الوقت نفسه

فرأى القوم جميعهم ما رآه احمد ..

ولم يلبث ابن عبدالله ، حتى خرج في جند كثير ، فحضر الموسم ، وحج ،

ثم سار الى اليمن

ولكنه لم يسيء الى القوم ؛ ولم يشهر السيف

بل بعث رسله الى عبد الرحمن ، يحملون اليه امـــان الخليفة ، اذا استسلم ، وسلام قائدهم دينار

فاستسلم الجيش ، ودخل في الطاعـــة ، ووضع يده في يد القائد ، ورافقه الى العاصمة

فأمر المأمون الطالبيين حينئذ ، بان يلبسوا السواد ، شعار العباسيين

• • •

كان عبدالله ، امير الجزيرة ومصر ، يعرض جيشه في سهول الرقة ، عندما ورد عليه كتاب طلحة ، ينعي له اباه

قرأ الكتاب ، ثم دفعه الى عثمان ولم يبك ، بل لم يطرف له جفن

وظل يروح ويجيء بين صفوف الجند ، كأنه لم يعلم ، ان اباه العظيم ، الذي خلدته حروبه ، طوته ارض خراسان !

حتى ان اركان الجيش ، الذين كانوا يرافقونه ، لم يعلموا اي نبأ حمله اليه ذلك الكتاب !

وعندما اتم طوافه بين الكتائب ، توسط الساحة ، وخطب في الجند قائلاً :

نحن اليوم في الرقة ، نعيش عيش الترف ، وننام مـــلء الجفون ، ولكن ستكرهنا الحرب بعد ايام ، على الحذر والسهر الدائمين ، والوقوف في وجه العدو نهارنا وليلنا حتى يكتب الله لنا النصر ، فليعلم كل واحـد منكم ، ان واجبه في الميدان ، يشبه من جميع الوجوه ، واجب اميره ، وهو المسؤول عن القصور الذي يظهر منه ..

انا ظافرون باذن الله ، فان لم يستسلم العقيلي اليوم ، استسلم غـداً ، ولكن

هذا الظفر ، لا تهبه لنا السماء ، الا اذا عرفنا مقامنا ، وحفظنا هيبة امير المؤمنين ، التي هي هيبة العرب

فاستعدوا ، ولا تخافوا ، ولا تترددوا ، واغنموا ما استطعتم ، فالغنائم جميعها لكم ...

ثم رفع صوته وقال :

واوصيكم بالرفق بالاسرى ، وليحذر كل واحد منكم ان يجهز على جريح

وانثنى راجعاً الى القصر ، والقواد وراءه

حتى جلس في مقعده ، واخذ القوم مجالسهم ، فقال :

اين الرسالة يا عثمان ؟

ـــ هذه هي ايها الامير

قال : اقرأ

فلما انتهى من قراءتها ، حنى القوم رؤوسهم للخبر المروع ، واكبروا الخطب بالقائد الجبار ، الذي أعز خلافة المأمون ، واستند العرش الى ساعديه القويين

وقاموا يعزون .. ويذكرون محاسن الفقيد ..

وعبدالله مطرق ..

ثم رفع رأسه ، واكتفى بقوله :

انا لله ، وانا اليه راجعون ...

وجعل يحدثهم ، احاديث لم يجيء فيها على ذكر ابيه ، وذكر الموت !

ثم قال لعباد :

اخرج اليوم وغداً الى المدينة ، واحص الرجال والفتيان الذين سيحملون السيف ، لنتدبر امر المؤونة والسلاح

قال : لقد فعلت يا سيدي ، وكتبت اسماءهم

ـــ وكم هو عددهم ؟

ـــ خمسمائة ، معظمهم من الشباب

قال : أليس في الرقة ، المدينة الكبرى ، اكثر من ذلك ؟

- ان في الشام وفلسطين ، وبغداد ، اكثر من ثلاثة الاف رجل بجيعهم من الابطال الذين تمرسوا بالحرب

- وهل رأيت ان القوم يسيرون مكرهين ، الى القتال ؟

- لا انهم يرغبون في ان يكونوا جنوداً الك

= اذن أعدوا لهم ما يحتاجون اليه ، ولا تنسوا شيئاً ..

فانصرفوا ، لينظروا فيما امرهم به

فقال لعثمان .

لقد خطر لنا ، ان نضم المغيرة ومروان ، الى كتيبة الحرس

- لماذا ؟

- لاننا نخشى ان يضيعا ، بين الكتائب الاخرى ...

فقال في نفسه

ذلك ما يفعله الحب ... ثم قال له :

وانا ارى ، ان ينضم الحرشي ايضاً الى حرسك ...!

- وهل نسيت انه ذئب ؟

لم انس شيئاً ، ولكني اردت ان يظل هذا الذئب قريباً مني لاراه

قال : يظهر انك تخافه يا عثمان

- اجل يا سيدي ، اخافه واخاف امثاله من رجال السوء

قال : لقد سلمنا امره اليك ، فافعل ما شئت ، على ان ترى اليوم ام مروان ونستأذنها في ذهاب ولديها الى كيسوم ..

فضحك قائلا :

واستأذن زينب ؟ ..

- احذر ان تقول لها كلمة

- واذا كان لها في ذلك رأي ؟

- الرأي لامها كما قال الشيخ

- وماذا تفعل ، اذا لم ترد الام ، ان يسير ولداها الى الحرب ؟

- نفعل اذن ما تريد هذه الام ! !
- ويبقى مروان والمغيرة في الرقة ؟
- نعم
- ولكن الناس سيقولون ، ان للامير غاية خاصة
- ليقولوا ذالك فنحن لا نبالي ! !
- وان طلبت اليك زينب ان يبقى زوجها معهما ؟
- ليس هنالك سبيل الى مثل هذا الطلب ، كما انه ليس لنا سبيل الى الاصغاء اليه
- وكيف ذلك ؟
- ان امير المؤمنين هو الذي اراد ان يخرج الحرشي الى القتال ، وهـــذا يكفي ... قم فاذهب الساعة ، وانع للقوم طاهراً

ودخل مخدعه ، فبكى اباه ، كالولد البار ، يبكي والده البار ..

• • •

الطائيون جميعهم في الدار ، حول فراش الشيخ المريض

فاستأذن عثمان ودخل

وكانت زينب مع الجماعة ، اما الحرشي فكان في منزله ، يشحذ سلاحـــه ، ويستعد للمعركة الحمراء ! ..

فقال المريض :

لخير قدمت يا عثمان

قال : جئت احمل اليكم نعي طاهر رحمه الله ، واسأل ام مروان سؤالا امرني به عبدالله

فظهرت الكآبة على الوجوه .. !

ولو قيل لهم ، منذ ايام ، ان طاهراً مات ، للبسوا ثياب العيد ...

ثم قال الشيخ ، وهو يئن من الألم :
أمات طاهر ؟
- نعم ، وورد نعيه صباح هذا اليوم
- وهل كان مريضاً ؟
- لا ، ولكن رأوه عند العصر ميتاً في فراشه !
فقال يرثي طاهراً :
عزى الله امير المؤمنين ، فلن يجد قائداً مثل طاهر ، ولن تنبت العرب مثله ..
ورددت ام مروان رثاءه ... ! ثم قالت :
وما هو الامر الاخير الذي اتيت من اجله ؟
- انه امر الحرب ، التي ستتلظى نارها بيننا وبين نصر
- واي شأن لام مروان بهذا ؟
- لو لم يكن لك شأن ، لما امرني عبدالله بالمجيء
- اظن تبقى القضية تتعلق بالمغيرة ومروان
- نعم
- ويريد الامير ان يعلم ، اذا كان الاثنان سيسيران معه ؟
- هو ذاك
قالت : عرفت انه امرهما بذلك ، فسكت مكرهة
قال : لم يكن ما قاله الامير لهما امراً
- وماذا اذن ؟
- شاور ابا حاتم ، ثم بعث اليوم ، يشاور ام مروان
- ولكنه لا يفعل ما اشير عليه به
- بلى ، وهذا ما قاله لي
قالت : لا اظن ان اماً ترغب في ان يقذف بنوها بانفسهم ، الى هوة الموت !
- غير ان اخت علي بن ماهان ، وارملة حاتم الطائي ، لا تخاف الحرب ، ومع ذلك فالمغيرة ومروان ، سيكونان من حرس الامير ، والحرس لا يشترك في القتال

الا اذا احدق الخطر بالجيش

فقال مروان : لقد خلقنا نحن الرجال لنكون جنوداً لامير المؤمنين

وهكذا قال المغيرة

قالت : اخشى ان اخسر ولدي كما خسرت زوجي

قال : اتكلي على الله يا سيدتي ولا تخافي ، وقال لزينب :

اين عصمة ؟

– في الدار

– ارجو ان يعلم ، ان الامير جعله ايضاً من رجال الحرس

– اشكر الامير على عنايته به وباخوي ، واسأل الله ان يهب له النصر ...

فقال ابو حاتم :

اني مريض كما ترى يا عثمان ، وقد تكون هذه نهاية العمر ، افأستطيع ان اسأل الامير قضاء حاجة لي ؟

– اذكر لي هذه الحاجة

– ارجو ان يعودني اليوم اذا استطاع فلي ما اقوله له

= سأنقل اليه رجاءك هذا ، واعتقد انه فاعل ان شاء الله

وسار فخبر عبد الله ، فقال له :

اليوم ... ! والناس يفدون الى القصر للتعزية ؟ ! ! ولكن نصبر يومين اخرين

وابو حاتم يعالج المرض ، ويكابد الالم ..

والشيخوخة تدافع الدفاع الضعيف ..

والموت والحياة يتنازعان الروح ..

حتى القى الشيخ سلاحه ، وهم بان يستسلم ...

فقال لمغيث بعد ثلاثة ايام :

اذهب وقل للامير اني اريد ان اراه قبل موتي ..

فلما جن الليل ، دخل مغيث على سادته يقول :

اقبل الامير

وكان مروان وعصمة في ضيعتيهما

فقامت ام مروان والمغيرة يرحبان به

واحتجبت سعدى وزينب في حجرة لهما ، وهما بين عاملين :

عامل الشوق اليه ... وعامل الخجل منه ...

وجعلت حبيبة تخاطبه بقولها :

لقد عدت يا بني اخيراً ، الى البيت الذي عرفته وانت طفل

وهو يشكر لها ترحيبها به ، ولا يلتفت الى جانبيه ...

حتى اقبل على الشيخ المنهوك القوى ، فقال له :

دفع الله عنك العلة يا ابا حاتم وعافاك

فحاول المريض ان يستوي جالساً ، فلم يقدر ، فتنهد قائلا :

انبت وانا غير قادر على القعود .. اجلس على فراشي لاحدثك

فجلس وقال : اني مصغ اليك

قال : ام مروان والمغيرة هنا ؟

– نعم ، ومغيث بالباب

– واين سعدى وزينب يا ام مروان ؟

– في الغرفة المطلة على مرابط الخيل

– كنت احب ان تكونا هنا ليسمعا ما اقول ... اني راحل عن هذه الدنيا يا عبدالله ، وقد خطر لي ان اوجه اليك سؤالي الاخير ، قبل ان يجمعني الله بهام ... فقل لي الان ، لآخر مرة ، أكان ابوك بريئاً من دمه ، ام هي كلمة قلتها من قبل ، ارضاء لي ؟

قال : وتربة حاتم وطاهر ، انه بريء ..

قال : اعلم يا بني اني بين يدي الله

– وكلنا بين يديه عز وجل ، وهو يعلم ما في القلوب

– اذن سأذهب الى لقاء ربي ، وانا مطمئن ، وارجو عندما يغمض الموت عيني ، ان تصلي علي ، وان تكون لام مروان ابناً ، ولبنيها اخاً ... ولا تنس

ان الشيخ ، الذي حملك على ذراعيه ، هو الذي يوصيك ..
وجعل يقول وقد خفض صوته :
اللهم اغفر لي ، فقد لعنت طاهراً وظلمته .. !
ثم اخذ يهذي ، ويردد اسم مروان ، فكأنه لم يكن يريد ان يموت ، دون
ان يراه ...
وكانت ساعة الاحتضار قد اتت ..
فساد الصمت ..
والموت في جلاله يبسط ظله
والعيون تنظر الى الشيخ الهاوي ، فيها الخشوع والروعة ..
والروح ، التي لا تفارق الجسد مختارة ، تحشرج في صدر المحتضر ..
ثم رأوا شفتيه ترتجفان .. وتلفظان اسماء سعدى وزينب ، وحاتم .. ولم تلبثا
حتى لفظتا النفس الاخير .. فانثنى عبدالله يقول :
لو علمت اني ساشهد هذه النهاية المروعة لما اتيت ..
رحم الله المسلم الابي ، الذي عاش حراً ، ومات وهو حر ..
وتفجر الدمع من عيني حبيبة ، تبكي زوجها واباه ...
ثم قالت للمغيرة :
ادع شقيقتيك لتقوما بواجب التوديع ..
وكان مغيث في الدهليز ، يبكي سيده ، وقد ارتفع صوت بكائه ..
ولم تخرج الشقيقتان من مخدعهما ، الا بعد خروج عبدالله ...
وكان مأتم الشيخ ، في اليوم الثاني ، بعيد الاثر في النفوس
وكنت ترى امير الجزيرة ، ورجال الامارة في مقدمة المشيعين
وقد عرف الحرشي ، الذي شهد المأتم ، مع مروان ، ان ابا حاتم اسلم روحه
وعبدالله عند فراشه ..
فسكت على غل ...
ثم سأل مغيثاً ، وراوية الجارية ، فحلفا له ان سعدى وزينب احتجبتا في

أحدى الغرف ، ولم يرهما ...

● ● ●

٣٩

مل المأمون مجلسه ، ونظره في المظالم !
فامر خادماً له ، بان يدعو اسحاق الموصلي
وكان الخليفة مستلقياً على فراش
فلما اقبل ، استدناه حتى صارت ركبته على فراشه !
ثم قال له :
يا اسحاق ، نشكو اليك اصحابنا ، فعلنا بفلان كذا ... ففعل كذا ، وفعلنا بفلان كذا ففعل كذا .. حتى عدد جماعة من خواصه
فقال له : انت يا سيدي بعطفك علي وحسن رأيك في ، ظننت اني ممن يشاور في مثل هذا ، فجاوزت بي حدي ، وهذا رأي لا يبلغه قدري
قال : ولم ذلك ، وانت عندنا عالم ناصح ، فقال :
هذه المنزلة عند امير المؤمنين ، علمتني ألا اقول الا ما اعرف ، ولا اطلب الا ما انال .
فضحك وقال :
بلغنا امس ، انك صنعت لحناً في شعر الراعي ، ولم نسمعه منك
قال : ما سمعه احد الا جواري ، ولا حضرت عندك للشرب منـــذ صنعته ،
فقال :

غنه ، فقال :

الهيبة والصحو ، يمنعاني ان أوديه كما تريد ، فلو آنس امير المؤمنين عبده بشيء يطربه ويقوي به طبعه كان اجود ..

قال : صدقت

ثم امر بالغداء فتغديا ..

ومدت الستارة ، فغني من ورائها ، وشربا اقداحاً

فقال المأمون :

يا اسحاق ، اما جاء اوان ذلك الصوت ؟

— بلى يا سيدي

وغناه لحنه في شعر الراعي :

ألم تسأل بعارمة الديارا عن الحي المفارق اين صارا
بلى ساءلتها فأبت جواباً وكيف تسائل الدمن القفارا

فاستحسنه ، وما زال يشرب عليه سائر يومه ، ثم قال :

يا اسحاق ، لا طلب بعد وجود البغية ، ما نشرب بقية يومنا هذا الا على هذا الصوت ، قال :

اعرف يا امير المؤمنين ، مغنية ، محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، يقال لها عريب ، وهي عند احدهم

— وتشهد لها بحسن الصنعة ؟

— نعم

— نأمرك بان تشتريها لنا اليوم

فذهب الموصلي فاشتراها بمئة الف درهم وأتى بها فقال :

بلغ ثمنها مئة الف يا امير المؤمنين ، قال :

علينا بابراهيم بن رباح

وكان ابراهيم هذا ، يتولى نفقات الخليفة ، وهناك رجل اخر يشرف على هذه النفقات ، يدعى الفضل بن مروان

فقال المامون لابراهيم :
ادفع ثمن الجارية مئة الف درهم ، واحمل الى اسحاق مئة الف اخرى
ففعل ولكنه لم يدر كيف يثبتها في حسابه !
ثم اثبتها ، ان المئة الالف خرجت في ثمن جوهرة ، والمئة الالف الاخرى
وهبت لصائغها ودلالها ..
ورأى الفضل بن مروان ذلك فانكره ، فسأل ابراهيم قائلا : اخرج من بيت
المال مئتا الف درهم ؛ ثمن جوهرة ، وعطية للصائغ والدلال ؟
قال : نعم
فمثل بين يدي الخليفة يقول وقد غلظ القصة :
أوجب لصائغ ودلال مئة الف درهم يا امير المؤمنين ؟
- وكيف جرى ذلك ؟
فخبره
فدعا بابراهيم فقال له :
ويلك أمئة الف لدلال ؟ !
فدنا منه وهامسه قائلا :
أيما اصوب يا امير المؤمنين ، ما فعلت ، او اثبت في الديوان انها خرجت في
صلة مغن ، وثمن مغنية ؟
فضحك وقال :
الذي فعلت اصوب
ثم قال للفضل بن مروان :
يا نبطي لا تعترض كاتبي هذا في شيء
وكان الموصلي ، قد ضجر من ملازمة دار الخلافة ، والخدمة فيها ، فركب
يوماً عند الفجر ، وقد عول على ان يطوف الصحراء ، وقال لغلمانه :
ان جاء رسول الخليفة او غيره ، فعرفوه اني بكرت في بعض المهمات ، وانكم
لا تعلمون اين توجهت

ومضى وطاف ما بدا له

ثم عاد وقد حمي النهار

فوقف في الشارع المعروف بالمخرم ، الواقع في الجانب الشرقي من بغداد ، إلى فناء واسع الظل ، وجناح رحب على الطريق ، ليستريح

وما لبث ان جاء خادم يقود حماراً فارهاً ، عليه جارية ، تحتها منديل دبيقي وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية بعده

« دبيق ، قرية من اعمال مصر وقد خربت لم يبق منها شيء ، وتنسب اليها الثياب الدبيقية »

ورأى لها قواماً حسناً ، وطرفاً فاتراً ، وشمائل حسنة

فايقن بانها مغنية

ودخلت الدار التي كان واقفاً بالقرب منها

ثم جاء شابان جميلان ، فاستأذنا في الدخول ، فاذن لهما ، فنزلا ، ونزل هو معهما ودخل

فظن الرجلان ، ان صاحب الدار دعاه ... وظن صاحب الدار انه معهما

وجلسوا ، وأتي بالطعام فأكلوا ، وبالشراب فوضع

وخرجت الجارية ، وفي يدها عود ، فغنت .. وشربوا

ثم قام اسحاق قومة

فسأل صاحب المنزل الرجلين عنه ، فخبراه انهما لا يعرفانه

فقال : هذا طفيلي ، ولكنه ظريف ، فاجملوا عشرته

وجاء اسحاق فجلس

وغنت الجارية في لحن له :

ذكرتك ان مرت بنا ام شادن امام المطايا تشرئب وتسنح

من المؤلفات الرمل ادماء حرة شعاع الضحى في متنها يتوضح

فأدته اداء صالحاً وشربت

ثم غنت اصواتاً شتى ، وغنت في اضعافها من صنعته :

الطلول الدوارس فارقتها الاوانس
اوحشت بعد اهلها فهي قفر بسابس

فكان امرها فيه ، اصلح من الاول
ثم غنت اصواتاً من القديم والحديث ، وغنت في اثنائها من صنعته :

قل لمن صد عاتباً ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذي اردت وان كنت لاعبا

فكان اصلح ما غنته
فاستعاده منها ليصححه لها .. !
فاقبل عليه احد الرجلين وقال :
ما رأيت طفيلياً اصفق وجهاً منك ، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا المثل :
طفيلي مقترح ..
فاطرق اسحاق ولم يجبه
وجعل صاحبه يكفه عنه فلا يكف ...
ثم قاموا للصلاة
وتأخر اسحاق ، فاخذ عود الجارية ، ثم شد طبقته واصلحه اصلاحاً محكما ، د الى موضعه ، فصلى
وعاد القوم
ثم اخذ ذلك الرجل في عربدته عليه ، وهو ساكت
ثم اخذت الجارية العود فجسته وانكرت حاله ، وقالت :
من مس عودي ؟
قالوا : ما مسه احد
قالت : بلى ، والله لقد مسه حاذق متقدم وشد طبقته واصلحه اصلاح متمكن صناعته
فقال اسحاق :

فقال اسحاق : انا اصلحته ! قالت

بالله خذه واضرب به

فاخذه ، وضرب به مبدأ صحيحاً ظريفاً ، عجيباً صعباً ، فيه نقرات محركة

فما بقي واحد منهم الا وثب ، وجلس بين يديه ، ثم قالوا :

بالله يا سيدنا ، أتغني ؟

قال : نعم ، واعرفكم نفسي :

انا اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، ووالله اني لاتيه على الخليفة اذا طلبني وانم تسمعونني ما اكره منذ اليوم ، فوالله لا نطقت بحرف ، ولا جلست معكم ، حتى تخرجوا هذا المعربد المقيت ..

فقال له صاحبه :

من هذا حذرت عليك

فاخذ يعتذر ، فقال اسحاق :

لا والله لا نطقت بحرف حتى يخرج

فاخذوا بيده فاخرجوه ، وعادوا

فبدأ ، وغنى الاصوات التي غنتها الجارية من صنعته

فقال له صاحب الدار :

هل لك في خصلة ؟

قال : ما هي ؟

- تقيم عندي شهراً كاملا ، والجارية والحمار لك ، مع ما على الجارية من حلي ، فقال :

افعل

واقام عنده ثلاثين يوماً لا يدري احد اين هو ..!

وامير المؤمنين يطلبه في كل مكان فلا يعرف له خبراً

فلما كان بعد ثلاثين يوماً ، اسلم الرجل اليه الجارية والحمار والخادم ، فجاء بذلك الى منزله

ثم ركب من وقته الى المامون

فلما رآه قال :

اسحاق ، ويحك ، اين تكون ؟

فخبره بخبره ، فقال :

علي بالرجل صاحب الدار

فدلهم على بيته فاحضر

فساله المامون عن القصة ، فاخبره ، فقال له :

انت رجل ذو مروءة ، وينبغي ان تعاون عليها

وامر له بمائة الف درهم ، وقال :

لا تعاشرن ذلك المعربد النذل البتة

وامر لاسحاق بخمسين الف درهم ، وقال :

أحضرني الجارية

فاحضرها فغنته ، فقال له :

لقد جعلت دورها في كل يوم ثلاثاء تغنيني وراء الستارة مع الجواري

وامر لها بخمسين الف درهم ، فكانت صفقة اسحاق الموصلي رابحة من الناحيتين

• • •

٤٠

مغيث : لقد اذن لك الامير ، في المسير مع سيديك الى كيسوم ، تقوم بخدمتهما ، وتهتم لما يامرانك به

فقال لام مروان :

وساستاذن الامير يا سيدتي في حمل السيف ، لاكون رفيقاً لهما في الساحة

ــ وهل تحسن القتال ؟

ــ اجل ، فقد كنت في جيش الرشيد ، يوم حاصر هرقلة ، وشهدت براز ابن الجزري ، والعلج الرومي

فقالت سعدى :

وهل عول الجيش على المسير غداً كما يقول مروان ؟

ــ نعم ، وقد سمعت الامير ، يامر خاصته وقواده بذلك ، ورأيت طوائف النوق المعدة لحمل المؤونة ، والتمر والخيام

قالت : ان المغيرة ومروان في القصر ، وسيرجعان بعد ساعة ، فنعلم كل شيء

ــ بل يبقيان ، ليتناولا الطعام ، مع الامير وعثمان

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ كنت في القصر ، وقد عدت منه بعد لحظة

ــ ورأيت عصمة ؟

ــ لا ، فالحرشي لا هم له غير سلاحه يشحذه نهاره وليله ليبري به رقاب العدو ...

فقالت ام مروان :

هو يفعل ذلك وزينب خائفة

قال : رأيتها هذا الصباح تذرف الدمع ولم اعلم لماذا

ــ انها تخاف هذه الحرب . التي يخوض غمارها اخواها وزوجها

ــ سيكون الثلاثة من حرس الامير

ــ ومع ذلك ، فهي تظن ان القدر عدو لها ، وسترى ما تكره

قال : الامر بيد الله ، فليس لنا في الشدة والرخاء الا ان نلجأ اليه عز وجل

قالت : وعثمان من الحرس ؟

ــ ان عثمان يا سيدتي هو كل شيء ، هو الامين الاول للامير ، وهو كبير مستشاريه ورفيقه الذي لا يتركه لحظة ، وهو الذي يأمر وينهى ولا مرد لما

يقول :

فقالت سعدى :

لقد رفعته كفاءته واخلاصه الى المقام الاول في الامارة ، ويظهر انه احب عبدالله حباً صادقاً ليس فيه شيء من الرياء

- هو ذاك ، وسيكون له شأن في هذه الدولة ، التي لا يرتفع فيها غير المخلصين والاكفاء

وكان الثلاثة ينتظرون مجيء زينب ، فلم تجيء ، فقام في الاذهان ، انها لم ترد ان تترك عصمة في ذلك اليوم ...

وعصمة لا يريد ان يترك السلاح ، الذي سيحمله الى الميدان ...

حتى كان العصر ، فاقبل مروان والمغيرة

فقالت حبيبة :

ماذا رأيتما ؟

فاجابها المغيرة قائلا :

رأينا الامير ، يترك خاصته ، ورجال الامارة ، ويدعونا الى مائدته

- وجعلكما من حرسه كما قال عثمان ؟

- نعم

- ومن هو قائد الحرس ؟

- غفار بن الاسود ، وقد اختاره الامير منذ يومين

- وعرفتماه ؟

- دعاه الى مجلسه ، واوصاه قائلا :

ان مروان والمغيرة احب الناس الى الامير ... فكن اخاً لهما فقال له عثمان : وسيكون لهما في الجيش اخ اخر هو انا ، فضحك عبدالله وقال: والامير نفسه اخوهما الاكبر ...

فبكت الام وقالت :

ليحرسكما الله فقد سلمت امري اليه

وعندما خرج الجيش ، في صباح اليوم الثاني ، من الرقة ، كانت زينب تقول لامها وسعدى:

لا ادري اي شيء هو هذا الخوف الذي يستولي علي ... اني اخشى ، ان يقدم عصمة على امر يهتز له الجيش

فقالت سعدى :

ما هذه الظنون يا زينب ؟

ـ انها ظنون امرأة لم تجد زمانها كله غير الجفاء .. ان عصمة لم يبتهج قط ابتهاجه بهذه الحرب ، التي خرج اليها اليوم

ـ وهل يكون ذلك سبباً لاساءة الظن ؟

ـ نعم ، فالحرب لا تخلق الفرح في النفس ، الا اذا كانت هنالك غاية .

ـ وما عسى ان تكون غايته ؟

ـ لو عرفت ما هي لتدبرت الامر .. اسمعي يا سعدى ، لقد رأيته اكثر من مرة ، يحمل سيفه في بهو الدار ، ويبتسم له ، ثم يضرب به الهواء ويتراجع كأنه لم يفعل شيئاً ..!

ـ انه يريد ان يكون اسبق الحراس ، الى الفتك بالعدو ، لتكون له الحظوة لدى اميره ..

ـ اما انا فقلبي يحدثني ، بان في الامر ما فيه

فقالت الام ، وفي عينيها الدمع .

هذا وهم ، فليس لنا ان نستسلم اليه ... قوما نخرج الى الشرفة ..

فنهضتا ، وزينب تتمتم قائلة :

اجل ، انه وهم ، وانا اعيش في غمر من الاوهام

• • •

دارت المعركة الاولى ، بين جيش الخلافة ، وجيش نصر ، في الموضع نفسه

الذي تلاحمت فيه صفوف العدوين ايام طاهر بن الحسين

وكان عبدالله وقواده ، قد نظموا الجند ، وجعلوه كتائب صغيرة ، لكـــل كتيبة منها موضعها في الجناحين والقلب ..

وتلقى الرؤساء ، وصغار القواد ، اوامر القائد العام ، يقومون بتنفيذها عـلى اكمل وجه ..

وقد رأى رجال السيف ، الذين تمرسوا بالحروب ، وخاضوا المعارك الكبرى مع الخوارج والروم ، ان لعبدالله الامير الشاب ، وهو في عهده الاول في القيادة خبرة الجندي المجرب ، الذي يضيف الى حسن التدبير والسياسة ، الحيلة والدهاء

وكانه في الستين من العمر ، وقد قضى شبابه وكهولته في قيادة الجيوش ،الى مواقف الفخار ..

ولم يكن ، وهو في الساحة ، يغفل عن شيء

كان يطوف بين الكتائب ، في الجناحين ، يتعهدها ، وينصح لرجالهـا بالثبات وا .ة في القتال ، ثم يعود الى القلب يتبين ما على الوجوه ، من عقيدة وايمان ...

ويرفع صوته ، داعياً قواده ، الى الحذر والحرص ..

تراه في هذا الجانب ، ثم تراه في الجـانب الآخر ، وفرسه مثـله ، لا يتعب و. بل ..

وعثمان وراءه ، لا يبتعد عنه ، وكأن له الف عين ! !

واما كتيبة الحرس ، فقد امرها عبـــدالله ، بان تظل فيقـلب الجيش ، لا يـ قل افرادها قدماً ، الا اذا تلظت نار المعركة ، واستحر القتل ..

على ان الحرشي ، لم يكن راضياً عن هذا الامر

لقد اتى كيسوم ، ليبعث الذعر الى قلوب الخوارج ، ويقضي بالسيف ، على كل من تحدثه نفسه ، بالخروج على امير المؤمنين ..!

نعم .. كانت له غاية اخرى ، هي حراسة الامير عبدالله ، والحرص على حياته الغالية ... ولكن هذا لا يمنعه ، من ان يشارك اخوانه الجنود ، في الـدفاع عن الكرامة ..!

في الدفاع عن الكرامة ...!

ايجوز ان تبقى كتيبة الحرس في المؤخرة ، وهي النخبة الكريمة من الفتيان ، ولا تتقدم الجند جميعه الى الامام ؟....

وكيف تبين البطولة ، وتظهر بسالة الجندي ؟!

انه نظام لا يرضي الابطال ..!

ذلك ماكان يقوله لمروان والمغيرة ، وللحراس الذين هم في صفه ...

وزملاؤه كلهم يصدقونه ، الا المغيرة ، فقد كان مؤمناً ، بان هذه المظاهر ، مظاهر كاذبة .. وان الكلمات التي يقولها ، ذر رماد في العيون ..

والقتال يشتد ، والجثث من الجيشين تملأ الساحة .

والحمدان ابن العلاء ، وابن طالوت ، كانا يقومان وحدهما ، مقـــام كتيبتين كاملتين ..

يفرقان الصفوف ، ويدفعان الجنود الى الوراء .. وعبدالله ينظر اليهما باعجاب لا يخلو من الخوف ...

لقد كان الخطر محدقاً بهما ، وكان يخشى ان يجعلهما العدو ، داخل نطاق مـن الاسنة ، فيصعب عندئذ انقاذهما من ذلك النطاق

وهو يرى ان بضعة رجال من الجيش ، يحاولون ان يقتحموا الخيل ، للوصول الى القائدين ، فتكرههم الحراب على التراجع

والخطر يزداد والموت يدنو منهما ، في مهل ...

وهما يدافعان بقوة وصبر ...

حتى احتجبا في تلك اللجة عن العيون

فقال عبدالله لعثمان :

يموت مئة ويبقى الرجلان ..

ثم رفع صوته يقول لغفار بن الاسود ، وللحراس :

اتبعوا اميركم

وهمز فرسه .. فلحق به القوم ، والسيوف في الايدي ، وعصمة يقـــول في

نفسه :

اضرب اليوم عدو الخلافة ، ثم اضرب غداً عدو الحرشيين !!

وعدو الحرشيين في نظره هو عبد الله !!.

اي انه اراد في تلك الساعة ، ان يقاتل رجال نصر ، القتال الصادق .. ثم يتفرغ في الغد ، للامر الذي مر الزمن وهو يفكر فيه

ان ذلك الامر ، هو الغدر بالامير ، الذي احسن اليه !!..

وكان مغيث يقول للمغيرة :

لنحذر يا سيدي ، فقد اتسع المجال للحرشي الان ..

والمغيرة يقول :

سيسقط رأسه قبل ان تسقط شعرة من رأس الامير ، فاحفظ في ذلك حياة اثنين .

وهو يعني عبدالله وزينب

نعم كان المغيرة يعلم ، ان هذا الصهر ، الذي زفت اليه زينب مكرهة ، لم يكن في حياته مع زوجته ، ذلك الرجل الحسن الشمائل ، الكريم الخلق

زد على ذلك ان الحقد يملأ صدره ، ويملك عليه قواه ، وليس هنالك ما يدعوه اليه ..

وكان عثمان من الناحية الاخرى ، يفكر فيما يفكر فيه المغيرة !

وقد عول على قتل عصمة عند اول بادرة تبدر منه .

وما هي غير ساعة ، حتى اخترق الامير وحرسه ، ذلك الحاجز الضخم من البشر والخيل ، وحطموا القوى ، التي كانت تحيط بالقائدين

ورأى القوم عندئذ ، صاحبنا الحرشي ، يضرب الرجال ضرب مجنون لا يعلم اين يقع سيفه ... وقد قتل ثلاثة من الذين حوله ..

ثم ابصروا فرسه يسقط على الارض ، وقد اصيب بطعنتين قاتلتين ، واذا به يقاتل راجلا وقد تخضبت ثيابه ويداه بالدماء ...

وعندما ركض عبد الله ومروان فرسيهما ، لينقذاه مما هو فيه ، كانت السيوف قد مزقته فهوى ..

فثار ثائر الامير ، واقبل هو ومروان ، والمغيرة وفريق من الحرس، عـ ل،
رأسهم عثمان ، يبعدون العدو عنه ، ويحملونه الى الناحية الاخرى ، وقد اغمي عل،
وعلت وجهه صفرة الموت .

ولم يكن هنالك مجال للعناية به

فقال عبدالله :

ابن خبراء الجيش ... خذوه ليعالجوه

فنقلوه الى خيمته ، وامر عبدالله ، مروان ومغيثاً ، بان يعنيا به ..

وجاء الخبراء ، يتبينون جراحه .. ولم يكن لهم امل بالشفاء

واستمر القتال حتى غابت الشمس

فعمد الجيشان الى الراحة ، وقد كثرت ضحاياهما في ذالك اليوم ، ولم يكن
لاحدهما النصر

وجلس الامير في خيمة الجريح يسأل اطباءه عنه فكانوا يقولون : ان في جسده
اكثر من عشرين جرحاً فحياته في خطر

— ومتى يصحو ؟

— لا نعلم ، فقد يطول اغماؤه ولا يصحو الا عند الصباح

فقال لمغيث :

ابق هنا ، فاذا صحا فقل لي ، ولو كنت في ساحة القتال

واوصى مروان بذلك ، وكان يقول لهما :

ان لي ما اقوله له عندما يستفيق

وكانت غاية الامير ، ان يصغي ، الى وصيته الاخيرة قبل ان يترك دنياه ،
لانه كان واثقاً بان هذه الجراح الكثيرة ، ستقضي عليه

واخذ يفكر ، في هذه النهاية ، التي انتهى اليها الحرشي

افلا تتهمه زينب ، بانه هو الذي قدم زوجها ليقتل ؟ ؟

ولكن المغيرة ومروان ، سيشهدان له ، وسيعترفان امام اهل الرقة جميعهم ،
ان الامير نفسه ، هو الذي قاد كتيبة الحرس ، وغاص بين الصفوف ، لينقـــذ

المدين ، ولم يخطر له ان يأمر عصمة ، بان يتوغل الى مواقف الخطر
وبات عنده حتى انتصف الليل

وعند الفجر ، نهض يطوف في المعسكر ، وكان قد نسي في مساء اليوم الذي مضى ، ان يزور جرحى الجيش

فلما طلع ، الصبح قام الفريقان بالغارة الشعواء ...

فاختلطت الصفوف بالصفوف ، ومد الغبار رواقه يحجب الخيل عن الخيل حتى ليقتل الرجل صديقه واخاه ، وهو لا يعلم !

وارتفعت الاصوات من الجوانب الاربعة ، هذا يصيح من الالم ، وهذا يهتف هتاف النصر ، وعبدالله ، يسير الكتائب ، ويرسل اوامره الى القواد ، يمنعهم من ان يمعنوا في الهجوم

وكان ذلك اليوم ، اكثر ضحايا ، وابعد اثراً في نفوس القواد ، من اليوم الاول

ولم يأت العصر ، حتى مشت الرسل ، يسألون عبدالله والعقيلي وقف القتال ، ليقوم الجند بدفن القتلى

ففعلا ، وحفرت الارض في الجانب الغربي من ذلك السهل ، ووارى التراب ، جثث الاخوة ، والخؤولة والاعمام ، من المسلمين ...

وكان الجريح في تلك الساعة قد صحا

فاقبل مغيث ينقل الخبر الى عبدالله ، فانثنى راجعاً مع عثمان

وقبل ان يصل ، كانت روح الحرشي المسكين ، تتردد في صدره . وقد اخذه ما يأخذ المحتضر عند النزاع ..

ومروان بباب الخيمة

فلما رأى الامير ، خفض صوته وقال له :

ان عصمة يموت ، ولم يرد الله ان تموت انت !!

قال : ماذا ؟

— لقد اراد قتلك فقتل

– عصمة ؟ !

– نعم فقد اعترف لي منذ لحظة ، بانه كان يريد ان يفتك بك اليوم ففتك العدو به ، وهو يستغفرك ذنبه

فجعل يقول : الشكر لله ..

واخذ يرددها ثم قال : ولم اراد ذلك ؟

– لا اعلم ، فقد باح بسره ، ثم احتضر كما ترى ..

فوقف الامير عند رأسه ، ينظر الى صدره يهبط ويعلو ، والى شفتيه تنفرجان، عن مثل ابتسامة رهيبة ، هي ابتسامة الموت :

ثم أسلم الروح ..

فخشع القوم وساد الصمت الخيمة ، لا يسمع فيها غير همس الانفاس .

• • •

بلغ الحسن بن الحسين ، شقيق طاهر بن الحسين ، وهو في مرو ، ان اخاه طاهراً لم يمت حتف انفه وانما كانت هنالك يد وضعت له الموت في الطعام !

بلغه ذلك بعد موت طاهر ببضعة ايام

فخرج الى كرمان ، وتظاهر فيها بالعصيان ، يتبعه في ذلك اهل البلد والضواحي واشياع بني الحسين

فانتهى خبره الى المأمون ، فقال لوزيره :

عبد الله بن طاهر على الجزيرة ومصر ، وطلحة اخوه على خراسان ، وابن عمهما اسحاق بن ابراهيم على شرطة الخليفة ، وعمهم الحسن من الخوارج ؟؟!

فما هذا يا احمد

قال : اعتقد يا امير المؤمنين ان طلحة نصح له ان يبقى على الطاعة فلم يصغ اليه

- كان عليه ان يرده بالسيف ، ثم يضرب عنقه

- وهل يريد امير المومنين ، ان يخرج الاخوة وابناء الاعمام من آل الحسين على العرش ، وهم الطائفة الكبرى ، واصحاب المنزلة والرأي في الامة ؟

- وتريد انت ان يتمرد علينا الناس ، فنقابل تمردهم بالحسنى ونغض عنهم العين ؟

قال : اكتب الى طلحة يخمد ثورة عمه

- نخشى ان يتردد في الامر ، فيمعن عمه في الدلال ... ولكن نفعل غير هذا

- ماذا يا امير المؤمنين ؟

- الم تضمن انت وفاء طاهر ؟ قبل خروجه الى خراسان ؟

- بلى

- اذن فانت ضامن جميع الرجال الذين ينتمون الى الحسين ...

فابتسم قائلا : ليكن ذلك اذا اراد امير المؤمنين

- اذن فاستعد للمسير الى كرمان ، ونحن لا نرضى ان تقتل الرجل او تكرهه على الفرار ، وانما نريد ان تأخذه وتأتينا به ، انرى رأينا فيه

قال : اني فاعل انشاء الله ، وسأذهب غداً

قال : تسير الى مرو ، فتأخذ من تشاء من قواد طلحة ورجاله ، ثم تكتب الى الحسن ، قبل ان تسير اليه ، تعده بالعفو عنه اذا هو استسلم اليك

- واذا طلب الامان بخط امير المؤمنين ؟

- لا تسمع له لانا نريد ان يستسلم من غير شرط

ثم نادى لحد غلمانه قائلا له :

عمرو بن مسعدة

فدعي عمرو فأقبل ، فقال له :

اكتب الى طلحة بن طاهر ان يجعل جنده وخراجه ، وجميع ما في خراسان من مؤونة وسلاح ، في تصرف وزيرنا احمد بن ابي خالد ، واذا هو ندبه لقتال عمه الحسن في كرمان ، فليطع .. والا فليعتزل ..

– وتريد ان يسير الرسول الليلة ؟

– اجل الليلة وينبغي ان يصل الى مرو قبل وصول الوزير

وامره بالخروج ، ثم قال لاحمد :

تستطيع ان تعد عدة السفر منذ الساعة

فودع وانصرف ، وترك بغداد في الهزيع الاخير من الليل ومعه فارسان وستة من العبيد ، للخدمة والعناية بالنوق والخيل .

ثم كتب المأمون ، الى السيد بن انس ، والي الموصل ، يأمره بان يغزو بجيش الولاية ، احياء بني شيبان ؛ والقبائل الاخرى التي افسدت في البلاد ، واساءت الى العرب الآمنين

وكانت هذه القبائل ، تنزل السهل القريب من حي بني شيبان ، غربي الموصل

فسار اليهم ابن انس ، وفاجأهم بالسيف ليلاً ، فقتل الكثيرين منهم ، ونهب اموالهم واشياءهم ، وكتب في ذلك الى امير المؤمنين

فلما انتهى رسوله الى بغداد ، كان المأمون ، في دار ابن اخيه ، موسى بن الامين ، الذي اصيب بالحمى ، كما كان قد اصيب بها ، في اليوم نفسه الفضل بن الربيع

نعم ، الفضل بن الربيع ، صاحب المآثر والمكرمات ..

فاجأه المرض ، وما لبث حتى طواه الموت بعد ايام ، كما طوى موسى ، الفتى البريء ، فسبحان الذي لا يموت

وبعد شهرين ، ورد كتاب الوزير ابن ابي خالد ، يقول فيه :

لقد استسلم الحسن يا امير المؤمنين ، ونحن اليوم في طريقنا الى العاصمة

فأراد المامون ، ان يطلع على اسرار الحسن ، ليعرف اسباب خروجه

فلما قدم ، اذن له ولاحمد في الدخول

وكان في مجلسه ، ابو اسحاق اخوه ، والفضل بن مروان النبطي ، والحسن بن سهل ، وكان قد بريء من علته ، واحمد بن يوسف الكاتب ، والعباس بن المأمون

فتقدم الحسن فقبل ركبته ثم تراجع ، فقال له :

يا حسن ، أرأيت ، من امير المؤمنين ما اخرجك عن الطاعة ؟

ـ لا والله يا امير المؤمنين ، لم ار شيئاً ، ولكن سمعت ..

ـ سمعت ماذا ؟

ـ ان ما سمعته لا يصح ان يسمعه احد

ـ اذن تريد ان تكون وحدك في هذا المجلس

ـ اذا اراد امير المؤمنين

فالتفت الى الجماعة ، فقاموا فانصرفوا

ولم يبق غير وزيره والعباس ، فقال :

والان يا حسن ، ماذا سمعت ؟

ـ وانا آمن ؟

ـ قل وانت آمن

ـ سمعت ان طاهراً اخي مات مسموماً ...

فقاطعه قائلاً : كفى ، فقد سمعنا نحن ما سمعته انت ، والخبر كاذب لا صحة له .. ان حادثاً حدث لاخيك في جفن عينه فسقط ميتاً فلا تعد الى ذكر هذا ..

قال : لقد صدقت ما قاله لي الوزير وانتهى الامر

ـ ماذا قال ؟

ـ ذكر لي ما ذكره امير المؤمنين الان

فنظر الى احمد نظرة شكر ، ثم قال للحسن :

اجلس ، وكان يجب ان تنظر في الامر قبل ان تشهر السيف في وجه مولاك ...

ـ لقد اسأت الى نفسي واليك يا امير المؤمنين ، فانس الاساءة

قال : لو لم تكن اخاً لطاهر لما عفونا عنك .. قل ألك حاجة ؟

ـ ارجو ان تأذن لي في الاقامة ببغداد

ـ واهل بيتك ؟

ـ انهم هنا يا امير المؤمنين

ـ لك ان تمكث بالبلد الذي تشاء .. ثم قال :

امامك الجزيرة ففيها عبدالله ابن اخيك ، وبغداد ، وعلى شرطتها ابن اخيك الآخر ، اسحاق بن ابراهيم ، وخراسان وعليها طلحة

قال : اوثر ان استظل بظل امير المؤمنين ، واكون قريباً منه

ـ اختر ما يطيب لك ، وسنذكر دائماً ان طاهراً لم يمت ... اعطه يا احمد خمسين الف درهم ، ومر اسحاق ابن اخيه ، بان يهيء له داراً تصلح لامثاله ..

فخرج الحسن ، وهو يدعو لهذا الخليفة ، الذي يميت بالسم من هذه الناحية ، ويجود بالعفو عن الخارجين عليه ، من الناحية الاخرى ، ويهب لهم الجوائز والدور ...

ولكن ليس لك ، وانت تقرأ تاريخ المأمون ، ان تعجب لمثل هذا العفو ، يمنحه للحسن بن الحسين ، فقد كان ذلك شأنه مع معظم الرجال ، الذين خانوه وخرجوا عن طاعته .

وانك لترى في كتب العرب اشياء كثيرة وغريبة ، عن عفوه ، وعدالته واحتماله وصبره ، تستحق ان تكون المثل الاعلى ، لكل حاكم وامير ، وصاحب تاج .

كما انك ترى،على رأي الاستاذ وليم ميور ،في كتاب الخلافة ، ان هذا الخليفة العظيم ، الذي كان عهده وعهد ابيه ، ازهى عهود الخلفاء بل ازهى عهود التاريخ الاسلامي ، كثير التقلب في صداقته ، وفي سياسته ، يعود ذلك الى البيئة التي نشأ فيها ، والى تلك النزعة الفارسية الموروثة من امه ، والى استسلامه في معظم اموره لاولئك الذين كانوا حوله ، من وزراء ومستشارين

ومع اعتراف الفرنج والعرب بعدله وحلمه وعظمة نفسه وجوده ، لم تستطع كتبهم ، ان تنزهه عن الميل الى القسوة والجور ، في حوادث قرأت بعضها ، وستقرأ البعض الاخر .

ولو سلم التاريخ ، بان المامون كان بريئاً ، من مقتل وزيره الفضل بن سهل ، وولي عهده علي الرضا ، فهو لا يستطيع ان يسلم ، ببراءته مما جرى لهرثمة وطاهر ،

الذين اخضعا له الشرق والغرب

على ان قسوته ، لا تذكر الى جانب حلمه ، واذا ذكرت عـــدالته وعفوه ، اضمحلت وحشيته واختفت ..

نعم ، كانت المحاسن اكثر من الخطيئات ، ومن اجل ذلك ، كان عصره عصر العظمة والمجد لبني العباس ، وعصر المعرفة ، والفلسفة والعلم ، يهب له النشاط والقوة من روحه المثقفة ، المهذبة ، ويبذل المال الكثير ، للعلماء والفقهاء ، والمترجمين ، من النصارى والاسلام ، ليجعله عصر النور ، في زمن ارخى الظلام فيه ستاره ، وساده الجهل .

لقد كان المأمون ، الوافر العلم ، والكثير الاطلاع ، راغباً ، كل الرغبة ، في الثقافة والمعرفة بين قومه ، وهو يريد ان ينفخ في نفوس الناس ، الرغبـــة نفسها لتشمل النهضة العلمية جميع طبقات الامة ، ويزيـــد الشوق ، الى ادراك الحقائق ، والامعان في البحث والدرس

يقول جعفر الاغاطي :

لما ترك المامون خراسان ، وقدم بغداد ، أمر بان يدخل عليه جماعة المتكلمين والفقهاء ، واهل العلم ، يجلس لهم في صدر نهاره ، على لبود في الشتاء ، وعلى حصير في الصيف ليس معها من الفرش شيء اخر !

ويقعد للمظالم في الاسبوع مرتين ، لا يمتنع منه احد

وقد اختار من الفقهاء والعلماء لمجالسته ، مائة رجـــل ، يجالسه بعضهم كل يوم عدنهم ويحدثونه بالطب والنجوم ، والفقه ، لا يضجر ولا يمل

ويقول القاضي صاعد الاندلسي :

ان العرب في صدر الاسلام لم تهتم الا للغتها وشريعتها ، ولم يكن لهـا من العلوم غير صناعة الطب ، التي وجدت من قبل ، لحاجة الناس اليها

وكذلك كانت حال العرب ، ايام الامويين

حتى ظهرت دولة بني العباس ، فكان اول من عني بالعلم من خلفائهم ، خليفتهم الثاني ، المنصور ، ثم افضت الخلافة الى عبدالله المأمون ، الخليفة السابع ، فأتم ما

بدأ به جده وابوه ، واقبل على طلب العلم من مواضعه ، يسأل ملوك الروم ان يتحفوه بما لديهم من كتب افلاطون ، وارسطو ، وابقراط وغيرهم ، من فلاسفة اليونان ، فيفعلون ، فيختار لترجمتها ادباء ذلك العهد ، ويهب لهم من ماله ما لا يحتاجون معه الى سبب من اسباب العيش الرغيد

ويقول الاستاذ « سنتلانه » في محاضراته عن تاريخ الفلسفة :

ان تاريخ الترجمة في عصر العباسيين ، على ثلاثة ادوار

الاول من خلافة المنصور ، الى وفاة هارون الرشيد

من سنة ١٣٦ للهجرة الى سنة ١٩٣

وهي الطبقة الاولى من المترجمين

منهم يحي بن البطريق ، وجورجس بن جبرائيل الطبيب ، وعبدالله بن المقفع ، الذي مات حوالي سنة ١٤٣ ، وترجم كليلة ودمنه ، وبعض كتب المنطق ، ويوحنا بن ماسويه ، وكان في ايام الرشيد ، واعتنى بكتب الطب ، وعاش الى ايام الخليفة المتوكل ، وسلام الابرش ايام البرامكة ، وباسيل المطران

والدور الثاني من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠

وهي الطبقة الثانية

منهم يوحنا بن البطريق ، والحجاج بن مطر الذي عاش الى سنة ٢١٤ ، وقسطا ابن لوقا البعلبكي سنة ٢٢٠ ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي سنة ٢٢٠ وحنين بن اسحاق سنة ٢٦٠ ، وابنه اسحاق بن حنين سنة ٢٩٨ ، وغير هؤلاء

والدور الثالث ، من سنة ٣٠٠ الى منتصف القرن الرابع

ذلك كان ميل المأمون ورغبته في العلم

واما عدله وانصافه ، فخذ لك مثلا عنهما

ركب المأمون يوماً في الشماسية ، وخلفه حاجبه احمد بن هشام فصاح به رجل من اهل فارس :

الله الله يا امير المؤمنين ، ان احمد بن هشام ظلمني واعتدى علي

فقال : كن بالباب حتى نرجع ، ثم مضى

فلما جاز الموضع ، التفت الى احمد فقال :

ما اقبح بنا وبك ، ان تقف انت وصاحبك امام الناس في مجلس الخصومة وبسمع منه كما يسمع منك ، ثم قد يكون محقاً وتكون انت كما وصفك فوجه اليه من يحوله من بابنا الى بابك ، وانصفه من نفسك ، واعطه ما انفقه في طريقه الينا ، ولا تجعل لنا سبيلا الى ما تكرهه من تعنيفك ولومك ورد الحق الى صاحبه ، فوالله لو ظلمت العباس ابني ، كنت اقل قسوة عليك من انتظلم ضعيفاً لا يستطيع ان يصل الينا في كل وقت ، وقد تجشم السفر البعيد وكابد حرالهواجر وطول المسافة

فوجه اليه احمد من جاء به ، وكتب الى عامله يرد عليه ما أخذ منه ، ويشتمه ويعنفه

ووصل الرجل باربعة الاف درهم ، وامره بالرجوع من يومه

وهنالك موقف ، ليس في مواقف الخاصة والعامة موقف اشرف ، وافعل في النفوس الطاهرة منه

دخل رجل على المأمون ، وفي يده رقعة فيها مظلمة ، من امير المؤمنين

فقال له : أمظلمة منا ؟

قال : أفاخاطب يا أمير المومنين سواك ؟

- وما هي ظلامتك ؟

- ان سعيداً وكيلك ، اشترى مني جواهر بثلاثين الف دينار ...

- فاذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة من الخليفة ؟

- نعم اذا كانت الوكالة قد صحت له منك

قال : لعل سعيداً قد اشترى منك الجوهر وحمل اليك المـــال ؛ او اشتراه لنفسه ، فلا يلزمنا لك حق ، ولا نعرف لك ظلامة

فقال له بعد كلام طويل :

ان في وصية عمر بن الخطاب لقضاتكم : البينة على من ادعى ، واليمين على من انكر

فقال المأمون :

انك قد عدمت البينة فما يجب لك الا حلفة ، ولئن حلفناها لنحن صادقون اذ كنا لا نعرف لك حقاً يلزمنا

ـ اذن فانا ادعوك الى القاضي الذي نصبته لرعيتك

قال : نعم .. يا غلام ، علينا بيحي بن اكثم

فاذا هو قد مثل بين يديه ، فقال له :

اقض بيننا

قال : في حكم وقضية ؟

ـ نعم

ـ انك يا امير المؤمنين لم تجعل ذلك مجلس قضاء

قال : قد فعلنا

ـ اذن فانا ابدأ بالعامة اولا ليصلح المجلس للقضاء

ـ لك ذلك

ففتح باب المجلس ، وقعد في ناحية من الباب واذن للعامة.

ثم دعي بالرجل المتظلم

فقاك له يحي :

ما تقول ؟

ـ اقول ان تدعو بخصمي امير المؤمنين المأمون

فنادى المنادي

فاذا المامون قد خرج ، ومعه غلام يحمل مصلى

حتى وقف على يحيى وهو جالس ، فقال له :

نجلس ..

فطرح الغلام المصلى ليقعد عليه

فقال له يحي :

يا امير المومنين ، لا تاخذ على خصمك شرف المجلس.

فطرح للرجل مصلى اخر ..

ثم نظر يحي في الدعوى وطالب المأمون باليمين

فحلف ، ووثب يحي بعد فراغ الخليفة من يمينه ، فقام على رجليه ، فقال له المأمون :

ما اقامك ؟

قال : اني كنت في حق لله عز وجل حتى اخذته منك ، وليس الان من حقي ان اتصدر عليك .

ثم امر المامون ، ان يحمل الى الرجل ما ادعى به من المال ، وقال له :

خذه اليك ، فوالله ما كنا لنحلف كذباً ثم نسمح لـك فنفسد ديننا ودنيانا ، والله ما دفعنا اليك هذا المال ، الا خوفاً من هذه الرعية لعلها تظن انا تناولناك من وجه القدرة !!

ذلك هو القضاء في تلك الايام ، وذلك هو احترام الخلفاء والامراء لاحكامه ، وللقضاة الذين يصدرون هذه الاحكام

ويقول الشيباني :

جلس المامون يوماً للمظالم ، فكان آخر من تقـــدم اليه ، وقد هم بالقيام ، امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة

فوقفت بين يديه وقالت :

السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

فنظر المامون الى يحي بن اكثم

فقال لها يحي :

وعليك السلام يا امة الله ، تكلمي في حاجتك

فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا اماماً به قد اشرق البـــلد

تشكو اليك عميد القوم ارملة عدا عليها فـــلم يترك لها سبد

وابتز مني ضياعي بعد منعتها ظلماً وفرق مني الاهـــل والولد

فاطرق المامون ملياً ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني واقرح مـــني القلب والكبد
هـــذا اذان صلاة العصر فانصرفي واحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت ان يقض الجلوس لنا ننصفك منه والا المجـلس الاحد

فلما كان اليوم الاحد ، جلس

فكان اول من تقدم اليه تلك المرأة ، فقالت :

السلام عليك يا امير المومنين ، ورحمة الله وبركاته

فقال : وعليك السلام ، اين الخصم ؟

ـ الواقف على رأسك يا امير المومنين

واومأت الى العباس ابنه

فقال لاحمد بن ابي طالب وكان حاضراً :

خذ بيده فاجلسه معها مجلس الخصوم

فجعل كلامها يعلو كلام العباس

فقال لها احمد :

يا امة الله ، انت بين يدي امير المومنين ، وانك تكلمين الامـير ، فاخفضي من صوتك ، فقال المامون :

دعها يا احمد ، فان الحق انطقها واخرسه !

ثم قضى لها برد ضيعتها اليها ، وظلم العباس بظلمه لها

ثم كتب الى العامل في بلدها ، ان يوفر لها الضيعة ، ويحسن التصرف معها ، وامر لها بنفقة

افليس من الواجب ، على كل مؤرخ وكاتب ، ان ينشر مثل هذه الاخبار في الامة ، ليتعظ بها رجال الحكم ، ويؤمنوا بمثل هذه العدالة التي تساوي بين اصحاب التيجان والصعاليك ؟

واما عفو المامون ، فقد ضرب المثل به ، حتى قال احدهم له :

امير المومنين عفوت حتى كأن الناس ليس لهم ذنوب

ويكفي ، ان تعلم ، انه عفا عن الفضل بن الربيع ، وامثال الفضل

وخذ لك هذا المثل ، الذي نذكره لك ، مع استغرابنا اياه

كان للمأمون خـــادم يتولى وضوءه ، فكان يسرق اوعية الوضوء ، وهي من النحاس !

فعرف المأمون ذلك ، فقال له يوماً وهو يغسل يديه :

ويحك ، لم تسرق هذه الطساس « الاوعية » لو كنت اذا سرقتها اتيتني بهـا اشتريتها منك

قال : فاشتر هذا الذي بين يديك

قال : بكم ؟

قال : بدينارين ، فقال المأمون :

اعطوه دينارين ، فقال الخادم عندئذ

ان هذا الوعاء الان في الامان ! !

بقي ان نروي لك شيئاً عن احتماله ، الذي قامت به خلافته ، ولم يكن ذلك لا تال ، غير سياسة تمشي عليها المامون في ادارة الدولة ، ودهاء املى عليه ، في حر ، ان يداري الناس

قال المامون ، لعلي بن صالح احد حجابه ، وقد حضر الناس المجلس :

ادعُ اسماعيل

وهو يريد اسماعيل بن موسى

فخرج علي ، فادخل اسماعيل بن جعفر ، وكان المامون اشد الناس بغضاله ، فلما بصر به من بعيد ، رفع يديه الى السماء ثم قال :

اللهم ابدلني من ابن صالح مطيعاً ، فانه لصداقته لابن جعفر ، آثر هواه على هواي .

فلما دنا اسماعيل بن جعفر ، سلم ، فرد عليه

ثم دنا فقبل يده

فقال المامون : هات حوائجك

قال : ضيعتي بالمعيثة ، غصبتها وقهرت عليها
قال : نأمر بردها عليك .. ثم قال :
حاجتك ..
ـ يأذن لي امير المؤمنين في الحج
ـ اذنا لك ! ثم قال :
حاجتك
ـ وقف ابي ، أخرج من يدي وصار الى اخوي القاسم وجعفر ،
قال : فتريد ماذا ؟
قال : يرد الي
قال : اما ما كان يمكننا من امرك فقد جدنا عليك به ، واما وقف ابيك فذاك الى ورثته ومواليه ، فان رضوا بك والياً عليهم وقيماً لهم رددناه اليـــك ، والا اقررناه في يد من هو في يده
فخرج ، فقال المأمون لعلي بن صالح ·
ما لي ولك عافاك الله ، متى رأيتني نشطت لاسماعيل بن جعفر وعنيت به ، وهو من تعلم
قال : ذهب عن فكري يا امير المؤمنين
قال : صدقت ، لعمري ذهب عن فكرك ما كان يجب عليـك حفظه وحفظ فكرك ، ما كان يجب عليك الا يخطر به ، فاما اذ اخطأت فـــلا تعلم اسماعيل ما دار بيني وبينك في امره
فظن علي انه عنى بقوله اسماعيل بن موسى .. !
فاخبر اسماعيل بن جعفر القصة حرفاً حرفاً ، فاذاعها
وبلغ الخبر المأمون فقال :
الحمد لله ، الذي جعلني احتمل علي بن صالح ، وابن عمران ، وحميد بن عبدالحميد ومنصور بن النعمان
وجدير بك ، وقد قرأت العفو والحلم ، والاحتمال والصبر ، ان تقرأ القسوة

والوحشية ، والطغيان ، في هذه السطور :

كان القاسم بن عيسى ، الذي يكنى ابا دلف ، بطلا من ابطال العرب واشرافها وسادتها ، وزعيما لا يرد له رأي ، في امارة همذان ، من بلاد الفرس

وهو من اسرة كريمة ، وسليل رجال نالوا الشهرة والمجد ، والصيت البعيد ، بين جميع العشائر النازلة في العراقين

وقد قال فيه الشاعر علي بن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف بين مبداه ومحتضره
فاذا ولى ابو دلف ولت الدنيا على اثره

وكان ابو دلف ، قد انضم الى الامين ، في حربه مع المأمون ، وبذل الجهد ، ليحفظ له الخلافة

فلما قتل ، وانفرد المأمون بالامر ، لم يشأ صاحبنا ان يدخل في طاعته ، ويعترف بسلطانه ، بل آثر الرجوع الى مسقط رأسه لا يعبأ بالسياسة ولا يبالي

وراح شاعر اعمى ، يمدحه بقصيدة رائعة ، ويغالي في مدحه واطرائه ، حتى قال : انه اشرف العرب ، والمقدم عليهم جميعاً

فتميز المأمون من الغيظ .. وغضب على الشاعر غضباً شديداً اذ ظن انه اراد في قصيدته ان يهينه ، وينال منه

فامر به ، فاحضر ، ثم امر بتعذيبه .. وقتله

ولكن لم يمر على ذلك غير زمن قصير ، حتى خضع ابو دلف لامير المؤمنين فاحتفل به ، وقربه اليه ، وجعله من الخاصة !

أجل ، نسي اساءة ابي دلف ، وغفر له ذنبه ، وتمرده ، وحمله السيف دفاعاً عن الامين ، وتلك هي رحابة الصدر وسعة الحلم .. غير ان هذا التجاوز ، وهذا الغفران ، لا يمنع القارىء ، من الحكم عليه بالقسوة الغريبة ، التي املت عليه قتل شاعر اعمى لم يرد من شعره غير الكسب

ونحن لا نستطيع ، ان نذكر لك ، جميع ما كتبه المؤرخون من قبيح وحسن

عن المأمون

• • •

٤٢

من يحمل الى ام مران نعي الحرشي ؟
وكان عليه ان يقول :
من يحمل الى زينب هذا النعي ...
ذلك لانه كان يفكر فيها ... فيها وحدها ، لا تخطر له ام مروان في بال ...
فقال عثمان :
امامك ثلاثة رجال ايها الامير ، مروان والمغيرة وانا ، فاختر احدنا
— ومغيث ؟
— نسيت مغيثاً فان شئت فليكن رفيقاً لمن تجعله رسولك
— وما رأيك انت في هذا الرسول ؟
— ارى ان يسير مروان يا سيدي ، فقد كان عند راس الميت ، حينما احتضر ، وهو الذي سمع اعترافه الاخير
— هذا هو الرأي ، ولو لم ادع جنود الرقة الى الاجتماع هـذا المساء ، لامرته بالمسير اليوم
— نسيت ان اسألك عن الغاية من هذا الاجتماع
— ستعلم كل شيء ، فقل لمروان والمغيرة ، ان يحضرا
وجاء الفتيان ، فقال الامير لمروان :
اليوم يوم راحة كما ترى ، وقد خطر لي ان اسألك سؤالا ، أتذهب الى الرقة ؟

- اذهب الى حيث تشاء ... وماذا اصنع فيها ؟

- تنقل الى اهلك خبر عصمة

قال : ويريـــد الامير ان اترك سيفي ؛ واتخـلى عن واجبي ، لانقل خبراً مثل هذا ؟

- لو لم يكن الحرشي صهراً لام مروان ، لما فكرت في ذلك . . ان الساحة تبلع العشرات من الرجال كل يوم ، فنتولى الصلاة عليهم ، ثم تؤخـذ اسماؤهم ، وتنقل جثثهم الى الحفر ، وتلك هي الحرب ، واما عصمة فالامر معه غير هذا ، وانا لا استطيع الا ان ارسل الى ام مروان من يخبرها بما جرى ، لتعزي زينب ؛ التي امست ارملة وهي في زهرة العمر ...

فقال المغيرة :

مسكينة زينب ، فقد اكرهها جدنا رحمه الله على الرضى بالحرشي

قال : ليس لجدك يد في هذا ، وانما هو القدر الذي يسير الناس ، فصف لامك يا مروان ما رأيت ؛ واعد عليها ما سمعت ، وقل لها ان الامير هو الذي صلى على الفقيد ؛ وشيعه الى حفرته مع كتيبة الحرس

وجعل ينظر الى الاخوين والى عثمان ثم قال :

لقد عرفتم ان عصمة اراد قتلي ، فعاجله الموت قبل ان يبلغ غايته ، فهل يعلم احدكم لماذا اراد ذلك ؟

فقال المغيرة :

اعرف اشياء لا اجد سبيلاً الى ذكرها الآن .

- وهي سر ؟

- قد تكون في نظر الامير من الاسرار

وتجاهل ، على عادته ، ما يعلم ؛ وقال :

ليس بيني وبين الحرشي شيء خفي ، لقد هم امـير المؤمنين بضرب عنقه فسألته ان يعفو عنه ففعل ؛ ثم امره بان يترك الرقة ويخرج معي الى كيسوم فكان ما امرني به ؛ فاين السر في ما ذكرت ؟

- يرجع السر الى بضعة عشر عاماً ايها الامير
فامعن في تجاهله وقال :
هات ما تعلم
قال : كنت تلعب معنا ونلعب معك في الرقة ، ونحن اطفال ...
- نعم
- وكانت زينب ، بوجه خاص ، رفيقة لك في رواحك ومجيئك ..
- نعم
- ثم رحلتم الى خراسان ، ولم تلبث الحرب حتى استعرت نارها بين الاخوين وانتهت بمقتل الامين
قال : اراك تذكر اموراً يعرفها العالم ، وقد مضت !
- اجل اذكرها لأصل الى السبب الذي سألتني عنه
- وبعد ذلك ؟
- رجعتم بعد ذلك الى الرقة ، وقد سبقتكم اليها تلك الشائعة القائلة ، ان اباك غدر بابي ! ثم تولى ابوك حرب نصر ، وانت معه ، والحرشي يرافق مروان الى البيضاء ثم يعود منها ليقيم بدارنا اليوم واليومين والثلاثة ، وهو ينظر الى زينب نظرات الحب ..!
فضحك قائلا :
لقد امست قصتك قصة غرام !!
- هو ذاك ايها الامير ، وهذا الغرام ، هو الذي خلق عاطفة البغض في صدر عصمة ، فعول على قتلك !
- ولكنه لم يكن يعرفني ، ولم اسمع باسمه !
- اما هو فقد عرف كل شيء ، وخاف ان تعود الصحبة ، صحبة الطفولة بينك وبين زينب ، فيخيب رجاؤه بهواه ، فعمد الى الزواج مستنداً الى رضى ابي حاتم ، وزين الفرار من الرقة ، لسليمان بن سعد ، وابن قيس ، كما علمت ، ليبقى لشائعة الغدر اثرها في النفوس ، ثم فكر في اغتيالك ، ارضاء لهذه الغيرة الوهمية

الي سيطرت عليه

قال : اذا كان ما ذكرته صحيحاً فالحرشي مجنون ، وكنا نظن ، انه يتظاهر بالجنون .. اكان يخاف ان تعود العلاقة البريئة بيني وبين زينب ، وانا لم ارها مذ رجعت ؟!

ذلك ما صورته له ثورة نفسه ..

وعندما هم بالجواب ، دخل اثنان من الجنود يقولان :

لقد خرق العدو المدنة يا مولانا ، وهاجمت كتيبة منه خضراء الجيش !

فوضع يده على سيفه ، وخرج وهو يصيح بالجنود :

الى السلاح

ثم ركب فرسه ، وتبعه القواد والجند

وكانت النار قد اشتعلت في بعض الخيام

فعملت فرقة العبيد على اطفائها

بينما كانت فرق الجيش ، ترد الصفوف التي اعتدت

ولم يلق الجيشان سلاحهما ، الا عند الغروب

فلما جلس الامير في خيمته، توافد القواد ، بناء على امره، يضعون خطة جديدة، للقضاء على العقيلي الخارجي

وكانت خطتهم ان يكرهوا العدو على التراجع الى كيسوم ، ثم يطوق البلد ، وتسد منافذه وابوابه ، فيضطر ابن شبث الى التسليم

واقسم عبد الله ، انه لا يترك تلك الارض ، الا اذا ظفر او فشل

ثم اذن لكبار الجنود من اهل الرقة ، ومنهم مروان والمغيرة وقال لهم :

لا اريد ان يحارب احدكم وهو مكره ، اني باق هنا ، حتى يعلم امير المؤمنين، ويعلم العراق والشام ، ان الطمأنينة والأمن يسودان هذه الربوع

فقال احدهم :

ولا يسود الامن ، الا بعد القضاء على ثورة نصر

ـ نعم ، فمن كانت له الرغبة في الرجوع الى بلده فليفعل

فقال المغيرة :

ألسنا مسلمين ايها الامير ؟

– بلى

– والخليفة الذي ندافع عن خلافته، أليس خليفتنا ؟

– ما في ذلك شك

– اذن فمن واجب كل مسلم ، ان يكون جندياً من جنوده ، يحارب عدوه ، كما تفعل انت ، ويجود بحياته من اجله

– وانتم ؟

فقال كبيرهم :

اما نحن فلا نرجع الى الرقة الا بعد ان ترجع انت ، وتبلغ الغـــاية من عدو امير المؤمنين ان شاء الله

– واذا اكرهتنا الحادثات على البقاء بضعة اعوام ؟

– نبقى الى آخر العمر ...

فقال بارك الله فيكم ، ان امير المؤمنين ليفتخر بجنود لهم مثل هذه العقيدة . اذهبوا الآن ، واعلموا ان الحرب ستأخذ شكلاً جديداً ، وستكون المعارك بيننا وبين العقيلي هي المعارك الفاصلة

ثم قال للقواد :

سندفع العدو بالاسنة ، وصدور الخيل ، الى الوراء فما تظنون ، أنقدر على ذلك ؟

قالها ليختبر ويتبين ما عندهم

فاجابوه قائلين :

سترى ايها الامير ، ان الخيل لا تقف الا عند كيسوم !

وخرجوا ، على رجاء ان ينفخوا تلك الروح في صدور الجنود ..

● ● ●

ترك مروان ومغيث ساحة القتال ، راجعين الى الرقة

وكان الفتى ، يقول لعبده ، وهما في الطريق :

والله لم نر مثل عبدالله ؛ حاولنا ان نقتل اباه .. وحاول عصمة ان يغدر به ، ومع ذالك ، فنحن ، احب اليه من اخوته ، وهو يحترم امنا كما يحترم امه ؛ ولا يريد الا ان نكون في المعسكر ، اعز مقاماً من جميع الجنود ...

– ان الذي تقوله يا سيدي عرفته من قبل

– ماذا عرفت ؟

– عرفت ان الحب الذي كان بينكم وبينه لم يضمحل ، بل كان يزداد مع الزمان .

– وكيف ذلك ؟

– الم تسمع سيدي المغيرة ، يصف حال الحرشي ، وتفكيره في اغتيال عبدالله ؟

– بلى سمعت

– اذن فاعلم ان الحرشي لم يكن مجنوناً ، بل كانت الغيرة في صدره ، اقوى وابعد اثراً من الجنون ... ولم يكن مخطئاً في ظنونه ...

– اتريد ان تقول ان الامير يحب زينب ؟

– نعم يا سيدي ؛ يحبها وهو لا يراها ، ولا امل ولا رجاء له بها ، وقد منع نفسه من النظر الى البيت الذي تقيم به ، ووالله لم ار شبيهاً لهذا الحب

– ويلك وهل باح الك الامير بهواه ؟

– رأيت هذا الهوى يا سيدي في عينيه ؛ واحسست به ؛ وهو يحدثني بامر ذلك البراز المشؤوم الذي كان سبباً للعداوة

– وزينب ؟

– عندها مثلما عنده ، وانا اعتقد ، انها امذ تزوجها الحرشي ، لم تكف عن البكاء ..

– ولكن امي لم تقل لي شيئاً من هذا

– لا ادري اذا كانت تعلم ذلك ، غير ان سيدي المغيرة ، يعلم من احوال

عصمة ، ما اعلم ، وقد استطاع ان يتبين غيرته وخباثة نفسه ، من رواية سيار ، خادم سليمان بن سعد

— والهوى الذي ذكرت ؟

— وصفت له ما رأيته من دلائله ، فايقن بان ذلك صحيح ، وآمن ببراءة طاهر ، من قبل ان تظهر

— اذن سأحدث امي بالامر فقد يكون لها رأي فيه

— اجل لها رأي ، وان شئت فحدث زينب ، فقد مات زوجها ، وهي تستطيع اذا ارادت ، ان تبوح بما في القلب ..

— سأفعل ، وساصغي الى ما تقوله سعدى

وانتهى الاثنان الى الرقة ، في اول الليل

فلما دخلا الدار ، فتحت الام ذراعيها تضم مروان وهي تقول :

اين اخوك .. اين المغيرة ؟

— في الجيش

— وانت ما الذي اتى بك ؟

— جئت في مهمة

فقالت واللوعة في عينيها :

مغيث ... قل الحق .. اين مولاك المغيرة ؟

— في كتيبة الحرس يا سيدتي

— انك تكذب

— اقسم برأسك ورأس مولاي مروان

— وهل هو جريح ؟

— لو كان جريحاً لما اتيت الرقة

وكانت سعدى وزينب ، تنتظران ان تنتهي الام من سؤالها

فعانقتا اخاهما وتمتمت زينب قائلة :

وانا .. أليس لي ان اسألك عن عصمة ؟

- اني اتيت من اجله

وجلسوا فقال وهو يتفرس في زينب :

لقد عاود الجنون عصمة ، وكاد يحدث في الجيش حدثاً تضطرب له الخلافة

فاصفر وجهها ، واحست ان الارض تنحدربها ، ولم تقدر على الكلام

ان الحدث الذي تضطرب له الخلافة ، هو مقتل عبد الله

ومروان ينظر اليها بامعان ...

فقالت له امه .

- ماذا فعل ؟

- كان يريـــد ان يطعن الامير من الوراء ، فلم يرد الله ما اراد

واخذ يصف لهن توغله بين الصفوف ، حتى انتهى الى اقدام عبد الله على انقاذه ، من ذلك النطاق ، الذي ضربه العدو حوله ، فقال :

وقد عرض الامير نفسه للخطر عندما ابعد الاسنة عنه ، وكانت هذه الاسنة قد اخترقت صدره

- واين الجنون الذي عاوده كما قلت ؟

- هو هذا الذي حدثتك به .. ايخطر لرجل عاقل ، مهما تكن قوته ، ان يهاجم طائفة من فرسان العدو ، وهو وحده لا رفيق له ؟

قالت :هذه هي الجرأة والبطولةوالكثيرون من ابطال المسلمين يعملون ذلك .

قال : سمعت محمد بن العلاء ، وهو من كبار القواد يقول :

لم ار احداً قط فعل مثل هذا ...

- الم تقل انه حاول الغدر بعبد الله ؟

- بلى ، فقد كان له من وراء هجومه الذي وصفت ، غرض له خطره ، هو ان يأمن عبدالله به ، ويؤمن بانه صادق العقيدة ومخلص له ولامير المؤمنين

- وبعد هذه الثقة ؟

- بعد هذه الثقة اي بعد ان يقربه الامير اليه ، يطعنه في عنقه ، ثم يفر من الجيش

فعرفت زينب ؛ ان الامير لم يقتل ، كما كانت تظن

فتنهدت قائلة :

ومن اطلع على هذا الغرض ؟

- اعترف لي به عصمة نفسه .. قبل ان ...

وحول وجهه وسكت ...

فقالت وهي ترتجف :

قبل ان يموت ...

- نعم مات ... والامير هو الذي صلى عليه وشيعه الى القبر الذي دفن فيه

فحنت رأسها وجعلت تبكي ..

ولا ندري ، ابكاء حزن ولوعة على القتيل المجنون ... ام بكاء فرح وفرح ! ..

واطرقت الام وسعدى لا تقولان كلمة

ام مروان ، تفكر في هذا القدر ، الذي امعن في قسوته على زينب

وسعدى تفكر في القدر نفسه ، الذي انقذ اختها من جنون الحرشي !!

وسكت مروان بدوره يتبين الوجوه

حتى خرجت سعدى عن سكوتها فقالت ، وهي تعلم ما تقول ...

اذن كان عصمة يبغض عبد الله !

- اجل ، ويظهر ان بغضه لم يقف عند حد

فقامت زينب فتركت القاعة ، الى مخدع وراء البهو

ولحق بها مغيث

وكانت سعدى تقول لمروان

وما هي اسباب هذا البغض ؟

- كان يخاف ان يسلبه عبد الله زينب ، لانه يحبها وهي تحبه ...

- احبها وهي طفلة ، فلما اتى الوقة ، رأيناه ارفع من ينظر اليها وهي ذات بعل

وهكذا قالت ام مروان

اما هو فقد عول على المضي في الامر الى النهاية فقال :

قيل لي ، ان ذلك الحب لم يضمحل !

- ومن يستطيع ان يعلم ذلك .. ان زينب لا تترك زوجها في النهار والليل وعبد الله لا يغادر دار الامارة ، الا الى المسجد، او الى الشاطىء القريب من الدار، فكيف ظهر هذا الحب ؟

- من احاديث زينب ، واحاديث عبد الله ، وانت تعرفين الشيء الكثير عن الاثنين ، فاستحلفك بتربة ابي ان تذكري لي ما تعلمين

ثم قال :

ان عصمة قد مات ، وزينب اليوم حرة فلا شيء يمنعنا من التحدث بالامر . . وقد كنت اعلم ان زينب لم تكن راضية عن الزواج الذي اكرهت عليه

- هذا صحيح فهي لم تكن راضية

- وتحب عبد الله كما يقولون ؟

- نعم .. وتكاد تذوب حباً . . .

- اليوم ؟

- بالامس ، واليوم ، وفي الغد ، وقد خنقت هواها ، واعتصمت بالجلد ، حفظاً لشرفها وكرامة الاسرة

- وتظنين ان الامير يبادلها هذا الحب ؟

- هذا ما اراه ، ولكن الواحد منهما لم ير الآخر

- سأسألها فقد تعترف لي

- ليس من الرأي ان تفعل ذلك الآن

- ومتى اذن ؟

فقالت الام :

سأتولى انا سؤالها بعد بضعة ايام .. فهل انت واثقة بما تقولين ؟

- نعم ، ويقضي علي الواجب ، بان ابوح لكما ؛ بان هذا الزمان الذي مر على زواج زينب ، قضته بالبكاء . . . ألا ترى يا مروان انها تزداد هزالا وضعفاً ؟

- بلى ، وكنت اظن ان جنون عصمة ، وخروجه عن حده ، هما السبب في هذا الضعف

قالت : لولا هذا الغرام الصامت ، لما رأيت ضعفاً

وقالت لامها :

الا تذكرين ان زينب كانت خائفة ، عندما خرج القوم الى الحرب ؟

ـ اذكر ذلك

ـ لقد كان قلبها يقول لها ، ان زوجها سيغدر بالامير الذي تحب

فقال مروان :

كفى فقد فهمت ؛ ومن الحكمة ان تأخذاها بالحسنى ، وتكونا لها عزاء حتى ترجع من كيسوم

وفيما كانوا يتحدثون بهذا كانت زينب تذرف الدمع ، ومغيث يقول :

اشكري الله يا سيدتي فقد مات عصمة في ساحة الشرف ...

ـ بل مات وهو يفكر في الغدر ، وهذا هو العار

فقال : ان الناس لا يعلمون عن هذا الغدر ما تعلمين ، وعصمة لم يعترف به الا لسيدي مروان ولي ، والامير ومن حوله،سيحفظونه في صدورهم لا يبوحون به

قالت : كان الناس يقولون ان الحرشي ليس مجنوناً .. وكنت مؤمنة ، بان جنونه رحمه الله ، لا شك فيه .. مسكين لقد مات ولم يهنأ بحياته ...

قال : كان موته يا سيدتي امراً لا بد منه

ـ وماذا تعني ؟

ـ ألم يكن يفكر في قتل عبد الله ؟

ـ بلى

ـ اذن فافترضي ، انه لم يقتل في الميدان ، في ذلك اليوم ، وراح يحاول في اليوم الثاني ان يقتل الامير ، فقبض عليه قبل ان يفعل ، فماذا كان جزاؤه ؟

ـ وهل كنتم تعلمون ان غايته الغدر ؟

ـ نعم ، كان عثمان والمغيرة ، وانا ، نرى الشر ظاهراً في عينيه ، فعمدنا نحن الثلاثة الى حراسة عبدالله لا نغفل عنه ، حتى ان الامير نفسه كان يقول لنا : احذروا الحرشي !

- واي شيء فعله عبدالله ، عندما نقلوا اليه اعتراف عصمة ؟

طلب له الرحمة ، ثم امر بدفنه كما يدفن الامراء ، وامر سيدي مروان بالمجيء
مل النعي .. كما امرني بان اعزي سيدتي ، واسألها ان تتحمل النكبة بصبر ..

- اهو امرك بذلك ؟

- نعم ، ولم يرد ان يقول شيئاً من هذا لسيدي مروان

فاكتفت بما سمعت ، ومنعها الحياء والكبرياء ، من ان توجه اليه سؤالاً آخر ..

وعندما دخلت امها ، وسعدى ومروان ، كان مغيث يقول لها :

الموت طعناً بحراب العدو ، خير من الموت بسيف الجلاد ....

فجعلت امها وشقيقاها يعزونها ، وهم يعلمون ، ان لوعتها لوعة هوى خفي برح
، ولوعة المرأة الشريفة ، التي كان عمرها كله ، عذاباً وشقاء ...

وعرف اصدقاء الطائيين ، ان الحرشي قتل في كيسوم ، فاقبلوا يقومون
واجبهم ، نحو الارملة الصبية المنكودة الحظ

وبعد رجوع مروان ومغيث ، اعترفت الارملة لامها ، بانها عاشقة ، ولكن
، من ذلك النوع الطاهر ، الذي لا تنال منه الظنون

• • •

٤٣

طالت ايام الحرب ، بين عبدالله وبين نصر

وكان الشوق الى الرقة ، يدفع عبدالله ، الى التعجل في القتال ، واخضاع الثائر
الذي كانت حربه ، سبباً لبقاء العاشق ، بعيداً عمن احب ...

اجل ، كان الرجوع الى الرقة ، أهم ما يفكر فيه ، ليس لانه مل الحرب ،
وخاف العاقبة ، بل لان نار الغرام ، بعد مقتل الحرشي ازدادت ضرماً وسعيراً ..

ولم يفكر على كثرة العذارى ، من بنات القواد والامراء ، الا في هذه الارملة الصبية ، التي كانت زوجة لعدوه ..

حتى انه احس ، ان الحب لم يطغ من قبل ، كما طغى اليوم

ان براءة ابيه انتهى امرها .. والزوج ، الذي قضت الشريعة على زينب ان تخضع له ، قد مات .. وآل حاتم الطائي جميعهم ، يرغبون فيما يرغب فيه .. فأي شيء يبعده عن زينب ، وهي تحبه ، وهو لم يشك قط في هذا الحب ...

ان الحرب وحدها ، هي التي تحول بينه وبين ما يريد ، فعليه اذن ، ان يضرب ضربته بشدة وعنف ، لا يتردد فيها ولا يتراجع ، حتى يبلغ الغاية

كتب الى نصر ، يدعوه الى الطاعة

فأجابه بمثل ما اجاب طاهراً ، وجاء في جوابه :

أرأيت يا ابن طاهر ، ان عجزت عن قتالك ، حتى تدعوني الى ما دعوت اليه ان الايام بيننا ، فاستعن بجيوش الخلافة ، واجمع عشائر العراق والشام وسنرى

فلم يبق ، الا ان يبذل عبدالله وقواده ، جهدهم كله ، ليضيقوا عليه

وذلك ما فعلوه ، بعد زمن طويل ، وقتال ذهبت فيه الارواح

حتى رأى الثائر اخيراً ، ان التسليم لا بد منه ..

ولكنه لم يكن يريد ان يحني رأسه ، الا بعد ان يضيع آخر رجاء له ..

وكان معظم قواده ، ورؤساء من معه ، قد قتلوا ، وامسى في قلة

فكتب عبدالله الى المأمون :

لقد حوصر عدوك في كيسوم يا امير المؤمنين ، وقتل اركان جيشه

فورد عليه جوابه يقول :

سنرسل اليه من يسأله الخضوع قبل ان نكتب اليه

وكان عند المأمون وقتئذ ، ثمامة بن اشرس ، وهو من شيوخ الاعتزال .. والمأمون يثق به ، فقال له :

الا تدلنا على رجل من اهل الجزيرة ، له بيان وعقل ، يؤدي عنا ما نوجهه الى نصر ؟

قال : بلى يا امير المؤمنين ، محمد بن جعفر العامري

فأمر به ، فلما دخل عليه ، امره بان يسير الى العقيلي ، ويخوفه ، ويدعوه الى الدخول خاضعاً بين يديه

فأتى العامري الجزيرة ، ونقل الى نصر حديث المأمون

فاذعن ، ولكنه شرط شروطاً ، منها انه لا يطأ بساطه ...!

فخبر محمد الخليفة بما سمع ، فقال :

ما باله ينفر منا ؟

قال : لما تقدم من ذنبه يا امير المؤمنين

قال : أفتراه اعظم جرماً من الفضل بن الربيع ، ومن عيسى بن محمد ؟ اما الفضل ، فأخذ قوادنا واموالنا ، وسلاحنا ، وجمع ما اوصى به الرشيد لنا ، فذهب به الى اخينا محمد ، وتركنا في مرو لا نملك شيئاً ، وافسد علينا الامين ، حتى كان من امره ما كان ، فكان ذلك اشدّ علينا من كل شيء ..

واما عيسى بن محمد ، فانه طرد خليفتنا ، من بغداد ، مدينتنا ، ومدينة آبائنا ، وذهب بخراجنا ، وهدم دارنا ، واقعد عمنا ابراهيم بن المهدي خليفة دوننا ...

قال : اتأذن لي في الكلام يا امير المؤمنين ؟

ـ تكلم

ـ اما الفضل بن الربيع ، فانه صنيعتكم ، ومولاكم ، واما عيسى فرجل من ولتكم ، وسابقته ، وسابقة من مضى من اسلافه ؛ معروفة ، واما نصر فلم يكن له ولعشيرته يد مثل هؤلاء ، وانما كانوا جميعهم من جند بني امية

قال : انه كما تقول ، ولكن لا نرضى عنه الا اذا وطأ بساطنا وفعل ما امرناه به

فرجع ابن جعفر ، يقول ذلك لنصر

فصاح بالخيل ، فجالت ؛ وقال :

ويلي على المأمون ، وهو لم يقدر على اربعمائة ضفدع تحت جناحه ، أيقوى علي وعمي فرسان العرب ؟!

« هو يعني بالضفادع ذلك الخليط من الناس ، الذين غلبوا على طريق البصرة ، وخيل اليه ، لكبره وغروره ، ان الجماعة ضعفوا ، وعجزوا عن مواصلة الحرب، ولو لم يكن الامر كذلك ، لما بعث المأمون يسأله الصلح !..

فلما بلغ الخليفة قوله ، كتب اليه :

« اما بعد ، فانك يانصر بن شبث ، قد عرفت الطاعة وعزها ، وبرد ظلها وطيب مرتعها وما في خلافها من الخسارة والندم ، وان طالت مدة الله بك

« وقد رأينا ان نذكرك ، لما رجونا ان يكون لما نكتب به اليك ، موقع منك ، فان الصدق صدق ، والباطل باطل ، وان القول بمخارجه وباهله الذي يعنون به .

ولم يعاملك من عمال امير المؤمنين احد ، انفع لك ، في مالك ، ودينك ، ونفسك ، ولا أحرص على استنقاذك من الهلكة ، منا ، فبأي اول او آخر اقدامك يا نصر على امير المؤمنين ..!

« تأخذ امواله ، وتتولى دونه ما ولاه الله ، وتريد ان تبيت آمناً او مطمئناً ، او وادعاً ، او ساكناً ، او هادئاً ؟

« فوالله الذي يعلم السر والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً ؛ وبها خانعا ، لترين وخيم العاقبة ، ثم لنبدأن بك قبل كل عمل ، فان قرون الشيطان اذا لم تقطع كانت في الارض فتنة ، وفساداً كبيراً ...

« ولنطأن بمن معنا من انصار الدولة ؛ كواهل رعاع اصحابك ، ومن انضم اليك ، من ادنى البلاد واقصاها ، وطغامها واوباشها ، ومن انضوى الى حوزتك ، من لصوص الناس ، ومن لفظه بلده ، ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد اعذر من انذر والسلام »

غير ان العقيلي ، رفع رأسه ، متظاهراً بانه لا يكترث الامر ..

وجعل يخرج من حصنه ، ليقاتل مع رجاله ، قتال اليائس ينظر بازدراء وزهد الى دنياه ...

على ان عبدالله ، الذي ضاق صدره ، من هذا القتال الذي لا ينتهي ... كان

يتقدم كتيبتي الفرسان والحرس ، ويهاجم في الطليعة ، هجوماً لم يكن للعدو عهد به ، من قبل

ونصر ، يزداد ضعفاً وخوراً ، وتمنعه عزته من التسليم

حتى ظهر هـــذا الضعف بوضوح ؛ ولم يستطع ان يخفيـــه ، وراء مظاهر الاستخفاف

وكان من الطبيعي ، ان يوجه اليه عبدالله ؛ كتاباً آخر ، فيه الارشاد والنصح والامان ، هو هذا :

« اما بعد ، فان الاعذار بالحق ؛ حجة الله المقرون بهـــا النصر ؛ والاحتجاج بالعدل ، دعوة الله الموصول بها العز ، ولا يزال المعذر بالحق ، المحتج بالعدل ، في استفتاح ابواب التأييد ، حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ..

« ولست تعدو ان تكون انت ؛ فيما صنعت ، احد ثلاثة ، طالب دين ، او ملتمس دنيا ، او متهوراً يطلب الغلبة ظلماً .. فان كنت للدين تسعى فيما تصنع ، فاوضح ذلك لامير المؤمنين يقبله ان كان حقاً ، فلعمري ماهمته الكبرى ، ولا غايته القصوى ، الا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال ..

« وان كنت للدنيا تقصد ، فاعلم امير المؤمنين غايتك فيهـــا ، والامر الذي استحقها به ، فان استحققتها وامكنه ذلك فعله بك فلعمري مـا يجيز لنفسه ان يمنع الناس ما يستحقون ..

« وان كنت متهوراً ، فسيكفي الله امير المؤمنين مؤنتك ويعجل ذلك — كما فعل مع قوم سلكوا مثل طريقك كانوا اقوى يداً ، واكثف جنداً ، واكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك .

« وامير المؤمنين ، يختم كتابه بشهادة ان لا آله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وضمانه لك في دينه وذمته ، الصفح عن جرائمك والعفو عن كل ما فعلت ، وانزالك ما تستاهل من منازل الرفعة والعز ، ان اطعت ورجعت والسلام »

فجمع نصر ؛ شيوخ عشيرته ، ورجال المشورة والرأي ، واطلعهم على كتاب

عبد الله قائلاً لهم : اريد ان ابعث اليه اليوم ، بالجواب

فقالوا جميعهم :

ان التسليم مع الامان خير من القتال الذي لا خير لنافيه

فكتب الى عبدالله :

اما بعد ، فقد القيت السلاح ، وانا انتظر ما تشير علي به

فاجابه قائلاً :

موعدنا الليلة في المعسكر . وستسير معي الى الرقة ، ومنها الى بغداد ، وا
آمن ان شاء الله

وارتفعت اهازيج النصر ، في جيش الخلافة ..

فلما كان الليل ، اقبلت الخيل ..

نصر وكبار الرجال من اعوانه

فاستقبلهم امير الجزيرة خارج الخيمة ، ومعه محمد بن طالوت ، وابن العلاء ،
واحمد بن يحي ، والحسين بن عمر ، وغفار بن الاسود ، وعثمان ، والمغيرة ومروا
ووراءهم كبار الضباط ، وبعض الخاصة

وعانق عبدالله ، بطل كيسوم ، هـذا العقيلي الجبار ، الذي حارب جـ
الخلافة زماناً طويلا كتب له فيه النصر

ونادى منادي الجيش ، بعد ثلاثة ايام :

الى الرقة

ولكن قبل ان ينقلوا من كيسوم قدماً ، امر عبدالله ، فهدمت الحصو
التي كانت ملجأ للثائر ورجاله ، ومشى الغالب والمغلوب ، جنباً الى جنب ، ا
مؤخرة الجيش ، وهما يتحادثان ، ويذكران طاهراً وحربه ، والعقيلي يقول :

لقد كان ابوك في ذلك الحين ، يحارب وهو مكره

— وعرفت السبب ؟

— اجل فقد قدم كيسوم ، بامر ذلك المجوسي ، الحسن بن سهل . ولم يـ
يريد ذلك

- يظهر انك تعلم من امور بغداد ، ما يعلمه اهلها انفسهم

- نعم حتى اني اعلم ما يجري في قصور الخلافة ، واستطيع ان اعد لك مجالس العلم والادب ، الذي يقعد فيها الخليفة للفقهاء والشعراء ، وليالي الطرب ، التي يخلو فيها الى المغنين .. كما اني اعرف اسماء من عزلهم من الاقاليم ، ومن خلفهم من الولاة .. والان قل لي ، أبرىء الحسن من جنونه ؟

- هذا ما يقوله الناس

- ومتى تزف ابنته بوران الى امير المؤمنين ؟

- في العام المقبل ، فقد امست في السن الصالحة للزواج

- يقولون انها غاية في الجمال

- كما هي غاية في الادب ، وهكذا يجب ان تكون زوجة الخليفة

- والحسن اليوم في بغداد ؟

- انه في معسكره ، في مكان يقال له فم الصلح ، وقد اذن له امير المؤمنين ، بان يبقى هناك ما طاب له البقاء

- ولكنه يجيء الى بغداد

- نعم ، فامير المؤمنين يحبه ، وهو يتعهده بالعناية ، ويهب له المال الكثير فيزيده غنى

- اما انا فلا احب احداً من بني سهل

- اتعرف الحسن ؟

- لا ، ولم اعرف الفضل

- وكيف تبغضه وانت لم تره؟

- ان الفضل هو الذي قتل قائد الخلافة الكبير ، هرثمة بن اعين ، والحسن ، هو الذي الذي سلب اباك ، الولاية الكبرى ، التي اخضعها للخليفة بالسيف ، والاثنان ، ومن حولهما من رجال الفرس ، هم الذين جعلوا المأمون يؤثر العجم على العرب ، ولو لم يقتل الفضل ، لظل امير المؤمنين تحت رحمته

قال : احذر ان تقول لأحد ، ماتقوله الان .. ان امير المؤمنين لا يطيق ذلك.

قال : الا تعلم اني حملت السيف ، وخرجت على المأمون، انتصاراً لبني قومي؟

ـ بلى ولكن ما مضى قد مضى ، وليس من الرأي ان تذكر هذا.. . ان المأمون اليوم في عاصمة ابائه ، وبنو قومه هم المقربون .

فانتقل فجأة الى موضوع آخر فقال :

ان كتاب الامان في يدي ، فهل تظن ان الخليفة يغير ما ورد فيه ؟

فابتسم قائلا :

ليس في هذه الدولة ، على سعتها ، وامتداد رقعتها ، رجل يحفظ قوله وعهده ، مثل الخليفه ، وانا اضمن لك ، انت ستدخل بغداد ، بين صفوف مستقبليك ، من القواد والجند ، وسيفتح لك امير المؤمنين ذراعيه

قال : اخشى ان يستخف بي فأعود الى الجزيرة .

ـ لا تخف ، فهو اذا وعد وفى بوعده لا يمنعه من ذلك شيء

فآنس الصراحة والصدق في حديث عبد الله

فطابت نفسه ، ثم قال :

انك امير الجزيرة ومصر في الوقت نفسه ، أليس كذلك ؟

ـ بلى

ـ اما الجزيرة فقد انتهى امرها اليوم ، فمتى تسير الى مصر ؟

ـ عندما يأمرني الخليفة

قال : اين اسرتك ايها الامير ؟

ـ امي واخوتي جميعهم في خراسان

ـ ونساؤك ؟

ـ لا نساء لي فانا لم اتزوج بعد

قال : تبلغ مثل هذا المقام في الدولة ـ ولا تفكر في الزواج ؟

ـ لقد فكرت فيه اليوم .

ـ اذن كنت تنتظر ان تظفر بي !

ـ لا ، ولكن القدر اراد ذلك

وكأنه ذكر في تلك الساعة احباء قلبه ، فقال لعثمان وهو خلفه على فرسه :
اين مغيث ؟
ــ ذهب الى الرقة حاملاً بشرى الظفر
ــ ومن اذن له في ذلك؟
ــ انا فهل اخطأت ؟
ــ لا . ان لك ان تفعل ما تشاء

ولما انتهى الجيش الى البلد ، غصت الطرق والشرفات ، والسطوح ، بالشيوخ والنساء والغلمان ؛ حتى ان الصبايا اللواتي نشأن وراء الحجاب ، خرجن من خدورهن . ينثرن الازاهير على الجندي الظافر ، الذي انقذ البلادمن فظائع الحرب

ولم يشأ عبدالله ان يعرج مع ضيفه الكبير المغلوب ، على قصر الامارة ، بل اراد ان يسير الى مسجد المهدي ، ليصلي صلاة الشكر لله . .

وقد تكون له غاية اخرى ، هي ان يمر امام منزل زينب لعله يراها على شرفته

وكان مروان والمغيرة ، مع القواد ، الذين يمشون عن الجانبين

يتقدم الجميع ، غفار بن الاسود قائد الحرس ، وعثمان

وكانت حبيبة وابنتاها سعدى وزينب ، وراوية الجارية ؛ ومغيث على شرفة الدار ، والدموع ، دموع الفرح والابتهاج ، تجول في العيون

وقد نسيت زينب زوجها ، ونسيت كل ما مر بها وما حولها ، واتجهت في تفكيرها الى الامير الحبيب ، الذي يخفق فوقه علم الانتصار

ولم تكن ترى ، في ذلك الموكب الكبير الحافل بالقواد والضباط ، ورؤساء بني عقيل ، غير عبد الله

حتى انها ذهلت عن النظر الى اخويها ، اللذين يماشيان الامير

ولكن العبد الامين ، الذي نقل البشرى الى النساء الثلاث ، لفت انظارهن ، في تلك اللحظة الى نصر بن شبث . .

وكان عثمان ، بلباسه الحربي ، قد لفت نظر سعدى . . .

واذا بالمغيرة ومروان ، يومئان بالسلام

فرفع الامير عينيه الى الشرفة ، وابتسم . . .
فكانت تلك الابتسامة ، رجاء للقلب الكسير . . .

• • •

٤٤

الى امير المؤمنين من عامله عبد الله بن طاهر

السلام على امير المؤمنين

اما بعد ، فاني قد امنت نصر بن شبث العقيلي ، فالقى السلاح واستسلم ، وهو الان في قصر الامارة بالرقة ، وسيمثل بعد ايام ، بين يديك

ان الرجل يا امير المؤمنين ، من ابطال العرب ؛ وقد وعدته بانك ستنسى ذنبه ولا تسأله عن ماضيه ، وستنزله المنزلة التي يستحق ؛ فالتمس من سيدي ، ان يصغي الى رجائي ، ويأمر احدى كتائب الجيش ، بان تستقبله على جسر الزوارق

والسلام على امير المؤمنين ورحمة الله

وبعث بكتابه ، مع رجلين من رجال قصره ، قبل خروج العقيلي من الرقة بيومين اثنين

اما الذين رافقوا ابن شبث الى بغداد ، فكانوا ستة عشر رجلا

ثمانية من رؤساء العشيرة ، وثمانية من كبار الضباط في جيش الخلافة ، وعشرون آخرون من العبيد والغلمان

وكان بنو عقيل يقولون لنصر ، عندما ودعوا الامير :

أيفعلها المأمون ، ويتناسى أمانه

— يقول عبدالله انه لا يحنث بوعده .. ومع ذلك ، فقد انتهى كل شيء الآن ،

والامر بيد الله .

وكان ضباط الجيش يقولون :

سترى ان قصراً من قصور الخلافة ، سيعد لنزولك ، وسيظهر الخليفة ابتهاجه بهذا الصلح ، كما قال الامير

وكان استسلام نصر ، وتركه كيسوم الى الرقة ، قد بلغا بغداد

ثم مثل رسولا عبد الله ، بين يدي امير المؤمنين ، يحملان اليه خبر الاستسلام، ويقولان له :

ان الخارجي يصل الى بغداد ، بعد ثلاثة او اربعة ايام

فسر الخليفة ، وركع يشكر الله

ثم دعى اسحاق بن ابراهيم ؛ صاحب الشرطة ، وقال له :

كتب الينا عبد الله ابن عمك ، يسألنا ان نحسن وفادة نصر ، فاستجبنا طلبه ، فمر رجالك ، وفريقاً من الجند ، بان يقفوا صفين ، عند وصوله ، على جسر الزوارق ، وكن انت ، وقائد جيش العاصمة ، على رأس هؤلاء

فارسل اسحاق ، فارسين من فرسان الشرطة ، ينتظران قدوم الرجل ، خارج المدينة ، ليحملا اليه على عجل نبأ وصوله

وراح الناس في الشوارع ، يتحدثون بذلك ، والفرح يملأ القلوب

الا فريقاً من اشياع ابراهيم بن المهدي ، كرهوا ان يتم الصلح ؛ بين امير المؤمنين وبين خارجي قوي ، له صوته البعيد في العشائر

بل كرهوا ان يظفر جيش الخلافة ، وترتفع اسهم الخليفة ، في القطر العربي !

وانا لنذكر لك اسماءهم ، وان كنت قد عرفتهم في احد الفصول التي قرأت

ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب ، المعروف بابن عائشة ، العدو الالد للمأمون ، وهو من بني العباس ، ورفيقاه في جهاده ... محمد بن ابراهيم الافريقي ، ومالك بن شاهي ، واخرون ؛ ممن كانوا يسعون في البيعة لابن المهدي

اجل ؛ فرح الناس جميعهم بالصلح ، الا هؤلاء !

واجتمعوا ، في سفينتهم ، على شاطىء دجلة ، يريدون ان يحدثوا في بغداد

حدثا ؛ يخرج ابن شبث عن جده ويشوه الامان الذي في يده ، ويجعل عبد الله بن طاهر ؛ كاذباً فيما وعد به

وماذا يصنعون ، ليستقيم لهم الامر كما يريدون

رأى بعضهم ، ان يقولوا لنصر ؛ قبل وصوله :

ان المأمون سيذكرك ماضيك .. ثم يضرب عنقك فخير لك ان ترجع .

ورأى البعض الآخر ان يقولوا له :

انه سيبعثك الى حرب بابك الخرمي ، ويكتب الى قائد جيشه في تلك البلاد ليغدر بك ! كما امر رجاله بان يغدروا بوزيره ، الفضل بن سهل

ولكنهم خافوا ان يظن نصر الظنون ، ويهزأ بما يقولون

فعولوا على قطع الجسر ، قبل ان يخرج الجند ؛ للقاء الخارجي ، فيدخل بغداد، من غير ان يستقبله جندي ..

وفي هذا وحده ، يستطيعون اقناعه ؛ بان الخليفة نفسه هو الذي فعل ذلك ، ليمنع الناس من ان يستقبلوه ، على الشاطيء الآخر

فيثور ثائره ، وتنقلب فكرة الصلح ، الى عداوة جديدة مستترة ، لا تلبث حتى تظهر بعد حين

عولوا على ذلك ، ولم يفكروا في العاقبة ، وجهلوا ، ان بالقرب منهم ، خليفة يعرف من هم ، وقد احاطتهم شرطته ، بنطاق من العيون

وكان اسحاق بن ابراهيم ، وعمران القطربلي، يسهران ويراقبان ؛ وعمران ، يعرف اسرار الجماعة ، ولا يخفى عليه من اعمالهم شيء !

وفي احدى الليالي ، رأى رجال الشرطة ، ابن عائشة واتباعه ، عند جسر الزوارق ، وهم يتهامسون ..

ثم سمعوهم يتحدثون بما عولوا عليه

فنقل ذلك الى المأمون ، فقال لاسحاق :

الا يكف ابن عائشة عن المؤامرات ؟

– يظهر انه لا يستطيع ان يعيش ، الا اذا كانت هنالك جريمة

ـ وماذا تظن ، اتراهم يقدمون على قطع الجسر ؟

ـ نعم ، وقد امرت رجالي بان يقبضوا عليهم عند المساء

قال : لا تفعل

ـ لماذا يا امير المؤمنين ؟

ـ لانه يجب ان تقطع الزوارق ،فيراها الناس، ويعلموا انابن عائشة واشياعه، هم الجناة

ـ اذن نصبر حتى تنفذ المؤآمرة

ـ اجل ، فأبن شبث يصل بعد يومين على الاكثر ،فقل لرجالك ان يتجاهلوا وجود المتآمرين ، حتى يسقطوا في الشرك

وكان نصر ، وهو في طريقه الى بغداد ، يلقى الكثير من الحفاوة ، حتى قارب العاصمة .

فتهيأ القوم ، وراح الجند ، مع رجال الشرطة ، يستعدون للسير في صباح اليوم الثاني ، الى الجسر

ولكن لم يبزغ الفجر ، حتى كانت الزوارق ، زوارق الجسر ، تسبح في دجلة، ولم يبق هنالك جسر يصلح لوقوف الجنود

وعندما حاول ابن عائشة واعوانه ، ان ينفضوا أيديهم مما فعلوا ، ويتراجعوا ليحتجبوا وراء الجدران ، كان صاحب الشرطة قد اعد لهم العدة ، ليسوقهم مقيدين الى دار الخلافة ، وفي مقدمتهم صاحبنا العباسي

فقال المأمون لصاحب شرطته :

ضع النسيب العزيز ابن عائشة ، على باب القصر ، في اشعة الشمس ، وخذ اصحابه الى السجن ، ريثما نرى رأينا فيما صنعوا

ـ ولا تريد يا امير المؤمنين ان ترى نسيبك ابراهيم ؟

ـ لا ، فالرجل الذي يكون هذا شأنه ، وهو ينتمي الى العباس ، لا يستحق ان يدخل القصر

- والجسر ؟

دع الجسر الآن ، وسننظر في امره بعد دخول نصر

واقبل نصر ، مع رجاله ورجال عبد الله ، حتى دخلوا القصر ، من غير ان يلقاهم الجند ، على الشاطيء الآخر

دخلوا ، وهم يرون ابن عائشة مقيداً على الباب ، وكان قد انتهى اليهم خبره ولم يشهد مجلس المأمون ، غير العقيلي ورؤساء عشيرته

والمأمون على سريره ، يحفه جلال الملك ، وقد جلس عن يمينه ويساره ، ابنه العباس ، واحمد بن ابي خالد ، والحسن بن سهل ، وابو اسحاق « المعتصم »

ووقف الحجاب بالباب

فسلم القوم ، ثم تقدم نصر فقبل يد المأمون

وفعل رجاله مثله

والخليفة يهش لهم ، وهو ينظر الى الرجل الذي لم يخضع له ، الا بعد اعوام ثم امرهم بالجلوس وقال لنصر :

لقد نسينا ما مضى فانت اليوم من رجال الخلافة ، ومن احب القواد الى امير المؤمنين ، فقال :

بل انا عبد من عبيد امير المؤمنين ، وقد جئت طائعاً ، خاصعاً ، لما يأمرني به

قال : كتبنا الى عبد الله ، نامره بان يهب لك الامان ، ويضمن لك الرضى ونحن نثبت لك الان ما كتبناه اليه ... ألك حاجة ؟

- حاجتي إن يشملني حلم امير المؤمنين وعفوه

- سيكون لك ما تشاء .... من هم هؤلاء ؟

- رؤساء بني عقيل يا مولاي

- وكانوا جميعهم في كيسوم ؟

- نعم ، فقد خرجوا عن طاعتك كما خرجت ، واستسلموا كما استسلمت

قال : يخيل الينا انك توءثر الشام على العراق

- الشام بلادي يا امير المؤمنين ، ولكن العراق الذي ، يقيم به خليفة المسلمين

هو بلاد كل مسلم ، فخير لي ، ان اقضي فيه ما بقي لي من العمر

قال : ستعيش في البلد الذي تحب .. كيف رأيت عبد الله بن طاهر ؟

قال : لم يل الجزيرة امير مثله يا مولاي ؛ له في الحرب جلد ابيه وصبره ، وخبرته ودهاؤه ، وهو من اولئك الرجال الذين يملكون بالسياسة ، قلوب الاعداء ..

ـ ولا تعلم انا جعلناه اميراً على مصر

ـ بلى ، وسمعته يقول ، انه ينتظر امر امير المؤمنين بالسفر اليها ، ليجعل الناس جميعهم عبيداً له ..

ـ ان المسلمين المخلصين اخوة للخليفة ، واما المسلم المتمرد الحسود ، فهو عدونا وان يكن من ابناء عمنا .. انظر الى ابراهيم المعروف بابن عائشة ، هذا من سلالة العباس ، الذي ننتمي نحن اليه ، ألم تره على باب القصر ، يرسف بقيوده ؟

ـ رأيته يا امير المؤمنين وبلغني ما فعل ، فاذا رأيت ان تعفو عنه !

فجعل يهز رأسه ويقول :

نعفو عنه ! لقد غضضنا الطرف وعفونا اكـــثر من خمسين مرة ، فكلما زدناه رحمة وحلماً ، زادنا بغضاً وحقداً ، وهو لا يطيب له عيش ، الا اذا رأى عمنـــا ابراهيم بن المهدي ، جالساً من جديد على سرير الخلافة

وكأنه كره ان يمعن في الحديث عن ابن عائشة ، فقال لوزيره :

مئة الف درهم لنصر ، جزاء خضوعه .. ومئة الف اخرى للاقامة حيث يشاء ببغداد ... واعط كل واحد من هؤلاء خمسين الفاً ، قبـل ان يخرجوا من القصر

ونهض قائلا :

ان اختفاء ابراهيم بن المهدي ، يتحفنا كل يوم ، بابن عائشة جـــديد ، فقل لصاحب الشرطة وقائد الحرس ، وجميع الجنود الذين يطوفون في المـــدينة ؛ في النهار والليل ، ان عليهم ، في خلال هذا الشهر ، ان يدخلوا القصور والدور التي يشتبهون بها ، فابراهيم لم تبتلعه الارض ، وهو في بغداد

واومأ الى الحسن بن سهل ، فلحق به ، الى الرواق ، ثم الى الجناح الخـاص .

فخفض نصر صوته يقول لابن ابي خالد :

من هو هذا الرجل ؟

— هذا الحسن بن سهل ، الذي سيتزوج امير المؤمنين ابنته بوران

— والفتى المشرق الجبين ؟

— العباس ابن الخليفة ، والآخر اخوه ابو اسحاق

وكان الناس في ساحات القصر ، ينتظرون خروج ابن شبث ، فقد اعجبهم فرسه وهيبته ، وجمال وجهه

وعندما اطل ؛ وامامه بعض رجـــال الشرطة ، كانت العيون من كل جانب متجهة اليه ...

حتى وصل الى الدار التي اعدت له ، وهي مـن الدور ، التي كان يقيم بها بعض رجال الامين

وبعد ساعتين ، اقبل القواد يزورونه ، وهم لا يعرفونه ، وجعلوا يتحدثون بقضية ابن عائشة ، واقدامه مع اشياعه ، على قطع الجسر

وابن شبث يقول :

اذا كانوا ارادوا ، فيما فعلوا ، ان يخلقوا اخلافاً جديداً ، بيني وبين امير المؤمنين فقد اخطأوا ، لأني عندما استسلمت الى الامير عبد الله ، لم يكن غرضي غير الخضوع للخليفة من دون شرط .. غفر الله لابن عائشة ، لقد قيل لي انه من بني العباس ، وكان عليه ان يفرح ويسر بالصلح الذي جرى

فقال صاحب الشرطة :

الم تر أن بني العباس كانوا فريقين ؟

— بلى ، ولكن الامين قدمات ، ومن مصلحة الخلافة ، ان يكون العباسيون صفاً واحداً مخلصاً لامير المومنين

قال : لا تنس ان امر ابراهيم بن المهدي لم ينته بعد، وابن عائشة هذا من اصحابه

— وماذا ترى ، أيعفو امير المؤمنين عنه ؟

— لا اعلم ، فقد اخطأ من قبل فعفا ، ثم اخطأ فعفا ، حتى اخرجه هذه المرة من حلمه ، فامر به فوضع في اشعة الشمس ، على ان يحمل بعد ذلك الى السجن ..

ومرت ثلاثة ايام ، وابن عائشة مقيد على الباب ، والشمس ترسل اليه ألسنة النار ..!

وهو لا يشكو ، ولا يستغيث

ثم حمل الى مجلس المأمون ، ومعه محمد الافريقي ، ومالك ، بن شاهي ، وثلاثة آخرون

وفي المجلس صاحب الشرطة ، والحسن بن سهل

فقال المأمون لابن عائشة :

يا ابراهيم ، اتطمع بعد بخلافة ابراهيم بن المهدي ، وهو قابع في احد سراديب بغداد ، لا يجسر على الظهور ؟

فارخى نظره وقال : لا اطمع في شيء

– واي شيء هو قطع الجسر ؟

– كرهت ان يأتي العاصمة ، رجل كان عدواً لامير المؤمنين فتستقبله الشرطة والجيش

– اذن كنت تحافظ على كرامة الخليفة

– نعم

– وهؤلاء شركاؤك في هذه المكرمة ؟

= نعم

– ومن هم رجالك الاخرون ؟

– ليس لي رجال

– ومن كان يقوم بالدعوة الى ابراهيم ، وبالمؤامرات التي تفضي الى خلع المأمون ؟

فاطرق ولم يجب

فقال لمالك بن شاهي :

وانت ، ألا تذكر اسماء الانصار ، الذين افسدهم ابن عائشة ؟

– لا اعلم من هم يا امير المومنين

وكذلك قال محمد الافريقي

فالتفت الى صاحب الشرطة قائلًا

خذ منهم اسماء الشركاء ...

فخرج ثم عاد ، يتبعه ثلاثة رجال في ايديهم السياط وقال للمأمون :

اتأذن لي ؟

ــ افعل ما تشــاء

ــ هنا في مجلسك ؟

ــ اجل فينبغي ان نرى ونسمع

فقال لرجاله :

اضربوا هؤلاء

واشار الى ابن عائشة ، والافريقي ، وابن شاهي

فهوت السياط ، حتى تعبت الايدي

فصاح مالك يقول :

افعل ما يأمر به امير المؤمنين

فقال صاحب الشرطة :

اكتب اسماء اصحابك

فكتب اسماء طائفة كبيرة من اهل بغداد

فاخذ المأمون هذه الاسماء وقال لاسحاق

احمل هؤلاء الى السجن

ففعل ، ولما رجع ؛ قال له الخليفة :

لا تعرض لاصحاب هذه الاسماء بسؤ ، فنحن نخشى ان يكونوا ابرياء ، وضع العيون على ابن عائشة وشركائه ، فهم لا يكفون عن الاذى ولو كانوا في السجن

وبعد بضعة ايام ، بلغ الخليفة ان الجماعة سدوا باب السجن ومنعوا الحراس من الدخول ..

واخذوا ينقبون الجدار ، ليخرجوا منه في ظلام الليـــل

فركب المأمون اليهم بنفسه ، ومعه اسحاق وكبار الخاصة وبعض الخدم ثم امر بهم فاخرجوا ، وقال للافريقي :

اردتم الخروج من السجن لتعودوا الى المؤامرات، وتكيدوا لامير المؤمنين :

فنظر اليه نظرة حقد ، وظل ساكناً

فقال : اضربوا عنقه !

ثم قال لابن شاهي :

تقدم انت ، الم تنقب الجدار بامر ابن عائشة ؟.. قل نعم او لا

قال : بلى يا امير المؤمنين

قال : اجعلوا رأسه عنـد راس الافريقي !

وجعل يدعو الآخرين واحداً بعد واحد ، ويأمر بضرب اعناقهم ،

حتى انتهى الى رئيسهم فقال له :

هيه يا ابن عائشة ، لقد قام في ذهنك ، ان القدر غافل عنك ، ففعلت ما فعلت، وانت ترجو ان يسلبنا عمنا ابراهيم حقنا الذي هو من الله ، ويجعلك من وزرائه ، الم يكن هذا حلمك ؟

فابتسم ابتسامة السخرية ، والاستهزاء !!

فقال المأمون : هكذا يبتسم الابطال عند الموت ! افعلوا به ما فعلتم بالاخرين

فنفذ الامر ..

ثم اخذ ابن عائشة فصلب ، وهو اول عباسي صلب في الاسلام

وبعد خمسة ايام ، انزل وكفن ، وصلي عليه ، ودفن في مقابر قريش

واوصى الخليفة صاحب شرطته من جديد ، بان يبحث بيقظة وحذر عن ابراهيم بن المهدي ..

والذي يقرأ التاريخ ، يرى ان المأمون كان قاسياً جداً ، في حكمه على العباسي وجماعته ، وهو الذي عفا عن رجال كانوا في نظره ، ونظر الناس ، اعظم ذنباً من هؤلاء .!

ويظهر ، ان الكيل كان قد طفح ، ولم يبق في الصدر مجال للصبر ..

• • •

نعم ايها الامير ؛ ان زينب ، انتقلت الى منزل ابيها بعد موت زوجها ، وهي تقيم به .

ــ اذن علي ان ازور القوم ، معزياً بالحرشي

ــ متى يكون ذلك ؟

ــ اليوم او غداً .. ولكن سعدى وزينب ستحتجبان

فقال عثمان :

اما احتجاب زينب فيما مضى ، فسببه انها كانت تخاف زوجها ، ولم تشأ سعدى ، ان تنفرد بالسفور ، والمثول بين يديك

ــ لقد كان ذلك من قبل ، واما اليوم ؟

ــ اما اليوم فقد تغيرت الحال ، وانا اعتقد انك ستري الاثنتين

قال : نذهب الليلة ، فخبر المغيرة ومروان

ــ سأرى المغيرة ، لان مروان في البيضاء

وخرج ؛ فأتى دار الطائيين ، وكان الجلوس بالقرب من سعدى يطيب له ...

وتلك العاطفة الجديدة العذبة ، التي ترددت في صدره ، اخذت تنمو وتزداد

فاقبل الجميع يستقبلونه ، ويشكرون له وفاءه واخلاصه ...

وعيناه تنظران بشغف الى سعدى ، وهي بدورها تنظر اليه

ثم جعلوا يسألونه عن الامير ، فقال :

سيزوركم في هذا الليل ليقوم بواجبه ، وسيمهد الى المغيرة ، في ان يعزي زينب

فاجابه المغيرة قائلاً :

ان زينب هنا ، ولن ترجع الى بيت الحرشي

- ولكنه لا يراها
- لماذا ؟
- لانها ستعمد الى الاستخفاء في احدى الغرف ؛ مع سعدى
فقالت حبيبة :
لقد تعودنا ان نجالس جيراننا واصحابنا من الرجال كما تعلم .. ولكن كان لزينب زوج ، لا يريد الا ان يجعلها في قفص ! ان الامير ، من اعز الناس علينا ، فليجيء عندما يشاء فلن يجد حجاباً ...
وكانت زينب تضطرب .. كالحبيب يضطرب للقاء الحبيب ..
وخطر لسعدى ، وقد عرفت الحب ، ان تسبر الغور ، فقالت :
من يرافق الامير ؟
- لا اعلم
فالتفتت الى امها قائلة :
اذا رافقه احد الرجال الذين لا نعرفهم كان علينا ان نحتجب ، اليس كذلك ؟
- بلى ، ولكن سيكون عثمان رفيقاً له
- وان لم يطب لعثمان ان يفعل ؟
فقال : كنا بيتاً واحداً ، واسرة واحدة وسنبقى ..
ويظهر انه لم يكن هنالك سوء فهم ، بين الاثنين .. فقد عرف الواحد منهما ما اراده الاخر ...
وانصرف الفتى ، وفي نفسه الاحلام والمنى ..
وعندما جن الليل ، دعا الامير ام عثمان ، الى قصر الامارة ، وجرى بينه وبينها ، وبين عثمان ، حديث خاص لم يطلع عليه احد ...
ثم مشى الفتيان ، يريدان بيت حاتم
فدخل مغيث يعلن قدومهما
فوقف المغيرة وام مروان يرحبان بهما .. وسعدى وزينب بباب القاعة وهما سافرتان

فسلم عبدالله على الفتى وامه ، ثم تقدم يصافح الصبيتين ويقول :

لقد عاد اخيراً ، اخوكما الذي عرفتماه ، وهو صغير ..

فقالت سعدى :

اجل عاد ، وهو امير ..

وجلسوا .. فقال لزينب :

ليس لي ان اعيد ذكر ما جرى في كيسوم ، ان الحرب لا ترحم احداً ،وقد كانت بطولة الحرشي وجرأته ، سبباً لوفاته ، رحمه الله !

فأكبرت الارملة اباءه وقالت :

هذه خير تعزية لي يا سيدي الامير

فانتفض قائلا :

لست اميراً .. لقد تركت امارتي في القصر ، وانا ادعى هنا عبدالله بن طاهر !

ــ اذن اشكر لك تعزيتك يا عبدالله ، وارجو ان تنسى ما اعترف به قتيلنا قبل موته ..

قال : لم اسمع هذا الاعتراف الذي تذكرين . وسأصف لامير المؤمنين بسالة عصمة ، وحسن بلائه ، لينظر الى ابيه نظرة رضى

ثم قال :

اني اليوم في الرقة ، وسأتركها الى مصر ، لاخمد ثورتها،واعيد القوم الى الطاعة افلا تقولون لي ، اي شيء استطيع ان افعله من اجلكم قبل سفري ؟

فنظرت الى امها كأنها تسألها ان تتولى امر الجواب ،

فقالت ام مروان :

اما الشيء الذي تستطيع ان تفعله من اجلنا،فهو ان تبقى في الرقة لاتخرج منها

قال : اني يا ام مروان والي مصر ، والواجب يدعوني الى المسير اليها ، قبل ان تلتهم نار الثورة فيها ، كل شيء

ــ أليس للرجل الذي اخمد النار في كيسوم ، ان يستريح ؟

ــ بلى ، غير ان هذه الراحة تخلق له التعب والهم بعد قليل . ان اميرالمؤمنين

يثق بي ، فلن اضيع ثقته بالاستلقاء على الفراش الوثير ، في قصر الامـــارة ، والاسترسال في اللهو .

- ومتى تذهب ؟

- افكر في قضاء حاجة لي ، قبل ذهابي .

- هنا ام في عاصمة المأمون ؟

- في الرقة ؛ ففرضي فيها ، وليس في بغداد .

- يخيل الي اني اعرف هذا الغرض .

- فضحك قائلا

اذن اشهد انك ساحرة

- نعم ، وهذا السحر يقول لي ، انك تريد الزواج !

- ولا يقول لك شيئاً اخر ؟

- بلى ، يقول ان للقواد الذين حولك ، طائفة من الحسان ، هن بنات ابن العلاء وابن طالوت وسليمى بنت الحسين بن عمر ، وغيرهن من فتيات الحي ، وستختار احداهن !.

قال : سحرك صدق وكذب ياام مروان ، اني اريد الزواج ، نعم ، ولكن لم افكر في بنات القواد ، وصبايا الاحياء كما تقولين ، ولم يخطر لي ان اسأل عن واحدة منهن

وكانت زينب مطرقة ، وهي تعلم ، ان امها لا تتراجع ، الا بعد ان تقرأ ما في نفس الامير .

وقد سمعتها تقول له :

ألم تقل ان غرضك في الرقة ؟

- بلى

قالت : ادعو الله ان يرعاك ، ولو لم تكن أخاً للمغيرة ومروان ، لما سألتك عن شيء من هذا

- ولو لم تكوني اماً لي ؛ لما حدثتك بهذا الامر .. اني لن اتزوج ، الا اذا كان لك رأي في هذا الزواج ...!

ـ انا ؟

ـ نعم انت ، فعبدالله بن طاهر ، يعلم انك تحبينه ، كما تحبين بنيك وسيسألك ان تقولي كلمتك في الفتاة التي سيختار ..

ـ وتعرف هذه الفتاة ؟

ـ كنت اعرفها وتعرفني من زمن ليس بالقصير ..

والآن ؟

ـ رايتها مرة واحدة من غير ان اقول لها كلمة

فنظرت اليه زينب نظرة قصيرة فيها كل الهوى ..

وجعل المغيرة يتفرس في الاثنين وقد عرف ما في القلبين

وكانت الام قد اكتفت بما سمعت ، فانتقلت الى حديث آخر قائلة

من هو صاحب الثورة في مصر

ـ عبيد الله بن السري

ـ وما الذي دعاه اليها ؟

ـ طمعه بان يستأثر ببركات ارض النيل ، ويستقل بالامارة الى الابد

قالت : كان حاتم رحمه الله يقول لي : ان اقليم مصر خير الاقاليم في دولة الرشيد ولكنه بعيد

ـ اجل بعيد ، غير ان السفر اليه لا بد منه

وفيما كان الاثنان يتحدثان بهذا ، كانت سعدى وعثمان ؛ غافلين ؛ ذاهلين لم يسمعا من حديثهما غير القليل

ذلك لان روحيهما ، كانتا قد انتقلتا الى عالم آخر يبسط الغرام ظله فيه ..

ثم سمع القوم صوت ام عثمان في البهو ،

ولم تلبث حتى سلمت على الجماعة ، وجلست بالقرب من ام مروان

فمكث عبد الله لحظة ، ثم استأذن هو وعثمان ، وخرجا

فقلقت زينب لهذا الانصراف الفجائي ..

واستولت الدهشة ، على المغيرة وسعدى وامها

غير ان جارتهم كانت تبتسم ، وقد ازالت قلقهم بقولها :
ينبغي ان يذهب الاثنان في هذه الساعة ، ليخلو لنا الجو
واستوت في مجلسها قائلة :
كان علي ان انتظر رجوع مروان من البيضاء ، لاقوم بالامر الذي ندبت له..
اني لم استطع الا ان افعل ما امرت به
وخفضت صوتها قائلة :
جئت الان يا ام مروان ، اقص عليك حكايتين....
قالت : حكايات خير ان شاء الله ..
ومد القوم اعناقهم يصغون الى المرأة ، فقالت :
الحكاية الاولى ، هي ان الامير عبد الله يرغب في الزواج
ــ لقد قال ذلك لنا منذ ساعة ، ولكنه لم يذكر لنا اسم الزوجة
ــ اما انا فقد ذكرها لي
ــ وهل نستطيع ان نعلم من هي ؟
ــ انها فتاة تنتمي الى اكرم العشائر
ــ ذلك ما يجب ان يكون
ــ وهي اجمل من الصباح
ــ ليس جمالها بكثير على عبد الله ..
ــ ونساء الرقة جميعهن يتحدثن بهذا الجمال
ــ اذن خلقها الله لتكون سيدة الحسان
ــ هو ذاك ، وقد طلب الي ان اشاورك في امرها ، ثم اخطب له
فقالت : لا استحق ان يخصني الامير بهذا الرضى .. من هي ؟
ــ هي الطفلة التي عرفها في صغره ، والمرأة الطائية التي قتل زوجها في كيسوم
ــ ويلك يا ام عثمان ، انها زينب !
ــ نعم زينب .. فما رأيك في الخطبة ؟
ــ ليس لي ، الا ان اهنىء ابنتي بهذا الخطيب الذي لا تجد الصبايا خيراً منه ..
ماذا تقولين يا زينب ؟

فتفجر الدمع من عينيها وقالت :

أتحلم الارملة الشقية ، بان يكون لها رجل ، احسن من عبدالله ؟ لقد نظر الله الي فالشكر له

وامعنت في البكاء

فقالت لها ام عثمان :

ابكي يا زينب ، فهذا بكاء الفرج بعد الضيق

وقالت لام مروان :

بقيت الحكاية الثانية التي تشبه الاولى ... اني اخطب سعدى لعثمان

قالت : انه اهل لها وهي اهل له ...

— وانت ياسعدى اترضين به ؟

فتمتمت تقول : نعم

فقامت فقبلت الصبيتين قائلة :

موعدنا غداً في مثل هذه الساعة ، وسيجيء الامير وعثمان ، فنتفق على كل شيء

وودعت وانصرفت

فابصر القوم مغيثاً وراوية ، يرقصان في الدهليز ..

فقالت لهما ام مروان :

ماذا تفعلان ؟

فقال مغيث : لقد خطبت راوية ، وسيتم الزواج ؛ يوم يتم زواج سيدتي سعدى وزينب .

فتناولت راوية احدى الوسائد وضربته على رأسه

واخذوا يضحكون ...

وقضوا ليلهم والبهجة ملء النفوس

● ● ●

عرفت ان ابراهيم بن المهدي ، لم يبايع ابن اخيه المأمون ، يوم بايعه اهل بغداد بل ذهب الى الري ، فبايعه بعضهم بالخلافة ، وظل على العرش سنتين الا ثمانية عشر يوماً ، والمأمون في خراسان

وعرفت ، ان المأمون ، عندما ترك خراسان ، راجعا الى بغداد ، امر فحوصر ابراهيم في الري ، فهرب ، ثم تنكر وضاع في العاصمة ... ينتقل من دار الى دار من كوخ الى آخر ، لا يهنأ له عيش ، ولا يخرج الى نور الشمس

وشرطة المأمون وحرسه ، يبحثون عنه ، ويدخلون كل منزل يشتبهون بوجوده فيه ، فلا يعثرون عليه

حتى كانت جناية ابن عائشة الاخيرة ، ومقتله مع اصحابه ، بعد قطعهم الجسر

فأمر الخليفة ، قائد حرسه عجيف بن عنبسة ، وصاحب شرطته اسحاق ، بان يشتدا في الطلب ، ويبثا العيون ، في النهار والليل ، حتى يقبضا عليه

والح امير المؤمنين في الامر ،

فتفرق الحراس والشرطة ، يطوفون في الشوارع والازقة وحول المساجد والمنازل ، يتبينون الوجوه ، ولا يغفلون عن احد

ففي احدى الليالي ، بينما الحراس يروحون ويجيئون ، رأى حارس اسود ، ثلاثا من النساء ، على وجوههن الحجاب ، يحاولن العبور الى الشاطىء الآخر ، على جسر ضيق لا يكثر الناس فوقه ،

فوقف لهن قائلاً :

من اين انتن واين تردن ؟

فناولته احداهن خاتم ياقوت ، كان في اصبعها ، له قيمته وثمنه ، ليخليهن ولا يسألهن ،

فلما تبين الحارس الخاتم دبت الريبة في صدره ، وقال في نفسه :

هذا خاتم رجل له شأنه في الدولة

ورفعهن الى رئيسه وكان قريباً منه

فامرهن الرئيس بان يسفرن ، فامتنعت واحدة منهن

فجذبها نحوه ، فبدت لحية رجل !

فدفعه الى محافظ الجسر ، لعله يعرفه..

فقال المحافظ : هذا ابراهيم بن المهدي...

وذهب به الى باب المأمون ، فقال له :

احتفظ به الى الغد

فلما كان الغد ، امر به فاقعد في قصر الخلافة ، والمقنعة التي تقنع بها في عنقه ، والملحفة على صدره ، ليراه بنو هاشم ، وجميع الناس ، من رجال القصر ، واهل بغداد

على ان المأمون ، لم يشأ ، في ذلك اليوم ، ان ينظر اليه

بل قال لاحمد بن ابي خالد

خذه الى دارك ، بعد ان يراه الناس ؛ وليسجن فيه

ومرت الايام ، حتى اتى رمضان

فتحدثت الخاصة ، والقواد والخدم يقولون :

ان بوران بنت الحسن بن سهل ، ستزف في هذا الشهر ، الى امير المؤمنين

ثم رأوا ، ان جناحاً خاصاً ، في قصر الخلافة ، اعد لها

ولم يلبث المأمون ، حتى خرج من بغداد ، مع حاشيته وقواده ـ والمقربين اليه يريد معسكر الحسن بن سهل ، في فم الصلح

وامر بعمه ابراهيم ، فاخرج معه ، دون ان يراه

وقدتقدمه الغلمان والخدم ،ينقلون الخبر الى الحسن وذويه حتى انتهى الى المعسكر

فضج القوم بالدعاء له ، وكان الحسن ، ووجوه قومه ، في الصف الاول ،يقبلون ثوبه ويديه .

وفي اليوم الثاني ، زفت بوران اليه

فلما دخل الدار التي تقيم بها ، كان عندها جدتها ام الفضل والحسن ، وحمدونة بنت الرشيد ، اخت الخليفة ، وام جعفر ، زبيدة ام الامين

فنثرت عليه جدتها ، الف لؤلؤة ، من أنفس اللآلىء ..

فأمر الخدم بان يجمعوها ، ودفعها الى بوران قائلا :

سلي حوائجك ..

فامسكت حياء ولم تجب ، فقالت جدتها :

سلي سيدك فقد امرك ..

فقالت وهي تنظر اليه ، وفي عينيها الرجاء :

اسأل امير المؤمنين ان يرضى عن ابراهيم بن المهدي

وكان ابوها الحسن ، قد أمرها بان تشفع فيه

فاجابها المأمون قائلا :

قد فعلت ، وماذا ايضاً

– وان تأذن لام جعفر في الحج

– اذنت لها ، فماذا ايضاً ..

– لم يبق الا ان ادعو الله عز وجل ، ان يرعاك ، ويبقيك عونا للعرب

فقامت زبيده ، فألبستها الثوب اللؤلؤي الاموي .

واقام المأمون ، في ضيافة الحسن ، سبعةعشر يوماً ، يعد له ولجميع من معه ، كل يوم ، ما يحتاجون اليه ، وما يليق بأمير المؤمنين

وقد خلع الحسن على القواد ، والمستشارين ، على مراتبهم ، الخلع الكثيرة ، واحسن صلتهم وصلة الخدم

ثم كتب اسماء ضياعه في رقاع ، ونثرها على القواد ، فمن وقعت عليه رقعة منها ، فيها اسم ضيعة ، بعث فسلمها اليه !!

فكان ذلك الجود ، الذي لم يسبقه اليه احد ، اسرافاً غريباً ، لامه المأمون عليه

وانا لنذكر لك هنا ، خبراً اخر عن جوده ، وادب نفسه :

قيل ، قدم عليه شاعر يلتمس صلته

فاشتغل عنه مدة قصيرة ، وكان وقتئذ مقلا ، ولا مال لديه ،

فكتب اليه الشاعر :

المال والعقل مما يستعان به ... على المقام بابواب السلاطين

وانت تعلم اني منهما عطل ... اذا تأملتني يا ابن الدهاقين

اما تدلك اثوابي على عدمي والوجه اني رئيس في المجانين
والله يعلم ما للملك من رجل سواك يصلح للدنيا وللدين

فامر له بعشرة الآف درهم ، لم يكن عنده غيرها ، وكتب على رقعته

اعجلتنا فاتاك عاجـل برنا قلا ولو انظرتنـا لم يقلل
فخذ القليل وكن كانك لم تنل ونكون نحن كأننا لم نسأل

ورجع الخليفة وعروسه ، ومن معهما الى بغداد

وجاء دور ابن المهدي ، فلما ادخل على الخليفة قال له :

هيه يا ابراهيم

فقال يا امير المؤمنين ، ولي الثأر محكم في القصاص ، والعفو اقرب الى التقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وان تعف فبفضلك ثم انشد :

ذنبي اليك عظيم وانت اعظم منه
فخذ بحقك اولا فاصفح بفضلك عنه
ان لم اكن في فعالي من الكرام فكنه

فقال :

يا ابراهيم ، لقد حبب الي العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، اما لو علم الناس ، ما لي في العفو من اللذة ، لتقربوا الي بالجنايات . ! ان القدرة تـذهب الحفيظة ، والندم توبة ، فلا تثريب عليك ، يغفر الله لك ... فانشد ابراهيم قصيدة طويـلة هذه معظم ابياتها :

يا خير من رفلت يمانيـة به بعد النبي لآيس او طامع
وأبر من عبد الاله على التقى غيباً واقوله بحق صادع

ومنها :

متيقظاً حذراً وما تخشى العـدا نبهان من وسنان ليـل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخـافة وتبيت تحرسهم بقلب خـاشع
للصالحات اخـاً جعلت وللتقى وأباً رؤوفـاً للفقير القانع

نفسي فداؤك اذ تضل معاذري ... وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة ... رفعت بناءك للمحل اليافع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع اليك بشافع
الا العلو عن العقوبة بعدما ... ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت اطفالا كافراخ القطا ... وعويل عانسة كقوس النازع

ومنها :

ما ان عصيتك والغواة تقودني ... اسبابها الا بنية طائع
حتى اذا علقت حبائل شقوتي ... بردى الى حفر المهالك هائع
لم ادر ان لمثل جرمي غافراً ... فوقفت انظر اي حتف صارعي
رد الحياة علي بعد ذهابها ... ورع الامام القادر المتواضع
كم من يد لك لم تحدثني بها ... نفسي اذا آلت الي مطامعي
أسديتها عفواً الي هنيئة ... وشكرت مصطنعاً لاكرم صانع

ومنها :

ان انت جدت بها علي تكن لها ... اهلا وان تمنع فاكرم مانع
ان الذي قسم الخلافة حازها ... من صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع امرها ... وحوى رداؤك كل خير جامع

فلما انتهى منها ؛ قال المأمون لوزيره :
أمرنا برد ضياعه وامواله ، فقال ابراهيم :

رددت مالي ولم تبخل علي به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي ، ابغي رضاك به ... والمال حتى اسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوي عارية سلفت ... لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

• • •

٤٥

من امير المؤمنين عبد الله المأمون الى عبد الله بن طاهر عامله على الجزيرة ومصر

اما وقد انتهى امر نصر بن شبث ، فاترك الرقة الى بغداد ، حين وصول هـذا الكتاب ، ولا تتردد ، فامير المؤمنين بحاجة اليك ...

فتناول عبد الله الكتاب في صباح اليوم الذي عول في مسائه، على زيارة خطيبته وقد ساءه وصوله .

ثم قال لعثمان :

يظهر ان القدر ، لا يطيب له الا ان يقف حاجزاً بيني وبين زينب

ودفع اليه كتاب الخليفة

فلما قرأه قال :

انستطيع مخالفة امير المؤمنين فيما يامرنا به

— لا

إذن — فاذهب الى بغداد ، وانظر في الامر الذي طلبت من اجله على ان تعود لتنظر في امر الزواج

افلا تظن زينب ان لنا رغبة في ترك الرقة

ستقرأ الليلة كتاب امير المؤمنين ، فتعلم انك مكره على السفر ، وسيكون الزواج بعد رجوعك ؟

قال : اخشى امراً واحداً ، هو ان يامرني المأمون ، بالذهاب الى ما حول اذربيجان ، لاخضاع بابك الخرمي

— اذا فعل ، فاستمهله ريثما تتزوج

ثم قال :

اما انا فاظن ، انه يريد ان يوصيك باشياء ، قبل ان تسير الى مصر

ـ اذا كان هذا ، هان الامر

ـ وهو هين في الحالين ان شاء الله

وسار الاثنان عند المساء ، ومعهما ام عثمان ، الى دار الطائيين

وكان القوم ينتظرونهم ، وقد عاد مروان من البيضاء .

فقال عبدالله ضاحكا

لقد امست زينب لي ، وسعدى لعثمان ، اليس كذلك يا ام مروان ؟

ـ بلى

ـ اذن يحق لكل واحد منا ان يجالس خطيبته ...

وتقدم فصافح زينب ، والشوق مطل من عينيها وعينيه

ثم جلسوا وهو يقول لمروان :

انعقدت الخطبة ولم تكن حاضراً ، وكدت اسافر الى بغداد ، وانت غائب .

ـ الى بغداد ايها الامير ؟

ـ اجل

وما تصنع فيها ؟

ـ لا اعلم ، فقد ورد علي كتاب امير المؤمنين يدعوني اليها

فخفق القلبان ، قلب سعدى ، وقلب زينب ...

وقبل ان يجيب مروان ، امر عثمان بان يناوله الكتاب

ففعل ... ثم تناقلته الايدي ، حتى انتهى الى يد زينب ، وكأنه كتاب من نار ...

وساد السكوت القاعة . ثم قال مروان :

متى تذهب ؟

ـ غداً ، على رجاء ان الغيبة لا تطول ، واعتقد ان الزمان ، الذي تعود ان يجفو فيما مضى ، سيترك جفاءه هذه المرة ويعمد الى اللين ...

فقال المغيرة : اجعلني رفيقاً لك الى العاصمة

ـ اذا اذنت ام مروان

قالت : ليس المغيرة خيراً منك ، فخذه معك ان اردت

ــ وسأستأذن له في دخول القصر ، فيرى مجلس امير المؤمنين ، ويرى حوله وزراءه واخوته وبعض بنيه ،

فقال مروان ..

وانا ايها الامير ؟

ــ واما انت فتبقى هنا مع عثمان

فسمع العبد يقول :

وسيقوم مغيث ، بخدمة اميره وسيده في الرواح والمجيء

فابتسم عبد الله قائلاً :

ليس للامير غنى عن الخدم الامناء مثلك ، تهيأ للسفر ..

واراد في تلك الساعة ان يخفف من لوعة زينب فقال لها :

اما انت ، فاذا طاب لك السفر الى بغداد ، فاستعدي منذ الآن

فخفضت صوتها قائلة :

اي والله يطيب لي ...

فضحكوا جميعهم .. اما هو فقال :

ولكن عثمان ، لايطيب له الا القعود داخل هذه الدار لا يخرج منها الا اذا اكرهوه على الخروج . ويظهر انه نسي عبد الله ...

قال : لا خير في رجل نسي اميره المحسن اليه

ــ ولكنك بت ساكتاً ، ولم تذكر السفر مع اميرك

ــ ذلك لاني رأيت البقاء في الرقة ، اقرب الى رضى الامير من سفري

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لقد شئت ان يكون المغيرة رفيقاً لك

ــ نعم

ــ وامرت مغيثاً بان يعد عدة الرحيل

ــ نعم ..

ـ وبعد يومين او ثلاثة ايام ، يذهب مروان الى البيضاء ولا يبقى في الدار، مع ام مروان وسعدى وزينب ، غير راوية .. اتريد هذا ؟

ـ قل انك لا تطيق ان تفارق سعدى ...

ـ كما ان الامير لايطيق ، لولا امر الخليفة ، ان يفارق زينب ....

فقال لزينب :

اصحيح ما يقوله عثمان ؟

ـ لا ادري ؛ بل لا اجسر على ان اقول كلمة .

ـ لماذا

ـ لان الدنيا لم تبتسم لي بعد ، وانا اخاف هذا التنكر المستمر ، الذي لم يصف لي فيه عيش ..

قال : سيصفو هذا العيش باذن الله بعد قليل.

وكانه لم يستطع ان يحتمل ما رآه ، من كآبة الحبيبة ،

فنهض قائلا للجماعة :

سيكون خليفتي على الرقة محمد بن العــــلاء ، فاذا كانت لكم حاجة ، فاسألوه قضاءها ... قم يا عثمان ..

ووعدهم وهو يقول للمغيرة :

كن في القصر عند الفجر مع مغيث

وخرج وهو يرى الدمع في عيني المرأة التي احب

فتنهدت زينب قائلة :

من كيسوم الى بغداد ، ومن بغداد الى مصر ، وهكذا حتى تأتي الساعة :

فقالت لها امها :

لم يبق الا ان تشكري الله على نعمته يا بنية ، فقد ولى زمان البؤس كما ترين ،

فقالت سعدى : كان على عبد الله ان يتزوج ، ثم ينصرف الى العاصمة

فاجابها المغيرة :

يتزوج الليلة ، ثم يسير غدا ؟؟

– واي شيء يمنعه من ان يقيم اسبوعاً ثم يذهب

– يمنعه من ذلك كتاب امير المؤمنين ، الذي يامره فيه ، بان لا يتردد في المسير اليه

وجعل يضاحك زينب ويقول :

يا سيدتي الاميرة ، اميرة الجزيرة ومصر ... اطمئني فالامير سيعود بعد شهر وسيكون لك ما تريدين ...

ثم قال لسعدى :

اما انت فستمسين وصيفة في قصر الاميرة ومن حاشيتها ، كما ان عثمان من حاشية عبد الله ...

فاغتصبت الاثنتان ضحكتين ..

وراح مغيث يقول :

واما انا ، فسأنتقل مع عروسي راوية الى القصر نفسه ، ليرى اهل القصر جمال العرائس الثلاث ويمجدوا الله ...

قالها وخرج راكضاً الى الفناء ، قبل ان ينهال المغيرة عليه بالضرب

ونامت زينب ليلتها ، يطوف حول فراشها طيف الحبيب ...

• • •

عرضت لاحمد بن ابي خالد ، وزير المأمون ، علة اقعدته في فراشه بضعة عشر يوما ، لم يخف فيها الم ، ولم يجد القليل من الراحة ..

ففي احدى الليالي ، وقد صحا الجو ، وصفت السماء ، رأى الخليفة ان وزيره ذهب الم ، وان العافية لا تلبث حتى تعود اليه ..

فدعا المغنين ، ومعهم عمه ابراهيم بن المهدي ، وهو الخبير بصناعة الغناء ، وصناعة الشعر ، وكان قد اذن له ، بعد عفوه عنه ، ان يشهد مجالس الشراب والطرب ،

الأمر

وجعل عقيد يغنيه ارتجالا ..

وغيره يضرب عليه

ثم اقبل اسحاق الموصلي ، فقال له المأمون :

كيف تسمع مغنينا هذا ؟

فقال : هل سأل امير المؤمنين غيري ؟

– نعم ، سألنا عمنا ابراهيم ؛ فوصفه وقرظه واستحسنه

فقال له :

يا امير المؤمنين ، ادام الله سرورك ، واطاب عيشك ، ان الناس قد اكثروا في امري حتى نسبتني فرقة منهم الى التزيد في علمي :

فقال : لايمنعك ذلك من قول الحق اذا لزمك

فقال لعقيد :

اردد هذا الصوت الذي كنت تغنيه

فغناه ، وتحفظ فيه ، وضرب ضاربه عليه

فقال اسحاق لابراهيم بن المهدي :

كيف رأيته ايها الامير ؟

قال : مارأيت شيئاً يكره ، ولا سمعته ..

فاقبل على عقيد يقول له حين استوفاه

في اي طريقة هذا الصوت الذي غنيت ؟

قال في الرمل

فقال للضارب : وانت في اي طريقة ضربت ؟

– في الهزج الثقيل

فقال : يا امير المؤمنين ماعسيت ان اقول في صوت يغني مغنيه رملاً ، ويضرب ضاربه هزجا ، وليس هو صحيحاً في ايقاعه الذي ضرب عليه

ففهم ابراهيم بن المهدي ، ما قاله اسحاق ، فقال :

صدق ياامير المؤمنين... الامر فيه الآن ظاهر

فغاظ قوله الموصلي ، فقال :

باي شيء ظهر الان ، ولم يكن ظاهراً قبل ، اتوهم انك استنبطت معرفة هذا وانت انما علمته مني واقتداء بقولي ..

فقال له المأمون : صدق ابو محمد

وتعجب من ذهاب ذلك على كل من حضر ، و كنى اسحاق في تلك الليلة مرة، اعجابا به

فلما ذهب من الليل ثلثه ، اقبل الخادم حسين يقول :

ابقاك الله يا امير المؤمنين ، لقد اخذ الله اليه احمد بن ابي خالد

قال ويلك أمات احمد

- هذا ما نقله الي غلمانه يا امير المؤمنين

قال : تركناه عند العصر وهو على احسن حال ، وقد ذهبت علته

- غير ان الموت فاجأه في هذا الليل حين ظن اهله انه سيشفى

قال : رحمه الله ، لقد كان من خيار الوزراء وكان يسعى ليجعل الناس جميعا مخلصين لامير المؤمنين ... اذهب وادع احمد بن يوسف

فلما جاء قال له :

اين عمرو بن مسعدة؟

- اظن انه في منزله يا امير المؤمنين

- قد يكون عند يحي بن اكثم .. الا تعلم ان احمد الوزير ترك هذه الدنيا الليلة

- بلى يا امير المؤمنين ، علمت ذلك الان

- اذن فاذهب مع ابن مسعدة ، وانظرا فيما يحتاج اليه ذووه وامكثا هناك حتى الصباح

وعندما طلعت الشمس ، ركب المأمون مع قواده وخاصته ، الى منزل وزيره يصلي عليه ، ويشيعه الى مضجعه الاخير ويقوم بتعزية اهل بيته

ولما دلي في حفرته ، ترحم عليه قائلا :

انت والله كما قال الشاعر :

اخو الجد ان جد الرجال وشمروا وذو باطل ان كان في القوم باطل

وظل نهاره كله ، يفكر في وفائه وصدقه في خدمته

وكان الناس في القصر وخارج القصر يقولون.

ان احمد بن يوسف ، سيخلف احمد بن ابي خالد

ذلك لان الخليفة ، دعاه اليه بعد موت الوزير ، ولم يدع عمرو بن مسعدة ...

وكان ابن مسعدة ، يتولى ديوان الرسائل ، اما ابن يوسف ، فقد ولاه المأمون ديوان السر ، وبريد خراسان ، وصدقات البصره ، وعمرو ، اعظم رتبة منه

وقد صدقت ظنون الناس

فالمأمون كان هواه في ابن يوسف لجودة خطه ، وحفظه اسرار القصر ، وحذقه في صناعة الانشاء

حتى انه كان يأمره ، بكتابة الكتب التي يريد ان يشتهر امرها ، وتذكر في الاقاليم

وما لبث حتى امره بالمجيء في مساء ذلك اليوم ، ومجلسه يغص بعظماء الدولة وامراء البيت المالك

فلما دخل ، هش له ثم قال :

دعاك امير المؤمنين ، ليعهد اليك في امر ، لا يعهد فيه ، الا الى الامناء والاوفياء من رجاله

قال : اعترف اني قاصر في وفائي لخليفة رسول الله

ـ ونحن نعترف ، بانك تحسن القيام بما تفرضه ، ونفرضه عليك مصلحة الخلافة

ـ كفاني فخراً ، هذه الثقة يغمرني بها امير المؤمنين ، وانا احد عبيده

ـ بل انت وزيره منذ الان .. ان احمد بن ابي خالدمات رحمه الله ، فاتحفنا الله بأحمد آخر ، لا يقل اخلاصاً عنه

فانحنى يقبل رداءه ويقول :

انها نعمة لا استحقها يا مولاي

ــ ولكن امير المؤمنين يعلم ما لا تعلم ، فتول الامر

واشار الى مقعد قريب من مقعد ابنه العباس قائلا

هذا مكانك .

ودخل احمد بن هشام فقال :

ان امير الجزيرة بالباب يا امير المؤمنين

فاشرق جبينه وقال :

عبدالله بن طاهر في هذا الليل ؟!

ــ نعم يامولاي ، وقد وصل الساعة

فأذن له ؛

فأقبل عبدالله ، بابتسامته ، وشبابه النضير ، وعظمة نفسه ، ومعه المغيرة بن حاتم ، فبادره المأمون قائلا :

اهلا بامير الجزيرة .. هنا هنا ..

فتقدم ليلثم يده ، فاحتضنه وهو يقول لجلسائه :

ان الخلافة مدينة لهذا الشاب ، الذي فعل في كيسوم ، ما لم يستطع ابوه طاهر ، ويحيى بن معاذ ان يفعلاه ..

فقال : بل انا مدين لمولانا امير المؤمنين بما اتمتع به من عز الامارة ؛ والعيش الرغيد . ووالله ، ان المرء ليستطيع في ظلك ان يخضع جميع المتمردين على الخلافة ، ولو كان عددهم مثل الرمل على شاطىء دجلة

قال : يقدر من كان مثلك ، على اكثر من هذا .. لقد احسن امير المؤمنين ، بناء على رغبتك ، استقبال نصر ، وأنزله المنزلة التي تستحقها طاعته ، ووصله ووصل رجاله ، بالمال الذي يحتاجون اليه في بغداد

قال : اتم الله نعمة على امير المؤمنين

قال . ولكن بقي هنالك ثلاثة يجب ان ينتهي امرهم ... زعيم اللصوص الذين يسلبون عباد الله على طريق البصرة ، وعبيدالله بن السري الذي خرج عن طاعتنا

في مصر ؛ وبابك الخرمي

فاضطرب عبدالله .

لقد قام في ذهنه ، ان الخليفة امره بالمجيء الى بغداد ، ليرسله الى حرب بابك ، وهذا ما يخيب رجاءه ، ويبعده عن حظيبته ، فقال :

اما بابك ، فقد ارسل امير المؤمنين من يتولى القضاء عليه . واما اعداؤك في البصرة ، فليسوا من الرجال الذين يخشى جانبهم ، لانهم يعمدون الى الفرار ، كلما اغار عليهم قائد من قوادك .

ـ وابن السري ؟

ـ سيأتيك ذليلا طائعاً كما اتاك نصر بن شبث انشاء الله ، وسأجعل مصر كلها اطوع لك من بغداد

ـ غير ان الخرمي ، استقوى في جباله ، ونحن لا نطيق ان يزداد منعة وقوة

قال كل شيء له نهاية يا امير المؤمنين ، وستأتي ساعة بابك

ـ اجل ستأتي ، ولكن بعد ان تخسر الدولة طوائف من الرجال

ويظهر ، انه احس ، ان عبدالله لا يريد ان يخرج الى حرب الخرمي .

فخطر له ان يعبث به ، فقال :

الا تعرف من بلاد الفرس غير خراسان ؟

ـ لا اعرف من خراسان غير مرو ، وما حولها من قرى

ـ لقد خيل الى امير المؤمنين ، انك خبير بتلك الارض التي يحتمي بجبالها الخرمي اللعين . . ومع ذلك ، فنحن نفكر في ارسالك اليها ،لتحمل الينا رأسه . . أتذهب؟

ـ ان امير المؤمنين لا يسأل عبيده رأيهم في امر مثل هذا

ـ نريد ان نعلم ، اذا كانت لك في ذلك رغبة !

ـ اليست هذه رغبة مولاي ؟

ـ بلى

ـ اني اذن مستعد ، ولكن لي رجاء

ـ ما هو ؟

ـ ان تأذن لي في الرجوع الى الرقة امكث بها بضعة ايام ، ثم اعود ! .

الى الرقة .. وبضعة ايام ، ثم تعود .. ؟ وما هو غرضك فيها ؟ اشياؤك يحملها عبيدك والغلمان ، ومالك نأمر من يأتيك به فأي شيء يبقى لك

ـ تبقى المرأة التي ستزف الي يا امير المؤمنين . !

ـ الم تتزوج بعد ؟

ـ لا ياسيدي

ـ وخطبت ؟

ـ نعم

ـ وهل لنا ان نسألك عن خطيبتك ؟

ـ ان لهذه الخطيبة حكاية اقصها غداً على امير المؤمنين

ـ بل تقصها الان

والتفت الى جلسائه قائلا :

اذا اردتم ان تنصرفوا

فقاموا فخرجوا جميعهم الا العباس ، والوزير ، والمغيرة ،

فقال : نسينا ان نقول لك ، ان كاتبنا هذا احمد بن يوسف ، أمسى وزيراً لنا بعد ابن ابي خالد

قال : ليهنأ سيدي الوزير برعاية امير المؤمنين وعطفه ويرحم الله ابن ابي خالد

وكان المغيرة لايزال واقفاً ، وهيبة الخليفة تملأ نفسه

فقال المأمون لعبدالله :

ونسينا ان نسألك عن هذا الفتى الذي دخل معك

قال : الا يذكر مولانا الخليفة ، ان ابي طاهراً ،يدعى ذا اليمينين؟

ـ نذكر ذلك

ـ وانهم اطلقوا عليه هذا اللقب ، بعد مقتل حاتم الطائي ، في معركة الري؟

ـ بلى بلى ، فقد اخذ سيفه بيديه الاثنتين وضرب به حاتماً .

فقال : هذا المغيرة بن حاتم يا امير المؤمنين ، وهو واخوه الاكبر مروان ،

ابليا البلاء الطيب في حرب كيسوم

فقال : اذن ليسا عدوين لنا كما كان ابوهما.. اجلس يا فتى

ثم قال : حكايتك يا عبدالله

قال : يعرف امير المؤمنين ، ذلك المجنون عصمة الحرشي ، الذي امر بضرب عنقه ثم عفا عنه ؟

- اجل نعرفه ولم ننس خطبته في الرقة عند مسجد المهدي

- لقد كان زوجاً لزينب اخت المغيرة ، وزينب واشقاؤها اخوان طفولتي يا امير المؤمنين .

ثم ماذا ؟

- فلما قتل الحرشي في الحرب ، ذكرت تلك الطفولة ، فخطبت زينب ، وكان الاسبوع الذي تركت فيه الرقة موعداً للزواج

- اذن قتل المجنون في الحرب

نعم

- وانتهى خبره الى ابيه ؟

- لا أدري يا مولاي ، فاذا رأيت ان تنتدبني لقتال الخرمي فدعني ارجع لاقوم بما يجب علي ثم احمل سيفي واسير في طاعتك الى حيث تشاء

فتظاهر بالتفكير ثم قال :

ترجع الى القصر صباح غد فنرى

فقام مع المغيرة فانصرفا

فقال المأمون لوزيره الجديد :

لقد سمعت ما حدثنا به عبدالله فما رأيك ؟

- في اي شيء يامولانا ؟

- أنرسل والي الجزيرة الى اذربيجان ام الى مصر؟

قال : ليس في مصر من يقف في وجه بن السري ، الذي استأثر بالمال والسلطان واما بابك ، فعنده عيسى بن محمد وخلفه جند امير المؤمنين

ـ اي انك ترى ، ان نعالج اليوم امر مصر

ـ نعم يامولاي ، حتى اذا استقام الامر فيهـــا ، امرت عبدالله بالمسير الى اذربيجان ليكون على رأس الجيش .. فاضرب ابن السري ، بابن طاهر ثم اضرب به الخرمي ؛ فتضمحل هذه السحب السود من سماء العرب ؛ ويصفو الزمان

قال : ندبنا عيسى لقتال بابك ، ونحن نخشى ان يخوننا اليوم ، كما خاننـــا بالامس ، قبل مجيئنا من خراسان .. أليس هو الذي طرد خليفتنا من بغداد، وحمل خزاجنا الى عمنا ابراهيم ، واجلسه في مقعد الخلافة

ـ وما عساه ان يصنع مع بابك ؟

ـ يحاسنه ويداريه ، ويجعل المعارك بين الجيشين ، ميادين سباق تجول فيهـــا الخيل ، لاميادين قتال !

قال : كان عيسى يظن ، كما ظن آخرون ، انك لن تترك خراسان ، وان بغداد ، والغرب كله ، سيظل في يد ابراهيم بن المهدي الى آخر العمر . اما الان فقد عرف الناس جميعهم ، في الغرب والشرق ان خلافتك التي هي من الله ، خلافة راسخة لا تتزعزع ، وان المخلصين لها ، هم الذين يصفو عيشهم ، ويتمتعون بالنعم .

ـ وتضمن عيسى ؟

ـ اضمنه يا مولاي ، ليس لانه من اولئك الرجال الامناء ، الذين لا ينكثون عهداً ، ولا ينتهكون حرمة ؛ بل لانه يخاف النطع والسيف ، اذا خان مولاه

ـ ادن نتركه لبابك

ـ اذا اردت ، ومره بان يتعجل في حربه ويبذل الجهد ليبلغ غايته

ـ وانت يا عباس ماذا تقول ؟

قال : اتترك مصر يا امير المؤمنين ، طعاماً سائغاً لابن السري ؟

قال : نستطيع ان نختار لمصر ، قائداً غير عبدالله بن طاهر

ـ ليس بين القواد الذين ببابك ، خير من عبدالله ، وقد لاتجد فيهم رجلا ، اكثر وفاء ، وابعد اثراً في عدوك منه .

قال : تضمنه ، كما ضمن احمد ، عيسى بن محمد ؟

– نعم ، وانا مؤمن ، باني اضمن رجلا ، عرف اميرالمؤمنين شريف قصده وعفة يده ولسانه

قال : سنعمد الى ما تقولان عند الصباح ، واما انت يا احمد ، فادخل علينا سحراً ، لنقضي اموراً لنا ، قبل مجيء عبدالله

وتركه الى داخل القصر ، يتقدمه حسين الخادم ، الذي كان يقول :

والله يا اميرالمؤمنين ، لم اجد والياً ، على كثرة الولاة الذين يدخلون عليك ، أندى يداً ، واكرم نفساً ، من عبدالله بن طاهر والي الجزيرة

قال : ماذا صنع ؟

– احسن الي ، والى الخدم القائمين بالبهو ، بمال لم نكن نحـــلم به .. اعطاني خمسه الاف درهم ، واعطى كل واحد من الاخرين ثلاثة الاف ، ووضع في يدي الحارسين ، بدرتين ، ثم لحـــق به ابو محمد اليزيدي ، فاعطاه دون ان ينشد شيئاً من شعره .

قال : صدقت ، فعبدالله من اكرم الولاة

وامره بالرجوع الى البهو قائلا :

ضع البخور في المجلس غداً قبل السحر ، اي قبل ان يدخل الوزير

وفي فجر اليوم الثاني ، اقبل احمد

فجعل يكتب ما يمليه عليه المأمون .

يعزل هذا ، ويعهد الى هذا ، ويبعث بنصائحه الى العمال في الاقاليم ثم يلج في طلب الخراج ، من هذا القطر ، ومن القطر الاخر

واحمد الـكاتب القدير يعجب لقريحة مولاه الفياضة بجميع صنوف الانشاء

ثم قال المأمون

اكتب انت هذه الرسائل ، ولا تدفعها الى رجال الديوان

وظل الاثنان يعملان ، حتى طلعت الشمس

فاستأذن عبدالله والمغيرة

ووقف مغيث مع الخدم في فناء القصر

فقال عبدالله للخليفة :

ها أنذا يا اميرالمؤمنين

قال : لقد نظرنا فيما ذكرت لنا امس ، وسألنا وزيرنا رأيه في ذالك ، فعولنا على ارسالك الى مصر ، وابقاء عيسى بن محمد على حرب بابك

قال : اشكر لامير المؤمنين فضله علي جعلني الله فداءه

قال : انك اهل للفضل ، فارجع الى الرقة ، واهنأ بزواجك ، ولك ان تتركها بعد ذلك الى حيث تشهر السيف ، في وجه الخائن عبدالله

ـ وكم امكث بالرقة يا اميرالمؤمنين ؟

ـ تبقى فيها حتى نكتب اليك ، وعليك ان تختار خليفتك ، كما تختار القواد لذين علمت انهم اصحاب الشدة في الحرب

قال : سأجعل محمد بن العلاء على الجزيرة ؛ يساعده في الامر ابن طالوت

ـ والذين يسيرون معك ؟

ـ احمد بن يحيي ، وقائد الحرس ، وصاحب الشرطة

ـ امـا نحن ، فاخترنا لـك رجالا ثلاثة من اهل الحيلة والرأي تجعلهم مستشارين لك .

ـ من هم يا اميرالمؤمنين ؟

احمد بن حفص بن ابي الشماس الشاعر والنديم الـذي ستجد مجلسه مجلس سرور وانس

ـ ثم من

ـ واسحاق بن ابراهيم الرافقي ، البخيل الجبان ، والمتظاهر بالنسك ، ولكنه رجل دهاء ، وانت بحاجة الى مثله

ـ والثالث ؟

ـ اما الثالث ، فاسحاق بن ابي ربعي الكاتب ، والعالم بتقسيط الخراج ،ولا

فني لك عنه

قال : عرفت الثلاثة يا امير المؤمنين قبل ان اغادر بغداد

قال : ينبغي ان يكون هولاء معك في مصر ، لتستعين بهم على امرك

— ويسيرون معي الى الرقة بعد غد ؟

— ان لم يفعلوا ذلك لحقوا بك اليها بعد بضعة ايام

قال : سمعت واطعت

— واعرف لكل واحـــد منهم حقه وكن لهم اخاً يكونوا لك من اطوع الخـــدم

— سأفعل يامولاي

— واعلم ، ان عبيد الله بن السري ، الذي خلـــع الطاعة ، امتـد نفوذه في ارض فرعون ، وعظم خطره ، لاشغتالك بحرب نصر ، فاذا اتيت مصر ، فاعمل على اخضاعه ، لا على قتله ، وابعث به الينا كما فعلت بابن شبث

قال : سيجني الثائر رأسه لامير المؤمنين ، ولو امتد نفوذه الى الشام

— وهنالك زملاء له في الثورة ، يقيمون بالاسكندرية...

— اولئك النزلاء الغرباء على القطر ؟

— اجل ، فهم جماعة من شذاذ الاندلس ، وصعاليك الناس ، اقبلوا على مراكبهم لى المدينة ، ووضعوا ايديهم على كل شيء !

— وليس لهم رئيس يا امير المومنين ؟

— بلى فرئيسهم يدعى ابا حفص ، والناس منه ومنهم ، في بلاء

— سانصح لهم بان يرحلوا ، فان ترددوا اخذتهم بالسيف

قال : هذه وصية امير المؤمنين ، وهو واثق بانك فاعل ما يامرك به

ثم قال لوزيره :

ما بالك لا تقول كلمة ؟

قال عندما يتكلم امير المؤمنين لا يبقى للوزير ما يقوله

فقال : يا غلام ، علينا بصاحب الشرطة وقائد الحرس

فدخل عجيف بن عنبسة ، واسحاق بن ابراهيم فقال لهما :

قولا للامراء والقواد ، اننا جعلنا صباح غد موعداً للسباق في الشماسية ، وسيكون عبد الله من فرسان الميدان

فقال عبد الله : ان خيلنا في الرقة يا مولانا ، وقد اتينا على النوق

— ولكن صاحب الشرطة سيعطيك فرساً كريماً تجول عليه كما تشاء ...

اسمعت يا اسحاق ؟

— نعم ، وساعد له العطاف « اسم فرس له » واركب انا سارية « فرس له آخر »

وخيل امير المؤمنين ؟

ـ يركب العباس « صحنة » واخونا صالح « الرباح » كل واحد منهم في صف على ان يمعن الجواد السابق في الجري ، دون ان يداري راكبه فرسي امير المؤمنين

— وما هي جائزة الفرس السابق ؟

سرج من الديباج ، مخيوط من الفضة ؛ وعبد من عبيد الحجاز .

فقال عبد الله : اذن ستكون جائزة العطاف لصاحبه ..

ـ اجل ، لصاحبه اذا ربح ، ولك انت جائزتك

واومأ الى المغيرة قائلًا :

وهذا الفتى ؟

ـ اذا اردت فمر قائد الحرس ان يعطيه فرساً

فقال لعجيف :

نامرك بذلك فهو يستحق ان يشترك في السباق ، جزاء بلائه في الحرب

فقال : سأعطيه اكرم جواد من جياد الحرس

فقال المغيرة : اعز الله خلافتك يا امير المؤمنين ، واذل اعداءها

قال : ليس لنا في الخارج اعداء الا ملك الروم .. واما في الداخل ؛ فاعداؤنا كثيرون ، وسيذلهم الله الواحد بعد الآخر.

وجعل ينظر في رسائل كانت على سريره ، ثم قال لاحمد :

ول محمد بن حفص ، النواحي الثلاث ، التي ذكرناها لك ، في بلاد الفرس

- كتبت له عهده يا امير المؤمنين

- اين هو .. انه لايحمل خاتم الخلافة

- ذلك لانك لم تأمرني بحمله اليك

قال : جئنا به عند العصر

ونظر نظرة اخرى الى اوراقه ثم قال :

اعزل محمد بن عبد الرحمن المخزومي عن قضاء عسكر المهدي ، وول بشر
ن الوليد الكندي

فكتب احمد ما قاله له ، ثم قال المأمون

وخطر لنا الان ، ان نوجه الى ارمينية واذربيجان علي بن صدقة ، ونأمره بان يحارب الخرمي ويجعل على جيشه احمد بن جنيد

واخذ يصدر اوامره ، واحمد يكتب ، حتى اتت ساعة الصلاة

فتفرقوا ، وراح الناس بعد الظهر ، اولئك المدعوون الى السباق ، يعالجون خيلهم ، ويركضون في الميادين .

وكان اليوم الثاني ، في الشماسية ، يوم جهاد ، تعبت فيه الجياد ؛ وتنازع فيه الفرسان الفوز

على ان سرج الديباج في الشوط الاول ،كان من نصيب الزباح ، فرس المأمون ومن نصيب الليث ، جواد ابراهيم بن المهدي في الشوط الثاني

واما الاشواط الاخرى، فقد تقاسم الفوز فيها،سلمه وسارية والعطاف ،وجياد ابي عيسى وابي اسحاق شقيقي الخليفة

والمأمون في الخيمة التي ضربت له ولوزيره ، يرى كل شيء

فلما رجع الى القصر ، امر بعبدالله والمغيرة ، فدخلا عليه فقال لهما :

اعولتما على الرجوع غداً

فقال عبدالله : اذا اذن لنا امير المؤمنين

فنادى احد الغلمان قائلا :

ليدخل احمد بن حفص ، ومن معه

اقبل الرجل ورفيقاه ، اسحاق بن ابي ربعي، واسحاق بن ابراهيم الرافقي، فقال الخليفة مشيراً الى عبد الله :

هذا اميركم الذي وجبت عليكم طاعته ، فسيروا معه الى مصر، وليكتب له من يحسن الكتابة منكم ، وليقم الآخر بتقسيم الخراج وحفظه ، وليكن الثالث رجل مشورته .. الم توصهم بهذا يا احمد ؟

ـ بلى يا امير المؤمنين

ـ اذن فاحفظوا وصيتنا ووصية احمد ، وسيعطي عبد الله كل واحد منكم ما يستحق ... اذهبوا فتهيأوا للسفر

وعندما خرجوا قال ابن حفص لرفيقه:

غريب امر الخليفة ، يستخف بالشيوخ ، ويعزل اصحاب ابيه من الولاة، ويولي الشباب ويثق بهم امثال عبد الله ؟

فاجابه ابن ابي ربعي قائلا :

لقد رأى من بطولة عبد الله ، وبعد نظره ، ما لم ير مثله في الشيوخ والكهول وكان المأمون عند ئذ يقول لعبد الله :

ان مستشاريك الثلاثة من اصدق الرجال ، فقال

جعل الله رعاياك يا امير المؤمنين اصدق الرعايا

فالتفت الى وزيره وقال :

افعلت ما امرناك به

ـ نعم يا امير المؤمنين ، وهذه الاوراق التي بيدي ، فيها خراج الاقاليم ، ومجموع ما ورد على الخلافة من العروض والمال

قال : اذكر خراج خراسان امام عبد الله

قال : ثمانية وعشرون الف الف درهم « ثمانية وعشرون مليونا »

ـ وماذا غير المال ؟

ـ الفا قبضة من الفضة ، واربعة الاف فرس ، والف عبد رقيق وعشرون الف ثوب خراساني !!

- وخراج الموصل ؟

اربعة وعشرون الف الف درهم ، وعشرون الف رطل عسل !

- والجزيرة واعمال الفرات

- اربعة وثلاثون الف الف درهم ، والف عبد رقيق ، واثنا عشر الف زق عسل وعشرة من البزاة ، وعشرون كساء !

- واي بلاد ورد خراجها دنانير ؟

- قنسرين ، ودمشق ، والاردن وفلسطين ، ومصر والحجاز

- ما هو خراج دمشق

- اربعمائة وعشرون الف دينار يا امير المؤمنين

- وهل كان خراج مصر في هذا العام ، مثله في العام الذي مضى؟

لا يا مولاي فقد نقص مئة الف دينار ، فقال :

اسمعت ياعبدالله ، ان ابن السري يأخذ من الخراج ما يشاء ، ويبعث الينا بما يبقى فكأنه هو الخليفة الذي سلطه الله على كل شيء ... لقد احتفظ لنفسه باكثر من مئة الف دينار ، ينفقها او ينفق بعضها على خلع الطاعة والتمرد على امير المؤمنين .

فقال عبدالله : اذا اراد الوزير ان يذكر لي مقدار ما ورد من مصر في السنة الماضية .

- نعم

زهاء الفي الف دينار

قال : سيصل الى بيت المال اكثر من هذا انشاء الله

وكان مجموع ما قرأه احمد في اوراقه ، ثلاثمائة وثمانية عشر مليون درهم ، وثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر الف دينار .

« نقله ابن خلدون عن كتاب جراب الدولة»

ما عدا الاشياء الاخرى التى تجبى مع المال

كان هذا كله ، يدخل دار الخلافة ، فيعطي امير المؤمنين منه ، وزراءه وقواده ،

وعماله وجنوده ورجال قصره ما يستحقون ، ويبذل ما يبذل في سبيل اخضاع الخوارج ، واعداد المؤونة للجيش، ثم يهب منه ما يشاء . لمن يشاء ، دون ان يكون عليه رقيب ، ويبقى له منه ، على الرغم من سخائه وجوده ، واسرافه الذي لا يقف عند حد ، الشيء الكثير .

ومن اجل ذلك ، كنت ترى بغداد ، عاصمة العباسيين ، ترفل بثياب الترف والسعة ، وتغمرها من جميع النواحي ، اسباب الرخاء

وقبل ان يستأذن عبدالله والمغيرة في الانصراف ، قال المأمون للعباس ابنه مر صاحب الخيل ، بان يهب لكل واحد منهما ، فرساً عليه سرج من الفضة والديباج ومر صاحب بيت المال ، بان يعطي عبدالله ، اربعمائة الف درهم ، له ولعروسه ، ويعطي المغيرة مئة الف ...

فقبل الرجلان يديه ، وهو يقول لعبدالله :

اكفنا مؤونة ابن السري ، واخمد ثورة مصر

وعند خروجهما من القصر ، كان مغيث يحمل المال الذي وهب لهما وقد جاد عبدالله عليه منه ، بعشرة الاف .

ودخل القصر عندئذ يحي بن اكثم وعمرو بن مسعدة ، وكان العباس يقول لابيه : في اي شيء استحق المغيرة بن حاتم احسان امير المؤمنين

قال : كان هو واخوه ، رفيقين لعبدالله في حرب كيسوم ، كما عرفت

— هل يستحق احسانك جميع الذين حاربوا في ذلك القطر

— لا ، ولكن اباهما حاتما كان عدواً لنا ، فنسي الولدان عداوة ابيهما ، وانضما الى جيش الخلافة ، ثم قال :

— ينبغي يا بني ، لمن اسبغ الله عليه نعمته ، وشركه في ملكه وسلطانه ، وبسط له في القدرة ، ان ينافس في الخير ، بما يبقى ذكره ، ويجب اجره ويرجى ثوابه ، وان يجعل همته في عدل ينشره ، او جور يدفنه ، وسنة صالحة يحييها ، او بدعة يميتها ، او مكرمة يعتقدها ، او صنيعة يسديها او يد يودعها ويوليها ، او اثر محمود يتبعه .

والقى بعد ذلك كلمة دلت على نصحه وحسن تدبيره ، وعظمة نفسه قال :

اعتبروا في علوا الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي : انهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي الا بانفسهم ، انه من يتبع منكم بصغـــار الامور تبعه التصغير والتحقير ، فترفعوا عن دناءة الهمة وتفرغوا لجلائل الامور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش ، بـل بجليلها وكبارها ، واعلموا ان اقدامكم ان لم تتقدم بكم ، فان قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه وانشد :

نحن الذين اذا تخمط عصبة — من معشر كنا لها انكالا
نردالمنية لانخاف ورودهـــا — تحت العجاجة والقيون تلالا
نعطي الجزيل فلا نمن عطاءنا — قبل السوأل ونحمل الاثقالا
واذا البلاد على الانام تزلزلت — كنا لزلزلة البلاد جبـــالا

وقبل صباح اليوم الثاني ، اصيب المأمون بابنة له كان يحبها الحب كله ، ويجد عليها الوجد الشديد ، ولم يذكر اسمها التاريخ .

فانتهى خبر وفاتها ، الى عبدالله والمغيرة ، وهما يهمان بترك بغداد

فاقبلا على القصر مع وفود الناس ،

وكان الخليفة قد جلس ، وامر بان يؤذن لمن في الباب

فدخل عليه معمن دخل ، العباس بن الحسن العلوي ، فقال له :

يا اميرالمؤمنين ، انالم نأتك معزين ، ولكن اتيناك مقتدين

ثم قال : يا اميرالمؤمنين ان لساني ينطلق بمدحك غائباً ، واحبه ان يتزيد عنك حاضراً ، افتأذن فاقول :

ــ قال ، فانك تقول فتحسن ، وتشهد فتزين ، وتغيب فتؤتمن

فقال العباس :

يا امير المؤمين ما اقول بعد هذا ، لقد بلغت من مدحي ما لا ابلغه من مدحك

ثم قام عبدالله والمغيرة فعزياه

فقال لهما : ظننا انكما تركتما العاصمة فقال عبدالله

بلغنا خبر وفاة الاميرة ، ونحن نهم بالرحيل ، فلم نر الا ان نمثل بين يديك ، نسأل الله لك الصبر ، ونرجوه عزوجل ان يحفظك ويحفظ بنيك ملجأ للمسلمين ،
قال :

الصبر مرجعنا في المحن ، والله مع الصابرين .. متى تنصرفان؟

- لم يبق الا ان نخرج عند المساء ، فالحر شديد ، ونحن نخافه

وكان بعض جلسائه من بني العباس وغيرهم ، يحسدون الرجال من آل علي ، الذين يؤثرهم المأمون على خاصته

بل كانوا يعيبون عليه هذا الايثار ، وتفضيله عليا على غيره ، من صحابة النبي ،

اجل ، كان المأمون يقول ، ان عليا اشرف الخلق بعد الرسول ، وليس بين جميع الخلفاء من هو مثله

وستقرأ شيئا من هذا ، في هذا الجزء

وبينا القوم يتحدثون وهم ينظرون الى العباس بن الحسن ، والحسد مطل من العيون ، استأذن الحاجب لرسول من مصر

فقال الخليفة :

هذا رسول يونس بن عبد الاعلى ، يحمل الينا اخبار عبيد الله بن السري ، وهي اخبار سؤ .. ادخلوه

فدخل ، ووقف بباب المجلس ، ودفع الرسالة الى الحاجب

فقال له المأمون :

تقدم وهات رسالتك ، اليست هي من ابن عبد الاعلى

- بلى ، انها منه ، وقد امرني بان اقول لامير المؤمنين ، ان مصر وما حولها امست في يد ابن السري ، والاسكندرية في ايدي الشذاذ من اهل تونس ، فان لم تتدارك الامر ، انقلبت بلاد فرعون كلها الى ثورة تلتهم البعيد والقريب

فقال لعبد الله

اقرأ الرسالة

فقرأها فاذا هي لاتخرج في معناها عما ذكره الرسول ، فقال :

ماذا رايت ؟

ـ رأيت يا امير المؤمنين ان ابن السري يمعن في تمرده ، وان القوم الذين قدموا من تونس ، يسترسلون في الاستخفاف

ـ اذن ينبغي الا نتردد في القضاء على الفتنة

ـ هذا ما افكر فيه ، ولامير المؤمنين رايه

قال : بضعة عشر يوما من بغداد الى الرقة ، ثم تتزوج ، وتمكث بعد زواجك شهراً .. ثم تسير مع رجالك شهراً آخر حتى تنتهي الى مصر . ان هذا كثير ...

قال : .. سأصل في سفري الليل بالنهار حتى ابلغ الرقة بعد بضعة ايام ، فاتزوج ليلة وصولي اليها ، واعد العدة للسير الى مصر في صباح اليوم الثاني

ـ لك ان تقيم بعد زواجك ثلاثة ايام ثم ترحل

ـ وهذا كثير يا امير المؤمنين

فضحك قائلا

افعل ما شئت على ان تشفي عبيد الله من جنونه ، وتقذف باهـــل الاندلس الفاتحين الى البحر ....

ـ اعد امير المؤمنين بهـذا

ـ وانت يا مغيرة ، اتذهب مع عبدالله؟

ـ لن يبعدني عن عبد الله يا مير المؤمنين ، غير الموت

ـ وتحبه الى هذا الحد ؟

ـ نعم يا مولاي

ـ لماذا ؟

ـ لانه في طاعتك ، ونريد ان نكفر عما فعله ابونا رحمه الله

فقال لعبد الله :

أفي رجالك فتيان مخلصون مثل هذا ؟

ـ ان الله عز وجل يعلم ما في القلوب

قال : اذا كان عندك مثل المغيرة ، انقذت مصر

- ان خضوع مصر لا بد منه يا اميرالمؤمنـــين ، وسترى ان ابن السري لا يستطيع ان يثبت في الساحة

قال : ادن لنودعك . ادن يامغيرة

فتقدم الاثنان ، فعانق عبدالله ، كما يعانـــق العباس ، واذن للفتى الطالبي في تقبيل يده

وكان يقول : اذهبا على بركات الله

فعجب القوم لمارأوه

امير المؤمنين في مجلسه ، يعانق عاملا من عماله ، على مرأى من الامراء والقواد الذين اقبلوا ليعزوه !

اذن فعبدالله بن طاهر ، اعظم رجال الدولة واقرب الولاة الى امير المؤمنين

واخذوا يتحدثون بذلك ، عندما انصرفوا .

وقد دب الحسد في الصدور .

حتى ان ابا اسحاق بن الرشيد ، الذي يؤثره المأمون لشجاعته ، على جميع اخوته حسد عبدالله ، وخيل اليه ، ان امير المؤمنين الذي هو اخوه ، يحب عامل الجزيرة ومصر ، اكثر مما يحب اشقاءه ، ويرعاه بعناية لايجدون مثلها منه

وحتى انه بدأ يهامس بعض اخوته والمقربين اليه ، بقوله لهم :

ان هوى عبدالله بن طاهر ، في آل علي ، وله فيهم رأي ، وكذلك كان ابوه !

وكأنه صدق نفسه ، فجعل يفكر في الوسيلة التي يستطيع معها ، ان يفـ... امير المؤمنين ، على عامله الامين .

• • •

٤٦

ترك عبدالله والمغيرة ومغيث بغداد ، في ذلك اليوم ، يرافقهم الرجال الثلاثة الذين اختارهم المأمون ، ليكونوا مستشارين لامير مصر

وقد وصلوا الى الرقة في صباح يوم ، بعد ان سبقهم مغيث اليها ، يحمل البشرى ، على عادته ، الى الطائيين

وكانت الهموم والظنون ، قد حطمت زينب ، وقام في ذهنها ، ان الخليفة ندب حبيبها لحرب جديدة ، في بلد بعيد

فلما رأت مغيثا ، وسمعت بشراه ، ابتسمت النضارة في خديها ، وفعلت هذه البشرى ما يفعله السحر !

وخير ما يقال ، في ذلك اللقاء ، انه لقاء بين حبيبين . .

وقص الامير على القوم وعلى عثمان ، ما لقيه هو والمغيرة من عطف امير المؤمنين

ثم قال لعثمان :

لقد امرت الغلمان ، بان يعدوا جناحا في القصر ، لاحمد بن حفص ورفيقيه ، الذين يسيرون معنا الى مصر . فاذهب انت ، ومر احمد بن يحي وصاحب الشرطة ، وقائد الحرس ، بان يتهيأوا مع كتائب الجيش ، للمسير بعد يومين .. على ان يبقى في الرقة ، ابن العلاء وابن طالوت وكتيبة المشاة

ثم خفض صوته قائلا :

وان اردت يا عثمان ، ان تتزوج في هذا اليوم ، فتعجل في الرجوع !

فخيل اليه والى الجماعة ، انه يعبث به
فقال وهو يبتسم :
في هذا اليوم ايها الامير ؟
– نعم
– وليس لي ان اصبر الى الغد؟
– ان الغد ليس لنا ، بل هو لامير المؤمنين
– وانت يا سيدي ؟
– اما انا، فلا تغيب الشمس، حتى تمسي زينب زوجة لي هذا اذا لم يكن هنالك
حر شي آخر ، يأخذها من بين يدي ...
فعرفت النساء وعثمان ، انه لا يهزل ،
فقالت زينب : ان الله وحده يستطيع ان يفصلني عنك ..
وكان جبينها يزهو ، وعيناها تتلألان ..
فاستوت ام مروان في مجلسها وقالت :
اتزحف الى مصر بعد يومين ؟
–ذلك ما اراده امير المؤمنين
– ولم تستأذنه في البقاء ، ريثما تزف اليك المرأة التي خطبت ؟
– كنت عولت على البقاء اكثر من شهر ، ولكن يونس بن عبد الاعلى
احد علماء مصر ، كتب الى الخليفة يستعجله في ارسال الجيش ، قبـــل ان تشمل
الفتنة جميع البلاد ، فلم ار الا ان اتعجـــل في الزواج ثم اسير لاخمد النار ، فهم
عزيزة على الخلافة ، وارضها ارض البركات والخصب ..
والتفت الى زينب وقال :
ان امير الجزيرة ومصر ، سيتزوج ، كما يتزوج صعاليك العرب
فماذا تقولين ؟
– اقول اني راضية بما ترضى به ، وسيعلم الناس ، ان الدفاع عن الملك ، هو
الذي قضى بذلك ..

- كنت احب ان تحتفل الرقة كلها بزواجنا !

- خير لك ان تسير بعد يومين ، للدفاع عن العرش ، من ان يشهد اهل الرقة زواجك ويضيع الزمان

- وكنت احب ان تنتقلي معي الى البلد الذي انتقل اليه ،

فانتفضت قائلة :

وهل تريد ان تتركني هنا ؟

- اجل فالنساء لا يرافقن رجالهن الى الحرب

- اما انا فلا امكث بالرقة بعد ذهابك لحظة واحدة . .

- وما تصنعين ؟

- الحق بك على ناقة لي ومعي مغيث !

قال : سامنعه من ذلك قبل سفري

- وتمنع المغيرة ؟

- اما المغيرة فقد امره الخليفة بان يسير مع الجيش

- ومروان ؟

- امنعه منذ الساعة

- اذن تريد ، ان يرى الناس زوجة عبد الله بن طاهر ، تسير وحدها الى مصر

- وتفعلين هذا ؟

- نعم

- يظهر انك تكرهين ان يتم الزواج اليوم ! . . .

فبكت ، وكانت دموعها ابلغ جواب

فقال المغيرة :

اسال الامير ان يصغي الى رجاء زينب .

وكان عثمان قد رجع ، فقال له عبدالله :

أعولت على الزواج الليلة ؟

- اذا اذنت لي

— وسعدى

— تذهب الى حيث اذهب

— بل تقيم مع امك حتى ترجع

فقامت الاثنتان ، سعدى وزينب ، فقالتا

نسير الى مصر ماشيتين ..

قال : ارضى بحكم ام مروان ، فقالت :

اذهبوا جميعكم الا مروان ، وانا اسأل الله ، ان ترجع ظافراً من مصر ، كما رجعت من كيسوم

قال : يغيب المغيرة وسعدى وزينب ، وترضين

— اما غيبة المغيرة فقد ارادها امير المؤمنين كما قلت ؛ واما سعدى وزينب ، فلا تريدان ان تبتعدا عن زوجيهما

فقهقه وقال : اذا كان هذا فقد رضيت ...

وأمر ، فاعد الطائيون ورجال الامارة ما يحتاجون اليه في العرسين ، وزفت الشقيقتان في ذلك المساء نفسه ، الى عبدالله وعثمان ، بحضور القواد ورجال الرأي ، وفريق من افراد الجيش

وباتت زينب ليلتها تذرف الدموع ، وكانت تقول لزوجها :

هذا بكاء الفرح ، فلم اصدق انك ستكون لي ..

وفي صباح اليوم الثالث ، مشى الجيش يريد القطر المصري ، وعبد الله وعثمان مع العروسين في المؤخرة ، مع نساء القواد

ولم ترد الاثنتان ، ان تركبا الهودجين اللذين اعدا لهما ، بل آثرتا ان تكونا سافرتين على ناقتين

وزينب لا تحول نظرها عن رجلها العظيم،الذي جعلها اللهزوجة له ، بعد الزمن الطويل الذي شقيت به

وهو يبتسم لها ويقول :

اما الآن فقد طاب لنا العيش ، ولان القدر بعد جفائه ..

• • •

الجيش الان في فلسطين

فبينا هو بالقرب من الرملة ، وعثمان مع سعدى وزينب ، واحمد بن حفص ، واسحاق الرافقي ، واسحاق بن ابي ربعي ، يسايرون الامير ، وهم اجود كسوة منه ، عرض لهم شيخ اعرابي على بعير له

فسلم عليهم ، ثم جعل ينظر الى وجوههم واحداً واحداً يتبينها بهدوء وفضول فقال له احمد بن حفص :

يا شيخ ، لقد الحجت في النظر ، أرأيت شيئاً تنكره ؟

قال : لا والله ، ما رأيتكم قبل يومي هذا،ولكني رجل حسن الفراسة فيالناس

فأشار الى ابن ابي ربعي وقال له :

ما تقول في هذا ؟

قال :

أرى كاتباً حسن الكتابة بين عليه وتأديب العراق منـــير
له حركات قـد يشاهـدن انه عـليم بتقسيط الخراج خبير

ـ وما تقول في هذا ؟

واشار الى الرافقي

فقال :

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور !
اخال به جبناً وبخـــلاوشيمة تخبر عنه انه لوزير

ـ وما تقول فيّ ؟

قال :

وانت نديم للامير ومؤنس   يكون له بالقرب منه سرور
واحسبه للشعر والعلم راوياً   فبعض نديم مرة وسمير

ثم نظر الى الامير وقال :

وهذا الامير المرتجى سيب كفه   فما ان له في العالمين نظير
عليه رداء من جمال وهيبة   ووجه بادراك النجاح بشير
لقد عظم الاسلام منه بذي يد   فقدعاش معروف ومات نكير
الا انما عبد الاله بن طاهر   لنا والد بر بنا وامير

فوقع ذلك من عبد الله احسن موقع ، واعجبته فراسة الشيخ وادبه ، فقال له
من اي بلد انت يا شيخ ؟

ـ من الرملة ايها الامير

ـ ولك فيها اهل ؟

ـ لم تبق حروب الشام وثوراتها ايام الرشيد على احد من اهلي ؛ كان
ولدان ، وثلاثة اخوة ، قتلوا جميعهم ثم ماتت زوجتي فبقيت وحدي كما ترى

قال : أيطيب لك ان تسير معنا الى مصر ؟

ـ نعم ، على امل ان اشترك مع رجالك ، في قتال عبيد الله بن السري

ـ وتعرف هذا ايضا ؟

ـ اجل ، كما اعرف ان الاسكندرية يحكمها اليوم ابو حفص الاندلسي

قال : ان الجيش سيبيت الليلة في الرملة ، فافعل اليوم ما تريد ان تفعله على
تنضم اليه غداً عند الفجر

وقال للمغيرة : لقد امرنا للرجل بخمسين الف درهم ، تدفعونها اليه قبل ان [illegible]
الجيش الرملة ، ولا تنسوا ان تعطوه فرسا

فدمعت عينا الشيخ وقال :

اطال الله بقاء الامير ، الذي يحسن الى من لا يستحق احسانه . أفلا [illegible]
لي يا مولاي ، في اي شيء وهبت لي مالك ، وانا غريب عنك ؟

ـ وهبته في هذه الفراسة التي رأيت ، والادب الذي سمعت

قال : ان شئت فاحفظه لي ريثما نصل الى مصر

قال : قد فعلت ولكن لا تنس ان تذكرني به

وبعد بضعة عشر يوما ، امسى القوم على مرحلة واحدة من مصر

فقال عبد الله ، لقائد من قواده :

خذ من تشاء من كتائب الجند ، وانظر لنا موضعا نعسكر فيه

- وانت باق هنا ؟

- نبقى حتى يرد علينا خبر منك

وكان ابن السري قد تهيأ للحرب ، وحفر خندقا عظيما يحمي جيشه من الهجوم المفاجىء ، ويمنع جنود الخلافة من الوصول اليه

ثم بلغه ان قائداً خرج طليعة لجيش عبد الله ، ومعه جماعة من الرجال

فخرج هو للقائه يقود الفريق الكبير من الجنود المخلصين له

واقتتلوا بضع ساعات ، قتالا شديدا جداً ، والقائد في قــلة ، وهو واصحابه يقتحمون الصفوف ، ولا يبالون بسيوف اهل مصر

ولكنه ما لبث حتى سير بريدا الى عبد الله ، يصف له ما هو فيه فحمل عبد الله الرجال على البغال ، وجنبوا الخيل واوصى المغيرة بشقيقتيه وجواريها

واسرعوا فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السري

فرفع عبد الله صوته قائلا لرجاله :

خذوا عدوكم كيف شئتم ، وحمل هو في الطليعة .

فانهزم المصريون ، ولم يستطيعوا ان يصبروا .. وامسى الخندق الذي حفروه قبرا للكثيرين منهم ، تساقط بعضهم فيه على البعض الآخر ، فكان قتلاه ، اكثر من قتلوا بالسيف

ودخل ابن السري المدينة واغلق ابوابها عليه وعلى اصحابه

فحاصره عبد الله ، وامر جنوده بان يسهروا لياليهم كلهـا ، ليجعلو االحصار ، ابعد اثرا في المصريين من الحرب

فضاقت الدنيا بابن السري ، ولم يجسر مع جيشه على الخروج والحصار شديد وجند الخلافة يمعن في اليقظة والحرص حتى عمد المصري اخيرا، الى استعطاف عبدالله

ليترك حربه وينصرف عنه !

جمع وجوه اصحابه ، وسألهم رأيهم في هذا الاستعطاف !

فاختاروا الف وصيفة ووصيف ، مع كل واحد منهم الف دينار ، وسيروهم
هدية للامير ، الذي عكر عليهم صفو العيش !!

فرد ابن طاهر هديتهم ، وكتب الى عبيد الله :

انك احوج الى هذه الهدية مني ..

وجاء في آخر كتابه :

لنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون ، فلم ير الرجل
بداً من طلب الامان

فاجابه الامير اليه ، واستنزله من معقله ذليلا خاضعا ، يكفر بخضوعه وذله م
مضى

وفتحت ابواب المدينة للظافر ، فدخلها الجيش يحفظ فيها الامن ، ويرفع امير
لواء العدالة في ذلك القطر و الذي عاش زمانا طويلا تسوده الفوضى والاضطراب

ونزلت زينب وسعدى ، قصرا واحداً ، واهديت الى عبد الله ، جارية يقال
لها لميس ، تحسن الغناء والشعر .

ففرحت بها المرأتان ، وكانت خير سميرة لهما

وبعد ايام ، امر عبد الله اصحابه بالمسير الى الاسكندرية ، للنظر في ا
الاندلسيين ، الذين امسوا سادة الموقف فيها

وعندما اشرف عليها ، كتب الى رئيسهم ابي حفص يقول له :

اختر لنفسك ، فاما الرحيل عن المدينة ، او الحرب !

ففعل القوم مافعله ابن السري ، وسألوه الامان على ان ، يرتحلوا الى احد
الجزر ، التي لا حكم فيها للاسلام

فامنهم على هذا الشرط ...

واخذوا يركبون السفن طائفة بعد طائفة ، حتى ملأت مراكبهم البحر ، وسار
فنزلوا بجزيرة اقريطش - كريت - واستوطنوها ، واقاموا بها ، فتناسلوا وكثر ا

ومر عليهم بها الزمان الطويل

فمد السلام رواقه فوق الاسكندرية ، وقد احس الناس بعد ذلك الذعر والخوف انهم يعيشون ، في ظل الامير الشاب ، في طمأنينة وهدوء

وعاد عبد الله الى مصر ، يضم ظفره في قصره على شاطىء النيل ، ويصف لزينب مدينة الاسكندر الجميلة ، وروعة الطبيعة فيها ، والآثار التي تركها فيها الرومان ويطرب في معظم الليالي ، مع زينب وسعدى وعثمان ، وبعض الخاصة ، لغناء لميس الساحر وصوتها العذب

وفي تلك الاثناء ، قال يونس بن عبد الاعلى ، كلمته التي حفظها التاريخ ...

« قدم علينا من قبل المشرق ، فتى حدث ، يعني عبد الله بن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة ، وقد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، فاصلح الدنيا ، وامن البريء واخاف السقيم ، واستوثقت له الرعية بالطاعة

• • •

ورد على امير المؤمنين كتاب عبد الله ، يقول فيه :

عادت مصر الى طاعة امير المؤمنين وخضع ابن السري معترفا بجريمته ، فاذ اردت فانس ماضيه واغفر له ذنبه عندما يمثل بين يديك ،

واما جالية الاندلس فقد رحلت عن الاسكندرية رحيلا لا رجوع بعده ، واهل مصر جميعهم يدعون لامير المؤمنين

فقال المأمون لاحمد بن يوسف

ضم ولاية الشام ، الى ولايتي الجزيرة ومصر واكتب بذلك عهداً لعبد الله ، فلو وليناه نصف اقاليم الدولة ، لكان ذلك قليلا عليه ..

ثم قال لاخوته الذين كانوا ، في مجلسه :

هكذا ينبغي ان يكون الامراء

فاستفاق الحسد في صدر ابي اسحاق « المعتصم » من جديد ، ، وجعل يفكر في هذا المقام ، الذي ارتفع اليه عبد الله

ثم قال المأمون لاحمد :

اكتب العهد الذي امرناك به ، وسلمه الى رسوله ، مع كتاب باسم امير المؤمنين ، وكتاب اخر باسمك ، تهنئه بها.

وقبل ان ينصرف الوزير الى الديوان ، دخل الحاجب ، وفي يده رسالة ،

فقال الخليفة : من هذه

– من صاحب الموصل

– واين حاملها ؟

– بالباب يا امير المؤمنين

فامره بان يأذن له

وكان الوزير قد قرأ الرسالة ؛ فقال

قتل صاحب الموصل يا امير المؤمنين

– السيد بن انس الازدي ؟!

– نعم وهذه الرسالة من ابنه محمد

فقال للرسول : كيف قتل اميرك ؟

قال : ان زريق بن علي بن صدقه ، الذي استولى على الجبال ، ما بين الموصل واذربيجان ، هاجمنا منذ شهر بجيش كثير،فدافع الامير جهدهولم يلبث حتى قتل

– وقاتله هو زريق نفسه ؟

– لا يا اميرالمؤمنين ، بل هو رجل حلف لزريق بالطلاق ، انه سيحمل على السيد فيقتله او يقتل ، واقتتل الاثنان فقتل كل منهما صاحبه .

فغضب المأمون لذلك ، والتفت الى وزيره وابنه العباس ، واخوته قائلا لهم

ما رأيكم في محمد بن حميدالطوسي ، انوليه الموصل وحرب زريق والخرمي

فقال المعتصم : خيراً تصنع يا اميرالمؤمنين

قال : وله يا احمد ، وسيره بعد يومين .

واشار الى الرسول بالخروج ثم قال لوزيره

لاترسل الكتابين ؛ الى عبدالله بن طاهر قبل ان اراهما .

وخرج من المجلس ، والغضب ظاهر على وجهه .

وسار احمد بن يوسف الى الديوان ، وكتب باسمه الى عبدالله :

« بلغني اعز الله الامير . ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السري اليك

« فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عباده ، المذل لمن مال عنه وعن حقه ، ورغب عن طاعته ، ونسأل الله ان يظاهر له النعم ويفتح له بلدان العدو ، والحمد لله على ما وليك به ، مذ ظعنت فانا ومن قبلنا ، نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان في مواضعها ، ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد المقدرة .

ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة استحقاقك

فليهنك منة الله ومزيده ، ويسوغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على مابه تمت لك من التمسك بحبل امير المؤمنين مولاك ومولى جميع المسلمين ، ومتعك وايانا بالعيش ببقائه .

وانت تعلم انك لم تزل عندنا وعند من قبلنا ، مكرماً مقدماً معظما ، وقد زادك الله في اعين الخاصة والعامة جلالة ، فاصبحوا يرجونك لانفسهم ، ويعدونك لاحداثهم ونوائبهم .

وارجو ان يوفقك الله ، فقد احسنت جوار النعمة ، فلم تطغك ، ولم تزدد الا تذللا وتواضعاً ، فالحمد لله على ما انالك وابلاك ، واودع فيك والسلام» .

اما المأمون ، فلم يذكر التاريخ صورة كتابه ، ولكنه ذكرانه كتب اليه في اسفل الكتاب ، هذه الابيات :

اخي انت ومولاي ومن اشكر نعماه
فما احببت من امر فاني الدهر اهواه
وما تكره من شيء فاني لست ارضاه

لك الله على ذاك لك الله لـــك الله

• • •

اقام ابن طاهر بمصر ، والياً عليها ، وعلى الجزيرة والشام ، والدنيا بالف خير :
ولم يمر العام ، حتى انجبت زينب ولداً ، له وجه ابيه ، وعينا امه فاختاروا له اسم جده ، طاهر بن الحسين

ورزقت سعدى بمولودة ، سميت زينب

وكان ابن السري ، يتهيأ بامر عبدالله ، للمسير الى بغداد ، مستغفراً امـــير المؤمنين عما فعل :

اما المأمون ، فكان يقول وقتئذ لمن حوله :

لقد دانت الجزيرة ومصر ، لعبدالله بن طاهر ، فلم يبق الا ان نوليه حرب بابا، ليكفينا شره .

فوافقوه في رأيه ، الا اخاه المعتصم ، الذي ظل ساكتاً !

فلما خرج القوم ، من المجلس ، لم يخرج المعتصم معهم ..

فقال له المأمون :

الك ما تقوله يا ابا اسحاق ؟

ـ نعم يا اميرالمؤمنين ، اقول ان عبدالله بن طاهر ، يميل الى ولد عـــلي بن ابي طالب ، وهكذا كان ابوه ، وهو يسعى اليوم ، ليخلعك ، ويبايع احدهم ، فقال :

عبدالله بن طاهر يفعل ذلك ؟

ـ نعم ، ولو لم تشغله بحرب نصر بن شبث ، وعبيد الله بن السري ، لحمل لواء العصيان ، ولم يتردد في خلعك !

قال : الرجل لذي يخضع الدنيـــا لخليفته بالامس ، يخونه اليوم ؟!

كذب الذي خبرك

– بل هو صادق فيما رواه ، ولو كان حاضرا لامرته بان يعيد عليك ما سمع .

قال : اين هو ؟

– في فلسطين ، وقد عاد اليها من عشرة ايام

– ولماذا كتمتني الخبر ؟

– ترددت في افشائه ، ثم خفت الان ، ان يحدث في مصر ، ما تكره وننكره، فبحت به !

قال – ان صاحبك ساع كذوب لانصدقه .

وقام فخرج دون ان يترك له مجالا للقول

فعول المعتصم على الامعان في السعاية

وكان المأمون يقول في نفسه :

ايفعلها عبدالله ، وقد جعلته في المرتبة الاولى وهو غلام ؟!

ومشى الشك اليه في مهل .

وطال ليله .. وكثرت احلامه

ان الامر يتعلق بالعرش .. وكل شيء يهون الا هذا .

فلما كان اليوم الثاني ، انفرد به المعتصم يقول له :

ألم تفكر يا امير المؤمنين فيما ذكرته لك امس ؟

– بلى ، فكرت ، ولكني لم اتبين وجه الصدق فيه

قال : اخشى ان تندم بعد حين يا امير المؤمنين

قال : : دع عنك هذا ، فانا لو رأيت عبدالله بن طاهر ، واضعاً يده بيد رجل من ولد علي وسمعته يقول له : خلعت المأمون وبايعتك ، لما صدقت نفسي ..

وجعل يدفع التهمة وينكرها ، حتى اضطر المعتصم الي السكوت ، وقد أحس انه غلب على امره

على ان المأمون كان يضطرب في داخله !..

أيخونه عبدالله ، الذي احاطه بجميع النعم ، ويبايع سواه ؟

واذا فعل ، أفلا يتبعه اخوه طلحة امير خراسان ، فيهتز العرش العباسي ، ليرتفع العرش العلوي ؟

انه مأزق يجب ان يخرج منه ، اما له واما عليه ..

ولم يشأ ان يطلع احداً على ما نقل اليه

كما انه لم يشأ ، ان يشاور في الامر ، احداً من رجال القصر

انظر ما فعل ...

دعا رجلاً من خاصته ، يثق به وقال له :

دعوناك لنعهد اليك في قضاء امر لا يعرفه احد غيرك .. ووالله لئن حدثت به احداً ، وبحت به لواحدة من نسائك او جواريك ، او ذكرته امام واحد من بنيك ، لنأخذن رأسك !!

قال : ألم ير امير المؤمنين ، من ماضيّ في خدمته ، ووفائي له ، ما تطيب له نفسه ؟

– بلى ، ومن اجل ذلك ، لم نختر لهذه المهمة رجلاً آخر ، على كثرة الرجال والامناء ... ان مهمتك في مصر

– لتكن في تونس فانا لا ابالي ..

قال : اسمع ... تذهب الى مصر ، في هيئة القراء والنساك ، وتدعو جماعة من كبرائها واعيانها ، الى القاسم بن ابراهيم ، من ولد علي ، وتحملهم سراً على البيعة له !

فهم بالكلام ، فاسكته قائلا :

ثم تصير الى حاشية عبد الله بن طاهر ، ومن معه من وجوه اصحابه وقواده ، فتذكر لهم مناقب القاسم ، وفضائله وعلمه ، وبعد ذلك تأتي عبد الله نفسه ، فتدعوه الى ذلك وترغبه فيه ، وتقرأ ما في نفسه ، على ان تصغي الى ما يقوله لك ، وتنقل الينا ما تسمع

قال : فهمت ما تريد يا امير المومنين

— فهمت ماذا ؟

— انك ستختبر وفاء عبد الله

— هو ذاك ، فاذهب من يومك ، وافعل ما امرناك به ، وليعلم الناس انك ذاهب الى الشام

فسار ، الناسك الزاهد ،، حتى انتهى الى مصر ، واخذ يدعو وجوهها الى القاسم العلوي ، فاستجاب له بعضهم ووعده البعض الآخر بالدعوة الى صاحبه ...

ثم سار فقعد بباب عبد الله ؛ فرآه قد ركب ، ليودع ابن السري ..

فقام فاخرج من كمه رقعة ، ودفعها اليه

فاخذها منه ولم يقف ، ولم يسأله عن غايته

فلما عاد الى القصر ، رآه قاعدا بالباب ،

فامر حاجبه بادخاله ،

وقعد هو على بساط له ما بينه وبين الارض غيره ، وقد مد رجليه ، وخفاه بهما ، فقال له :

فهمت ما في رقعتك ، فهات ما عندك

قال : ولي امانك ؟

قال : نعم

فاظهر له غرضه ، ودعاه الى القاسم ، ذاكراً زهده وتقواه ، واسترسل في الاطراء والاغواء ...

وعبد الله ينظر اليه وهو ساكت

حتى انتهى فقال له

اتنصفني يا رجل ؟

قال : نعم ايها الامير

قال : هل يجب شكر الله ، على عباده ؟

— نعم

قال : فتجيء الي ، وانا في هذه الحال التي ترى ، لي خاتم في المشرق جائز ،

وخاتم آخر في المغرب ، وقولي مقبول فيما بينهما ، وامري مطاع ، ثم ما التفت عن يميني وشمالي ، وورائي وامامي ، الا رايت نعمة لرجل انعمها علي ، ومنة ختم بها عنقي ويدا لائحة بيضاء ، ابتدأني بها تفضيلا و كرما ، فتدعوني الى ان اكفر بهذه النعم ، وهذا الاحسان ، وتقول ، اغــــدر بصاحب الفضل ، واسع في ازالة خيط عنقه وسفك دمه !! ... تراك لو دعوتني الى الجنة عيانا من حيث اعلم اكان الله يحب ان اغدر به واكفر احسانه ، وانكث بيعته ؟!

فاطرق الرجل ،

فقال له عبد الله :

ما اخاف عليك الا نفسك فارحل عن هذا البلد ، فـان السلطان الاعظم ، ان بلغه امرك ، كنت الجاني على نفسك ، ونفس غيرك ..

فرأى الناسك المزيف ، انه لا يستطيع ان يبلغ غايته منه

فانثنى راجعا الى بغداد ، وخبر المأمون بما قاله له عبد الله

فاستبشر وقال :

ذلك غرس يدي ، والف ادبي ..

وكتم الخبر ، لم يظهره لاحد ، ولم يعلم به عبد الله ، الا بعد موت المأمون ا

● ● ●

خرج محمد بن حميد الطوسي من بغداد ، الى الموصل ، يصلح امرهـا بعد مقتل السيد بن انس الازدي ، ويحارب زريق بن علي

وخرج معه اعده لهذه الغاية

فلما اتى الموصل ، اصلح ما اختل في حكومتها ، وقضاتها ، وجباتها ، وضبط اموالها ، ثم جمع من فيها من رجال اليمن وربيعة ، وسار لحرب زريق

ومحمد بن السيد يتقدم الجيش ، طالباً بثأر ابيه

فعرف زريق ان الجيش خرج الى قتاله
فلم يتردد في امره ، ومشى للقائه مع اصحابه
وكانت المعركة على نهر الزاب
فكتب اليه الطوسي ، يدعوه الى الطاعة
فامتنع ، ولم ير ان يبعث اليه بجواب
فناجزه محمد ، وحمل السيف الموت الى الجيشين ..
ومحمد بن انس ، يحاول الوصول الى زريق ، ليقتله بابيه ، فلا يقدر . ولكنه كان كالصاعقة ينقض على الاعداء ، فيوردهم الهلاك
حتى رأى زريق عند الظهر ، ان جيشه سيفنى ، وسيقع هو اسيراً او يقتل ..
فآثر الهزيمة ، واومأ الى اصحابه ان يتبعوه
ولكن الطوسي لم يكتف بهذا النصر الابتر ، بل كان يريد ان يقضي على الثائر او يخضعه لامير المؤمنين
ارسل اليه رجلين ، يطلبان اليه ان يستسلم ، واوصاهما بان يقولا له :
انه ان لم يفعل ، سعرها عليه حرباً لا تنتهي الا بقتله
فشاور زريق جماعته ، ثم بعث يطلب الامان ، على ان تحفظ حياته ، وحياة من معه ، من رؤساء العشائر والقواد
فأمنه الطوسي ، وامره بان ينزل اليه
فأطاع ، واقبل بعد ثلاثة ايام ، يلقي سلاحه ، عند قدمي القائد الذي ظفر به ..
فسيره محمد الى المأمون ، واصفاً له حال الموصل
فورد عليه الجواب ، يأمره فيه بان يأخذ اموال زريق كلها وما يملكه من ضياع لا يبقي له شيئاً من ذلك
فدعا محمد ابناء الرجل واخوته ، واخبرهم بما امر به الخليفة
فاطاعوه ، ولم يجسروا على الرفض
فقال لهم عندئذ :
ان امير المؤمنين انعم علي بهذا المال كله ، وانا ارده عليكم !

فاكبروا فيه هذه الاريحية وشكروه ؛ وامسوا من ذلك الحين ، من اخلص الناس للخليفه وعماله

وبعد ان ساد السلام البلاد ، استخلف الطوسي على الموصل ، محمد بن البيد ، واوصاه بالعدالة ، والصدق في الخدمة ، ثم غادر البلد الى اذربيجان يخضع فيها المتمردين ، ويسير بعد ذلك الى قتال الخرمي

وكان قد قام في ذهن المأمون ، ان هـذا الخرمي لا يغلب ، الا اذا ضربه بعبد الله بن طاهر ، فهو وحده القادر على ما لم يقدر عليه الآخرون ..

وقد اعتقد ان الرجل الذي استطاع ان يظفر بنصر يستطيع ان يظفر ببابك ،

واذا فكر المأمون في امر ، واشبعه بحثاً ودرساً ، صعب علـى وزرائه ومستشاريه ان يصرفوه عنه ..

وخطر له ، وقد استولت عليه الفكرة ، ان يولي ابنه العباس واخاه المعتصم ما كان يتولاه عبد الله ، ويأمر عبد الله بالمجيء الى بغداد ثم ينظر ، وهو بين يديه في امر الخرمي ومحمد الطوسي

ولم يبق الا ان ينفذ ما خطر له

فقال لحاجبه :

ادع هؤلاء الثلاثة ، العباس وابا اسحاق المعتصم ، واحمـد الوزير

فدخلوا عليه ، فقال لابي اسحاق :

اي رجل تجعله خليفتك على مصر ، اذا نحن عهدنا في ولايتها اليك ؟

— انا يا امير المؤمنين ؟

— اجل ، فقد رأينا ان نستدعي ابن طاهر لنوليه بلداً اخر

فقال في نفسه :

يظهر ان المأمون ، صدق ما ذكرته له عن عبدالله ...

ثم قال : اذاحسن لدى امير المؤمنين ان اجعل عمير بن الوليد

قال : قد وليناك ، فمر صاحبك بان يسير اليها

— ومن تختار للشام ؟

– يختار امير المؤمنين من يشاء
– أليس لك رأي في سعيد بن زياد ؟
– بلى ، انه لها يا امير المؤمنين
فقال للعباس :
وانت يا بني ، الا تجد نفسك اهلاً للولاية والحكم ؟
قال : ان فتى ابوه المأمون ، أهل لاعظم من ذلك ..
فابتسم له وقال :
اذن وليناك الجزيرة والعواصم ، والثغور ، فاستخلف الرجل الذي تريد
وقال لاحمد :
اكتب الى عبدالله ، ومره بان يترك ارض مصر ، ويعهد في ادارتها الى عيسى بن يزيد ، ريثما يتولاها اخر ، واذا قدر ان يجيء ، قبل ان ينتهي العام فليفعل
وتنهد ، كأنه كان يحمل حملاً ثقل عليه
ثم اذن للناس ، وجعل ينظر على عادته في حاجاتهم ، ويأمر برد الحقوق الى اصحابها ، حتى اتت ساعة الصلاة
فترك المجلس ، ولحقت به خاصته الى بيت الله ..

• • •

٤٧

قال ابن الاثير ، في تاريخه عن هشام بن عبد الاموي :

ان الجعد بن درهم ، اظهر مقالته بخلق القرآن ، ايام هشام فاخذه ، وارسله الى خالد القسري ، وهو امير العراق ، يأمره بقتله فوضعه خالد في السجن ، ولم يقتله

فبلغ الخبر هشاماً ، فكتب الى خالد يلومه ويأمره من جديد بان يضرب عنقه فاخرجه خالد من السجن وهو مقيد

فلما صلى العيد يوم الاضحى ، قال في آخر خطبته :

انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم، فاني اريد ان اضحي اليوم بالجعد بن درهم، فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ ابرهيم خليلًا،تعالى الله عما يقول الجعد ، علوا كبيراً ...

ثم نزل وذبحه

ويقول ، ان سبب تسمية مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الامويين ، بالجعدي ، ذهابه مذهب الجعد بن درهم ، في القول بخلق القرآن ،

فيتضح من هذا القول ، ان « خلق القرآن » بدعة نبتت في العصر الاموي ، ثم لم تجد جوا تترعرع فيه وتنمو ، حتى كان عصر المأمون

وجاء في كتاب عصر المامون :

ان هذا الخليفة العباسي ، الذي لم يقم في اسرته ، اعظم منه ومن ابيه ، كان تلميذاً ليحيى بن المبارك اليزيدي ، المتهم بالاعتزال، وكان معجبا بثمامة بن اشرس احد زعماء المذهب ، حتى انه عرض عليه الوزارة مرتين

وكان يعقد مجالس للكلام في مختلف الامور ، ويقرب اليه المتكلم الحاذق ،

والمفكر البصير ، مثل ابي الهزيل العلاف ، وابراهيم بن سيار ، وغيرهما وهؤلاء جميعهم من شيوخ المعتزلة

فلا عجب ان حبب هؤلاء القوم الى المأمون ، مذهبهم ، ولا غرو ان رأوا مهمتهم ميسورة هينة ، لانهم وجدوا من المأمون ، ذلك التلميذ المتأثر بمذهب استاذه ...

كل هذه العوامل ، كانت في الواقع ، ناحية واحدة ، لها اثرها في تنمية النزعة الاعتزالية في نفس المأمون

غير ان هنالك ، ناحية قوية اخرى ، لها اثرها ايضا ، تلك هي حركة الترجمة والنقل ، التي حببت الى المأمون الفلسفة ، ووجهت غايته الى المنطق ، وبعثت في نفسه حب ارسطاليس حتى اصبح موضع تفكيره في نهاره وليله

وقد هيأت تلك الناحية منه ، ذلك التسامح ، الذي يتبع ما توحي به سلسلة افكاره

اظهر القول بخلق القرآن ، ودفعته حرية التفكير ، الى ماينافض حرية التفكير اذ ليس من الحرية في شيء ، الزام العلماء ومعظم الفقهاء ، الاخذ بمذهبه ، والقول بخلق القرآن كما يقول هو .

وقال الاستاذ وليم ميور في كتابه الخلافة :

وفي الحق ان المأمون كان متعصبا لفارس ، مسقط راس امه وزوجه بوران شديد الميل الى العلويين ، ونشأ عن ذلك ، في السنوات الاخيرة من حكمه ، مزيج من حرية الافكار والتعصب

وكان المأمون واسع الحرية حقا لدرجة مدهشه ، وقد الغى من سنوات مضت الامر الذي كان اسلافه قد اصدروه ، يحرمون فيه ذكر معاويةبن ابي سفيان ، او احد الامويين بخير .

واباح للمسيحيين حرية المناقشة ، في اي الدينين افضل ، المسيحية والاسلام ، غير ان ميوله الفارسية ، التي كان يجنح اليها دائماً ، دفعته اخيرا ان يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة ، الذين اباحو حرية التفكير

ثم احاط نفسه بالفقها وعلماء الدين ، من كل فئة ، واباح لهم المناقشة في حضرته في نظريات ، كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الانسان بخالقه وطبيعة الالوهية ، وغير ذلك

واخيرا اعلن تحوله ال عقائد ، تخالف تعاليم الدين الصحيحة !

فمن ذلك ، انه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر ، وان القرآن ، وان كان وحيا ، الا انه مخلوق ، بدلا من العقيدة التي كانت لا تنازع ، وهي ان القرآن ازلي ، غير مخلوق

واعلن ايضا ان علي بن ابي طالب ، اشرف الخلفاء بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بنيت نظرية الامامة ، والزعامة الدينية ، التي كانت تنقل من عضو الى آخر ، من بيت علي كما قرأت في غير هذا المكان

وبدأ في تلقين الناس ، انه يوجد مصادر اخرى غير القرآن والحديث ، يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ،وفسر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه !

وعلى مر السنين تحولت فكرة المأمون ، في خلق القرآن ، من مجرد رأي ، الى اعلانه المشؤم ، الذي حمل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدة لهم

وقد ارسل الى والي بغداد وهو في حملته الاخيرة على الروم ، امرا بان يجمع كبار العلماء والفقهاء ، ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ، ويخبره بما يقولون

وقد تأثر كثير من العلماء ، في مجلس المناظرة ، الذي كان اشبه بمحكمة التفتيش حتى اظهروا القول بخلق القرآن

الا ان البعض ، بقي ثابتا على عقيدته ، بان القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي ، الذي حملوه مكبلا بالحديد الى معسكر الخليفة

وذكر التاريخ ان اثنين من هؤلاء المخالفين ، هددا بالقتل ، وارسل عشرون منهم ، تحت خفارة الحراس ، لينتظروا في طرسوس عودة الخليفة من حروبه

ولكن جاءتهم الانباء في الطريق ، بموته ، فرجعوا الى بغداد

ذلك هو رأي احد المؤرخين الفرنج ، في كتابه الخلافة ، وما ورد في تواريخ العرب ، ذكرناه لك ، لاتصاله بالحياة العلمية والعقلية في ذلك العهد ، دون ان

يكون لنا رأي فيه .

وللدلالة على ميل المأمون الى العلويين ، والاحسان اليهم، ما ذكره ابن الاثير في كامله قال :

توفي ايام المأمون ، يحيي بن الحسين ، بن عـــلي بن الحسين العلوي . فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ، ما تعجبوا منه .

ثم ان ولداً لزينب بنت سليمان ، بن علي ، بن عبدالله بن العباس ، وهي ابنة عم الخليفة المنصور ، توفي بعده ، فارسل له المأمون كفناً ، وسير اخاه صالحاً ليصلي عليه ، ويعزي امه ، فانها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فاتى اليها وعزاها عنه ، واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه

فظهر غضبها ، وقالت لابن ابنها :

تقدم فصل على ابيك ، وتمثلت قائلة :

سبكناه ونحسبه لجينـــاً فابدى الكير عن خبث الحديد

ثم قالت لصالح :

قل له يا ابن مراجل ، اما لو كان يحيي بن الحسين ، لوضعت ذيلك على فيك ، وعدوت خلف جنازته !

• • •

تكثر الوشايات والبغض في قصور الملوك والخلفاء ،ويملأ الحسد نفوس المستشارين والمقربين ، كما عرفت !

رأى بعض رجال الحاشية ، ان المأمون يثق بوزيره ، كما يثق بالعباس ،ويعهد اليه ، فيما يصعب من امور الخلافة .

ورأوا احمد سيداً من سادات القصر ، والحجاب والقواد والغلمـان ، ينحنون له في دخوله وخروجه ، كأنه ولي العهد .

بل كانوا يرون ، انه ابعد نفوذاً من الامراء ، اخوة امير المؤمنين ، واعضاء البيت المالك ، فلم يطب لهم ذلك

والحسود ، لا يطيق ان يرى آثار النعمة ، على الاخرين !

نعم ، رأوا كل هذا ، فهالهم ما رأوه ، وكرهوا ان يرتفع الرجل الى القمة — وهم قاعدون ! فجعلوا يكيدون له

وكان محمد ، بن الخليل بن هشام ، الحسود الاكبر فقال لخادم يقوم على رأس المأمون :

اذا رأيت اميرالمؤمنين ، يخص احمد بن يوسف بكرامة ، او بلون من الالوان ، فخبرني .

وضمن له من اجل ذلك شيئاً من المال

ومن عادة المأمون ، وقد ذكرنا لك هذا ، انه كان يستدعي وزيره سحراً ، للنظر في امور الدولة .

فدخل عليه ، في يوم من ايام الربيع ، وليس عنده احد ، غير ذلك الخادم ، الذي وافق ابن الخليل في هواه

وكان بالقرب من المأمون ، مجمرة ، فيها العنبر والعود ، ولم تكن النار قد عملت فيها الا قليلا .

فلما اقبل احمد ، اراد ان يكرمه ، فامر الخادم بان ينقل المجمرة ، ويضعها عنده ، ليتبخر .

فراح الخادم يخبر ابن الخليل بما جرى

وابن الخليل هذا ، يدخل على امير المؤمنين كل يوم ، ويقص عليه ما يسمعه من احاديث اهل بغداد

فسأله المأمون يوماً عما تقوله العامة ، وما تتحدث به ، فقال :

خرجت امس من قصر امير المومنين ، فسمعت رجلاً ، وانا في زورق لي ، يقول لآخر :

أصحيح ما يقوله ندماء هذا الرجل ؟

فقال صاحبه :

ومن تعني ؟

فقال : اعني اميرالمؤمنين ؟

— وماذا يقولون ؟

قال : انصرف من عنده احمد بن يوسف ، فسمعته يقول لغلامه :

ما رأيت احداً قط ابخل من المأمون ، دخلت عليه اليوم ، وهو يتبخر ، فلم تتسع نفسه ان يدعو لي بقطعة من البخور ، بل اخرج المجمرة التي كانت تحتـه ، وامر لي بها لاتبخر .

فاطرق المأمون قليلا ، وكان يقول في نفسه :

والله ما حضر هذا اليوم احد ، فأظن فيه ..

لقد فعلها احمد بن يوسف ، الذي احسنت اليه ، وجعلته في المقام الذي لم يكن ليحلم بمثله .

واخذ يجفوه ، ويسمعه ، كلما اجتمع به ، كلمات تسيء اليه ، وتجرح كرامته، ثم نحاه عن عمله .

ويقول آخرون :

ان المأمون قال له :

اتتهمنا بالبخل ، ونحن نصل خادماً لنا بستة الاف دينار ؟

ثم امر بالعنبر فاحضر منه شيء في الغاية من الجودة ، في كل قطعة منه ثلاثة مثاقيل .

وامر بان تطرح القطعة في المجمرة يتبخر بها احمد ، ويدخل راسه في زيق ثوبه حتى ينفد بخورها .

وفعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة ، وهو يستغيث ويصيح

ثم انصرف الى منزله ، وقد احترق دماغه ، واعتل ومات

وكانت له جارية يقال لها نسيم ، لها في قلبه مكان خطير فقالت ترثيه :

ولو ان ميتا هابه الموت قبله   لما جاءه المقدار وهو هيوب

ولو ان حياً مثله هابه الردى   اذا لم يكن للارض فيه نصيب

وقالت ايضاً :

نفسي فداؤك لو بالناس كلهم   ما بي عليك تمنوا انهم ماتوا

وللورى موتة في الدهر واحدة ولي من الهم و الاحزان موتات

واستوزر المأمون بعده ، يحي بن اكثم التميمي ، قاضي القضاة ، وقد ذكرنا لك عنه ، في احد الاجزاء السابقة ، الشيء الكثير

يقول ابن طيفور :

ان المأمون استوزره

اما الفخر ، فلم يذكره بين الوزراء

ويظهر مما كتبه طلحة بن محمد بن جعفر ، انه كان مستشاراً للخليفة لا يعمل الوزراء شيئاً الا اذا استشاروه

وليس غريباً ان يكون الامر كذلـــك ، فهو قاضي القضاة ، وامر الرعية في يده

اجل ، كانت ليحي المنزلة العليا في الدولة ، والكلمة النافذة يفوض اليه الخليفة اجل الاعمال ، ويندبه للمهمة الصعبة لا يندب سواه

وظلت هذه حاله ، حتى تنكر له ، وأعاده مغضوباً عليه من مصر الى العراق ، كما ستقرأ

• • •

اقبل القواد ورجال الرأي ؛ على قصر عبـــدالله بن طاهر في مصر ، يسلمون على محمد بن يزيد الاموي

وبين هؤلاء القواد ، محمد بن الفضل الخراساني ، الذي يعرف هذا الاموي

واما الآخرون ، فقد نقلت اليهم اخباره ، ولكنهم لا يعرفونه

وكان عبدالله يرحب به ويقول :

لقد لحقت بنا اخيراً يا ابا يزيد ، ولكنك تأخرت

ـــ اجل تأخرت ، لاني لم اجد في الشام من يقوم مقامي في ادارة ما املك ،

حتى اهتديت اخيراً الى فتى من اهلي ، فأتيت مصر كما وعدتك

– وكيف تركت الشام

– انها ترفل في ثوب العافية مذ توليت امرها

– واين نزلت مع نسائك وبنيك ؟

– في دار لقبطي عند باب المدينة

– وعولت على الاقامة بمصر ؟

– اني باق فيها ما بقيت انت

– اما انا فقد امرني الخليفة بان استخلف عيسى بن يزيد ، واعود الى العراق قبل ان ينتهي هذا العام ، وسوغني خراج مصر

قال : ليس في الدولة من هو اجدر منك برعاية امير المؤمنين واحسانه ... ومتى تذهب ؟

– بعد شهرين فهل يطيب لك الرحيل الى بغداد ؟

– خير لي ايها الامير ان اعود الى بلدي اقيم به حتى ينقضي العمر

وجعل القوم يتنبأون ...

هذا يقول : دعي الامير ليتولى حرب بابك

ويقول آخر : بل ليجعله الخليفة صاحب شرطته وحاكم العاصمة

اما عبدالله فكان يقول لهم وهو يبتسم :

انا اعلم اني لم ادع لاخرج مع امير المؤمنين الى مطاردة الغزلان كل يوم ، او الى صيد السمك في دجلة ، وانما دعيت للقيام بخدمة جديدة لا ادري ما هي

فقال محمد بن الفضل :

وهل نحيت عن امارة مصر ؟

– نعم ، وعن الجزيرة والشام ، فأميرها اليوم هو ابو اسحاق المعتصم اخو الخليفة ، وامير الجزيرة هو العباس ابنه

وكانت زينب وسعدى تسمعان الحديث ، وهما وراء الستر

فقالت سعدى لاختها :

يظهر ان لهذا الرجل الذي قدم من الشام ، منزلته في قومه

ـ هذا الذي اراه ، على اننا لم نسمع به من قبل ... بلى اذكر ان الغلمان كانوا يتحدثون ، ونحن في ربوع الشام ، بأمر رجل يقال له الاموي

ـ وماذا كانوا يقولون ؟

ـ سمعتهم يذكرون عفو عبدالله عنه ، ويرددون ابياتاً من الشعر قالها هو ومع ذلك ، لم يخطر لي يومئذ ان اسأل عبدالله عنه

وكان احمد بن حفص يقول :

ألم تقل لنا ايها الامير ، ان الخليفة وجه محمد بن حميد الطوسي الى اذربيجان ، وأمره بقتال بابك ؟

ـ بلى

ـ وماذا صنع ؟

ـ لا اعلم ، فامير المؤمنين لم يكتب الي شيئاً من هذا ، ولم يأت مصر احد من العراق يطلعني على ما فعله الطوسي في الحرب ..

ـ ولكنه ظفر بزريق بن علي ، الذي قتل السيد بن انس صاحب الموصل

ـ نعم فقد استسلم زريق ، وهو اليوم في بغداد

ثم قال :

كل من يريد الرجوع الى العراق فليتهيأ للامر

فقال عثمان : وهل ذكر امير المؤمنين اسماء الذين يريد ان يعودوا ؟

ـ لم يذكر احداً ، فاختاروا انتم ما يطيب لكم

فقالوا جميعهم : نعود مع الامير

فقام فقال لصاحب بيت المال :

ماذا بقي من خراج مصر ؟

ـ ان اهل الوجه الغربي لم يدفعوا ما عليهم بعد

ـ ينبغي ان ينتهي امر خراجهم قبل ان نرحل

وقال لعيسى بن يزيد ، الذي امره المأمون بان يستخلفه :

بلغني ان الرجلين ، اللذين يقال لهما عبد السلام ، وابن جليس ، يهمان بالخروج عن الطاعة ، ويوغران صدور القيسيين واليمانيين

قال : لا اظن انهما يقدمان على مثل هذا

قال : احذر ، فامير المؤمنين لا يطيق ان تعود مصر الى العصيان ، بعد انه سادها الهدوء

وقبل ان يخرج قال لمحمد بن الفضل :

لقد سمعت ما قلته لعيسى فراقب الرجلين

ودخل القصر ، فقالت له زينب :

من هو هذا الرجل ، الذى رحبت به في المجلس ، وسألته عن الشام ؟

فضحك قائلاً

هذا الذي كنت اعده الدّ عدو لي .. هذا محمد بن يزيد ، من بقايا الامويين

وما شأنه ؟

ـ ان له قصة ، كتمتك اياها ونحن في ارض الشام

قالت : اعرف من هذه القصة ، ان الاموي قال شعراً ..

ـ ممن عرفت ذلك ؟

ـ من بعض الغلمان ، فما هي حكايته ؟

قال : كنت قد قلت وانا في بغداد ، قصيدة افخر فيها بمآثر ابي واهلي ، وقتلهم محمداً الامين ، فعارضني هذا الرجل ، وهو من ولد مسلمة بن عبد الملك ، فافرط في السبّ ، وتجاوز الحد في قبح الردّ

ـ وهل كانت بينك وبينه عداوة ؟

ـ لا عداوة ، ولا صداقة ، ولم ار له وجها

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ومر الزمن ، فلما تركنا الرقة قادمين الى مصر ، علم انه لا يفلت مني ان هرب ، ولا ينجو من يدي حيث حل

ـ وماذا فعل ؟

- ثبت في حصنه ، واحرز حرمه وترك امواله ودوابه ؛ وكل ما كان يملكه في موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه

وكان القواد الذين اطلعوا على شعره ، الذي عارضني فيه ، يتوقعون مني ان اوقع به

فقالت سعدى : وفي اي مكان ؟

- في ضيعة له بين دمشق وفلسطين ، فلما شارفنا الضيعة ، في الليل ، دعوت محمد بن الفضل الخراساني ، وامرته بان يبيت في خيمتي ، وليكن فرسه معدا ، الا تذكرين اني قلت له ذلك ؟

- بلى

- وعند السحر امرت الجيش ان لا يرحل حتى تطلع الشمس ، . وتذكرين هذا ايضا ؟

- نعم

- ثم ركبت ومعي خمسة من خواص الغلمان ، فسرنا حتى صبحنا الاموي ، فرايت بابه مفتوحا ، وهو جالس مسترسل

- وابن الفضل الخراساني معك ؟

- اجل ، فمشينا اليه وسلمنا عليه ، ونزلنا ، ثم قلت له :

- ما اجلسك هنا ، وحملك على ان فتحت بابك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ولم تتنح عبد الله بن طاهر ، مع ما في نفسه عليك ، وما بلغه عنك

فقال : ان ما ذكرت لم يذهب علي ، ولكن تأملت امري وعلمت اني اخطأت خطيئة .. حملني عليها نزق الشباب ، وغرة الحداثة وانـي ان هربت منه ، لم افته فباعدت بناتي وحرمي ،واستسلمت بنفسي وكل ما املك ،فنحن اهل بيت قد اسرع القتل فينا ولي بمن مضى اسوة فاني اثق بان هذا الرجل اذا قتلني واخذ مالي شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك الى الحرم ، ولا له فيهن ارب ، ولا يوجب جرمي اليه اكثر مما بذلت ..

فوالله يا زينب ما اتقيته الا بدموعي تجري على لحيتي

– وهل كنت تريد ، عندما سرت اليه ، تشتفي منه ؟
– لم اكن اعلم عندئذ ما اريد
– وماذا كان جوابك ؟
– قلت له اتعرفني ؟
قال : لا والله
فقلت : انا عبدالله بن طاهر ، وقد أمن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك ، وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجلت اليك الآن ، الا لتأمن من قبل هجوم الجيش ، والئلا يخالط عفوي عنك روعة تلحقك منه .
فبكى ، وقام فقبل رأسي ، فضممته وادنيته ، ثم قلت :
اما فلا بد من عتاب يا اخي جعلني الله فداك ، قلت شعراً في قومي افخر بهم ، لم اطعن فيه على حسبك ، ولا ادعيت فضلاً عليك ، وفخرت بقتل رجل هو من القوم الذين ثارك عندهم ، وكان يسعك السكوت ، او ان لم تسكت لا تغرق ، ولا تسرف
فقال : ايها الامير ، قد عفوت ، فاجعل العفو الذي لا يخلطه تثريب ولا يكدر صفوه تأنيب ،
فقلت : قد فعلت ، فقم بنا ندخل الى منزلك ، حتى نوجب عليك حقاً بالضيافة.
فقام مسروراً فادخلنا ، واتي بطعام فاكلنا ، وجلسنا نشرب في مشرف له ، ثم اقبل الجيش ، فامرت ابن الفضل بان يتلقاهم فيرحلهم ، ولا ينزل احد منهم الا في المنزل المعد لهم ، وهو على ثلاثة فراسخ
ثم قلت له :
ان نشطت لنا فالحق بنا ، والا فاقم مكانك ، فقال :
انا اتجهز والحق بك ، وفعل ، فلحق بنا اليوم كما ترين ، وسيفارقنا عندما نرحل الى العراق ، ويرجع الى بلده
قالت : وهل تظن ان امير المؤمنين سيوليك حرب الخرمي ؟
– هذا ما يقوم في الذهن

— وتسير الى قتاله ؟

— اسير الى البلد الذي يشاء ، على شرط ان تكوني معي

— واين اكون !؟ اني لا افارقك حتى تفارقني الروح

واخذت ولدها طاهراً من حضن المرضع ، وجعت تقبله وتقول : اهون علي ان اترك ابني ، ولا اتركك .

وبعد شهرين ونصف الشهر ، تركت الجماعة ارض فرعون ، ولم يبق فيها غير ثلاثة من القواد ، اذن لهم في البقاء

وكان المعتصم ، قد وجه عمير بن الوليد ، عاملاً له على مصر ، فالتقى عبدالله ومن معه في فلسطين ، وجعل الامير يوصيه بالانتباه والحذر ، ولفت نظره الى الرجلين ، اللذين ذكرهما لعيسى بن يزيد

وعند وصول الجيش الى الرقة ، استقبله الناس كما يستقبل الفاتحون ، وضمت ام مروان بنيها الثلاثة وهي تشهق بالبكاء وتقول :

اني لا اطيق بعد اليوم ، ان تبتعدوا عن عيني

وكذلك قالت لابنها ام عثمان

فقال عبدالله : اذن فلنرحل جميعنا عن الرقة الى بغداد

وقال مروان : نعم الى بغداد ، فقد امست الرقة في نظرنا بلدا قفاراً وسنبيع البيضاء

ولم يلبثوا حتى فعلوا ذلك

ومشى موكبهم يريد عاصمة الرشيد

وكانت العاصمة قد استعدت بأمر المأمون ، للقاء القائد الظافر

فلما اقبل ، تلقاه العباس والمعتصم ، الذي ذهب حسده ، يتقدمان طوائف الناس من اهل بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، وكربلاء

وعانق الخليفة عامله الامين الباسل ، الذي امتدت شهرته الى جميع الاقاليم

وكانت هنالك احاديث ، تناولت مصلحة الخلافة ، في جميع النواحي ، ثم انصرف عبدالله الى القصر ، الذي اختاره له نسيبه حاكم بغداد ، يستريح من

متاعب الحياة

وجعل اسحاق الموصلي ، يلازمه ويغني مع لميس الجارية ، وعبدالله يكرمه ويحسن اليه ، ولا يطيق فراقه

وفي اوائل العام الرابع عشر بعد المئتين ، خلع القيسيون واليمانيون المأمون، بقيادة عبدالسلام وابن جليس ، كما كان يتوقع عبدالله ، ووثبوا بعامل المعتصم في مصر عمير بن الوليد فقتلوه

فلم ير المأمون بدآً ، من ارسال اخيه المعتصم ، لاسترجاع الهيبة التي ضاعت والامن الذي اختل ، ولتأديب العصاة ، وانزال القصاص بالثائرين اللذين خلعاه

وكان الله مع المعتصم ، فقد قتل الاثنين ، واخضع القوم ، ودانت له مصر من اقصاها الى ادناها لاتخالفه في شيء

• • •

استأذن اسحاق الموصلي المأمون ، في الذهاب الى خراسان ، لزيارة طلحة بن طاهر ، فاذن له ، على ان لايطيل غيبته

وكان طلحة ، عند دخول اسحاق خراسان ، يقاتل جماعة من الخوارج ، وهو بعيد عن مرو

فلما رجع ، وكانت قد اصابته ضربة في وجهه ، خبروه ان اسحاق سأل عنه فجلس يشرب ، وبعث اليه

فاتاه الغلام وقال له : اجب الامير

قال : وما يعمل ؟

قال : يشرب

فمضى اليه ، فاذا هو جالس قد عصب ضربته ، وتقلنس بقلنسوة

فقال له :

سبحان الله ايها الامير ، ما حملك على لبس هذا
قال : التبرم بغيره ، ثم قال :
اتغيب عني كل هذه الاعوام ، ولاتستأذن اميرالمؤمنين في المجيء
ـ سألته اكثر من مرة ، ان يصبر على غيابي ، شهرين اثنين ، فلم يفعل
ـ ثم صبر اخيراً على غيابك .
ـ نعم ، فأتيت ، وقد امرني بالرجوع بعد شهر
قال : ما لنا ولهذا الان ... غن بشعر الاخطل :

اعاذلتي اليوم ويحكما مهـــلا ... وكفا الاذى عني ولا تكثرا العذلا
دعاني تجد كفي بمـــالي فانني ... ساصبح لا استطيع جوداً ولا بخـــلا
اذا وضعوا فوق الصفيح جنـــادلا ... علي وخلفت المطية والرحـــلا
فلا انا مجتـــاز اذا ما نزلتـــه ... ولا انا لاق ما ثويت به اهـــلا

فغناه اياه فقال .
احسنت والله ، اعد ،
فاعاد ، وهو يشرب حتى صلى العتمة ، وهو يغنيه
فاقبل على خادم له وقال :
كم عندك
قال : مقدار سبعين الف درهم
قال : تحمل مع اسحاق
فلما خرج من عنده ، تبعه جماعة من الغلمان يسألونه
فوزع المال بينهم.
فرفع الخبر الى طلحة ، فاغضبه ، ولم يوجه اليه ثلاثة ايام
فعرف اسحاق انه قد تغير عليه
فجلس ليلًا ، وتناول الدواة والقرطاس ، وكتب :

علمني جودك السماح فـــما ... ابقيت شيئاً لدي من صلتك

لم ابـق شيئا الا سمحت بـــه ... كأن لي قدرة كمقدرتــــك
تتلـف في اليوم بالهبـــات ... وفي الساعه ما تجتنيه في سنتك
فلست ادري من اين تنفق لو ... لا ان ربي يجزي عـلى صلتك

فلما كان في اليوم الرابع بعث اليه

فدخل وسلم

فرفع بصره اليه وقال :

اسقوه رطلا فسقوه ، وامر له بآخر وآخر فشرب ثلاثا ثم قال الامير : غنني

اعاذلتي اليوم ويحكما مهلا

فغناه ، ثم اتبعه بالابيات التي قالها وقد كان صنع فيها لحنا في طريقـة الصوت فقال :

ادن ، فدنا ، فقال : اجلس ، فجلس ، فاستعاد الصوت الاخير الذي صنعه ، فاعاده ، فلما فهمه ، وعرف معنى الشعر ، قال لخادمه

احضرني فلانا

فاحضره فقال له : كم عندك من مال الضياع ؟

قال : ثمانمائة الف درهم ، فقال :

احضر بها الساعة

فجيء بثمانين بدرة ، فقال للخادم

جئني بثمانين مملوكا

فاحضروا فقال :

احملوا هذا المال ، ثم قال

يا ابا محمد ، خذ المال والمماليك ، حتى لا تحتاج ان تعطي احدا منهم شيئا ...

وجعل يعبث بلحيته ويقول :

متى تعود الى العراق ؟

ــ اقيم هنا حتى ينتهي الشهر

- كان عليك ان تمكث بيننا ستة اشهر

ليس لي ان ابقى اكثر من شهر

- اذن نامرك بان تحتفظ بالمال الذي وهبناه لك لا تنفق منه درهما ، فانت ضيف علينا حتى ترجع

ومكث اسحاق شهراً وهو ومماليكه ضيوف على الامير حتى ترك خراسان راجعا الى بغداد

ومثل بين يدي المأمون يوم وصوله وكان يسال عنه

فقال له :

لقد فعلت ما امرناك به ولم تطل الغيبة

قال : ومن اطيع ان لم اطع امير المؤمنين ؟ لقد كانت الايام التي غبتها ، وانا بعيد عن مولانا الخليفة اطول من عام

- وكيف طلحة في خراسان ؟

الم يحمل اليك البريد ، خبر ظفره بالخوارج والضربة التي اصابته في جبهته؟

- بلى ولكن نسألك عن حال البلاد يوم خرجت منها

قال : حال يرضى عنها امير المؤمنين

ولم يقل لك طلحة شيئاً تنقله الينا ؟

- ان اخبار البلاد جميعها تصل اليك كل اسبوع

- هذا صحيح ، وطلحة من العمال الذين يعجب بهم امير المؤمنين

ودخل الناس في تلك الساعة يسألون الخليفة قضاء الحقوق فقال لاسحاق قبل ذهابه : ترجع الينا غداً عند غروب الشمس

قال : سافعل

وفي مساء اليوم الثاني ، اتاه اسحاق وعنده عمه ابراهيم بن المهدي ، وفي مجلسه عشرون جارية ، قد اجلس عشراً عن يمينه ، وعشراً عن يساره ، ومعهن العيدان يضربن بها .

فسمع الموصلي في الناحية اليسرى خطأ ، فانكره

فقال المأمون : يا اسحاق ، اتسمع خطأ ؟

قال : نعم والله يا امير المؤمنين

فقال لابراهيم : وانت هل تسمع خطأ ؟

قال : لا

فاعاد على اسحاق السؤال فقال :

بلى والله وانه لفي الجانب الايسر

فاعاد ابراهيم سمعه الى الناحية اليسرى ثم قال :

لا والله يا امير المومنين ما في هذه الناحية خطأ

فقال اسحاق : مر الجواري اللواتي على اليمين ، يمسكن

فامرهن ، فامسكن ، فقال لابراهيم :

هل تسمع الآن خطأ ؟

فسمع ثم قال : ما ههنا خطأ

فقال : يا امير المومنين ، يمسكن وتضرب الثامنة

فامسكن وضربت الثامنة

فعرف ابراهيم الخطأ ؛ فقال :

نعم يا امير المومنين ها ههنا خطأ ، فقال له :

يا ابراهيم ، لا تمار اسحاق بعدها ، فان رجلاً فهم الخطأ بين ثمانين وتراً لجدير الا تماريه ، فقال :

صدقت يا امير المؤمنين

وصنع اسحاق لحنه في شعر حاتم الطائي :

اماوي ان المال غاد ورائح . ويبقى من المال الاحاديث والذكر ،

وجعل يجيء كل ليلة ، بامر من الخليفة ، يغني ويشرب ، وقد تخلف عن عبدالله بن طاهر ، وكان كثير الملازمة له ، كما مر

فقال عندئذ لجاريته لميس :

خذي لحن اسحاق ، في :

أماوي ان المال غاد ورائح ، فاخلعيه على:

وهبت شمال آخر الليل قرة : ولا ثوب الا بردها وردائيا

والقيه على كل جارية تعلمينها ، وعلى من يجيده من جواري زبيدة ، واشهريه ، وقولي : اخذته من بعض عجائز المدينة

ففعلت ، وشاع امره ، حتى ، غني به بين يدي المأمون .

فقال المأمون للجارية :

ممن اخذت هذا ؟

فقالت : من دار عبدالله بن طاهر . من لميس جاريته ، واخبرتني انها اخذته من بعض عجائز المدينة

فقال لاسحاق :

ويلك ، قد صرت تسرق الغناء ، وتدعيه ، اسمع هذا الصوت

فسمعهفقال :

وحياتك هذا لحني يا اميرالمؤمنين ، وقد وقع علي نقب من لص حاذق ، وانا اغوص عليه حتى اعرفه

ثم بكر الى عبدالله بن طاهر فقال :

اهذا حقي وحرمتي ، وخدمتي ، تأخذ لميس لحني في

اماوي ان المال غاد ورائح :

فتغنيه في « وهبت شمال » فتفضحني عند الخليفة وتدعي انها اخذته من بعض عجائز المدينة ؟

فضحك عبدالله وقال :

لو كنت تكثر عندنا كما كنت تفعل ، لم تقدم عليك لميس ولاغيرها

فاعتذر ، فقبل عذره وقال له :

اي شيء تريد الان؟

قال : ان تكذب نفسها عند من ألقته عليها ، حتى يعلم الخليفة ذلك ، فقال :

افعل

ومضى اسحاق الى المأمون ، وخبره القصة فاستكشفها من لميس حتى وقف عليها ، وجعل يعبث باسحاق

وبعد ثلاثة ايام ، اقبل ابو محمد اليزيدي ، وكان من المقربين الى المأمون ، فشكا اليه دينا لحقه ، فقال له

ما عندنا في هذه الايام ما نفي به دينك ..

فقال يا امير المؤمنين ، ان الامر قد ضاق علي ، وان غرمائي قد ارهقوني بالطلب ، فقال

لا حيلة لنا في هذا

قال : لك منادمون فيهم من اذا حركته نلت منه ما احب ، فاطلق لي الحيلة فيهم فقال :

افعل ما بدا لك ، قال :

اذ احضروا وحضرت ، فمر فلانا الخادم ان يسلم اليك رقعتي ، فاذا قرأتها فارسل الي من يقول لي

دخولك في هذا الوقت متعذر ، ولكن اختر لنفسك من احببت

ومرت بضعة ايام ، فلما علم اليزيدي ، بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليه ، وتيقن انهم قد ثملوا من شربهم ، اتى الباب ، فدفع الى ذلك الخادم رقعة قد كتبها فاوصلها الى الخليفة ، وقد جاء فيها

يا خير اخواني واصحابي	هذا الطفيلي لدى الباب
خبر ان القوم في لذة	يصبو اليها كل اواب
فصيروني واحداً منكم	او اخرجوا لي بعض اترابي

فقرأها المأمون على من حضره ، فقالوا :

ما ينبغي ان يدخل هذا الطفيلي على مثل هذه الحالة

فارسل اليه المأمون :

دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك من احببت تنادمه فقال :

ما ارى لنفسي اختياراً غير عبدالله بن طاهر

فقال المأمون لعبدالله

قد وقع اختياره عليك فسر اليه ، قال :

يا امير المؤمنين أأكون شريك الطفيلي ؟

قال : ما يمكن رد ابي محمد عن امرين ، فان احببت ان تخرج اليـــه ، والا فافتد نفسك

فقال يا امير المؤمنين ، له علي عشرة الاف درهم

قال : لا احسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك

فلم يزل يزيده عشرة عشرة والمأمون يقول له :

لا ارضى له بذلك حتى بلغ مئة الف ، فقال :

فعجلها له .

فكتب له بها الى وكيله ، ووجه معه رسولا ، فارسل اليه المأمون قبض هذا المال في هذه الحال ، اصلح لك من منادمته على مثل حاله ، وانفع عاقبة .

● ● ●

تركت مصر يا عبـدالله ولم تسألنا لماذا دعوناك

- ليس لي ان اسأل امير المؤمنين عما يفعل ، لقد فرضت علينا طاعتـــك ، والرعية لا تسأل راعيها عما يأمرها به

قال : كنت عاملا لنا على ولايات ثلاث ، الجزيرة، والشام ، ومصر ، فنبعدك عنها لنوليك امراً آخر ، فماذا تقول ؟

- ليس لي ما اقوله يا امير المؤمنين

قال : الا تذكر ، اننا كنا اردنا ، قبل ان نأمرك بالخروج من الرقـة ، ان نعهد اليك في قتال بابك ؟

وجعل يتفرس فيه ليرى تأثير كلمته .

فقال بلى يا امير المؤمنين

- ثم اشاروا علينا بان نوجه الى قتاله ، ابن حميد الطوسي ، ففعلنا ، ولم نر منه

حتى اليوم ، مظهراً واحداً من مظاهر الظفر

قال : لقد كثر انصار الرجل فاستقوى في جباله

- هو ذاك ، ونحن نخشى ان يفشل محمد

- ليفعل امير المؤمنين ما يراه فانا مستعد

- نصبر حتى يرد علينا خبر جديد .. يا غلام ، ادع ابا اسحاق والعباس

فحضرا ؛ فقال لعبدالله :

جعلنا اخانا ابا اسحاق ، على مصر والشام ،والعباس عـــلى الجزيرة والثغور ، واستدعيناك انت من مصر ، ولم نأمر لاحد منكم بشيء ... ليدخل الشعراء :

فدخلوا ، وهم بضعة عشر رجلا

- ولتدخل الخاصة ورجال الدين والفقه

فلما غص بهم المجلس قال :

ان هذا اليوم عندنا يوم عيد ، اين صاحب بيت المال .

- ها انذا يا امير المؤمنين .

قال : امرنا لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ، المعتصم ، والعباس ، وعبدالله ، بخمسائة الف درهم .. وبخمسين الفاً لكل شاعر ، واعط كل رجل من رجال الخاصة مئة الف .

ثم التفت الى الخدم وكانوا كثاراً ، فقال :

اما هؤلاء فلكل منهم عشرون الفاً ! يخرج هذا كله من بيت المال بعد ساعة .. أفهمت ؟

فضجت القاعة بالدعاء

وقد عجب القوم ، لهذا الاسراف والبذل ، الذي لم يبذل مثله في يوم

ثم جعل يسأل يحيى بن اكثم المستشار الاكبر ، وقاضي القضاة ، بعض المسائل في الفقه والحديث ، ويحيى والفقهاء الاخرون ، يجيبون بما يعلمون ، وهم مختلفون

فلما انصرف هولاء الرجال ، قال ليحيى :

يا ابا محمد الم نجعل مجلس الفقهاء والعلماء مجلساً للنظر ؟

- بلى يا امير المؤمنين

- ولكنك ترى ان بعض الجماعات يخالف الاخرى في الرأي ، فجماعة عابت علينا ما نقول ، في تفضيل علي بن ابي طالب رضي الله عنه وظنوا انه لا يجوز تفضيله الا بانتقاص غيره من السلف الصالح ، والله ما استحل ان انتقص الحجاج ، فكيف افعل ذلك مع الخلفاء وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ... وان الرجل ليأتيني بالقطعة من العود وبالخشبة الصغيرة ، او بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون اكثر من درهم فيقول : ان هذا الشيء كان للنبي ، وقد وضع يده عليه ، او شرب فيه او مسه ، وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، الا اني بالنية والمحبة ، اقبل ذلك ، فاشتريه بالف دينار واقل واكثر ، ثم اضعه على وجهي وعيني ، واتبرك بالنظر اليه فاستشفي به عند المرض يصيبني او يصيب من اهتم به ، وانما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له الا ما ذكر من مس رسول الله له ، فكيف لا ارعى حق اصحابه ، وحرمة من رافقه وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه ايام الشدة واوقات الضيق ، وعادى العشائر والاقارب ، وفارق الاهل والبنين ، واغترب عن داره ليظهر دعوته ... يا سبحان الله ، والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الاخلاق جميلا .... »

ودخل الحاجب عندئذ وناوله كتاباً وهو يقول :

من خراسان يا امير المؤمنين

فدفعه الى يحيى ، فلما قرأه ، جعل ينظر الى الخليفة ، والى عبدالله بن طاهر ، وقد اصفر وجهه .

فقال المأمون : ان في الكتاب خبراً له خطره .. فما هو ؟

قال : مات طلحة بن طاهر يا امير المؤمنين ، ولم يكن مريضا .

- ولكنه كان جريحاً والجرح سبب الموت .

فحنى عبدالله رأسه وهو يضطرب

فقال له المأمون :

يا ابا طاهر ، ان القائد الذي يبصر الموت كل يوم ، ويتعثر بالجثث في ساحات

الحرب ، لايحني رأسه للقدر ولو جار ... قم فالموت لايذل الرجال ، ولك اسوة بامير المؤمنين ، الذي استأثر الله بابنته وهي في عنفوان العمر

فرفع رأسه قائلا :

امد الله اجلك يا امير المؤمنين وجعلنا جميعنا فداك

قال : الطلحة بنون

– نعم يا مولاي

– واخوتك الآخرون وامك ؟

– في خراسان

فاطرق مليا ثم قال ليحي

من الكتاب ؟

– من علي بن طاهر

– اذن هو خليفة اخيه - فلنصبر.

وقد عنى بكلمته الاخيرة ، انه ينتظر اخبار الخرمي

ولكن جلساءه لم يعلموا ما الذي عناه ، ولم يروا ان يسالوه

الا عبد الله فقد عرف الغاية من قوله

ودخل الحاجب، بعد لحظة ، مرة ثانية ، فقال :

كتاب من غسان بن عباد

فقال : اقرأ يا ابا محمد

ففعل ثم قال :

لقد خرج بشر بن داود في السند ، عن طاعة امير المؤمنين وجبى خراجها ، واستبد باهلها ، لايجسر احد فيها ان يخالفه في امر .

قال : عزلنا غسان بن عباد وعن خراسان من قبل ، لانه اظهر شيئا من التردد والضعف ، فكيف هو اليوم

فمدحه بعضهم ، واسترسلوا في المدح

فنظر الى مستشاره ، وكان ساكتاً ، وقال :

ما رأيك يا ابا محمد ؟

- يا امير المؤمنين ، ذلك رجل حسناته اكثر من سيئاته ، وهو ينتصف من الذين يغمطون نعمة امير المؤمنين ، ولن يأتي امراً يعتذر منه

فقال : لقد مدحته على سوء رأيك فيه

فاجابه قائلاً : اني يا امير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى شكراً لما اسديت اني   صدقتك في الصديق وفي عداتي

فاعجب المأمون بكلامه وادبه وقال له :

اجعله اذا عاملا لنا ، وليفعل مايراه لمصلحة الخلافة

ثم قال لنسيبه عبدالله بن عبيدالله بن العباس :

نراك ترغب في ان تحج بالناس هذا العام ، اليس كذلك ؟

قال : الامر لك يا امير المؤمنين

قال : تهيأ ، وليعلم القوم انا امرناك بهذا ، وولیناك اليمن

وبينا هو يحدث رجاله ، ويبذل لهم النصح ،اقبل جندي من جنود محمد الطوسي ينعي له قائده ، وبيده رسالة من اركان الحرب ..

فعظم ذلك عند المأمون ، وقال للجندي :

قتل الطوسي في الحرب ؟

- نعم يا امير المؤمنين

- وتعرف كيف قتل ؟

- نعم

- اذكر ما تعلم

قال : عندما فرغ محمد من امر العصاة الذين خالفوا امير المؤمنين ، سار ال.. بابك ، ومعه طوائف كثيرة من المتطوعين ، من جميع الاقاليم ، سالكاً طر.. المضايق الى العدو ..

قال : ذلك هو الخطر

- ولكن لم يكن هنالك سبيل غير هذا ، فبابك في جبله ، ولا يستطيع الجند

ان يصل اليه ، الا من الطريق التي ذكرت

ـ ثم ماذا ؟

ـ وكان كلما جاوز مضيقاً ، ترك عليه من يحفظه ، خوفاً من ان يسد عليه العدو منافذ الرجوع ، حتى نزل ببلد قريب من بلد الخارجي .

ـ قلت ان الخرمي في جبله

ـ نعم يا امير المؤمنين ، وذلك الجبل هو بلده ، وقد اشار على الطوسي اصحابه بدخوله من وجه ذكروه

قال : وهذا هو الخطأ ، وكان عليه ان يظل في السفح حتى يضجر الرجل ويمل فيخوض المجال ... وبعد ذلك ؟

ـ عبى رجـــاله ، وجعل على القلب محمد بن يوسف الطائي ، المعروف بابي سعيد ، وعلى الجناح الايمن السعدي بن أخرم ، وعلى الميسرة ، العباس بن عبد الجبار ...

فقاطعه قائلًا :

العباس الذي يقال له اليقطيني ؟

ـ نعم ،ووقف الطوسي خلفهم في جماعة ينظر اليهم ويأمر بسد الخلل الذي يراه

ـ وبابك ؟

ـ كان يشرف علينا من الجبل، وقد كمن لنا رجاله وراء الصخور ، فلما صعدنا زهاء فرسخين ، خرج علينا القوم من مكامنهم ، وانحدر بابك في من معه ، فانهزم الناس

فجعل الخليفة يهز رأسه دون ان يتكلم

فقال يحيي بن اكثم :

وماذا فعل عندئذ ابن حميد ؟

ـ امر الجنود بالصبر ، كما امرهم ابو سعيد ، فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم حتى انتهوا الى السهل

فانتهره المأمون قائلًا :

ألست من الجنود ؟

— بلى يا مولانا

— واين كنت ؟

— مع الكتائب التي تحرس المؤونة ، وقد ثبت الطوسي وصبر صبر الرجال ، ولكن الذين كانوا معه ، تركوه الا رجلاً واحداً ، فسار عندئذ يطلب النجاة ، فبصرت به جماعة من جنود العدو فضربوا فرسه فسقط على الارض ، وانثنوا يتخطفونه بالسيوف

فخفض صوته قائلا :

رحمه الله لقد كان بطلا كريماً ، وجواداً ممدوحاً ، وقتل من اجل الخلافة وقال للجندي :

واين هو الجيش اليوم

— في بلد حصين ، يقوم بأمره السعدي ، وابن عبد الجبار

فقال لعبدالله وقد بدا الهم في عينيه :

ماذا ترى ؟

فعرف الامير انه يريد ان يندبه للامر ؛ فقال :

لم يبق ، الا ان يوجه امير المؤمنين من يثق به

قال : لقد عظمت ثقتنا بك فانت لها

قال : متى تأمر بالمسير ؟

— بعد بضعة ايام فقد سمعت ما قاله هذا الجندي

ثم قال :

ألا يأتينا رسول آخر يحمل اخبار السوء ؟ لقد كثرت الحوادث في هذا اليوم فلا حول ولا قوة الا بالله

فقال يحي

موت طلحة بن طاهر ، وخروج بشر بن داود ، ومقتل محمد بن حميد ، أليست هي الاخبار الثلاثة التي سميتها اخبار سوء ؟

— بلى

قال : ان لك يا امير المؤمنين دولة تمتد من المغرب الى المشرق ، وهي اثنان وعشرون اقليما كبيراً ، فيها الحروب والفتن ، وفيها الناس من كل لون وكل جنس ، أفتستكثر اخباراً ثلاثة ترد عليك في اليوم ؟

— لا ، ولكن موت طلحة ، ومقتل محمد ، جعلا يومنا شر الايام

وبعد ساعة ، نعم بعد ساعـــة ... نسي طلحة ومحمداً ، واذن عـــلى عادته للمتظلمين ، ثم للشعراء ، وجلس في المساء ، يشرب ويصغي الى المغنين ...

• • •

الى قتال بابك ، فقد هلك الطوسي ، وجعلني الخليفة خليفة له

فاجابته زينب قائلة :

كنت تفكر في هذا ، عندما كنت في الرقة وفي مصر ، وهل عولت عـــلى الذهاب ؟

— ما في ذلك شك فأمر الخليفة هو الامر الذي لا يرد

— وانا يا عبدالله ؟

— تسيرين الي حيث اسير ، فليس للواحد منا ان يبتعد عن الآخر ، وانا ارى ان نترك جميعنا بغـــداد ، ونقيم ببلد قريب ، من المـــكان الذي يعسكر فيه الخرمي

- اذن اقول لامي واخوي ان يستعدوا

- سأقول لهم ذلك عند المساء ، وقد امرت عثمان بان يعد العدة

واخذوا منذ تلك الساعة ، يتهيأون للرحيل

وبعد سبعة عشر يوماً ، كانوا في بلد يقال له الدينور ، وعبدالله ، يدعو الناس الى التطوع ، وتجهيز الجيش للحرب

وكانت خراسان في ذلك العهد ، شعلة نار ...

الخوارج يكثر عددهم في نيسابور ، ويغيرون على المدن والقرى الآهلةبالناس ويسلبون ما تقع عليه الايدي ، من متاع ودواب ومال ، حتى انهم هاجموا بلداً يدعى الحمراء ، فاكثروا في اهله القتل ، واعتدوا على النساء والاطفال

واتصل ذلك بالمأمون ، فآثر حفظ خراسان من الفتن ، والاهتمام بامرها على مهاجمة العدو ..

ان النار اذا تلظت في خراسان ، صعب اخمادها ، ولكن الوصول الى بابك سهل عليه في كل زمان

فكتب الى عبد الله ، يأمره بان يتولى خراسان ، ويضرب الخوارج الضربةالتي يلتمسون بعدها الفرار والاستخفاء ، في كهوف الجبال

وجاء في الكتاب الذي ارسله اليه :

اترك كل شيء ، وسر الى نيسابور ، فاهلها قد نكبوا وقحطوا

فاطاع ، من غير ان يتردد في الأمر

وقبل وصوله الى نيسابور ، بيوم واحد ، فتساقط المطر غزيراً فروّى الارض ، واحيا النفوس

فلما دخلها واستقبله الناس ، قام من بينهم رجل بزاز « يبيع الثياب » فقال :

قد قحط النـاس في زمانهم حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنـا قدما فمرحباً بالامـــير والمطر

فأمر به عبد الله فاحضر ، فقال له :

أشاعر انت ؟

قال : لا ، ولكنني سمعت هذين البيتين في الرقة ، فحفظتها

فقال : اعطوه خمسين الف درهم

وامر بان لا يشترى له ولجيشه ، وحاشيته ، وغلمانه ، شيء من الثياب الا بأمره

ثم سار ، فاوقع في الخوارج . قتل بعضهم ، واسر البعض الآخر ، وتبددت البقية الباقية منهم في اطراف البلاد

وبعد ان فرغ من امرهم، رجع الى مروحاضرة الاقليم ، يقوم بتدبير الولاية ، يساعده في ذلك ، شقيقا زينب ، وعثمان

وكان المأمون ، قد ولى علي بن هشام ، اصبهان ، واذربيجان ، وما حولها ، واوصاه بما يوصي كل عامل له

ولكن علياً لم يكن عند حسن ظن الخليفة به

كان طاغية مستبداً لا يعرف الرحمة ، ولا تطيب نفسه الا اذا قسا ، واستأثر بالاموال ، وقتل الرجال ، حتى استغاث الناس ورفعوا ظلامتهم الى امير المؤمنين يشكون اليه وحشية عامله

فكتب اليه ينصحه وينهاه ، ويأمره برد المـــال الى اصحابه ، وانصاف الذين اخذهم بالقسوة والظلم

فتظاهر الرجل بالطاعة ، وظل ثلاثة اشهر لا يخالف المأمون فيما امره به

ثم عادت حليمه الى عادتها القديمة . . .

والخليفة يعيد النصح ويكره نفسه على الاحتمال والصبر

وعلي لا يكف عن استبداده ولا يرعوي

حتى ضاق الصدر وطفح الكيل ، وعول على اخذه بما اخذ به الناس الابرياء

وجه عجيف بن عنبسة ، وامره بقبض امواله وسلاحه ، وارساله مقيــداً ذليلاً الى دار الخلافة

فدافع علي عن نفسه بقوة وعنف ، وحاول اكثر من مرة ان يفتك بعجيف ورجاله فلم يقدر

ثم انتهى الامر بوقوعه اسيراً مع اخيه حبيب

فحملهما ابن عنبسة الى المأمون

فلما جيء بهما الى مجلسه ، قال لعلي :

يا ابن هشام ، تستخف بأمير المؤمنين ، وتعصى امره ، وتقتل وتسلب وتستأثر بمال الناس ولا تبالي ؟

قال : قتل الله من يستخف بك يا امير المؤمنين

- نعم قتله الله ... ألم نأمرك بان تكف عن الشر في ولايتك ؟
- لم يكن ما عملته شراً يا امير المؤمنين ، ولكنهم ظلموني بالشكوى الكاذبه وانا بريء !
- اجل بريء ، فقد خرجت الى عملك وانت لا تملك الف درهم فأمسيت اليوم وانت من اغنياء المسلمين
والتفت الى عجيف قائلا :
كم هو مال علي ؟
- انه كثير جداً يامولاي وقد وضع في بيت المال
فقال له :
ألم تقتل الرجال الذين خالفوك ، وارادوا ان يحتفظوا بالحق الذي هم ؟
قال : قتلت الرجال الذين لم يكونوا في طاعتك
- اذن فعلت ما فعلت من اجل امير المؤمنين
- نعم ، ولم يكن غرضي غير رضاك ، وجعل الناس جميعهم اوفياء لك !
قال : بارك الله فيك . يا غلام .. اضرب عنقه !
فقال : استبقني لعدوك يا امير المؤمنين
قال : لم يكن لنا عدو اكثر خيانة واخبث نفساً منك .. خذه يا غلام ..
ففصل السيف رأسه عن جسده في ساحة القصر
وامر المأمون فضرب عنق اخيه حبيب
ونظر عندئذ الى يحي بن اكثم قائلا له :
نأمر بان يطوفوا براس علي ، في العراق والشام وخراسان ، ومصر ، وتكتب رقعة تعلق عليه ليقرأها الناس ، اكتب :

« اما بعد ، فان امير المؤمنين ، كان قد دعا علي بن هشام ، فيمن دعا من اهل خراسان ايام الامين ، الى معاونته ، والقيام بحقه ، وكان فيمن اجاب واسرع الاجابة ، وعاون فاحسن المعاونة ، فرعى امير المؤمنين ذلك له ، واصطنعه ، وهو يظن به تقوى الله وطاعته ، والانتهاء الى امر امير المؤمنين ، في عمل ان

اسند اليه في حسن السيرة ، وبدأه امير المؤمنين بالافضال عليه ، فولاه الاعمال ، ووصله بالصلات التي امر امير المؤمنين بالنظر في قدرها فوجدها اكثر من خمسين الف الف درهم ، فمد يده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الامانة ، فباعده عنه واقصاه ، ثم استقال امير المؤمنين عثرته فأقاله اياها ، وولاه الجبل واذربيجان وارمينية ، ومحاربة اعداء الله الخونة على ألا يعود الى ما كان فيه ، فعاود اكثر مما كان ، بتقديمه الدينار والدرهم ، على العمل لله ودينه ، واساء السيرة ، وعسف الرعية ، وسفك الدماء المحرمة ، فوجه امير المؤمنين عجيف بن عنبسة مباشراً لامره وداعياً الى تلافي ما كان منه ، فوثب بعجيف يريد قتله ، فقوى الله عجيفاً ، بنيته الصادقة في طاعة امير المؤمنين ، حتى دفعه عـــن نفسه ، ولو تم ما اراد بعجيف لكان في ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال ، ولكن الله اذا اراد امراً كان مفعولا فلما امضى امير المؤمنين حكم الله في علي ، رأى ألا يؤاخذ من خلفه بذنبه ، فأمر بان يجرى لولده وعياله ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم ، مثل الذي كان جارياً لهم في حياته والسلام »

وامر فعلقت هذه الكتابة على الرأس ، وطيف به في الاقاليم الاربعة الـــتي ذكرت لك ، عبرة لسواه

• • •

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



الثمن

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع